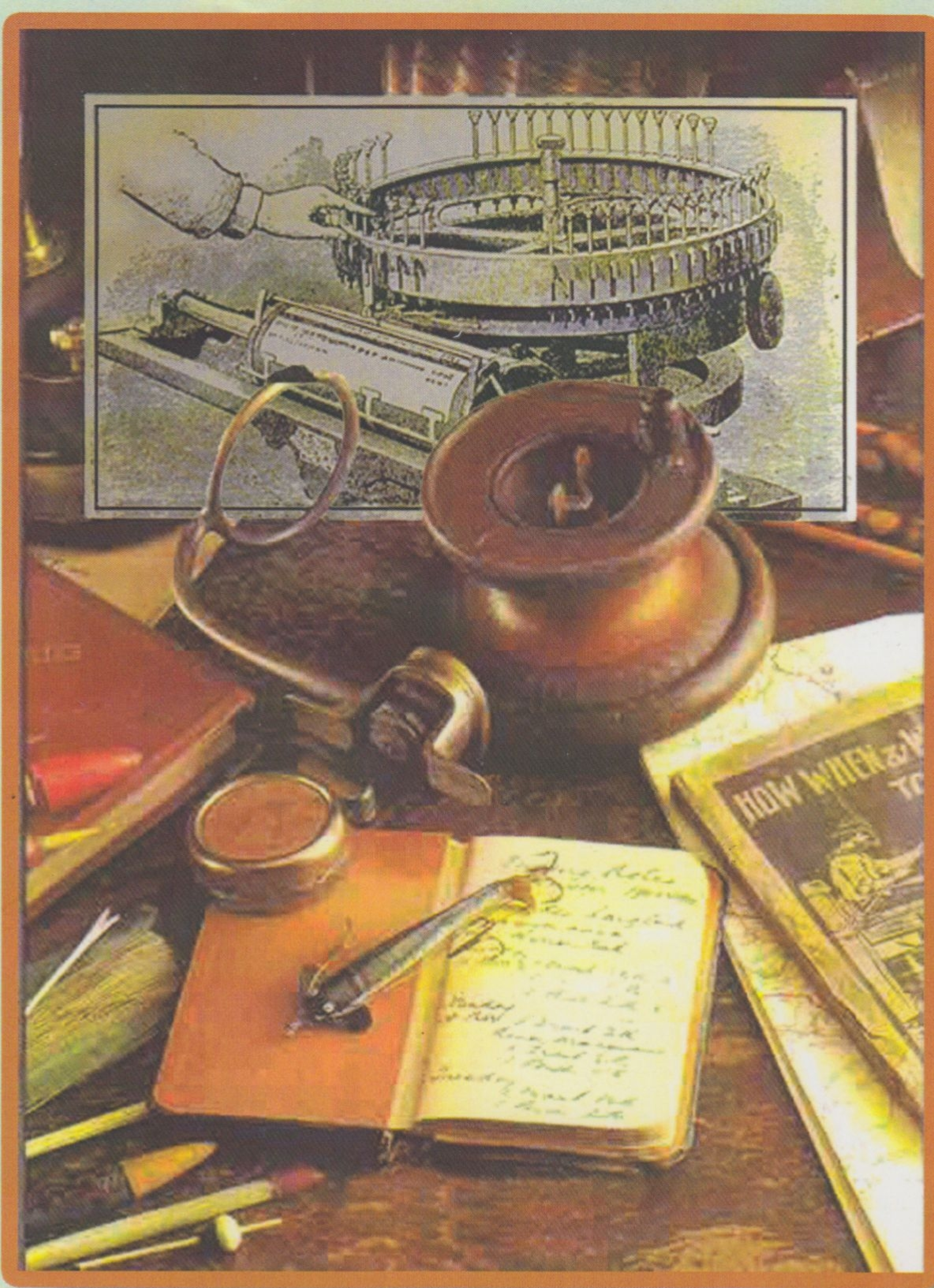
المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة



نظرات جديدة على
الكتابة التاريخية

تحرير
بيتر بوركى

ترجمة وتقديم
قاسم عبده قاسم

1591



سلسلة العلوم
الاجتماعية للباحثين

2

نظـرات جديـدة

على الكتابة التاريخية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1591
- نظرات جديدة على الكتابة التاريخية
- بيتر بوركى
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

New Perspectives On Historical Writing
Second Edition
Edited by Peter Burke

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

نظرات جديدة
على الكتابة التاريخية

تحـــــــريـر : بيتر بوركي

ترجمـة وتقديم : قاسم عبده قاسم



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

نظرات جديدة على الكتابة التاريخية / تحرير : بيتر بوركى،
ترجمة وتقديم : قاسم عبده قاسم
ط ١ ، القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠
٤٠٤ ص ، ٢٤ سم
١ - التأريخ .
(أ) بوركى، بيتر (تحرير)
(ب) قاسم، قاسم عبده (ترجمة وتقديم)
(جـ) العنوان ٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٢٠١٠/٧٨٣٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 035 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

هذا كتاب مهم . ووجه الأهمية فى هذا الكتاب أنه يطرح وجهات نظر جديدة فى مجال الكتابة التاريخية والتفسير التاريخى . وفى هذه الفصول التى يضمها الكتاب يجد القارئ رصداً أكاديمياً لفروع جديدة من العلم التاريخى كتبها اثنا عشر من المتخصصين فى هذه الفروع ؛ وهى تعكس مدى مواكبة الدراسات التاريخية للتغيرات التى طرأت على العالم الذى نعيش فيه ، ومدى انعكاس هذه التغيرات- أيضا - على الفكر التاريخى. ولاشك فى أن الكتاب يعكس تجليات تطور الفكر التاريخى فى الثقافة الغربية المعاصرة على جانبىْ المحيط الأطلنطى ؛ أى فى أوربا وأمريكا الشمالية على وجه خاص. والكتاب - بصفة عامة - يرصد المرحلة الأخيرة من مراحل تاريخ التاريخ عبر الزمان ؛ وهو تاريخ طويل يبدأ من القراءة الأسطورية للتاريخ، ولا ينتهى عند هذه القراءات الاثنتى عشرة التى يضمها الكتاب.

وربما يكون مفيداً ، قبل أن نشرع فى القراءة النقدية لموضوعات الكتاب، أن نحاول أن نتذكر معا المراحل السابقة فى تاريخ التاريخ . وإذا كانت هناك مشكلة دائمة فى التعريف الجامع المانع للتاريخ ؛ فإن رصد مراحل رحلته على مرّ عصور التاريخ الإنسانى ليس بالأمر الذى يصعب متابعته . بيد أنه ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أمرين مهمين : أولهما أن المعرفة التاريخية لم تكن وقفًا على أمة، أو مجموعة من الأمم، دون سائر البشر ، وأن الفكر التاريخى كان رفيقًا ملازمًا للإنسان فى كل مكان وفى كل زمان . وثانيهما : أن المرحلة الحالية من تطور المعرفة التاريخية والفكر التاريخى ، ليست مقصورة على الثقافة الغربية بشقيها الأوربى والأمريكى، حسبما قد يوحى هذا الكتاب الذى لم يستطع التخلص من المركزية الغربية التى حلت محل المركزية الأوربية . ويترتب على هذا أن نكون واعين لحقيقة مهمة مؤداها أن التاريخ- بكل ما يحمله المصطلح من دلائل ومضامين - لم يصل إلى هذه الدرجة من التطور فى جميع الثقافات المعاصرة بطبيعة الحال. ويترتب على ذلك بالضرورة أن ندرك أن هذا الكتاب يعكس الحال فى الثقافة الغربية وحدها . صحيح أن العلم التاريخى فى الثقافة الغربية المعاصرة ينتج الأفكار والنظريات ووجهات النظر الرائدة فى هذا الميدان ؛ وهو ما يعكس التقدم فى الوعى الغربى مثلما يعكس التقدم الذى يتمتع به الغرب على كل

المستويات، وصحيح أيضًا أن بعض مناطق العالم الأخرى تجنى ثمار هذا التقدم فى مجال الفكر التاريخى والمعرفة التاريخية؛ ولكن الصحيح ، أيضا ، أن الفكر التاريخى والمعرفة التاريخية لدى أمم الأرض الأخرى مختلفة ومغايرة ؛ ولكنها ليست بالضرورة متخلفة .

وإذا كانت بعض الدراسات الواردة فى هذا الكتاب قد حاولت التملص من المركزية الغربية؛ فإن البعض الآخر استسلم تمامًا لهذه المركزية ووقع فى شباكها حيث ظن أصحابها أن المشكلات التى تناولوها مشكلات عمومية يعانيها البشر كلهم ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ؛ وهو أمر سنعود إليه لاحقًا على أية حال.

لقد ولد التاريخ فى رحم الأسطورة ، وتربى فى حجرها حين كان الإنسان بحاجة إلى ترقيع النقص فى ذاكرته . ومن يقرأ الأساطير الأولى يجد فيها كثيرًا من التاريخ ، ومن يقرأ الكتابات التاريخية الباكرة يجدها أجرأ الأساطير. وفى هذه التواريخ / الأساطير كان الخيال يدور حول بذرة من الحقيقة التاريخية ؛ وفى هذه التواريخ / الأساطير أيضا، كان البحث عن الأصول الأولى للجماعات البشرية وأصول الأشياء والظواهر. ولما لم يكن هناك تسجيل لما حدث فى الماضى ؛ فقد ضاعت الذاكرة وكان لا بد من تعويضها بالخيال ؛ فكانت المرحلة الأولى من القراءة التاريخية قراءة «أسطورية» . وفى هذه المرحلة الباكرة من تاريخ التاريخ كان هناك تبرير لسلطة الملوك الذين نسبوا إلى الآلهة ، وعملوا فى حكومات الآلهة ؛ حسبما صورتهم الأساطير. وفى هذه المرحلة الباكرة من تاريخ التاريخ أيضا ، كانت الفعاليات التاريخية من صنع الآلهة، ولم يكن للإنسان سوى دور المفعول به . وفى تلك المرحلة كانت الشفاهية وسيلة نقل المعرفة التاريخية بكل ما تعنيه الشفاهية من إعادة صياغة مستمرة للخبر التاريخى بحيث يحمل طبقات فوق طبقات من التفسيرات عبر الأجيال .

وإذا كان البعض يربط ظهور «التاريخ» بظهور الكتابة لدرجة أنهم يذهبون إلى استخدام مصطلح غريب وخاطئ هو مصطلح «ما قبل التاريخ» ؛ فإن وجه الخطأ فى هذا الاستخدام أن «التاريخ» بدأ مع وجود الإنسان ، وليس مع وجود الكتابة . فقد ظهرت الكتابة بعد زمن طويل من وجود الإنسان؛ وفى أماكن محدودة جدا من العالم القديم، ولم تسجل سوى شهادات «تاريخية» جزئية من وجهة نظر من كان بوسعهم استخدام الكتابة لخدمة أهدافهم ؛ أى الحكام ورجال الدين العاملون فى خدمتهم. ومنذ ذلك الحين كان التاريخ مرادفًا لسير الحكام والقادة والنخب التى تحيط بهم. ولم يكن هناك مجال للأفراد العاديين والجماعات العادية من

صناع التاريخ الحقيقيين بطبيعة الحال. وقد طالت هذه المرحلة فى تاريخ التاريخ أكثر من غيرها .

وقد استخدمت الجماعات الإنسانية المختلفة ، فى فترات مختلفة ، المعرفة التاريخية فى خدمة أغراضها الاجتماعية / الثقافية ، وأنتجت الثقافات الإنسانية المختلفة عبر الزمان أنماطًا من المعرفة التاريخية تناسب هذه الأغراض دائمًا . بيد أن الإنسان، بوصفه فردًا فى جماعة ، كان على الدوام موضوع «التاريخ» عند كل جماعة من هذه الجماعات. وكان الأقرب إلينا ثقافيا ذلك التراث الذى خلفته شعوب المنطقة العربية قديما : فى العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر، بطبيعة الحال، ثم التراث اليونانى / الرومانى الذى تُنسب بدايته عادة إلى هيرودوت الإغريقى، وليكون أساسًا للمعرفة التاريخية الأوربية حتى الفترة المعروفة باسم العصور الوسطى الباكرة لتدخل فى فترة سبات ممتدة حتى عصر النهضة .

وكان التراث التاريخى فى إطار الحضارة العربية الإسلامية هو الأرقى والأعلى شأنا فى زمن كان العالم فيه يتحدث العربية، ويقرأ بها، ويكتب بها باعتبارها لغة العلم والمعرفة فى دنيا ذلك الزمان ، شأنها شأن الإنجليزية فى زماننا هذا . وقد تقدم العلم التاريخى بدرجة كبيرة فى رحاب الثقافة العربية الإسلامية ؛ إذ تعددت فروع التاريخ وأنماطه ، كما بدأت دراسة تاريخ التاريخ ، وظهرت فلسفة التاريخ، ولمعت فى سماء المعرفة التاريخية أسماء كثيرة من المؤرخين المسلمين من العرب والفرس والأتراك ... وغيرهم . ومن المهم أن نشير هنا إلى أن التراث التاريخى فى الثقافة العربية الإسلامية ضم إسهامات المسلمين فى الفكر التاريخى وفى الكتابة التاريخية فى مناطق امتدت ما بين حدود الصين شرقًا، حتى الأندلس وشواطئ المحيط الأطلنطى الأفريقية غربًا؛ وهى مناطق تضم الآن ثقافات متنوعة متمايزة . والحديث عن تراث المعرفة التاريخية لشعوب هذه المناطق فى فترة السيادة الإسلامية ينطبق بالضرورة على تراث الثقافة العربية الإسلامية عمومًا فى مجال الفكر التاريخى .

وعلى الجانب الآخر ، كانت أوربا تنفض عن نفسها غبار التخلف الذى عانته فى فترة سيادة الكنيسة الكاثوليكية والإقطاع، وتتحرر من إسار النظرة الضيقة التى حبستها فيها أفكار سان أوجسطين ، المعلم الأول للكنيسة اللاتينية ، وتقاوم محاكم التفتيش وتعنت رجال الدين ؛ لكى تنجح فى شق طريقها نحو التقدم الذى جعلها القوة الأولى فى العالم على المستوى العسكرى والاقتصادى منذ القرن التاسع عشر فصاعدًا . وصاحب ذلك الصعود فى

القوة الأوربية فى العصر الحديث ثقة بالنفس عززتها الإنجازات العلمية والفكرية الأوربية على شتى الأصعدة ؛ ولم يكن التاريخ استثناء فى ذلك بطبيعة الحال . وأحرز العلم التاريخى انتصارات هائلة فى أوربا وفى امتدادها الأمريكى فى القرنين التاسع عشر والعشرين؛ فظهرت نظريات كثيرة، ومهمة ، للتفسير التاريخى، كما تعددت فروع العلم التاريخى بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ الإنسانى . وصار الفكر التاريخى فى أوربا وأمريكا ملهمًا للباحثين والمؤرخين فى بقية أنحاء العالم.

وإذا كان القرن العشرون يوصف عادة بأنه قرن الإيديولوچيا والحروب العالمية ، فإنه كان أيضا عصر الثورات وحركات التحرر من الاستعمار على المستوى السياسى والعسكرى، كما كان عصر التمرد على المركزية الأوربية ، والمركزية الغربية بجناحيها الأوربى والأمريكى على المستوى الاقتصادى والفكرى. وقد كانت لذلك انعكاسات بطبيعة الحال فى مجال الفكر التاريخى ، حيث اتجه عدد من الباحثين والدارسين بشكل مطرد صوب دراسات تاريخية من نمط جديد ؛ وكان بعضها مسرفًا فى الجدة والطرافة بحيث دخل فى نطاق اللامعقول ؛ ولكن البعض الآخر كان بحق استكشافًا جادًا لمناطق جديدة فى الفكر التاريخى الإنسانى لم يسبق أن كانت مجالاً للبحث والدراسة ؛ وإن كانت موجودة على الدوام فى تاريخ التاريخ.

وجاء القرن الحادى والعشرون بعد انهيار الثنائية الدولية ما بين العالم الرأسمالى والاتحاد السوفيتى السابق، ومحاولة الترويج السياسى والفكرى للعولمة، وأوهام «نهاية التاريخ» ، وتخاريف «صراع الحضارات» . ولكن وراء هذه اللافتات الضخمة كانت تجرى محاولات دؤوب لترسيخ فروع جديدة من العلم التاريخى، تهتم بالإنسان الفرد، أو الجماعات الصغيرة ، فيما عرف باسم «التاريخ المصغر»، وتعيد النظر فى موضوعات قديمة مثل التاريخ السياسى، وتستشرف آفاقًا جديدة فى تاريخ البيئة وتاريخ الجسد والتاريخ المرئى ؛ وتعيد الاعتبار إلى التاريخ الشفاهى وإلى السرد التاريخى ...

وهذا كله ما يحمله هذا الكتاب الذى نقدمه فى اللغة العربية للمرة الأولى ؛ ويبدو مناسبًا ، ومهمًا أيضا، أن نقدم للقارئ العربى رأينا فى هذه الدراسات الشيقة والجادة التى قدمها المشاركون فيه ؛ وهى آراء لاتخلو من النقد والمخالفة ، بل القسوة أحيانا أخرى، ولكن هذا النقد وهذه القسوة لاتقلل من تقديرنا الكبير لآراء أصحاب هذه الدراسات وبحوثهم الجادة.

يضم هذا الكتاب اثنتى عشرة مقالة شارك فى كتابتها أحد عشر باحثًا . ويحوى تنويعة

من الدراسات الجديدة حقق بعضها هدفه باقتدار علمى مدهش ، وأخفق البعض الآخر فى الوصول إلى مقصده فأربك وارتبك . وفى الدراسة الأولى يكتب بيتر بوركى دراسة ممتعة عن «التاريخ الجديد – ماضيه ومستقبله» ، وقد قام بمسح شبه كامل لما جرى فى غضون السنوات الأخيرة، بعد منتصف القرن العشرين، فى مجال الدراسات التاريخية ، وقدّم تعريفا لـ «التاريخ الجديد» الذى وصفه بأنه يهتم بكل نشاط بشرى حقًا ، وحدد نقاط التناقض بين «التاريخ القديم» و«التاريخ الجديد» فى سبع نقاط نقلت وجهة نظره كاملة ، كما ناقش مدى تأثر «التاريخ الجديد» بالتيارات الفكرية الجديدة فى الغرب.

بيد أن المركزية الغربية ، التى حلت محل المركزية الأوربية ، حالت بين هذا الباحث الذكى وبين النظر إلى خارج تراث الكتابة التاريخية الأوربية ، على الرغم من أن دراسات أخرى فى هذا الكتاب أولت اهتمامها لما يحدث خارج هذا النطاق .

ولست أقصد أن أتابع فهرس المحتويات فى هذا الكتاب بطبيعة الحال؛ ولكننى سأحاول أن أرصد الدراسات التى أرى أنها تضيف جديداً إلى العلم التاريخى، وغيرها من الدراسات المثيرة للجدل ، والتى لا أتفق مع ما تطرحه من وجهات نظر لسبب أو لآخر.

فالدراسات التى تحمل عنوان «التاريخ من أسفل» لجيم شارب ، و « وتاريخ ما وراء البحار» لهينك ويسيلنج، و«التاريخ الشفاهى» لجوين برينس ، و«تاريخ القراءة» لروبرت دارنتون ، و«التاريخ البيئى» لريتشارد جروف و «تاريخ الحوادث وإحياء السرد» لبيتر بوركى ، تمثل فى مجملها إضافات حقيقية للعلم التاريخى. ففى دراسة «التاريخ من أسفل» عملية تشبه القراءة الشعبية للتاريخ ؛ أى دراسة التاريخ من وجهة نظر صناع التاريخ الحقيقيين من عامة الناس والبسطاء ؛ الجنود بدلاً من القادة ، والعمال والمزارعون بدلاً من الحكام والقادة والملوك؛ ومن ناحية أخرى يثير جيم شارب فى هذه الدراسة أسئلة جديدة ومهمة عن حدود«التاريخ من أسفل» ، ومدى تعارضه – أو اقترابه – مع «التاريخ من أعلى» . والدراسة تطرح مقاربة جيدة للكشف عن قصة الإنسان في الكون.

وربما يقترب من هذا النوع الجديد من فروع الدراسة التاريخية تلك الدراسة التى كتبها چيوفانى ليڤى بعنوان » عن التاريخ المصغر» . ففى هذه الدراسة يقترح الكاتب مقاربة تاريخية على مستوى مصغر؛ مثل دراسة فرد ما، أو تاريخ أسرة ما ، أو قرية صغيرة فى منطقة ما ، على اعتبار أن مثل هذه الدراسات التاريخية المصغرة يمكن أن تكشف عن جوانب

عميقة فى التاريخ الإنسانى لا تتيحها الدراسات التاريخية على نطاق أكبر . وعلى أية حال، فإن التاريخ المصغر مقاربة لم يعرفها الباحثون قبل سبعينيات القرن العشرين ؛ وهى مقاربة مثيرة للجدل حتى الآن، ولم ترسخ تماماً فى مجال البحث التاريخى.

أما «تاريخ ما وراء البحار» ؛ فهو فرع من الدراسات التاريخية يشى عنوانه بقدر كبير من المركزية الأوربية ؛ فهو يتناول كل ما هو خارج أوربا ، بحيث يشمل أمريكا نفسها بهذا المفهوم. ويحاول هينك ويسيلنج فى هذا المقال القيام بمسح شامل لما نشر من الكتب والدراسات مما يمكن تصنيفه تحت هذا العنوان ؛ وهو فرع مشابه إلى حد كبير لما يطلق عليه باحثون آخرون «التاريخ الإمبريالى»، أو «التاريخ الاستعمارى» . ويقول الباحث إنه بديل لكل منهما بسبب كراهية الناس لهما. وفى تصورى أنه فرع من تاريخ العالم . ولكن المثير فى هذه الدراسة أنه يكشف عن مدى إسهام الباحثين الغربيين فى دراسة مناطق المستعمرات السابقة من ناحية، وعن اضطرار الأوربيين للاعتراف بأن «التاريخ» كان موجوداً فى أفريقيا وآسيا وغيرهما من المناطق التى وصمتها العنصرية الأوربية من قبل بأنها «مناطق غير تاريخية». ومن ناحية أخرى تكشف هذه الدراسة عن ازدهار الفكر التاريخى والكتابة التاريخية على أيدى عدد من الباحثين فى أوربا وآسيا وغيرهما ، لقد كان إسهام أبناء المناطق التى حكمها الاستعمار الأوربى من قبل فى الدراسات التاريخية بمثابة نقلة نوعية مهمة، من ناحية، كما كان ضربة موجعة للمركزية الغربية من ناحية أخرى .

و«التاريخ الشفاهى» الذى كتب عنه جوين برينس ممارسة قديمة فى عالم البحث التاريخى؛ وهى ممارسة تتصل بفروع أخرى من العلوم مثل الأنثروبولوجى والموروث الشعبى. وتشير هذه الدراسة بشكل واضح إلى حقيقة أن التاريخ الشفاهى مرتبط إلى حد كبير بتطور الفكر الإنسانى من ناحية ، وانتشار الكتابة والتعليم من ناحية أخرى. وأهم ما تلفت إليه الدراسة نظر القارئ أن كل ما نظن أنه مكتوب هو نص منقول عن نص شفاهى فى حقيقة الأمر.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن اختراع الكتابة ، ثم الطباعة، والوسائط الالكترونية من بعدها ، لم يقلل أبداً من دور الشفاهية فى حياتنا . فنحن نعتمد على الشفاهية فى المدرسة والجامعة من خلال الدروس والمحاضرات، ونعتمد على الشفاهية فى الندوات والاجتماعات على المستويات كافة ؛ ونعتمد على الشفاهية فى الإذاعة والتليفزيون بدرجة كبيرة على الرغم من وجود الوسائط الأخرى المرئية والمقروءة؛ وهو الأمر الذى يجعل التاريخ الشفاهى ممارسة راسخة لدى جميع الجماعات الإنسانية.

ولكن الفضل الذى يجب أن نعترف به لجوين برينس فى هذه الدراسة المدهشة يتمثل فى أنه يعيد تأمل الإجراءات المنهجية المرتبطة بالتاريخ الشفاهى من جهة ، ويكشف عن الروابط الوثيقة بين نمطين آخرين من أنماط الدراسة التاريخية التى تضمنتها صفحات هذا الكتاب ، وهما «التاريخ من أسفل» ، و«التاريخ المصغر» من جهة ثانية، فضلاً عن أنه يشير إلى ما يسميه «هجرة» المؤرخين إلى هذا النوع من الدراسة التاريخية من جهة ثالثة.

وتمثل الدراسة التى تحمل عنوان «تاريخ القراءة» التي كتبها روبرت دارنتون نقطة مضيئة أخرى فى هذا الكتاب المهم؛ فهى دراسة تتضافر فيها الحدة والجدية، مع التدقيق والرصانة، لكى تقدم جانبًا مهمًا من جوانب التاريخ الفكرى والثقافى العام . وفى عرضه لأهم الإسهامات التى قدمها المؤرخون فى هذا المجال، يتخلى الكاتب عن المركزية الغربية ليشير إلى بعض الإسهامات خارج أوربا فى هذا المجال . بل إنه يقدم لنا جانبًا من تاريخ التعليم فى أوربا، وتطور طرق القراءة والكتابة، وتاريخ المكتبات ، فى أسلوب ممتع ومدهش فى آن معًا . والدراسة ، بشكل عام، عبارة عن دعوة مفتوحة للدخول إلى عالم «تاريخ القراءة» الرحب .

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الدراسة تكشف عن مأزق الدراسات التاريخية شديدة التخصص . ذلك أن النظرة الفاحصة لهذه الدراسة توضح بجلاء أن «تاريخ القراءة» يرتبط بعدة جوانب أخرى مثل تاريخ الكتابة ، وتاريخ التعليم، وتاريخ المكتبات وتاريخ الطباعة ... وما إلى ذلك ؛ فضلاً عن التاريخ الفكرى والتاريخ الثقافى بصفة عامة. ومن ثم ، فإن تقسيم الدراسات التاريخية بهذا الشكل الفسيفسائى لن يغنى عن المجرى العام للعلم التاريخى من ناحية ، وضرورة الاعتراف بأهمية تواصل الدراسة التاريخية مع الفروع الأخرى من الدراسات الإنسانية والاجتماعية من ناحية أخرى.

ويأتى «التاريخ البيئى» ليؤكد على العلاقة العضوية التى تربط بين البيئة والتاريخ باعتبار أن التاريخ في التحليل الأخير محصلة التفاعل بين الإنسان وبيئته فى إطار الزمن، وعلى اعتبار أن البيئة بملامحها الجغرافية تمثل «مسرح التاريخ» حسبما يحب كثير من الباحثين القول . وفى هذه الدراسة يعاود ريتشارد جروف – فى لغة منهجية هادئة– تأكيد هذه الحقيقة التى كانت من أهم دعائم نظرية ابن خلدون فى التاريخ فى تراث الفكر التاريخى العربى الإسلامى، والتى لا تزال تحمل الكثير من صلاحيات التفسير التاريخى . كما كانت ملهمة لنظريات كبرى فى التفسير التاريخى حديثا ؛ مثلما كان الحال فى الماركسية وفي دراسة

توينبى القائمة على التحدى والاستجابة . وعلى الرغم من أن جروف يلوم توينبى لأن مفردات البيئة لم ترد فى دراسته الرائعة ؛ فإن نظرية توينبى بأسرها تقوم على فكرة التحدى الذى تطرحه البيئة بمعطياتها ، واستجابة الإنسان لهذا التحدى، ومدى نجاح هذه الاستجابة أو فشلها ، وتأثير ذلك على الحضارات من حيث نشأتها أو سقوطها. وهذه الدراسة تحاول تعريف التاريخ البيئى، وتبين كيف أنه كان تطوراً طبيعيا للجغرافيا التاريخية. ولأن هذا الفرع من الدراسة التاريخية حديث نسبياً ؛ فإن الإسهامات فيه من خارج أوربا وأمريكا الشمالية كبيرة ومتنوعة ؛ وهو ما يرصده كاتب هذه الدراسة فى سطور تحمل رنة الترحيب والعرفان.

وعلى أية حال، فإن هذا الفرع الجديد من الدراسة التاريخية، التى ترصد دورة الحياة على الأرض بجوانبها البشرية والبيئية ، يسهم بقدر كبير فى الخروج من القالب الجامد الذى يتمسك به بعض الذين يزعمون الانتساب إلى المهنة التاريخية ؛ وربما تفتح عيون البعض- وعقولهم أيضا- ممن لا يزالون يمارسون عملية القص واللصق ليوهموا أنفسهم بأنهم يدرسون التاريخ. فلاشك فى تأثير البيئة على التاريخ الإنسانى، ولكن لاشك أيضا فى أن تاريخ البيئة نفسها قد ترك تأثيراً واضحاً على تاريخ الإنسان ؛ فهل كان ممكناً أن يتخذ التاريخ الإنسانى المسار الذى اتخذه لولا التغيرات المناخية ، والظواهر الطبيعية المختلفة، التى تركت بصمتها هنا وهناك على وجه الكرة الأرضية ؟ إن كثيراً من الأعمال التى تنسب نفسها ، أو ينسبها أصحابها إلى الفكر التاريخى تخلو من قراءة العامل البيئى فى صنع التاريخ.

إن «التاريخ البيئى» الذى يقدمه ريتشارد جروف فى هذه الورقة المهمة من هذا الكتاب، وما تضمه الدراسة من معلومات عن الإسهامات المتنوعة فى هذا المجال، بمثابة إعادة تأسيس للعلاقة بين البيئة والإنسان لاسيما أن عدوان الإنسان على البيئة قد بات يهدد بنهاية «تاريخ الإنسان» نفسه.

والدراسة الأخرى المهمة فى هذا الكتاب هى الدراسة التى قدمها بيتر بوركى، الذى قدم الدراسة الأولى فى الكتاب ، لتكون آخر الدراسات التى يضمها الكتاب بعنوان «تاريخ الحوادث وإحياء السرد». وفى هذه الدراسة الممتعة نجد مواجهة بين السرد والبناء أو بين ما عرف باسم التاريخ البنيوى والتاريخ السردى، ويكشف الكاتب كيف أن التاريخ البنيوى قد فشل فى إزاحة السرد من على مسرح تاريخ الكتابة التاريخية، وكيف عاد السرد من جديد ليكون أساساً فى المادة التاريخية .

والواقع أن السرد كان صفة جوهرية ملازمة للتاريخ منذ بداية رحلة التاريخ أو تاريخ التاريخ ؛ بل إن السرد لايمكن أن يختفى من الحياة الفكرية والثقافية للبشر بصفة عامة . ذلك أن «الحكى» من خصائص التفاعل الإنسانى، كما أن السرد ليس بقصد الثرثرة وقطع الوقت؛ وإنما بقصد نقل المعلومات والأخبار والأفكار بين الأفراد والجماعات البشرية فى الحاضر، مثلما كان الأمر فى الماضى، ومثلما سيكون عليه الأمر فى المستقبل أيضا. بيد أن بوركى فى هذه الدراسة يستعرض تاريخ المواجهة بين البنيوية والسرد فى تاريخ الكتابة التاريخية الغربية على جانبي المحيط الأطلنطى ، كما يستعرض تأثير التيارات الفكرية الحديثة مثل البنيوية وما بعدها ، والحداثة وما بعد الحداثة ، فضلاً عن آراء فوكو، فى ممارسات الكتابة التاريخية فى الغرب. وعلى الرغم من أن الدراسة قد كشفت عن عودة تاريخ الحوادث وإحياء السرد، على حد تعبيره ، فإن السرد العائد لم يكن هو نفسه ذلك النمط القديم من السرد .

هذه الدراسات التى عرضنا لها فى السطور السابقة تمثل، فى ظنى، الجوانب الأكثر إيجابية فى هذا الكتاب ؛ ولكن هناك دراسات أخرى أعتقد أنها فشلت فى الوصول إلى هدفها أو إقناع القارئ بجدواها . ففى الدراسة التى تحمل عنوانًا واعدًا ومثيرًا «التاريخ المرئى» فشل إيڤان جاسكيل فى تحقيق الوعد الذى يحمله عنوان دراسته إلى حد كبير . وربما كان ذلك راجعًا إلى أنه ركز فى كثير من الأحيان على قراءة كتالوجات معارض الفنون التشكيلية ، وعلى الجوانب التقنية فى الرسم، وعلى طبيعة عمل الخبراء المثمنين وارتباطهم بتسويق الإنتاج الفنى ، وما إلى ذلك. فقد تخلى عن قراءة المضامين الاجتماعية / الثقافية التاريخية فى الفنون؛ وتنازل عن تحليل المحتويات التاريخية للصور الثابتة والصور السينمائية التسجيلية والدرامية لصالح فكرة المعارض والسوق . ومن ناحية أخرى كانت مركزيته الثقافية الغربية عائقًا حقيقيًا أمامه بحيث لم يستطع أن يرى الجوانب العالمية الأخرى للتاريخ المرئى. وعلى أية حال، فإن هذه الدراسة لا تخلو من فائدة ؛ فهى تنبه الباحثين والمؤرخين إلى أهمية «التاريخ المرئى» الذى يمكن أن نجده فى الصور، وفى الصحف والمجلات ، وفى الأفلام الوثائقية وفى الأخبار التليفزيونية ، وفى المواقع المختلفة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) فضلاً عن أنماط الفنون التشكيلية المختلفة، والعمارة وفنون الديكور ... وما إلى ذلك .

ولكن الدراسة التى تحمل عنوان «تاريخ المرأة» لچان سكوت إخفاق حقيقى بسبب تهافت الأسس الموضوعية التى قامت عليها؛ وقد تحول كثير ممن كانوا من المتحمسين لـ «تاريخ

المرأة» إلى ما يسمى «تاريخ النوع» لهذا السبب . وليس من الممكن بأى حال تصور نوعين منفصلين من البشر لكل منهما تاريخ خاص به ؛ فالتاريخ فعل إنسانى يقوم به البشر من الذكور والإناث ؛ أى من الرجال والنساء على حد سواء ، ولم يحدث فى التاريخ أن كانت هناك مجتمعات ذكورية خالصة أو مجتمعات نسائية خالصة ، ولأن الموضوع يدخل فى باب الحركات النسوية المطالبة بالمزيد من حقوق المرأة على أساس من تراث ثقافي غربى طويل وممتد فى اضطهاد المرأة - مثلما تكشف الدراسة التى تحمل عنوان «إعادة النظر فى تاريخ الجسد»- فإن هناك ارتباكًا بين رصد تطور هذا الفرع المصطنع من فروع الدراسات التاريخية، وبيان النجاح الذى حققته المؤرخات فى عضوية المجالس العلمية ، أو اعتماد تدريس تاريخ النساء. ويلفت النظر هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تقريبا هى التى تشهد مثل هذه المحاولات ، وقد حاولت الكاتبة أن تستعرض المناقشات التى جرت بين أنصار «تاريخ المرأة» ومن يرون تعديله إلى «تاريخ النوع»؛ ولكن الدراسة بشكل عام ضعيفة . وفى رأيى أنها تمثل نقطة الضعف الأساسية فى هذا الكتاب .

أما «تاريخ الجسد» الذى تناوله «روى بورتر»، فكان إخفاقًا آخر، حاول أن يجمع شظايا وشذرات من مجالات مختلفة ليصطنع منها تاريخًا خاصًا ، ولأن الجسد ليس كائنا مستقلاً بذاته عن الإنسان الذى يحمله بما فيه من خصائص لامادية وغير جسدية مثل العقل والروح والغرائز والعواطف ، وغيرها ، مما يجعل الإنسان فاعلاً تاريخيا حقيقيًا ، فإن من المستحيل اصطناع تاريخ الجسد وحده ؛ وهذا هو السبب الذى جعل كاتب هذه المقالة يتنقل فى ارتباك واضح من منطقة إلى أخرى فى مجال البحث التاريخى ، فقد تحدث عن الجنس، لينتقل إلى مناقشة تراتبية العقل / الجسد فى الثقافة الأوربية ، قديمها وحديثها ، ومكانة جسد المرأة فى ظل تخلف علوم الأحياء (البيولوچى) ووظائف الأعضاء (الفسيولوچى) الأوربية حتى القرن التاسع عشر. كما تحدث عن تجسيد النموذج الإيديولوچى، ودخل إلى منطقة الشذوذ الجنسى والكوميديا المكشوفة جنسيا ، ولم تستطع هذه الدراسة أن تتخلص إطلاقًا من نقيصتين أساسيتين ، أولاهما : المركزية الغربية التى جعلت صاحب هذه الدراسة يحصر حديثه وبحثه فى نطاق التراث الغربى والفكر الغربى بمراحله المختلفة ، وثانيتهما : ذلك الإقحام الفج للحديث عن اليهود دونما مبرر علمى ؛ عندما تحدث عن «الجسد اليهودى»، وكأن الجسد أيضا يكتسب ملامح وخصائص تكشف عن دين صاحبه !!

وعلى الرغم من أن بعض المعلومات الواردة فى الدراسة تتسم بقدر كبير من الأهمية ، فإن البنية المنهجية مرتبكة مشوشة بسبب عدم تماسك الموضوع نفسه من ناحية، وبسبب عدم قدرة الباحث على تقديمه بشكل يقنع القارئ من ناحية أخرى .

وآخر دراسة نعرض لها فى هذه المقدمة هى دراسة ريتشارد توك التى تحمل عنوان «تاريخ الفكر السياسى»؛ وهى دراسة تقع فى منطقة الحدود بين التاريخ والعلوم السياسية ، وتتمثل جوانب القصور والضعف فى هذه الدراسة فى حقيقة أن رؤية مؤلفها انحصرت فى النطاق الغربى ، وفى الفترة الحديثة والمعاصرة من تاريخ الفكر الأوربى والأمريكى عموما ، وعلى الرغم من أن المؤلف أورد عدداً مهماً من أسماء الباحثين وعناوين الكتب والدراسات التى صدرت فى هذا الموضوع، فإن الدراسة لم تقدم رؤية متمايزة فى مجال شديد الخصوصية ، كما أن تراث تاريخ الفكر السياسى على المستوى الإنسانى العام شديد التنوع والغنى ، وهو ما لم ينتبه إليه كاتب هذه المقالة على الإطلاق .

* * *

الخلاصة : أن هذا الكتاب يمثل لبنة مهمة، وإضافة مدهشة لتاريخ الكتابة التاريخية بشكل عام ، وإذا كان العنوان الذى يحمله الكتاب يعدنا بوجهات نظر جديدة فى الكتابة التاريخية؛ فقد أنجز الكتاب وعده إلى درجة كبيرة ، وسوف يرى القارئ العربى فى هذه الترجمة – التى تنقل الكتاب إلى العربية للمرة الأولى– مدى صدق الذين أسهموا فى فصول هذا الكتاب فى وعدهم الذى حمله عنوان الكتاب.

أما عن الترجمة، فإن الإبحار فى أذهان أحد عشر باحثًا وباحثة، يختلفون فى بنيتهم العقلية، وطرق تفكيرهم، وأساليبهم اللغوية – عملية شاقة ومرهقة بلا جدال ، وعندما لا يكون الكاتب متمكنا من موضوعه ترتبك لغته ويكثر لجوؤه إلى المجاز والإحالات النظرية المعقدة التى تجعل القارئ رهين سوء الفهم الذى يعانيه المؤلف نفسه. وقد عانيت هذا بالفعل فى حالتين عن تاريخ المرأة وعن تاريخ الجسد، وقد استنفدتا من جهدى أكثر مما استنفدته المقالات العشر الأخريات ، بيد أن هذه ليست شكوى لا تهم القارئ ، ولكنها توضيح واجب لمشاق الترجمة.

ومع هذا ؛ فإننى التزمت بالمعنى الحرفى لكلمات المؤلفين دائمًا ، مع الحرص الدائم على صياغتها صياغة عربية سليمة من الناحية الأسلوبية والبلاغية فى حدود قدراتى ، وفى جميع الأحيان كنت أضع أسماء الأعلام باللغتين العربية والأصلية، كما حرصت على إيراد عناوين الكتب بلغاتها الأصلية فى كل الأحوال .

ومن ناحية أخرى، فقد حرصت عند الضرورة على أن أوضح بعض الإشارات التى وردت فى النصوص الأصلية إلى بعض النواحى التاريخية أو الدينية أو الفكرية مما قد يكون القارئ العربى يحتاج إلى معرفتها ، فى هوامش قصيرة موجزة ؛ كما أننى حرصت على توضيح وجهة نظرى فى بعض الأمور الخلافية فى هوامش الترجمة العربية. ولن تخلو هذه الترجمة من الأخطاء والقصور بطبيعة الحال، وهو ما أتمنى أن يسامحنى فيه، ويرشدنى إليه، كل من يكتشفه من القراء .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مدينة ٦ أكتوبر - ديسمبر ٢٠٠٩م

مقدمــــة

من أجل هذه الطبعة الثانية من كتاب «نظرات جديدة» كتبت فقرات قليلة عن البحوث الحالية فى تاريخ الكتاب، والتاريخ الثقافى، والتاريخ الصغير، وذلك لتحديث الفصول التى كتبها كل من روبرت دارنتون، وريتشارد توم، وچيوڤانى ليڤى. وبما أننى المسئول عن هذه التعليقات الخاصة بالتطورات الحديثة، فإنها تتوافق مع خطواتى الأولى.

بيتر بوركى

(١)

فاتحة

التاريخ الجديد : ماضيه ومستقبله

بيتر بوركى

فى الجيل الأخير ، تقريبا ، كان عالم المؤرخين قد توسع بمعدل مربك . إذ إن التاريخ الوطنى، الذى ساد فى القرن التاسع عشر ، يواجه الآن منافسة من التاريخ العالمى والتاريخ المحلى (الذى كان متروكًا لمحبى الآثار والهواة) من أجل لفت الانتباه . فهناك الكثير من المجالات الجديدة التى تساندها المجلات المتخصصة فى أغلب الأحيان، فقد صار التاريخ الاجتماعى ، مثلاً ، مستقلاً عن التاريخ الاقتصادى ، لكى يتشعب بدوره، مثل بعض الدول الجديدة، إلى «علم السكان التاريخى» ، «وتاريخ العمل» ، و«التاريخ الحضرى» ، و«التاريخ الريفى»، وهلم جرا .

كما أن التاريخ الاقتصادى انقسم إلى «قديم» و «جديد» . و«التاريخ الاقتصادى الجديد» ، الذى عرفته خمسينيات القرن العشرين وستينياته (وهو الآن فى منتصف العمر إن لم يكن كهلاً)، معروف تمامًا بحيث لا ضرورة إلى مناقشته هنا [١]. كذلك تحول مؤرخو التاريخ الاقتصادى من الاهتمام بالإنتاج صوب الاهتمام بالاستهلاك ، وهو تحول يزيد من صعوبة الفصل بين التاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الاجتماعى ، والتاريخ الثقافى. ويمثل تاريخ الإدارة مجال اهتمام جديداً ، بيد أن هذا الفرع يثير الارتباك إن لم يتم الفصل بين حدود التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى. واليوم، يقع التاريخ الاقتصادى تحت طائلة التهديد بأن يتجاوزه ، ويحل محله ، فرع شاب [من فروع الدراسات التاريخية] ، لكنه طموح، هو تاريخ البيئة .

والتاريخ السياسى أيضًا ينقسم ، ليس فيما بين ما يسمى المدرسة «العليا» والمدارس «الدنيا» فحسب ، وإنما ينقسم أيضا فيما بين المؤرخين المهتمين بمراكز الحكم وأولئك المؤرخين

الذين يهتمون بالشئون السياسية عند القاعدة . ذلك أن مجال التاريخ السياسى قد اتسع ؛ بمعنى أن المؤرخين (وقد تبعوا أصحاب النظريات من أمثال ميشيل فوكو) يتجهون باطراد صوب مناقشة الصراع فى سبيل السلطة عند مستوى المصنع، والمدرسة ، بل والأسرة. وكان ثمن هذا التوسع نوعًا من أزمة الهوية. فإذا كانت السياسات موجودة فى كل مكان، فما الحاجة إلى التاريخ السياسى(٢) ؟ وهناك مشكلة مماثلة تواجه مؤرخى التاريخ الثقافى، من حيث تحولهم من تعريف ضيق ، ولكنه دقيق ، للثقافة بمصطلحات الفن والأدب والموسيقى وما إلى ذلك ، صوب تعريف للثقافة يميل أكثر صوب الأنثروبولوچى (٣). وهذا أحد أسباب الحديث عن زماننا على أنه «زمن أزمة الوعى التاريخى» أو زمن الأزمة فى منهج البحث التاريخى (وثمة أسباب أخرى نقدمها لاحقًا فى هذا الفصل فى القسم الخاص بما بعد الحداثة) (٤).

فى هذا العالم المتوسع المتشعِّب تزداد الحاجة إلى التوجيه . فما الذى يسمى التاريخ الجديد؟ وما مدى جدارته؟ أهو طراز مؤقت عابر أم أنه اتجاه طويل المدى؟ هل سيحل – أو هل يجب أن يحل – محل التاريخ التقليدى، أم أنه يمكن للنوعين المتنافسين أن يتعايشا فى سلام ؟

لقد وضعت خطة هذا الكتاب للإجابة عن هذه الأسئلة . ولن يترك المسح الشامل لتنويعات التاريخ المعاصر مجالاً يتسع لأكثر من المناقشة العابرة على السطح. ولهذا السبب تقرر تركيز الاهتمام على عدد قليل من الحركات الحديثة نسبيا (٥). وتهتم المقالات التى كتبت عن هذه الحركات بالمشكلات الأساسية نفسها، بشكل ضمنى على الأقل. وربما يكون مفيداً أن نواجه هذه المشكلات منذ البداية، وأن نضعها فى سياق التغيرات طويلة المدى فى كتابة التاريخ .

ما التاريخ الجديد؟

إن عبارة «التاريخ الجديد» معروفة بشكل أفضل فى فرنسا. ذلك أن عبارة «التاريخ الجديد "La nouvelle histoire" هى عنوان مجموعة مقالات حررها أستاذ متميز فى تاريخ العصور الوسطى ؛ هو الفرنسى چاك لو جوف Jacque le Goff كما ساعد لوجوف فى تحرير مجموعة مقالات فى ثلاثة مجلدات تهتم بـ «المشكلات الجديدة» و«المقاربات الجديدة» ، و«الأهداف الجديدة» (٦). ويتضح فى هذه الحالات ما التاريخ الجديد : إنه تاريخ «صنع فى فرنسا» بلاد «الموجة الجديدة "La nouvelle vague" ، و «الرواية الجديدة "Le nouveau

roman ناهيك عن «المطبخ الجديد» . وبدقة أكثر هو التاريخ المرتبط بما يسمى «مدرسة الحوليات "ecole des Annales" التى تجمعت حول المجلة التى باتت تعرف باسم :

Annales, économies, Societes, civilisationes (ولكنها غيرت اسمها فى تسعينيات القرن العشرين إلى : Annales : histoire, sciences Sociales .

فما التاريخ الجديد هذا ؟ ليس من السهل وضع تعريف إيجابى، لأن الحركة لم تجتمع سوى على ما تعارضه فقط، وستكشف الصفحات التاليات عن تنويعة من المقاربات الجديدة. ومن ثم سيكون من الصعب أن نقدم ما يتعدى الوصف الغامض، الذى يحدد التاريخ الجديد بأنه تاريخ شامل histoire totale ، أو «تاريخ بنيوى» . ومن ثم ، ربما نكون أمام حالة تقليد لعلماء اللاهوت فى العصور الوسطى عندما واجهتهم مشكلة تعريف «الرب» ، أو تفضيل الطريق السلبى Via negativa ، أى محاولة تعريف التاريخ الجديد بما ليس فيه، أى بما يعارضه المؤرخون الجدد.

فالتاريخ الجديد هو التاريخ مكتوباً باعتباره رد فعل مقصوداً ضد «النموذج» التقليدى، ذلك هو المصطلح المفيد، وإن لم يكن دقيقًا ، الذى نشره مؤرخ العلم الأمريكى توماس كوهن Thomas kuhn . وسيكون من المناسب أن نصف هذا النموذج التقليدى بأنه «التاريخ الرانكى» ، نسبة إلى المؤرخ الألمانى العظيم ليوبولد ڤون رانكه (١٧٩٥- ١٨٥٦م) على الرغم من أنه كان أقل تمسكا به من أتباعه (ومثلما لم يكن كارل ماركس ماركسيًا، لم يكن رانكه رانكيًا). وربما نطلق على هذا النموذج أيضا رؤية «الفطرة السليمة» للتاريخ، ليس بقصد المديح وإنما لتوضيح أنه غالبا- بل فى أغلب الأحيان- ما كان يُفترض أن هذه طريقة عمل التاريخ ؛ بدلاً من اعتبار هذا النموذج إحدى المقاربات المختلفة المتاحة لدراسة الماضى . وربما يمكن أن نوجز ما بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد من تناقض فى سبع نقاط سعيًا إلى التبسيط والوضوح .

١- وفقًا للنموذج التقليدى ، ينصب اهتمام التاريخ على الأمور السياسية بشكل أساسى . وهناك عبارة واثقة تنسب إلى السير جون سيلى Sir John Sealey تقول : إن «التاريخ سياسة الماضى، والسياسة تاريخ المستقبل». إذ كان يُفترض أن تكون الشئون السياسية محل اهتمام الدولة أساساً ؛ وهو ما يعنى - بعبارة أخرى - أن التاريخ كان وطنيا وعالميًا ولم يكن محليًا. ومع هذا فإنه تضمن بالفعل تاريخ الكنيسة باعتبارها مؤسسة ، كما ضم تعريف

المنَظّر العسكرى كارل ڤون كلا وسڤيتز Karl von Clausewitz بأن الحرب «مواصلة السياسة بوسائل أخرى» . وعلى الرغم من أن أنواع التاريخ الأخرى- مثل تاريخ الفن، أو تاريخ العلم- لم تستبعد تماماً من النموذج التقليدى، فإنها كانت هامشية بالنسبة لاهتمامات المؤرخين «الحقيقيين».

ومن ناحية أخرى، صار التاريخ الجديد يحفل بكل أنماط النشاط البشرى فعلاً . إذ إن «لكل شئ تاريخ» على حد تعبير هالدين J.B.S. Haldane الذى كتب هذه العبارة ؛ وهو ما يعنى أن لكل شئ ماضياً يمكن إعادة بنائه من حيث المبدأ وربطه ببقية الماضى[٧]. ومن هنا صار شعار «التاريخ الشامل» عزيزاً جداً على مؤرخى «الحوليات» . وفى السنوات الثلاثين الأخيرة رأينا صدور عدد من كتب التاريخ الممتازة فى موضوعات لم تكن تعتبر من قبيل التاريخ قبل ذلك . مثل ، الطفولة، والموت، والجنون، والمناخ، (وقد ناقشه ريتشارد جروف فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب) ، والروائح ، والقذارة والنظافة، والإيماءات ، والجسد (روى بورتر فى الفصل العاشر) والنسوية (چوان و. سكوت فى الفصل الثالث) ، والقراءة (روبرت دارنتون فى الفصل السابع) ، والكلام، بل والصمت [٨]. وما كان يعتبر غير متغير من قبل يعتبر الآن «بنية ثقافية» تخضع للتغير على مرّ الزمان وعلى اتساع المكان أيضا.

وتستحق النسبية الثقافية الضمنية هنا أن نؤكد عليها . إذ يقوم التاريخ الجديد على أساس فلسفى مؤداه أن الحقيقة مبنية اجتماعياً أو ثقافياً ، وتساعدنا مشاركة كثير من المؤرخين الاجتماعيين والأنثروبولوچيين الاجتماعيين فى هذه الفكرة أو الافتراض على تفسير التقارب الحديث بين هذين العلمين ، وهو ما أشير إليه أكثر من مرة فى ثنايا الفصول التالية. وهذه النسبية الثقافية تدحض أيضا التفرقة التقليدية بين «المركزى» و«الهامشى» فى التاريخ.

٢- يفكر المؤرخون التقليديون فى التاريخ باعتباره سرداً للأحداث فى أساسه ، على حين يهتم التاريخ الجديد بتحليل البنية أكثر من السرد. ويستبعدُ واحدُ من أشهر الكتب فى عصرنا، وهو كتاب «البحر المتوسط» لفرناند بروديل Fernand Braudel تاريخ الأحداث والوقائع ، ويعتبره بمثابة الزبد الذى يطفو فوق موجات بحر التاريخ [٩]. ويقول بروديل : إن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية على المدى الطويل، والتغيرات الجغرافية- التاريخية على المدى الطويل جدا، هى المهمة حقًا . وعلى الرغم من ظهور نوع ما من رد الفعل إزاء هذا الرأى فى الآونة الأخيرة ؛ فإن التاريخ الذى يتناول البنية على اختلاف أنواعها لا يزال يتسم بجدية تامة.

٣- يقدم التاريخ التقليدى رؤية من فوق ، بمعنى أنه دائماً ما يركز على الأعمال العظيمة للرجال العظام ، ورجال الدولة ، والقادة ، أو رجال الكنيسة أحيانا ، ولم يكن هناك سوى دور صغير مكرس لبقية تاريخ البشرية فى دراما التاريخ . ويتجلى وجود هذه القاعدة واضحاً من خلال ردود الفعل تجاه تجاوزاتها . فعندما كان الكاتب الروسى الكبير الكسندر بوشكين يكتب رواية عن ثورة الفلاحين وزعيمها بجتشيف ، كان تعليق تسار نيكولاس Tsar Nicolas «مثل هذا الرجل لاتاريخ له». وعندما كتب مؤرخ بريطانى، فى خمسينيات القرن العشرين، رسالة عن الحركة الشعبية فى الثورة الفرنسية ، سأله واحد من الممتحنين «لماذا تشغل نفسك بهؤلاء اللصوص ؟» (١٠).

ومن ناحية أخرى، (كما يبين چيم شارب فى الفصل الثانى) يهتم عدد من المؤرخين الجدد بـ «التاريخ من أسفل» . أى برأى الناس العاديين وتجربتهم فى التغير الاجتماعى وقد اجتذب تاريخ الثقافة الشعبية قدراً كبيراً من الاهتمام . كما أن مؤرخى الكنيسة أخذوا فى دراسة تاريخها من أسفل ومن أعلى سواء بسواء (١١). والمؤرخون الفكريون أيضا أخذهم الاهتمام بعيداً عن الكتب العظيمة، أو الأفكار العظيمة، وما يعادلها من عظماء الرجال، إلى تاريخ العقليات الجماعية، أو تاريخ الخطاب، أو اللغات؛ مثل لغة المذهب المدرسى، أو لغة القانون العام (الفصل التاسع) (١٢).

٤- وفقًا للنموذج التقليدى، كان لابد للتاريخ أن يقوم على أساس «الوثائق» فقد تمثل أحد أهم إنجازات رانكه فى أنه كشف جوانب القصور فى المصادر السردية- ولنسمها «المؤرخات Chronicles» - وفى تأكيده على الحاجة إلى بناء التاريخ المكتوب على أساس السجلات الرسمية التى أصدرتها الحكومات وتم حفظها فى دور الوثائق والمحفوظات . وكان ثمن هذا الإنجاز إهمال الأنواع الأخرى من الأدلة والبراهين . فقد استبعدت الفترة السابقة على اختراع الكتابة بوصفها «ما قبل التاريخ» . وعلى أية حال، كشفت حركة «التاريخ من أسفل» بدورها عن جوانب القصور فى هذا النوع من الوثائق . ذلك أن الوثائق الرسمية عموما تعبر عن وجهة النظر الرسمية . ولإعادة بناء مواقف الهراطقة والمتمردين فلابد من تدعيم هذه الوثائق بأنواع أخرى من المصادر .

وعلى أية حال ، فإذا كان المؤرخون يهتمون بقدر أكثر تنوعًا من النشاط الإنسانى مما اهتم به أسلافهم ، فإن عليهم أن يدرسوا تنويعة أكبر من الأدلة ، وبعض هذه الأدلة شفوى ،

وبعضها الآخر مرئى (چوين برينس وإيڤان جاسكل فى الفصل السادس والفصل الثامن) . كما أن هناك أدلة إحصائية : مثل أرقام التجارة ، وأعداد السكان ، وأرقام الأصوات الانتخابية ، وهكذا . لقد كانت خمسينيات القرن العشرين وستينياته أيام الذروة بالنسبة للتاريخ الكمى، حين زعم بعض المتحمسين له أن المنهج الكمى وحده هو الذى يعوَّل عليه. وقد جاء رد الفعل إزاء هذه المزاعم ، وإزاء المناهج أيضا إلى حد ما ، بيد أن الاهتمام بتاريخ كمى أكثر تواضعًا ، أخذ ينمو بشكل مطرد . ففى بريطانيا - مثلاً - تأسست رابطة التاريخ والحساب سنة ١٩٨٧م.

٥- وفق النموذج التقليدى ، الذى فكر فيه بشكل حفظته الذاكرة المؤرخ- الفيلسوف كولينجوود R.G. Collingwood ، بقوله : «عندما يطرح أحد المؤرخين سؤالاً يقول : لماذا طعن بروتوس قيصر ؟ فإنه يعنى ما الذى دار بخلد بروتوس وجعله يطعن قيصر؟» (١٣). وقد ووجه هذا المثال فى التفسير التاريخى بالانتقادات من جانب مؤرخين أحدث زمنًا ، ومن خلفيات متنوعة ، لسبب أساسى هو أن هذا التفسير يخفق فى أن يحسب حساب مدى تنوع تساؤلات المؤرخين الذين يهتمون غالبًا بالحركات الجماعية كما يهتمون بالتصرفات الفردية بالقدر نفسه، ويهتمون بالاتجاهات مثلما يحفلون بالأحداث .

لماذا ارتفعت الأسعار فى إسبانيا القرن السادس عشر مثلاً ؟ لايتفق المؤرخون الاقتصاديون فى إجاباتهم عن هذا السؤال ولكن إجاباتهم المتنوعة (فى ضوء واردات الفضة، والنمو السكانى، وما إلى ذلك) بعيدة تمامًا عن المثال الذى ساقه كولينجوود. وفى دراسة فرناند بروديل الشهيرة عن البحر المتوسط فى القرن السادس عشر ، والتى نُشرت لأول مرة سنة ١٩٤٩م ، نجده يكرس الجزء الثالث والأخير منها فقط لتاريخ الوقائع ، ويطرح الأسئلة عن بعد على غرار سؤال كولينجوود، وحتى هنا يقدم بروديل نوعًا مختلفًا تمامًا من الإجابة ، مؤكداً على الضغوط التى وقعت على بطل روايته، الملك فيليب الثانى، وعدم تأثير الملك على تاريخ العصر الذى عاش فى رحابه (١٤).

٦- وفقا للنموذج التقليدى، التاريخ موضوعى . ومهمة المؤرخ أن يقدم «الحقيقة» لقرائه ، أو أن يحكى «ما حدث بالفعل» حسب عبارة رانكه التى يقتبسها الكثيرون . وقد فسّرت الأجيال اللاحقة تنصله المتواضع من المقاصد الفلسفية على أنه بيان متكبر يدعو إلى تاريخ دونما «انحياز» . وفى خطاب مشهور موجه إلى الفريق الدولى من الباحثين المشاركين فى

موسوعة كمبردج للتاريخ الحديث Cambridge Modern History، التى نُشرت بدءًا من سنة ١٩٠٢م فصاعداً ، تحدث اللورد أكتون Acton، المحرر الرئيسى للموسوعة، ليحث المشاركين على أن تكون «معركة واترلو التى نكتب عنها مرضية لكل من الفرنسيين والإنجليز على السواء، وللألمان والهولنديين أيضا». وحضهم على أن يكون القراء غير قادرين على التمييز بين ما كتبه أحد المشاركين وما كتبه غيره (١٥).

ونحن اليوم نعتبر هذا النموذج غير واقعى. فمهما كان نضالنا شاقًا لتجنب انحيازات اللون، أو العرق، أو الطبقة، أو النوع، فإننا لانقدر على تجنب النظر إلى الماضى من وجهة نظر معينة. أى أن النسبية الثقافية تنطبق على الكتابة التاريخية نفسها. إذ إن عقولنا لاتعكس الحقيقة بصورة مباشرة، لأننا لاندرك؛ ما هو عام ومشترك سوى من خلال شبكة من الأعراف، والمخططات والأنماط الشائعة. وإذا ما أخذنا هذا الموقف فى اعتبارنا، تعزز فهمنا للصراعات بطرح وجهات النظر المتعارضة، بدلاً من أية محاولة، مثل محاولة أكتون لتحقيق التوافق . لقد انتقلنا من مثال «صوت التاريخ» إلى مثال «الاختلاف» الذى تم تعريفه بأنه «الأصوات المتنوعة والمتعارضة» (انظر ما يلى)(١٦) ومن ثم، فإنه من المناسب تمامًا أن يتخذ هذا الكتاب نفسه شكل العمل الجماعى على حين يتحدث المشاركون فيه لغات وطنية مختلفة .

٧- لقد كان «التاريخ الرانكى» أرض المحترفين ومجال نفوذهم. إذ كان القرن التاسع عشر هو الذى صار فيه التاريخ مهنة ، مع ظهور أقسام التاريخ فى الجامعات ، ونشر المجلات التاريخية مثل مجلة Historische Zeitschrift ومجلة The English Historical Review اللتين روجتا للتاريخ . ومعظم المؤرخين الجدد البارزين محترفون أيضًا ، مع الاستثناء المتميز المتمثل فى الراحل فيليب آريس Philippe Aries ، الذى كان يحب أن يصف نفسه بأنه «مؤرخ يوم الأحد» (أى يوم العطلة الأسبوعية) . وتتمثل إحدى طرق وصف إنجازات مجموعة «الحوليات» فى القول بأنهم أوضحوا أن التاريخ الاقتصادى ، والاجتماعى، والثقافى يمكن أن يلبى المطالب ويحقق المستويات المهنية الرفيعة التى أرساها رانكه فى التاريخ السياسى .

وبالقدر نفسه، شجعهم اهتمامهم بمدى النشاط البشرى الكلى على أن يكونوا جماعة من المشتغلين بمجموعة من العلوم ، بمعنى أنهم يتعلمون من التعاون مع علماء الأنثروبولوچيا الاجتماعية ، وعلماء الاقتصاد، ونُقاد الأدب ، وعلماء النفس، وهلم جرا. ذلك أن مؤرخى الفن، والأدب ، والعلم ، الذين اعتادوا متابعة دراساتهم بمعزل عن بقية المؤرخين إلى حد ما،

يتصلون بهم الآن بشكل أكثر انتظامًا عن ذى قبل. كما أن حركة التاريخ من أسفل أيضا تعكس تصميمًا وعزمًا جديدًا على أخذ آراء الناس العاديين عن ماضيهم بقدر من الجدية أكبر مما اعتاده المؤرخون المحترفون (١٧). ويصدق الأمر نفسه على بعض أشكال التاريخ الشفاهى. وبهذا المعنى أيضا يكون الاختلاف جوهريا بالنسبة للتاريخ الجديد.

ما مدى جدة التاريخ الجديد؟

من الذى اخترع - أو اكتشف - التاريخ الجديد؟ هذه العبارة تستخدم فى بعض الأحيان للدلالة على التطورات التى شهدتها فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وهى فترة استشرى فيها رد الفعل إزاء النموذج التقليدى على اتساع العالم، بحيث شمل مؤرخى اليابان، والهند، وأمريكا اللاتينية، وغيرهم. وتركز المقالات الواردة فى هذا الكتاب على هذه الفترة بشكل خاص. وعلى أية حال، يبدو واضحًا أن كثيرًا من التغييرات التى طرأت على مجال الكتابة التاريخية فى هذين العقدين كانت جزءا من اتجاه أطول فى مداه الزمنى.

ويرتبط التاريخ الجديد، بالنسبة لكثير من الناس، بلوسيان فيبفر ومارك بلوك Lucien Febvre, and Marc Bloch اللذين أسسا مجلة الحوليات Annales فى سنة ١٩٢٩م لتحسين طرقهما فى دراسة التاريخ، ثم فرناند بروديل فى الجيل التالى. وسيكون من الصعب حقا أن ننكر أهمية حركة تجديد التاريخ التى قادها هؤلاء الرجال. وهم، على أية حال، لم يكونوا وحدهم فى ثورتهم ضد الرانكيين. ففى بريطانيا إبان ثلاثينيات القرن العشرين، رفض كل من لويس ناميير Lewis Namier وتاونى R.H. Tawney سرد الحوادث، وحبذوا نوعًا من التاريخ البنيوى. وفى ألمانيا حوالى سنة ١٩٠٠م، جلب كارل لامبرخت Karl Lampracht على نفسه استياء رفاق مهنته؛ لأنه تحدى النموذج التقليدى، وبات غير محبوب عندما صكت العبارة الموحية بالازدراء لوصف هذا النموذج «التاريخ المتمركز حول الأحداث والوقائع» Histoire éventementielle آنذاك، أى قبل جيل من زمن بروديل وبلوك فيبفر (١٨). وهى عبارة تعبر عن أفكار مجموعة من الباحثين تمركزت حول عالم الاجتماع الفرنسى الكبير إميل دور كايم ومجلته Année Sociologique التى ساعدت على إلهام «الحوليات».

حتى عبارة «التاريخ الجديد» كان لها تاريخها الخاص بها. ففى حدود ما أعرف جاء أول

استخدام للمصطلح سنة ١٩١٢م، عندما نشر الباحث الأمريكى چيمس هارفى روبنسون James Harvey Robinson كتابًا يحمل هذا العنوان . وكانت محتوياته تجارى العنوان وتتماشى معه . وقد كتب روبنسون : «يتضمن التاريخ كل أثر وكل ذرة من أثر لكل شىء فعله الإنسان أو فكر فيه منذ ظهوره على الأرض أول مرة» . وبعبارة أخرى، كان يؤمن بالتاريخ الشامل. أما بالنسبة للمنهج ، فيقول روبنسون : «إن التاريخ الجديد سوف يستفيد من جميع تلك الاكتشافات التى تمت ، والتى تتم ، عن البشرية بواسطة الانثروبولوجيين، وعلماء الاقتصاد، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع» (١٩). وهذه الحركة صوب تاريخ جديد لم تنجح فى الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الوقت ، ولكن يمكن أن نفهم سر الحماسة الأمريكية الحديثة لـ «الحوليات» إذا ما أخذنا هذه الخلفية فى اعتبارنا .

وليس هناك سبب وجيه يدعونا للتوقف عند سنة ١٩١٢م، أو حتى عند سنة ١٩٠٠م. فثمة رأى حديث يقول إن إحلال «تاريخ جديد» (أكثر موضوعية وأقل اصطباغا بالصبغة الأدبية) محل «تاريخ قديم» موضوع متكرر فى تاريخ الكتابة التاريخية(٢٠). فقد ظهرت مثل هذه المزاعم على أيدى مدرسة رانكه فى القرن التاسع عشر، كما زعم مثلها الباحث البندكتى * الكبير چان مابيللون Jean Mabillon الذى صاغ طرقًا وأساليب جديدة لنقد المصادر فى القرن السابع عشر ، كما ظهرت مزاعم مماثلة على يدى المؤرخ الإغريقى بوليبيوس الذى أدان بعض زملائه ووصفهم بأنهم مجرد خطباء مفوهين قبل مائة وخمسين سنة من مولد المسيح. وفى الحالة الأولى على الأقل كان هناك وعى ذاتى بالتجديد. وفى سنة ١٨٦٧م نشر المؤرخ الهولندى الكبير روبرت فروين Roberd Fruin مقالة عنوانها : «الكتابة التاريخية الجديدة»، دفاعًا عن التاريخ الرانكى العلمى»(٢١).

وترجع محاولات كتابة تاريخ أرحب مجالاً من الوقائع السياسية إلى زمن موغل فى القدم . وفى أواخر القرن التاسع عشر تأسس التاريخ الاقتصادى بديلاً عن تاريخ الدولة، فى ألمانيا

---

* نسبة إلى طائفة الرهبان البندكتيين ، الذين قاموا بدور مهم فى أوربا العصور الوسطى، وقد أسس هذه الفرقة القديس بندكت ، وقد عرفوا أيضا باسم «الرهبان السود» لأنهم كانوا يرتدون مسوحًا سوداء . وقد كان الرهبان البندكتيون أول منظمة للرهبنة الجماعية وكان لهم فضل الحفاظ على ما بقى من التعليم ونسخوا مخطوطات كثيرة، وكان منهم علماء كثيرون . (المترجم)

وبريطانيا وغيرهما . وفى سنة ١٨٦٠م نشر الباحث السويسرى جاكوب بوركهارات Jacob Burchardt كتابه الموسوم «حضارة النهضة فى إيطاليا» ، وهى دراسة تركز على التاريخ الثقافى ، وتصف الاتجاهات أكثر مما تسرد الوقائع . وقد اهتم علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر ، من أمثال أوجست كونت Auguste Conte وهربرت سبنسر Herbert Spencer – دعك من كارل ماركس – بالتاريخ اهتمامًا بالغًا ، ولكنهم ازدروا المؤرخين الحرفيين. فقد كانوا يهتمون بالبنية ، لا الحوادث ، ويدين لهم «التاريخ الجديد» بدين لايعترف به أحد فى الغالب.

وهؤلاء بدورهم يدينون بدين لايعترفون به غالبًا لأسلافهم من مؤرخى التنوير ، مثل ڤولتير وچيبون وروبرتسون وڤيكو ومويسر، وغيرهم. وظهرت فى القرن الثامن عشر حركة عالمية لكتابة نوع من التاريخ لايكون محصورا فى نطاق الحوادث السياسية والعسكرية وإنما يهتم بالقوانين ، والتجارة، وبطريقة تفكير مجتمع بعينه، وبعاداته وتقاليده بـ «روح العصر» . وفى ألمانيا بصفة خاصة ظهر الاهتمام الخاص بتاريخ العالم (٢٢). وقد نشر سكوتسمان وليم الكسندر Scotsman William Alexander ، وكريستوف مينرس Christoph Meiners ، الأستاذ بجامعة جوتنجن (وهى مركز التاريخ الاجتماعى الجديد فى أخريات القرن الثامن عشر) الدراسات الخاصة بالنساء.

وهكذا ، نجد للتاريخ البديل الذى نناقشه فى هذا الكتاب ماضيا طويلاً بشكل معقول (حتى وإن كان جدود أجدادهم قد لا يتعرفون على أحفادهم) . والجديد ليس مجرد وجود التاريخ الجديد بقدر ما يتمثل فى الحقيقة القائلة بأن عدد من يمارسونه الآن كبير للغاية ، كما أنهم يرفضون البقاء على الهامش.

مشكلات التعريف

ليس القصد من هذا الكتاب الاحتفال بالتاريخ الجديد (على الرغم من الاتفاق بين المشاركين على أن بعض أنواعه على الأقل جديرة بالثناء، بل هى ضرورية فى الحقيقة)، وإنما القصد تقييم جوانب القوة والضعف فيه. وقد برزت الحاجة إلى التغيير من إحساس واسع الانتشار بعدم كفاية النموذج التقليدى. هذا الإحساس بعدم الكفاية لايمكن فهمه إذا لم ننظر إلى ما وراء مهنة المؤرخ ، أى إلى المتغيرات الجارية فى العالم الأوسع . ومن الواضح أن تفكيك الاستعمار والحركة النسوية ، مثلاً ، كان لهما تأثير كبير على الكتابة التاريخية

الحديثة، حسبما يوضح الفصل الثالث والفصل الرابع وربما يكون هناك فى المستقبل تأثير متزايد للبيئة وحركات البيئة على طريقة كتابة التاريخ.

والواقع أنهما ألهما بالفعل عدداً من الدراسات التاريخية . فقد جذبت رسالة بروديل الشهيرة عن البحر المتوسط الاهتمام عند نشرها لأول مرة فى سنة ١٩٤٩م بسبب حجم المساحة التى كرستها للبيئة المادية– الأرض والبحر ، والجبال والجزر . واليوم ، تبدو الصورة التى رسمها بروديل ثابتة جامدة ، حسبما يشير ريتشارد جروف فى الفصل الحادى عشر ، لأن المؤلف لم ينظر بجدية إلى الطرق التى تم بها تعديل البيئة بسبب وجود الإنسان (تدمير الغابات ، مثلا ، لبناء السفن الحربية وهو ما يبدو واضحًا تمامًا فى صفحات كتاب بروديل) .

ولأسباب داخلية وخارجية ، أيضا ، يبدو معقولاً أن نتحدث عن «الأزمة» فى النموذج التقليدى فى الكتابة التاريخية . وللنموذج الجديد مشكلاته أيضا، وعلى أية حال؛ فهى مشكلات التعريف، ومشكلات المصادر ، ومشكلات المنهج ، ومشكلات التفسير . وسوف ترد هذه المشكلات فى فصول محددة من الكتاب، بيد أنها قد تستحق أن نقدم لها جميعها بمناقشة موجزة فى هذه النقطة.

وتنشأ مشكلات التعريف من جراء اندفاع المؤرخين الجدد فى أرض غير مألوفة لهم . فهم يبدأون ، مثلما يفعل مستكشفو الثقافات الأخرى عادة، بنوع من الصورة السلبية لما يبحثون عنه . فقد كان «تاريخ الشرق» يُفهم من جانب المؤرخين الغربيين على أنه نقيض تاريخهم ، ويحذفون بذلك الفروق بين الشرق الأوسط والشرق الأقصى ، وبين الصين واليابان ، وهكذا[٢٤]. ووفقا لما يوضحه هنك ويسلنج (الفصل الرابع) فإن الغربيين غالبًا ما كانوا ينظرون إلى تاريخ العالم ، فى سياق دراستهم للعلاقات بين الغرب و«الباقين» ، متجاهلين بذلك التفاعل بين آسيا وأفريقيا ، وبين آسيا وأمريكا، وهلم جرا، . ومرة أخرى كان التاريخ من أسفل قد اكتسب مفهومه فى الأصل باعتباره نقيض التاريخ من أعلى، والثقافة «الدنيا» بدلا من الثقافة «الراقية» . وعلى أية حال، صار الباحثون يدركون فى مسار بحوثهم المشكلات الكامنة فى التقسيم إلى شعبتين متناقضتين.

فإذا كانت الثقافة الشعبية، مثلا ، ثقافة «الشعب» ؛ فما هو الشعب ؟ هل هم الجميع ؟ هل هم الفقراء ؟ هل هى « الطبقات الخاضعة» حسب تسمية المفكر الماركسى انطونيو جرامشى؟ هل هم الأميون؟ أم غير المتعلمين ؟ ولايمكننا ، على أية حال، أن نفترض أن التقسيمات

الاقتصادية والسياسية والثقافية فى مجتمع ما ليست متوافقة بالضرورة . وما التعليم؟ أهو فقط التدريب الذى يتوفر فى مؤسسات بعينها مثل المدارس والجامعات ؟ وهل الناس العاديون غير متعلمين ، أم أنهم ببساطة حصلوا على تعليم مختلف ، ولديهم ثقافة تختلف عن ثقافة النخبة؟

لايجب، بطبيعة الحال، أن نفترض أن الناس العاديين جميعًا قد مرّوا بالتجارب نفسها، وتؤكد چوان سكوت على أهمية التفرقة بين تاريخ المرأة وتاريخ الرجال فى الفصل الثالث. وفى بعض مناطق العالم، من إيطاليا إلى البرازيل ، يسمى تاريخ الشعب فى الغالب «تاريخ المقهورين». ويتم بذلك استيعاب تجارب الطبقات الخاضعة فى الغرب ومضاهاتها بتجارب الطبقات المثيلة فى المستعمرات (٢٥). وعلى أية حال، تحتاج الفروق بين هذه التجارب إلى المناقشة.

تبدو عبارة «التاريخ من أسفل» وكأنها توفر المهرب من هذه الصعوبات ، بيد أنها تولد مشكلات خاصة بها . وهى تغير معناها فى سياقات مختلفة . فهل ينبغى للتاريخ السياسى من أسفل أن يناقش آراء كل من هم خارج السلطة وأفعالهم ، أم يجب أن يتناول السياسة عند مستوى محلى أو عند مستوى القاعدة ؟ وهل ينبغى لكتابة التاريخ من أسفل أن تنظر للدين من وجهة نظر العلمانيين، مهما كانت مكانتهم الاجتماعية؟ وهل لتاريخ الطب من أسفل أن يهتم بالمعالجين الشعبيين باعتبارهم نقيض الأطباء المحترفين ؟ أو يهتم بتجارب المرضى وتشخيص المرض(٢٦)؟ وهل يجب على التاريخ العسكرى من أسفل أن يتعامل مع رواية الجندى العادى عن معركة أچينكورت Agincourt ، أو معركة واترلو، أم يركز على التجربة المدنية فى الحرب(٢٧)؟ وهل ينبغى على تاريخ التعليم من أسفل أن يشيح بوجهه عن الوزراء وأصحاب النظريات فى التعليم ويلتفت إلى المدرسين العاديين، أم يجب أن يقدم المدارس من وجهة نظر التلاميذ (٢٨)؟ وهل للتاريخ الاقتصادى من أسفل أن يركز اهتمامه على التاجر الصغير، أو على المستهلك الصغير ؟

ولدينا مثال آخر على مقاربة جديدة فى تناول مشكلات التعريف يتمثل فى «تاريخ الحياة اليومية» الذى يسميه الألمان Alltagsgeschichte . فالعبارة نفسها ليست جديدة ؛ إذ كانت عبارة «الحياة اليومية "La vie quotidienne" عنوانًا لسلسلة بدأها الناشر الفرنسى هاشيت Hachette فى ثلاثينيات القرن العشرين، مثلاً، أما الجديد فهى تلك الأهمية التى أضفيت على الحياة اليومية فى الكتابة التاريخية المعاصرة ، لاسيما منذ نشر بروديل دراسته

الشهيرة سنة ١٩٦٧ [٢٩]. وإذا كانت الحياة اليومية قد استبعدت ذات مرة باعتبارها تفاهات ، فإن بعض المؤرخين الآن يرون فيها التاريخ «الحقيقى» الوحيد، أو المركز الذى يجب أن يتصل به كل ما عداه . كما تقف الحياة اليومية عند معبر المقاربات الحديثة فى علم الاجتماع (من ميشيل إلى سيرتر Certeau إلى إيرفنج جوفمان Erving Goffman) والفلسفة (سواء كانت ماركسية أو ظاهراتية) [٣٠].

والشىء المشترك بين هذه المقاربات هو اهتمامها بعالم التجربة اليومية (بدلاً من المجتمع بالمعنى التجريدى) ، بوصفه نقطة الإنطلاق لها مع محاولة رؤية الحياة اليومية باعتبارها إشكالية ، أى إظهار أن السلوك أو القيم المأخوذة بوصفها مسلمات فى أحد المجتمعات تكون مرفوضة باعتبارها عبثا واضحاً بحد ذاته فى مجتمع غيره. وعلى المؤرخين الاجتماعيين، مثلهم فى ذلك مثل الأنثروبوچيين الاجتماعيين، كشف الغطاء عن القواعد الحاكمة للحياة اليومية (الأمور الشاعرية فى كل يوم، حسب تعبير عالم السيميوطيقا الروسى يورى لوتمان Juri Lotman، وعليهم أن يوضحوا لقرائهم كيف يكون الأب، أو الابنة، أو الحاكم، أو القديس فى ثقافة معينة [٣١]. ويبدو أنه لامفر من تأثير النسبية الثقافية على الكتابة التاريخية.

وقد أوضح عالم الاجتماع روبرت إلياس Robert Elias فى مقالة مهمة أن مفهوم «الحياة اليومية» أقل دقة وأكثر تعقيداً مما يبدو. ويبيّن إلياس ثمانية معانى جارية للمصطلح تتراوح ما بين الحياة الخاصة إلى عالم الناس العاديين[٣٢]. وتتضمن الحياة اليومية الأفعال– ويعرّفها بروديل بأنها منطقة الفعل المتكرر (الروتينى) – والمواقف التى يمكن أن نسميها العادات الفكرية. وليس من السهل وصف العلاقة بين الحياة اليومية والطقوس . ومن الأمور المغرية أن نعرِّف الطقوس ، التى هى علامة على المناسبات الخاصة فى حياة الأفراد والجماعات، بأنها نقيض الحياة اليومية. ومن ناحية أخرى ، فكثيرا ما يلاحظ الزوار الأجانب الطقوس اليومية فى حياة كل مجتمع – طرق الأكل، وأشكال التحية ، وما إلى ذلك– وهى أمور لايدرك المحليون أنها طقوس على الإطلاق.

تتساوى مع ذلك من حيث الصعوبة محاولتنا وصف العلاقة بين البنى اليومية والتغير، أو تحليلها . فمن الداخل تبدو الحياة اليومية بلا زمن . والتحدى الذى يطرح نفسه أمام المؤرخين الاجتماعيين يتمثل فى أن يظهروا كيف أن الحياة اليوميه فى حقيقتها جزء من التاريخ ، وأن يربطوا الحياة اليومية بالأحداث الكبرى مثل حركة الإصلاح الدينى أو الثورة الفرنسية، أو

بالاتجاهات طويلة المدى مثل التغريب أو صعود الرأسمالية . وقد صك عالم الاجتماع ماكس ڤيبر مصطلحًا شهيرًا ربما يكون مفيدًا هنا: ضبط الحياة على وتيرة واحدة عادية . وربما كانت إحدى بؤر الاهتمام بالنسبة للمؤرخين الاجتماعيين تتمثل فى عملية التفاعل بين الأحداث العظمى والاتجاهات الكبرى من ناحية وبين الحياة اليومية من ناحية أخرى . فإلى أى مدى، وبأية وسيلة ، وعلى مدى أية فترة تغلغلت الثورة الفرنسية أو الروسية فى الحياة اليومية للمجموعات الاجتماعية المختلفة؛ وإلى أى مدى، وبأى قدر من النجاح تمت مقاومتها ؟

مشكلة المصادر

إن كبرى المشكلات التى تواجه المؤرخين بالتأكيد هى مشكلات المصادر والمنهج. وقد ذكرنا بالفعل أنه كان على المؤرخين عندما بدأوا فى طرح أنواع جديدة من التساؤلات عن الماضى ، وعندما اختاروا «أهدافا» جديدة للبحث ، أن يفتشوا عن أنواع جديدة من المصادر تحل محل الوثائق الرسمية. واتجه البعض صوب التاريخ الشفوى، الذى نناقشه فى الفصل السادس ؛ واتجه البعض الآخر نحو الأدلة والبراهين المأخوذة عن الصور(الفصل الثامن) ؛ كما توجه غيرهم إلى الاحصاءات. وبات من المؤكد أنه يمكن إعادة قراءة أنواع بعينها من السجلات الرسمية بطرق جديدة. وقد أفاد مؤرخو الثقافة الشعبية ، مثلاً ، من السجلات القضائية كثيرًا، لاسيما من محاضر استجواب المشبوهين. وهناك دراستان من أشهر الدراسات التاريخية من أسفل قامتا على أساس سجلات محاكم التفتيش هما: كتاب لو روى لادورى Le Roy Ladurie الذى يحمل عنوان Montaillon (١٩٧٥م) ، والذى نوقش فى الفصل الثانى وكتاب جينز بورج Ginzburg وعنوانه The Cheese and the Worms (١٩٧٦م) .

وعلى أية حال ، تثير هذه المصادر جميعا مشكلات مخيفة . إذ يحاول مؤرخو الثقافة الشعبية، مثلا ، إعادة بناء الفروض العادية الخاصة بالحياة اليومية على أساس من السجلات التى تحوى ما كان حوادث غير معتادة فى حياة المتهمين، وعلى أساس الاستجوابات والمحاكمات . وهى تحاول إعادة بناء ما كان الناس يعتقدونه، بناء على ما كان المتهمون، الذين ربما لم يكونوا مجموعة نمطية، على استعداد لقوله فى الموقف الاستثنائى (أو المرعب) الذى وجدوا أنفسهم فيه . ومن ثم ، يكون من الضرورى قراءة ما بين سطور الوثائق، لاسيما عندما يقوم بالمحاولة مؤرخون فى مثل براعة جينز بورج ، أو لو روى لادورى.

ومع هذا، فإن المبادئ الكامنة تحت مثل هذه القراءة ليست واضحة تمامًا . ومن العدل وحسب ، أن نعترف بأننا لكى نرسم «غير المرئى» اجتماعيا (النساء العاملات مثلاً) أو لكى ننصت إلى «غير المسموع» ، أى الأغلبية الصامتة من الموتى (مهما كان ذلك ضروريا بوصفه جزءا من التاريخ الشامل) ، فإن هذا يكون مشروعًا أشد خطورة مما هو معتاد مع التاريخ التقليدى. وليس الأمر هكذا دائمًا ، فالتاريخ السياسى لعصر شارلمان ، مثلاً، قائم على مصادر متفرقة و، لايعتمد عليها شأنه شأن تاريخ الثقافة الشعبية فى القرن السادس عشر على الأقل (٢٣).

وقد حظى الدليل الشفاهى بقدر كبير من الاهتمام ، وكان جانب منه لدى مؤرخى أفريقيا من أمثال يان ڤانسينا Jan Vansina ، الذى يهتم بمدى الاعتماد على التراث على مرِّ القرون، وجانب آخر منه قام به المؤرخون المعاصرون من أمثال بول ثومبسون Paul Thompson ، الذى يعيد بناء تجربة الحياة فى المنطقة الإدواردية . وقد ناقشنا مشكلة نفوذ المؤرخ - المحاور، ووقع المقابلة على شهادة الشاهد. ومع هذا، يجب الاعتراف بأن نقد الشهادات الشفاهية لم يصل بعد إلى درجة الدقة المتوفرة فى نقد الوثائق المكتوبة ، والذى مارسه المؤرخون على مرِّ القرون. وثمة فكرة ما عن المسافة التى تم اجتيازها على مدى ربع القرن- والمسافة التى ما يزال ينبغى اجتيازها - يمكن أن نخرج بها من خلال المقارنة بين الطبعة الأولى للدراسة التى قام بها ڤانسينا للمأثورات الشفاهية ، والتى نشرت سنة ١٩٦١م ، والطبعة الثانية التى أعيدت كتابتها كاملة سنة ١٩٨٥م(٣٤).

ويبدو الموقف مماثلاً إلى حد ما فى حالة الصور الفوتوجرافية ، فالصور بصورة عامة تمثل الدليل الذى تقدمه الثقافة المادية. والأعمال الحديثة فى مجال الفوتوجرافيا (بما فيها الفيلم) نزعت القناع عن الفرض القائل بأن الكاميرا سجل موضوعى للحقيقة ، كما أكدت ، ليس على اختيارات المصورين حسب اهتماماتهم، ومعتقداتهم وقيمهم وانحيازاتهم ، وما إلى ذلك فحسب ؛ وإنما أكدت أيضا على الدين الذى يدينون به، بوعى أو بلا وعى، للتقاليد المرتبطة بالصورة . وإذا كانت بعض صور العصر الڤيكتورى عن الحياة الريفية قد تشابهت مع رسوم مساحات الأرض الفضاء فى هولندا القرن السابع عشر ، فربما يكون السبب فى هذا راجعًا إلى أن المصورين كانوا يعرفون الرسومات ووضعوا شخوصهم وعناصر صورهم وفقًا لها ، بحيث ينتجون «صورة مرسومة من إنتاج المدرسة الهولندية» ، على حد تعبير

توماس هاردى Thomas Hardy الذى وضع هذه العبارة عنوانًا فرعيًا لكتابه الذى يحمل عنوان "Under the Greenwood Tree" . والمصورون مثل المؤرخين، لايقدمون انعكاسًا للحقيقة، وإنما يقدمون تمثيلاً لها. وقد تمت بعض الخطوات المهمة فى سبيل نقد المصادر المتمثلة فى الصور الفوتوجرافية ، بيد أن الطريق الذى ينبغى اجتيازه، هنا أيضا، لا يزال طويلا [٣٥].

وبالنسبة للصور المرسومة التى ناقشها إيفان جاسكل فى الفصل الثامن، فإن مناخ الحماسة لحل شفرة «فن الأيقونة» ، زمن مؤرخى الفن من أمثال إيروين بانوفسكى Erwin Panofsky ، وإدجار ويند Edgar Wind ، أعقبه عصر جليدى من الشك النسبى . ومعايير تفسير المعانى الكامنة بصفة خاصة معايير يصعب صياغتها فى الواقع[٣٦] وتصبح مشكلات فن الأيقونات أشد سوءا عندما يحاول مؤرخو الموضوعات الأخرى أن يستخدموا الصور لخدمة مقاصدهم الخاصة، بصفتها أدلة على المواقف السياسية أو الدينية. ومن السهولة بمكان أن نجادل دونما طائل ، ونقرأ صورة رسمها البريخت دورر Albrecht Durer ، مثلاً ، على أنها عرض من أعراض أزمة روحية ، ثم نقدم الصورة على أنها دليل على وجود هذه الأزمة[٣٧].

والثقافة المادية ، بطبيعة الحال، هى المجال التقليدى لعلماء الآثار الذين يفحصون الفترات التى لا يوجد لها تاريخ مكتوب . وعلى أية حال، ليس هناك سبب يدعونا إلى حصر المناهج الأثرية داخل حدود «ما قبل التاريخ»؛ فالواقع أن علماء الآثار انتقلوا إلى دراسة العصور الوسطى ، والثورة الصناعية الباكرة ، ثم انتقلوا منذ زمن قريب إلى مجال أرحب فى نطاق الفترات التاريخية ، من أمريكا زمن الاستعمار حتى مجتمع اليوم ذى النزعة الاستهلاكية[٣٨].

وأخذ المؤرخون يجارونهم، إن لم يكن عن طريق الحفر والتنقيب فى الماضى (ومن دواعى السعادة أن قصر فرساى وغيره من المبانى الكبيرة التى ترجع إلى بواكير العصر الحديث لا تحتاج إلى حفائر) ، فمن خلال المزيد من الاهتمام بالأشياء المادية على الأقل. تدور المجادلات الآن حول بروز النزعة الفردية والخصوصية فى العصر الحديث لا على أساس الأدلة المستمدة من كتابة اليوميات فحسب، وإنما أيضا على أساس تغيرات من قبيل ظهور الأكواب الفردية (مكان الآنية الجماعية) وكراسى الأفراد (بدلاً من الآرائك الجماعية) ، وتطور غرف النوم الجماعية.

وعلى أية حال، من الصعب ألا تتملكنا الدهشة فى هذا المثال حول ما إذا كانت الثقافة المادية تخدم فى شئ أكثر من التأكيد على الغرض الذى تأسس أولاً على الأدلة المكتوبة . فهل يمكن لعلم الآثار الذى يتناول الفترة منذ سنة ١٥٠٠م (فى الغرب على الأقل) أن يصل إلى ما هو أكثر من هذا؟ لقد قال الراحل سير موسى فينلى Sir Moses Finley مرة «هناك أنواع معينة من التوثيق تجعل علم الآثار بلا ضرورة إلى درجة ما» . وكأنه قد كنس علم الآثار وألقاه فى سلة المهملات بعبارة واحدة(٤٠). والتحدى الذى طرحه فينلى يستحق ردًا جادًا ، بيد أن ما يبقى مطلوبًا هو التقويم الشامل لأهمية الأدلة المستمدة من الثقافة المادية لتاريخ ما بعد العصور الوسطى.

ومما يثير السخرية أن تاريخ الثقافة المادية، هو مجال جذب قدرًا كبيرًا من الاهتمام فى السنوات القليلة الماضية ، يستند على دراسة المصنوعات الفنية نفسها بقدر أقل من استناده على دراسة المصادر المكتوبة. إذ يعتمد المؤرخون المهتمون بما يُعرف بـ «الحياة الاجتماعية للأشياء» أو «عالم البضائع» – أو بدرجة أكبر من الدقة «الحياة الاجتماعية للجماعات كما يكشفها استخدامهم للسلع»– بقدر كبير على أدلة مثل الأوصاف التى كتبها الرحالة (الذين يحدثوننا عن مواضع أشياء بعينها ووظائفها) أو قوائم جرد الممتلكات ، التى تخضع للتحليل بواسطة المناهج الكمية(٤١).

ومن المؤكد أن أعظم ابتكار – والأكثر إثارة للجدل – فى المنهج زمن الجيل الأخير تجسد فى ظهور المنهج الكمى وانتشاره ، وفى بعض الأحيان توصف المناهج الكمية على سبيل السخرية بأنها مناهج «ربة التاريخ الأسطورية» ، وبعبارة أخرى إحصائيات ربة التاريخ الجوهرية *. وهذه المقاربة موجودة بطبيعة الحال منذ زمن طويل لدى المؤرخين الاقتصاديين، ومؤرخى السكان . أما الجديد فى الأمر، أو بالأحرى ما كان جديدًا، فقد كان انتشار هذه المناهج الكمية فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين بحيث ضمت أنواعًا أخرى من التاريخ . ففى الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، هناك «تاريخ سياسى جديد» يقوم المشتغلون به بإحصاء الأصوات؛ سواء فى الانتخابات أو فى البرلمانات (٤٢). وفى فرنسا ، تم بشكل

---

* استخدم المؤلف فى هذه الفقرة عبارة muse of History ، وكلمة ميوس muse تدل على إحدى ربات الفنون فى الأساطير اليونانية القديمة. والمقصود بهذه العبارة إظهار مدى التناقض بين صرامة الإحصائيات وورمانسية ربة التاريخ (المترجم) .

تدريجى مد نطاق «التاريخ التسلسلى histoire sérielle" وقد جاء الاسم لأن المعلومات مرتبة فى هذا النوع التاريخى فى سلاسل زمنية، من دراسة الأسعار (فى ثلاثينيات القرن العشرين) إلى دراسة السكان (خمسينيات القرن العشرين)، إلى ما يسمى «المستوى الثالث فى تاريخ العقليات الدينية أو العلمانية[٤٣] . وثمة دراسة شهيرة لما يسمى «انحسار المسيحية» فى فرنسا الحديثة تستمد معظم أدلتها من الأعداد المتناقصة لمن يحضرون قداس عيد الفصح. كما أن هناك دراسات أخرى تركز على إقليم البروفانس فى القرن الثامن عشر، وتدرس المواقف المتغيرة من الموت حسبما تتجلى فى الاتجاهات التى تكشف عنها أساليب صياغة حوالى ثلاثين ألف وصية ، مع ملاحظة تناقص الإشارات إلى «محكمة السماء» أو طلبات إعداد الجنازات الكبيرة، أو إقامة القداس من أجل الميت.

وبفضل مساعدة الكمبيوتر تمكنت الإحصائيات حتى من غزو قلعة التاريخ الرانكى ودور حفظ الوثائق. فدور المحفوظات الأمريكية، مثلا بها الآن «قسم المعلومات التى يمكن قراءتها آليًا» وموظفو الحفظ الذين بدأوا الآن يهتمون بالحفظ وتخزين الأشرطة المسجلة مثل تخزين المخطوطات. ونتج عن هذا أن صار المؤرخون يميلون بصورة متزايدة إلى رؤية السجلات السابقة؛ مثل سجلات محاكم التفتيش ، باعتبارها «بنوك معلومات» يمكن استغلالها بواسطة المناهج الكمية [٤٥].

وقد أدى تقديم الأعداد الكبيرة من الإحصائيات فى الخطاب التاريخى إلى استقطاب المهنة ما بين المؤيدين والمعارضين. واتجه كل من الجانبين إلى المبالغة فى نوع المشكلات الجديدة التى سببها استخدام الإحصائيات ، ولكن ذلك يمكن أن يحدث مع النصوص . كما أن المعلومات التى يمكن للآلة قراءتها ليست ودودة مع المستخدم ، بيد أن هذا ينسحب أيضا على الكثير من المخطوطات، التى كتبت بخطوط تكاد تستعصى على القراءة، أو لأنها على وشك التحلل . وما نحن فى حاجة إليه، المساعدة على التمييز وعلى اكتشاف نوعية الاحصائيات التى يمكن الاعتماد عليها، وتحديد مدى هذا الاعتماد، والقصد من هذا الاعتماد. أما مفهوم «السلاسل» ، وهو مفهوم أساسى بالنسبة للتاريخ التسلسلى ، فيتطلب أن نتناوله باعتباره تاريخًا إشكاليًا ، لاسيما عندما تتم دراسة التغيرات على المدى الطويل. وكلما كانت الفترة أطول ، قلَّ احتمال أن تكون الوحدات المتضمنة فى السلاسل- مثل الوصايا ، أو سجلات احتفالات عيد الفصح ، أو غيرها- متجانسة . ولكنها إذا ما خضعت للتغيير، فكيف يمكن أن نستخدمها معيارًا لقياس التغيرات الأخرى ؟

وبعبارة أخرى، فإن المطلوب (كما هو الحال فى مسألة الصور الفوتوجرافية وغيرها من المصادر الجديدة التى ناقشناها فعلا) هو «علم وثائق جديد» new diplomatic . لقد كان هذا هو المصطلح الذى استخدمه العالم البندكتى چان مابيللون فى الدليل الذى كتبه لاستخدام الوثائق أواخر القرن السابع عشر ، عندما كانت الاستعانة بهذا الفرع من الأدلة بمثابة بدعة تثير شكوك المؤرخين التقليديين [٤٦]. فمن ذا الذى سيكون مابيللون الإحصائيات ، أو الصور الفوتوجرافية، أو التاريخ الشفاهى ؟

مشكلات التفسير

لقد ألمحنا بالفعل إلى أن اتساع مجال عمل المؤرخ يستوجب إعادة التفكير فى التفسير التاريخى لأنه لايمكن تحليل الاتجاهات والميول الثقافية الاجتماعية بنفس طريقة تحديد الأحداث السياسية. إذ إنها تتطلب تفسيراً أكثر «بنيوية» . وسواء كان هذا يعجب المؤرخين أو لا يعجبهم ، فإن عليهم أن يشغلوا أنفسهم بالأسئلة التى يطرحها علماء الاجتماع على مدى فترة طويلة مع غيرهم من العلماء الاجتماعيين. فمن هم «الفاعلون» الحقيقيون فى التاريخ ؛ أهم الأفراد أم الجماعات ؟ وهل بوسعهم أن ينجحوا فى مقاومة ضغوط البنى الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الثقافية ؟ وهل هذه البنى مجرد كوابح لحرية الفعل، أم أنها تساعد على المزيد من الاختيارات ؟

فى خمسينيات القرن العشرين وستينياته كان المؤرخون الاقتصاديون والاجتماعيون مشدودين ، بقدر أو بآخر ، إلى نماذج حتمية من التفسير التاريخى؛ سواء جعلوا الأولوية للعوامل الاقتصادية ، مثل الماركسيين، أو للجغرافيين مثل بروديل، أو لتحركات السكان (كما فى حالة ما يسمى نموذج مالثوس فى التغير الاجتماعى) . واليوم ، كما يرى چيوڤانى ليڤى فى الفصل الخامس، نجد أن النماذج الأكثر نشاطا هى تلك التى تؤكد على حرية الاختيار لدى الناس العاديين وعلى «استراتيجيتهم» ، وقدرتهم على استغلال التناقضات أو عدم التجانس فى النظم السياسية والاجتماعية ، واكتشاف ثغرات يمكن التسلل من خلالها، أو فتحات يمكن البقاء فيها . وعلى العموم يبدو أن المؤرخين يظهرون قدراً من الانفتاح الفكرى إزاء التفسيرات أكثر من ذى قبل، كما أنهم الآن أكثر استعداداً للتجربة ، وأكثر تقبلاً للنظر فى «الحقائق – المضادة» ، مثلاً، أى أنهم أقدر على تخيل سيناريوهات أخرى عما جرت عليه الأمور [٤٨].

كان لاتساع عالم التاريخ أصداؤه وانعكاساته على التاريخ السياسى أيضًا، لأنه يمكن تفسير الأحداث التاريخية بعدة سبل مختلفة . فمن المحتمل أن يقدم المؤرخون الذين يدرسون الثورة الفرنسية من أسفل ، مثلاً، تفسيرا لهذه الثورة يختلف عن تفسير أولئك الذين يركزون على أفعال الزعماء ومقاصدهم . بل إن الباحثين الذين يركزون على القادة يحيدون أحيانًا عن النماذج التقليدية فى التفسير التاريخى عندما يستخدمون دوافعهم الواعية واللاواعية ، على أساس أن هذه النماذج تبالغ فى تقدير أهمية الوعى والعقلانية.

فعلى سبيل المثال ، هناك مجموعة ممن يسمون «المؤرخون النفسانيون» ، وغالبيتهم من الولايات المتحدة الأمريكية (حيث تغلغل التحليل النفسى فى الثقافة بشكل أعمق منه فى أى مكان آخر) ، وقد حاولوا تضمين آراء فرويد فى الدراسات الاجتماعية . وهم يتدرجون من المحلل النفسى إريك إريكسون Erik Erikson ، الذى سبب قدراً من الضجة فى خمسينيات القرن العشرين بدراسته عن مشكلات الهوية لدى «الشاب لوثر» ، إلى المؤرخ بيتر جاى Peter Gay ، وكلاهما يُبَشِّر بالتاريخ النفسى ويمارسه . ولا غرابة فى أن نجد أن مقاربتهما قد أثارت الجدل وأنهما واجها اتهامًا بـ «تقليص التاريخ». وبعبارة أخرى اتهما باختزال التعقيدات الكامنة فى الفرد البالغ (أو الصراع بين البالغين) إلى مجرد العلاقة بين طفل قاصر ووالديه(٤٩).

وربما يكون مفيداً ، لكى نكشف عن المناقشات الجارية حول التفسير التاريخى، أن نأخذ مثال هتلر . فقد كانت المناقشة التى جرت من قبل بين تريڤور - روبر H.R. Trevor Roper وتايلور A.J.P. Taylor عن الأهمية النسبية لأهداف هتلر طويلة المدى وقصيرة المدى، تفترض صلاحية نموذج التفسير التاريخى التقليدى فى ضوء المقاصد الواعية. وفى زمن أحدث اتسع النقاش. وأولا ، كان هناك عدد قليل من المؤرخين ، مثل روبرت وايت Robert Waite ، قدموا تفسيرات عن هتلر فى ضوء المقاصد غير الواعية ، بل فى ضوء مصطلحات علم النفس، مؤكدين على نشاطه الجنسى غير العادى، والصدمة الناجمة عن موت أمه (بعد علاجها على يدى طبيب يهودى) ، وهكذا (٥٠).

وتستبعد مجموعة أخرى من المؤرخين ما يسمى «القصدية» برمتها، أى أنهم يتناولون مشكلة دوافع هتلر ، أو حوافزه باعتبارها أموراً هامشية نسبيًا. ووفقًا لهذا النفر من المؤرخين الذين أطلق عليهم اسم الوظيفيين (أو المؤرخين البنويين كما أفضل أن أسميهم) ، يحتاج

التفسير التاريخى لسياسات الرأى الثالث إلى التركيز على الرجال المحيطين بهتلر ، وعلى آلة الحكم وعملية اتخاذ القرار ، وعلى النازية باعتبارها حركة اجتماعية(٥١) وهناك أيضا مؤرخون يمزجون بين المقاربات «البنيوية» والمقاربات «التاريخية -النفسانية» ، ويركزون على ما كان لدى النازيين بحيث شدهم إلى هتلر (٥٢).

وما هو مثير ومربك فى التو واللحظة فى الجدل الدائر حول هتلر- مثل كثير من المجادلات الأخرى فى السنوات الأخيرة- أن هذا الجدل لم يعد يدور حسب «الأصول» . ذلك أن الاتفاق التقليدى حول ما يشكل التفسير التاريخى «الجيد» قد تداعى وانكسر . فهل هذه مرحلة عابرة، سوف يحلُّ محلها اتفاق أو توافق جديد، أم هذه هى الطريقة التى ستدور بها المناقشات التاريخية فى المستقبل ؟

وإذا ما قُدِّر لمثل هذا التوافق أن يوجد، فإن المجال الذى يضم ما قد نسميه «علم النفس التاريخى» (علم النفس الجمعى) ربما يكون ذا أهمية خاصة ويربط ما بين المجادلات حول الدوافع الواعية واللاواعية وبين التفسيرات الفردية والجماعية. ومن الأمور المشجعة أن نرى اهتمامًا متزايداً بهذا المجال. وهناك مجموعة حديثة من الدراسات تركز على تاريخ الطموح ، والغضب ، والقلق ، والخوف، والذنب، والنفاق، والحب، والكبرياء ، والأمان ، وغيرها من العواطف والمشاعر. وبالقدر نفسه، لا تزال مشكلات المنهج التى تنطوى عليها متابعة هذه الأهداف المراوغة للبحث والدراسة بعيدة عن الحل(٥٣).

وعلى سبيل المثال هناك خطورة فى محاولة تجنب المفارقات النفسية ، أى افتراض أن الناس فى الماضى كانوا يفكرون ويشعرون مثلما نفكر ونشعر تمامًا ، بأن نذهب إلى الطرف الآخر فنعمد إلى نزع الألفة عن الماضى تمامًا بحيث يستعصى على الفهم والإدراك . ويواجه المؤرخون معضلة فى هذا الشأن . فإذا ما فسروا الفوارق فى السلوك الاجتماعى فى الفترات المختلفة على أساس الفوارق فى المواقف الواعية، أو على أساس الأعراف الاجتماعية ، فإنهم يخاطرون بالوقوع فى شباك السطحية . ومن ناحية أخرى ، فإنهم إذا ما فسرّوا الفوارق فى السلوك فى ضوء الفوارق فى «البنية العميقة» للشخصية الاجتماعية ، يجازفون بإنكار حرية الأفراد الفاعلين ومرونتهم فى الماضى.

والطريقة الممكنة للخروج من هذا الموقف الصعب تتأتى من الاستفادة من مفهوم عالم الاجتماع بيير بورديو Piere Bourdieu عن «التعود» لدى مجموعات اجتماعيه معينة. ويقصد بورديو بـ «التعود» لدى مجموعة ما، نزوع أعضائها إلى اختيار استجابات من مخزون ثقافى

معين بحسب المطالب التى يتطلبها موقف معين، أو «مجال» معين . وبخلاف مفهوم «الأصول» ، يحمل مفهوم «التعود» ميزة كبرى لأنه يتيح لمن يستخدمونه أن يتعرفوا على مدى الحرية الفردية داخل الحدود المعينة التى أرستها الثقافة(٥٤).

مشكلات الجمع والتوليف

على الرغم من أن اتساع عالم المؤرخ والحوار المتزايد مع العلوم الأخرى موضع ترحيب مؤكد ، فإن لذلك ثمنه . إذ إن علم التاريخ الآن أكثر تشعبًا وتفككا عن أى وقت مضى . فالمؤرخون الاقتصاديون يمكنهم الحديث بلغة علماء الاقتصاد، كما يمكن لمؤرخى الفكر أن يتحدثوا لغة الفلاسفة ، ويستطيع المؤرخون الاجتماعيون الحديث بلهجات علماء الاجتماع والأنثروبولوچيين الاجتماعيين. ومن ناحية أخرى ، تكتشف هذه المجموعات من المؤرخين أن الأمور تزداد صعوبة باستمرار عندما يخاطب أحدهم الآخر. فهل ينبغى علينا أن نتحمل هذا الموقف، أم أن هناك أملاً فى توليفة ما؟

من المستحيل أن نطرح ما هو أكثر من رأى جزئى وشخصى فى المشكلة . ويمكن تلخيص رأيى الخاص فى نقطتين متعارضتين، ولكنهما متكاملتان أكثر من كونهما متناقضتين ، أولا : أن تكاثر العلوم الفرعية أمر حتمى حقًا . وهذه الحركة ليست مقصورة على التاريخ . وهذه المهنة التاريخية تقدم مثالاً واحداً من بين كثير من الأمثلة على التقسيمات المتزايدة للعمل فى مجتمعنا الصناعى (أو ما بعد الصناعى) . وللتكاثر مزاياه - فهو يضيف إلى المعرفة الإنسانية، ويشجع على المزيد من المناهج الصارمة ، والمزيد من المستويات المهنية.

وهناك تكاليف بقدر ما هناك من أرباح ومكاسب ، بيد أن هناك شيئًا ما يمكن عمله لتخفيض هذه التكاليف الفكرية قدر الإمكان . وعدم الاتصال بين العلوم أو فروع العلم ليس حتميًا . وفى حالة التاريخ على وجه التحديد تلوح بعض الإشارات المشجعة على التقارب إن لم يكن التآلف .

حقًا إنه فى غمرة الاندفاعة الأولى للحماسة تجاه التاريخ البنيوى، كاد تاريخ الأحداث والوقائع أن يكون مستبعداً . وعلى المنوال نفسه، ارتبط اكتشاف التاريخ الاجتماعى أحيانا بازدراء التاريخ السياسى، وهو موقف معاكس لانحياز المؤرخين السياسيين التقليديين. كانت المجالات الجديدة، مثل تاريخ المرأة وتاريخ الثقافة الشعبية فى بعض الأحيان تعامل كما لو

كانت مستقلة (أو حتى مضادة) عن تاريخ الثقافة الراقية وتاريخ الرجال. وكان التاريخ المصغر وتاريخ الحياة اليومية بمثابة ردود الأفعال إزاء دراسة الاتجاهات الاجتماعية الكبرى، أى المجتمع بدون وجه إنسانى .

وفى جميع الحالات التى أوردتها يمكن أن نلاحظ الآن وجود رد فعل تجاه رد الفعل هذا، وهو البحث عن المركز . ويزداد مؤرخو الثقافة الشعبية اهتمامًا بوصف وتحليل العلاقات بين الأعلى والأدنى «تقاطع الثقافة الشعبية وثقافة المتعلمين»(٥٥). وقد قام المؤرخون المتخصصون فى تاريخ المرأة بتوسيع اهتماماتهم لكى تشمل علاقات النوع عموما والبنية التاريخية للذكورة وللأنوثة على السواء (٥٦). ويجرى الآن استبدال التعارض التقليدى بين الأحداث والبنى بتركيز الاهتمام على العلاقات فيما بينهما، وهناك قليل من المؤرخين يجربون أشكالاً سردية من التحليل أو أشكالاً تحليلية من السرد .

وربما يكون أهم من كل هذا أن التعارض طويل الأمد بين المؤرخين السياسيين والمؤرخين غير السياسيين، أخذ ينقشع أخيرا. ذلك أن تحديد تريڤيليان G.M. Trevelyan سيئ السمعة للتاريخ الاجتماعى بأنه «التاريخ بلا سياسة» مرفوض الآن من الجميع . وبدلاً من ذلك نجد الاهتمام بالعنصر الاجتماعى فى الأمور السياسية والعنصر السياسى فى المجتمع. ومن ناحية لم يعد المؤرخون السياسيون يقيدون أنفسهم فى نطاق السياسة «العليا»، أى بالزعماء، والنخب. هم يناقشون جغرافية الانتخابات وعلم الاجتماع الخاص بها و«الجمهورية فى القرية»(٥٧). وهم يدرسون «الثقافات السياسية» ، والفروض المتعلقة بالأمور السياسية التى تشكل جزءا من الحياة اليومية ، ولكنها تختلف اختلافًا بينا من فترة إلى أخرى ومن إقليم إلى آخر. وعلى الجانب الآخر ، ينظر الآن إلى المجتمع والثقافة باعتبارهما ساحتين لاتخاذ القرار، ويناقش المؤرخون «الأمور السياسية للأسرة» و«سياسات اللغة» أو الطرق التى يمكن أن تعبر بها الطقوس عن السلطة ، أو حتى يخلقونها بمعنى من المعانى (٥٨). وما زلنا نبعد كثيراً عن «التاريخ الشامل» الذى يحض عليه بروديل . والواقع أنه سيكون من مجافاة الواقع أن نعتقد أن هذا الهدف يمكن أن يتحقق على الإطلاق- ولكن تمت خطوات قليلة إضافية تجاهه.

حاشية أضيفت سنة ٢٠٠٠م

انقضت عشر سنوات منذ تم إرسال هذه المجموعه من المقالات إلى المطبعة. وفى ذلك العقد، بقيت بعض المجالات أو المقاربات التى نوقشت فى هذا الكتاب، مثل التاريخ الشفاهى،

أو تاريخ المرأة، مستقرة بشكل أساسي، حسبما يجادل كاتبو هذه الفصول ، على الرغم من نشر الكثير من الدراسات الجديدة المؤثرة . وثمة مجالات أخرى تغيرت بطرق مهمة في مسار التغير السريع الذى ألم بها، كما هو الحال في تاريخ الجسد (الفصل العاشر) ، وتاريخ البيئة ، والذى كرسنا له فصلاً جديداً (الفصل الحادى عشر) وتاريخ العواطف متضمنا الغضب ، والخوف، بل حتى الضجر(٥٩). والروابط بين المجالات الأكثر تقليدية مثل تاريخ الحرب والدبلوماسية وما يسمى «التاريخ الثقافى الجديد» ، صارت أكثر قوة ، كما هو الحال في كتاب جون كيجان John Keggan المعنون The Face of Battle ، والتاريخ الحديث للدبلوماسية في أوائل العصر الحديث الذى يخصص مساحة معتبرة لتحليل أهمية ومغزى اللغات المتغيرة والمراسم المستخدمة في مؤتمرات السلام(٦٠).

التاريخ وما بعد الحداثة

غالبًا ما تؤخذ التجارب في المدى والتجارب في السرد من النوع الذى نصفه في هذا الكتاب على أنها من ملامح حركة ثقافية تعرف باسم «ما بعد الحداثة». وكان المؤرخون، لاسيما في بريطانيا، أبطأ من المشتغلين في علوم أخرى كثيرة، من الأدب إلى العمارة، في الأخذ بهذا الاتجاه . والواقع أنه لم يكن هناك مدخل في الفهرس تحت عنوان «ما بعد الحداثة» في الطبعة الأولى من هذا الكتاب (على الرغم من أن بعض الموضوعات الرئيسية ناقشها جيم شارب في الفصل الثانى وجوان سكوت في الفصل الثالث وناقشتها أنا في الفصل الأخير).

وفى العقد الأخير، على أية حال، كان من الصعب تجنب اتخاذ موقف فيما قد يسمى «جدل ما بعد الحداثة»، الذى استبعد فيه النقاد أعمال المؤرخين التقليديين من أمثال ليوبولد ڤون رانكه على أساس أن نموذجه في استعادة ووصف «ما حدث بالضبط» مستحيل التحقيق . وكما هو الحال فيما يسمى إحياء السرد، انجذب اهتمام كثير من البريطانيين صوب الجدل بما أثاره لورنس ستون Lawrence Stone ، في هذه المرة في كتاب Past and Present (١٩٩١م) ، وهى «ملاحظة» استفزت عدداً من الردود. وفى زمن أقرب قدمت مقالة ريتشارد إيفانز Richard Evans المشاغبة ، والتى تحمل عنوان "In Defence of History" (1997) مرشدا ودليلاً إلى الجدل وتدخلاً فيه على السواء (٦١).

فما هو بالضبط موضوع هذا النقاش؟ يمكن تبيان صعوبة الإجابة عن هذا السؤال من خلال وصف الفيلسوف الهولندى فرانك آنكرسميت Frank Ankersmit لكل من ناتالى داڤيز Natalie Davis ، وكارلو جينزبورج Crlo Ginzburg باعتبارهما مؤرخين ينتميان إلى تيار ما بعد الحداثة، وهو وصف رفضه كل منهما بقدر من الحدة . و«ما بعد الحداثة» مظلة تغطى مجموعة من الناس، بعضهم يسير وراء منظرين ثقافيين من أمثال دريدا Derrida على حين يمارس البعض الآخر ببساطة رد الفعل تجاه الحتمية الاقتصادية والاجتماعية ويؤكدون على هشاشة ما يسمى «الحقيقة الاجتماعية» وسيولتها («الحقيقة» مصطلح يتجنبه أنصار ما بعد الحداثة الصالحون كما لو كان وباءً) . ومن ثم ربما يكون مفيداً أن نميّز ما بين موضوعات ثلاثة ، أو نقاشات ثلاثة، يتمركز أحدها حول الاختيار، والثانى حول التفسير والثالث يتمركز حول الخيال .

أولا – تعرض المؤرخون التقليديون للنقد على أساس أنهم كانوا يحكون قصة بسيطة تحتفى بالنصر» باعتبارها «سرداً كبيراً » أو «سرداً متسلطًا» يضفى الامتياز على الغرب – ونخبه ، لاسيما النخب الذكورية بتركيز الاهتمام على إنجازاتهم– النهضة، الإصلاح الدينى، والتنوير والثورة الفرنسية والثورة الصناعية ، والحداثة ، وكل ذلك. والعلاج الذى يقدم هو تاريخ «غير مركزى» به فسحة من المكان لجميع أنواع الناس، المقهورين، والخاضعين ، أو مجموعات «الخانعين» وآرائهم . ومن ثم فإن الحاجة إلى تجربة السرديات التى تحمل وجهات نظر متعددة يناقشها الفصل الثانى عشر. وفى هذه المناقشة يقف ناتالى داڤيز وكارلو جينزبورج إلى جانب النقاد، ويجعلون اختيارهم للناس العاديين مثل الفلاح برتراند رولز Ber-trande de Rols والطحان مينوكشيو سكاندلا Menocchio Scandella ليكونوا الشخصيات الرئيسة فى كتبهم.

ثانيا – واجهت التفسيرات التاريخية التقليدية التحدى، سواء من حيث أهداف الأفراد البارزين (الرجال العظماء) أو فى ضوء القوى الاجتماعية. والاتجاه الجديد (سيراً على نهج إدوارد ثومبسون فى الستينيات) هو التأكيد على دور الناس العاديين فى صناعة تاريخهم، سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الجماعى، باعتبارهم مشاركين فى «البنية» الثقافية أو «اختراع» كيانات اجتماعية مثل جميع الأمم– ومن ثم جاء فيض الكتب الحديثة عن اختراع أثينا، وأفريقيا، والأرجنتين، وسكوتلنده ، وأيرلنده ، وأوربا ، وهلم جرا [٦٢]. ويرتبط

هذا الاتجاه ارتباطًا واضحًا بالاهتمام المتزايد بالتاريخ الثقافى الذى ورد ذكره قبل عدة فقرات قليلة.

ثالثًا – جادل النقاد من ميشيل فوكو Michel Faucault إلى هايدن هوايت Hayden White بأن التاريخ المكتوب نوع من الرواية الخيالية ، وبأن المؤرخين (مثل العلماء) «يبنون» الحقائق التى يدرسونها وأن قصصهم تسير على خط الحبكات الروائية الكلاسيكية مثل التراچيديا والتراچيكوميديا. وفى هذه المناقشة، يقف چينزبورج وداڤيز اللذان بنيا قصصهما من الوثائق المعاصرة المحفوظة فى دور الوثائق ، إلى جانب المؤرخين . ويجب أن نضيف ، على أية حال، أن هناك أكثر من موقفين ممكنين فى هذه المناقشة. ويدرك ناتالى داڤيز ، الذى كتب كتابًا بعنوان "Fiction in the Archives" ، تمام الإدراك أنه لا يمكن على الدوام أخذ الوثائق بقيمتها الظاهرية(٦٣).

والواقع، أن المؤرخين قد أدركوا منذ زمن طويل صعوبة تحديد مدى إمكانية الركون إلى الأدلة ومدى قدرة المؤرخين على ملء الثغرات بمساعدة خيالهم . واتخذوا عدة مواقف فيما بين طرفى التقليدية وما بعد الحداثة . ولهذا السبب ربما كان الأمر مُضللاً ، بالنسبة لريتشارد إيڤانز عندما وضع عنوان كتابه In Defence of History – على الرغم من فعالية هذا الأسلوب طبعا– لأن ما يدافع الكتاب عنه إحدى الطرق الخاصة لكتابة التاريخ . وسوف تتجلى أمام القراءة عدة طرق متنافسة فيما بقى من فصول هذا الكتاب .

الهوامش

This essay owes a great deal to discussions with the late Raphael Samuel over many years; to Gwyn Prins and several generations of students at Emmanuel College, Cambridge; and to Nilo Odália and the lively audience at my lectures at the Universidade Estadual de São Paulo at Araraquara in 1989.

1 For a famous (and debatable) example, see R. W. Fogel and S. Engerman, *Time on the Cross* (Boston, 1974). There is a judicious assessment of the position of economic history today in D. C. Coleman, *History and the Economic Past* (Oxford, 1987).

2 D. J. Vincent, *The Formation of the British Liberal Party* (London, 1966).

3 L. Hunt (ed.), *The New Cultural History* (Berkeley, 1989); P. Burke, *Varieties of Cultural History* (Cambridge, 1997).

4 P. Burke, 'Two Crises of Historical Consciousness', *Storia della Storiografia*, 33 (1998), pp. 3–16.

5 Other varieties are surveyed in J. Gardiner (ed.), *What is History Today?* (London, 1988).

6 J. Le Goff (ed.), *La nouvelle histoire* (Paris, 1978); J. Le Goff and P. Nora (eds), *Faire de l'histoire* (3 vols, Paris, 1974). Some of the essays in this collection are available in English: J. Le Goff and P. Nora (eds) *Constructing the Past* (Cambridge, 1985).

7 J. B. S. Haldane, *Everything has a History* (London, 1951).

8 P. Ariès, *Centuries of Childhood* (1960: English trans. London, 1966); P. Ariès, *The Hour of Our Death* (1977: English trans. London, 1981); M. Foucault, *Madness and Civilisation* (1961: English trans. London, 1970); E. Le Roy Ladurie, *Times of Feast, Times of Famine* (1963: English trans. New York, 1971); A. Corbin, *The Foul and the Fragrant* (1982: English trans. Leamington, 1986); M. Vigarello, *Concepts of Cleanliness* (1985: English trans. Cambridge, 1988); J.-C. Schmitt (ed.), *Gestures*, special issue, *History and Anthropology*, 1 (1984); R. Bauman, *Let Your Words be Few* (Cambridge, 1984); P. Burke, 'Notes for a Social History of Silence in Early Modern Europe', in Burke, *The Art of Conversation* (Cambridge, 1993).

9 F. Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II* (1949: English trans., 2 vols, London, 1972–3).

10 The examiner's name was Lewis Namier. R. Cobb, *The Police and the People* (Oxford, 1970), p. 81.

11 E. Hoornaert et al., *Historia da Igreja no Brasil: ensaio de interpretação a partir do povo* (Petrópolis, 1977).

12 J. G. A. Pocock, 'The Concept of a Language' in A. Pagden (ed.), *The Language of Political Theory* (Cambridge, 1987).

13 R. G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, 1946), pp. 213f.

14 Braudel (1949).
15 Quoted in F. Stern (ed.), *Varieties of History* (New York, 1956), p. 249.
16 I take the term from the famous Russian critic Mikhail Bakhtin, in his *Dialogic Imagination* (English trans. Austin, 1981), pp. xix, 49, 55, 263, 273. Cf. M. de Certeau, *Heterologies: Discourse on the Other* (English trans. Minneapolis, 1986).
17 See almost any issue of the *History Workshop Journal*.
18 Cf. P. Burke, *The French Historical Revolution* (Cambridge, 1990), p. 113.
19 J. H. Robinson, *The New History* (New York, 1912).
20 L. Orr, 'The Revenge of Literature', *New Literary History*, 18 (1986), pp. 1–22.
21 R. Fruin, 'De nieuwe historiographie', repr. in his *Verspreide Geschriften*, vol. 9 (The Hague, 1904), pp. 410–18.
22 M. Harbsmeier, 'World Histories before Domestication', *Culture and History*, 5 (1989), pp. 93–131.
23 W. Alexander, *The History of Women* (London, 1779); C. Meiners, *Geschichte des weiblichen Geschlechts* (4 vols, Hanover, 1788–1800).
24 Some sharp comments on this problem in E. Said, *Orientalism* (London, 1978, best consulted in the Penguin edition of 1995, with a new afterword).
25 E. De Decca, *1930: o silêncio dos vencidos* (São Paulo, 1981).
26 Cf. R. Porter, 'The Patient's View: Doing Medical History from Below', *Theory and Society*, 14 (1985), pp. 175–98.
27 On the ordinary soldiers, see J. Keegan, *The Face of Battle* (London, 1976).
28 J. Ozouf (ed.), *Nous les maîtres d'école* (Paris, 1967), examines the experience of elementary schoolteachers *c*.1914.
29 F. Braudel, *Civilisation matérielle et capitalisme* (Paris, 1967); revised edn *Les structures du quotidien* (Paris, 1979); English trans. *The Structures of Everyday Life* (London, 1981). Cf. J. Kuczynski, *Geschichte des Alltags des Deutschen Volkes* (4 vols, Berlin, 1980–2).
30 M. de Certeau, *L'invention du quotidien* (Paris, 1980); E. Goffman, *The Presentation of Self in Everyday Life* (New York, 1959); H. Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne* (3 vols, Paris, 1946–81). Cf. F. Mackie, *The Status of Everyday Life* (London, 1985).
31 J. Lotman, 'The Poetics of Everyday Behaviour in Russian Eighteenth-Century Culture', in J. Lotman and B. A. Uspenskii (eds), *The Semiotics of Russian Culture* (Ann Arbor, 1984), pp. 231–56. A fuller discussion of the problem of writing the history of cultural rules in P. Burke, *Historical Anthropology of Early Modern Italy* (Cambridge, 1987), pp. 5ff, 21ff.
32 N. Elias, 'Zum Begriff des Alltags', in K. Hammerich and M. Klein (eds), *Materiellen zur Soziologie des Alltags* (Opladen, 1978), pp. 22–9.
33 Cf. P. Burke, *Popular Culture in Early Modern Europe* (London, 1978; revised edn Aldershot, 1994), ch. 3.
34 P. Thompson, *The Voice of the Past* (Oxford, 1978); J. Vansina, *Oral Tradition* (1961: English trans. London, 1965); id., *Oral Tradition as History* (Madison, 1985).
35 P. Smith (ed.), *The Historian and Film* (Cambridge, 1976); A. Trachtenberg, *Reading American Photographs: Images as History, Mathew Brady to Walker Evans* (New York, 1989); J. Tagg, *The Burden of Representation: Essays on*

Photographies and Histories (Amherst, 1988); Robert Rosenstone, *Visions of the Past: The Challenge of Film to our Idea of History* (Cambridge, Mass., 1995).

36 E. Panofsky, *Essays in Iconology* (New York, 1939); E. Wind, *Pagan Mysteries in the Renaissance* (London, 1958). A more sceptical point of view is expressed by E. H. Gombrich, 'Aims and Limits of Iconology', in his *Symbolic Images* (London, 1972), pp. 1–22.

37 C. Ginzburg, 'Da Aby Warburg a E. H. Gombrich', *Studi medievali*, 8 (1966), pp. 1015–65. His criticism was directed against Fritz Saxl in particular. On iconography for historians of mentalities, M. Vovelle (ed.), *Iconographie et histoire des mentalités* (Aix, 1979).

38 K. Hudson, *The Archaeology of the Consumer Society* (London, 1983).

39 J. Deetż, *In Small Things Forgotten: The Archaeology of Early American Life* (New York, 1977).

40 M. I. Finley, *The Use and Abuse of History* (London, 1975), p. 101.

41 A. Appadurai (ed.), *The Social Life of Things* (Cambridge, 1986); J. Brewer and R. Porter, *Consumption and the World of Goods* (London, 1993).

42 W. Aydelotte, *Quantification in History* (Reading, Mass., 1971); A. Bogue, *Clio and the Bitch Goddess: Quantification in American Political History* (Beverly Hills, Calif., 1983).

43 P. Chaunu, 'Le quantitatif au 3e niveau' (1973: repr. in his *Histoire quantitatif, histoire sérielle*, Paris, 1978).

44 G. Le Bras, *Etudes de sociologie religieuse* (2 vols, Paris, 1955–6); M. Vovelle, *Piété baroque et déchristianisation* (Paris, 1973).

45 G. Henningsen, 'El "Banco de datos" del Santo Oficio', *Boletin de la Real Academia de Historia*, 174 (1977), pp. 547–70.

46 J. Mabillon, *De re diplomatica* (Paris, 1681).

47 C. Lloyd, *Explanation in Social History* (Oxford, 1986) offers a general survey. More accessible to non-philosophers is S. James, *The Content of Social Explanation* (Cambridge, 1984).

48 N. Ferguson (ed.), *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals* (London, 1997).

49 E. Erikson, *Young Man Luther* (New York, 1958); P. Gay, *Freud for Historians* (New York, 1985); D. Stannard, *Shrinking History* (New York, 1980).

50 R. G. L. Waite, *The Psychopathic God: Adolf Hitler* (New York, 1977).

51 I take the distinction between 'intentionalists' and 'functionalists' from T. Mason, 'Intention and Explanation', in G. Hirschfeld and L. Kettenacker (eds), *The Führer State: Myth and Reality* (Stuttgart, 1981), pp. 23–40. My thanks to Ian Kershaw for bringing this article to my attention.

52 P. Lowenberg, 'The Psychohistorical Origins of the Nazi Youth Cohort', *American Historical Review*, 76 (1971), pp. 1457–502.

53 J. Delumeau, *La peur en occident* (Paris, 1978); id., *Rassurer et protéger* (Paris, 1989); N. Luhmann, *Love as Passion: The Codification of Intimacy* (1982: English trans. Stanford, 1986); P. N. and C. Z. Stearns, 'Emotionology', *American Historical Review*, 90 (1986), pp. 813–36; C. Z. and P. N. Stearns, *Anger* (Chicago, 1986); T. Zeldin, *France 1848–1945* (2 vols, Oxford, 1973–7).

54 P. Bourdieu, *Outline of a Theory of Practice* (1972: English trans. Cambridge, 1977).

55 A. Gurevich, *Medieval Popular Culture* (1981: English trans. Cambridge, 1988).

56 Editorial collective, 'Why Gender and History?' *Gender and History*, 1 (1989), pp. 1–6.

57 M. Agulhon, *The Republic in the Village* (1970: English trans. Cambridge, 1982).

58 M. Segalen, *Love and Power in the Peasant Family* (1980: English trans. Cambridge, 1983); O. Smith, *The Politics of Language 1791–1815* (Oxford, 1984); D. Cannadine and S. Price (eds), *Rituals of Royalty* (Cambridge, 1987).

59 P. Santangelo, *Emozioni e desideri in Cina* (Rome–Bari, 1992); P. M. Spacks, *Boredom: The Literary History of a State of Mind* (Chicago, 1995); W. G. Naphy and P. Roberts (eds), *Fear in Early Modern Society* (Manchester, 1997); B. H. Rosenwein (ed.), *Anger's Past: The Social Uses of an Emotion in the Middle Ages* (London, 1998).

60 L. Bély, *Espions et ambassadeurs au temps de Louis XIV* (Paris, 1990), especially pp. 411ff, 443ff.

61 For a balanced overview, see J. Appleby, L. Hunt and M. Jacob, *Telling the Truth about History* (New York, 1994).

62 N. Loraux, *L'invention d'Athènes* (Paris, 1981); V. Y. Mudimbe, *The Invention of Africa* (London, 1988); M. G. H. Pittock, *The Invention of Scotland* (London, 1991); N. Shumway, *The Invention of Argentina* (Berkeley, 1991); G. Delanty, *Inventing Europe* (London, 1995); D. Kiberd, *Inventing Ireland* (Cambridge, Mass., 1996).

63 N. Z. Davis, *Fiction in the Archives* (Cambridge, 1988). On these problems, cf. P. Burke, *History and Social Theory* (Cambridge, 1992), pp. 126–9.

(٢)

التاريخ من أسفل

جيم شارب

فى يوم ١٨ يونيو ١٨١٥م ، دارت معركة قرب قرية واترلو البلچيكية . وحسبما يعرف كل من درس التاريخ البريطاني، انجلت المعركة التى خاضها جيش التحالف بقيادة دوق ويللنجتون، بمساعدة حاسمة من القوات البروسية التى قادها بلوخر Blücher ، وإن جاءت متأخرة ، عن هزيمة الجيش الفرنسى بقيادة نابليون بونابرت ، لتحسم بذلك مصير أوربا. وفى الأيام التى أعقبت المعركة التى كانت إحدى المعارك الحاسمة فى تاريخ القارة الأوربية، كتب «النفر» وليم هويلر William Wheler الذى كان جنديا فى الفرقة الواحدة والخمسين مشاة البريطانية عدة خطابات إلى زوجته فى وطنه :

«انتهى القتال الذى استمر أيامًا ثلاثة، وأنا بخير، وهذا يكفى. وسوف أكتب الآن وكلما أتيحت الفرصة عن تفاصيل الحدث الكبير، أى ما رأيته بنفسى ... فقد طلع علينا صبح يوم ١٨ يونيو وقد غمرنا المطر، وخدَّرنا البرد وأدخل الرعشة فى أجسادنا ... وغالبًا ما كنتِ تصبين علىّ اللوم لأننى كنت أدخن عندما كنت فى الوطن العام الماضى، ولكن يجب أن أخبرك أننى لو لم أكن أملك ما يكفى من التبغ فى تلك الليلة لكان حتمًا أن أسلم روحى إلى بارئها»(١).

واسترسل هويلر يصف المعركة لزوجته من جانبها القاسى: تجربة تحمُّل قصف نيران المدفعية الفرنسية ، وواقعة تدمير مجموعة من فرسان العدو المدرعين بزخّة واحدة من القذائف أطلقتها فرقته ، ومشهد أكداس جثث رجال الحرس البريطانى المحترقة بين أطلال قلعة هوجومنت Hougoumont ، والنقود التى نهبت من ضابط سلاح الفرسان الفرنسى الذى أصابه فرد من السرية التى كان هويلر يقودها . وكتب التاريخ تقول لنا : إن ويللنجتون انتصر فى معركة واترلو. وعلى نحو ما ، كان وليم هويلر وآلاف ممن على شاكلته هم الذين كسبوا هذه المعركة.

على مدى العقود الثلاثة الماضية ، أدرك عدد متزايد من المؤرخين العاملين فى تنويعة واسعة من الفترات التاريخية ، والبلاد، وأنماط الكتابة التاريخية ، أن هناك إمكانية لاستكشاف وجهات نظر جديدة عن الماضى توفرها مصادر مثل مراسلات «الجندى» وليم هويلر مع زوجته ، كما شدتهم فكرة استكشاف التاريخ من وجهة نظر «النفر» لا من وجهة نظر القائد الكبير. ومنذ العصور الكلاسيكية كان التاريخ يعتبر تقليديا بمثابة رواية عن أعمال العظماء . وفى القرن التاسع عشر تطور الاهتمام بالتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى ذى المجال الأرحب، بيد أن عرض أحوال النخبة السياسية ظل الموضوع الرئيسى للتاريخ . وكان هناك طبعا عدة أفراد لم يشعروا بالسعادة من جراء هذا الموقف، ومنذ سنة ١٩٣٦م ، قدّم برتولت بريخت Bertold Brecht فى قصيدته التى تحمل عنوان «تساؤلات عامل يقرأ» ما يمكن أن نعتبره حتى الآن أكثر بيان مباشر عن الحاجة إلى منظور بديل لما قد نصطلح على تسميته «تاريخ الجالسين على القمة» [٢]. ومع هذا ، فربما يكون من العدل القول بأنه لم يحدث حتى سنة ١٩٦٦م ، ما يمكن أن يكون ترجمة لهذه الحاجة إلى فعل، وذلك عندما نشر إدوارد ثومبسون مقالة بعنوان "History from Below" فى ملحق جريدة التايمز الأدبى[٣]. وبعدها دخل مفهوم التاريخ من أسفل فى نسيج لغة المؤرخين المشتركة . وفى سنة ١٩٨٥م ، تم نشر مجلد يضم عدة مقالات بعنوان: "History from Below" التاريخ من أسفل [٤]، على حين صدرت طبعة جديدة لكتاب يتناول الكتابة التاريخية عن الحروب الأهلية الإنجليزية وما أعقبها، وفى هذا الكتاب فصل عن المؤلفات الحديثة التى تتناول جذور تلك الفترة بعنوان «التاريخ من أسفل» [٥]. وهكذا ، شهدت السنوات العشرون الماضية توصيف ذلك المنظور الذى قدمته خطابات وليم هويلر عن الماضى.

لقد راق هذا المنظور فى الحال لأولئك المؤرخين التواقين لتوسيع نطاق العلم الذى كرسوا أنفسهم له، بقصد فتح مناطق بحث جديدة، لكى يكتشفوا ، أولا وقبل أى شىء ، تجارب أولئك الرجال والنساء الذين غالبًا ما يتم تجاهل وجودهم ويُنظر إليهم بلا اكتراث أو يرد ذكرهم بصورة عابرة فى المسار العام للتاريخ . وحتى اليوم ، لا يزال التاريخ الذى يتم تدريسه فى المدارس والجامعات ببريطانيا (وفى المؤسسات المناظرة لها فى كل مكان آخر حسبما أظن) يرى أن من الصعب فهم تجربة جماهير الناس فى الماضى، أو أنها مسألة غير مهمة ، أو ربما لا يزال غير قادر على اعتبارها مشكلة تاريخية ، وربما يعتبرها فى أحسن الأحوال «واحدة

من المشكلات التى ينبغى على الحكومة معالجتها »[٦] وأعلن ثومبسون فى سنة ١٩٣٦م بقوة عن الرأى المخالف، عندما كتب فى مقدمة أحد الكتب الرئيسة فى التاريخ الإنجليزى: «إننى أسعى لإنقاذ صاحبات الجوارب الطويلة، وعامل الحصاد الذى يحطم الآلات التى تحل محله، والنسّاج العامل على النول اليدوى الذى بطل استخدامه، والحرفى الحالم بالمدينة الفاضلة ، بل أتباع چوانا ساوثكوت المضللين – أسعى لكى أنقذهم جميعًا منذ نظرة التعطف والمن التى تنظر بها الأجيال التالية إليهم، وربما كانت حرفهم ومهنهم تعانى سكرات الموت . وربما كانت عداوتهم للنزعة الصناعية الجديدة رجعية النظرة . وربما كانت المثل الاجتماعية التى تحكمهم ضرباً من الخيال. وربما كانت مؤامراتهم المتمردة طائشة نزقة . بيد أنهم عاشوا فى رحاب تلك الفترات التى شهدت الاضطراب العنيف الحاد، ولم نعشها نحن» [٧].

ومن ثم، لم يحدد ثومبسون المشكلة العامة المتعلقة بإعادة بناء تجربة جماهير «الناس العاديين» ، فحسب، وإنما أدرك أيضا ضرورة محاولة فهم الناس الذين عاشوا فى الماضى، قدر استطاعة المؤرخ الحديث، فى ضوء تجربتهم الخاصة وردود أفعالهم تجاه تلك التجربة.

وقد استكشف فى هذه المقالة، بقدر ما أتيح له بالرجوع إلى عدد من الكتب الرئيسة المنشورة ، بعض الإمكانيات والمشكلات التى تنطوى عليها كتابة التاريخ من أسفل . وفى بحثى هذا سأعمل على تمثل موضوعين مختلفين نوعًا ما ، حتى مع استخدامى مضطراً لمعيار فضفاض. أول هذين الموضوعين يتمثل فيما أطرحه أمام القارئ حول مدى التنوع المدهش فى مادة الموضوع الذى يمكن وصفه بأنه نتاج مقاربة التاريخ من أسفل، بقدر من التساهل . ويتدرج هذا النتاج من إعادة بناء تجربة الرعاة فى جبال البرينيس فى العصور الوسطى، وصولا إلى إعادة بناء تجارب أولئك العمال الصناعيين السابقين من المسنين الذين تشكل بقايا ذكرياتهم بذرة التاريخ الشفاهى. ويقوم الموضوع الثانى، على عزل بعض هذه الموضوعات الإثباتية، والمفاهيمية، والأيديولوچية ، التى أثارتها دراسة التاريخ من أسفل . والمفهوم الذى تحمله مثل هذه المقاربة فى دراسة التاريخ ذو جاذبية قوية، ولكن ، وكما يحدث غالبًا، لا تلبث المشكلات المتضمنة فى دراسة الماضى من أسفل أن تصير أشد تعقيداً مما يبدو للوهلة الأولى.

وبالتالى ، فإن ما تنطوى عليه احتمالات المستقبل بالنسبة لكتابة التاريخ من أسفل، وإنقاذ تجارب جماهير الناس فى الماضى من براثن الإهمال التام من جانب المؤرخين ، أو مما يسميه

ثومبسون «التنازل الهائل والتعطف من جانب الأجيال اللاحقة» ، أمر جذاب . ولكن، وكما ألمحنا من قبل، تنطوى محاولة دراسة التاريخ من أسفل بهذه الطريقة على عدة صعوبات . أولى هذه الصعوبات : تتعلق بالأدلة والبراهين. وليس على المرء سوى أن يقرأ الدراسة التى أعدها ثومبسون عن سنوات تكوين الطبقة العاملة الإنجليزية لكى يدرك أن التفسير الذى طرحه ، مهما كان النقد الذى وجه إليه، قد قام على أساس كم هائل وغنى من المادة المأخوذة من المصادر الأصلية . وعلى أية حال ، فكلما أوغل المؤرخون ورجعوا القهقرى فى الماضى سعيا وراء إعادة بناء تجربة الشرائح الدنيا، شحت المصادر المتاحة أمامهم . وكما سنرى ، أنبتت المؤلفات والدراسات الممتازة التى تم إنجازها على مثل هذه المواد المصدرية الباقية من الأزمنة الباكرة، بيد أن المشكلة مشكلة حقيقية : ذلك أن اليوميات ، والمذكرات ، والمنشورات السياسية، التى يمكن منها أن نعيد بناء حياة الشرائح الدنيا وتطلعاتهم، قليلة إلى حد الندرة فى الفترة السابقة على أواخر القرن الثامن عشر، باستثناء فترات قليلة (مثل أربعينيات وخمسينيات القرن السابع عشر فى انجلترا) . وثانية هذه الصعوبات : تتمثل فى وجود عدد من المشكلات فى عملية صياغة المفاهيم. فأين يمكن أن نضع مصطلح «أسفل» بالضبط ، وما الذى ينبغى عمله بالتاريخ من أسفل حالما تمت كتابته ؟

وتتضح التعقيدات التى ينطوى عليها السؤال عن تاريخ من بالضبط الذى يأتى من أسفل فى واحدة من مجالات نمو التاريخ الاجتماعى فى السنوات الأخيرة، وهو مجال دراسة الثقافة الشعبية فى أوربا عند مطلع العصر الحديث. وبقدر ما أرى ، وبغض النظر عن اعتبارها نوعًا من المأثورات ، لم يتوصل أى مؤرخ حتى الآن إلى تعريف جامع تمامًا لماهية الثقافة الشعبية فى تلك الفترة حقًا. والسبب الأساسى لهذا أن «الشعب» ، حتى القرن السادس عشر على الأقل، كان عبارة عن مجموعة متنوعة ، تنقسم بفعل الطبقية الاقتصادية، والثقافات المهنية والنوع. ومثل هذه الاعتبارات تجعل أى مفهوم تبسيطى لما قد يعنيه مصطلح «أسفل» فى معظم السياقات التاريخية أمرًا غير ذى جدوى(٩).

كذلك يحظى السؤال الذى يدور حول أهمية أية دراسة تعتمد على مقاربة التاريخ من أسفل وأهدافها البعيدة ، بقدر مساوٍ من الأهمية. وربما يمكن توضيح المشكلات على أفضل نحو بالإشارة إلى مؤلفات المؤرخين الذين يكتبون داخل نطاق التراث الماركسى أو فى إطار تراث تاريخ العمل البريطانى. ومن الواضح أن إسهامات المؤرخين الماركسيين ، سواء هنا أو فى أى مكان آخر ، كانت هائلة ، فالواقع أن أحد الفلاسفة الماركسيين زعم أن كل أولئك الذين

يكتبون التاريخ من أسفل إنما يفعلون هذا تحت ظلال المفاهيم التى صكها ماركس عن التاريخ[١٠]. وعلى الرغم من أن مثل هذه المزاعم قد تبدو مُغالية قليلاً ، فإنه يجب الاعتراف بما يدين به المؤرخون الاجتماعيون لأفكار ماركس والمؤرخين الماركسيين ، وبالتأكيد فإن قصدى ليس الانضمام إلى الاتجاه السائد (حسب الموضة) للحط من قدر تراث يُعتبر من أغنى ما أنجزه الفكر الإنسانى فى العالم . بيد أنه ربما ظهر أن المؤرخين الماركسيين يميلون إلى حصر دراسة التاريخ من أسفل فى نطاق تلك الأحداث والحركات التى انخرطت فيها الجماهير فى نشاط سياسى أو عملت فى مجالات النشاط الاقتصادى المألوفة ، نقول : إنه ربما ظهر أن المؤرخين الماركسيين يميلون إلى هذا أكثر من غيرهم من الذين يكتبون وفق تقاليد أخرى ، والذين أشاروا إلى مدى اتساع موضوع دراسة المؤرخ الاجتماعى. وعلى الرغم من أنه كان لابد لثومبسون أن يتجاوز مثل هذه القيود، فإن هذه كانت نقطة انطلاق مقالته سنة ١٩٦٦م. ومنذ وقت قريب وصف إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm الخلفية التاريخية التى يرتكز عليها مثل هذا الخط من التفكير . وكانت حجة هوبسباوم أن إمكانية ما أسماه «تاريخ الأصول» لم تكن واضحة بالفعل قبل سنة ١٧٨٩ م، أو فى تاريخ مقارب، وكتب : «يبدأ (تاريخ الأصول) بتاريخ الحركات الجماهيرية فى القرن الثامن عشر ... وبالنسبة للماركسى، أو الاشتراكى بصفة أعم ، تطور الاهتمام بتاريخ الطبقات عند القاعدة مع نمو الحركة العمالية...»، وقد استرسل ليكشف أن هذا الاتجاه «قد وضع على عيون المؤرخين الاجتماعيين بعض الغُمامات المؤثرة...»[١١].

جاءت الإشارة إلى بعض هذه الغُمامات فى كتاب نُشر للمرة الأولى فى سنة ١٩٥٧م، وربما كان عنوانه الفرعى «كسر الطبقة العاملة الإنجليزية» ، أعنى كتاب ريتشارد هوجارت Richard Hoggart الذى يحمل عنوان The Uses of Literacy . وفى سياق مناقشته للمقاربات المختلفة لدراسة الطبقة العاملة حثَّ قراء تواريخ حركات الطبقة العاملة على مراعاة الحيطة والحذر . وخرج هوجارت ، مثل كثير غيره ، من مثل هذه الكتب بانطباع مؤداه «أن مؤلفيها بالغوا فى قيمة ما يمثله النشاط السياسى فى حياة الطبقة العاملة ، لدرجة أنهم يفتقرون دائمًا إلى الإحساس الكافى بأصول تلك الحياة...»[١٢]. وقد لاحظ ثومبسون سنة ١٩٦٦م ، انصراف مؤرخى العمل عن اهتماماتهم القديمة بمؤسسات العمل، وبالزعماء ، وبالأيديولوچية ، على الرغم من أنه لاحظ أيضا أن هذه العملية كانت تميل إلى تجريد تاريخ

العمل من بعض تماسكه الداخلى(١٣). وقد تمكن هوبسباوم، الذى كتب فى وقت لاحق فى ضوء اتساع مجال تاريخ العمل، من أن يطرح بعض التفسيرات والآراء الأشد تركيزًا على هذه النقطة. لقد كانت المشكلة (كما يرى هوجارت) تتمثل فى أن مؤرخى الحركة العمالية، سواء كانوا ماركسيين أو غير ذلك، كانوا قد درسوا تاريخ عامة الناس الذين كان يمكن اعتبارهم أسلاف الحركة العمالية: لم يدرسوا العمال أنفسهم، مثلما الوثائقيون Chartists *، وأتباع الاتحادات العمالية ، والعماليين المتشددين» وأكد أن تاريخ الحركة العمالية وغيره من التطورات المؤسسية لاينبغى «أن يحل محل تاريخ عامة الناس أنفسهم»(١٤).

وثمة قيد آخر يفرضه تيار التاريخ العمالى العام على التاريخ من أسفل يتمثل فى تحديد الفترة الزمنية فى إطار مقيد. وربما خرج قراء مقالة ثومبسون ومقالة هوبسباوم فى وقت لاحق بانطباع مؤداه أن التاريخ من أسفل (بغض النظر عن أهداف الكاتبين) لايمكن كتابته سوى بدءًا من الثورة الفرنسية فصاعدًا . وقد أحس هوبسباوم ، كما لاحظنا ، أن تطور الحركات الجماهيرية أواخر القرن الثامن عشر كان أول ما نبه الباحثين إلى إمكانية كتابة التاريخ من أسفل ، واستمر يجادل بأن «الثورة الفرنسية ، لاسيما منذ إحياء اليعقوبية Jaopbinism ** بفضل الاشتراكية وإضفاء الحيوية على حركة التنوير بفضل الماركسية ، كانت بمثابة أرض اليقين لهذا النوع من الكتابة التاريخية» . ثم عاد بعد قليل يطرح سؤاله القائل «لماذا ظهر مثل هذا القدر الكبير من تواريخ الأصول من غمار دراسة الثورة الفرنسية»؟ . وقد استشهد هوبسباوم بأعمال الناس ذات الطابع الجماهيرى والأرشيفات التى خلقها «جهاز إدارى ضخم ودؤوب» قام بتوثيق أفعال عامة الناس، ثم تحول إلى تصنيف ملفاتهم وترتيبها » لصالح المؤرخين . هذا التوثيق وفرَّ مخزونًا غنيًا للباحثين من الأجيال التالية، كما أنه كان، حسب ملاحظة هوبسباوم، «واضح القراءة بشكل جميل، على خلاف الأيدى النكدة التى كانت تكتب فى القرنين السادس عشر والسابع عشر »(١٥).

---

* هم أنصار الحركة الوثائقية Chartism ؛ وهو مصطلح يعنى المبادئ التى نادى بها بعض السياسيين الإصلاحيين الإنجليز فى القرن التاسع عشر بهدف تحسين أوضاع الطبقة العاملة فى بريطانيا على المستوى الاجتماعى والصناعى (المترجم)

** اليعقوبية حركة إرهابية ظهرت فى فرنسا إبان أحداث الثورة الفرنسية (المترجم).

على أية حال ، لم يكن التاريخ من أسفل يكتب فقط عن التاريخ السياسى الحديث المألوف على أيدى مؤرخين يعجزون عن فك طلاسم الخطوط القديمة. فالواقع أنه على الرغم من أن مفهوم التاريخ من أسفل قد تطور بفضل المؤرخين الماركسيين الإنجليز الذين كتبوا داخل حدود التتابع الزمنى التقليدية لتاريخ العمال فى بريطانيا ، فربما كان الكتاب الذى ترك التأثير الأقوى باستخدام هذا المنظور لرؤية الماضى ، ذلك الكتاب الذى كتبه باحث فرنسى واتخذ موضوعه فى أحد المجتمعات الفلاحية فى منطقة البرينيس*. وهو كتاب لو روى أودرى الذى يحمل عنوان Montaillon ، الذى نشر لأول مرة فى فرنسا سنة ١٩٧٥م، ونال قدراً أكبر من الاهتمام ، كما حقق مبيعات أفضل، وانتشر أكثر من معظم كتب تاريخ العصور الوسطى[١٦]. وقد جلب ، طبعا ، بعض الانتقادات من داخل جماعة العلماء والباحثين ، كما أثيرت عدة أسئلة حول منهج لو روى وتعامله مع مصادره [١٧]. ويجب على المؤرخين الذين يتناولون التاريخ من أسفل ، بطبيعة الحال، أن يلتزموا الصرامة فى هذه الأمور مثل غيرهم ، ومع هذا يقف كتاب Montaillon بمثابة علامة على طريق كتابة التاريخ من هذا المنظور . وكما أشار مؤلف الكتاب فإنه «على الرغم من أن هناك دراسات تاريخية شاملة تختص بالجماعات الفلاحية، فهناك قدر قليل للغاية من المادة المتاحة التى يمكن اعتبارها بمثابة الشهادة المباشرة من جانب الفلاحين أنفسهم »[١٨]. وقد تحايل لو روى أودرى على هذه المشكلة بأن أقام كتابه على أساس سجلات محاكم التفتيش التى حفظها چاك فورنييه، أسقف بواتييه Jacques Fournier ، فى أثناء التحقيقات التى أجراها بشأن الهرطقة فيما بين سنة ١٣١٨م وسنة ١٣٢٥م. وأيا كانت جوانب القصور فى كتاب Montaillon ، فإنه لم يوضح فحسب أن التاريخ من أسفل يروق لعامة القراء، ولكنه أظهر أيضا أن أنماطًا معينة من السجلات الرسمية يمكن استخدامها لاستكمال إعادة بناء العالم الفكرى والمادى الذى عاشت الأجيال الماضية فى رحابه.

والواقع أن المؤرخين الاجتماعيين والاقتصاديين يتعودون بصورة مطردة على استخدام أنماط من التوثيق تكمن فائدتها كدليل تاريخى فى حقيقة أن الذين جمعوها لم يسجلوها

---

* منطقة جبال البرينيس Pyrenees ، أو البرانس، منطقة حدودية جبلية تفصل بين فرنسا وإسبانيا.

(المترجم)

عامدين أن تصل للأجيال اللاحقة . ولابد أن الكثير من هؤلاء الجامعين كان سيدهشهم ، وربما كان يزعجهم، استخدام مؤرخى العصر الحالى لقضايا المحاكم ، وما هو مدون فى سجلات الكنائس الأبرشية *، والوصايا ، وعمليات نقل ملكية أراضى الضياع التى سجلوها فى وثائقهم. ومثل هذه الأدلة يمكن استخدامها، بالشكل المناسب ، لاستكشاف التصرفات الواضحة والأفكار الصريحة المعلنة، أو الافتراضات الضمنية المضمرة ، ولتوفير الخلفية الكمية عن التجارب التى جرت فى الماضى. وكما لاحظ ثومبسون : «كانت الضرائب تفرض على الناس: وقد استخدمت قوائم الضرائب، لا على أيدى مؤرخى الضرائب، وإنما استخدمها مؤرخو السكان. وكانت ضرائب العشور تجبى من الناس: واستخدم مؤرخو السكان سجلات الأراضى باعتبارها أدلة تاريخية. وكان من المعتاد أن يكون الناس مستأجرين للأرض أو عليهم التزام مرتبط بها : وكانت حيازاتهم تسجل فى لفافات وتسلم إلى محكمة الضيعة: هذه المصادر الأساسية يفحصها المؤرخون المرة تلو الأخرى ، ليس بحثا عن الأدلة الجديدة فحسب، ولكن فى حوار يطرحون فيه أسئلة جديدة»(١٩).

وحسبما يبين هذا النص الذى اقتبسناه ، تتنوع هذه المواد المصدرية تنوعًا كبيرًا . فمن حين لآخر ، كما هو الحال بالنسبة للمواد التى قام كتاب Monaillon على أساسها ، تتيح هذه المواد للمؤرخ الاقتراب من كلمات الناس على نحو ما تفعل الشرائط المسجلة بالنسبة للمؤرخ فى مجال التاريخ الشفاهى . لقد استخدم التاريخ الشفاهى كثيرًا بواسطة المؤرخين الذين يحاولون دراسة تجربة الناس العاديين ، على الرغم من عدم وجود سبب دال بنفسه ، طبعًا، يبرر عدم قيام المؤرخين الشفاهيين بعدم تسجيل ذكريات الدوقات النساء وصاحبات النفوذ، مثلما يسجلون ذكريات الزوجات فى المنازل والعاملات فى المناجم والمصانع (٢٠). بيد أن المؤرخين الشفاهيين يواجهون مشكلات واضحة فى التعامل مع الناس الذين كانوا قد ماتوا قبل أن يتم التسجيل نقلاً عنهم أو الذين ضاعت ذكراهم من خلفائهم، كما أن نمط الشهادة المباشرة التى يمكنهم الحصول عليها لم يكن متاحًا للمؤرخين فى الفترات السابقة. وعلى العكس، كما أشرنا من قبل، هناك من الأدلة ما يتيح لمؤرخى مثل هذه العصور الاقتراب من تجارب الطبقات الدنيا.

---

* يقصد الكنائس الصغيرة (فى القرى أو فى الأحياء الحضرية) التى تمثل المستوى الأدنى فى التراتبية الإدارية الكنسية . (المترجم)

لقد استخدم لو روى لادورى مصدراً من نوعية هذه المصادر ، وهو سجل چاك فورنييه. وثمة كتاب آخر يوضح كيف يمكن استخدام مثل هذا النمط من السجلات القانونية فى نوع آخر إلى حد ما من التاريخ من أسفل ، صدر سنة ١٩٦٧م، مع نشر الطبعة الإيطالية من كتاب كارلو جينزبورج الذى يحمل عنوان «الجبن والدود» The Cheese and the Worms[٢١]. ولم يكن هدف جينزبورج إعادة بناء عقلية المجتمع الفلاحى وأسلوب حياته ، بقدر ما كان غرضه أن يستكشف العالم الفكرى والروحى لشخص فرد؛ هو طحَّان اسمه دو مينيكو سكانديلا (اشتهر باسم مينوكشيو Mencchio) ، ولد فى سنة ١٥٣٢م، وعاش فى فريولى Friuli بشمال إيطاليا ووقع مينوكشيو هذا فى براثن محاكم التفتيش (وانتهى أمره بالإعدام فى سنة ١٦٠٠م على ما يبدو)، وقد يسَّر الحجم الهائل لوثائق هذه القضية لجيزبورج أن يعيد بناء الكثير من نظام مينوكشيو الإيمانى. والكتاب نفسه إنجاز يستلفت النظر، على حين تطرح المقدمة التى كتبها جينزبورج مناقشة مفيدة للمشكلات المتعلقة بالمفاهيم والمنهج فى عملية إعادة بناء ثقافة الطبقات الخاضعة فى عالم ما قبل عصر الصناعة . وكان مثابراً ، على نحو خاص ، على القول بأن «حقيقة أن هناك مصدراً ما غير موضوعى لايعنى أنه بلا فائدة... وباختصار ، يمكن استخدام حتى الأدلة الضئيلة والمبعثرة والغامضة، بشكل جيد »[٢٢]. وجادل بأن هناك قيمة لدراسة الأفراد بهذا القدر من العمق تعادل قيمة المقاربات الأكثر جماعية فى التاريخ الاجتماعى. وتبقى المشكلة، بطبيعة الحال، مرتبطة بمدى نمطية مثل هؤلاء الأفراد . ومع هذا ، فإن دراسات الحالة من هذا النوع يمكن أن تنورنا بدرجة هائلة ، إذا ما تم تناولها بالشكل الصحيح .

لكن المؤرخين استخدموا أنماطا أخرى من التوثيق الرسمى أو شبه الرسمى بدلاً من الاعتماد على مصدر واحد ثرى فى سياق جهودهم لدراسة التاريخ من أسفل. وهناك مثال يتجسد فى بربارا هناوالت Barbara A. Hanawalt التى أفادت كثيراً من مصادر التاريخ الاجتماعى الإنجليزى العظيمة المهملة، وهى تحقيقات الموظفين القضائيين بشأن الوفيات، لكى تعبد بناء نمط حياة العائلة الفلاحية فى العصور الوسطى[٢٣]. وتجادل هناوالت بأن هذه السجلات تخلو من الانحياز الذى يشوب السجلات الملكية، أو الكنسية، أو سجلات محاكم الضياع الزراعية، كما تشير إلى النقطة المهمة التى تقول : إن تفاصيل الحياة المادية والأنشطة العائلية المسجلة فى هذه الوثائق جاءت مصادفة وإضافة على القصد الأساسى من

السجلات؛ ومن ثم فمن المستبعد أن تكون مشوشة . وكما يحدث غالباً مع السجلات الرسمية ، تكون فائدتها بالغة القيمة عند استخدامها فى أغراض لم يحلم بها جامعوها على الإطلاق . وقد جمعت هناوالت بينها وبين أشكال أخرى من التوثيق ، واستخدمت هذه التحقيقات لإعادة بناء صورة البيئة المادية، واقتصاد الأسرة، ومراحل دورة الحياة، ونماذج لتربية الأطفال، فضلاً عن جوانب أخرى من حياة الفلاحين اليومية فى العصورالوسطى. وبمعنى ما، يكشف كتابها عن استراتيجية بديلة لتلك التى اتبعها لو روى لادورى وجينزبورج: وهى غربلة كم ضخم من الوثائق بدلاً من بناء حالة قائمة على أساس مصدر واحد غنى بصورة غير معتادة. وتمثلت النتيجة النهائية فى بيان أنه يمكن مع هذا استخدام شكل آخر من أشكال التوثيق الرسمى فى بناء التاريخ من أسفل .

وقد أدى هذا التوسع فى المدى الزمنى التتابعى للتاريخ من أسفل ، والحركة فى اتجاه مدى من الاهتمامات التاريخية أوسع من التصرفات السياسية وحركات الجماهير السياسية ، إلى البحث عن نماذج أخرى غير تلك التى تقدمها الماركسية التقليدية أو النمط الأقدم من تاريخ العمل. والحاجة إلى استمرار الحوار مع الباحثين الماركسيين حاجة جوهرية ، بيد أنه يبقى واضحًا أنه حتى تطبيق مفهوم ماركسى أساسى مثل مفهوم الطبقة على عالم ما قبل الصناعة أمر محفوف بالمشكلات ، على حين يصعب تصور خط ماركسى متمايز ينطبق على قضية تشهير فى يوركشاير القرن السادس عشر أو على تصنيع القشدة فى ويلتشاير فى القرن السابع عشر . ومن سوء الحظ، أن البحث عن نموذج بديل (وهو ما بدأ بالكاد) لم يحقق حتى الآن سوى القدر القليل جداً من النجاح . وهناك كثير من المؤرخين ، لاسيما فى قارة أوربا ، تأثروا بمدرسة الحوليات Annales الفرنسية (٢٤). كما أن كثيرا من المؤلفات المتنوعة التى كتبها كتاب يعملون فى رحاب تقاليد الحوليات لم تعمق فقط معرفتنا بالماضى، بل وفرت أيضا رؤى منهجية هائلة م، ن حيث أنها بينت كيف يمكن تحقيق الاستخدام التجديدى لأشكال تقليدية من التوثيق ، وكيف يمكن صياغة أسئلة جديدة عن الماضى. وعلاوة على ذلك، برهن توضيح الحوليين لمفهوم الذهنية mentalité على قيمته التى لا تُقدَّم بثمن بالنسبة للمؤرخين الذين حاولوا إعادة بناء العالم الفكرى للطبقات الدنيا . وعلى أية حال ، فإننى سوف أقنع بأن الإسهام الأكبر فى المنهج الذى تنتهجه الحوليات تمثل فى بيان كيفية بناء السياق الذى يمكن أن نكتب التاريخ من أسفل فى نطاقه. إذ إن معرفة ارتفاع أسعار الغلال فى

مجتمع معين على مدى فترة معينة ، مثلاً ، تساعدنا على وضع الخلفية الأساسية اللازمة لفهم تجربة الفقراء ، ومثل هذا الدليل، على أية حال، لايمكن أن يكون كل القصة .

وقد سعى نفر آخر إلى البحث عن النماذج فى الاجتماع والأنثروبولوچى . وهنا أيضا كانت المكاسب كبيرة فى الأيدى الماهرة الحساسة مع بقاء بعض المشكلات حتى فى هذه الأيدى، على حين وقعت بعض الكوارث فى أيد أخرى. وربما يثور الجدل بأن علم الاجتماع له علاقة أوثق بمؤرخى المجتمع الصناعى ، على حين لم تكن بعض فروضه قابلة للتطبيق بسهولة على نمط الدراسة المصغرة الذى يفضله الباحثون العاملون فى دراسة التاريخ من أسفل [٢٥]. لقد جذبت الأنثروبولوچيا عدداً من المؤرخين المتخصصين فى التاريخ الوسيط وبواكير التاريخ الحديث، على الرغم من أن الحصاد هنا أيضًا لم يكن بلا مشكلات [٢٦]. وقد تم إلقاء الضوء على بعض المسائل بفضل كتاب آلان ماكفرلين Alan Macfarlane عن الاتهامات بممارسة السحر فى إسكس Essex زمن أسرة تيودور وستيوارت [٢٧]. إذ انطلق ماكفرلين لكتابة ما يمكن وصفه بأنه تاريخ ممارسة السحر من أسفل . وكان هناك تفسير متعالٍ للموضوع وضعه هيو تريڤور- روبر Hugh Trevor - Roper فى فترة سابقة، وأعلن فى دراسته عن ممارسة السحر فى أوربا أوائل العصور الحديثة عدم اهتمامه «بمجرد الاعتقادات فى السحر، تلك السذاجة القروية البدائية التى يكتشفها علماء الأنثروبولوچيا فى كل وقت وفى كل مكان»[٢٨] وعلى العكس من ذلك انغمس ماكفرلين فى «مجرد الإيمان بالسحر» وأنتج كتاباً كان طفرة كبرى فى فهمنا للموضوع. وأحد العناصر المذهلة للغاية فى مشروعه ؛ كان تطبيق الدراسات الأنثروبولوچية على المادة التاريخية ؛ وكانت النتيجة أن تعمق فهمنا لوظيفة السحر فى مجتمع القرية ؛ وكيف كانت الاتهامات ضد السحر تتولد غالبًا عن سياق من التوترات النمطية فيما بين الأشخاص . بيد أن المقاربة الأنثروبولوچية لم تقدم سوى القليل لمساعدة القراء على فهم هذه الأبعاد الأوسع للموضوع، وهى الأبعاد الموجودة خارج مجتمع القرية: فلماذا يمرر تشريع فى البرلمان يسمح بمحاكمة أعمال السحر الشريرة سنة ١٥٦٣م، ولماذا صدر تشريع آخر يجعل من المستحيل مقاضاة السحر بشكل قانونى سنة ١٧٣٦م؟ إن مقاربة التاريخ المصغر التى تفضلها الدراسات والنماذج الأنثروبولوچية يمكن بسهولة أن تحجب المشكلة الأكثر عمومية التى تتعلق بمكانة السلطة فى المجتمع وطبيعة عملها .

ووراء جميع مناقشاتنا يكمن سؤال مؤداه : هل يشكل التاريخ من أسفل مقاربة لدراسة

التاريخ أم أنه نوع متمايز من الكتابة التاريخية ؟ ويمكن مناقشة هذه النقطة من الناحيتين على السواء. فثمة من يجادل بأن «التاريخ من أسفل» بوصفه مقاربة لدراسة التاريخ يؤدى وظيفتين مهمتين ، أولاهما : أنه يكون بمثابة تصحيح لتاريخ الأشخاص القابعين على القمة، ويبين أن معركة واترلو ضمت النفر هويلر بقدر ما ضمت دوق ويللنجتون، أو أن التطور الاقتصادى لبريطانيا ، الذى بلغ أوجه سنة ١٨١٥م، تضمن ما أسماه ثومبسون «المشاة الفقراء الملاعين فى جيش الثورة الصناعية ، والذين كان يمكن للثورة الصناعية أن تظل محض افتراض بدون عملهم ومهارتهم» (٢٩). والوظيفة الثانية : تقديم مقاربة بديلة تتيح للتاريخ من أسفل إمكانية الحصول على مزيج أغنى من الفهم التاريخى، وصهر تاريخ حياة الناس اليومية مع مادة الأنماط الأكثر تقليدية من الكتابة التاريخية. وعلى الطرف المعاكس ، يمكن المجادلة بأن مادة التاريخ من أسفل، ومشكلة توثيقه ، وربما الاتجاه السياسى لكثير ممن يدرسونه ، تجعل من الصعب الحفاظ على تقسيم قاطع بين نمط ما من الكتابة التاريخية ومنهج دراسة التاريخ برمته: إذ إن التاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الفكرى، والتاريخ السياسى، والتاريخ العسكرى، وهلم جرا، كلها تكون أدنى تأثيراً عندما يكون أى منها محدداً بشكل صارم داخل النطاق المرسوم له . ذلك أن أى نمط من الكتابة التاريخية لابد وأن يؤدى إلى اتساع فكر المؤرخ الذى يكتبه .

ولابد، إذن ، أن يظهر أن التاريخ من أسفل تكون فاعليته فى عزّ قوتها عندما يتم وضعه فى سياق معين . وهكذا، أعلنت هيئة التحرير فى العدد الأول من مجلة History Workshop Journal ، وهى دورية مكرسة لهذا النمط من الكتابة التاريخية إلى حد كبير : «إن اشتراكيتنا فرضت علينا الاهتمام بعامة الناس فى الماضى ، وحياتهم وعملهم وأفكارهم، على المستوى الفردى، وكذلك الاهتمام بالسياق والأسباب التى شكلت تجربة طبقتهم» ، واستمر المحررون «كما أنها فرضت بالقدر نفسه الاهتمام الذى سنوليه للرأسمالية»(٣٠) وحسبما تذكرنا مثل هذه العبارات، ينطوى مصطلح «التاريخ من أسفل» فعلاً على أن هناك شيئا أعلى يتصل به . هذا الافتراض بدوره يفترض أن تاريخ عامة البشر، حتى عندما تكون هناك جوانب سياسية بارزة فى تجربتهم فى الماضى، لايمكن فصله عن الاعتبارات الأوسع للبناء الاجتماعى والسلطة الاجتماعية. ويقودنا هذا الاستنتاج بدوره إلى مشكلة وجوب تناسب التاريخ من أسفل مع المفاهيم الأوسع للدراسة التاريخية . ذلك أن تجاهل هذه النقطة، عند

دراسة التاريخ من أسفل أو عند دراسة أى نوع آخر من التاريخ الاجتماعى ، يعنى المخاطرة بظهور التفتت فى الكتابة التاريخية بصورة مكثفة ، بل ربما أدى إلى ظهور نوع من سلفية اليوم الأخير*. وفى سنة ١٩٦٧م ، قام تونى جودت Jony Judt بتحديد المخاطر بصورة طيبة. ويحتاج المرء إلى أن يشاطر جودت موقفه الكلى لكى يتعاطف مع اهتمامه بأن «ليس هناك على الإطلاق مكان للإيديولوچيا فى التاريخ الاجتماعى الحديث، أكبر مما كانت تحتله فى علم الاجتماع الذى أخذ اسمه منه ... إن التاريخ الاجتماعى، كما أشرت سلفًا ، قد تحول إلى نوع من الأنثروبولوچيا الثقافية المتخلفة»(٢١).

ويطرح نمط التاريخ من أسفل مسألة أخرى، وهى مسألة توسيع عدد جمهور المؤرخ المحترف ، والسماح بقدر من إمكانية الوصول إلى التاريخ المهنى أكبر مما يوفره المؤرخون الأكاديميون لطلابهم عادة . وفى مقالة ثومبسون التى نشرها سنة ١٩٦٦م ، لاحظ أن تاونى Tawney ومؤرخين آخرين من جيل تاونى لديهم «قراء كُثر بشكل غير عادى ولهم جمهور خارج بستان الأكاديمية»، ومن الواضح أنه كان يأسى لأن ذلك كان شيئا يفتقر إليه المؤرخون الأحدث زمنا (٢٢). وقد أثيرت هذه المسألة فى زمن أقرب على يد شخص يعمل فى موقع يختلف إيديولوچيًا إلى حد ما عن ثومبسون ، وهو ديڤيد كنادين David Cannadine . وإذ لاحظ كنادين التوسع الجماهيرى للتاريخ بوصفه علمًا جامعيًا فى بريطانيا ما بعد الحرب، علق بقوله :

«إن الكثير من هذه الصيغة الحرفية الجديدة من التاريخ البريطانى كان محرومًا تمامًا من الجمهور العادى الكبير، الذى كان إرضاء فضوله بشأن الماضى الوطنى ذات مرة الوظيفة الأولى للتاريخ . وإحدى النتائج المتناقضة لهذه الفترة غير المسبوقة من التوسع تمثلت فى أنه كلما كتب المؤرخون الأكاديميون المزيد من التاريخ الأكاديمى ، قل عدد الناس الذين كانوا يقرأونه فعلا »(٢٣).

---

* يريد المؤلف هنا أن يقول : إن تجاهل نقطة التناغم والانسجام بين ما تطرحه أية مقاربة لدراسة التاريخ، وبين منهج دراسة التاريخ بشكل عام ، يمكن أن يؤدى إلى فوضى التجزئة والتفتيت التى يمكن أن تؤدى بدورها إلى ظهور أنماط تتناقض فى بنيتها الذاتية مثل هذا النمط العجيب الذى أسماه "Latter - day antiquarianism" (المترجم)

وأحدالأهداف الكبرى لأولئك الذين يكتبون التاريخ من أسفل، لاسيما أولئك الذين يعملون في موقع التاريخ الاشتراكي أو العمال ، كان محاولة علاج هذا الموقف بتوسيع جمهوره، وربما تقديم صيغة شعبية لتلك التوليفة الجديدة من تاريخنا الوطني الذى نعاه كانادين لموته . وحتى الآن لم تسفر جهودهم عن نجاح ، ولا يزال تاريخ القابعين على القمة يبدو أنه يلبى حاجات الذوق العام. وقد اعترف هوبسبام نفسه بإحباطه من كثرة عدد قراء سير الزعماء السياسيين(٣٤).

وحتى مع هذا، فإن مفهوم توسيع إمكانية الوصول إلى وعى بماضينا عبر التاريخ من أسفل لا يزال مفهومًا جذابًا . ويبقى الخطر، على أية حال، من الوقوع فى شئ مثل تجزئة المعرفة التاريخية ومن تجريد التاريخ من السياسة الذى ضايق جودت لهذه الدرجة . إن الاهتمام العام بالتاريخية من أسفل ، حسبما سيعرف أى واحد كان له اهتمام بالأسئلة الميدانية فى مثل هذه الموضوعات فى اجتماعات فرع الجمعية التاريخية ، غالبًا ما يكون مقيداً بما يمكن أن نسميه – اصطلاحًا – وجهة نظر «أعلى السلالم وأسفل السلالم» عن المجتمع فى الماضى، وقد تفاقمت هذه المشكلة بسبب بعض جوانب ما تعودنا على أن نصفه فى هذه الأيام بأنه التاريخ العام (أى تاريخ العامة) . ومثل هذه الرؤية تعى أن الناس فعلوا أشياء مختلفة (وهو ما يعنى ضمنا أنها أشياء غريبة إلى حد ما) فى الماضى، وأن كثيرا منهم عانوا الحرمان المادى وتحملوا المشاق ، مما يسمح لنا أن نقارن تعاسة الماضى بظروفنا الحالية الأكثر يسراً . بيد أن هناك محاولة صغيرة لدفع الأمور إلى الأمام أو لمقاربة المشكلات التاريخية على مستوى أعلى كثيرا من الحكاية أو التجربة المحلية المنعزلة . وحتى أولئك الذين لهم نظرة أكثر تطوراً عن ماضى الناس لم يهربوا من تلك التهم بالسلفية التى يغرم المؤرخون الأكاديميون بإطلاقها على من هم أقل تسلحًا بالمفاهيم أو الإيديولوچية . وهكذا، استطاع رودريك فلود Roderick Floud ، وهو ينتقد مجموعة لها أفكار محددة قاطعة للغاية عن أهمية تاريخ الناس، أن يزعم أنه «فى وقت ما، بالفعل، أنبت أسلوب ورشة التاريخ على حواف نزوع اليسار للاتجاه للماضى ، ما يشبه نباتات اليوم الواحد فيما تم جمعه ونشره عن حياة الطبقة العاملة»(٣٥) وعلى الرغم من أن المرء قد لا يكون متعاطفًا مع رأى فلود برمته ، فإنه يمكن أن يكون هناك قدر قليل من الشك فى أنه قد حدد إحدى المشكلات الحقيقية.

وثمة إجابة ممكنة عن هذا النقد مؤداها، بطبيعة الحال، أنه حتى بعض «سلفية اليسار»

أتاحت بناء جسم صلب من المواد المتصلة ببعضها البعض، وحتى من خلال جمع ونشر الكتابات التافهة (النباتات التى تعيش يوماً واحداً) ، يمكن أن يكون هناك أمل قليل فى تطوير توليفة ناضجة أو وجهة نظر أوسع ذات مغزى . وثمة إجابة ثانية ، وربما أشد صلابة ، هى أن دراسات الحالات المنعزلة أو الدراسات المشابهة لها، إذا ما تم وضعها فى سياق ما، ربما تؤدى إلى شئ أكثر أهمية من النزوع إلى القديم. وتحت الظروف المواتية (دراسة كارلو جينزبورج عن دومينيكو سكاندالا تبدو مثالاً طيبًا) يمكن لكاتب التاريخ من أسفل أن يستفيد إلى حد كبير مما قد يصفه الأنثروبولوجيون بأنه وصف مكثف [٣٦]. إن المشكلة الفكرية التى يثيرها مثل هذا الأسلوب سوف تكون مألوفة لمؤرخى التاريخ الاجتماعى: وهى مشكلة وضع حدث اجتماعى فى داخل السياق الثقافى الكامل، بحيث يمكن دراستها على مستوى تحليلى بدلا من المستوى الوصفى وحده . ولكن من الواضح أن هذه العملية يمكن أن تنقلب رأسا على عقب، وما أن يتم استيعاب المجتمع محل الدراسة، فإن الحادث الاجتماعى المنعزل أو الفرد (مثلما كان حال الطحان الفريولى الذى كان مفرداً ولكنه جيد التوثيق) يمكن استخدامه لفتح الطريق إلى فهم أعمق لذلك المجتمع . ولايحتاج المؤرخ إلى تبنى المفهوم العلاماتى للثقافة الذى يدافع عنه أنثروبولوجيون من أمثال كليفورد جريتز Clifford Greetz لكى يقدر قيمة الفائدة المحتملة من وراء هذا الأسلوب. والمشكلة الأساسية التى يتناولها جريتز ، هى كيف يجب علينا أن نترجم حقيقة اجتماعية إلى البنية البحثية للكتب، والمقالات أو المحاضرات ، وهو بالتأكيد أمر مألوف بالنسبة لدارسى التاريخ من أسفل .

ومن المأمول أن الصفحات السابقات سوف تقنع القارئ، إذا لم تفعل شيئا غير ذلك، بأن كتابة التاريخ من أسفل مشروع برهن على أنه مثمر بشكل غير عادى. وهناك ، بالطبع ، مشكلات. وإحدى هذه المشكلات التى لا أستطيع أن أفعل شيئًا أكثر من تقريرها هنا هى أن «أسفل» فى هذا السياق كان فى الأصل مفهوماً فى مصطلحات بنية الطبقة أو شكلاً آخر من أشكال التقسيم الطبقى الاجتماعى: ومن الواضح أن كتابة التاريخ من وجهة نظر النساء أو الأطفال ، سوف تقدم رؤى ثاقبة مختلفة لما كان يستلزمه الخضوع . وعلاوة على ذلك فإن معظم الأمثلة التى عولنا عليها من الدراسات التى قام بها المؤرخون فى أوربا الغربية جاءت من عالم ما قبل الصناعة. ولكن مفهوم كتابة التاريخ «من أسفل» قد استخدم أيضا على أيدى مؤرخين كتبوا عن ثورة العبيد فى سان دومينجو[٣٧]، وعن الحركات الوطنية فى الهند فى

القرن العشرين[٣٨]. والثورة الروسية[٣٩]. وقد علق سومت ساركر Sumit Sarkar فى دراسة عن الحركات الوطنية الهندية، بأن العمل كان جزءاً من «بداية مشاركة هندية فى الاستخدام التخيلى على مستوى العالم لسلسلة واسعة من المصادر، مع عدم ثقة معينة أو استخفاف بالحركات السياسية الناجحة ظاهرياً والمنظمة تنظيماً بيروقراطيا بشكل أو آخر»[٤٠]، وهو موقف يشاركه فيه على نطاق واسع من يكتبون التاريخ من أسفل والذين يعملون على ثقافات أوربية أبعد زمناً .

وهكذا جذب مفهوم التاريخ من أسفل اهتمام المؤرخين العاملين على عدد من مجتمعات الماضى من حيث تنوعها جغرافيا أو من حيث تفاوتها زمنياً من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين. وقد جاء هؤلاء المؤرخون من عدة موروثات فكرية ومواقف أيديولوچية . وفى كتابة التاريخ من أسفل، سعى هؤلاء المؤرخون نحو الجدة فى أشكال تباينت ما بين المقالة البحثية التقنية والكتاب الأكثر مبيعًا . وعلاوة على ذلك ، فإن الباحثين العاملين فى ميادين علمية أخرى، لاسيما فى مجال الأنثروبولوچى[٤١] والأدب الإنجليزى [٤٢]، قد انطلقوا عامدين لتحليل موضوعات أبحاثهم «من أسفل» ، ولكن ربما تأسست وجهة النظر هذه فى التاريخ بشكل أكثر إقناعًا ، ويجب الآن أن نخرج ببعض الاستنتاجات عن الأعمال التى جرت فى هذا الركن المثمر وإن كان مربكًا فى كرمة كليو وبستانها *.

ومن الواضح على الأقل أن عدداً من المؤرخين قد نجحوا فى التغلب على العقبات الكبرى التى تعوق ممارسة التاريخ من أسفل . وبصفة أكثر تحديداً ،اعترف عدد من الباحثين بالحاجة إلى قفزة مفاهيمية لتوسيع مدى فهمهم للطبقات الدنيا فى مجتمعات الماضى، ثم واصلوا مسيرتهم لإنجاز تلك المأثرة فى الرياضة الفكرية بنجاح . لقد استطاع إدوارد ثومبسون ، وكارلو جينزبورج ، وإيمانويل لو روى لادورى، والباقون من مختلف المواقع وبأهداف تاريخية مختلفة فى الرؤى ، استطاعوا جميعًا أن يبينوا كيف يمكن للخيال أن يتفاعل مع البحث والدراسة لتوسيع رؤيتنا للماضى. وعلاوة على ذلك، أوضحت أعمال هؤلاء

---

* كليو Clio هى ربة التاريخ عند الإغريق، وتستخدم فى أحيان كثيرة مع الربة ميوزيه Muse، ربة الفنون والشعر والإلهام، للدلالة على الممارسات الفكرية مثل الكتابة التاريخية . ويريد المؤلف هنا القول بأن التاريخ من أسفل جزء مثمر فى بستان الدراسة التاريخية. (المترجم)

المؤرخين وغيرهم كيف يمكن تطبيق الخيال التاريخى ليس فقط لتشكيل صياغة مفاهيم جديدة لمادة التاريخ، وإنما أيضا لطرح أسئلة جديدة عن الوثائق وإنجاز أشياء مختلفة بها. ومنذ ثلاثة عقود أو أربعة عقود مضت كان لابد لكثير من المؤرخين أن ينكروا إمكانية كتابة تاريخ جاد عن عدد من الموضوعات التى تعتبر الآن موضوعات مألوفة، بسبب عدم توافر الأدلة والبراهين، وهى موضوعات مثل : الجريمة ، والثقافة الشعبية، والديانة الشعبية، والأسرة الفلاحية . ومن مؤرخى العصور الوسطى الذين يحاولون إعادة بناء حياة المجتمعات الفلاحية إلى المؤرخين الشفاهيين الذين يسجلون أحوال الأجيال السابقة فى القرن العشرين ويصفونها، أظهر المؤرخون الذين يكتبون التاريخ من أسفل كيف يمكن للاستخدام التخيلى لمادة المصادر أن يلقى الضوء على كثير من مناطق التاريخ التى كان يُظن أن بقاءها فى الظلام كان حتمًا مقضيًا .

ومع هذا فإن مغزى التاريخ من أسفل وأهميته أعمق من مجرد إتاحة الفرصة أمام المؤرخين لإظهار قدرتهم على التخيل والإبداع . إذ إنه يوفر أيضا الوسيلة لاستعادة تاريخ الجماعات الاجتماعية التى ربما ساد الظن بأنها قد فقدته ، أو التى كانت لاتدرك أن تاريخها موجود. وكما لاحظنا ، فإن المكانة المهمة للتاريخ من أسفل فى تاريخ الثورة الفرنسية أو فى تاريخ الحركة العمالية البريطانية تسبب بعض المشكلات هنا، على الرغم من حقيقة أن العمل على جماهير القرن الثامن عشر أو الطبقة العاملة فى القرن التاسع عشر قدم لنا بعضا من أقوى الأمثلة عن كيف أنه يمكن إماطة اللثام عن التاريخ المخفى لفئات من الناس . إن أغراض التاريخ متنوعة ، ولكن أحد هذه الأغراض أن يزود أولئك الذين يكتبون أو يقرأون بإحساس بالهوية، بإحساس بالأصل الذى جاءوا منه. وعلى المستوى الأوسع ، يمكن لهذا أن يأخذ شكل دور التاريخ ، من خلال كونه جزءًا من الثقافة الوطنية، فى تشكيل الهوية الوطنية . ويمكن للتاريخ من أسفل أن يلعب دوراً مهمًا فى هذه العملية بتذكيرنا بأن هويتنا لم تتشكل فقط على أيدى الملوك ورؤساء الوزراء والقادة. هذه النقطة لها مضامين أبعد من هذا . ففى كتاب كُتب عن تاريخ مجموعة كانت «أسفل» بلاشك ، وهم العبيد السود فى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، لاحظ إيوجين د. چنوڤيز أن غرضه الأساسى كان أن يستكشف «مسألة الوطنية– «الهوية» التى استشرت فى التاريخ الأمريكى– الأفريقى منذ بداياته الاستعمارية»[٤٣] ومرة أخرى ، مثلما كان الحال فى كتاب ثومبسون عن الطبقة العاملة

الإنجليزية، مثلا ، يكون استخدام التاريخ لتعريف الذات أمراً أساسيًا . بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن كتاب جنوڤيز Genoves يحمل عنوانًا فرعيًا هو «العالم الذى صنعه العبيد "The World The Slaves Made . وبالنسبة لجنوفيز، كان البشر الذين شكلوا مادة موضوعه ، على الرغم من أنهم كانوا محرومين اجتماعيا دونما شك، قادرين على صناعة عالم لأنفسهم: وهكذا كانوا فاعلين تاريخيين ، فقد خلقوا التاريخ ، بدلاً من أن يكونوا مجرد «مشكلة» ساعدت على تورط السياسيين البيض والجنود البيض فى الحرب الأهلية، وهى مشكلة سرعان ما تعين على السياسيين البيض أن «يجدوا لها حلاً» . ومعظم أولئك الذين كتبوا التاريخ من أسفل كانوا سيتقبلون وجهة النظر القائلة بأن إحدى نتائج اتخاذهم هذا المنهج تجلت فى توضيح أن هناك أعضاء من الطبقات الدنيا كانوا فاعلين وقد أثرت أفعالهم (وحددت أحيانا) في العالم الذى عاشوا فيه . ونرجع إلى زعم ثومبسون بأن عامة الناس لم يكونوا مجرد «واحدة من المشكلات التى كان على الحكومة أن تعالجها».

بيد أننا يجب أن نعترف ، بأسف ، بأنه على الرغم من أن المفهوم كان معنا على امتداد ما يزيد على ثلاثة عقود ، فإن التاريخ من أسفل ليس له حتى الآن سوى تأثير قليل نسبيا على المجرى العام للتاريخ أو من حيث تغيير وجهات نظر جمهور المؤرخين . وإذا ما أخذنا المشكلة على أحد المستويات الأساسية ، فإن الدفعات الأولى للتاريخ لاتقدم سوى القليل. ذلك أن معظم الدارسين يريدون أن يكتشفوا ما يدور حوله التاريخ ، أو كيف يمكن فعل ذلك، وهم لا يزالون يتجهون أو يتم توجيههم نحو ما هو الآن عمل قديم إلى حد ما ، وهو كتاب كار ، ما التاريخ ؟ What is History? . وهناك سيجدون وجهة نظر محدودة نوعًا عما قد تكون عليه الإجابة عن هذا السؤال الحافز المثير . خاصة أنهم سيجدون أن كار كان يفتقر إلى الخيال الواسع الذى أبداه المؤرخون اللاحقون حيال مادة التاريخ ، والتى كان بروديل وغيره من الكتاب الذين عملوا فى رحاب تقاليد الحوليات الباكرة قد أسسوها بالفعل قبل أن يكتب . وهكذا فإن قوله بأن «عبور قيصر لذلك المجرى المائى الصغير، الروبيكوين ، حقيقة من حقائق التاريخ، على حين أن عبور الروبيكوين لملايين الناس قبل ذلك أو بعده لايهم أحداً على الإطلاق» ، يشير إلى أن تاريخ النقل والهجرة ، والحراك الجغرافى لم يرد على باله . وبالمثل ، فإن مشكلاته مع قبول الرفس حتى الموت لسارق قطعة خبز الزنجبيل فى ستايلبريدچ واكس Stalybridge Wakes سنة ١٨٥٠م ، على أنه حقيقة تاريخية يكشف عن أنه لم يتصور تاريخ الجريمة باعتباره منطقة للبحث التاريخى(٤٤).

وإذا كان هناك كتاب يمكن أن يحل محل كتاب كار باعتباره انطلاقة لتاريخ أساسى، فمن الواضح أن مؤلفه، فى ضوء التاريخ من أسفل والتطور الحديث الأوسع فى التاريخ الاجتماعى، سيكون عليه أن ينظر إلى الماضى نظرة أوسع. والواقع، أنه حرى بنا أن نلاحظ أن ثمة كتاباً حديثا لقى استحساناً ، وكان مصمماً لكى يحل محل كتاب كار بطريقة ما، هو الذى كتبه ريتشارد إيفانز Richard J. Evans ، وقد زعم مزاعم كبيرة عن تأثير التاريخ من أسفل . ونتيجة لهذه المقاربة ، يكتب إيفانز «حقا إن كل شئ له معنى أو أهمية بالنسبة للبشرية المعاصرة الآن له تاريخ مكتوب ، ويعنى هذا أن كل شئ له أهمية بالنسبة لكل أنماط البشر، وليس فقط بالنسبة للنخبة الصغيرة من المتعلمين وأصحاب السلطان»[٤٥].

مثل هذا التأكيد يريح من يعملون فى كتابة التاريخ من أسفل . بيد أن النقطة الأخيرة لدينا، مهما كانت قيمة التاريخ من أسفل فى المساعدة لبناء هوية الطبقات الدنيا، فإنه يجب إخراجه من الجيتو (أو قرى الفلاحين ، وشارع الطبقة العاملة، والعشوائيات فى المدن) ويستخدم فى نقد التيار العام للتاريخ ، وإعادة تحديده وتقويته . وأولئك الذين يكتبون التاريخ من أسفل لم يقدموا فقط عدداً من الكتب التى تتيح لنا أن نعرف المزيد عن الماضى: بل إنها أوضحت أيضاً أن هناك قدراً كبيراً أكثر من ذلك، وأن هناك الكثير من أسراره التى لا تزال كامنة فى الأدلة التى لم تكتشف، يمكن معرفتها. وهكذا فإن التاريخ من أسفل يحتفظ بهالته المغرية . وهناك خطر بعيد بأنه، كما حدث مع مدرسة الحوليات ، ربما يصبح التاريخ من أسفل أرثوذكسية جديدة، ولكن فى اللحظة الراهنة لا يزال يختال استهزاءً بالمجرى العام . ومن المؤكد أنه سيكون هناك مؤرخون من الأكاديميين والشعبيين على السواء ، سوف يبذلون جهدهم لكتابة كتب تنكر ضمناً أو صراحة إمكانية إعادة خلق صورة تاريخية ذات مغزى لحياة الجماهير ، ولكن أرضياتهم التى يفعلون هذا عليها سوف تكون مرتعشة بصورة مطردة. ويساعد التاريخ من أسفل على إقناع أولئك الذين ولدوا منا بدون ملعقة فضية فى أفواههم بأن لنا ماضياً ، وبأننا جئنا من مكان ما . ولكنه أيضا سوف يلعب دوراً مهماً فى المساعدة على تصحيح وتكبير ذلك المجرى العام للتاريخ السياسى الذى لا يزال يمثل القانون العرفى المقبول فى الدراسات التاريخية البريطانية ، مع مرور السنين .

الهوامش

1 *The Letters of Private Wheeler 1809–1828*, ed. B. H. Liddell Hart (London, 1951), pp. 168–72.
2 Bertolt Brecht, *Poems*, ed. John Willett and Ralph Manheim (London, 1976), pp. 252–3.
3 E. P. Thompson, 'History from Below', *Times Literary Supplement*, 7 April 1966, pp. 269–80. For a discussion of the background to Thompson's thoughts see Harvey J. Kaye, *The British Marxist Historians: An Introductory Analysis* (Cambridge, 1984), and Harvey J. Kaye and Keith McClelland (eds), *E P. Thompson: Critical Perspectives* (Oxford, 1990). For some comments on the broader debate on the nature of history which was taking place in the *Times Literary Supplement* in 1966 see the 'Review Essay' by Charles Tilly, *History and Theory*, 6 (1967), pp. 247–52.
4 Frederick Krantz (ed.), *History from Below: Studies in Popular Protest and Popular Ideology* (Oxford, 1988). This was the English edition of a collection first published in Montreal in 1985.
5 R. C. Richardson, *The Debate on the English Revolution Revisited* (London, 1988), ch. 10, 'The Twentieth Century: "History from Below"'.
6 Thompson, 'History from Below', p. 279.
7 E. P. Thompson, *The Making of the English Working Class* (London, 1963), pp. 12–13.
8 See, for example, the discussions in: Peter Burke, *Popular Culture in Early Modern Europe* (London, 1978), pp. 23–64; Barry Reay, 'Introduction: Popular Culture in Early Modern England', in *Popular Culture in Seventeenth-Century England*, ed. Barry Reay (London 1985); and James Sharpe, 'Popular Culture in the Early Modern West', in Michael Bentley (ed.), *Companion to Historiography* (London and New York, 1997), pp. 361–2.
9 A way round this problem is to examine the experience of different sections of the lower orders, sometimes through the medium of the isolated case study. For two works using this approach, both of them constituting important contributions to history from below, see: Natalie Zemon Davis, *Society and Culture in Early Modern France* (London, 1975) and David Sabean, *Power in the Blood: Popular Culture and Village Discourse in Early Modern Germany* (Cambridge, 1984).
10 Alex Callinicos, *The Revolutionary Ideas of Karl Marx* (London, 1983), p. 89. Conversely, it should be noted that there is no reason why the Marxist approach should not produce very effective 'history from above': see the comments of Perry Anderson, *Lineages of the Absolutist State* (London, 1979), p. 11.
11 E. J. Hobsbawm, 'History from Below – Some Reflections', in Krantz, *History from Below*, p. 15.

12 Richard Hoggart, *The Uses of Literacy: Aspects of Working-Class Life with Special Reference to Publications and Entertainments* (Harmondsworth, 1958), p. 15.

13 Thompson, 'History from Below', p. 280.

14 Hobsbawm, 'Some Reflections', p. 15.

15 Ibid., p. 16. Despite the scepticism which might be felt about the uniqueness of the contribution of historians of the French Revolution, it remains clear that works based on that period have made a substantial contribution to the canon of history from below, ranging from such pioneering studies as Georges Lefebvre, *Les paysans du Nord* (Paris, 1924) and *The Great Fear of 1789* (1932: English trans. New York, 1973), to the more recent work of Richard Cobb.

16 Published in English as *Montaillou: Cathars and Catholics in a French Village 1294–1324* (London, 1978).

17 See, for example, L. E. Boyle, 'Montaillou Revisited: Mentalité and Methodology', in J. A. Raftis (ed.), *Pathways to Medieval Peasants* (Toronto, 1981) and R. Rosaldo, 'From the Door of his Tent: The Fieldworker and the Inquisitor', in J. Clifford and G. Marcus (eds), *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography* (Berkeley, 1986).

18 Le Roy Ladurie, *Montaillou*, p. vi.

19 E. P. Thompson, *The Poverty of Theory and Other Essays* (London, 1978), pp. 219–20. For a broader discussion of the types of record upon which historians of England might base history from below, see Alan Macfarlane, Sarah Harrison and Charles Jardine, *Reconstructing Historical Communities* (Cambridge, 1977).

20 Some impressions of the type of subject areas covered by oral historians can be gained from reading the regular reports of work in progress contained in *Oral History: The Journal of the Oral History Society*, which has appeared since 1972.

21 Published in English, translated by Anne and John Tedeschi, as *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller* (London, 1980). Another work by Ginzburg, *The Night Battles: Witchcraft and Agrarian Cults in the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (London, 1983; Italian edition, 1966), also demonstrates how inquisitorial records can be used to throw light on popular beliefs.

22 Ginzburg, *The Cheese and the Worms*, p. xvii.

23 Barbara A. Hanawalt, *The Ties that Bound: Peasant Families in Medieval England* (New York and Oxford, 1986). For a briefer statement of Hanawalt's objectives see her article 'Seeking the Flesh and Blood of Manorial Families', *Journal of Medieval History*, 14 (1988), pp. 34–45.

24 The best introduction to the work of this school is Traian Stoianavitch, *French Historical Method: The Annales Paradigm* (Ithaca, NY, and London, 1976), which should be read in conjunction with the more recent Peter Burke, *The French Historical Revolution: The Annales School* (Oxford, 1991).

25 For general discussions of the relationship between the two disciplines see: Peter Burke, *Sociology and History* (London, 1980) and Philip Abrams, *Historical Sociology* (Shepton Mallet, 1982).

26 Two classic statements of the importance of the possible links between history and anthropology are E. E. Evans-Pritchard, *Anthropology and History* (Manchester, 1961) and Keith Thomas, 'History and Anthropology', *Past and Present*, 24 (1963), pp. 3–24. For a more sceptical view see E. P. Thompson, 'Anthropology and the Discipline of Historical Context', *Midland History*, 3/1 (spring 1972), pp. 41–56.

27 Alan Macfarlane, *Witchcraft in Tudor and Stuart England: A Regional and Comparative Study* (London, 1970: reissued with introduction by James Sharpe, London, 1999). Macfarlane's work should be read in conjunction with Keith Thomas, *Religion and the Decline of Magic: Studies in Popular Belief in Sixteenth and Seventeenth Century England* (London, 1971), a wider-ranging work which also derives considerable insights from anthropology.
28 H. R. Trevor-Roper, *The European Witch-Craze of the Sixteenth and Seventeenth Centuries* (Harmondsworth, 1967), p. 9.
29 Thompson, 'History from Below', p. 280.
30 'Editorial', *History Workshop*, 1 (1971), p. 3.
31 Tony Judt, 'A Clown in Regal Purple: Social History and the Historian', *History Workshop*, 7 (1979), p. 87.
32 Thompson, 'History from Below', p. 279.
33 David Cannadine, 'British History: Past, Present – and Future', *Past and Present*, 116 (1987), p. 177. Cannadine's piece prompted 'Comments' by P. R. Coss, William Lamont and Neil Evans, *Past and Present*, 119 (1988), pp. 171–203. Lamont's views, notably those expressed on pp. 186–93, imply a history from below approach to a new national history, while Evans, p. 197, states explicitly that 'British history . . . needs to be fashioned from below and to work up to an understanding of the state.'
34 Hobsbawm, 'Some Reflections', p. 13.
35 Roderick Floud, 'Quantitative History and People's History', *History Workshop*, 17 (1984), p. 116.
36 See Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures* (New York, 1973), ch. 1, 'Thick Description: Toward an Interpretative Theory of Culture'.
37 Carolyn E. Fick, *The Making of Haiti: The Saint Domingue Revolution from Below* (Knoxville, Tenn., 1990).
38 Sumit Sarkar, *'Popular' Movements and 'Middle Class' Leadership in Late Colonial India: Perspectives and Problems of a 'History from Below'* (Calcutta and New Delhi, 1983).
39 Daniel H. Kaiser (ed), *The Workers' Revolution in Russia: The View from Below* (Cambridge, 1987).
40 Sarkar, *'Popular' Movements and 'Middle Class' Leadership*, p. 1.
41 See, for example, Gerrit Huizer and Bruce Mannheim (eds), *The Politics of Anthropology: From Colonialism and Sexism toward a View from Below* (Paris, 1979), and the more narrowly focused Uwe Otzen (ed.), *Development from Below: Anthropologists and Development Studies* (The Hague and Paris, 1976).
42 Bruce Robbins, *The Servant's Hand: English Fiction from Below* (Durham, NC, and London, 1993).
43 Eugene D. Genovese, *Roll, Jordan Roll: The World the Slaves Made* (London, 1975), p. xv.
44 E. H. Carr, *What is History?* (Harmondsworth, 1961), pp. 11, 12.
45 Richard J. Evans, *In Defence of History* (London, 1997), p. 165.

(٣)

تاريـــخ النســاء

چوان و. سكوت

«إن التاريخ الذى استطعت كتابته عن دراسات النساء ينتمى أيضا إلى الحركة ؛ إنها ليست لغة معدنية ، وسوف تتصرف إما بوصفها لحظة محافظة أو لحظة هدامة ... وليس هناك تفسير محايد نظريا لتاريخ دراسات النساء. فسيكون للتاريخ جزء إجرائى فيه»[١].

چاك دريدا ١٩٨٤م

ظهر تاريخ النساء باعتباره مجالاً يمكن تحديده جوهرياً فى سبعينيات القرن العشرين ، وعلى الرغم من الفروق الشاسعة فى الموارد المخصصة له، فى تقديمه المؤسسى ومكانه فى البرامج الدراسية ، وفى الوضع الذى تضعه فيه الجامعات والهيئات العلمية، فيبدو أنه لم يعد هناك شك فى أن تاريخ النساء ممارسة مستقرة فى أجزاء كثيرة من العالم . وبينما قد تكون الولايات المتحدة متفردة من حيث المدى الذى أحرزه تاريخ النساء من حيث وجوده المرئى والمؤثر فى الدوائر الأكاديمية ، فإن هناك أدلة واضحة- فى المقالات والكتب ، وفى التعريف الذاتى للمؤرخين الذين يقابلهم المرء فى المؤتمرات العالمية، وفى شبكات العمل غير الرسمية التى تنقل أخبار البحث العلمى- على المشاركة العالمية فى حركة تاريخ النساء .

وأنا استخدم مصطلح «حركة» عمداً لتمييز الظاهرة الحالية عن المجهودات المبعثرة السابقة التى قام بها أفراد للكتابة عن النساء فى الماضى ، وللإشارة إلى شىء عن الخاصية الحركية المتضمنة فى التبادلات العابرة للقومية والعابرة للتخصصات العلمية فيما بين مؤرخى النساء، ولتحريك الروابط التى تربطه بالشئون السياسية.

إن الصلة بين تاريخ النساء والشئون السياسية تبدو واضحة ومركبة على الفور. ففى إحدى الروايات الموثوق بها عن أصول هذا المجال، تكون الشئون السياسية النسوية نقطة البداية . هذه الروايات تضع أصل المجال فى ستينيات القرن العشرين، عندما طالب نشطاء الحركة النسائية بتاريخ يقدم بطولات ، وأدلة على فعالية النساء، وتفسيرات لها، كما يقدم الإلهام عن طريق الفعل . ويقال إن الناشطين النسويين الأكاديميين قد استجابوا للدعوة إلى «قصتها» بتوجيه أعمالهم البحثية صوب أجندة سياسية أكبر ، كما كان هناك اتصال مباشر بين الشئون السياسية والبحث العلمى فى الأيام الباكرة . وفيما بعد – فيما بين منتصف السبعينيات وأواخرها– حسبما تقول الرواية ، تحرك تاريخ النساء بعيداً عن الشئون السياسية . وقد زاد من حجم مجال أسئلته بتوثيق جميع نواحى حياة النساء فى الماضى وبذلك حقق القوة الدافعة الخاصة به . وكان جمع الرسائل والمقالات ، وظهور المناقشات الداخلية والحوارات التفسيرية الجارية، وظهور باحثين محترمين يعترف بهم هى العلامات المألوفة على مولد مجال جديد للدراسة، اكتسب شرعيته، جزئيا على ما ظهر ، ببعده عن الصراع السياسى. وأخيرا (حسبما تمضى القصة) ، كان التحول إلى تاريخ النوع فى ثمانينيات القرن العشرين افتراقًا حاسماً عن الشئون السياسية وبهذا ساعد هذا المجال على أن يعتمد على نفسه، لأن النوع يبدو فى ظاهره مصطلحًا محايداً يخلو من القصد الأيديولوچى المباشر. وينطوى تاريخ النساء باعتباره مجالاً بحثيًا ، فى هذا الآداء ، على التطور من النسوية إلى المرأة، إلى النوع ؛ أى الانتقال من الشئون السياسية إلى التاريخ المتخصص إلى التحليل .

ولاشك فى أن هذه القصة لها تنويعات مهمة تعتمد على من يحكى القصة. ففى بعض الروايات ينظر إلى التطور بصورة إيجابية باعتباره إنقاذا للتاريخ من الاهتمام الضيق بالشئون السياسية ، وتركيزًا حصريًا أكثر مما يجب على النساء، أو الفروض الساذجة فلسفيًا. وفى روايات أخرى ، يكون التفسير سلبيًا ، ذلك أن «التراجع» والتقهقر إلى الأكاديمية (ناهيك عن التحول صوب النوع والنظرية) ينظر إليه على أنه علامة على التنصل من السياسة وقد طرحت إلين شوالتر Elaine Showalter حديثا سؤالاً يقول : «ما الذى يحدث للحركة النسوية عندما تموت حركة النساء ؟ إنها تصبح دراسات النساء – مجرد فرع أكاديمى آخر»(٢) وعلى الرغم من مختلف وحدات التكافؤ التى أضفيت على القصة ، على أية حال ، فإن

القصة نفسها مشتركة بين كثير من أنصار الحركة النسوية ومنتقديهم ، كما لو كانت تلك هى الطريقة التى جرت بها الأمور، دونما خلاف.

وأود أن أبرهن على أن القصة تحتاج إلى بعض التأمل النقدى ليس فقط لأنها بسيطة أكثر مما ينبغى ، وإنما أيضا لأنها طرح مشوه لتاريخ تاريخ النساء وعلاقته بكل من الشئون السياسية وبعلم التاريخ. ويتطلب تاريخ هذا المجال ليس مجرد السرد الطولى، ولكنه يتطلب سرداً أكثر تعقيدا يأخذ فى اعتباره الموقف المتغير لا فى تاريخ النساء فقط ، بل فى الحركة النسوية وفى علم التاريخ كذلك . وعلى الرغم من أن تاريخ النساء مرتبط بالتأكيد بظهور النزعة النسوية، فإن الحركة النسوية لم تختف سواء من حيث وجودها فى النطاق الأكاديمى أو فى المجتمع بأسره ، على الرغم من أن شروط تنظيمها قد تغيرت . وكثير من أولئك الذين يستخدمون مصطلح «النوع» ، فى الحقيقة ، يسمون أنفسهم المؤرخين النسويين ، أو مؤرخى الحركة النسوية. وليس هذا انحيازا سياسياً فقط وإنما رؤية نظرية تقودهم إلى أن يروا النوع باعتباره طريقاً أفضل لإضفاء المفاهيم على الشئون السياسية . وكثير من أولئك الذين يكتبون تاريخ النساء يعتبرون أنفسهم منغمسين فى جهد سياسى كبير لتحدى السلطة السائدة فى المهنة وفى الجامعة ولتغيير طريقة كتابة التاريخ.. والكثير من تاريخ النساء الراهن، حتى تحت مفهوم النوع ، يطرح نفسه على الاهتمامات المعاصرة بالشئون السياسية للحركة النسوية (وبينها فى الولايات المتحدة اليوم الرفاهية، ورعاية الطفل وحق الإجهاض) . والواقع أن هناك الكثير من الأسباب لتوضيح أن التطورات التى جرت فى تاريخ النساء تتصل بقوة بـ «القوة والشرعية المتنامية للحركة النسوية باعتبارها حركة سياسية»(٣) تعادل الأسباب التى تدعو إلى الإصرار على وجود مسافة متزايدة بين العمل العلمى الأكاديمى والشئون السياسية. ولكن أن نأخذ تاريخ النسوة ببساطة على أنه انعكاس لنمو الشئون السياسية النسوية خارج نطاق الدوائر الأكاديمية ، يحيد بنا أيضا عن طريق الصواب .

وتستخدم كلمة Politics هذه الأيام بعدة معان ، أولها : أن تعريفها الأكثر نمطية يمكن أن يعنى النشاط الذى توجهه الحكومات ، أو الموجه إليها وإلى غيرها من السلطات القوية ، وهو نشاط ينطوى على دعوة للهوية الجمعية، وتعبئة الموارد، والحسابات الاستراتيجية والمناورة التكتيكية . وثانيها: يستخدم المصطلح أيضا للإشارة إلى علاقات القوة بشكل أكثر عمومية والاستراتيجيات التى تهدف إلى الحفاظ عليها أو تحديها(٤). ثالثا : تطبق الكلمة بشكل أوسع على الممارسات التى تعيد إنتاج ، أو تتحدى أحيانا، ما يحمل لافتة

«الأيديولوچيا» ، تلك النظم الاعتقادية ونظم الممارسات التى تبنى الهوية الفردية والهويات الجماعية ، والتى تشكل العلاقات بين الأفراد والجماعات وعالمهم ، والتى تؤخذ على أنها طبيعية أو عادية أو واضحة بذاتها [٥]. هذه التعريفات تتصل بأنواع مختلفة من الفعل ومناطق مختلفة من النشاط، ولكن استخدامى لكلمة Politics لتمييزها جميعا يشير إلى أن الحدود التعريفية والمكانية مشوشة، كما أن حتمية أى استخدام له أصداؤه العديدة. إن قصة تاريخ النساء التى أود أن أحكيها تعتمد على هذه الأصداء العديدة ؛ فإنها دائمًا قصة عن الشئون السياسية .

«المهنية» فى مواجهة «الشئون السياسية»

كانت النسوية حركة عالمية فى العقود الأخيرة، ولكن لها سمات وطنية وإقليمية مخصوصة. ويبدو لى أن من المفيد التركيز على تفاصيل الحالة التى أعرفها أكثر من غيرها– أى الولايات المتحدة الأمريكية– لكى أضع بعض الملاحظات العامة.

فى الولايات المتحدة الأمريكية عاودت الحركة النسوية الظهور فى ستينيات القرن العشرين، وقد حفزتها جزئيا حركة الحقوق المدنية وسياسات الحكومة الهادفة إلى تقديم القوة البشرية للتوسع الاقتصادى المتوقع فى المجتمع كله بما فيه المهن والوسط الأكاديمى . وقد صاغت دعوتها وتبريرها لنفسها داخل المصطلحات السائدة فى خطاب المساواة . وفى خضم هذه العملية اتخذت الحركة النسوية وخلقت هوية جماعية للنساء، الرعايا من النساء اللاتى يشاركن فى الاهتمام بإنهاء الخضوع والغياب وانعدام الحول والقوة ، بخلق المساواة وتحقيق السيطرة على أجسادهن وحياتهن.

وفى سنة ١٩٦١م، بناء على توصية من استير بيترسون Esther Peterson رئيس مكتب النساء فى وزارة العمل، أسس الرئيس كينيدى لجنة للبحث فى وضع النساء . ووثق تقرير اللجنة الصادر سنة ١٩٦٣م حقيقة أن النساء الأمريكيات كن محرومات من الحقوق والفرص المتساوية وأوصى بخلق خمسين لجنة فى الولايات . وفى سنة ١٩٦٤م، عندما تم تأسس لجنة تكافؤ الفرص فى التوظيف (EEOC) تحت مرسوم الحقوق المدنية ، كانت التفرقة بين الجنسين ضمن صلاحياتها (أضافها مشرع معاد لإدانة المادة السابعة من المرسوم) . وفى سنة ١٩٦٦م، صوت المندوبون فى الاجتماع الثالث للمؤتمر الوطنى للجان الولايات على مكانة المرأة ضد حل يحث لجنة تكافؤ الفرص على تحريم التفرقة بين الجنسين بنفس الجدية التى

حرمت بها التفرقة العنصرية. واجتمعت النساء اللاتى كن قد تقدمن بالتعديل المرفوض ليقررن التصرف التالى لهن وشكلن اللجنة الوطنية للنساء[٦]. وفى الوقت نفسه تقريبا، بدأت النساء الشابات فى حركة طلاب من أجل مجتمع ديموقراطى، وحركة الحقوق المدنية، فى توضيح شكاواهن، وطالبن بالاعتراف بدور النساء باعتبارهن مشاركات نشيطات (ومتساويات) فى الحركات السياسية من أجل التغيير الاجتماعى [٧]. وفى مجال الأمور السياسية التقليدية، صارت النساء مجموعة متمايزة (للمرة الأولى منذ حركة حق التصويت والانتخاب عند مطلع القرن).

وفى أثناء ستينيات القرن العشرين، أيضا، بدأت الكليات الجامعية والمؤسسات فى تشجيع النساء للحصول على درجة الدكتوراه بتقديم المنح الدراسية وقدرا كبيرا من الدعم اللفظى. وقد علق أحد الكتاب بقوله: «من الواضح أن النساء يشكلن مصدرا رئيسيًا لاينضب للكليات والجامعات التى تحتاج إلى مدرسين جيدين وباحثين جيدين» [٨]. وبينما اعترف الكتاب الذين تنوعت مشاربهم ما بين رؤساء الكليات والأكاديميين المشايعين للحركة النسوية بأنه كانت هناك «انحيازات ضد النساء فى المهن التعليمية» فإنهم مالوا إلى الموافقة على أن العقبات سوف تزول إذا ما واصلت النساء التعليم العالى[٩]. ومن المهم (فى ضوء المناقشات النظرية التى أعقبت ذلك) أن نشاط المرأة كان مفترضًا هنا على اعتبار أنهن يمارسن الاختيار فى حرية، ويتصرفن بعقلانية، وطولبت النساء بالدخول إلى مهن تستبعدهن أو لا تفيد منهن كما ينبغى.

وفى الفضاء الذى انفتح بتجنيد النساء، سرعان ما ظهرت الحركة النسوية لتزعم حقها فى المزيد من الموارد للنساء ولتدين استمرار عدم المساواة. وجادلت ناشطات الحركة النسوية فى الدوائر الأكاديمية بأن الانحيازات ضد النساء لم تختف، ونظمن أنفسهن للمطالبة بنصيب كامل فى الحقوق التى كانت درجاتهن تؤهلهن لها. وفى الجمعيات العلمية الأكاديمية شكلت النساء لجانًا تنظيمية للضغط من أجل تنفيذ مطالبهن (وقد تضمنت هذه المطالب قدرًا أكبر من التمثيل فى الجمعيات وفى الاجتماعات العلمية، والاهتمام بفروق الرواتب بين النساء والرجال، وإنهاء التفرقة فى التوظيف، وفترة تولى الوظيفة والترقية). وقد أرست الهوية الجماعية الجديدة فى الأوساط الأكاديمية تجربة مشتركة فى التفرقة قائمة على أساس الفروق بين الجنسين، كما أنها افترضت أن النساء المؤرخات بوصفهن جماعة لهن حاجات واهتمامات

خاصة لايمكن تصنيفهن ضمن الفئة العامة للمؤرخين. وبالإشارة إلى أن المؤرخات من النساء كن مختلفات عن المؤرخين (الذكور) ، وأن نوعهن أثر على فرصهن المهنية، ، تسببت الناشطات النسويات فى إثارة النزاع حول المصطلحات الجامعية والتوحيدية للمهنة والتى كانت تحدد المشتغلين بالمهنة عادة ، وجلبت الاتهامات بأنهن قد «سيسًّوا» المنظمات التى لم تكن مسيَّسة من قبل .

وفى سنة ١٩٦٩م طرح «المجلس التنسيقى للنساء فى المهنة التاريخية» قرارات تهدف إلى تحسين مكانة النساء فى اجتماع العمل الذى عقدته الجمعية التاريخية الأمريكية (AHA) فى جو متوتر مشحون للغاية. وإذ كانت الجمعية وأعمالها مكرسة فى الأحوال العادية لمناقشة اللوائح الداخلية والسياسة التنظيمية – شئون الجمعية وأعمالها وليست أمورها السياسية– فقد كانت هذه الاجتماعات فى العادة نموذجًا للزمالة الطيبة والوقار . وكان يمكن عند حدوث الاختلافات نسبتها إلى الفروق فى الآراء الفردية ، والذوق الفردى، أو حتى الموقف السياسى الفردى ، وللأولوية المؤسسية أو الإقليمية، بيد أن هذه الفرق كلها لم تكن جوهرية ، كما أنه لم يكن ثمة اختلاف بين المنصة التى ربما كانت لها «مصلحة» خاصة واضحة وبقية الأعضاء. وبنبرتهن ، وإحساسهن القتالى وزعمهن بأنهن يمثلن هوية جماعية محرومة من حقوقها بشكل منتظم انتهكت النسوة الإجراءات وتحدين مضامين «العمل المعتاد» . والواقع أنهن اتهمن العمل المعتاد نفسه بأنه شكل من الأمور السياسية لأنه تجاهلهن ومن ثم واصل الاستبعاد المنتظم (على أساس من النوع والعرق) للمهنيين المؤهلين. وكان للهجوم على السلطة الراسخة نتيجتان على الأقل: فقد حقق تنازلات من الجمعية التاريخية الأمريكية على شكل لجنة مؤقتة للنظر فى المسائل المثارة (وهى لجنة أصدرت تقريرًا فى سنة ١٩٧٠م ، يعترف بمكانة المرأة الأدنى ويوصى بعدد من الاجراءات التصحيحية ، ومنها خلق لجنة دائمة للنساء) ، وقد أدى هذا إلى انتقاد سلوك النساء باعتباره سلوكًا غير مهنى .

والتعارض بين «المهنية» و«الشئون السياسية» ليس طبيعيًا ، ولكنه جزء من التعريف الذاتى للمهنة بوصفها ممارسة متقنة تقوم على أساس الملكية المشتركة للمعرفة الواسعة التى تحققت من خلال التعليم . فهناك وجهان متمايزان، ولكنهما غير منفصلين عادة ، لتعريف أى مهنة. أحدهما : يتضمن طبيعة المعرفة المنتجة ، التى تُعتبر تاريخًا فى هذه الحال . ويتضمن الوجه الثانى: وظائف حراسة البوابة التى تضع وتفرض المستويات التى يجب أن يحافظ عليها

أعضاء المهنة، وهم فى هذه الحالة المؤرخون . وبالنسبة للمؤرخين المحترفين فى القرن العشرين، التاريخ هو تلك المعرفة بالماضى التى تم التوصل إليها من خلال التحقيق غير المنحاز البرىء من الهوى (إذ إن الهوى والإنحياز نقيض المهنية والحرفية) والمتاحة لأى فرد فى العالم يتقن الإجراءات العلمية المطلوبة (١٠). ومن ثم فإن السبيل للوصول يقوم على هذه القدرة العلمية التى يفترض أن المحترفين يملكونها وأنهم الذين يمكنهم وحدهم الحكم عليها. وإتقان المهنة لايمكن أن يكون مسألة استراتيجية أو سلطة ، بل إنها مسألة تدريب وتعليم فقط. إذ إن عضوية المهنة التاريخية تفرض على الأعضاء مسئولية تجعلهم حراس تلك المعرفة التى هى بمثابة إمارتهم الخاصة بهم . والحراسة وإتقان المهنة، إذن ، تشكلان الأساس الذى يقوم عليه الاستقلال الذاتى وسلطة تحديد ما يعتبر معرفة، ومن ذا الذى يمتلكها .

ومع هذا ، طبعًا ، تقوم المهن والتنظيمات المهنية على بنية تراتبية؛ إذ تعمل الأنماط والمستويات الحاكمة على ضم البعض واستبعاد البعض الآخر. ويمكن أن يكون «الإتقان» و«الامتياز» حكمًا صريحًا على القدرة كما ينطويان غالبًا على أعذار لتبرير الانحياز ، ففى الحقيقة غالبًا ما تكون الأحكام على القدرة مضفرة مع تقديرات الهوية الاجتماعية للفرد، وهى أمور لا علاقة لها بالقدرة المهنية (١١). أما كيفية الفصل بين هذه الأحكام ، إذا ما كان يمكن فصلها حقًا ، فهى مسألة معرفية وليست مسألة استراتيجية فقط. وقد أدى التعارض بين «الشئون السياسية» و«المهنية» إلى حجب المسألة المعرفية.

ففى الجمعية التاريخية الأمريكية ، كانت النساء ، والسود، واليهود، والكاثوليك، و«الأشخاص» الذين لاينتمون للطبقة الراقية لايحظون بالتمثيل المناسب بشكل منتظم على مدى عدة سنوات (١٢). وكان هذا الموقف يستلفت النظر ويجلب الاحتجاجات من فترة لأخرى، وبذل بعض المؤرخين جهودًا منسقة للحد من التفرقة، ولكن مصطلحات الاحتجاج وأسلوبه كانت مختلفة عن تلك التى استخدمت بعد سنة ١٩٦٩م. ففى الفترات الباكرة كان المؤرخون المحتجون ، سواء برفض حضور مؤتمر يعقد فى فندق منعزل أو الإصرار على أن تكون النساء ضمن الاجتماعات المهنية، يجادلون بأن التفرقة القائمة على أساس العرق، أو الدين، أو العنصر ، أو الجنس تحول دون الاعتراف بالمؤرخين الأفراد المؤهلين . وإذ قبلوا مفهوم ما يجب أن تكون عليه المهنة ، جادلوا بأنه لا مكان للأمور السياسية فيها ؛ وزعموا أن تصرفهم كان يهدف إلى تحقيق مُثُل مهنية حقة . وعلى النقيض من ذلك ، كان مغزى الاحتجاجات فى

سنة ١٩٦٩م ، وما بعدها ، يعنى أن المهن كانت تنظيمات سياسية (فى المعانى المتعددة لمصطلح «سياسي»)، مهما كان وقار سلوك أعضائها، كما كان يعنى أن العمل الجماعى وحده هو الذى يستطيع أن يغيّر علاقات القوة السائدة . وفى أثناء سبعينيات القرن العشرين، ربطت النساء فى الجمعية التاريخية الأمريكية (وغيرها من الجمعيات المهنية) نضالاتهن المحلية من أجل الاعتراف والتمثيل بالحملات الوطنية للمرأة ، لاسيما الحملة من أجل الحقوق المتساوية (ERA) فى تعديل الدستور ، وأصررن على أن الجمعيات المهنية برمتها لابد وأن تتخذ موقفًا من المسائل الوطنية. ورفض الاقتراح القائل بأن التعديل الخاص بالحقوق المتساوية لاعلاقة له بعمل الجمعية التاريخية الأمريكية على أساس أن الصمت ليس حيادًا ، وإنما هو تواطؤ مع التفرقة . وفى داخل المنظمات هوجمت المفاهيم المقدسة مثل «التميز العلمى» و«نوعية العقل» وكذلك هوجمت الكثير من الأغطية التى سترت المعاملة التفريقية التى كان يجب أن تحل محلها معايير كمية من الفعل الإيجابى المؤكد . وتمت الإطاحة بالمعايير المهنية للنزاهة وعدم الانحياز بواسطة المصالح الخاصة، أو هكذا بدا الأمر بالنسبة لأولئك الذين تمسكوا بوجهة النظر القياسية .

وثمة طريقة أخرى للنظر إلى المسألة ، على أية حال ، تتمثل فى التعامل مع تحدى النساء على أنه مسألة إعادة تعريف مهنية، لأن وجود النسوة فى المنظمات كان مخاصمة لمفهوم أن مهنة التاريخ جسد واحد توحيدى. وبالإصرار على أنه كانت هناك هوية جماعية للمؤرخات النسوة على شقاق مع المؤرخين الرجال (والإشارة كذلك إلى أن العرق يفصل المؤرخين الذكور البيض عن السود) تساءلت الناشطات النسويات عما إذا كان من الممكن أن يوجد على الإطلاق تقييم غير منحاز للإتقان ، وهو ما كان يعنى ضمنًا أنه لم يكن هناك شئ أكثر من الوضع المهيمن لوجهة نظر ذات مصالح خاصة . ولم ترفض النسوة المعايير المهنية ؛ بل إنهن فى الواقع استمررن فى الإعلاء من شأن الحاجة إلى التعليم والحكم على النوعية (ووضعت ، من بين أشياء أخرى، المنافسات ذات الجوائز للعمل المتميز فى تاريخ النساء) . وعلى الرغم من أن المرء يمكن بالتأكيد أن يقدم الدليل على الانحياز والغرض بين المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ النساء ، فإن تلك لم تكن السمة الغالبة على هذا المجال بأسره ، كما أنه ليس أمرًا مقصورًا على نشطاء الحركة النسوية . بل إن الانحياز والغرض لم يؤديا إلى تشويه متعمد للحقائق أو طمس المعلومات من أجل «القضية»[١٣] ولم يرفض معظم مؤرخى النساء مطلب

الإتقان والمعرفة الذى يمثل الأساس المنطقى النهائى لأية مهنة من المهن. والواقع أنهم تقبلوا قوانين البحث الأكاديمى وسعوا إلى الحصول على الاعتراف بأنهم باحثون. وقد استخدموا قواعد اللغة ، والدقة، والبراهين والبحث التى تجعل التواصل بين المؤرخين ممكنًا (١٤). وفى خضم هذه العملية سعوا إلى إحراز مكانة لهم باعتبارهم مهنيين فى مجال التاريخ وحققوا ذلك بالفعل . وفى الوقت نفسه ، على أية حال، فإنهم تحدوا تلك القواعد وهدموها بالتساؤل عن دستور علم التاريخ وشروط إنتاجه للمعرفة (١٥). وكان وجودها رفضا لطبيعة جسد موحد غير قابل للانتهاك من المستويات المهنية والتأثيرات الناجمة عن ذلك ولوجود شكل مفرد «ذكر أبيض» يمثل المؤرخين) .

وفى الواقع، أصر المؤرخون النسويون على أنه لا يوجد تعارض بين «المهنية» «والشئون السياسية» بطرح حزمة من الأسئلة المزعجة بعمق عن التراتبية ، وعن الأسس والافتراضات التى تحكم المشروع التاريخى: معايير من ، وتعريفات من ، عن «المهنية» هى التى تسرى؟ اتفاق من الذى تمثله ؟ كيف تم الوصول إلى الاتفاق ؟ وما وجهات النظر الأخرى التى تم استبعادها أو كبتها ؟ وجهة نظر من التى تحدد ما يعتبر تاريخًا جيداً ، أو بالنسبة لهذا الموضوع، ما يعتبر تاريخا ؟

« التاريخ » فى مواجهة «الأيديولوچيا »

صحب ظهور تاريخ النساء بوصفه مجالاً للدراسة حملات الحركة النسوية من أجل مكانة مهنية أفضل كما انطوى على السؤال عن حدود التاريخ. بيد أن هذه لم تكن عملية مباشرة أو صريحة ، ولم تكن ببساطة عملية إضافة شئ كان من الواضح أنه غائب . وبدلاً من ذلك ثمة غموض مزعج كامن فى هدف تاريخ النساء فهو ملحق لا ضرر منه للتاريخ المستقر كما أنه إحلال جذرى بديل عنه فى الوقت نفسه .

هذا الحد المزدوج واضح فى كثير من الإعلانات التى أعلنها أنصار المجال الجديد فى أوائل سبعينيات القرن العشرين، ولكن تم التعبير عنه فى أفضل صورة على يد فرچينيا وولف Virginia Woolf فى سنة ١٩٢٩م. وفى كتابها الذى يحمل عنوان A Room of One's Own اتجهت وولف إلى موضوع تاريخ النساء، مثلما كان كثير من معاصريها يفعلون فى الفترة التى تلت تحرير المرأة فى بريطانيا والولايات المتحدة(١٦). وهى تتأمل عدم كفاية التاريخ الموجود، وهو تاريخ يحتاج إلى إعادة كتابة ، لأنه «غالبا ما يبدو غريبا إلى حد ما ، وغير

حقيقى، وغير متوازن» أى أنه ناقص ، غير كاف وغير مكتمل . ومن الواضح أنها نكصت عن فكرة إعادة كتابة التاريخ، ولذا فهى تطرح على سبيل التجربة ما يبدو أنه حل آخر : «لماذا... لانضيف ملحقًا إلى التاريخ ؟» ونسميه طبعا اسمًا غير ملفت للنظر بحيث تشخص فيه النساء بشكل مناسب ؟ » ويبدو توسل وولف بالملحق وكأنها تقدم حلاً وسطًا ، ولكنه ليس كذلك . إذ إن السخرية الرقيقة فى تعليقاتها عن «الاسم غير الملفت للنظر» والحاجة إلى التناسب يشى بمشروع معقد (وهى تسميه «طموح يفوق جرأتى» لدرجة أنها حتى وهى تحاول أن تتغلب على الصعاب تثير مضامين متناقضة (١٧). إذ إن النساء مضافات إلى التاريخ وهن أيضا ينتهزن فرصة إعادة كتابته : فهن يقدمن شيئًا إضافيًا كما أنهن ضروريات لاستكماله ، إنهن زيادة وفضل وكذلك لايمكن الاستغناء عنهن .

واستخدام وولف لمصطلح ملحق يستدعى إلى الذهن تحليل چاك دريدا ، الذى يساعدنى على تحليل العلاقة بين تاريخ النساء والتاريخ . ففى مشروع تفكيك الميتافيزيقا الغربية ، أشار دريدا إلى «علامات» معينة تقاوم وتبعثر المعارضة المزدوجة «دون أن تشكل مصطلحا ثالثا على الإطلاق» أو حلاً جدليًا . وهى مخربة بسبب عدم قدرتها على الحسم: فهى فى آن واحد تتضمن معانى متناقضة يستحيل إطلاقا تصنيفها بشكل منفصل. والملحق واحد من هذه الأمور التى لايمكن حسمها . وفى الفرنسية ، كما هو الحال فى الإنجليزية ، تعنى كلمة "Supplement" الملحق ، والبديل فى الوقت نفسه . فهى شىء مضاف زيادة ، فضل ، فوق أو على ما هو موجود تمامًا بالفعل؛ وهى أيضا حلول محل ما هو غائب ، مفقود ، وناقص ومن ثم فهى مطلوبة للاستكمال أو التمام. والملحق ليس زائدًا أو ناقصًا ، وهو ليس خارجًا ولا استكمالاً للداخل، وليس عارضا ولا جوهرًا (١٨). (على حد تعبير باربار جونسون Barbara Johnson) « فضل وضرورى، جاد وتعويضى» . و« على مستوى كل من المعرَّف والمعرِّف، ليس من الممكن أن نغفل التفرقة بين التميز والنقص ، وبين التعويض والفساد»(١٩).

وأود أن أدلل على أنه بالتفكير بمصطلحات المنطق المتناقض فى الملحق يمكننا أن نحلل غموض تاريخ النساء وقوته السياسية النقدية المحتملة، وهى قوة تتحدى وتزعزع المسلمات العلمية المستقرة ولكن دون أن تقدم توليفة أو حلاً سهلاً . وقد أدى عدم الراحة الناجمة عن مثل هذه الزعزعة ليس فقط إلى المقاومة من جانب المؤرخين التقليديين، ولكنه أدى أيضا إلى الرغبة فى قرار من جانب مؤرخى النساء. وليس هناك حل بسيط، على أية حال، وهناك فقط

إمكانية الانتباه المستمر إلى السياقات والمعاني التي تتشكل في دخلها الاستراتيجيات السياسية الهدامة. إذ إنه في داخل مثل هذا النوع من الإطار التحليلي يمكننا أن نفهم على نحو أفضل المنازعات حول السلطة والمعرفة التي تميز ظهور هذا المجال.

لقد سعى معظم تاريخ النساء على نحو ما لأن يتضمن النساء بوصفهن موضوعاً للدراسة، موضوع قصة . وقد أخذ مفهوم أن الموضوع الإنساني العالمي يمكن أن يتضمن النساء على علاّته ، وقدم الأدلة والتفسيرات عن مختلف أفعال النساء وتجاربهن في الماضي . وعلى أية حال، فبما أنه في حالة التدوين التاريخي الغربي، تجسد الموضوع غالبًا في الذكر الأبيض، كان حتماً أن يواجه تاريخ النساء ما تسميه المنظرة القانونية الأمريكية مارثا ميناو Marth Minow «معضلة الاختلاف» [٢٠]. وتبرز هذه المعضلة لأن الاختلاف مبنى «عبر بنية لغتنا نفسها ، والتي تؤصل ... نقاطا لم تحسم في المقارنة داخل الفئات التي تدفن وجهة نظرها وتنطوى خطأ على مواءمة طبيعية مع العالم » [٢١]. وكلمة «عالمي» تنطوى على مقارنة مع المحدد أو الخاص ، الرجال البيض بالمقارنة مع غيرهم ممن هم ليسوا من البيض ومن الذكور، وهي مقارنة بين الرجال والنساء . بيد أن هذه المقارنات غالبا ما يتم إقرارها وفهمها باعتبارها فئات طبيعية ، وهويات منفصلة ، وليست مصطلحات دالة على العلاقة . ومن ثم فإن الزعم بأهمية النساء في التاريخ لابد أن يتعارض بالضرورة مع تعريفات التاريخ والفاعلين فيه ، وهي تعريفات راسخة فعلاً على أنهم «حقيقيون» أو على الأقل باعتبارهم انعكاسات دقيقة لما حدث (أو لما كانت له أهمية) في الماضي ، ولابد أن تعارض المعايير التي تحققت بواسطة مقارنات لم تعلن أبداً مع وجهات نظر لم يتم التعبير عنها كما هي على الإطلاق »[٢٢].

وتاريخ النساء الذي يحمل مغزى تعديل «التاريخ» ، يتفحص بدقة الطريقة التي تم بها إرساء معنى ذلك المصطلح العام. فهو يتساءل عن الأولوية النسبية التي أعطيت لـ «تاريخه» على حساب «تاريخها» ، ليكشف عن التراتبية المتضمنة في الكثير من الروايات التاريخية. وهو يتحدى، بشكل أكثر أصولية ، كلا من كفاية مزاعم أي تاريخ بأنه يخبرنا بالقصة الكاملة والتمام والحضور الذاتي لموضوع التاريخ – الإنسان العالمي. وعلى الرغم من أن كل مؤرخي النساء لايطرحون هذه الأسئلة بشكل مباشر، لأن عملهم يتضمنها ، بأية عمليات صارت أفعال الرجال تعتبر معياراً ، وممثلة للتاريخ الإنساني عموما ، وأفعال النساء إما يتم التغاضي عنها، أو تحوز قدراً أقل من الأهمية، وتنحصر في ساحة مخصوصة أقل أهمية؟ وما المقارنات

غير المعلنة التى تنطوى عليها مصطلحات مثل «التاريخ» و«المؤرخ» ؟ وجهة نظر من التى تضع الرجال بوصفهم الفاعلين التاريخيين أصحاب السبق؟ ما التأثير الذى تتركه على كتابة التاريخ الراسخة رؤية الأحداث والأفعال من موقع موضوع آخر كالنساء ، مثلا ؟ ما علاقة المؤرخ بالموضوع الذى يكتب عنه سواء كان المؤرخ رجلاً أو امرأة ؟

ويضع ميشل دى سيرتو Michel de Certeau المشكلة على هذا النحو :

«سوف يتضح مدى علاقة خصوصية المكان الذى يتم فيه إنتاج خطاب الكتابة التاريخية عندما يعالج هذا الخطاب الأسئلة التى تتناول موضوع - منتج التاريخ مثل : تاريخ النساء، والسود واليهود ، والأقليات الثقافية ، الخ . ففى هذه المجالات يمكن للمرء ، بطبيعة الحال، إما أن يتمسك بأن المكانة الشخصية للمؤلف مسألة لا أهمية لها (بالنظر إلى الموضوعية فى عمله) وإما أنه وحده يمنح الخطاب جدواه أو يجعله بلا قيمة (بحسب ما إذا كان هو «منه» أم لا) بيد أن هذا الجدال يتطلب ما تم صكه ابستمولوچيا ، وهو على وجه التحديد أثر علاقة الموضوع النساء والرجال، السود والبيض) على استخدام أساليب محايدة ظاهريًا ، وفى تنظيم خطابات ربما كانت لها قيمة علمية . وعلى سبيل المثال، هل يجب على المرء أن يستنتج أن امرأة ما تنتج كتابة تاريخية مختلفة عما ينتجه الرجل من خلال حقيقة التفرقة بين الجنسين؟ طبعا ، أنا لا أجيب ، ولكننى أوكد بالفعل على أن هذا الاستفسار يحل محل الموضوع محل التساؤل ويتطلب تناوله بخلاف الابستمولوچيا التى بنت «الحقيقة» على أساس عدم الارتباط بين المتحدث والموضوع»(٢٣).

ونقطة دى سيرتو هنا «ليست» أن النساء يمكن أن يكتبن تاريخ النساء، ولكن أن تاريخ النساء يطرح كل الأسئلة المتعلقة بالإتقان والموضوعية التى انبنت عليها كل معايير علم التاريخ. والمطلب الذى يبدو متواضعًا بأن التاريخ يجب إمداده بمعلومات عن النساء لا يشى فقط بأن التاريخ كما هو غير مكتمل ، وإنما أيضا أن إتقان المؤرخين معرفة الماضى هو بالضرورة أمر جزئى . والأكثر إزعاجًا ، أنه يفتح أمام الدراسة النقدية طبيعة التاريخ نفسها باعتبارها مسألة معرفية ترتكز على الموضوع (٢٤).

وانتقلت مناقشة هذه الموضوعات الفلسفية المزعجة ، فى معظمها إلى أرضية أخرى . فقد دافع من يسمون المؤرخون «التقليديون» عن سلطتهم بوصفهم حراس علم التاريخ (وضمنا يعنى هذا إتقانهم التاريخ) بالتوسل بالمعارضة بين «التاريخ» (تلك المعرفة التى تحققت من

خلال البحث المحايد) والأيديولوچيا (وهى المعرفة التى شابتها اعتبارات المصالح) . وتوصف «الأيديولوچيا»، بأنها بطبيعتها تصيب العمل الفكرى وتجرده من جدارته . وتربط لافتة «أيديولوچى» مفهوم عدم القبول بالآراء المتعارضة كما تضفى على الآراء السائدة حصانة القانون أو تمنحها صفة «الحقيقة» [٢٥].

ولم يكن نورمان هامبسون Norman Hampson ليعترف أبدًا أن وسمه الرافض لكتاب عن النساء الفرنسيات فى القرن التاسع عشر بأنه «تاريخ للرحم» يعنى ضمنا بالنسبة له تناقضا مع التاريخ الذكورى، فقد كان التناقض عنده مع التاريخ الحقيقى. كما أن هجوم ريتشارد كوب Richard Cobb المجانى لى سيمون دى بوڤوار فى عرض للكتاب نفسه يعنى ضمنا أن الناشطات النسويات لايمكن أن يكن مؤرخات جيدات . أما وصايا لورنس ستون Lawrence Stone العشر عن تاريخ النساء فكانت أكثر قبولاً للمجال بأسره ، ولكنها أكدت على مخاطر «تشويه الأدلة» لكى «تدعم الأيديولوچية النسوية الحديثة» كما لو أن معنى الأدلة كان صريحًا لا لبس فيه ولايمثل أية مشكلات عن الموقف، ووجهة النظر والتفسير عند المؤرخين. وبرفض مماثل لهذه المسائل اتهم روبرت فنلاى Rober Finlay ناتالى ديڤيز Nat-alie Davis بغض النظر عن «سلطة المصادر» والتعدى على « محكمة الوثائق» بغرض تطوير قراءة نسوية لقصة مارتين جير Martin Guerre . ولاحاجة بنا إلى القول بأن محاولات الناشطات النسويات لكشف «انحيازات الذكور» أو «الأيديولوچية الذكورية» المستوطنة فى الكتابة التاريخية كانت تقابل غالبًا بالسخرية أو التفنيد تعبيرًا عن «الأيديولوجية» [٢٧].

وعلاقات القوة غير المتكافئة داخل صفوف المؤرخين جعلت الاتهامات بالأيديولوچيا خطيرة بالنسبة لأولئك الذين سعوا نحو مكانة مهنية وبحثوا عن شرعية علمية . وقد أدى هذا (وقواعد تكوين العلم) فى البداية إلى عدم تشجيع كثير من النساء المؤرخات على مواجهة أكثر المضامين المعرفية جذرية فى أعمالهن ؛ وبدلاً من ذلك أكدن على النساء بوصفهن موضوعًا تاريخيًا إضافيا لا على تحديهن للفروض المنهجية فى علم التاريخ . (عند تلك النقطة ، سعين إلى الظهور فى مظهر المواطنات الملتزمات بالقانون، لا باعتبارهن ناشطات فى التخريب) . لقد كان تاريخ النساء منطقة بحث جديدة مثل دراسات المنطقة أو العلاقات الدولية، وهو ما كنت أجادل به، مثلاً، فى غمار الدفاع عن المقررات الدراسية الجديدة عن النساء أمام لجنة المقررات فى الجامعة سنة ١٩٧٥م[٢٨]. وكان هذا فى جزء منه حيلة تكتيكية (حركة سياسية)

حاولت في سياق محدد أن تنتزع دراسات المرأة من الارتباط الوثيق بأكثر مما يجب مع الحركة النسوية . وفي جزء آخر ، نبت من الاعتقاد بأن تراكم المعلومات الكافية عن النساء في الماضي سوف يحقق بالضرورة اندماج تاريخ النساء في التاريخ القياسي. وكان يشجع هذا الدافع الأخير على ظهور التاريخ الاجتماعي الذي ركز على الهويات الجماعية لعدد كبير من المجموعات الاجتماعية .

إن وجود التاريخ الاجتماعي الذي كان مجالاً جديداً نسبيًا قدم وسيلة مهمة لتاريخ النساء: ذلك أن الربط بين موضوع جديد وطائفة من المقاربات الجديدة أدى إلى تقوية الزعم بأهمية الدراسة عن المرأة ، أو مشروعيتها على الأقل . وإذا راق لبعض المفاهيم المسبقة في مجال دراسة التاريخ عن التحليل العلمي المحايد ، فإنه مع هذا أدى إلى تعدد أهداف البحث التاريخي، مما منح المجموعات الاجتماعية مثل الفلاحين ، والعمال، والمدرسين ، والعبيد مكانتهم باعتبارهم موضوعات تاريخية. وفي هذا السياق أمكن لمؤرخي النساء الإشارة إلى حقيقة التجربة التي عاشتها النساء ، وافتراض ما تحمله من اهتمام وأهمية . فقد وضعوا النساء في منظمات سياسية وفي أماكن العمل، وقدموا ساحات ومؤسسات جديدة- العائلات والبيوت- باعتبارها موضوعات جديرة بالدراسة . وقد سعى جزء من تاريخ النساء إلى توضيح التشابه بين نشاط الرجال ونشاط النساء، وأكد بعض منه على اختلاف النساء ؛ وكل من المقاربتين أخذت «النساء» على أنهن فئة اجتماعية ثابتة، وهوية منفصلة، وظاهرة معروفة- وكانت هناك نساء من الناحية البيولوجية يتحركن دخولاً وخروجًا في سياقات وأدوار مختلفة، وتغيرت تجربتهن ، ولكن وجودهن الجوهري - بوصفهن نساءً - لم يتغير [٢٩]. وهكذا، فإن المؤرخين الاجتماعيين (وأنا منهم) قاموا بتوثيق تأثيرات التصنيع على النساء ، وهن مجموعة افترضنا وجود هوية مشتركة لهن . (ولم تسأل كثيرات في تلك الأيام عن التنوع التاريخي لمصطلح «نساء» نفسه، وكيف أنه تغير ، وكيف أنه في غمار التصنيع ، مثلا ، كان تحديد «النساء العاملات» باعتبارهن فئة منفصلة عن «العمال» قد خلق فهما جديداً اجتماعياً لما تعنيه كينونة المرأة) [٣٠]. واتجه آخرون نحو ثقافة النساء باعتبارها النتاج الملموس لتجربة النساء الاجتماعية والتاريخية، كما أنهم مالوا إلى افتراض أن «النساء فئة متجانسة [٣١]. ونتيجة لهذا ، اتخذت فئة «النساء» وجودها باعتبارها كيانًا اجتماعيًا منفصلاً عن علاقتها المفاهيمية التي أرسيت تاريخيًا مع فئة «الرجال»[٣٢] ، وقد أمضى تاريخ النساء وقتًا أقل في توثيق

تحويل النساء إلى ضحايا، وزمنًا أطول في التأكيد على تمايز «ثقافة النساء» ، وبذلك خلق تراثًا تاريخيًا يمكن أن تلجأ إليه الناشطات النسويات للحصول على أمثلة من نشاط النساء ، للبرهنة على قدرتهن على صناعة التاريخ(٣٣).

وقد تركت عملية توثيق الحقيقة التاريخية عن النساء صداها وأسهمت في خطاب الهوية الجماعية التي جعلت حركة النساء ممكنة في سبعينيات القرن العشرين. وقد أنتج هذا الخطاب تجربة أنثوية مشتركة أكدت على المقام المشترك للجنس والحاجات والمصالح المرتبطة به ، على الرغم من أنها أخذت في الاعتبار الاختلافات الاجتماعية. وقد تضمنت عملية إثارة الوعي اكتشاف هوية النساء «الحقيقية»، وإسدال الغمامات، وإحراز الاستقلال الذاتي، والفردية وبالتالي تحقيق العتق والتحرر ، وقد افترضت حركة النساء وجود النساء باعتبارهن فئة اجتماعية منفصلة ، يمكن تحديدها، تحتاج عضواتها فقط أن تتم تعبئتهن (بدلاً من رؤية مجموعة مختلفة من الناس المتشابهات بيولوچيا كانت هويتهن في طور التخليق أثناء الحركة). وهكذا أكد تاريخ النساء حقيقة فئة «النساء» ، ووجودها السابق على الحركة المعاصرة، وحاجاتها، ومصالحها وخصائصها الملازمة ، من خلال إعطائها تاريخا .

لقد كان ظهور تاريخ النساء ، إذن مجدولاً مع بروز فئة «النساء» باعتبارها هوية سياسية وكان هذا مصحوبًا بتحليل أرجع قهر النساء وافتقارهن إلى الظهور التاريخي إلى انحياز الذكور. ومثل «النساء» ، كان «الرجال» يعتبرون جماعة مصالح متجانسة كانت مقاومتهم لمطالب المساواة تُعزى إلى رغبة عامدة لحماية السلطة والموارد التي وفرتها لهم سيطرتهم. وكان الانتباه إلى الاختلاف ، والطبقة والعرق والثقافة ، قد عادت بتنويعات على موضوع السلطة الأبوية الذكورية ولكنها مع هذا رسَّخت التعارض بين الرجل والمرأة . وكان هناك قدر أقل من الاهتمام بالأسس المفاهيمية للسلطة الأبوية الذكورية (البطريركية) والطرق التي كان يُبنى بها الاختلاف الجنسي في المعرفة الثقافية ، أقل من قدر الانتباه إلى تأثيرات أنظمة سيطرة الذكور على النساء ، ومقاومة النساء لهم . وكانت خصومة الرجال ضد النساء بؤرة مركزية في الشئون السياسية والتاريخ وكان لهذه عدة تأثيرات " فقد جعلت من الممكن التعبئة السياسية الفعالة على نطاق واسع كما أكدت ضمنًا على الطبيعة الجوهرية للمعارضة الثنائية ما بين الذكور والإناث . وبدا أن غموض تاريخ النساء قد تم حله بهذه المعارضة الصريحة بين مجموعتي مصالح متعارضتين، ومنفصلتين من الناحية المؤسسية .

ومن الأمور المتناقضة أنه على الرغم من أن هذا النوع من الصراع كان لعنة وحرامًا بالنسبة لأولئك الذين فهموا المهن على أنها جماعات موحدة ، فقد قبلوه باعتباره توصيفا للتاريخ . (وكان هذا هكذا فى جزء منه على الأقل لأن المجال نفسه كان يتغير ، وكانت بؤراته تتبدل ، وتعرضت تقاليده الحاكمة للتحدى والاستبدال) . والواقع ، أنه ربما أمكن القول بأن تاريخ النساء حقق شرعية معينة باعتباره مشروعًا بحثيا تاريخيًا كما أكد على الطبيعة المنفصلة ، والتجربة المنفصلة للنساء ، كما أنه قوى الهوية الجماعية للنساء. وكان لهذا تأثيره المزدوج من حيث الحصول على مكان لتاريخ النساء فى علم التاريخ وتأكيد اختلافه عن «التاريخ» . لقد كان تاريخ النساء محل تسامح (جزئيا على الأقل بسبب الضغط من المؤرخات النسويات والطلاب مما جعلته يستحق التسامح) من جانب أنصار الحركة التعددية الليبرالية الذين كانوا يرحبون بإضفاء المصداقية على اهتمام التاريخ بكثير من الموضوعات ؛ ولكنه بقى خارج الاهتمامات السائدة للعلم التاريخى، وبدا أن التحدى الهدام الذى يحمله قد تم احتواؤه فى مجال آخر.

«الشئون السياسية» فى مواجهة «النظرية»

لم يكن منع انتشار تاريخ النساء وعزله كاملاً أبدا، ولكنه بدأ يتهدم بشكل واضح أواخر سبعينيات القرن العشرين بسبب عدد من التوترات، التى جاء بعضها من داخل العلم التاريخى، وجاء البعض الآخر من الحركة السياسية. وقد امتزجت هذه سوياً لكى تتحدى قابلية الحياة فى فئة «النساء» وطرحت «الاختلاف» بوصفه مشكلة ينبغى تحليلها . وقد أوضح التركيز على الاختلاف بعض جوانب الغموض التى كانت متضمنة علي الدوام فى تاريخ النساء بالإشارة إلى المعانى العلائقية اللازمة بين فئات النوع . وقدمت أسئلة عن الروابط فيما بين السلطة والمعرفة كما بينت الروابط الداخلية بين النظرية والأمور السياسية.

لقد كان هدف مؤرخى النساء، حتى عندما أرسوا الهوية المنفصلة للنساء، أن يدمجوا النساء فى التاريخ . كما أن الاندفاع نحو الدمج مضى بتمويل من الحكومة والمؤسسات الخاصة فى سبعينيات القرن العشرين وأوائل الثمانينيات . (ولم تكن هذه المؤسسات تهتم بالتاريخ فقط وإنما أيضا بالدراسات التاريخية والضوء الذى يمكن أن تلقيه على السياسة المعاصرة حيال النساء). ولم يكن الدمج يفترض فقط أنه يمكن للنساء أن تتناسبن مع التواريخ المستقرة ، ولكن كان يفترض أن وجودهن كان مطلوبًا لتصحيح القصة . وهناك كانت الدلالات

المتناقضة للمكانة التكميلية لتاريخ النساء تعمل عملها. فقد كان مغزى تاريخ النساء بتجميعه المعلومات عن النساء في الماضي ، وبإصراره على أن تقسيم التاريخ إلى فترات على النحو المقبول لم يكن يصلح عندما تؤخذ النساء في الحسبان، وببراهينه وأدلته على أن النساء أثرن في الأحداث وشاركن في الحياة العامة، وبإصراره على أن الحياة الخاصة كان لها بعد سياسي عام- كان مغزى تاريخ النساء ينطوي على قصور أساسي: أن موضوع التاريخ لم يكن شخصاً عالميا ، وأن المؤرخين الذين كتبوا عنه كأنه كذلك لم يعد بوسعهم أن يزعموا أنهم يحكون القصة كلها . إن مشروع الدمج جعل هذه الدلائل الضمنية أمراً واضحاً .

ومع أن العمل على تحقيق الدمج أخذ بحماسة وتفاؤل ، فقد كان من الصعب تحقيقه . وبدا أن ذلك راجع إلى مقاومة المؤرخين أكثر من الانحياز أو المحاباة البسيطة ، على الرغم من أن ذلك تجسد بالتأكيد في المشكلة (٣٤). وبالأحرى ، فإن مؤرخي النساء أنفسهم وجدوا من الصعب الكتابة عن النساء في التاريخ كما أن مهمة كتابة التاريخ تطلبت إعادة صياغة المفاهيم التي لم يكونوا مستعدين لها أو مدربين لإنجازها مبدئياً . وكان المطلوب طريقة للتفكير في الاختلاف وكيف حددت بنيته العلاقة بين الأفراد والمجموعات الاجتماعية.

كان مصطلح «النوع» المصطلح الذي استخدم لتنظير مسألة الاختلاف الجنسي. وفي الولايات المتحدة ، تمت استعارة المصطلح من النحو ، بدلالاته عن الأعراف أو قواعد الاستخدام اللغوي، ومن دراسات علم الاجتماع للأدوار الاجتماعية المنوطة بالنساء والرجال . وعلى الرغم من أن الاستخدامات السوسيولوجية لمصطلح «النوع» يمكن أن تحمل معها نغمات وظيفية أو جوهرية ، فقد اختار أنصار الحركة النسوية أن يؤكدوا على المضامين الاجتماعية للنوع في مقابل المضامين الجسدية للجنس(٣٥).

وأكدوا أيضا على جانب العلاقة في النوع : فلايمكن للمرء أن يتخيل النساء سوى عندما يتم تعريفهن من حيث صلتهن بالرجال، ولايمكن تصور الرجال سوى من حيث ارتباطهم بالنساء. وبالإضافة إلى ذلك ، فبما أن النوع قد تم تعريفه على أنه نسبي للسياقات الاجتماعية والثقافية ، فقد كان من الممكن أن نفكر في ضوء أنظمة النوع المختلفة والعلاقات بين تلك وبين الفئات الأخرى مثل العرق أو الطبقة أو العنصر ، كما يتم حساب التغير.

إن فئة النوع، التي استخدمت أولا لتحليل الفوارق بين الجنسين ، امتدت إلى مسألة الفوارق داخل المجموعات . لقد جلبت سياسات الهوية في ثمانينيات القرن العشرين ولاءات

متعددة إلى الوجود تحدت المعنى التوحيدى لفئة «النساء» . والواقع ، أن مصطلح «نساء» لم يكن ممكنا استخدامه دونما تعديل : إذْ إن النساء الملونات ، النساء اليهوديات ، النساء الشاذات جنسياً ، النساء العاملات الفقيرات ، والأمهات الوحيدات ، كانت فقط بعض الفئات التى تم تقديمها . وكلها تحدت مصطلح «نساء» بهيمنته الدالة على الطبقة الوسطى البيضاء والعلاقات الجنسية الطبيعية، وجادلت بأن الفروق الأساسية فى التجربة تجعل من المستحيل الزعم بوجود هوية مفردة (٣٦). كانت تجزئة المفهوم الكلى عن «النساء» بالعرق، والعنصر ، والطبقة والجنس ممزوجة بخلافات سياسية خطيرة داخل حركة النساء حول موضوعات تراوحت ما بين فلسطين والأدب المكشوف(٣٧). وقد استدعت الخلافات التى كانت تزداد وضوحاً وحدّة بين النساء التساؤل حول إمكانية وجود سياسات موحدة وألمحت إلى أن مصالح النساء لم تكن واضحة بذاتها، ولكنها كانت محل نزاع وشقاق . وفى الواقع، أن كل مطالب الاعتراف بتجارب وتواريخ الأنواع المختلفة من النساء قد استنفدت حيوية منطق الاستكمال ، من حيث علاقة هذا المنطق بالفئة الكلية للنساء، ومدى كفاية أى تاريخ عام للنساء، وعلاقته بقدرة أية مؤرخة من النساء على تغطية الموضوع كله .

لقد أدى موضوع الفروق داخل الاختلاف إلى ظهور الجدل حول كيفية توضيح النوع وإمكانية بيان أنه فئة يمكن تحليلها . وأحد هذه التوضيحات يستند إلى العمل فى العلوم الاجتماعية حول نظم النوع أو أبنيته ؛ ويفترض وجود معارضة ثابتة بين الرجال والنساء ووجود هويتين منفصلتين (أو دورين) للجنسين تعملان بشكل متسق فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية. ويفترض أيضا وجود علاقة مباشرة متبادلة بين الفئتين الاجتماعيتين ذكراً وأنثى وهوية الموضوع رجالاً ونساء ، وينسب تنوعهما إلى خصائص اجتماعية أخرى راسخة مثل الطبقة أو العرق . ويمدُّ بؤرة اهتمام تاريخ النساء بالدخول فى علاقات الذكر / الأنثى وإلى الأسئلة المتعلقة بكيفية إدراك النوع، وماهية العمليات التى تؤسس المؤسسات النوعية، وإلى الفروق التى صنعها العرق ، والطبقة والسلالة والجنس فى التجربة التاريخية للنساء. إن مقاربة العلم الاجتماعى للنوع قد أدت إلى تعدد فئة «النساء» وأنتجت مجموعة مزدهرة من التواريخ والهويات الجماعية ؛ ولكنها دخلت أيضا فيما يبدو أنه مجموعة مستعصية من المشكلات التى نبعت من الاعتراف بالفروق بين النساء. وإذا كان هناك هذا القدر الكبير من الفروق فى الطبقة، والعرق والسلالة والجنس . فما الذى يشكل الأرضية المشتركة التى يمكن

لأتباع الحركة النسوية أن ينظموا عليها عملاً جماعياً متماسكا ؟ وما الرابطة المفاهيمية لتاريخ النساء أو مقررات دراسات النساء بين ما يبدو أنه تكاثر لا نهائى لقصص النساء المختلفة (إن المشكلتين متصلتان: فهل هناك هوية مشتركة للنساء ، وهل هناك تاريخ مشترك لهن يمكن أن نكتبه؟)

لقد حاولت بعض الناشطات النسويات الإجابة عن هذه الأسئلة بتحليل النوع عن طريق المقاربات الأدبية والفلسفية التى، بقدر تنوعها، تم تجميعها تحت عنوان ما بعد البنيوية ، وهنا تحول التأكيد على توثيق التعارض الثنائى بين الذكر والأنثى إلى التساؤل عن كيفية بنائه ، من افتراض وجود سبق لهوية «النساء» إلى الاستفسار فى داخل عمليات بنائها ، ومن إضفاء معنى لازم على فئات مثل «رجال» و«نساء» إلى تحليل كيفية التأكد من معناها . ويكتسى هذا التحليل المغزى والأهمية التى يتسم بها هدفه الذى يسعى إليه ، وهو دراسة الممارسات والسياقات التى تم إنتاج معانى الاختلافات الجنسية فى داخلها . وغالبا ما تستخدم نظرية التحليل النفسى لمناقشة تعقيدات تعريفات أى موضوع وعدم أستقرارها وتؤخذ الذكورية والأنوثة على أنها مواقع موضوعية ليست مقيدة بالضرورة فى حدود الذكور والإناث بالمفهوم البيولوچى (٣٨).

وكان الأهم هى الطرق التى اتبعها بعض النسويين لاستغلال ما بعد البنيوية فى التفكير حول الاختلاف . فالاختلاف يكمن فى قلب النظريات اللغوية عن المعنى والمغزى . ويقال إن جميع المعانى قد أُنتجت بشكل مختلف ، من خلال التناقضات والمعارضات، وبطريقة تراتبية من خلال تحديد أولوية أحد المصطلحات، وتخصيص التبعية لمصطلح آخر. ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا الترابط الداخلى فى العلاقة غير المتناسقة لأنه يشى بأن التغير أكثر من مجرد مسألة مواءمة الموارد الاجتماعية لمجموعة خاضعة ، وهو أكثر من مسألة عدالة التوزيع. فإذا كان تعريف الرجل يقوم على خضوع النساء، فهناك إذن تغير فى مكانة المرأة يتطلب (ويجلب) تغيراً فى فهمنا للرجل (ولن تجدى التعددية التراكمية البسيطة) . إن التهديد الجذرى الذى يمثله تاريخ النساء يكمن بالضبط فى هذا النوع من التحدى إزاء التاريخ المستقر؛ فلا يمكن مجرد إضافة النساء دون إعادة صياغة جوهرية للمصطلحات ، والمعايير والفروض لما كان قد مرّ باعتباره تاريخا موضوعيا محايداً وكليا فى الماضى : لأن تلك النظرة إلى التاريخ فى تعريفه لنفسه كانت تنطوى على استبعاد النساء .

ويجادل أولئك الذين يعولون على تعاليم ما بعد البنيوية بأن القوة يجب أن تُفهم فى مصطلحات العمليات غير المتسقة التى تنتج الاختلاف . كيف تنتج معرفة الاختلاف وتكتسى الشرعية ويتم نشرها ؟ كيف يتم بناء الهويات وبأية مصطلحات ؟ يجد مؤرخو الحركة النسوية الإجابات عن هذه الأسئلة فى أمثلة سياقية خاصة، بيد أنهم لاينتجون ببساطة قصصًا منفصلة . بل إن الأرضية المشتركة ، سياسيًا وأكاديميًا ، هى أرضية ينتج عليها النسويون تحليلات للاختلاف وينظمون المقاومة ضد الاستبعاد، والسيطرة، أو الهامشية التى هى من تأثيرات نظم التفرقة .

ويخلاف مقاربة العلم الاجتماعى الذى يأخذ هوية النساء وتجربتهن على أنها أمور مسلّم بها، فإن مقاربة ما بعد البنيوية تجعل الهوية نسبية وتجردها من أساسها فى «تجربة» أسبغت عليها سمة الجوهرية ، وكلاهما عنصران حاسمان ، فى معظم التعريفات القياسية للشئون السياسية، من أجل تعبئة الحركات السياسية. وبتحويل مفاهيم الهوية والتجربة إلى أمور إشكالية، قدم النسويون الذين يستخدمون تحليل ما بعد البنيوية تفسيرا حيًا ومتحركًا للنوع يؤكد على السياق ، والتناقض الأيديولوجى ، وتعقيدات علاقات السلطة المتغيرة وقصر مؤلفاتهم ، من عدة جوانب ، على قدر من التنوع التاريخى وخصوصية السياق لمصطلحات النوع نفسه أكبر من أعمال أولئك الذين يعتمدون على صياغة المفاهيم العلمية الاجتماعية . بيد أن الأعمال التى تأثرت بما بعد البنيوية تدخل فى بعض المشكلات نفسها التى يواجهها أولئك الذين يفضلون المقاربات العلمية الاجتماعية . وإذا كانت فئة «النساء» ، حسبما جادل دينيس رايلى Denis Riley ، وكذلك هوية النساء وتجربتهن ، غير مستقرة لأنها متغيرة من الناحية التاريخية ، فما هى الأرضية التى تقوم عليها التعبئة السياسية؟ كيف يمكن كتابة تاريخ نساء متماسك دون أن يكون هناك مفهوم مشترك عن كينونة النساء؟ ويجيب رايلى ، بشكل سليم ، على ما أظن ، أنه من الممكن التفكير فى السياسات وتنظيمها فى فئات غير ثابتة ، وهذا ما كان يحدث على الدوام فى الواقع ، ولكننا بحاجة إلى مناقشة الكيفية التى كان يحدث بها بالضبط . ومن دواعى السخرية ، على أية حال، أنه بدلاً من الاعتراف بتشابه المعضلات التى جابهت المؤرخين النسويين فى ثمانينيات القرن العشرين، طورت المعضلات التى نبتت من حاجتنا إلى التفكير فى الأمور السياسية بمصطلحات جديدة، جدلاً حول فائدة ما بعد البنيوية بالنسبة للحركة النسوية ، وطُرح هذا الجدل بوصفه خصومة بين «النظرية» و«الشئون السياسية».

لقد عممَّ النسويون المناهضون لما بعد البنيوية انتقاداتهم ، بحيث باتت إدانة لـ «النظرية» التي وصموها بأنها تجريدية، ونخبوية ، وذكورية. وفي مقابل ذلك أصروا على أن موقفهم ثابت، وعملي، ونسوي، ومن ثم فهو صحيح سياسيًا . وأعيدت تسمية كل ما هو نظري عن النسوية باسم «الشئون السياسية» في هذا الموقف المعارض على أساس أنها آراء تخرج «مباشرة من التأمل في تجربتنا الخاصة، أي تجربة النساء ، من غمار التناقضات التي شعرنا بها في الطرق المختلفة التي كان يتم تقديمنا بها، حتى إلى أنفسنا، ومن غمار عدم المساواة التي جربناها طويلاً في مواقعنا»(٣٩) . ويطرح المشكلة في مصطلحات التعارض الثنائي المستحكم، تستبعد هذه الصياغة إمكانية التفكير في فائدة مختلف المقاربات النظرية للتاريخ النسوي، تمامًا مثل إمكانية إدراك «النظرية» و« الشئون السياسية» وفهمها على أنهما متصلان بصلة وثقى.

وفي ظني أن التعارض بين «النظرية» و«الشئون السياسية» تعارض زائف يسعى لإسكات المجادلات التي يجب أن تشغلنا حول النظرية الأكثر إفادة للحركة النسوية بأن نجعل «نظرية» واحدة فقط مقبولة باعتبارها «سياسات» (في لغة أولئك الذين يستخدمون هذا التفريع تعني «الشئون السياسية» في الواقع «النظرية» الجيدة؛ على حين تعني «النظرية» السياسات الرديئة)(٤٠) إذ إن «النظرية» الجيدة تأخذ «النساء» و«تجربتهن» على أنها الحقائق الواضحة بذاتها التي هي أصل الهوية الجماعية وأساس الفعل الجماعي . والواقع (في حركة تمثل النقيض لرد فعل التاريخ تجاه تاريخ النساء) ، يضع أولئك الذين يستخدمون هذه المعارضة الثنائية «الشئون السياسية» على أنها الموقف القياسي، وهي بالنسبة للبعض بمثابة الاختبار الأخلاقي لشرعية الحركة النسوية وتاريخ النساء . ويتحالف مؤرخو النساء الرافضون لـ «النظرية» بشكل غريب مع أولئك المؤرخين التقليديين الذين يجدون فيما بعد البنيوية (ووجدوا في تاريخ النساء) نقيضا للمبادئ الجوهرية في العلم الذي يعملون في رحابه (٤١). وفي كلا الحالين يدافع هؤلاء المؤرخون عن مفهوم «التجربة» ويرفضون تحويله إلى إشكالية ؛ ذلك أنهم بالتعارض بين «التجربة» و«السياسات» إنما يبعدون التجربة عن الفحص الدقيق ويحمونها باعتبارها الأرضية الأصولية واللاإشكالية للشئون السياسية وللتفسير التاريخي (٤٢).

بيد أن مفهوم التجربة صار مفهومًا إشكاليًا بالنسبة للمؤرخين ويتطلب مناقشة نقدية. إذ إن ما بعد البنيوية لم تطرح فقط السؤال عما إذا كان للتجربة مكان خارج الأعراف اللغوية

(أو البنية الثقافية) ، ولكن كتابات المؤرخات من النساء أيضا أدت إلى تعدد الطرق التى اصطلح المؤرخون على استخدامها فى دراسة التجربة وتعقيدها . وبالإضافة إلى هذا ، وهو الأمر الأهم فى هذه المناقشة، جعل العالم المتنوع للحركة السياسية النسوية فى ثمانينيات القرن العشرين من المستحيل وضع تعريف واحد لتجربة النساء. ومثلما هو الحال دائمًا ، فإن الأسئلة التى طرحت عن «النظرية» أسئلة عن «الشئون السياسية» : هل هناك تجربة للنساء تتجاوز حدود الطبقة والعرق؟ كيف تؤثر فروق العرق أو السلالة على «تجربة النساء» وعلى تعريفات الحاجات والمصالح النسوية التى يمكننا أن نقيم نظاما حولها أو نكتب عنها؟ كيف يمكن لنا أن نحدد ما كانت عليه تلك التجربة فى الماضى وماهيتها فى الحاضر؟ لايمكن للمؤرخين أن يجيبوا عن هذه الأسئلة دون وجود طريقة ما للتفكير نظريًا فى التجربة ؛ وبدون طريقة ما للتفكير نظريا فى العلاقة بين تاريخ النساء والتاريخ ، سوف تضيع بسهولة التأثيرات التى قد تكون حرجة وقد تطيح باستقرار الحركة النسوية، كما أننا سوف نهدر الفرصة المتاحة لتحويل المعرفة التى تشكل التاريخ والشئون السياسية التى نمارسها بشكل جذرى.

ولاتخلو ما بعد البنيوية من الألغاز والمعضلات بالنسبة للمؤرخين النسويين. وفى ظنى أن أولئك الذين يصرون على أن ما بعد البنيوية لاتستطيع التعامل مع الحقيقة ، أو أنها تركز على نصوص تستبعد البنية الاجتماعية ، يخطئون فهم النظرية . ولكننى لا أظن أنها تقدم إجابات جاهزة للمؤرخين على بعض المشكلات التى تثيرها : كيف يمكن أن نلجأ إلى التجربة دون أن نوافق ضمنيا عن المفاهيم التى باتت جوهرية؛ وكيف نصف الحراك السياسى دون اللجوء للهويات اللا تاريخية؛ وكيف نصور القوة البشرية على حين نعترف بمحدداتها اللغوية والثقافية، كيف ندخل الخيال واللا وعى فى دراسات عن السلوك الاجتماعى ، كيف نتعرف على الفروق ونقوم بعمليات التفرقة لبؤرة التحليل السياسى بدون إنهاء الروايات العديدة غير المتصلة، أو بالمبالغة فى قيمة فئات مثل «المقهورين» ، كيف نعترف بانحياز القصة التى يرويها أحد ما (كل القصص فى الواقع) ومع هذا تظل نحكيها بحجة وإقناع ؟ وهذه مشكلات لا تحل باستبعاد «النظرية» أو إعلان أنها نقيض لـ «الشئون السياسية» ؛ وإنما تتطلب مناقشة مستمرة وفى الوقت نفسه (مناقشة نظرية وسياسية فى آن معًا) ، لأنها فى نهاية المطاف مشكلات تواجه أولئك الذين يكتبون تاريخ النساء أيًا كانت مقارباتهم.

وهى مشكلات عامة لكونها ناشئة عن منطق الاستكمال الذى ميز تاريخ النساء ومنحه قوته النقدية. وعندما أخذت المؤرخات النسويات على عاتقهن مهمة إنتاج معرفة جديدة، كان لابد لهن أن يتساءلن عن كفاية مادة التاريخ الموجودة، فضلاً عن الأسس المفاهيمية والمقدمات المنطقية المعرفية التى قامت عليها . وفى هذا وجدوا لأنفسهم حلفاء بين المؤرخين وغيرهم من الباحثين فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية الذين يتناقشون فيما بينهم حول مسائل السببية والتفسير، والقوة والتحديد. بيد أن النسويين، فى معظمهم ، لم يعتبروا شركاء كاملين فى هذه المناقشات[٤٣]. وحتى فى هذه الخطابات النقدية، يبقى وضعهم تكميليا : باعتباره مثالاً مخصوصاً على ظاهرة عامة وباعتباره فى الوقت نفسه تعليقًا جذريًا على (عدم) كفاءة مصطلحاته وممارساته . إن الموقف التكميلى موقف يدل على عدم الحسم المتكرر والاضطراب المحتمل . ويتطلب الأمر انتباهاً دائمًا لعلاقات القوة ، يقظة معينة فى وجه محاولات تطبيق واحد أو آخر من مواقفه المتناقضة . ويجد مؤرخو النساء أنفسهم باستمرار فى حالة احتجاج ضد محاولات تنظيمهم فى مواقف هى مجرد مواقف خارجة عن نطاق التاريخ ؛ وهم يقاومون أيضا المجادلات التى تستبعد ما يفعلونه باعتباره مختلفًا جداً بحيث لايمكن اعتباره تاريخًا . ولهذا السبب ، فإن حياتهم المهنية وأعمالهم، سياسية بالضرورة . وفى النهاية لايمكن أن ننزع الشئون السياسية – وعلاقات القوى، ونظم الاعتقاد وممارستها – عن المعرفة وعمليات إنتاجها ؛ وتاريخ النساء لهذا السبب مجال سياسى حتمًا .

تسعينيات القرن العشرين

ما الذى حدث لمجال تاريخ النساء فى السنوات العشر التى انقضت منذ نشر هذا الكتاب لأول مرة؟ إن الفصل الخاص بالكتابة التاريخية عن النساء قد أوضح أن المؤهلات المهنية للمؤرخين فى هذا المجال، ونجاح ما أسميته منهج العلوم الاجتماعية فى دراسة النوع قد هدأ مخاوف أولئك الذين ساووا دراسة النساء مع مجادلات النسوية. وعلى الرغم من أنه من النادر أن تخصص العروض المشهورة (مثل عروض الكتب فى TLS أو the New York Review of Books المساحة للتواريخ الجادة عن النساء والنوع ، إذ إن صفحات المجلات العلمية الآن تقدم التعليقات والمقالات – وهى علامة على الاحترام الأكاديمى الذى تم اكتسابه بصعوبة وبشكل جيد. ومع هذا فإذا كان مؤرخو النساء قد نجحوا فى انتزاع أرضية لهم ، فإنهم لم يدمجوا موضوعهم فيما جرت العادة على تسميته الاتجاه السائد فى التاريخ . ويرجع هذا إلى

حد كبير إلى أن مجال التاريخ نفسه فى حال من التغير والتقلب . حيث لا تزال المعايير الأقدم سائدة ، فإن تجربة النساء لاتعتبر حتى الآن مركزية فى صناعة التاريخ . وحيثما وجدت المعايير الجديدة، فإن فكرة الاتجاه السائد - وهى سرد وحيد للتطور الوطنى- لم تعد تعريفًا مناسبًا لكتابة التاريخ ودراسته. لقد أسهم تاريخ النساء فى تعدد الفاعلين فى التاريخ ومن يكتبونه كما أفاد منه فى الوقت نفسه ، وقد تحدى هذا وجود تعريف مركزى للعلم وهامشية النساء على السواء(٤٤).

ومع التغيرات التى طرأت على مفهوم التاريخ وممارسته ، فإن علاقات القوى ومصطلحات الجدل تغيرت أيضا. وقد حصل مؤرخو النساء على نصيب من القوة فى مجال علم التاريخ: فقد حصلوا على الجوائز، وصارت لهم كتب ومقالات تعتبر من المراجع ، وينتخبون قادة المنظمات المهنية، ويتولون تقييم المرشحين للوظائف وتعيينهم. وبدلاً من التوترات بين مؤرخى النساء والمؤرخين التقليدين التى تحدثت عنها فى الصفحات السابقات، فإن الصراعات الآن نشبت داخل مجال تاريخ النساء نفسه . وأحد هذه الصراعات تضع «التاريخ » ضد «النظرية»، وهى ثنائية «الكلية» ضد «الخصوصية» ، بيد أنها مرة أخرى «النساء » ضد «النوع».

ويعيد الجدل حول «التاريخ»، و«النظرية» عرض مناقشة استمرت طويلاً داخل نطاق علم التاريخ عن مكان الاهتمام النظرية (أو الفلسفة) فى ممارسة التاريخ . وفى أحد الجوانب يوجد مؤرخو النساء الذين يعتبرون النظرية نقيضا للتاريخ والذين يصادقون على الالتزامات الخاصة بعلم التاريخ فى حكاية التجارب «الحقيقية» للجماعات والأفراد فى الماضى. وعلى الجانب الآخر، يوجد أولئك الذين. اتخذوا موقفًا راديكاليا بإضفاء السمة التاريخية على الفئات المرتبطة بكتابات ميشيل فوكو (بمن فيهم النساء) . وتعتبر المجموعة الأولى أن إضفاء الشرعية على النساء بوصفهن أهدافا للبحث التاريخى سيكون تحقيقًا لأهداف الحركة النسائية (التى تم الإعلان عنها مرات ومرات فى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين) لتغيير ممارسة الكتابة التاريخية. وتظن المجموعة الثانية (حسبما كتبت من قبل) أن تحدى الحركة النسوية للتاريخ سيكون ناقصًا ما لم يكن مستندا إلى تأملات فى طبيعة التفسير التاريخى. وبطبيعة الحال، تحجب هذه المعارضات المدى الذى يتناول به دارسو «التاريخ» الأسئلة التى أثارتها «النظرية» ؛ ولكن المعارضات، وليست محتويات البحث التاريخى، هى التى تبنى الجدل وتربط

الخلافات باعتقاد المجموعة الأولى بأن تاريخ النساء لا يزال فى حالة التمرد التى اتسم بها فى العقود الباكرة ، ومن ثم ، فإن المطلوب أن يكون هناك وجود نسوى موحد. ويؤدى هذا أحيانا إلى المعاملة العقابية لمن يسمون النظريين ويثير خطر طرح تعصب معين للرأى فى مناقشات حول ما يعتبر نساء وما يعتبر تاريخًا .

و«الكلية» ضد «الخصوصية» ثنائى متعارض آخر فى المجادلات حول تاريخ النساء (وتتخذ هذه المعارضة أيضا شكل «المساواة» ضد «التفرقة») . وقد استثار المجادلات ظهور التعددية الثقافية ، التى تتضمن تاريخ النساء . وهى تدور حول الأنواع التالية من الأسئلة : هل يجب التفرقة بين النساء والرجال فى القصص التى نرويها عن الماضى، أم هل يؤدى هذا إلى تجزئة مصطنعة للهويات السلالية ، والدينية، والعرقية، والطبقية ؟ وهل التعددية الثقافية بإصرارها على التعرف على الفرق الأصولى الذى قد لايمكن تخفيفه ، سيئة (على حد تعبير سوزان أوكين Susan Okin) بالنسبة للنسويين الذين يريدون أن يجادلوا بأن هناك تجارب مشتركة بين النساء جميعا[٤٥]. هل من الممكن أن نكتب تاريخًا دون أن نحدد أى نساء تلك اللاتى نتحدث عنهن؟ هل النساء فئة شرعية فى المعرفة التاريخية؟ وهل الكلية مقابل الخصوصية طريقة منضبطة أو مفيدة لطرح الأسئلة عن التجربة التاريخية أو المطالبة بالحقوق التى كانت محرومة منها سابقا جماعات وأفراد (من بينهم النساء) ؟ هناك بين مؤرخى النساء منازعات شديدة الكثافة حول ما إذا كان ينبغى لتاريخ النساء أن يكون مجال بحث منفصلاً ، وعما إذا كان يمكن للمرء أن يكون مؤرخًا نسويًا ولا يجعل النساء أحد موضوعات كتابته، وما إذا كان ينبغى للاهتمام بالنساء والنوع أن يصبح بشكل روتينى جزءًا من كل البحوث التاريخية.

إن «النوع» فى مواجهة «النساء» نزاع يتصل بالمنازعات السابقة . فهناك يعنى النوع شيئين مختلفين: استفسارًا عن إنتاج المعرفة عن الاختلاف الجنسى والتنظيم الاجتماعى له، وزيادة أهداف البحث التاريخى لتشمل أفكارًا عن تاريخ الجنس والممارسة الجنسية وتاريخ الشذوذ الجنسى بين الرجال والنساء . وفى الولايات المتحدة ، حيث اختارت كثير من برامج دراسات المرأة أن تصبح دراسات النوع، كان المعارضون للتغير قلقين من فقدان الاهتمام بالنساء من جراء ذلك[٤٦]. وإلى المدى الذى يكون فيه النوع مفهومًا على أنه تحليل للطرق المتغيرة التى تم فيها إنتاج الفرق الجنسى، يأخذ مكان النظرية فى معادلة «النظرية» ضد «التاريخ» والجدل الدائر حولها . («فالتاريخ» يقدمه أولئك الذين يصرون على قصص النساء

وفعاليتهن يجب أن يشغل فكر مؤرخى النساء). ولكن عندما يفهم النوع ببساطة على أنه تعدد للموضوعات ، يكون الموضوع مختلفًا. فهو يتضمن – بطرق متناقضة – كلية فئة النساء (بوصفها ضد الخصوصية التى تتسم بها سلالاتهن أو خصائصهن الجنسية) وخصوصية تجربة النساء اللاتى يضمهن النوع (بوصفها خصوصية ضد عالمية أو كلية التجربة الانسانية التى يصنفها النوع) . كما أن «النوع» ضد «النساء» يثير أيضًا السؤال عن علاقة تاريخ النساء بالحركة النسوية. وفى سبعينيات القرن العشرين كان أحد مشروعات تاريخ النساء أن يساعد على إنتاج موضوعات الحركة النسوية بإظهار أن النسوة كن، وكذلك يمكن أن يكن ناشطات ، لهن أهداف خاصة بهن. و«النوع» يزيح البؤرة من فعالية النساء إلى عدد من المناطق الأخرى– مثل الأفكار عن الاختلاف الجنسى، والتجارب الذاتية فى الهوية الجنسية ومحددات قبول ومقاومة القواعد والمثل القياسية– التى قد تمدنا برؤية ثاقبة ، ولكنها لاتمدنا بالضرورة بموضوعات ، عن الحركات السياسية . وبهذا تعكس ثنائية «النوع» فى مواجهة «النساء» المجادلات فيما بين أنصار الحركة النسوية حول صلاحية الهوية لتكون أساسًا للتعبئة السياسية . وفى الانتشار المتنوع والمعقد، باعتراف الجميع ، للمصطلحات ، غالبًا ما يشير مصطلح «نوع» إلى موقف نقدى من السياسات القائمة على أساس الهوية، على حين يشير المصطلح «نساء» إلى المصادقة على تلك السياسات [٤٧].

ومن المثير ، أنه على الرغم من الصراع حول ما إذا كانت دراسة «النوع» أو «النساء» وما يثيره من جدل بين أنصار الحركة النسوية، فإن مصطلح نسوى بوصفه وصفًا لمؤرخى النساء أقل وضوحًا الآن مما كان عليه منذ عشر سنوات مضت . فبالنسبة للبعض ، يعود هذا إلى أن الحركة النسوية تؤخذ على علاتها باعتبارها الدافع لعملهم لدرجة أنها لاتحتاج إلى ذكر . وبالنسبة للبعض الآخر، فإن الصمت عن الحركة النسوية باعتبارها موقف المؤرخ كان ثمن الاعتراف بها ضمن مهنة التاريخ . وبالنسبة لغيرهم فإن مصطلح «نساء» مجرد تحديد مناسب لكل من الاهتمامات السياسية والتاريخية، وربما كان ذلك فى جزء منه راجعًا إلى أن الحركة النسوية أقل وضوحًا وأقل تماسكا مما كانت عليه ذات مرة فى الولايات المتحدة. والمذهل بالنسبة لى أن مصطلح «النسوية» قد بات مصطلحا محل منازعات ساخنة فى السياسات العالمية فى فترة ما بعد الاستعمار ، وما بعد الحرب الباردة (هل الحركة النسوية مستوردة من الغرب؟ هو السؤال فى قلب هذه المجادلات) ، لقد فقدت بعض قدرتها التسويقية

بوصفها مصطلحًا يعرّف به المؤرخون أنفسهم على الأقل فى السياقات الأكاديمية فى أمريكا الشمالية . وفى الوقت نفسه (ربما على سبيل الاستبدال ، وربما على سبيل التعويض، وربما على سبيل الاحتفال بالذكرى) كانت هناك زيادة فى عدد الكتب التى كتبت عن تاريخ الحركات النسوية الوطنية والعالمية(٤٨).

وعند مطلع القرن الحادى والعشرين ، عمل تاريخ النساء فى سياق مختلف عن السياق الذى وصفته منذ عقد مضى من الزمان . إنه مع هذا، لا يزال يتسم بالصراعات حول السلطة والنفوذ التى يتم فى نطاقها عرض المواضيع المهنية والمواضيع العلمية . إن حيوية المجال (وكذلك حيوية علم التاريخ) تعتمد فى انفتاحها على التفكير النقدى وقدرتها على التسامح إزاء الصدامات والصراعات التى تجلبها تبادلات الآراء النقدية . ويأمل المرء ألا يؤدى النجاح الأكاديمى الذى حققه تاريخ النساء إلى تحالفات مع المؤرخين التقليديين تسعى إلى كبت هذه التبادلات . بدلاً من أن يكرم مؤرخو النساء ويستمرون فى تشجيع أنواع المشاركات النقدية التى ضمنت لنا مكانًا معترفًا به فى كتابة التاريخ.

الهوامش

I would like to thank Clifford Geertz for first posing some of the questions that led to the formulation of this essay and for his clarifying comments on an early version of it. Donald Scott helped me articulate many crucial points and Elizabeth Weed provided invaluable critical suggestions. I also appreciate the comments and advice of Judith Butler, Laura Engelstein, Ruth Leys and Mary Louise Roberts. The criticisms of Hilda Romer, Tania Urum and Karin Widerberg posed difficult challenges that have improved and strengthened the argument. I am grateful for them.

1 'Women in the Beehive: A Seminar with Jacques Derrida', transcript of the Pembroke Center for Teaching and Research Seminar with Derrida, in *Subjects/Objects* (spring 1984), p. 17.

2 Cited in Karen Winkler, 'Women's Studies after Two Decades: Debates over Politics, New Directions for Research', *Chronicle of Higher Education*, 28 Sept. 1988, p. A6.

3 Nancy Fraser and Linda Nicholson, 'Social Criticism without Philosophy', unpublished MS, 1987, p. 29.

4 'Politics in the profound sense, as the ensemble of human relations in their real, social structure, in their ability to construct the world.' Roland Barthes, *Mythologies* (Paris 1957), p. 230. See also Michel Foucault, *The History of Sexuality, Vol. I An Introduction* (New York, 1980), pp. 92–102.

5 Gayatri Chakravorty Spivak, 'The Politics of Interpretation', in W. J. T. Mitchell, *The Politics of Interpretation* (Chicago, 1983), pp. 347–66; Mary Poovey, *Uneven Developments: The Ideological Work of Gender in mid-Victorian England* (Chicago, 1988). See also 'ideology' in the glossary of Louis Althusser and Etienne Balibar, *Reading Capital*, trans. Ben Brewster (London, 1979), p. 314.

6 Jo Freeman, 'Women on the Move: Roots of Revolt', in Alice S. Rossi and Ann Calderwood (eds), *Academic Women on the Move* (New York, 1973), pp. 1–37. See also the essays by Alice Rossi and Kay Klotzburger in this same volume.

7 Sara Evans, *Personal Politics* (New York, 1979).

8 Quotation from Barnaby Keeney, President of Brown University, *Pembroke Alumnae*, 27/4 (Oct. 1962), p. 1.

9 Ibid., pp. 8–9; Jessie Bernard, *Academic Women* (Cleveland, 1966); Lucille Addison Pollard, *Women on College and University Faculties: A Historical Survey and a Study of their Present Academic Status* (New York, 1977). See esp. p. 296.

10 Peter Novick, *That Noble Dream: The 'Objectivity Question' and the American Historical Profession* (New York, 1988).

11 On the issue of access see Mary G. Dietz, 'Context is All: Feminism and Theories of Citizenship'; Jill K. Conway, 'Politics, Pedagogy, and Gender'; and Joan W. Scott, 'History and Difference'; all in *Daedalus* (fall 1987), pp. 1–24, 137–52, 93–118, respectively.

12 Howard K. Beale, 'The Professional Historian: His Theory and his Practice', *Pacific Historical Review*, 22 (Aug. 1953), p. 235.

13 This issue has come up in many different ways, most recently in connection with the Sears case. In the course of a sex discrimination suit brought against the Sears Roebuck and Company retail chain, two historians of women, Rosalind Rosenberg and Alice Kessler-Harris, testified on opposite sides. The case created tremendous controversy among historians about the political implications of women's history and about the political commitments of feminist historians. There have been accusations of bad faith on both sides, but the most recent (and by far the most vindictive) charges, by Sanford Levinson and Thomas Haskell in defence of Rosenberg, insist that Kessler-Harris deliberately distorted history in the interests of politics while Rosenberg bravely defended 'truth'. The opposition between 'politics' and 'truth', 'ideology' and 'history' structures their essay (and gives it its seemingly objective, dispassionate tone) while allowing them to gloss over all the difficult epistemological issues the case raised (and that they gesture to in footnote 136). See 'Academic Freedom and Expert Witnessing: Historians and the Sears Case', *Texas Law Review*, 66/7 (Oct. 1988), pp. 301–31. On the Sears case see also Ruth Milkman, 'Women's History and the Sears Case', *Feminist Studies*, 12 (summer 1986), pp. 375–400; and Joan W. Scott, 'The Sears Case', in Scott, *Gender and the Politics of History* (New York, 1988), pp. 167–77.

14 Ellen Somekawa and Elizabeth A. Smith, 'Theorizing the Writing of History or, "I can't think why it should be so dull, for a great deal of it must be invention"', *Journal of Social History*, 22/1 (fall 1988), pp. 149–61.

15 On the potential of women's history to transform history see Ann Gordon, Mari Jo Buhle and Nancy Schrom Dye, 'The Problem of Women's History', in Berenice Carroll (ed.), *Liberating Women's History* (Urbana, Ill., 1976); Natalie Zemon Davis, 'Women's History in Transition: The European Case', *Feminist Studies*, 3 (1976), pp. 83–103; Joan Kelly, *Women, History, and Theory* (Chicago, 1984); Carl Degler, 'What the Women's Movement has Done to American History', *Soundings*, 64 (winter 1981), p. 419.

16 Among these were Ivy Pinchbeck, *Women Workers and the Industrial Revolution 1750–1850* (London, 1930), and Mary Beard, *On Understanding Women* (New York, 1931) and *America through Women's Eyes* (New York, 1934).

17 Virginia Woolf, *A Room of One's Own* (New York, 1929), p. 47.

18 Jacques Derrida, *Positions*, trans. Alan Bass (Chicago, 1981), p. 43. See also Derrida, *Of Grammatology*, trans. Gayatri Chakravorty Spivak (Baltimore, 1974), pp. 141–64.

19 Barbara Johnson, Introduction to her translation of Derrida's *Disseminations* (Chicago, 1981), p. xiii.

20 Martha Minow, 'The Supreme Court 1986 Term: Foreword: Justice Engendered', *Harvard Law Review*, 101/1 (Nov. 1987), pp. 9–95.

21 Ibid., p. 13.

22 On the question of history's representations see Gayatri Chakravorty Spivak, 'Can the Subaltern Speak?', in Cary Nelson and Lawrence Grossberg, *Marxism and the Interpretation of Culture* (Urbana, Ill., 1988), pp. 271–313.

23 Michel de Certeau, 'History: Science and Fiction', in *Heterologies: Discourse on the Other* (Minneapolis, 1986), pp. 217–18.

24 Mary Hawkesworth, 'Knower, Knowing, Known...', *Signs* (spring 1989), pp. 533–57.

25 'Ideological success is achieved when only dissenting views are regarded as ideologies; the prevailing view is the truth.' Minow, 'Justice Engendered', p. 67.

26 Norman Hampson, 'The Big Store', *London Review of Books* (21 Jan.–3 Feb. 1982), p. 18; Richard Cobb, 'The Discreet Charm of the Bourgeoisie', *New York Review of Books* (17 Dec. 1981), p. 59; Lawrence Stone, 'Only Women', *New York Review of Books* (11 April 1985), pp. 21–7; Robert Finlay, 'The Refashioning of Martin Guerre', and Natalie Zemon Davis, '"On the Lame"', both in the *American Historical Review* 93/3 (June 1988), pp. 553–71, and 572–603, respectively.

27 'Western liberalism's intractability to rights struggles based on gender and race... displays something that feminists have come to know well: the liberal individual's – Man's – resistance to intimations of deficiency, especially when those intimations are themselves expressed through gender.' Elizabeth Weed, Introduction to *Coming to Terms: Feminism, Theory, Politics* (New York, 1988), p. 6 (of typed transcript).

28 Testimony of Joan Scott to University of North Carolina – Chapel Hill Curriculum Committee, May 1975, cited in Pamela Dean, *Women on the Hill: A History of Women at the University of North Carolina* (Chapel Hill, 1987), p. 23.

29 I do not mean to underestimate the variety of approaches to women's history and the different interpretive and theoretical positions taken. Within women's history there was/is a great deal of divergence among Marxist feminists, liberal feminists, those who use the insights of varying psychoanalytic schools, etc. My point here is not to review the variety, but to indicate some of the common ground among them all – the preoccupation with woman as subject, with women's identity – as well as the relation of the field as a whole to the discipline of history. I have reviewed the diversity elsewhere. See Joan W. Scott, 'Women's History: The Modern Period', *Past and Present*, 101 (1983), pp. 141–57, and 'Gender: A Useful Category of Historical Analysis', *American Historical Review*, 91/5 (Dec. 1986), pp. 1053–75.

30 For histories of women's work, see Louise A. Tilly and Joan W. Scott, *Women, Work and Family* (New York, 1978, 1987); Alice Kessler-Harris, *Out to Work: A History of Wage-Earning Women in the United States* (New York, 1982); Thomas Dublin, *Women at Work: The Transformation of Work and Community in Lowell, Massachusetts*, 1826–60 (New York, 1979); Sally Alexander, 'Women's Work in Nineteenth-Century London: A Study of the Years 1829–50', in Juliet Mitchell and Ann Oakley (eds), *The Rights and Wrongs of Women* (London, 1976); Patricia A. Cooper, *Once a Cigar Maker: Men, Women, and Work Culture in American Cigar Factories*, 1900–1919 (Urbana, Ill., 1987).

31 Linda Kerber, 'Separate Spheres, Female Worlds, Woman's Place: The Rhetoric of Women's History', *Journal of American History*, 75/1 (June 1988), pp. 9–39.

32 This is not to say that historians of women didn't write about women in relationship to men – as wives, lovers, mothers, daughters, employees, patients, etc. It is to say that they tended to disregard the conceptual issue – that 'women' has no intrinsic definition but only a contextual one (one that is always contested in its idealization and actualization) and one that cannot be elaborated except through contrast, usually to 'men'. On this see Denise Riley, *'Am I that name?' Feminism and the Category of 'Women' in History* (London and Minneapolis, 1988).

33 See, for example, the symposium on 'Women's Culture' and politics in *Feminist Studies*, 6 (1980), pp. 26–64.

34 Susan Hardy Aiken et al., 'Trying Transformations: Curriculum Integration and the Problem of Resistance', *Signs* 12/2 (winter 1987), pp. 255–75. See also in the same issue Margaret L. Anderson, 'Changing the Curriculum in Higher Education', pp. 222–54.

35 See Gail Rubin, 'The Traffic in Women: Notes on the Political Economy of Sex', in Rayna R. Reiter (ed.), *Towards an Anthropology of Women* (New York, 1975). See also Joan W. Scott, 'Gender: A Useful Category of Historical Analysis', *American Historical Review*, 91/5 (Dec. 1986), and Donna Haraway, 'Geschlecht, Gender, Genre: Sexualpolitik eines Wortes', in Kornelia Hauser (ed.), *Viele Orte überall? Feminismus in Bewegung* (Festschrift für Frigga Haug) (Berlin, 1987), pp. 22–41.

36 Teresa de Lauretis, 'Feminist Studies/Critical Studies: Issues, Terms, and Contexts'; Cherrie Moraga, 'From a Long Line of Vendidas: Chicanas and Feminism'; Biddy Martin and Chandra Talpade Mohanty, 'Feminist Politics: What's Home Got to Do with It?', all in Teresa de Lauretis (ed.), *Feminist Studies/Critical Studies* (Bloomington, Ind., 1986), pp. 1–19, 173–90, 191–212, respectively. See also Combahee River Collective, 'A Black Feminist Statement', in Gloria T. Hull, Patricia Bell Scott and Barbara Smith (eds), *But Some of Us are Brave: Black Women's Studies* (New York, 1982); Barbara Smith (ed.), *Home Girls: A Black Women's Anthology* (New York, 1983). See also Barbara Smith, 'Toward a Black Feminist Criticism'; Deborah E. McDowell, 'New Directions for Black Feminist Criticism'; Bonnie Zimmerman, 'What has Never Been; An Overview of Lesbian Feminist Criticism'; all in Elaine Showalter (ed.), *The New Feminist Literary Criticism: Essays on Women, Literature, Theory* (New York, 1985), pp. 168–224; Nancy Hoffman, 'White Women, Black Women: Inventing an Adequate Pedagogy', *Women's Studies Newsletter*, 5 (spring 1977), pp. 21–4; Michele Wallace, 'A Black Feminist's Search for Sisterhood', *Village Voice*, 28 July 1975, p. 7; Teresa de Lauretis, 'Displacing Hegemonic Discourses: Reflections on Feminist Theory in the 1980s', *Inscriptions*, 3/4 (1988), pp. 127–41.

37 Some of the fracturing came in the wake of the defeat of the Equal Rights Amendment to the US Constitution, a campaign that provided a united front among different groups of feminists. Of course the ERA campaign itself showed how profound were differences between feminists and anti-feminists and called into question any notion of an inherent female solidarity. Some of the differences were attributed to 'false consciousness', but not entirely. On the ERA campaign, see Mary Frances Berry, *Why ERA Failed* (Bloomington,

Ind., 1986); Jane Mansbridge, *Why We Lost the ERA* (Chicago, 1986); Donald G. Mathews and Jane Sherron de Hart, *ERA and the Politics of Cultural Conflict: North Carolina* (New York, 1989).

38 See Judith Butler, *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity* (New York, 1989).

39 Judith Newton, 'History as Usual? Feminism and the "New Historicism"', *Cultural Critique*, 9 (1988), p. 93.

40 The opposition between 'theory' and 'politics' also suggests an opposition between idealism and materialism which misrepresents the philosophical issues currently at stake. On the invalidity of the idealism/materialism opposition, see Joan W. Scott, 'A Reply to Criticism', *International Labor and Working Class History*, 32 (fall 1987), pp. 39–45. The 'theory' versus 'politics' opposition also refers obliquely to the question of human agency, much insisted upon these days by historians. Post-structuralist theory doesn't deny that people act or that they have some control over their actions; rather it criticizes the liberal individual theory that assumes that individuals are fully autonomous, rational, self-creating actors. The issue is not agency *per se*, but the limits of the liberal theory of agency.

41 The irony is striking. Historians of women who have accepted the discipline's notions of universality (adding the universal category 'women' to the existing one of 'men') and of mastery (assuming that historians can achieve disinterested or complete knowledge of the past) nonetheless characterize their position as 'political' – a term that indicates their subversive relationship to the discipline. I think this is yet another example of the logic of the supplement, women's historians (whatever their epistemological position) are neither fully of nor fully out of the profession of history.

42 See John Toews, 'Intellectual History after the Linguistic Turn: The Autonomy of Meaning and the Irreducibility of Experience', *American Historical Review*, 92 (Oct. 1987), pp. 879–907. See also Joan W. Scott, 'The Evidence of Experience', *Critical Inquiry*, 17/4 (1991), pp. 773–97.

43 One example of this neglect of feminist contributions to historiographical debates can be found in the special forum on history and critical theory in *American Historical Review*, 94 (June 1989). None of the articles acknowledges the impact that feminist history (or African American history or gay and lesbian history) has had on the epistemological questions confronting the discipline. See David Harlan, 'Intellectual History and the Return of Literature'; David Hollinger, 'The Return of the Prodigal: The Persistence of Historical Knowing'; and Alan Megill, 'Recounting the Past: "Description", Explanation, and Narrative in Historiography', pp. 581–609, 610–21 and 627–53, respectively.

44 The creation in the US of a conservative alternative to the American Historical Association is symptomatic of this change. The irony is that the new History Society, which claims to embody all the values of the old centre (coherence, a unified subject of history, freedom from ideology and political partisanship), is a decidedly marginal and minoritarian organization.

45 Susan M. Okin, *Is Multiculturalism Bad for Women?* (Princeton, 1999).

46 Various positions in the debate are presented in a special issue of the journal *Differences*, 9/3 (1997), 'Women's Studies on the Edge'.

47 On the politics of identity, see Wendy Brown, *States of Injury: Power and Freedom in Late Modernity* (Princeton, 1995).

48 Rather than list a long bibliography, I refer readers to another new development: the Internet. There are now a growing number of sites which furnish comprehensive bibliographic and archival references. Among these are:

A Guide to Uncovering Women's History in Archival Collections
http://www.lib.utsa.edu/Archives/links.htm

Women's History Home Page at About.com
http://womenshistory.about.com/education/womenhistory/

American Women's History: A Research Guide
http://www.mtsu.edu/~kmiddlet/history/women.html

The National Women's History Project
http://www.nwhp.org/

Women in World History Curriculum
http://www.womeninworldhistory.com/

ViVa: A Bibliography of Women's History in Historical and Women's Studies Journals
http://www.iisg.nl/~womhist/index.html

Internet Women's History Sourcebook
http://www.fordham.edu/halsall/women/womensbook.html

Association of College and Research Libraries Women's Studies Section Women's History Links
http://libraryweb.utep.edu/acrlwss/history.html

Goteborg University Library Women's History Collections at the National Resource Library for Women's, Men's, and Gender Studies
http://www.ub.gu.se/kvinny/home.htm

(٤)

تاريخ ما وراء البحار

هنك ويسيلنج

هذه المشاركة عن تاريخ ما وراء البحر موضوع مثير ، بيد أنه ليس موضوعًا سهلاً . إذ ما تاريخ ما وراء البحار؟ ولن نجد تعريفا مناسبًا له بصورة محددة ، وإنما يعتمد تعريفه على المكان الذى يقف عليه المرء. فمن المنظور البريطانى، مثلا، يكون التاريخ كله تاريخ ما وراء البحار، عمليًا، بما فى ذلك جزء من تاريخ المملكة المتحدة نفسها. ومن المنظور الأمريكى لايبدو أن هناك معنى للمصطلح على الإطلاق. ونعيد صياغة تعبير فرنسى معروف تماما: إن التاريخ اليومى بالنسبة لشخص آخر هو تاريخ ما وراء البحار . ومن الواضح أن هذا ليس ما يدور فى ذهننا عندما نستخدم المصطلح هنا، وإذن فما هو ؟ يمكن أن نجد حلاً عمليًا لهذه المشكلة بفحص محتويات المنشورات التى تحمل هذه الكلمات فى عناوينها. إذ إن مجلة Revue Francaise d'histoire d'outre- mer الفرنسية ، التى تنشرها جمعية تحمل الاسم نفسه، هى فى الأصل مجلة مكرسة للتوسع الأوربى ، خاصة الفرنسى، فيما وراء البحار وتاريخ الممتلكات الفرنسية السابقة. وهو أمر لايثير الدهشة لأن اسمها الأصلى Révue d'histoire des colonies وفى الاتجاه نفسه عُرفت الأكاديميات الفرنسية والبلچيكية لما وراء البحار عادة باسم أكاديميات العلوم الاستعمارية. Académies des Sciences Colonies وتمزج سلسلة اللغة الألمانية – Beitrage Zur Kolonial - und Ubersee geschichte المصطلحين سويًا. أما البريطانيون فهم محظوظون للغاية لأن لديهم الكومنولث الخاص بهم، وهذا هو السبب فى أن هناك مجلة لديهم تحمل عنوان :

Journal of Imperial and Commonwealth Hisotry

وهو مزيج أكثر أناقة بكثير من مصطلح «تاريخ الامبراطورية وما وراء البحار». وفى الأراضى الواطئة ، بعد نهاية الاستعمار، غير «المعهد الاستعمارى الملكى Royal Colonial Institute اسمه إلى «المعهد المدارى الملكى Royal Tropical Institute" ، ولكن بشكل ما لم يلق مصطلح «التاريخ المدارى Tropical History" القبول على الإطلاق.

من الصعب أن نفهم ما كان يجرى هنا . فبعد سنة ١٩٤٥م ، صار مصطلح «استعمارى» (كولونيالى) منفراً بصورة مطردة، وكان على المعاهد التى تريد أن تستمر فى الوجود أن تجد أسماء مختلفة (ويفضل أن تكون محايدة أكثر) . وعلى أية حال، فلم تكن المسألة مجرد مسألة تغيير أسماء . فقد كان هناك أيضا تغير فى التناول والاهتمام . إذ تطور تاريخ ما وراء البحار إلى مجال أوسع كثيراً للدراسة مما كان عليه التاريخ الاستعمارى عادة ، إذ إنه لايتناول فقط النظم الاستعمارية والمواجهة بين الأوربيين وغير الأوربيين بشكل عام ، بل يتناول أيضا التاريخ الاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى والثقافى للشعوب غير الأوربية . وهنا بالضبط تثور المشكلات ، لأنه ليس من الناحية النظرية فقط وإنما فى الممارسة العملية أيضا تطور تاريخ ما وراء البحار ليكون موضوعا شاسعًا ، بحيث صار من المستحيل تعريفه . وبطبيعة الحال هناك بعض العناصر التى تضفى نوعًا من التماسك على هذا المجال . فأولا يتعامل مؤرخو ما وراء البحار عادة مع نمطين من المصادر، من ناحية المصادر الأوربية التى حفظ معظمها فى دور الوثائق ، ومن ناحية أخرى المصادر غير الأوربية، سواء المكتوبة أو غير المكتوبة، مثلما هو الحال غالبا فيما يتعلق بالتاريخ الأفريقى. وبسبب النقص فى المصادر التقليدية تكون المساعدة من العلوم الأخرى ضرورية ، ومن ثم فإن أدوار علوم مثل الآثار، واللغويات والأنثروبولوچى فى تاريخ ما وراء البحار تصبح ضرورية أيضا. ومن هنا يميل تاريخ ما وراء البحار إلى أن يكون متداخلاً مع العلوم الأخرى أكثر من غيره.

وبغض النظر عن هذا يجب على مؤرخى ما وراء البحار أن يعودوا أنفسهم على حضارات غير حضارتهم . ويقتضى هذا بشكل عام وجود نوع أوسع- ومختلف بشكل ما- من التعليم المعتاد، وكذلك وجود قدر أكبر من المهارات اللغوية. وهذا هو السبب فى أن مؤرخى ما وراء البحار غالبا ما يوجدون فى أقسام الاستشراق والدراسات الأفريقية ، فى أوربا على الأقل (الموقف فى الولايات المتحدة مختلف) . وحتى عندما يعينون فى أقسام التاريخ يشعر مؤرخو ما وراء البحار بالحاجة إلى التعاون مع متخصصين آخرين فى المنطقة نفسها، مثل علماء اللغة ، وعلماء الانثروبولوچى ومؤرخى الفن. والحال ليس هو الحال مع مؤرخى أوربا. ذلك أن المتخصص فى التاريخ الفرنسى لن يعمل عادة فى قسم الدراسات الفرنسية ولايشعر بالحاجة الماسة للذهاب إلى مؤتمرات عن الدراسات الفرنسية . ولأنه أمر نمطى بالنسبة للمتخصصين فى تاريخ ما وراء البحر أن يعرفوا عن حضارات أخرى غير حضارتهم ، فإن عليهم أن

يتعاونوا مع العلوم الأخرى للوصول إلى فهم أفضل لهذه الحضارة الخاصة أو هذا المجتمع الخاص. ولكن عليهم أيضا أن يبقوا على اتصال مع المؤرخين الآخرين لكى يفهموا ما يجرى فى مجال تخصصهم . والتوتر بين مقاربة المنطقة ومقاربة العلم ظاهرة معروفة تماماً .

وهناك سبب آخر وراء وجود وحدة معينة فى مجال تاريخ ما وراء البحار، من الناحية التاريخية. فقد كان معظم عالم ما وراء البحار ينتمى من قبل إلى العالم الاستعمارى ويفترض الآن أنه يشكل جزءا من العالم الثالث . وهذا هو السبب فى أن تعبير «تاريخ العالم الثالث» يستخدم الآن[1]. ولكن فكرة «العالم الثالث» نفسها تتآكل الآن، لأنها لم تعد تعكس الحقيقة. بل إنه من منظور عكسى يبدو غريبًا أن بلاداً مثل الهند وأندونيسيا كان يفترض أن تشكل عالمًا واحداً مع السودان ومالى لسبب وحيد هو أنها كانت جميعا مستعمرات سابقة ولا تزال فقيرة نسبيًا . ومن ثم فإن مساواة تاريخ ما وراء البحار مع تاريخ العالم الثالث لاتبدو فكرة جيدة، ومن باب أولى فإنه لايجب القول بأن تاريخ الولايات المتحدة ينتمى إلى تاريخ ما وراء البحار وينتمى حقا للتاريخ الاستعمارى ، ولكنه لاينتمى إلى تاريخ العالم الثالث .

ويمكن طرح السؤال عما إذا كان تاريخ ما وراء البحار، الذى يفترض أن يتضمن تاريخ العالم كله ماعدا أوربا (أو «الغرب») ، موضوعا يصلح للدراسة على الإطلاق . هذه المشكلة نتيجة النجاح الذى حققه تاريخ ما وراء البحار بعد الحرب العالمية الثانية، عندما كان صعود تاريخ ما وراء البحار راجعًا إلى حد ما لرد الفعل تجاه التاريخ الاستعمارى السابق. وكان لابد من عمل تراكم كبير ، وحدثت قفزة كبيرة إلى الأمام . إذ إن الدول الجديدة أبرزت ماضيها الوطنى. وأخيرا وجد «الشعب الذى لا تاريخ له» تاريخا لنفسه وكانت نتائج هذه الحركة ذات أثر كبير . فقد أصبح تاريخ ما وراء البحار شاسعا وممتدا جدا ومتنوعا جداً بحيث لم يعد من الممكن اعتباره مجالاً واحداً من مجالات الدراسة التاريخية. وفى سبيل البقاء سوف يحتاج تاريخ ما وراء البحار شكلا من أشكال إعادة صياغة المفهوم . وقبل أن نناقش هذا علينا أن نرسم إطاراً تخطيطياً للمعالم الموجزة لتاريخ الموضوع .

تاريخ تاريخ ما وراء البحار : عرض وإطلالة

بشكل أو بآخر تمت ممارسة التاريخ فى معظم الحضارات *. ذلك أنه فى أندونيسيا

---

* المقصود بعبارة المؤلف هنا «التدوين التاريخى» أو التسجيل التاريخى» - حتى إذا كان شفاهيًا - =

ترجع المؤرخات (الباباد) إلى عصور موغلة فى عمق الزمان . ولايهتم الهندوس فى الهند بالتاريخ سوى بقدر قليل ، بيد أن المسلمين يولون اهتمامًا كبيرا للتاريخ كما أن لديهم إحساسًا أقوى بالتتابع الزمني، على الرغم من أنهم أيضا كتبوا مؤرخات عن الحوادث فقط*. وفى اليابان والصين تطور نوع من التدوين التاريخي يمكن مقارنته بالتاريخ الأوربى التقليدى الذى لم يتطور فى الشكل العلمي الحديث سوى فى الغرب فى القرن التاسع عشر . وهو يتسم بما يُسمى «المنهج التاريخي» (التتابع الزمني ، وفقه اللغة، والنقد والتأويل)، وكذلك باعتباره نمطًا خاصًا من أنماط التفكير التاريخي . وإدراك تفرد الأحداث ، ومفهوم التطور والتتابع على مر الزمان ولكن من المفهوم أيضا أن لكل فترة تاريخية شخصية محددة بقيمها ومعاييرها الخاصة بها، وهذا من خصائص هذا الفكر التاريخي. وقد لعبت المدرسة التاريخية الألمانية دورًا رئيسيًا فى هذا التطور ، وهذا هو السبب فى أن بعض المفاهيم التاريخية الأعظم شهرة لا تزال معروفة فى شكلها الألمانى Historismus, Verstehen, Zeitgeist .

كان التفسير التاريخي الذى نتج عن هذا متمركزا على أوربا للغاية. والحقيقة أن Welt-geschiche نزلت على التاريخ الأوربى، لأنه فى الإطار العام لم تلعب الشعوب غير الأوربية أى دور على الإطلاق . فقد كانوا يعتبرون بمثابة قوم بلا تاريخ (هيجل) أو قوم جامدين

= وليس الفعل التاريخي الذى هو نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته فى رحاب الزمان ، وهى عملية تلقائية حدثت ، بطبيعة الحال، فى جميع الحضارات. (المترجم)

* يبدو أن الكاتب لايعرف التراث الذى خلفه المؤرخون المسلمون، من العرب وغير العرب ، ولذلك وقع فى هذا الحكم الذى يجافى الحقائق التاريخية نفسها ؛ ويبدو أنه حتى لم يسمع عن «عبد الرحمن بن خلدون» صاحب أول «فلسفة» متكاملة فى تاريخ الفكر الإنسانى . والفكر التاريخى عند المسلمين أنتج تراثا متنوعًا فى التدوين التاريخي شمل المؤرخات والحوليات وتواريخ البلدان، والتاريخ الحضرى ، والتراجم ، والسير الملكية ... وغيرها ، فضلاً عن الرسائل ذات الموضوع الواحد التى تناولت تنويعة هائلة من موضوعات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والفكرى والعسكرى، وتواريخ الأقليات، والتواريخ الخاصة بالظواهر الطبيعية . كما أن التراث التاريخى الإسلامى ترك مؤلفات فى تاريخ التاريخ وفى فلسفة التاريخ ؛ بالإضافة إلى أنه كان محكومًا على الدوام بفكرة التاريخ عند المسلمين . انظر : قاسم عبده قاسم ، قراءة التاريخ (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٨م) (المترجم)

بشكل أبدى (رانكه) . وبغض النظر عن الحضارات القديمة التقليدية ، لم تكن هذه الشعوب تظهر فى الصورة سوى فى اللحظة التى يخضعون فيها للغزاة الأوربيين. ولايعنى هذا أنه لم يكن هناك اهتمام بالمرة بالحضارات الأخرى غير الغربية ، لأن هذا كان موجوداً فى شكل ما كان يعرف باسم دراسات الاستشراق . وكان الدافع إلى هذه الدراسات من ناحية يتمثل فى الكتاب المقدس واللغويات، ومن ناحية أخرى فى الحركة الاستعمارية . فبعد عصر النهضة لم تكتف الكثير من الجامعات الأوربية بإنشاء كراس لدراسة اللاتينية واليونانية فقط ولكنها أنشأت كراسى أيضا لدراسة اللغتين العربية والعبرية. وفيما بعد خرجت أقسام دراسات الشرق الأوسط أو الدراسات العربية من هذه الموضوعات . وقد حفزت اللغات المقارنة والتاريخية، التى كانت موضوعًا رائجا فى القرن التاسع عشر ، دراسة اللغة السنسكريتية التى أدت بدورها إلى ظهور الكراسى والمعاهد لدراسة الحضارة الهندية .

بل إن حافزًا أشد قوة جاء من الحركة الاستعمارية . ذلك أن تدريب الموظفين المدنيين فى الإدارة الاستعمارية صار جزءًا من التعليم الجامعى الأوربى فى القرن التاسع عشر. وكان يمكن أن نجد مقررات فى اللغة وفى الإدارة الاستعمارية إلى جانب مقررات عن التاريخ الإمبريالى أو الاستعمارى. وبينما ركزت هذه المقررات على وجهة النظر الأوربية أولا، فقد أولت بعض الاهتمام أيضا إلى الشعوب فيما وراء البحار. ومن المهم أن نرى أنه منذ وقت مبكر سنة ١٨٩٧م قامت لجنة بحث لتعيين أستاذ لكرسى فى تاريخ جزر الهند الهولندية بتفضيل مرشح ، لأنه استطاع أيضا أن يهتم «بوجهة النظر المحلية»(٢) وبعيداً عن رعايا المستعمرات أنفسهم صارت شعوب أخرى فيما وراء البحار موضوعات للدراسة . ففى الأراضى الواطئة ، على سبيل المثال ، كانت تتم دراسة الصينيين، بسبب الجماعة الصينية المهمة الموجودة فى جزر الهند الشرقية ، وتتم دراسة اليابانيين بسبب «الخطر الأصفر» ، كما تتم دراسة الإسلام بسبب خطر «التعصب الإسلامى» . وكانت نتيجة هذا أن خرجت إلى الوجود مجموعتان من المؤرخين: مجموعة صغيرة فى أقسام الدراسات الشرقية الذين درسوا حضارات أخرى فى حد ذاتها ، ومجموعة أكبر من ذلك كثيراً كانوا يدرسون التاريخ بشكله الصحيح ، أى تاريخ أوربا ومستعمراتها . وحتى مع أن المجموعتين كانتا قائمتين فى الجامعة نفسها فإنهما نادراً ما كانتا تتعاونان .

وتغير الموقف بشكل جوهرى بعد سنة ١٩٤٥م ، جزئيا بسبب أسباب خارجية وجزئيًا

لأسباب داخلية . أما الأسباب الخارجية فهى واضحة : نهاية الاستعمار ، وتدهور أوربا ، وبروز القوى العظمى الجديدة. وقد أدت هذه الأحداث إلى إعادة التفكير في دور أوربا فى التاريخ العالمى والتساؤل عن المقاربة القائمة على المركزية الأوربية . وصار تدهور أوربا موضوعًا له من الأهمية باعتباره موضوعًا للدراسة ما كان لصعودها إلى مرتبة القوة فيما سبق . وقد أعلن المؤرخ الهولندى چان رومين Jan Romein نهاية «العصر الأوربى» وبداية «القرن الآسيوى» ، إذا ما اقتبسنا عنوانين إثنين من كتبه (٣).

ولكن بغض النظر عن الأسباب السياسية والأيديولوچية كان هناك أيضًا تطورات داخلية ، وهى تغيرات فى الطريقة التى كان يدرس بها التاريخ. وشهدت فترة ما بعد الحرب ظهور التاريخ الاجتماعى والاقتصادى . وبات المؤرخون أقل اهتماما بالتاريخين السياسى والعسكرى وأكثر اهتمامًا بموضوعات مثل الحضارة المادية، والعقليات ، والحياة اليومية، والرجل العادى... الخ. وبهذا الخصوص ، وحتى القرن الثامن عشر على الأقل لم يكن التاريخ الأوربى ليختلف كثيرًا عن التاريخ غير الأوربى ، فتحت تأثير مدرسة «الحوليات» صار التاريخ أقل لاهوتية، وأقل تحزبًا . وقد حلت البنية محل التطور فى الاستحواذ على الاهتمام المركزى. وصارت الاستمرارية على قدر من الأهمية يساوى أهمية التغير ، ومن ثم فإن التعارض بين أوربا (التغير) وآسيا (الاستمرارية) صار أقل ارتباطا بالموضوع . وفى هذه المقاربة لم تعد الدولة الوطنية الوحدة المركزية فى التحليل التاريخى ، ومن ثم فإن التعارض بين الوطن والمستعمرة كان أقل أهمية. وكانت المقاربة الجديدة فى مصطلحات القرى والمدن والأقاليم ، والمجموعات الاجتماعية. وقد جعل هذا التعارض بين المقاربة الاستعمارية والمقاربة الوطنية أقل حدة ، كما كانت هناك تغيرات عملية أيضا . وكان للمؤرخين الأمريكيين تأثير متصاعد ، لأن أقسام التاريخ لديهم كانت دوما أقل انغلاقًا من نظيراتها الأوربية ، ولعبت دورًا متزايدًا فى دراسة التاريخين الآسيوى والأفريقى . وعلاوة على ذلك ، طورت المستعمرات السابقة نفسها أقسام التاريخ الخاصة بها . ولا شك فى أنه على مدى زمن طويل كان المؤرخون الأوربيون ما يزال يحكمون المجال، لأنهم كانوا الأفضل تعليمًا وكانوا يصلون بسهولة أكثر إلى المقتنيات المهمة فى دور الوثائق الأوربية. وكانت النخب المحلية أكثر اهتمامًا بمجالات أخرى غير التاريخ . ذلك أن مهمة تطوير الاقتصاد وبناء الوطن كانت أكثر إلحاحًا- وعائدها أكثر - من مهمة كتابة التاريخ .

وقد نتج عن هذا موقف غريب . فمن ناحية صار تأثير أوربا على مفهوم التاريخ نفسه أقوى من ذى قبل. وغالبا ما جاء المؤرخون من آسيا وأفريقيا إلى أوربا لدراسة التاريخ أو لإنهاء تعليمهم على الأقل. وقد عملوا فى دور الوثائق الغربية واتجهوا صوب النماذج الغربية لكى يتعلموا كيف كانت تتم دراسة التاريخ وكيف كانت تتم كتابته . وهكذا فإنهم، مثل اليابانيين بعد أسرة ميجى ، تعلموا التاريخ من الغرب [٤]. ولم يجدوا فى حضارتهم أية مراجع . ومن ناحية أخرى، كان تفسيرهم مختلفا تماماً عن التفسير الغربى بطبيعة الحال وفى بعض الأحيان كان معادياً للغرب بقوة . وكانت الأمم الفتية بحاجة إلى «قاض يمكن استخدامه» ، وكانت كلمة «قابل للاستخدام» تعنى تاريخاً وطنيا ومعاديا للاستعمار [٥]. وهكذا لم يكن السؤال فقط سؤالاً عن التدوين التاريخى الاستعمارى فى مواجهة التدوين التاريخى الوطنى. وإنما كان منصبًا على مكانة الغرب فى تاريخ العالم عمومًا . كما أن المؤرخين الأوربيين أنفسهم تساءلوا عن المقاربة المركزية الأوربية لتاريخ ما وراء البحار . وجاءت دفعة جديدة لهذا الجدل من المناقشة حول أصول التنمية النابعة من خيبة الأمل فى التغيرات التى جرت فيما بعد الاستعمار. إذ إن التفاؤل الأصلى حول مستقبل جديد براق بنهاية الاستعمار آنذاك قد خبت حرارته عندما بات واضحًا أن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للمستعمرات السابقة كانت دائمة (أو بنيوية) ولم تكن مؤقتة . وحل محل التفاؤل الليبرالى تشاؤم راديكالى، على حد تعبير صياغة هوبكنز A.G. Hopkins [٦]. وفى هذه المرة لم تكن المعارضة بين الاستعمار والوطنية وإنما كانت بين اليسار واليمين. فقد صار النقد الماركسى الجديد للاستعمار ذا أثر كبير حتى فى العالم الغربى نفسه .

كان تطور تاريخ ما وراء البحار بعد سنة ١٩٤٥م عملية جدلية . فأولا كانت هناك حركة تحرر فى التدوين التاريخى غير الغربى، نتج عنها توسع رائع فى البحث والإنتاج التاريخى فى آسيا وأفريقيا . فقد اكتشفت البلاد غير الأوربية ماضيها الخاص وقدمت تفسيرها له ، ولكن حدث فى ذلك الوقت بالضبط أن مشكلة تاريخ ما وراء البحار تجلت واضحة فى شكل جديد . واليوم يتقبل الجميع أن الأفريقيين والآسيويين لهم تاريخهم الخاص، وأنه تاريخ غنى ومهم مثل تاريخ أوربا. وعلى أية حال، فإن السؤال يدور حول ما إذا كان بوسعنا أن نقف هنا ببساطة ونعتبر أن تاريخ العالم هو مجمل ذلك العدد الكبير من التواريخ الإقليمية المستقلة. وسوف يوافق معظم المؤرخين على أننا يجب أن نحاول أن نفعل المزيد وأن ندرس، بطريقة أو

بأخرى ، كيف ارتبطت هذه الحضارات المختلفة ببعضها البعض، وكيف خرج إلى الوجود الموقف الذى يعيشه العالم اليوم. إن التحدى الحقيقى لتاريخ ما وراء البحار يتمثل فى تقديم شكل حديث من تاريخ العالم . وهذا هدف طموح ولكن ؛ حسبما قال فرناند بروديل ، نحن بحاجة إلى مؤرخين طموحين (٧). ومن الممكن أن نجد تخطيطًا لهذا فى التاريخ الجديد للتوسع الأوربى الذى تطور فى العقود الثلاثة الأخيرة تقريبًا . ولكن قبل دراسة هذا سوف نلقى نظرة على التطور الرائع للتاريخ الآسيوى والأفريقى فى الفترة نفسها (٨).

التاريخ الآسيوى والأفريقى

كان كل من تاريخ الهند وتاريخ إندونيسيا فى شكله العلمى الحديث قد تم تقديمه على يدى السلطة الاستعمارية. وفى الهند يمكن اعتبار تأسيس الجمعية الآسيوية فى البنجال Asiatic Society of Bengal سنة ١٧٨٤م نقطة البداية. إذ كان التدوين التاريخى البريطانى الرسمى عن الهند مركزيًا إنجليزيًا بدرجة كبيرة. وكما لاحظ نهرو ذات مرة عن البريطانيين : «إن التاريخ الحقيقى بالنسبة لهم يبدأ بقدوم الرجل الإنجليزى إلى الهند؛ وكل ما جرى قبل ذلك عبارة عن استعداد، بطريقة غامضة ما، لإنجازهم المقدس» (٩). وعلى أية حال، سرعان ما بدأ الاهتمام بالدراسات التاريخية بتطور فيما بين المثقفين الهنود الجدد. وفى منتصف القرن التاسع عشر ، فى رد فعل إزاء المقاربة المتعطفة من جانب المؤرخين الاستعماريين، طوّر المؤرخون الهنود التدوين التاريخى الخاص بهم، وفى أواخر القرن التاسع عشر أعطى بروز الحركة الوطنية زخمًا قويًا لهذا لدرجة أنه بحلول العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين كانت هناك مجموعة كبيرة من المؤرخين المحترفين. وأسماء الباحثين المشهورين من أمثال موكيرجى R.K. Mookerji وماجُمدار R.C.Majumdar تشهد على هذا ، ومن ثم، عندما جاء الاستقلال فى سنة ١٩٤٧م كان التدوين التاريخى الاحترافى الهندى فى موقف قوى.

كما أن عملية نقل السلطة نفسها حفزت كتابة التاريخ ، وكان هناك طلب على النصوص الشعبية والكتب الدراسية . وحفزت الحكومة دراسة الماضى القريب ، وبخاصة تاريخ الحركة الوطنية. وفى سنة ١٩٥٢م أمرت وزارة التعليم بتجميع تاريخ حركة الحرية الهندية، وتم تعيين ماجمدار مديرًا للمشروع . وكانت استنتاجات ماجمدار مختلفة تمامًا عما كانت الحكومة تتوقعه ، ولكنه نشر تفسيره كما هو . هذا الكشف لحقيقة أسطورة الحركة الوطنية كان مؤشرًا واضحًا على المستوى الراقى من الاحتراف الذى كان قد تم التوصل إليه من جانب

المؤرخين الهنود (١٠). وعلى الرغم من أن المؤرخين البريطانيين لا يزالون يلعبون دوراً رائداً فى التاريخ الهندى، فإن المؤرخين الهنود أنفسهم قد زادت أهميتهم على نحو متصاعد . وكل من: Cambridge Economic History of India , The New Cambridge History of India:

تجليان مقنعان بهذه الحقيقة

وفى أندونيسيا كان التطور مختلفًا إلى حد ما . فبالمقارنة مع الهند، كان هناك عدد أقل من الأشخاص الذين تخرجوا فى الجامعات بشكل عام . ومن الناحية العملية لم يكن هناك مؤرخون محترفون على الإطلاق فى أثناء فترة الاستعمار . كذلك كانت الحركة الوطنية أضعف مما كانت عليه مثيلتها فى الهند، وعبر المثقفون الوطنيون عن مشاعرهم فى الأدب بدلاً من الدراسات والبحوث . وهكذا لم يكن هناك عمليًا مؤرخون أندونيسيون محترفون قبل الاستقلال. وحفزت حكومة الجمهورية دراسة الماضى ولكن من منظور سياسى واضح (فقد كانت الضغوط الايديولوچية قوية . وفى سنة ١٩٥٧م عقد أول مؤتمر وطنى للتاريخ) . وهناك بدا واضحاً كيف كان قدر البحث الذى تم قليلاً، ولكن منذ ذلك الحين فصاعداً تطور التاريخ بوصفه نظامًا علميًا بحثيًا. وكان الشخص الرئيسى فى هذا هو سارتونو كارتوديرچو Sar-tono Kartodirdjo ، الذى قدم علما اجتماعيًا مستلهمًا من التاريخ الذى يولى اهتمامًا خاصًا بالتاريخ الريفى(١١).

وفى الوقت نفسه كان التاريخ الأندونيسى الذى أدى إلى جدل مثير حول مقاربة آسيوية جديدة للتاريخ الآسيوى. وقد قام چون باستين John Bastin ، فى محاضرته الافتتاحية فى كوالا لامبور، والتى نشرت سنة ١٩٥٩م تحت عنوان :

The Study of Modern Southeast Asian History

بحفز هذه المناقشة بدرجة كبيرة (١٢)، ولكن المسألة نفسها كانت قد طرحت قبل ذلك بكثير. وقد طرحها ڤان لير J.C. Van Leur فى رسالته عن التجارة الآسيوية الباكرة والتى نشرت سنة ١٩٣٤م(١٣). كان ڤان لير ، الذى مات صغيرا جدا فى شبابه، فى سن الرابعة والثلاثين ، فى معركة بحر جاوة ، مقدراً له أن يترك تأثيرا مستمراً على التاريخ الأندونيسى وعلى التاريخ الآسيوى برمته فى الواقع. وتكمن أصالة عمله فى أمرين: التخلى عن وجهة النظر الأوربية المركزية وتطبيق الفئات الاجتماعية (السوسيولوچية) .، وكان له رد فعل تجاه المقاربة

الاستعمارية الحصرية التى شكلت منظوراً مشوشاً وتجاهلت مناطق شاسعة من الحقيقة التاريخية . وكتب يقول : إن معظم المؤرخين يرون العالم الآسيوى من خلال عيون الحاكم الهولندى: « من فوق ظهر سفينة، أو شرفة قلعة ، أو من القاعة العليا فى أحد المتاجر»(١٤).

وعلى أية حال، فإن نقد ڤان لير فى الوقت نفسه أكثر عمومية وأكثر أصولية. فقد تساءل عن عملية تقسيم التاريخ إلى فترات وعن المكان المخصص فى تلك العملية لآسيا . وعلى سبيل المثال، فى مقالة مشهورة يدرس السبب فى أن عناوين الفترات مثل «القرن الثامن عشر» كانت تطبق على التاريخ الأندونيسى . وهو يخرج باستنتاج مؤداه أن هذا أمر غير صحيح لأنه لايمكن العثور على أى من التغيرات الكبرى فى التاريخ الأندونيسى . فالماضى الأندونيسى حتى سنة ١٨٠٠ يبقى ببساطة جزءاً من آسيا (١٥).

ويقودنا هذا إلى الخاصية الكبرى الثانية من مقاربة ڤان لير التاريخية ، أى تطبيق مفاهيم من علم الاجتماع ، لاسيما مفاهيم ماكس ڤيبر . وباستخدام مفهوم ماكس ڤيبر عن النمط المثالى – مثلا ، أنماط «ثقافة الفلاحين» ، أو «الدول البيروقراطية الوراثية» ، «التجارة الجوالة» – يحاول وصف التاريخ الآسيوى باعتباره جزءاً من التاريخ العالمى، ولكن بسماته الخاصة. وبهذه الطريقة يمكن تحقيق العدالة تجاه خصوصيات الثقافات المختلفة دون تغليفها تماماً فى مجموعة تجريدية وعمومية مفرطة من الفئات أو مناقشتها باعتبارها غريبة وغير مفهومة فقط.

كانت مسألة دور أوربا فى التاريخ الآسيوى ذات أهمية حيوية بطبيعة الحال بالنسبة للتدوين التاريخى فيما بعد الاستعمار. وفى هذا الصدد يمكن للمرء أن يميز مدرستين: المدرسة المعتدلة والمدرسة العاطفية ، والمدرسة المعتدلة تقلل دور العامل الغربى فى التاريخ الآسيوى إلى الحد الأدنى، وتزعم أنه لم يكن هناك وجود لهذا الدور فى الحقيقة، على حين أن المدرسة العاطفية تقلل إلى الحد الأدنى من جرائم الغرب وإساءاته. ومن الناحية المنطقية ، فرغم أن وجهتى النظر تبدوان متناقضتين ، فإنه يمكن أن نجدهما سوياً فى أعمال باحث (مثلا عالم الاجتماع، الهولندى ورثيم W.F. Wertheim أو المؤرخ الهندى بانيكار K.M. Panikkar) (١٦). وهكذا لم يكن الجدل واضحاً تمام الوضوح كما أن المفاهيم نفسها غامضة. ولكن السؤالين : «هل كان التأثير الغربى جيداً أم سيئاً ؟ » يطرحان لأسباب مفهومة. وهما سؤالان حيويان بالنسبة لتفسير الماضى وكذلك لفهم الحاضر، كما سنرى فيما بعد .

وفى القرن التاسع عشر صارت المقاربة الأوربية للتاريخ الآسيوى محكومة بصورة متزايدة بمشاعر التفوق الأوربى وباقتناع بتخلف آسيا . وكان هذا، على أية حال، ظاهرة حديثة تماماً، لأن المؤرخين الأوربيين كانوا قد أظهروا تقليديًا احتراماً عظيماً للحضارات القديمة فى آسيا . وكان هذا مختلفا تمام الاختلاف عن الموقف الأوربى تجاه أفريقيا، التى كانت على الدوام تعتبر قارة لا تاريخية والشعوب الأفريقية شعوب بلا حضارة ومن ثم بلا تاريخ . وأشهر صياغة لهذا الرأى نجدها فى محاضرات جينا التى ألقاها هيجل فى سنة ١٨٣٠-١٨٣١م ونشرت تحت عنوان «فلسفة التاريخ» . وهنا كتب :

«عند هذه النقطة نترك أفريقيا، ولا نعود إلى ذكرها ثانية . لأنها ليست جزءاً تاريخيًا من العالم ؛ فليس لديها حركة أو تطور يمكن عرضه ... وما فهمته أفريقيا على وجه صحيح هو الروح غير المتطورة غير التاريخية، لا يزال متضمنًا فى ظروف الطبيعة المجردة، التى يجب أن تقدم هنا فقط باعتبارها على عتبة التاريخ العالمى»[١٧].

وكان لهيجل بطبيعة الحال تأثير كبير على كارل ماركس كما أن الكتابات الماركسية الكلاسيكية تعكس الخط الفكرى نفسه. ويمكن أن نجد صدى لاحقًا لهذا فى أعمال مؤرخ مجرى ماركسى عن أفريقيا، هو أندريه سيك Endre Sik ، الذى كتب فى سنة ١٩٦٦م:

«قبل لقائهم بالأوربيين كانت غالبية الشعوب الأفريقية يعيشون حياة بدائية بربرية ، بل كان كثير منهم عند أدنى مستوى من البربرية. وعاش بعضهم فى عزلة تامة، أو شبه تامة : إذ كانت الاتصالات ، وإن وجدت، مع الآخرين عبارة عن مناوشات مبعثرة مع الشعوب المجاورة. أما الدولة، بالمعنى الصحيح للكلمة ، فكانت مفهوماً غير معروف لمعظم الشعوب الأفريقية،. ولم يكن هناك وجود للطبقات أيضا . أو بالأحرى وجدت ولكن فى شكل جنينى. ومن ثم فليس من الواقعية أن نتحدث عن «تاريخهم»- بالمعنى العلمى للكلمة- قبل ظهور الغزاة الأوربيين»[١٨].

وليس هناك شك فى أن مثل هذه الآراء لم تكن حكراً على المؤرخين الماركسيين. فقبل سنة واحدة فقط من ظهور كتاب سيك قام أستاذ التاريخ الحديث فى أوكسفورد تريڤور- روبر H.R.Trevor- Roper بعقد مقارنة بين مؤرخى بريطانيا ومؤرخى أفريقيا، وصف الأخيرون فيها بأنهم أكثر قليلاً من « الدوران غير المثمر للقبائل البربرية فى أنحاء بديعة ولكنها غير متصلة بكوكب الأرض»[١٩].

فكم تغيرت الأمور منذ ستينيات القرن العشرين ! إن أى شخص حساس لن يجادل بعد

الآن فى أن التاريخ الأفريقى غير موجود، ولا حتى فى أوكسفورد . لقد كان تطور التاريخ الأفريقى مدهشًا . وربما كان الحقل الأكثر حيوية ، وحركية وتجديدا من حقول الدراسة التاريخية مثل ظهور التاريخ الاجتماعى والاقتصادى الجديد فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين . ويمكن للمرء أن يجادل بأن Journal of African History كان أكثر المجلات تجديدا منذ تأسيس الحوليات Aunales . والواقع أن هذين التطورين يمكن مقارنتهما بأحدهما الآخر إلى حد ما . ذلك أن المؤرخين الاجتماعيين من أمثال أولئك التابعين «للحوليات» وغيرهم، بدأوا يطرحونّ الأسئلة التى لم تكن قد طرحت من قبل ، والتى لم يرد لها ذكر فى المصادر التقليدية. وكان لابد من اكتشاف مصادر جديدة ، ومن تطوير أساليب جديدة لإعادة فحص المصادر القديمة فى ضوء جديد. والموقف نفسه قائم مع التاريخ الأفريقى . فالمصادر نادرة ، والمصادر التقليدية على الأقل . ولأسباب ثقافية أنتج الأفريقيون مادة مكتوبة عن التاريخ الأفريقى أقل مما أنتجه الأوربيون، ولأسباب مناخية لم يصل إلينا من هذه المادة المكتوبة سوى القليل . ويعنى هذا أن معظم المصادر خارجية . فقد جاءت من الأجانب، سواء كانوا من الإغريق أو الرومان أو العرب ، رحالة وجغرافيين، أو من التجار والإداريين الأوربيين. ومن الناحية الفنية ، فإن معظم التاريخ الأفريقى إنما هو ضرب من ضروب ما قبل التاريخ prehistory أو شبه تاريخ Pro History (أو تاريخ سلالات Ethnohistory حسبما سُمى أحيانا)[٢٠].

وندرة المصادر أعطت حافزًا هائلاً لتطور الأساليب والمناهج الجديدة . وكان لابد من دراسة الماضى بوسائل أخرى. ومرة أخرى، فإن المقارنة مع «الحوليات» والتاريخ الجديد nouvelle histoire أمر فى محله . وفى كل من الحالين، تم استخدام علم الآثار، وعلم الخرائط ، واللغويات، وعلم أصول الكلمات . كما لعبت الأنثروبولوجيا دورًا رئيسيًا فى التاريخ الأفريقى. والواقع أن التمييز بين عالم الأنثروبولوجى والمؤرخ ليس تمييزًا حادًا على أية حال.

وأشهر الأساليب التى استخدمت لكى تقدم مصادر جديدة للتاريخ الأفريقى تمثلت فى دراسة المأثور الشفاهى. وهنا كان نشر كتاب يان ڤانسينا Jan Vansina " De La tradition Orale . Essai de néthode historique 1965 .*

---

* ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد مرسى، ونشره بعنوان «المأثورات الشفاهية».

علامة على حقبة جديدة فى البحث التاريخى. فسرعان ما تمت ترجمته إلى الإنجليزية بعنوان : (Oral Tradition 1965) وصار للكتاب تأثير هائل على التاريخ الأفريقى [٢١]. وفيما بين السذاجة والشك، طور فانسينا منهجًا لاستخدام الموروث الشفاهى بطريقة نقدية ، ومن ثم لاستخدامه فى الكتابة التاريخية الجادة . وقسَّم ڤانسينا الموروث الشفاهى إلى خمس فئات (الصياغات ، والشعر، والقوائم ، والحكايات، والتعليقات) ولكل منها تقسيماتها الفرعية . وكانت حجته أنه لا يجب قبول الموروث الشفاهى بظاهره ، وأنه يجب أن يستخدم فقط بعد الدراسة النقدية ، مع الاهتمام بتأثير المغزى الاجتماعى، والقيم الثقافية وشخصية الكتاب. كما يجب ، بقدر الإمكان ، التحقق منه بالمصادر الأخرى ، مثلاً ، الاكتشافات الأثرية أو الوثائق المكتوبة . وبعض المؤرخين (والأنثروبولوچيين) كانوا أكثر توجسًا من المأثورات الشفاهية واعتقدوا، مع الاحترام الواجب لڤانسينا، أنه بالغ فى تقدير قيمة إمكانياتها ، ولكن لا ينكر أن عمله وأفكاره قد أثرت بالتدريج على التاريخ الأفريقى[٢٢].

وأيا كانت الإمكانيات والاحتمالات التى تقدمها المأثورات الشفاهية والمصادر التقليدية الأخرى، تبقى الحقيقة أن أفريقيا محرومة إلى حد ما من الوثائق المكتوبة. وأنها لحقيقة طبعًا أن هذا يصدق أيضا على فترات بعينها من التاريخ الأوربى الذى تندر فيه الوثائق ، وكذلك بالنسبة لأوربا قبل كولومبوس، واستراليا قبل توماس كوك * الخ، وأنه بالتالى يكون التاريخ الأفريقى استثنائيا ولكنه ليس فريداً . ومع ذلك، فإنه يبدو مستحيلاً أن نجد تراثًا من التدوين التاريخى عن أفريقيا يمكن مقارنته بالتدوين التاريخى الأوربى. ويمكن دراسة التطور على المدى الطويل ، ولكن التاريخ المقيد بالحقائق أو التاريخ الاستردادى غير ممكن فى الغالب. وفى هذه اللحظة كانت المقاربة البنيوية أو المقاربة طويلة المدى تلقى رواجًا فى التاريخ الأوربى كذلك، ولكن هذه تبقى مسألة اختيار . وفى أفريقيا لايمثل التاريخ البنيوى خياراً ، ولكنه يمثل الإمكانية الوحيدة المتاحة ، وهى إمكانية لاتمثل إغراء، ولكنها إدانة له [٢٣].

وفى العقود الأخيرة ظهر عدد من المؤرخين الأفريقيين فى الساحة العالمية، ويزداد دورهم بروزا. ومع هذا فإن على المرء أن يعترف بأن القفزة الكبرى إلى الأمام فى التاريخ الأفريقى

---

* يقصد الكاتب أحوال الأمريكتين واستراليا ، وتاريخها ، قبل وصول الغزاة الأوربيين بقيادة كريستوفر كولومبوس إلى أمريكا، وبقيادة توماس كوك إلى استراليا. (المترجم)

كانت فى معظمها راجعة إلى المؤرخين الأوربيين والأمريكيين ، لاسيما البريطانيين منهم. كانت «مجلة التاريخ الأفريقى Journal of African Studies التى كان أول إصدار لها فى سنة ١٩٦٠م – على حد قول تيرينس رانجر Terence Ranger «مزيجًا من البيان ، والميثاق ، والبرنامج ، ونافذة العرض لهذا المجال» (٢٤). وكانت حلقة البحث والمناقشة (السمينار) الذى يديره رولاند أوليڤر Roland Oliver فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية فى لندن يسمى «المكان الأول فى العالم لتقديم الأعمال الجديدة عن ماضى أفريقيا»(٢٥) والكتاب الذى ألفه أوليڤر وفاچ Fage بعنوان Short History of Africa قد باع عدة مئات من الألوف من النسخ وربما كان الكتاب الوحيد الأقوى تأثيرًا عن التاريخ الأفريقى.

كذلك لعب المؤرخون الفرنسيون دورًا مهمًا ، مع أنه كان دورًا أكثر تواضعًا . ففى سنة ١٩٦١م، تمت دعوة هنرى برونسشويج Henri Brunschwig ، الذى كان تلميذًا سابقا لمارك بلوش Marc Bloch ولوسيان ڤيبڤر Lucien Febvre فى ستراسبورج ، من جانب فرناند بروديل لتدريس التاريخ الأفريقى بمدرسة الدراسات العليا Ecole des Hautes Etudes . وصارت حلقة النقاش التى يديرها ملتقى للباحثين . ولم تكتف إيڤ برسون Yves Person التى ألفت كتابًا مهمًا وتجديديًا عن تاريخ ساموراى وكاترين كوكرى ڤيدروڤيتش Catherine Coquery - Vidrovitch ، بتأليف الكتب المهمة التى ألفاها فقط، وإنما جلبتا الموضوع إلى جامعة باريس (٢٦). كذلك قدمت جامعات أخرى (ايكس آن بروڤانس وبوردو) مقررات دراسية وحلقات نقاشية (سمينار) فى التاريخ الأفريقى، كما قدم عدد كبير من الطلاب الأفريقيين رسائل دكتوراه فى الجامعات الفرنسية.

وكان إسهام الجامعات الأمريكية كبيرًا، لاسيما ذلك الذى تم فى المدارس الرئيسية فى ييل Yale و UCLA ، وعلى رأسها ماديسون (ويسكونسن) وأولئك المؤرخون الأمريكيون الذين لعبوا دورًا بارزًا فى الجيل الثانى والجيل الثالث من مؤرخى التاريخ الأفريقى كانوا فى معظمهم تلامذة سابقين لكورتين Curtin وفانسينا فى ماديسون . وفى تلك اللحظة وجدت مدارس تاريخية مهمة أيضا بمختلف الجامعات فى أفريقيا نفسها . ومن الواضح أن فترة السيطرة الأوربية قد انقضت .

وإذا نظرنا إلى أحداث الماضى القريب بدا لنا أن الكثير من الجدل حول إمكانات واستحالات التاريخ الأفريقى والتاريخ الآسيوى قد ضاع سدى ، ليس فقط بسبب تناقض

مشاعر التفوق الأوربى وإنما أيضا بسبب التغيرات التى طرأت على دراسة التاريخ نفسه . فالتعارض بين الاستعمار والوطنية يبدو معقولاً داخل إطار التاريخ السياسى ، ولكن فى ميادين التاريخ الأخرى نجد مقاربة مختلفة . إذ إن التاريخ الاجتماعى يُدرس عند مستوى القرية، والإقليم والمجموعة العرقية. أما التاريخ الثقافى فيتم تحليله على نطاق أكبر كثيراً من تاريخ الدولة الوطنية. والمفاهيم مثل الحضارة الهندية أو الحضارة الجاوية أو «عالم الإسلام» تكون هنا فى محلها . ويتماشى التاريخ الاقتصادى مع وحدات كبرى مثل المحيط الهندى، أو جنوب شرق آسيا، أو حتى الاقتصاد العالمى. وفى هذا النمط من المقاربة تكون المعارضة التى تضع الاستعمارى ضد المعادى للاستعمار غير ذات معنى إلى حد كبير.

فهل يعنى هذا أن أثر الاستعمار على تاريخ ما وراء البحار قد انتهى وأن المواقف الغربية واللا غربية قد وجدت توازناً كاملاً ؟ ليس بالضرورة ؛ لأنه فى مجالين اثنين لا تزال هناك درجة من السيادة الغربية. فأولا، نتيجة للتوسع الاستعمارى تم جلب كمية كبيرة من الكتب والوثائق وغيرها من المواد عن عالم ما وراء البحار إلى أوربا ، وهى الآن متاحة فى الأرشيفات والمكتبات الأوربية. ويعنى هذا أنه لكى يدرس المؤرخون غير الأوربيين ماضيهم سيكون عليهم الاستمرار فى القدوم إلى أوربا. وثانيا، أيضا باعتبار ذلك من عواقب الاستعمار إلى حد كبير، يوجد فى العالم الغربى تراث كبير تم تأسيسه فى مجال الدراسات غير الغربية، لا يزال الغرب يلعب فيها دوراً رئيسياً. ومن ناحية أخرى، فمن الناحية العملية لايوجد مؤرخون أفريقيون أو آسيويون يدرسون التاريخ والمجتمع الأوربى. وطالما كان للغرب مستشرقوه ولايوجد فى الشرق «مستغربون» فلايمكن أن يكون هناك توازن حقيقى.

وإذا ما أخذنا هذا كله فى اعتبارنا فيمكننا القول بأن تطور التاريخ الأفريقى والآسيوى كان ظاهرة طبيعية وضرورية ، ولكنه أيضا يتركنا مع مشكلة . فبينما تقول الحقيقة إن التاريخ الأفريقى والآسيوى مستقل ذاتيا إلى حد كبير ، فالحقيقة أيضًا أنه منذ حوالى سنة ١٥٠٠م صار تاريخ أفريقيا وآسيا مرتبطا بتاريخ أوربا . والتاريخ الآسيوى أكثر من مجرد امتداد لتاريخ أوربا، ولكن لايمكن عزله تمامًا عن التاريخ الأوربى أيضا. والتطور المركزى للتاريخ الأوربى يتمثل فى الارتباط المتبادل وتضافر الحضارات والاقتصادات المتنوعة التى كانت معزولة فيما سبق . وقد نتج عن هذا «النظام العالمى الحديث» (وولر شتين Wallerstein) و«حضارة الحداثة» (أيزنشتادEisenstadt) التى نمتلكها اليوم. ولايمكن للمرء أن يفهم هذه

العملية بأن يتأمل فقط أجزاء معزولة من التاريخ ، لأن ذلك لابد وأن يفتقد الموضوع المركزى فى تاريخ العالم. ولايمكن أن يُعتبر تاريخ العالم صنوا للتاريخ الأوربى أو الغربى. وحل هذه المشكلة يمثل الاهتمام المركزى فى تاريخ التوسع الأوربى حسبما تطور فى فترة ما بعد نهاية الاستعمار.

التوسع ورد الفعل

تأثرت دراسة التوسع الأوربى أيضا بعوامل داخلية وخارجية على السواء . إذْ إن السقوط السريع للإمبراطوريات الاستعمارية ، مثلاً، أدى إلى التساؤل عن استقرارها الظاهرى من قبل. وقد حفز صعود الإمبراطورية الأمريكية، وهى إمبراطورية بلا مستعمرات، على إعادة التفكير فى كل من الأساليب الرسمية وغير الرسمية للإمبريالية . وقد أدى صعود الصين إلى إعادة النظر فى إمكانات البلاد العلمية والبحرية ومن ثم أدى إلى طرح أسئلة جديدة عن الفروق بين التوسع الصينى والتوسع الأوربى الباكر.

ومن ناحية أخرى غيرت العوامل الداخلية طبيعة دراسات التوسع كذلك، كما أن الاتجاه العام لصالح التاريخ الاجتماعى والاقتصادى تجلى واضحًا فى هذا المجال. وطرحت الأسئلة عن النظم النقدية، والشحن، والذهب والفضة، وأرباح الامبراطورية، الخ ، بطريقة جديدة وغالبا ما أمكن الإجابة عن هذه الأسئلة بمساعدة الكمبيوتر[٢٧]. وصار التاريخ الاجتماعى موضوعًا يواكب الموضة السائدة وحفز هذا دراسة الهجرة ، وتجارة الرقيق، والعلاقات بين الأعراق، وبناء المناطق الحضرية ، فضلاً عن العقليات . وأثرت العلوم السياسية فى التاريخ السياسى باقتراح دراسة موضوعات مثل اتخاذ القرارات، والرأى العام، ودور جماعات المصالح الخاصة ، وما إلى ذلك .

وعلى الرغم من أنه على المستوى النظرى كان التمييز التقليدى بين مرحلة أولى ومرحلة ثانية من التوسع محل تساؤل ، ففى الممارسة الفعلية لا يزال تقسيم العمل بين مؤرخى التاريخ الحديث ودارسى التاريخ المعاصر ماثلاً للعيان. وتقليدياً يكون التأكيد فى التوسع الحديث الباكر على الاكتشافات الكبرى، والسفن والملاحة، والشركات والتجارة ، والهجرة ، ونظم الزراعة ، ومجتمعات العبيد. وقد كتب تشارلز بوكسر Chares Boxer وبارى J.H. Parry. كتبًا ناجحة كان هدفها إلقاء نظرة على الامبراطوريات المحمولة بحرًا[٢٨]. كما أن سلسلة Minnesota series Europe and the World in the Age of Expansion

قدمت سلسلة من الكتب الدراسية عن هذه الموضوعات. وفى كثير من هذه الميادين تم تقديم مقاربات جديدة ، وطُرحت أسئلة جديدة كما طبقت أساليب جديدة ، ونشر جلامان Glamann وستينجارد Stennsgaard وشودورى Chaudhuri دراسات رائدة عن الشركات الهندية، وقام كورتين بدراسة رائدة عن تجارة الرقيق ، وقام شاونو Chaunu بدراسة عن عالم الأطلسى، وقام بايلين بدراسة عن الهجرة ، ويمكن أن نذكر ويجب أن نذكر كثيرين غيرهم(٢٩). وتتصل كثير من الأسئلة التى ناقشناها هنا اتصالا وثيقا بموضوعات كبرى فى الجدال فى التاريخ الأوربى مثل النظريات عن أصول الرأسمالية ، «والمرحلة الأولى والمرحلة الثانية» ، والركود الاقتصادى الكبير فى القرن السابع عشر ، وثورة الأسعار وما إلى ذلك. وعلى أية حال ، يجب أن نعترف بأنه لم تطرح أية نظرية عامة عن التوسع الأوربى. وبينما فى تاريخ التوسع فى القرنين التاسع عشر والعشرين كان الجدل محكوما بمفهوم الإمبريالية ، لم يكن هناك شئ من هذا القبيل فى الدراسات التى تناولت التوسع الباكر، على الأقل حتى قدم إيمانويل واللرشتين Immanuel Wallérstien نظريته عن النظام العالمى الحديث.

وإيمانويل واللرشتين ، وهو عالم اجتماع من جامعة كولومبيا، درس فى البداية نهاية الاستعمار فى أفريقيا ومشكلات التنمية . وطريقته فى التفكير فى هذه الموضوعات كانت متأثرة بنظريات الاستقلال والتنمية . وعلى أية حال، تحول واللرشتين صوب التاريخ لأنه يعتقد أن مشكلات التنمية هذه لايمكن فهمها على الوجه الأكمل سوى فى سياقها العالمى ومن منظور تاريخى. والعمل التاريخى الذى يشعر أنه على ألفة به هى دراسات مجموعة «الحوليات» ولاسيما دراسات فرناند بروديل . وهناك فى الواقع تشابه قوى بين أفكار واللرشتين والإطار المفاهيمى للمجلد الثالث٣ من كتاب بروديل :Material Civilzation Economy and Capitalism ومنشورات واللرشتين حتى الآن عبارة عن دراسة فى أربعة مجلدات عما يسميه «النظام العالمى الحديث "The Modern World System" . والمجلد الأول. الذى خرج إلى الوجود فى سنة ١٩٧٤م، قدم الإطار التحليلى للمشروع (٣١). وكان مصدراً لإلهام كثيرين غيره من الباحثين وأدى إلى نقاش مثير عن أصول التوسع والرأسمالية الأوربية.

ويجادل واللرشتين بأن الاقتصاد العالمى اليوم يرجع بأصوله إلى نهاية القرن الخامس عشر . وهنا نجد بداية نظام عالمى تطور تماماً فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر.

ونضج فعلا قبل الثورة الصناعية. ويمكن أن نضع «نقطة التحول النظامية» فى حل أزمة النظام الإقطاعى التى حدثت تقريبًا فيما بين ١٤٥٠ وسنة ١٥٥٠م . ومع حلول الفترة ما بين ١٥٥٠م و ١٦٥٠م كانت جميع الآليات الأساسية للنظام العالمى الرأسمالى موجودة. وفى ضوء هذا لايمكن بعد الآن اعتبار الثورة الصناعية التى جرت فيما بين ١٧٦٠م و١٨٣٠م تقريبا نقطة تحول رئيسية فى تاريخ اقتصاد العالم الرأسمالى .

والنظام العالمى وفقًا لما يقوله واللرشتين يتميز بنظام اقتصادى عالمى وتقسيم عالمى للعمل. فهو يتألف من قلب، وشبه هامش، وهامش، وتتغير مواقعها على مرِّ الزمن (فالأقاليم يمكن أن ترقى إلى القلب أو تهبط إلى الهامش). والحقيقة أن التاريخ الحديث هو تاريخ الاندماج المستمر فى هذا النظام العالمى لمزيد من مناطق العالم. ويعمل النظام العالمى بطريقة تجعل المركز يتلقى المكاسب، وبذلك يستغل الهامش. والذى تسبب فى هذا هى التجارة العالمية، التى تعتبر بمثابة لعبة Zero- sum : فأرباح أحد الفرقاء تعادل خسائر الآخرين. وقد أدت أرباح التجارة العالمية إلى إمكانية قيام الثورة الصناعية ، والتى لم تفعل بدورها سوى التأكيد على العلاقات القائمة غير المتكافئة وعززت من «تطور نقص التطور».

كان عمل واللرشتين قد لقى قبولاً حسنًا من جانب علماء الاجتماع ، ولكنه ووجه بالنقد من جانب المؤرخين الذين انتقدوا بصفة خاصة الوزن الكبير الذى أعطى للتجارة العالمية فى النموذج الذى قدمه. وجادل البعض بأن اقتصاديات ما قبل الصناعة لم تكن قادرة على إنتاج مثل هذا الفائض الكبير ، بحيث تجعل من الممكن قيام تجارة عالمية مهمة. وقبل ظهور السفن البخارية، كانت تسهيلات النقل محدودة للغاية. وفى حوالى سنة ١٦٠٠م كانت حمولات أساطيل التجارة المشتركة التابعة للدول الأوربية مجمعة تتراوح بين حمولة واحدة أو اثنتين من الناقلات العملاقة اليوم (وفى سنة ١٨٠٠م) كانت تتراوح ما بين حمولة سبع أو ثمانى ناقلات عملاقة)[٣٢]. وحتى فى الأمم التجارية الممتازة مثل بريطانيا وهولندا كانت تجارة التصدير تمثل نسبة ضئيلة للغاية من الناتج القومى (والتصدير إلى الهامش يمثل فقط نسبة مئوية ضئيلة من الحجم الكلى للتجارة فيما وراء البحار) [٣٣]. ولايمكن أن يمثل رأس المال المتراكم فى بريطانيا من وراء التجارة العالمية أكثر من ١٥ بالمائة من الإنفاق الكلى الذى تم إبان الثورة الصناعية [٣٤]. وعلى العموم، فإن آثار التوسع الأوربى فى أقاليم ما وراء البحار لم تكن مهمة جداً . وفى آسيا كان تأثير تجارة ما وراء البحار إقليميا فقط. وفى كل من الهند

(النسيج) وإندونيسيا (المحاصيل النقدية) كانت هناك أقاليم محدودة فقط هى التى تأثرت بالطلب الأوربى. وفيما يتصل بأفريقيا، كانت التجارة فى المنتجات محدودة للغاية. أما التجارة الأكثر أهمية فكانت تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسى. وعلى أية حال، فإن البحث الحديث ، يميل إلى التقليل من شأن العواقب السكانية طويلة المدى لهذه التجارة. ففى الأمريكتين وجزر البحر الكاريبى كان تأثير التوسع الأوربى هو الأعمق مدى، ليس بسبب التجارة بقدر ما هو بسبب التدهور السكانى للأهالى الأصليين.

وثمة نقطة مهمة فى نظرية واللرشتين تكمن فى تساؤله عن مفهوم الثورة الصناعية نفسه ومن ثم عن التمييز بين الاستعمار قبل الثورة الصناعية والاستعمار الصناعى. وكان هذا التمييز موضع جدل مركزى فى النظرية الكلاسيكية عن الإمبريالية، وهى نظرية حكمت التدوين التاريخى عن التوسع الأوربى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

الإمبريالية

على الرغم من أن كلمة إمبريالية خرجت إلى الوجود منذ ستينيات القرن التاسع عشر، فإن الإمبريالية بوصفها مفهومًا تاريخيًا لم يظهر سوى مع نشر كتاب هوبسون J.A.Hobson بعنوان Imperialism : A Study سنة ١٩٠٢م[٣٥]. ولكى يشرح هوبسون الإمبريالية جادل بأنه نتيجة للنظام الرأسمالى عانى الاقتصاد البريطانى من نقص الاستهلاك. وكان هذا يعنى أن رأس المال الفائض لايمكن استثماره بطريقة مربحة فى بريطانيا نفسها . ومن ثم ، فإنه على حد كلماته الشهيرة، كان الرأسماليون «يبحثون عن أسواق أجنبية واستثمارات أجنبية تستوعب البضائع ورأس المال الذى لايمكنهم بيعه أو استخدامه فى الوطن»[٣٦] وهكذا ولدت نظرية الإمبريالية الرأسمالية .

وسرعان ما أخذ المفكرون الماركسيون نظرية هوبسون وعدّلوها وجعلوها أشد تعقيدًا ، لاسيما بعض الألمان مثل كارل هيلفر دينج Karl Hilferding وروسا لوكسمبورج Rosa Luxemburg . وبهذا الفعل . غير هؤلاء الكتاب أيضا حجة هوبسون . فعلى حين كان فى رأى هوبسون أن هروب رأس المال نتيجة نمطية ولكن ليست ضرورية من نتائج الرأسمالية، صارت الإمبريالية بالنسبة للماركسيين حتمية . ويمكن أن نجد الصياغة الأسهر عند لينين، الذى سمى الإمبريالية سنة ١٩١٦م «أعلى مرحلة فى الرأسمالية» . وعلى الرغم من أن الفروق

بين هوبسون ولينين واضحة، فسرعان ما بات من الشائع الإشارة إلى «نظرية هوبسون-لينين» واضحة . وفي الحقيقة، أنه بصيغة أو بأخرى صارت هذه «النظرية» تفسيراً قياسيًا للإمبريالية الأوربية إبّان العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

وكان في ستينيات القرن العشرين فقط ، أعيد فتح المناقشة العامة حول الإمبريالية. ومن الواضح أن تفكيك الاستعمار وصعود الإمبراطورية الاقتصادية الأمريكية على السواء تسببا في ذلك بدرجة كبيرة . ففي سنة ١٩٦١م نشر المؤرخان البريطانيان جالانجر J. Gallangher وروبنسون R. Robinson الكتاب الذي قيض له أن يكون الكتاب الوحيد الأشد تأثيرا عن الإمبريالية البريطانية: وهو بعنوان Africa and the Victorians (٣٧). وفي السنة السابقة على هذا كان هنري برونشويج قد نشر مقالته التي حملت عنوان :

Mythes et realités de l'impérialisme francais, 1871- 1914.

وهي مقالة ضبطت نغمة جميع الدراسات اللاحقة عن الإمبريالية الفرنسية (٣٨). وتلت ذلك تفسيرات جديدة للإمبريالية البلجيكية والألمانية، والإيطالية، والبرتغالية، وأخيراً الهولندية . وهكذا ينبغي علينا أن نتحدث عن ثورة في التدوين التاريخي، يمكن أن نلخص ما نستنتجه منها هنا بإيجاز شديد فقط بالنسبة للقوتين العظميين .

فقد جادل جالانجر وروبنسون، اللذان استمرا على الخط الذي طوراه في مقالتهما "The Imperialism of Free Trade" (٣٩)، بأن ما يسمى الفترة الإمبريالية (١٨٨٠-١٩١٤م) لم تختلف عن الفترة السابقة، التي يزعمون أنها ضد الإمبريالية ، وهي الفترة الفيكتورية الوسطى التي شهدت التجارة الحرة في وسائلها لا في غاياتها : فقد كان الفيكتوريون آنذاك قادرين على العمل دونما تدابير سياسية: وكان على الفيكتوريين الأواخر أن يشكلوا إمبراطوريتهم . وكانت هذه الصياغة قد تسارعت بفعل الأزمات المحلية والمواقف على الحدود التي خلقت فراغات سياسية توجب على البريطانيين ملؤها. وقامت أفعالهم على خلفية استراتيجية لا اقتصادية ، كما أن سياستهم كانت دفاعية في جوهرها ومترددة . وباختصار ، قام جالانجر وروبنسون بإزالة مفهوم الفترة الإمبريالية كما قوضوا التفسير الاقتصادي الذي كان يرتبط به تقليديا.

وعلى الرغم من أن استنتاجات برونشويج كانت متشابهة في بعض الجوانب ، فإن مراجعته للإمبريالية الفرنسية كانت مختلفة إلى حد ما . إذ إن برونشويج تقبل فعلاً أنه في

حالة فرنسا، كانت هناك فترة إمبريالية محدودة، فيما بين ١٨٨٠م و١٩١٤م تقريبًا، ولايمكن إنكار هذا. ولكن بينما كان برونشويج تقليديا بهذا الخصوص، كان ثوريًا فى تفسير الظاهرة. فبعد دراسة متأنية للمصالح الاقتصادية للمستعمرين الفرنسيين ، والموازنة الاقتصادية للإمبريالية الفرنسية ، توصل إلى استنتاج مؤداه أن شرح هذا فى مصطلحات اقتصادية سيكون بمثابة خرافة أو أسطورة . إذ إن الامبراطورية لم تدفع، ولم تكن هناك حلقة وصل بين الحمائية والإمبريالية ولم يكن لدى الإمبرياليين الفرنسيين دوافع أو مصالح اقتصادية. وبالتالى، فلا بد أن هناك تفسيرًا مختلفًا . ووفقًا لكلام برونشويج ، يمكن أن نجد هذا فى المد المتصاعد للوطنية فى الجمهورية الثالثة، التى جُرحت جرحًا عميقا بسبب هزيمتها سنة ١٨٧٠م. وهكذا ، كان كتابه، مثل مقالة جاللانجر وروبنسون ، فى أساسه دحضًا للنظرية الاقتصادية عن الإمبريالية.

لقد أزاحت الكتب التى ذكرناها آنفا التفسير البسيط للإمبريالية بمصطلحات الحاجات الاقتصادية، على الرغم من أنها لم تقدم أى تحليل للجوانب الاقتصادية فى الإمبريالية . ولكى تحل هذه المسألة المهولة لم يكن من الضرورى حل عدد كبير من المشكلات النظرية والمنهجية فقط، بل كان من الضرورى أيضا جمع كمية هائلة من المعلومات وتحليلها . ومن جديد أمكن عمل ذلك بفضل الكمبيوتر . وهناك اثنان من المؤرخين الأمريكيين هما ديڤيز L. Davis وهوتنباك R. Huttenback ، واتصلا بمعهد كاليفورنيا للتكنولوچيا ، وفعلا هذا بالضبط من أجل البحث فى موضوع الإمبريالية البريطانية. فقد جمعا كمية ضخمة من المعلومات وحللاها بمناهج معقدة للغاية. ويبدو كتابهما الموسوم Mammon and the Pursuit of Empire (٤٠) وكأنه يقدم الإجابة القاطعة عن السؤال القديم والشهير : هل كانت الامبراطورية عملية مربحة؟ والإجابة المخيبة إلى حد ما كانت : لا ! فبعد سنة ١٨٨٠م كانت معدلات الأرباح العالية مبدئيًا فى الاستثمارات الاستعمارية قد تدنت إلى أقل من العوائد الناتجة عن مشروعات أخرى فيما وراء البحار أو حتى فى بريطانيا نفسها . وهكذا كان هوبسون ولينين مخطئين فيما يتعلق بالعلاقة بين رأس المال الفائض والحاجة إلى التوسع فيما وراء البحار. إذ إن المستعمرات التابعة لم تكن المتلقى الرئيسى لرأسمال المدينة. ولايمكن أن يكون هناك شك فى أن هذه ليست الإجابة كاملة، لأن ديڤيز وهوتنباك جادلا أيضا بأنه بالنسبة لبعض الرأسماليين كانت هذه الاستثمارات أبعد ما تكون عن الهامشية (٤١).

وفى فرنسا ، وتحت تأثير برونشويج ، حتى الكتاب الماركسيون تقبلوا رأيه بأن الجوانب الاقتصادية فى التوسع الفرنسى لم تكن ذات شأن . وفى محاولة لإنقاذ التفسير الماركسى جادلوا بأن الإمبريالية الفرنسية يمكن أن نجدها فى أماكن أخرى، مثل روسيا، والإمبراطورية العثمانية الخ . وقد كانت خلاصة هذا الجدل أن الاستعمار الفرنسى لم يكن إمبرياليًا وأن الإمبريالية الفرنسية لم تكن استعمارية[٤٢]. ولكى نجد إجابة أكثر قابلية للتطبيق عن السؤال حول الاقتصاد والإمبراطورية بادرت كاترين كوكرى ڤندروڤيتش بوضع بنك معلومات عن التجارة الاستعمارية الفرنسية (١٨٨٠-١٩٦٠م) . وكان زميلها الباريسى چاك مارسيل Jacques Marseille أول من استخدم هذا التوثيق الغنى بكثرة من أجل رسالته Em-pire colonial et Capitalisme francais : histoire d'un divorce [٤٣].

والاستنتاج الذى وصل إليه مارسيل هو أنه كان هناك انكسار فى العلاقة بين الرأسمالية والاستعمار . ففى الفترة الأولية ١٨٨٠-١٩٣٠م، احتاجت الصناعة الفرنسية إلى نتاج سوق المستعمرات الذى يحظى بالحماية ، وكان الزواج بين الاستعمار والرأسمالية زواجًا سعيدًا . أما فى الفترة الثانية، ١٩٣٠-١٩٦٠م، فقد صارت سياسة الحماية عقبة فى طريق الصناعة التى كانت فى حاجة ماسة إلى التحديث . وبات الطلاق بينهما حتميًا ؛ ولكن عملية تفكيك الاستعمار كانت تجرى بالفعل. وكانت نهاية الامبراطورية سنة ١٩٦٠م بركة على الرأسمالية .

كان تأثير الإمبريالية كبيرًا للغاية على أوربا، ولكن ماذا كان تأثيرها على عالم ما وراء البحار؟ هذا موضوع معقد ثار حوله جدل شديد منذ أثيرت المسألة. وهناك أشياء قليلة وافق عليها المتجادلون بيد أن هناك حقيقة واحدة غير منكورة : أن التأثير الحقيقى للغرب على أراضى ما وراء البحار لم يحدث سوى بعد الثورة الصناعية . فماذا كانت آثار هذا ؟ بطبيعة الحال كان الاستعمار منظمًا بطريقة تضمن تنمية مصالح القوى الاستعمارية. وبطبيعة الحال كان هذا يستدعى إلقاء الأعباء من مختلف الأنواع على كاهل شعوب المستعمرات . وعلى أية حال ، كانت هناك ، وراء الحقائق الأساسية، مساحة واسعة من المشكلات التى لايمكن حلها ببساطة. فهناك ظاهرة تفكيك الصناعة الراسخة (لاسيما فى صناعة النسيج الهندية) . وهناك أيضا مشكلة التخصص فى المحاصيل النقدية . ومن ناحية أخرى هناك تطور طويل المدى نتج عن الاستثمار فى البنية التحتية (التعدين، الطرق، والموانئ) ، وتحسين الإدارة ، والتعليم، والصحة. وعملية وضع موازنة للإدارة الاستعمارية عملية تتسم بصعوبة غير عادية . ليس فقط بسبب نقص المعلومات، وإنما بسبب المشكلات النظرية أيضا .

وإذا ما كان الشرح البسيط بأن الامبريالية نتجت عن الرأسمالية مرفوضاً حسبما أوضح البحث الحديث بصورة مقنعة ، فإن السؤال يبقى: ماذا كان السبب ؟ لماذا كان هناك «عصر الإمبريالية» من الأصل ؟ وفيما يتعلق ببريطانيا كانت الإجابة عن هذا السؤال أيضا على لسان جللاجر وروبنسون . فقد جادلا بأنه لم يكن هناك شئ من هذا القبيل . إن مفهوم عصر الإمبريالية (١٨٨٠-١٩١٤م) نفسه زيف . واعتبار هذه الفترة ذروة الإمبريالية البريطانية يعنى أن نسيء فهم طبيعتها الحقيقية. ذلك أن العدد المتزايد للمناطق الحمراء على خريطة العالم إبان الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر ربما بدا مؤشراً على أن قوة بريطانيا كانت آخذة فى الازدياد . وفى الحقيقة، على أية حال، أن هذا لم يكن مؤشراً على القوة وإنما كان مؤشراً على الضعف . فقد كانت بريطانيا أكثر قوة فى بواكير القرن التاسع عشر عندما كانت تحكم بوسائل غير رسمية مما صارت عليه عندما حكمت حكما سياسياً رسمياً (٤٤).

ومفهوم الإمبراطورية غير الرسمية مفهوم جذاب للغاية وملهم للغاية لأنه يشرح عدداً كبيراً من الظواهر المهمة. كما أنه يضفى معنى أوسع كثيراً على مصطلح إمبريالية . وبهذا النمط من التحليل توجد الإمبريالية فى فترات مختلفة وفى أشكال مختلفة. ومهمة المؤرخ أن يشرح الانتقال من شكل لشكل آخر. وفى مجادلة جالانجر وروبنسون لا نجد الأسباب وراء هذا فى جعبة السياسيين فى أوربا- الذين فضلوا الإمبراطورية غير الرسمية فى كل الأحوال - ولكن فى المواقف المتغيرة فيما وراء البحار. وتعتبر الإمبريالية نظاماً من التعاون بين أوربا والقوى غير الأوربية . وتنتج الأشكال المختلفة من الإمبريالية عن التغير فى شروط التعاون(٤٥). ومن الواضح أنه فى مثل هذا التحليل لعملية تفكيك الاستعمار تفقد الإمبريالية كثيراً من أهميتها باعتبارها نقطة تحول. وإذا كان هناك وجود للإمبريالية غير الرسمية قبل الامبراطورية، فمن المنطقى أنه يمكن أن يكون هناك أيضا وجود غير رسمى للإمبريالية بعد الامبراطورية (٤٦). وهناك يرتبط الجدل حول الإمبريالية بالجدل الدائر عن تفكيك الاستعمار ونقص التنمية.

تفكيك الاستعمار وما بعده

لم يصبح تفكيك الاستعمار موضوعاً للتحليل التاريخى والجدل سوى منذ وقت قريب. وبطبيعة الحال كُتب قدر كبير بالفعل عن هذا، ولكن هذا كله كان إلى حد كبير يتسم بالتركيز على الأحداث كما كان مكتوباً من منظور أيديولوچى واضح . وتم ترديد هذه الأغنية فى كل مكان آخر. فقد أرادت الشعوب الخاضعة للاستعمار أن تحصل على استقلالها . وبعد الحرب

العالمية الثانية حاربوا مضطهديهم وأزاحوا نير الحكم الاستعمارى. وعلى مدى زمن طويل ظهـر أنه لم يكن هناك شئ أكـثـر من هذا . وفى وقت قـريب تم نشـر عـدد من الدراسـات التجميعية ، والمقارنة طرحت تفسيرات جديدة كما طرحت أسئلة جديدة. وفى النهاية تبرز عملية تفكيك الاستعمار موضوعًا للتحليل التاريخى وليس عملاً قضى به الرب أو نتيجة لقوانين الطبيعة(٤٧).

والأسئلة التى تمت مناقشـتـهـا فى أسـاسـهـا أسـئلة بسيطة للغاية. لماذا حدث تفكيك الاستعمار وقت حدوثه ، ولماذا اتخذ الأشكال المتنوعة التى اتخذها ؟ لم يعد تفكيك الاستعمار يوصف حصريًا باعتباره تاريخ أفعال الزعماء السياسيين فى مدى فترة زمنية قصيرة (١٩٤٧-١٩٦٢م) . كما أن جوانبه طويلة المدى ، البنيوية والمتضافرة تشد الانتباه . ويركز تحليل الأشكال المتنوعة لتفكيك الاستعمار على القوى الثلاث التى كانت تعمل عملها : السلطة الاستعمارية ، والموقف فى المستعمرة، والعامل الدولى . وقد حسّن التفاعل بين هذه القوى الثلاث الأشكال دون أن يحسم حصاد العملية لأنه مهما كانت الفروق، كان الحصاد واحدًا دائمًا: الاستقلال . ولكن ثمة سؤالاً يطرح نفسه هنا. ما الذى كان الاستقلال يعنيه حقًا ؟ هل كانت نهاية الامبراطورية أيضا نهاية الإمبريالية أم أنها كانت استمرارًا لها بوسائل أخرى؟ وهنا يمس موضوع تفكيك الاستعمار موضوعًا آخر، نظرية التبعية والاعتماد .

ظهرت نظرية التبعية والاعتماد Dependencia أول ما ظهرت على يد عالم الاقتصاد الأرجنتينى راؤل بريبش Raul Prebisch فى سنة ١٩٤٧ ثم تطورت أكثر فى ستينيات القرن العشرين على أيدى الباحثين فى أمريكا اللاتينية ، وفى أمريكا الشمالية المهتمين بأمريكا اللاتينية. وقد وُلدت النظرية من ملاحظة استمرار مشكلات أمريكا اللاتينية : الفقر، وعدم المساواة، والعشوائيات، والديون الخارجية، وسيطرة رأس المال الأجنبى- أى التبعية والاعتماد. وتجادل نظرية التبعية بأن هذا الموقف ليس نتيجة نقص التنمية ولكن نتيجة التخلف . وإذا كان أصل النظرية نابعًا من الدراسات التى جرت فى أمريكا اللاتينية، فقد تم العمل عليها فيما بعد وصُقلت بحيث تصير نظرية عالمية يمكن تطبيقها على العالم الثالث بأسره وليس على أمريكا اللاتينية وحدها . ويُنظر إلى العالم الثالث بوصفه هامشا على نظام اقتصادى عالمى ، فيه المركز - أى الغرب - يراكم الأرباح ويُبقى على الهامش فى وضع التبعية الدائمة. وهكذا فإن التخلف ليس موقفا بل هو عملية . والعالم الثالث ليس متخلفًا ،

ولكن الغرب يبقيه فى حال من التخلف . وقد صاغ أندريه جوندر فرانك André Gunder Frank أكثر صيغة لافتة له : «تطور التخلف» (٤٨).

وسرعان ما تم تطبيق نظرية التبعية والاعتماد على أجزاء متنوعة من العالم الثالث، وعلى أفريقيا بصفة خاصة. وقد كتب سمير أمين باستفاضة عن الموضوع كما نشر والتر رودنى Walter Rodney كتابًا ناجحًا عنه بعنوان تأكيدى: كيف صنعت أوربا تخلف أفريقيا ؟ How Europe Underdeveloped Africa(٤٩) والمشكلة مع النظرية هى أنه لشرح تخلف أفريقيا الخاص لابد أن تجعل القارة معتمدة وتابعة للنفوذ الأجنبى فى أثناء معظم تاريخها . هذا الخط فى التفكير كان متناقضًا إلى حد ما مع الاتجاه العام لتطور التاريخ الأفريقى فى الفترة نفسها، وهو ما أظهر استقلال التاريخ الأفريقى ذاتيًا. ولم يعد ينظر إلى الأفريقيين باعتبارهم ضحايا التوسع الأوربى ، وإنما إلى حد بعيد باعتبارهم سادة مصائرهم . وبينما اعتنق الماركسيون الجدد نظرية التبعية والاعتماد، أظهر الماركسيون الكلاسيكيون والأنثروبولوچيون استقلال التاريخ الأفريقى بل إنهم حاولوا اكتشاف «نمط إنتاج أفريقى» (٥٠).

وكل من نظرية التبعية والاعتماد ومفهوم الإمبراطورية غير الرسمية كانت لهما قيمة مشجعة ؛ لأنهما تساءلا عن بعض الفروض الأساسية عن تاريخ ما وراء البحار ، وبذلك غيرا تفسيرنا . ويمكن أن يكون مفهوم عصر الإمبريالية نفسه، ببدايته الواضحة ونهايته القاطعة مثار جدل فيما يتعلق ببريطانيا على الأقل. وذروة الإمبراطورية البريطانية توضع الآن أحيانا فى القرن الثامن عشر، على حين بدأ التدهور حقا فى القرن التاسع عشر. وليس مدهشا أن طرح السؤال القائل : «لماذا استمرت الإمبراطورية البريطانية طوال هذا الوقت ؟»(٥١) والخطر الكامن فى مثل هذه المفاهيم والنظريات هو أنه قد تمت المبالغة فى قيمة مغزاها وأنها صارت بمثابة الأرثوذكسية الجديدة. ومن المفيد لكى نصحح التفسيرات الموجودة أن نحدد القيمة النسبية لأهمية نقاط التحول مثل بداية الإمبريالية أو نقل السلطة، بيد أننا يجب أيضا ألا نقلل من قدر مغزاها التاريخى. إذ إن فقدان الاستقلال السياسى ثم استعادته فى النهاية نقاط تاريخية مهمة، وليست هناك فائدة من ترك مغزاها التاريخى الصلب يخبو فى غمار مفهوم مجرد على نحو ما عن الاعتماد والتبعية . وهناك نواجه مشكلة أخرى مع مفاهيم مثل هذا ؛ ذلك أنها مصاغة بطريقة تجريدية بحيث تغطى كافة أنماط السيطرة. ومشاركة رونالد روبنسون الأخيرة فى الجدل والنظرية عن الإمبريالية مفهومة فى «مصطلحات مسرحية

الأسواق السياسية والاقتصادية العالمية التى فيها درجات من الاحتكار والمنافسة فى علاقات على المستوى العالمى، وتحدد العواصم الكبرى والمستويات المحلية ضرورتها وربحيتها » (٥٢). وربما يكون هذا وصفًا صحيحًا ولكنه تجريدى إلى حد ما للإمبريالية. إذ إن عدم تناسق القوة والتغيرات فى أشكال التعاون يمكن أن نجده فى التاريخ كله . وربما يكون مفيدًا أكثر أن نبقى فى مكان ما أقرب إلى العملية التاريخية الراسخة وأن نولى انتباهنا كاملاً للجوانب المخصوصة والفريدة فى التوسع الأوربى. وهذا يعود بنا إلى السؤال الذى بدأنا به : «ما تاريخ ما وراء البحار؟» أو بدلاً من ذلك «ما الذى سيكون عليه فى المستقبل» .

خاتمة

فى سنة ١٩٧٩م عندما نشرت أنا وإيمر P.C. Emmer مجلدًا يجمع مقالات عنوانه Reappraisal in Overseas كان علينا أيضا أن نسأل أنفسنا السؤال التالى : «ما تاريخ ما وراء البحار؟ » ثم جادلنا حينئذ بأنه مفهوم أوسع كثيرًا من تاريخ التوسع الأوربى، لأنه «لايتناول فقط المواجهة بين الأوربيين وغير الأوربيين، بل يتناول أيضا النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لغير الأوربيين أنفسهم » (٥٣). وهذا حقيقى وحسبما رأينا هنا، هناك فى الحقيقة شكلان مختلفان ومتمايزان بوضوح لتاريخ ما وراء البحار، التاريخ المستقل لأفريقيا وآسيا ، وتاريخ التوسع الأوربى. ولكن حسبما رأينا أيضا، فإن هذا الموقف ليس مرضيًا ، فإذا كانت هناك تواريخ مستقلة لأفريقيا ، وآسيا ، وأمريكا ، واستراليا الخ، فليس هناك ما يدعو إلى إلقاء هذه التواريخ كلها فى سلة واحدة، لسبب وحيد هو أنها ليست أوربية، ثم نسمى هذا «تاريخ ما وراء البحار». وكان سبب عمل هذا أنه بعد ١٩٤٥م كان على تاريخ ما وراء البحار أن يجد بؤرة تركيز جديدة ، كما اتجه مؤرخو الاستعمار وتلاميذهم إلى التاريخ الآسيوى والتاريخ الأفريقى نفسه . ومضى بعض الوقت قبل أن تبرهن هذه المجالات على أنها تستحق الوجود. وفى الوقت نفسه، خدم مصطلح «تاريخ ما وراء البحار» باعتباره مصطلحًا محايدًا ، وبالتالى غطاءً مناسبًا لأنشطتها . وهكذا يمكن اعتبار هذا الشكل من أشكال تاريخ ما وراء البحار حركة تحرر فى فترة سابقة ، ويمكن مقارنته بظهور تاريخ النساء أو تاريخ السود، تاريخ الطبقات العاملة، أو الفلاحين الخ. وما أن استكمل التحرر حتى غير الموضوع خصائصه . ومن وجهة نظر المؤرخين المحترفين أنه سوف يستمر فى الوجود باعتباره تخصصًا، ومجالاً خاصا للاهتمام ، ولكنه بالنسبة للعامة يصير جزءًا من التاريخ «العام».

ومن الواضح أن هذه أيضا هى الحال مع التاريخين الأفريقى والآسيوى. فقد برهنا على حقهما فى الوجود، تماماً مثل التاريخ الأوربى والأمريكى. ولذلك فإن هذا الفرع المخصوص من تاريخ ما وراء البحار مقضى عليه بالتفكك إلى التاريخ الأفريقى والتاريخ الآسيوى الخ. بيد أن هناك جانبًا آخر فيه كذلك. وتماما مثلما يمكن فهم بعض التاريخ الأوربى، وليس كله، على أنه تاريخ مستقل ، ينطبق الأمر نفسه على عالم ما وراء البحار. وعلى مدى القرون الخمسة الأخيرة تقريبًا صارت تواريخ الأجزاء المختلفة من العالم متصلة ببعضها البعض ، كما أثرت الحضارات المتنوعة كل منها فى الأخرى. وهذا هو الموضوع الآخر لتاريخ ما وراء البحار ويزداد فهم أهمية هذا الجانب من التاريخ الحديث بشكل مطرد. وفى هذا الشكل كسب تاريخ ما وراء البحار مكانًا متمايزًا فى حقل التاريخ الحديث، لابوصفه علمًا ونظامًا تعليميًا خاصًا، أو فرعًا منه، وإنما باعتباره شكلا مخصوصا من تاريخ العالم.

وحاليا يبدو أن هناك مقاربتين -طريقتين – للتعامل مع مشكلة تاريخ العالم . ويمكن أن نسمى إحداهما علم الاجتماع التاريخى الكبير . هذا النمط من التاريخ يتميز بمقاربة العلوم الاجتماعية . فهو يُفرد ظاهرة اجتماعية محددة أو موضوعًا خاصا ، مثل تكوين دولة، أو ثورة أو ديكتاتورية ، ويقوم بتحليلها فى سياقات تاريخية مختلفة. وهكذا ، يمكن للمرء أن يميز التشابهات والمفارقات، مثلا ، بين الأحداث فى أوربا القرن السادس عشر والصين فى القرن العشرين. وهدف اللعبة أن نعلم المزيد عن العمليات الاجتماعية عمومًا [٥٤]. والمقاربة الأخرى أكثر تقليدية بقدر ما تحاول أن تحدد نموذجًا بعينه فى تطور التاريخ الحديث وتتأمل كتابة التاريخ مثل وصف العمليات والأحداث التاريخية الملموسة . وهنا تتم دراسة التاريخ بطريقة مقارنة ولكن فى ضمن إطار التطورات على مدى التتابع الزمنى. وهناك مزيد من الاهتمام بالفروق بين التطورات المتنوعة وتفردٍ بعض الأحداث المعينة أكبر من الاهتمام بتشابهاتها. أما الإطار المفاهيمى ، فهو إطار توحيد العالم نتيجة توسع أوربا وصعود الغرب [٥٥]. وتتميز كل من المقاربتين بالرغبة القوية فى تجاوز الحدود التقليدية ، والآراء المتزمتة والإنحيازات الوطنية . وفى النهاية فإنهما يسعيان لتحقيق الهدف نفسه، ولأن يضعا نظامًا دراسيًا غربيًا مخصوصًا للتاريخ قابل للتطبيق على تاريخ العالم . وهذا ضرورى لأن «حضارتنا أول حضارة تملك من أجل ماضيها ماضى العالم، فتاريخنا هو أول تاريخ يصير تاريخ العالم» هذه الكلمات كتبها المؤرخ الهولندى يوهان هويزينجا Johan Huizinga منذ أكثر من سنين سنة مضت [٥٦]. وتحدى استخراج النتائج منها تحد لا نزال نواجهه اليوم.

الهوامش

1 See e.g. M. Mörner and T. Svensson (eds), *The History of the Third World in Nordic Research* (Göteborg, 1986).
2 See C. Fasseur, 'Leiden and Empire: University and Colonial Office, 1825-1925' in W. Otterspeer (ed.), *Leiden Oriental Connections, 1850–1940* (Leiden, 1989), pp. 187–203.
3 J. Romein, *Aera van Europa* (Leiden, 1954) and *De eeuw van Azië* (Leiden, 1956).
4 L. Blussé, 'Japanese Historiography and European Sources', in P. C. Emmer and H. L. Wesseling (eds), *Reappraisals in Overseas History* (Leiden, 1979), pp. 193–222.
5 See T. O. Ranger, 'Towards a Usable African Past', in C. Fyfe (ed.), *African Studies since 1945: A Tribute to Basil Davidson* (London, 1976), pp. 17–29.
6 See A. G. Hopkins, 'European Expansion into West Africa: A Historiographical Survey of English Language Publications since 1945', in Emmer and Wesseling, *Reappraisals*, p. 56.
7 F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (3rd edn, 2 vols, Paris, 1976), vol. 1, p. 17.
8 For both practical and theoretical reasons we will not discuss here the history of the Americas and the Caribbean. As far as Asia is concerned we will limit ourselves to the two big ex-colonies, India and Indonesia, where the rise of a national historiography has been the most impressive.
9 J. Nehru, *The Discovery of India* (London, 1956), p. 28.
10 See S. Ray, 'India: After Independence', *Journal of Contemporary History*, 2 (1967), pp. 125–42.
11 H. A. J. Klooster, *Indonesiërs schrijven hun geschiedenis. De ontwikkeling van de Indonesische geschiedbeoefening in theorie en praktijk, 1900–1980* (Leiden, 1985).
12 J. Bastin, *The Study of Modern Southeast Asian History* (Kuala Lumpur, 1959). See also his *The Western Element in Modern Southeast Asian History* (Kuala Lumpur, 1963).
13 J. C. van Leur, *Eenige beschouwingen betreffende den ouden Aziatischen handel* (Middelburg, 1934). A translation of this book and of his other writings can be found in J. C. van Leur, *Indonesian Trade and Society: Essays in Asian Social and Economic History* (The Hague, 1955).
14 Van Leur, *Trade and Society*, p. 261.
15 Ibid., pp. 268–89. See for this also: L. Blussé and F. S. Gaastra (eds), *On the Eighteenth Century as a Category of Asian History: Van Leur in Retrospect* (Aldershot, 1998).
16 K. M. Panikkar, *A Survey of Indian History* (London, 1947); W. F. Wertheim, 'Asian History and the Western Historian: Rejoinder to Professor Bastin', *Bijdragen tot de Taal-, Land- en Volkenkunde*, 119 (1963), pp. 149–60.

17 G. W. F. Hegel, *The Philosophy of History* (New York, 1944), p. 99.
18 E. Sik, *The History of Black Africa* (2 vols, Budapest, 1966), vol. 1, p. 17.
19 H. Trevor-Roper, *The Rise of Christian Europe* (London, 1965), p. 9.
20 H. Brunschwig, 'Un faux problème: l'ethnohistoire', *Annales E.S.C.*, 20 (1965), pp. 291–300.
21 J. Vansina, *De la tradition orale. Essai de méthode historique* (Tervueren, 1961). English trans. *Oral Tradition: A Study in Historical Methodology* (London, 1965).
22 In some of his later works Vansina was somewhat more sceptical. See P. Salmon, *Introduction à l'histoire de l'Afrique* (Brussels, 1986), 126ff. For this, see also J. Vansina's autobiographical book, *Living with Africa* (Madison, Wis., 1994).
23 See H. Brunschwig, 'Une histoire de l'Afrique noire est-elle possible?' in *Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel* (2 vols, Toulouse, 1973), vol. 1, pp. 75–87.
24 See Ranger, 'Usable Past', p. 17.
25 *The Blackwell Dictionary of Historians* (Oxford, 1988) p. 308 s.v. Oliver, R. See also Roland Oliver's autobiographical book *In the Realms of Gold: Pioneering in African History* (London, 1997).
26 C. Coquery-Vidrovitch, *Le Congo au temps des grandes compagnies concessionnaires* (Paris, 1972); Y. Person, *Samori: une Révolution dyula* (3 vols, Dakar, 1968–76). See also H. Brunschwig, 'French Historiography since 1945 Concerning Black Africa', in Emmer and Wesseling, *Reappraisals*, pp. 84–97.
27 See T. Lindblad, 'Computer Applications in Expansion History: A Survey', *Second Bulletin of the ESF-Network on the History of European Expansion. Supplement to Itinerario*, 12 (1988), pp. 2–61.
28 C. R. Boxer, *The Portuguese Seaborne Empire, 1418–1825* (New York, 1969); C. R. Boxer, *The Dutch Seaborne Empire, 1600–1800* (London, 1965); J. H. Parry, *The Spanish Seaborne Empire* (New York, 1966).
29 K. Glamann, *Dutch–Asiatic Trade 1620–1740* (2nd edn, The Hague, 1980); N. Steensgaard, *The Asian Trade Revolution of the 17th Century: The East India Companies and the Decline of the Caravan Trade* (Chicago, 1974); K. N. Chaudhuri, *The Trading World of Asia and the English East India Company, 1660–1760* (Cambridge, 1978); Ph. Curtin, *The Atlantic Slave Trade: A Census* (Madison, Wis., 1969); P. and H. Chaunu, *Séville et l'Atlantique, 1504–1650* (12 vols, Paris, 1956–60); B. Bailyn, *Voyagers to the West: Emigration from Britain to America on the Eve of the Revolution* (London, 1987). A recent synthesis in G. V. Scammell, *The First Imperial Age: European Overseas Expansion, c. 1400–1715* (London, 1989). Many of these developments are discussed in the interviews with 26 major historians of European expansion collected by L. Blussé, F.-P. van der Putten and H. Vogel (eds), *Pilgrims to the Past: Private Conversations with Historians of European Expansion* (Leiden, 1996).
30 F. Braudel, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe–XVIIIe siècle* (3 vols, Paris, 1979).
31 I. Wallerstein, *The Modern World System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century* (New York, 1974; vol. 2 1980; vol. 3 1989).
32 See J. de Vries, *The Economy of Europe in an Age of Crisis, 1600–1750* (Cambridge, 1976), pp. 192–3.
33 See R. Floud and D. McCloskey (eds), *The Economic History of Britain since 1700* (2 vols, Cambridge, 1981), vol. 1, pp. 87–92.

34 See P. K. O'Brien, 'European Economic Development: The Contribution of the Periphery', *Economic History Review*, 35 (1982), p. 9, and P. K. O'Brien, 'Intercontinental Trade and the Development of the Third World since the Industrial Revolution', *Journal of World History*, 8 (1997), pp. 75–133.
35 J. A. Hobson, *Imperialism: A Study* (London, 1902).
36 Ibid., p. 85.
37 R. Robinson and J. Gallagher with A. Denny, *Africa and the Victorians: The Official Mind of Imperialism* (London, 1961). For a recent synthesis on the history of the partition of Africa, see H. L. Wesseling, *Divide and Rule: The Partition of Africa 1880–1914* (Westport, Conn., and London, 1996).
38 H. Brunschwig, *Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, 1871–1914* (Paris, 1960).
39 R. Robinson and J. Gallagher, 'The Imperialism of Free Trade', *Economic History Review*, 6 (1953), pp. 1–15.
40 L. A. Davis and R. A. Huttenback, *Mammon and the Pursuit of Empire: The Political Economy of British Imperialism, 1860–1912* (Cambridge, 1986). On the general subject of the costs and benefits of empires see P. K. O'Brien and L. Padros de la Escosura (eds), 'The Costs and Benefits of European Imperialism from the Conquest of Ceuta, 1415, to the Treaty of Lusaka, 1974', *Revista de Historia Económica*, 16 (1998), no. 1.
41 For a more recent interpretation, see P. J. Cain and A. G. Hopkins' two-volume work *British Imperialism: Innovation and Expansion 1688–1914* (London, 1993) and *British Imperialism: Crisis and Reconstruction, 1914–1990* (London, 1993). For a general overview: L. James, *The Rise and Fall of the British Empire* (London, 1994) and R. Hyams, *Britain's Imperial Century, 1815–1914: A Study of Empire and Expansion* (2nd edn, London, 1993).
42 See J. Bouvier and R. Girault (eds), *L'impérialisme français d'avant 1914* (Paris/The Hague, 1976).
43 J. Marseille, *Empire colonial et capitalisme français: histoire d'un divorce* (Paris, 1984). Recent overviews of French expansion are R. Aldrich, *Greater France: A History of French Overseas Expansion* (London, 1996) and two multi-authored works: *Histoire de la France Coloniale* (2 vols, Paris, 1990–1) and *Histoire de la colonisation française* (2 vols, Paris, 1991).
44 Robinson and Gallagher, 'Imperialism of Free Trade' (see n. 39).
45 R. Robinson, 'Non-European Foundations of European Imperialism: Sketch for a Theory of Collaboration', in R. Owen and B. Sutcliffe (eds), *Studies in the Theory of Imperialism* (London, 1972), pp. 117–40.
46 See W. J. Mommsen and J. Osterhammel (eds), *Imperialism and After: Continuities and Discontinuities* (London, 1986). There is, of course, a vast literature on the general subject of the rise and fall of empires, of which Paul Kennedy's *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000* (London, 1987) is probably the best known.
47 For this see H. L. Wesseling, 'Towards a History of Decolonization', in H. L. Wesseling, *Imperialism and Colonialism: Essays on the History of European Expansion* (Westport, Conn., and London, 1997), pp. 115–25. Some recent titles on decolonization are: R. F. Holland, *European Decolonization, 1918–1981: An Introductory Survey* (London, 1985); J. Darwin, *Britain and Decolonisation: The Retreat from Empire in the Post-War World* (London, 1988); J. Darwin, *The End of the British Empire: The Historical Debate* (Oxford, 1991); A. Clayton, *The Wars of French Decolonization* (London, 1994); Ch.-R. Ageron, *La décolonisation française* (Paris, 1991).

48 A. G. Frank, 'The Development of Underdevelopment' in R. I. Rhodes (ed.), *Imperialism and Underdevelopment: A Reader* (New York, 1960), pp. 5–16. See also M. Muchie, H. L. Wesseling and Om Prakash, *North–South Perspectives: Debates on Colonialism and North–South Relations* (Amsterdam, 1989) and L. Blussé, H. L. Wesseling and G. D. Winius (eds), *History and Underdevelopment* (Leiden, 1980). For Frank's latest views on the subject, see: A. G. Frank, *ReOrient: Global Economy in the Asian Age* (Los Angeles and London, 1998).

49 W. Rodney, *How Europe Underdeveloped Africa* (London, 1972).

50 There is a vast literature on this subject. For a brief introduction see A. G. Hopkins, 'Clio-Antics: A Horoscope for African Economic History', in Fyfe, *African Studies*, pp. 31–48.

51 P. M. Kennedy, 'Why Did the British Empire Last So Long?' in P. M. Kennedy, *Strategy and Diplomacy, 1870–1945: Eight Studies* (London, 1983), pp. 197–218.

52 See also R. Robinson, 'The Excentric Idea of Imperialism, With or Without Empire', in Mommsen and Osterhammel, *Imperialism and After*, pp. 267–89.

53 P. C. Emmer and H. L. Wesseling, 'What is Overseas History?', in Emmer and Wesseling, *Reappraisals*, p. 3.

54 See T. Skocpol and M. Somer, 'The Uses of Comparative History in Macrosocial Inquiry', *Comparative Studies in Society and History*, 22 (1980), pp. 174–97.

55 Cf. also Eric R. Wolf, *Europe and the People without History* (Berkeley, 1982); Ph. Curtin, *Cross Cultural Trade in World History* (Cambridge, Mass., 1985); W. McNeill, *The Rise of the West: A History of the Human Community* (Chicago, 1963); D. S. Landes, *The Wealth and Poverty of Nations* (New York, 1998); J. Diamond, *Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies* (London, 1997).

56 J. Huizinga, 'A Definition of the Concept of History', in R. Klibansky and H. J. Paton (eds), *Philosophy and History* (Oxford, 1936), p. 8.

(٥)

عن التاريخ المصغَّر

چيوڤانى ليڤى

إن شكًا بلا نهاية ليس شكًا بالقطـــع

ويتجنشتين L.Wittgenstein. 1969

ليس من قبيل المصادفة أن الجدل حول التاريخ المصغّر لم يكن قائمًا على أساس النصوص النظرية أو المنشورات النظرية. والتاريخ المصغّر فى جوهره ممارسة فى التدوين التاريخى على حين تختلف مرجعياته النظرية وتتنوع، وهى بمعنى ما اختيارية. والحقيقة أن المنهج يهتم أولاً وقبل كل شئ بالإجراءات الفعلية المفصلة التى تشكل عمل المؤرخ، ولذلك فإن التاريخ المصغّر لايمكن تعريفه بالنظر إلى الأبعاد المصغّرة لموضوع مادته . وهكذا قد يُدهش القارئ من جراء طبيعة أداته النظرية إلى حد ما . وفى الحقيقة، أن كثيرًا من المؤرخين الذين يلتزمون بالتاريخ المصغّر قد انشغلوا فى مبادلات مستمرة مع العلوم الاجتماعية ونظريات التدوين التاريخى الراسخة بدون الشعور بأية حاجة إلى الرجوع إلى أى نظام متماسك من المفاهيم أو المبادئ الخاصة بهم. والتاريخ المصغر ، يشترك مع كل الأعمال التجريبية من حيث أنه ، ليس له كيان من التقاليد الثابتة يمكن أن يعوّل عليها . إن التنوع الشاسع للمادة الناتجة يكشف بوضوح كيف أن مدى العناصر المشتركة فيه محدود. وعلى أية حال ، فى رأيى ، أن مثل هذه العناصر المشتركة القليلة الموجودة فى التاريخ المصغّر حاسمة وهذه العناصر هى التى سأحاول دراستها وفحصها هنا.

هناك خصائص مميزة بعينها فى التاريخ المصغّر مستمدة من فترة السبعينيات فى القرن العشرين ، عندما برزت من طيات جدل سياسى وثقافى أكثر عمومية ، وليس هناك شئ غير عادى بصورة خاصة فى ذلك ؛ لأن السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين كادت أن

تكون عالميا سنوات أزمة بالنسبة للاعتقاد المتفائل السائد بأن العالم سوف يتحول بسرعة وبصورة جذرية على امتداد خطوط ثورية. وفي ذلك الوقت كانت كثير من الآمال والأساطير التي كانت فيما سبق مرشداً وهادياً للجزء الأكبر من الجدل الثقافي، بما فيه مجال التدوين التاريخي، تثبت أنها صالحة وكافية في مواجهة العواقب التي لايمكن التنبؤ بها للأحداث السياسية والحقائق الاجتماعية- وهي أحداث وحقائق كانت بعيدة تماماً عن الاتساق مع النماذج المتفائلة التي افترضتها النظم الماركسية أو الوظيفية الكبرى. وما زلنا نعيش المراحل الدرامية الأولية لهذه العملية ، واضطر المؤرخون إلى طرح أسئلة جديدة عن مناهجهم وتفسيراتهم . وفوق هذا وذاك انهار افتراض التغير الذاتي: وبتحديد أكثر، كان ما أثار الريبة والشك فكرة أن التقدم المنتظم أمر طبيعي وحتمي ، على الرغم من وجود عدة مراحل كان فيها الفاعلون الاجتماعيون يتوافقون مع أشكال التضامن وأشكال الصراع.

لقد ثقلت موازين الجهاز المفاهيمي لدى علماء الاجتماع من كل مشارب التغير الجاري والماضي بسبب عبء الفلسفة الوضعية الموروث . إذ كانت نبوءات السلوك الاجتماعي تبرهن بوضوح على خطئها ، كما أن هذا الفشل الذي حاق بالنظم والأمثلة القياسية القائمة لم يكن يستدعي بناء نظرية اجتماعية جديدة عامة بقدر ما كان يتطلب مراجعة كاملة لأدوات البحث الموجودة . ومهما بدا هذا العرض تافهًا وتبسيطيا ، فإن الوعي بالأزمة عام لدرجة أن أبسط تذكير له سوف يبدو ضرورياً .

وعلى أية حال، كان هناك عدد من ردود الأفعال الممكنة تجاه الأزمة، كما أن التاريخ المصغّر نفسه ليس سوى حزمة واحدة من الاستجابات الممكنة التي أكدت على إعادة تعريف المفاهيم وتحليل الأدوات والمناهج الموجودة بعمق . وفي الوقت نفسه، كانت هناك حلول أخرى صارمة مقترحة غالبًا ما كانت تميل نحو النسبية اليائسة ، أو المثالية الجديدة، أو حتى العودة إلى فلسفة تتخللها ثقوب اللاعقلانية .

وهؤلاء المؤرخون الذين اصطفوا إلى جانب التاريخ المصغْر عادة ما كانت لهم جذور ماركسية(١)، واتجاه سياسي صوب اليسار ، وعلمانية جذرية مع ميل قليل إلى الميتافيزيقا . وعلى الرغم من حقيقة أن هذه الخصائص تجلت عبر تنويعة واسعة من الطرق ، فإنني اعتقد أنها خدمت في إرساء هؤلاء المؤرخين بثبات على فكرة أن البحث التاريخي ليس بلاغياً محضاً كما أنه ليس نشاطًا جماليًا .

فقد تركز نشاطهم دوما على البحث عن وصف أكثر واقعية للسلوك البشرى، مستخدمين فعلاً ونموذج صراع لسلوك الإنسان فى العالم يعترف بحريته- النسبية- فيما يلى، قيود النظم المعيارية القهرية الإرشادية. وهكذا ينظر إلى جميع أشكال الفعل الاجتماعى على أنها نتيجة تفاوض مستمر ، وتحرر مستمر ، وينظر إلى الخيارات والقرارات فى ضوء الحقيقة المعيارية على أنها تتيح الكثير من الامكانيات للتفسيرات والحريات الشخصية. ومن ثم فإن السؤال هو : كيف تحدد الهوامش - مهما كان احتمال أن تكون ضيقة - الممنوحة لفرد ما بفضل الفجوات والتناقضات فى النظم القياسية التى تحكمه ؟ وبعبارة أخرى ، فإن البحث فى مدى الإرادة الحرة وطبيعتها داخل البنية العامة للمجتمع الإنسانى . فى هذا النمط من البحث لايهتم المؤرخ بتفسير المعانى فحسب ، وإنما يهتم بتعريف الجوانب الغامضة فى العالم الرمزى، وتعدد التفسيرات الممكنة لها والنضال الذى يحدث على الموارد الرمزية تمامًا مثل الموارد المادية.

وهكذا كان للتاريخ المصغّر مكان مخصوص داخل ما يسمى التاريخ الجديد. ولم يكن - ببساطة -سؤالاً يتعلق بتصحيح تلك الجوانب من تدوين التاريخ الأكاديمى الذى بدا أنه لم يعد له وظيفة . وكان الأهم دحض النسبية واللا عقلانية والحط من قدر عمل المؤرخ ، بحيث يصير مجرد نشاط بلاغى يفسّر النصوص ولايفسّر الأحداث نفسها .

«إن شكًا بلا نهاية ليس شكًا بالقطع » على حد قول وتجنشتين (٢). تكمن المشكلة فى إيجاد طريقة للاعتراف بحدود المعرفة والعقل على حين أن بناء تدوين تاريخى فى الوقت نفسه يمكن أن ينظم ويفسّر عالم الماضى فى آن معا . ومن ثم فإن الصراع الرئيسى ليس صراعا بين التاريخ الجديد والتاريخ التقليدى، وإنما هو صراع حول معنى التاريخ بوصفه ممارسة تفسيرية(٣).

ويقدم التاريخ المصغر بوصفه ممارسة تقوم على تخفيض مقياس الملاحظة أساسًا ، على تحليل ميكروسكوبى ودراسة مكثفة للمادة الوثائقية . هذا التعريف يثير بالفعل عدة نقاط غامضة : فهو ليس - ببساطة - مسألة تناول الأسباب والآثار لحقيقة أن الأبعاد المختلفة تتعايش سويا فى كل نظام اجتماعى، وبعبارة أخرى، مشكلة وصف بنى اجتماعية معقدة شاسعة دون أن نغفل عن رؤية ميزان الفضاء الاجتماعى لكل فرد ومن ثم للناس وموقفهم فى الحياة. وبالتالى ، فهى ليست مسألة صياغة مفهوم لفكرة المقياس باعتبارها عاملاً داخلاً فى

جميع كافة النظم الاجتماعية وباعتباره من الخصائص المهمة لسياقات التفاعل الاجتماعى بما فى ذلك مختلف الأبعاد الكمية وأبعاد الحيِّز . هذه المشكلة تمت مناقشتها باستفاضة بين علماء الأنثروبولوچيا الذين قدموا مفهوم المقياس فى هذا المنظور بالضبط: المقياس بوصفه هدفًا للتحليل يستخدم فى قياس الأبعاد فى مجال العلاقات . وبالنسبة لفردريك بارث Fre-drik Barth، مثلا ، الذى نظم حلقة نقاش أساسية عن هذا الموضوع ، فإن المشكلة هى مشكلة «قدرتنا على وصف المجموعات المختلفة من المقاييس فى تنظيمات اجتماعية إمبريقية خاصة ، لقياس الدور الذى يلعبونه فى مختلف القطاعات فى الحياة التى يشكلونها »(٤) أما بالنسبة للتاريخ المصغر ، فإن تخفيض المقياس، إجراء تحليلى، قد يمكن تطبيقه فى أى مكان بشكل مستقل عن أبعاد الموضوع الذى يجرى تحليله .

وأود أن أنظر بدرجة أكبر من التمعن فى هذه المشكلة للحظة ؛ لأن فكرة أن المقياس هدف للدراسة مصدر لسوء الفهم بالنسبة لكثير من الناس عند مناقشة التاريخ المصغر . فغالبًا ما يفترض ، مثلاً ، أن المجتمعات المحلية يمكن دراستها بشكل صحيح باعتبارها موضوعات أو نظمًا على مقياس أصغر ، ولكن المقاييس الأكبر يجب أن تستخدم للكشف عن الروابط بين المجتمعات داخل إقليم ما، وبين الأقاليم داخل بلد ما ، وهكذا . وفى الحقيقة الفعلية، بطبيعة الحال، يتضح فى الحال أنه حتى أدق الأفعال ظاهريا التى يقوم بها، مثلا ، شخص فى طريقه لشراء رغيف من الخبز، يحيط فعلاً بنظام أوسع كثيرا هو نظام أسواق الغلال فى العالم بأسره. وتناقض الفهم وتشوشه بدرجة كبيرة وحده يمكن أن يرى أن الحياة التجارية لإحدى القرى لا تهم خارج نطاق مقياسها المحلى. وثمة مثال على مثل هذا النوع من المنظور يمكن أن نلمحه فى هجاء كتبه فرانكو ڤنتورى Franco Venturi ضد دراسات الجماعة لاسيما ضد التاريخ المصغر(٥):

« إن دراسة مؤرخات قرية ما، كما يحدث فى الغالب الأعم فى أيامنا هذه، لا معنى لها بتاتًا . إذ إن واجب المؤرخ أن يدرس أصول تلك الأفكار التى تشكل حياتنا ، لا أن يكتب الروايات . ولست بحاجة سوى إلى اقتباس مثال واحد : هناك قدر كبير من الكلام اليوم حول الحاجة للرجوع إلى السوق . فمن الذى اخترع السوق ؟ إنهم أهل القرن الثامن عشر . وفى إيطاليا، من هم الذين شغلوا أنفسهم به ؟ مفكرا التنوير Genovesi و Verri . إن من المهم أن نثبت فى بؤرة دراساتنا الاهتمام بجذور حياتنا ».

ويمكن للمرء أن يرد على هذا محاكيا عبارات جريتنر : «إن المؤرخين لايدرسون القرى .. بل إنهم يدرسون ما فى القرى» (٦).

ومن الطبيعى أن يكون وصف المجموعات المختلفة من المقاييس وتناسبها مع الظواهر الاجتماعية أمراً مهماً ، إذا ما أخذناها على أنها مجرد وسيلة لقياس الأبعاد الداخلية للموضوع الذى يتم تحليله . وعلى أية حال، فإن الأمر لايحتاج إلى برهان، مهما كان ضئيلاً ، لكى نقرر أن الأبعاد الخاصة لموضوع التحليل لاتعكس بالضرورة المقياس المميز للمشكلة الماثلة . وفكرة أن المقياس له وجوده الذاتى فى الحقيقة فكرة مقبولة حتى من جانب أولئك الذين يعتبرون أن التحليل المصغّر يعمل بالنموذج فقط ، أى مثل عملية تحليلية مبسّطة- اختيار نقطة محددة من الحياة الحقيقية منها يدلل على مفاهيم عامة- بدلاً من الانطلاق نحو حركة أوسع صوب التعميم. وما تكشف عنه أبعاد العوالم الاجتماعية المضبوطة للقياس وهو يعمل فى الحقيقة . وبهذا المعنى، من ثم ، يمكن فصل مكونات المجتمعات المركبة دون الرجوع إلى افتراضات سابقة وأطر جاهزة سلفا ؛ بيد أن هذه المقاربة لاتستطيع سوى أن تبنى تعميماً مجازياً يقوم على مجرد القياس . ويبدو لى، -بعبارة أخرى- أنه لايجب علينا مناقشة مشكلة المقياس باعتبارها مجرد مشكلة مقياس يتنوع لأغراض تطبيقية. ومن الطبيعى والصحيح أن يؤدى عدم القدرة على إخضاع الأفراد لنظم كبيرة المقياس إلى أن تكون مشكلة المقياس فى بؤرة الجدل الجارى . ففى مواجهة الوظيفية التى تم تبسيطها بشكل مبالغ فيه، من المهم أن نؤكد على دور التناقضات الاجتماعية فى توليد التغير الاجتماعى؛ وبعبارة أخرى، نركز على القيمة التفسيرية للتفاوت بين القيود النابعة من النظم القيمية المتنوعة (ولنقل ، بين معايير الدولة والأسرة) وحقيقة : أنه بالإضافة إلى هذا، أن أى فرد له مجموعة مختلفة من العلاقات ، تحسم ردود فعله واختياراته ، فيما يتعلق بالبناء الاجتماعى .

وعلى الرغم من أن المقياس بوصفه من الخصائص الكامنة فى الحقيقة وليس عنصرا خارجياً فى الجدل الدائر بشأن التاريخ المصغر ، فإنه يعتبر خروجاً عن الموضوع إلى حد ما(٧)؛ إذ إن المشكلة الحقيقية تكمن فى قرار خفض مقياس الملاحظة لأغراض تجريبية . والمبدأ الذى يوحّد البحث فى التاريخ المصغّر يكمن فى الاعتقاد بأن الملاحظة الميكروسكوبية ستزيح النقاب عن عوامل لم تكن ملحوظة من قبل . وهناك بعض الأمثله الداله على هذا الإجراء المركزّ: مثل إعادة تفسير القضية ضد جاليليو باعتبارها دفاعًا عن المفاهيم الأرسطية

عن المادة ، وحالة الإفخارستيا (العشاء الربانى) * ضد المذهب الذرى** الذى يجعل من المستحيل تحول النبيذ والخبز إلى دم ولحم (٨)؛ والتركيز على رسم وحيد والتعرف على شخوصه باعتبار ذلك وسيلة للتحقق من العالم الثقافى الذى عاش فيه بييرو ديللا فرانشيسكا(٩)، ودراسة استراتيجيات زواج ذوى الأرحام فى قرية صغيرة بإقليم كومو Como للكشف عن العالم الفكرى للفلاحين فى القرن السابع عشر (١٠)، وإدخال النول الميكانيكى ، حسبما لوحظ فى قرية صغيرة تشتغل بالنسيج ، لشرح الموضوع العام للابتكار ، وإيقاعاته وآثره (١١)؛ دراسات عمليات نقل ملكية الأراضى فى قرية واحدة لاكتشاف القواعد الاجتماعية للتبادل التجارى الفاعلة فى سوق كانت لا تزال بحاجة إلى التخلص من الخصائص الشخصية (١٢).

ولنفحص المثال الأخير باختصار . فقد كان هناك قدر كبير من المناقشة بخصوص إضفاء المسحة التجارية على الأرض وهناك اعتقاد شائع على مدى واسع بأن كثرة عمليات نقل ملكية الأرض التى حدثت فى كثير من بلدان غرب أوربا وفى أمريكا زمن الاستعمار تشير إلى الوجود الباكر للرأسمالية والنزعة الفردية. وهناك عنصران حالا دون المزيد من التقدير الكافى لهذه الظاهرة. فأولاً قامت تفسيرات عديدة على معلومات بالجملة، وهى مقاربة جعلت من المستحيل فحص الحقائق الواضحة لعمليات نقل ملكية الأرض نفسها . وثانيا، ثم تضليل المؤرخين بسبب عقليتهم التجارية الحديثة التى قادتهم إلى تفسير الأعداد الضخمة من عمليات نقل ملكية الأراضى مقابل المال والتى وجدوها فى عقود التوثيق المعاصره على أنها أدلة على وجود سوق منظم بذاته . ومن الغريب ، أن أحداً لم يلحظ أو يعط وزناً لحقيقة أن الأسعار الواردة فى هذه العمليات كانت متنوعة إلى أقصى درجة ، حتى مع الأخذ فى الاعتبار نوعيات الأرض المختلفة. وهكذا فإن أسعار الأرض والسوق العامة كان يشار إليها عموماً بافتراض بديهى أن قوى السوق كانت موضوعية . وكان عن طريق تخفيض مقياس الملاحظة فقط،

---

* من الأسرار المقدسة فى الكنيسة المسيحية، وهو طقس يتم فيه تناول قطعة من الخبز (ترمز إلى جسد المسيح) ورشفة من النبيذ (ترمز إلى دمه) . وهذا الطقس من لوازم الاعتراف والتوبة . وفى العصور الوسطى كان العامة يعتقدون أن التحول كان يتم فعلا . (المترجم)

** المذهب الذرى يقول بأن كل شئ فى الكون مؤلف من ذرات ، ومن ثم فإن الذرات لايمكن أن تتحول إلى دم ولحم بحسب رمزية العشاء الربانى. (المترجم)

وقصره على منطقة محلية للغاية أن صار من الممكن أن نرى أن سعر الأرض كان يختلف وفقًا لعلاقة القربى بين الأطراف المتعاقدة . وصار من الممكن كذلك توضيح أن الأسعار المتنوعة كانت تُحدد لأراض تتساوى فى المساحة وفى النوعية. وبذلك بات ممكنًا أن نحدد أن المرء كان ينظر إلى سوق معقدة لعبت فيها العلاقات الاجتماعية والعلاقات الشخصية دورًا حاسمًا فى تحديد مستوى الأسعار، ويبدو هذا المثال من حيث توقيت عمليات نقل ملكية الأرض، ومن حيث أشكال هذا النقل ، كاشفًا تمامًا الطريقة التى يسير بها التاريخ المصغّر عامة. كما أن الظواهر التى كانت تعتبر من قبل واضحة ومفهومة جدا اكتسبت معانى جديدة تمامًا نتجت عن تبديل مقياس الملاحظة أو مجالها. ويمكن إذن استخدام هذه النتائج للخروج بتعميمات أوسع نطاقًا ، رغم أن الملاحظات الأولية جاءت داخل أبعاد ضيقة نسبيًا بوصفها تجارب لا أمثلة.

وعلى الرغم من أن البحث فى التاريخ المصغر يضرب بجذوره فى داخل دائرة البحث التاريخى عامة، فإن كثيرًا من خصائصه تشى بالعلاقات الحميمة التى تربط بين التاريخ والأنثروبولوجيا – لاسيما ذلك «الوصف المكثف» الذى يرى كليفورد جيرتز أنه المنظور الصحيح للبحث الأنثروبولوچى [١٢]. وبدلاً من البدء بسلسلة من الملاحظات ومحاولة بناء نظرية واحدة أشبه بالقانون على أساسها ، يبدأ هذا المنظور من مجموعة من الإشارات الدالة محاولاً أن يوائمها داخل بنية يسهل فهمها وإدراكها . ومن ثم يفيدنا الوصف المكثف من حيث أنه يسجل سلسلة من الأحداث أو الحقائق المهمة متناهية الصغر، بيد أنه يمكن تفسيرها إذا ما وضعت داخل سياق ما، أى فى مجرى الخطاب الاجتماعى. هذه المقاربة تنجح فى استخدام التحليل الميكروسكوبى لمعظم الأحداث متناهية الصغر باعتبار تلك وسيلة للوصول إلى أقصى الاستنتاجات.

وحسبما يرى جيرتز ، هذا هو الإجراء الذى تبناه عالم الإثنولوچى الذى تتسم مقاصده بالطموح الشديد والتواضع تمامًا فى آن معًا . الطموح بمعنى أن تكون سلطة عالم الإثنولوجى فى تفسير المادة مطلقة من الناحية العملية وأن معظم التفسير هو جوهر البحث الإثنوجرافى . وتتسم الدراسة الإثنوجرافية بالخيال وتقاس فيها قدرة المؤلفين بمدى أستطاعتهم أن يجعلونا على اتصال بحياة الأجانب وتثبيت الأحداث أو الخطاب الاجتماعى بطريقة تتيح لنا تفحصها بوضوح . وهكذا تصبح سلطة من يقوم بالتفسير سلطة مطلقة ،

سلطة لايمكن قياسها ولايثور الشك بشأن زيفها (١٤). وبطريقة حتمية تصبح العناصر المقدمة عصية على التقييم بطريقة عقلانية، تتراوح ما بين نوع من التقمص الوجدانى البارد ، ومهارة التواصل الأدبى .

ويتفاقم خطر النسبية بدلاً من أن ينخفض إلى الحد الأدنى بفعل المكان الصغير المخصص للنظرية . وبالنسبة لجيرتس من غير المفيد أن نبحث عن قوانين ومفاهيم عامة طالما أن الثقافة مكونة من شبكة من الدلالات التى لا يكون تحليلها علمًا تجريبيًا يتلمس طريقه للوصول إلى قوانين كلية، ولكنه علم تفسيرى يبحث عن المعنى. فما دور النظرية إذن؟ ينكر جيرتس أن المقاربة التفسيرية يجب إن تتخلى عن الصياغات النظرية الصريحة. على أية حال، فإنه يواصل حديثه فى الحال ليقول: « أن المصطلحات التى يمكن بها عرض هذه الصياغات ، تكاد تكون غير موجودة ... فهناك عدد من الخصائص فى التفسير الثقافى يجعل التطور النظرى لها أصعب مما هو عادة» (p. 24). فأولا هل « الحاجة إلى النظرية يجب أن تبقى أقرب للواقع بدلاً من ميلها إلى الحالة التى تتم دراستها فى علوم يمكن أن تستلم للتجريد الخيالى » (p.24) «إن الصياغات النظرية تحلق على ارتفاع منخفض جداً فوق التفسيرات التى تحكمها بحيث لايكون لها الكثير من المعنى أو تستدعى الكثير من الاهتمام بعيداً عنها» (p. 25) وهكذا تكون النظريات مشروعة ، ولكنها ذات فائدة قليلة ؛ «لأن المهمة الجوهرية للنظرية التى تبنى هنا ليس تقنين تنظيمات مجردة ولكن أن تجعل الوصف الكثيف ممكنًا ، لا أن يجرى تعميمها عبر الحالات ولكن تعمم من داخلها » (p. 26) . ثمة شىء يشبه التدخل العلاجى يجرى الآن : إنها ليست مسألة مواءمة الحالات التى تمت ملاحظتها مع قانون موجود وإنما هى العمل انطلاقًا من إشارات دالة– هى فى حالة الإثنولوجى ، أفعال رمزية– تم تنظيمها «داخل إطار يمكن فهمه بسهولة» لكى يتيح تحليل الخطاب الاجتماعى «لكى يُبرز بعد البحث الأهمية غير الظاهرة للأشياء» ، ومن ثم فإنها ليست مسألة توسيع الأدوات النظرية القادرة على توليد التنبؤات ولكنها مسألة تنظيم بناء نظرى «قادر على الاستمرار فى إنتاج تفسيرات يمكن الدفاع عنها عندما تبدو الظواهر الاجتماعية الجديدة واضحة للعيان ... فالأفكار النظرية ليست مخلوقة كليًا من جديد فى كل دراسة ... إنها متبناة ومأخوذة عن دراسة أخرى ذات صلة بالموضوع ، وتم تنقيحها فى العملية وطبقت على مشكلات تفسيرية جديدة . (pp. 26-7)

«إن مهمتنا المزدوجة هى أن نكشف عن بنى المفهوم التى تشير إلى أفعال موضوعنا ، «وإلى ما قيل» فى الخطاب الاجتماعى، وبناء نظام من التحليل يوجد فى مصطلحاته ما هو مشترك مع تلك البنى ، وما ينتمى إليها لأنها على ما هى عليه، سوف يتجلى إزاء عوامل الحسم الأخرى فى السلوك الإنسانى. وفى الإثنوجرافيا ، لأن وظيفة النظرية أن توفر المفردات التى يمكن بها أن يتحدث الفعل الرمزى عن نفسه أى دور الثقافة فى الحياة البشرية أى أن يعبر بها » (pp. 27-8)

وهكذا ، فإن النظرية هى «مخزون لمفاهيم عامة جدا ونظم للمفاهيم تمت صياغتها فى الأوساط الأكاديمية ... وقد نسجت فى جسد الإثنوجرافيا التى تهتم بالوصف المكثف على أمل جعل المزيد من الوقائع ناطقة على المستوى العلمى» . (p.28) ومن ثم فإن المفاهيم أدوات باردة مأخوذة من متا ع العلم الأكاديمى : وهى مفيدة فى التفسير ولكنها مفيدة فقط فى تلك الوظيفة التى تجعلها تصل إلى الحقيقة الواضحة والتحديد الدقيق . ولا تنشأ النظريات من رحم التفسير . إذ إن للنظرية مجرد دور صغير تلعبه بالمقارنة مع الدور الأكبر كثيراً الذى يلعبه المفسّر . إن نظم المفاهيم العامة التى ترتبط باللغة الأكاديمية مركبة داخل الجسد الحى للوصف الكثيف على أمل إعطاء تعبير علمى للأحداث البسيطة ، وليس لكى تخلق مفاهيم جديدة ونظماً نظرية مجردة . وتتمثل الأهمية الوحيدة، إذن ، للنظرية العامة فى كونها جزءاً من بناء رصيد دائم الازدياد من المادة التى وصفت بشكل مكثف ، والذى صار مفهوما بإضفاء المفاهيم عليه، سيكون مفيداً فى توسيع عالم الخطاب الإنسانى .

ويبدو لى أن الأنثروبولوجيا التفسيرية والتاريخ المصغّر يملكان من العناصر المشتركة قدر ما بين التاريخ والانثروبولوجيا عامة من العناصر المشتركة. ومع هذا فإننى أريد هنا أن أوضح اختلافين مهمين ، أحدهما : مستمد من استخدام الانثروبولوجيا الأقوى تقليديا للبحث ذى النطاق الصغير المكثف ، والثانى : مستمد من جانب سوف أحاول أن أشرحه فيما يلى، وقد أعرّفه بأنه نوع من القصور الذاتى الموجود فى فكر جيرتس . هذان الاختلافان مهمان فى ممارسة العقلانية الإنسانية ومشروعية بناء تعميمات فى العلوم الاجتماعية.

ودعنا أولا نفحص الطريقة المختلفة التى يتم بها النظر إلى العقلانية . وبما أن الأنثروبولوجيا تنكر إمكانية التحليل المحدد للعمليات المعرفية، فإنها تفترض أن العقلانية فرض علمى، أى أنها بمثابة شىء يستعصى على الوصف خارج الفعل البشرى أو خارج السلوك البشرى، أو ينظر إليه باعتباره فعلاً رمزيًا ذا معنى أو خارج نطاق التفسير ، وحتى هذه

النقطة قد نوافق على أقوال جيرتز . وعلى أية حال، يستخرج جيرتز من هذه الاعتبارات استنتاجات متطرفة . والشيء الوحيد الذي يمكننا عمله هو أن نحاول أولاً أن نستوعب ثم نوضح عن طريق الوصف المكثف ، المعاني المحتملة للأفعال . ولا يعتقد أتباع هذه المقاربة أن من الضروري أن يتساءلوا عن أوجه القصور والإمكانيات والقدرة على قياس العقلانية نفسها . وأي جوانب قصور كامنة مثل هذه أو حدود، يفترض ، أن تكون قد حُددت بفعل المباراة التي لا تنتهي بين التفسيرات عديمة القيمة في جوهرها ، والتي تتراوح بين المثالية والنسبية بدلاً من أن يتم تقديرها حسب معيار مفهوم محدد للعقلانية الإنسانية.

ويمكن للمرء أن يمضي أبعد من هذا ليقرر أنه تم الكشف عن مفهوم جيرتز بواسطة خصائص معينة استمدها من هيدجر Heidegger (١٥)، لاسيما رفض إمكانية التوضيح الكلي ، ومحاولة بناء موقف تأويلي للاستماع : والاستماع : أي الاستماع إلى لغة شعرية، وبعبارة أخرى اللغة الواقعة في قبضة جهد يسعى لتشكيل معان جديدة(١٦). والحقيقة – حسبما يقول جيرتز – أن الإنسان لايمكن أن يصوغ نظما عقلية بدون اللجوء إلى الاسترشاد بنماذج رمزية عامة من العاطفة ، بحيث تكون هذه النماذج العناصر الجوهرية التي يجعل للعالم معنى بها . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه النماذج الرمزية لايمكن أن توجد في كل الكلام البشري ؛ لأن الكلام قد تدنى عادة ليصير مجرد وسيلة للتواصل . وجيرتز ، مثل هيدجر ، يجد هذه النماذج الرمزية في لغة الشعر الجوهرية، التي تمثل التعبير الأرقى عن خبرة الإنسانية بالحقيقة . ويشير جيرتز بشكل محدد إلى لغة الأسطورة ، والطقوس والفن : «لكي نحسم أمرنا يجب أن نعرف كيف نشعر تجاه الأشياء ؛ وأن نعرف كيف نشعر إزاء الأشياء ونحتاج الصور العامة للعاطفة التي يمكن للطقوس والأسطورة والفن فقط أن تمدنا بها » (١٧). أما موقف جيرتز الواضح الجلي ، فهو أن الرصيد اللامتناهي من الاحتمالات الرمزية للعقل البشري يتيح لنا أن نقارب الحقيقة فقط بسلسلة لامتناهية من الخطوات الصغيرة، دون أن نصل إليها على أية حال. ويتسق هذا مع نظرية هيدجر المضادة للفلسفة الهيجلية بأن الموضوع العارف لايجب أن يلغي وجود آخرين في داخله ، ولكن الصحيح أن الوظيفة الصحيحة للفكر باعتباره «مصنفا تأويليًا» هي السماح للناس الآخرين أن يبقوا آخرين . وأعتقد أن هذه الرابطة الهيدجرية جوهرية في فهم كل من القوة والفطنة التي تتسم بها التفسيرات ولفهم الضعف النسبي لتفسيرات العالم في الأنثروبولوچيا التفسيرية التي يدعو لها جيرتز . وبهذه الطريقة يعمل جيرتز على تجنب موضوع العقلانية وجوانب القصور فيه ؛

وجوانب القصور هذه محددة بما هو أكثر من الوصول إلى المعلومات بطريقة تفاضلية بسيطة. والفرق هو ذلك الذى يقع بين «الفكر الحقيقى» والفكر المحكوم بمبدأ «السبب الكافى» . وبالنظر إلى هذا سيبدو بالضرورة أن علماء الإثنولوچى قد يقنعون بإيقاف بحثهم عند مستوى توصيف المعنى.

ومن الواضح أنه يجب قبول ، من وجهة نظر بيولوچية ، لدى الرجال جميعاً عقول متساوية مادياً، ولكن ذلك العقل يعتمد تماما على الموارد الثقافية لكى يؤدى وظيفته . هذا التركيز على الثقافة يسمح بتجنب أية نظرية عن تفوق الإنسان المتحضر على الإنسان البدائى. كما أنه يتجنب اعتبار فكرة أن الثقافة تكون عند نقاط معينة منظمة فى مراحل تطورية . والثقافة ، التى تعرّف بأنها القدرة على الفكر الرمزى ، إنما هى جزء من طبيعة الإنسان نفسها . فالثقافة ليست مكملة ، بل إنها مكون داخلى أصيل، فى الفكر الإنسانى. ومع هذا ، وعلى حد تعبير جيرتز ، فإن مشكلة تجنب النسبية الثقافية «المطلقة»- بحيث يمكن عقد المقارنة بين الثقافات- لايمكن حلها بل لا يجب حتى تناولها . وهو يحصر نفسه فى نطاق تعريف وظيفة الفعل بأنه «البحث عن المعلومات» : وهو توسع عاطفى يستخدم المواد المشتركة بين أبناء ثقافة محددة. «باختصار ، يعتمد الذكاء البشرى، بالمعنى المحدد للتعقل التوجيهى ، على تحرير أنواع معينة من الموارد الثقافية بطريقة تنتج (تكتشف، تختار) المنبهات البيئية- أيا كانت المقاصد - التى يحتاجها الكائن الحى؛ إنه بحث عن البشرية يحتاج إلى محفزات عقلية وفعالة، ولكن فى الوقت نفسه ، هذه المحفزّات نفسها تتطلب سيطرة ثقافية مستمرة تضعها فى نظام مفهوم له مغزى. ومن ثم فإنها ليست فقط تجميع معلومات ولكنها تنطوى على التنظيم العاطفى لها . هذه العملية، على أية حال، ليست عملية خاصة لأن معنى الرموز يكمن فى حقيقة أنها مشتركة، وبالتالى يمكن التواصل بها فيما بين أعضاء مجموعة صغيرة أو كبيرة: وفى البداية يكون الفكر منظماً بحسب البنى الرمزية العامة الموجودة، وبعد ذلك تصبح عملية خاصة بالفعل فقط. ولكن جيرتز لايمكنه أن يذهب أبعد من هذه الاعتبارات طالما أن البحث فى العقل بشكل محدد لابد أن يجلب الدلائل والمضامين التى تهدد بترتيب الثقافات ترتيبا هيراركيا .

ويدافع جيرتز عن الدور الذى تلعبه النسبية الثقافية فى تدمير المركزية الإثنية- وهذا فقط ما يمكن أن نوافق عليه . وعلى أية حال ، فإنه يتمادى فى الربط بين النسبية الثقافية والنسبية الخالصة ، ويرى جميع أشكال معاداة النسبية على أنها اتجاه خطير يتمثل فى أن ترى بعض

الثقافات باعتبارها تتفوق هيراركيا على غيرها . وفى مقالة كاشفة سنة ١٩٨٤م(١٨) بعنوان "Anti Anti-Relativism" يعرِّف كافة أشكال معاداة النسبية بأنها ذلك «الوضع الذى يكون فيه التنوع الثقافى، عبر المكان وعلى مدى الزمان، مهمًا بالنسبة لسلسلة من التعبيرات ... عن حقيقة راسخة وكامنة، هى الطبيعة الجوهرية للإنسان». ويرى جيرتز فى هذه الرؤية من التنوع السطحى الذى يغطى على التناغم العميق الكامن وذلك بالاعتماد على نظريات عن العقل البشرى والطبيعة الإنسانية، وهى التى يرفضها لأنها تقود حتما إلى إعادة تأسيس المفاهيم الخاطئة عن «الفكر البدائى» و«الانحراف الاجتماعى» ، وبعبارة أخرى تقود إلى افتراض هيراركية فى المعتقدات وأشكال من السلوك مرتبة حسب مستويات مختلفة من العقلانية. وهكذا فإن الزعم العقلانى الجديد بأن من الممكن تحديد ثوابت رسمية (أى كليات معرفية)، وثوابت تنموية (مراحل معرفية) وثوابت عملية (عمليات معرفية) ، أيا كان شكله، لا يؤدى سوى إلى الحط من قوة المفاهيم التى تؤكد بحق على التنوع الثقافى والغيرية . «سيكون من دواعى الأسى الشديد إذا ما حدث الآن أن المسافة التى وضعناها، والمكان الآخر الذى حددنا موضعه ، بدأ يتمرد ، ليغير إحساسنا بالإحساس وإدراكنا للإدراك بحيث ينبغى علينا أن نرتد على أعقابنا إلى الأغنيات القديمة» (p. 276) . إن جيرتز يعلن أنه ليس من أنصار النسبية ، ولكنه بالأحرى معاد لمعاداة النسبية بمعنى أننا فى مرحلة، ربما تكون انتقالية لايمكن فيها سوى الوصف المكثف وتكبير رصيد المعانى .

وعلى أية حال، لايبدو لى أن هذا النزول بكل جدل عقلانى إلى مجرد إحياء محتمل للمفاهيم الهيراركية للثقافة يمكن أن يصمد أمام النقد ؛ وفى الحقيقة أنه من الصعب أن نعتبر كلاً من جلنر Gellner ، وليفى ستراوس Levi- Straus ونيدهام Needham ، ووينش Winch ، وهورتون Horton وسبربر Sperber، الذين يشير إليهم جيرتز جميعًا بمثابة مروجين للترتيب الهيراركى للثقافات . لماذا يجب أن تؤدى العمليات المعرفية أو الكليات المعرفية فقط إلى استنتاج يركز على الإثنية ؟ ولماذا يجب أن يبرهن وصف ما للعمليات العقلانية فى مصطلحات رسمية، أو مفهوم عن جوانب القصور ، على أنها عقبات تحول دون القيام بوصف غير هيراركى للثقافة ؟ ولماذا يجب أن ينطوى التشكيل والتعميم الذى يسمح بإمكانية المقارنة بين الثقافات ، بالضرورة ، على تدمير الآخر؟ من الطبيعى أن الخطر موجود، ولكن هل الحل حقًا أن نقبل تهديد النسبية اللاعقلانى الذى يشملنا باعتباره ثمنا للهروب من التركيز على الإثنية؟ إننى أعتقد، بدلاً من ذلك، أن تعريف العمليات المعرفية الموحدة نفسه هو

الذى يساعد المرء على قبول النسبية الثقافية على حين أن رفض النسبية المطلقة من جانب أولئك الذين يحدون من إمكانية معرفتنا للحقيقة، وما ينتج عن هذا يوقعنا فى مزالق لعبة مجانية بلا نهاية من تفسير التفسيرات.

ويبدو لى أن أحد الفروق الأساسية فى المنظور بين التاريخ المصغّر والانثروبولوجيا التفسيرية يتمثل فى أن الأخيرة ترى ثمة معنى متجانسًا فى العلامات العامة والرموز العامة على حين يسعى التاريخ إلى تعريفها وقياسها بالإشارة إلى تعدد الصور التى تنتجها . وهكذا فإن المشكلة ليست ببساطة مشكلة من مشكلات وظيفة العقل. فهناك أيضا خطر فقدان رؤية الطبيعة المختلفة اجتماعيًا للمعانى الرمزية ومن ثم الغفلة عن رؤية خاصيتها الغامضة جزئيا . وهذا يؤدى أيضا إلى مشكلة تحديد الأشكال المختلفة من أداء العقلانية البشرية داخل سياق مواقف محددة. وكم المعلومات الضرورية لتنظيم ثقافة ما وتحديدها ، وكم المعلومات اللازمة للفعل ، يمكن أن يتبادلا تاريخيًا كما يمكن أن يتنوعا اجتماعيا. هذه ، إذن المشكلة التى يجب مواجهتها بما أن الإطار الذى توجد فيها البنى الرمزية العامة عبارة عن تجريد . لأنه فى سياق الظروف الاجتماعية المختلفة تنتج هذه البنى الرمزية تعددًا تفتيتيًا متنوعًا من الصور ؛ وهذه هى التى يجب أن تكون هدف دراستنا .

وربما يكون كم المعلومات المتاحة والفرص المتوافرة للملاحظة الإمبريقية أكثر اتساعًا وأكثر تعقيداً فى المجتمعات المعاصرة منها فى المجتمعات البسيطة أو فى مجتمعات الماضى. ومع هذا، فإن المشكلة الرئيسية هى دائما المشكلة التى أوضحها فوكو بشكل غير عادى[١٩]: « مشكلة الاختيار بين عدد من المعانى الممكنة البديلة التى يجب أن يفرضها نظام مسيطر من التصنيف ؛ ناهيك عن اختيار المعلومات التى قد نسميها ذاتية الحماية، والتى تتيح لنا أن نضفى المعنى على العالم وأن نعمل بفعالية . أن كم ونوعية مثل هذه المعلومات ليست، على أية حال، موحدة اجتماعيًا ومن ثم فهى ضرورية لدراسة تعدد أشكال العقلانية المحدودة التى تعمل فى حقيقة بعينها تحت الملاحظة . هذه التعددية توجد نتيجة لآليات حمائية ، ضمن أشياء أخرى، انتشرت فى وجه المعلومات المفرطة ، آليات تساعد على الهروب من كمية المعلومات المحضة لكى يمكن اتخاذ هذا القرار . ويفكر المرء ، مثلاً ، فى عمليات تبسيط السببية، أو فى استخدام الشعارات المبسَّطة فى الخيارات السياسية ، أو فى النظم التى تتناول العلل والأسباب المرضية المستخدمة فى الطب الشعبى ، أو أساليب الإقناع المستخدمة فى صناعة الإعلان.

ويبدو لى، بالتالى ، أنه لايكفى أن نوجه مناقشة عامة عن الوظيفية الرمزية على أساس من تعريف جيرتز للثقافة باعتبارها بحثا بلا نهاية عن المعلومات . وأعتقد أن من الضرورى محاولة قياس وتشكيل آليات العقلانية المحددة- عقلانية محددة يختلف موضع حدودها تبعا لاختلاف أشكال الوصول إلى المعلومات- لكى تتيح فيهما فرصة الظهور للفروق الكائنة داخل ثقافات الأفراد والجماعات والمجتمعات فى مختلف الأزمنة والأماكن. إن الخاصية المضللة لنظام جيرتز المهم مع نقصه تتجاهل هذا الهدف .

ويتمثل الدليل على هذا النقص فى وفرة النسبية فى السِّير الذاتية التى ظهرت على المشهد العلمى فى السنوات القريبة تحت غطاء الأنثروبولوچيا التفسيرية (ويبدو لى أن كتاب رابينو Rabinow الذى يحمل عنوان :

«تأملات فى العمل الميدانى بالمغرب» Reflections on Fieldwork in Maroc

مثالاً رائداً على هذا)[٢٠]. وهناك مزيد من الأدلة على حقيقة أن مخزون الأوصاف المكثفة ليس له هدف مقارن ، ولكنه يبقى ببساطة مخزونًا نلتقط منه حالات للتوضيح بحسب قواعد غير محددة. وبالتالى، فإن التفسير بقى فى الغالب مفتوحًا، لا يمكن التكهن به، ومحدوداً . وثمة أمثلة معينة على عدم إمكانية التكهن هذه تظهر فى أفكار جيرتز أكثر مما تظهر فى جيرتز نفسه. وهناك مثال كلاسيكى [٢١]، على هذا حسبما يتراءى لى هو كتاب روبرت دارنتون The Great cat Massacre.

وثمة جانب ثان ذكرناه بالفعل يغنى عن أية محاولة لبناء نماذج وإقرار القواعد الرسمية لألعاب التفسير والتواصل . ويخلص جيرتز إلى اقتراح استخدام اختبارى للتصورات الأكاديمية العامة لمجرد إعادة الحيوية إلى المفاهيم الموجودة فى الأمثلة الواضحة للأوصاف المكثفة . وبهذه الطريقة يتم تضفير مخزون المفاهيم فى مخزون الأحداث التى تم تفسيرها على أمل أن تعمل سوياً بحيث يمكن جعل الأحداث البسيطة فصيحة ، ويمكن من الناحية الأخرى الخروج باستنتاجات بعيدة المدى من غمار كثافة الحقائق البسيطة . وغالبا ما ينتج عن هذا المنهج تاريخ ثقافى بدون تحليل اجتماعى، أو تحليل اجتماعى نمطى للغاية مستمد من تاريخ ثقافى تمت دراسته بصورة مكثفة . ويتم فحص الأفعال بعمق ولكن دونما إعادة بناء تصورات مركبة وشكلية للآليات الاجتماعية المتضمنة ومن ثم يتوقف التحليل قبل بلوغ غايته، كما لو كان خائفًا ، عند أعتاب التاريخ الاجتماعى. وعلى سبيل المثال، تبدو الكاريزما ورمزية السلطة فى احتفال التتويج وكأنها تتحدث اللغة نفسها إلى الجميع داخل مجتمع متآلف اجتماعياً [٢٢]. أو

إذا ما أخذنا مثالاً ثانيًا ، يقدم صراع الديوك على أنه يحمل أهمية كلية واحدة للمجتمع بأسره على الرغم من أن أشكال الرهان متنوعة اجتماعيًا (٢٣).

والتاريخ المصغر ، من ناحية أخرى، لم يرفض النظر فى التفرقة الاجتماعية بالطريقة نفسها التى رفضتها الانثروبولوجيا التفسيرية ، ولكنه يرى أن من الأمور الأساسية أن تكون لها قراءة جوهرية قدر الإمكان للأفعال، والسلوك، والبنى الاجتماعية ، والأدوار والعلاقات. وبعبارة أخرى، فإنه على الرغم من أن العادات واستخدام الرموز تتسم دائما بأنها متعددة المعانى، فإنها تتخذ مضامين أكثر دقة من عمليات التفرقة الاجتماعية المتحركة والفعّالة . إذ إن الأفراد يخلقون هوياتهم بصورة مستمرة ، كما أن المجموعات تعرف نفسها وفقًا لحالات الصراع وحالات التضامن التى لايمكن ، بأية حال ، اتخاذها سلفًا ولكنها تنتج عن الطاقات الحيوية التى هى هدف التحليل.

وأود الآن أن ألقى نظرة على خاصية أخرى مشتركة فى عمل مؤرخى التاريخ المصغر ، وهى مشكلة الاتصال أو التواصل مع القارئ مشكلة السرد. فيجب عدم رؤية إحياء السرد فى مصطلحات الاختيار بين التاريخ الفردى الفرعى والتاريخ الكمى الذى يطمح إلى تأسيس القوانين ، والانتقام والسلوك الجمعى. فقد تناول التاريخ الذى يدرس موضوعا خاصًا مشكلات الاتصال وكان واعيًا تمامًا إلى أن البحث التاريخى لايكتفى بالتوافق مع تواصل النتائج فى كتاب ما . وكانت هذه نقطة مركزية تم تجاهلها فى مقالة ستون الشهيرة(٢٤). وعلى العموم فإن مشكلات البرهان والعرض فى التاريخ بواسطة حصر الأمثلة الواضحة ترتبط ارتباطا وثيقًا مع أساليب التقديم والعرض. وليست هذه مجرد مشكلة بلاغة وفصاحة ، لأن المعنى الذى يحمله العمل التاريخى لايمكن النزول به إلى مجرد البلاغة ، ولكنها على وجه التحديد مشكلة التواصل مع القارئ، الذى لايكون أبدا لوحًا أملسًا tabula rasa، ومن ثم فهو يثير دائمًا مشكلة التلقى(٢٥). ويبدو لى أن الوظيفة الخاصة للسرد يمكن تلخيصها فى سمتين، أولاهما : هى محاولة عرض، بواسطة تقرير يتضمن الحقائق الصلبة ، الوظيفة الحقيقية لبعض جوانب المجتمع ، والتى سوف يتم التشويش عليها من جراء التعميم والتشكيل الكمى المستخدم فيها، لأن هذه العمليات سوف تؤكد بطريقة وظيفية دور نظم القواعد وعمليات آلية التغير الاجتماعى . وبعبارة أخرى، تتضح علاقة ما بين النظم المعيارية وحرية الفعل التى خلقتها للأفراد تلك الفضاءات الدائمة والاختلافات الداخلية التى هى جزء من أى نظام للنماذج القياسية والنظم المعيارية. والسمة الثانية : هى تلك المتمثلة فى إدخال إجراءات البحث

نفسها وجوانب القصور فى عملية التوثيق، وأساليب الإقناع ، والبنى التفسيرية، فى الجسد الرئيسى للسرد. ومن الواضح أن هذا المنهج يفترق عن الشكل الشمولى، التأكيدى التقليدى للخطاب الذى يتبناه المؤرخون الذين يقدمون الحقيقة باعتبارها حقيقة موضوعية. أما فى التاريخ المصغر ، وعلى النقيض من هذا ، فإن وجهة نظر الباحث تصبح جزءا من الرواية. وعملية البحث توصف بشكل واضح ، كما أن قصور الدليل الوثائقى ومحدوديته، وصياغة الفروض وخطوط الفكر المتبعة لم تعد مخبوءة بعيداً عن عيون من لايعملون فى المهنة. فالقارئ متورط فى نوع من الحوار ، ويشارك فى العملية كلها لبناء جدل تاريخى. (وثمة مثال منير على هذه العملية فى كتاب جينزبورج وبروسبيرى) (٢٦). وقد تبنى هنرى چيمس مقاربة مماثلة فى قصته التى تحمل عنوان In The Cage(٢٧) التى تفيدنا بوصفها تعبيراً مجازياً غير عادى عن عمل المؤرخ . ففى القصة يصف چيمس عملية تفسير الحقيقة الكاملة التى بنتها عاملة تلجراف فى مكان عملها المحدود بإحدى ضواحى لندن . ومادتها الخام من التوثيق الهزيل ، المفتت والباطل الذى توفره نصوص البرقيات اليومية المتبادلة بين عملائها الأرستقراطيين. وقصة هذه العملية الواضحة لإضفاء معنى على العالم تعبير مجازى عن عمل المؤرخ ، ولكنها أيضا تقدم مثالاً على الدور الذى يمكن للسرد أن يلعبه فى مثل هذا العمل .

تتناول مقاربة التاريخ المصغر مشكلة كيفية التوصل لمعرفة الماضى بواسطة مفاتيح معينة، علامات وأعراض . وهذا إجراء يأخذ ما هو خاص باعتباره نقطة البداية (وهو خاص غالباً ما يكون شديد التحديد وفردياً، وسيكون من المستحيل أن نصفه بأنه حالة نمطية) ويمضى لتحديد معناه فى ضوء سياقه الخاص.

وعلى أية حال ، فإن وضع السياق يمكن أن يعنى عدة أشياء. وأكثر النظريات عن السياق تماسكاً هى النظرية الوظيفية التى ربما يكون أهم جوانبها المميزة هو التركيز على السياق لشرح السلوك الاجتماعى. وبالنسبة للوظيفية فلا تمثل أسباب السلوك داخل النظام المتماسك أهداف التحليل ولكن تطبيع أحد أشكال السلوك هو الذى يشرح ذلك السلوك، ووظائفه وكيفية عمله . والنموذج الذى وضعه دوركهايم يؤكد على الطبيعة المقيدة لبعض مفاهيمنا العامة ؛ ولكن وضع السياق يعتبر عنصراً وظيفيا وإن انحصر فى نطاق بيان التناغم بين أية مؤسسة ، أو أحد أشكال السلوك، أو أحد المفاهيم وبين النظام الذى يعتبر السياق جزءاً منه . وحسبما يشير جلنر (٢٧)، حتى ويتجنشتين كان «تابعاً ومتبوعاً» لدوركهايم فى ذلك لدرجة أنه «افترض أن الفئات تتقوى بكونها أجزاء من شكل ما من أشكال الحياة».

وأود الإشارة إلى أن التاريخ المصغر- فى تناقض مع تأكيد الوظيفية على التماسك الاجتماعى - قد ركز على التناقضات فى النظم المعيارية ومن ثم على التفتت، والتناقضات والتعددية فى الآراء التى تجعل جميع النظم فى حال من السيولة والإنفتاح . وتحدث التغيرات عن طريق الاستراتيجيات الدقيقة اللامتناهية والخيارات التى تعمل داخل ثغرات النظم المعيارية المتضاربة. وهذا بحق نقيض للمنظور العام لأنه يشدد على الأفعال الأكثر صغراً والأكثر محلية للكشف عن الفجوات والفضاءات التى يتركها عدم الاتساق الموجود فى جميع النظم مفتوحة. ولنرجع إلى المثال الذى ورد ذكره من قبل ، فإنه أكثر وظيفية أن نفكر فى معنى مصارعة الديكة فى سياق نظام متماسك للثقافة البالينية بدلاً من تأمل المعانى المتعددة والمفتتة اجتماعيا لصراع الديكة نفسه لتفسير الثقافة البالينية عموما بكل ما فيها من عدم اتساق [٢٩].

والحقيقة ، أننا حتى لو فكرنا فى مخزون الثقافات المحلية التى لاتقارن كل منها بالأخرى والتى يمكن أن نستنبط منها قواعد عامة مجردة بأسلوب اعتباطى خالص، فيمكن أن نخرج من هذه المقاربة بتفسيرات وظيفية جدا إذا ما أخذنا الثقافة المحلية على أنها كل منظم ، متجانس متماسك . وبذلك يمكن أن تكون هناك طريقتان لقراءة السياق الاجتماعى: باعتباره مكانًا يضفى المعنى على ما يبدو «غريبا» فى الظاهر أو «شاذًا» من الأمور الخاصة بالكشف عن مغزاها المخبأ ، وبالتالى تناسبها مع نظام ما ؛ أو ، من ناحية أخرى، باعتباره مسألة اكتشاف السياق الاجتماعى الذى فيه تتخذ حقيقة تبدو ظاهريًا على أنها شاذة أو بلا معنى، عندما يتم الكشف عن مظاهر التفكك الخفية فى نظام اجتماعى يظهر متماسكًا . وتخفيض المقياس عملية تجريبية بسبب هذه الحقيقة على وجه الدقة، لأنها تفترض أن انحراف السياق وتماسكه واضحان وأنها تظهر تلك التناقضات التى لاتظهر سوى عندما يتم تغيير مقياس المرجعية . هذا التوضيح يمكن أيضًا أن يحدث، مصادفة ، حسبما لاحظ چاك ريڤيل بحق Jaques Revel [٣٠]. بواسطة تكبير المقياس، وقد برز اختيار الأبعاد المصغرة نتيجة مباشرة لرجحان كفة التفسيرات السياقية الكبيرة تقليديًا، وبالنظر إليها كان هذا الاتجاه التجريبى الوحيد الذى يمكن اتخاذه.

وهناك مفهوم آخر لوضع السياق هو ذلك الذى يفهم السياق الثقافى على أنه عملية وضع فكرة ما فى مكان واحد داخل حدود تحددها اللغة المتاحة. وأفكر هنا، مثلاً، فى التاريخ الفكرى لأنصار السياق الإنجليز [٣١]. هذه النظرية ترى السياق على أنه إملاء من اللغة

والتعبيرات المتاحة والمستخدمة بواسطة جماعة خاصة من الناس فى وضع مخصوص لينظموا، مثلا ، صراعاتهم من أجل السلطة أو القوة . وهذه المدرسة فى الفكر كان لها تأثير كبير على النظرية الاجتماعية نفسها وبدأت الكثير من المناقشات لدرجة أنه يبدو لى أنه لاضرورة لإعادة عرض المناقشات . وعلى أية حال، فإن وجهة نظر التاريخ المصغر هى - مرة أخرى - مختلفة ؛ لأن الأهمية الأولى تعطى للأنشطة ، وأشكال السلوك والمؤسسات التى توفر الإطار الذى يمكن فيه فهم الأساليب على نحو صحيح ، والتى تسمح بمناقشة لها معنى لتلك المفاهيم والمعتقدات التى قد تبقى بدلاً من ذلك مستغلقة معرفياً على نفسها دونما إشارة كافية إلى المجتمع - حتى ولو كان الخطاب قد أخذ مفهوم الفعل بدلاً من التأمل الفكرى.

وربما يكون لعملية وضع السياق معنى ثالث: وهذا يتألف من الشكل، ومكان الحدث المقارن، أو شكل السلوك أو المفهوم فى سلسلة من الأخريات التى تكون متشابهة على الرغم من أنها قد تكون منفصلة فى الزمان وفى المكان . وعملية وضع السياق هذه تفترض سلفًا أن البنى التى تكونت والواضحة قابلة للمقارنة ، ولكنها لا تهتم فقط بتجميع مواد مفردة تشترك فى جانب أو أكثر، وإنما تهتم أيضا بالتصنيف القائم على أساس التشابهات «غير المباشرة» عن طريق المضاهاة . وهنا يتضمن السياق ليس فقط تحديد مجموعة من الأشياء التى تشترك فى خصائص بعينها ولكن يمكن أيضا أن يعمل على مستوى المضاهاة- أى فى المنطقة التى يكون فيها التماثل التام قائما بين العلاقات التى تربط بين الأشياء ، وليس بين الأشياء نفسها، والتى قد تكون متعددة تمامًا ، والتى يوجد بها التماثل بين نظم من العلاقات تتضمن عناصر مختلفة. وهو تحديد للتماثل العائلى . (وأشير هنا بصفة خاصة إلى وضع نيدهام)(٣٢).

لقد أوضح التاريخ المصغر عدم عصمة السياقات الاجتماعية وعدم تماسكها كما يتم تعريفها تقليديا : انظر على سبيل المثال الانتقادات التى وجهها جريبودى M. Gribaudi فيما يتعلق بتخطيط مجاورات الطبقة العاملة (٣٣). إذْ يوضح جريبودى أن حالات التضامن والتكافل قد لا تكون قائمة بهذا القدر على تماثل الوضع الاجتماعى بقدر ما هى قائمة على تماثل الوضع داخل نظم العلاقات . وهناك مثال آخر هو تحليل الزواج وتحليل تأثيرات صلة الرحم فى إقليم كومو فى القرن السابع عشر (٣٤)، ففى هذا التحليل نجد عملية وضع سياق اجتماعى قوية وتخفيضًا للمقياس أبرز أهمية القواعد المجردة الشكلية للزواج باعتبارها أساس التصنيفات الاجتماعية . وانظر دراسة أجو Ago عن إحدى الضياع الكبرى لترى مثالاً آخر(٣٥).

هذه الملاحظات تثير المزيد من المشكلات التي يجب تأملها في إيجان، أولاً : مشكلة التناقض بين جعل المعرفة فردية وتعميمها - وهو جدل متواتر بين المؤرخين الاجتماعيين . ويكفي أن نتذكر الجدل حول التاريخ النوعي أو التاريخ الكمي للعائلة ، أو في سياق أوسع ، الأزمة التي هزت اعتقادا واسع الانتشار في ستينيات القرن العشرين بإمكانية التحديد الكمي للوقائع الاجتماعية وصياغة قوانين صارمة للسلوك الاجتماعي. وأود أن أركز هنا على جانب واحد فقط يخدم، على الرغم من أنه فريد بحد ذاته ، في توضيح مشكلة مهمة. وأود أن أفحص ما معنى التاريخ الكمي ، أو بالأحرى ، أن أفحص تلك الخصائص المميزة للتقييم الكمي التي كانت متضمنة في مفهوم آليات الحقيقة الاجتماعية.

ويحاول التاريخ المصغر ألاّ يُضحي بمعرفة العناصر الفردية في سبيل التعميم الأوسع، والحقيقة أنه يشدد على حياة الأفراد والأحداث الفردية. ولكن، في الوقت نفسه، يحاول ألا يرفض كل أشكال التجريد بما أن الحقائق الدنيا والحالات الفردية يمكن أن تخدم في الكشف عن المزيد من الظواهر العامة. ففي علم ضعيف يتم فيه استبعاد ذلك الجانب من التجربة الذي يتضمن القدرة على إعادة إنتاج الأسباب ، ما لم تكن التجربة مستحيلة ، تكون أدق الاختلافات مؤشرات دالة على المعنى الذي يمكن أن يتخذ أبعاداً عامة. وقد عرّف إدواردو جريندي Edoardo Grendi هذا المنظور بأنه الاهتمام الذي نوليه «للعادي الاستثنائي»[٣٦]. وبهذا تكون بدائل التضحية بما هو خاص في سبيل ما هو عام أو التركيز فقط على تفرد الخاص وبهذا تكون تمييزا غير مناسب . والمشكلة هي : كيف نوسع مدى المثال الذي يتوقف على معرفة الخاص على حين لايرفض الوصف الرسمي والمعرفة العلمية للخاص نفسه[٣٧]. ومع هذا ، فالمقارنة بين الكمي والنوعي ، والحادث والسلسلة ، والخاص والعام قد أدت إلى رؤية خاطئة لما تكون عليه الأدوات المناسبة للتشكيل . لقد كان التاريخ الاجتماعي يعتبر نفسه تقليدياً قادراً على تطبيق «النماذج الجامدة على التاريخ وأن يستخدم نمطًا كميا من التشكيل لايمكن فيه إضعاف مفهوم السببية بالانتباه إلى الخيارات الشخصية ، والشكوك، والاستراتيجيات الفردية والجماعية التي كانت يعول عليها أن تستدعي منظوراً أقل آلية . ولأن هذا الاتجاه لتعريف التشكيل بأنه صنو العملية الكمية كان سائداً على مدى زمن طويل ، فإن التاريخ تلكأ في المتناقضات خلف العلوم الاجتماعية الأخرى. ويبدو لي أن التاريخ المصغر يتحرك بقدر أكبر من الثبات تجاه الفروع غير الكمية من الرياضيات لكي يؤسس أطروحات أكثر واقعية وأقل آلية، وبهذا يوسّع مجال عدم الحسم دون أن يرفض بالضرورة التوسعات

المشكلة. أما المشكلات مثل التى ترتبط بخطوط شبكات العلاقات، مع القرار فى المواقف غير الأكيدة، مع حساب الإمكانية ومع الألعاب والاستراتيجيات، فقد تم تخطيها جميعاً ، بشكل لا يصدق ، فى الجدل حول ما يسمى التاريخ الكمي. وإذا ما قرر المرء أن يعمل مع صورة أكثر واقعية ، وأشد تركيبا ، وأكثر اختلافاً عن عقلانية الفاعلين الاجتماعيين وإذا ما تأمل المرء الطبيعة المنسوجة داخل الظواهر الاجتماعية أساساً، يصبح من الضرورى فى الحال أن نطور ونستخدم أدوات رسمية جديدة فى التجريد. ويبقى المجال مفتوحاً على اتساعه أمام المؤرخين لكى يستكشفوا .

هذه ، إذن ، الأسئلة والمواقف المشتركة التى تميّز التاريخ المصغر : تخفيض المقياس، والجدل حول العقلانية ، والمفتاح الصغير باعتباره المثال العلمى الذى يقاس عليه، ودور الخاص (وهو لايعارض الاجتماعى على أية حال) ، الاهتمام بالتلقى والسرد ، والتعريف المحدد للسياق ، ورفض النسبية . وتتشابه هذه الخصائص من عدة جوانب مع تلك التى حددها چاك ريڤيل فى مقالة حديثة عن التاريخ المصغر ربما تكون أكثر المحاولات تماسكاً حتى اليوم لتفسير هذا العمل التجريبى (٣٨). كما أن ريڤيل يُعرّف التاريخ المصغر بأنه محاولة لدراسة الاجتماعى، لابوصفه موضوعاً أسبغت عليه خصائص لازمة، وإنما باعتباره مجموعة من العلاقات المتبادلة المتغيرة والموجودة فيما بين التشكيلات التى تتعدل بشكل مستمر . ويرى التاريخ المصغر على أنه رد على القصور البادى فى تفسيرات التاريخ الاجتماعى التى تبرز المؤشرات بالغة البساطة فى أثناء سعيها نحو الاتساق . لقد حاول التاريخ المصغر بناء مفاهيم أكثر سيولة، وبناء تصنيف أقل انحيازاً لما يشكلّ الاجتماعى والثقافى، وبناء إطار للتحليل يرفض عمليات التبسيط، والفروض الثنائية ، وعمليات الاستقطاب ، والأنماط الجامدة، والبحث عن الخصائص النمطية «لماذا نجعل الأشياء بسيطة على حين يمكن للمرء أن يجعلها معقدة؟» (p. xxiv) هو الشعار الذى يقترحه ريڤيل للتاريخ المصغر . وهو يعنى بهذا أن المشكلة الحقيقية بالنسبة للمؤرخين هى أن ينجحوا فى التعبير عن الطبيعة المركبة للحقيقة، حتى وإن انطوى هذا على استخدام أساليب وصفية وأشكال للسببية تكون أكثر ذاتية التساؤل فى جوهرها وأقل تأكيداً مما كانت عليه من قبل . والمشكلة أيضا هى مشكلة اختيار المناطق المهمة للفحص والدراسة: فكرة رؤية موضوعات التاريخ التقليدى فى أحد متغيراتها المحلية مشابهة لفكرة القراءة بين السطور فى وثيقة معينة، أو بين شخوص رسم ما لكى يميز المعانى التى راوغت التفسير واستعصت عليه من قبل ؛ أو الأهمية الحقيقية لذلك الذى بدا من قبل على

أنه برز فقط إما بفعل الظروف أو بفعل الضرورة؛ أو الدور النشط للفرد الذى كان يبدو من قبل سلبيا أو غير مبال .

وبالإشارة إلى تعريف ريڤيل ، حاولت أن أبين بقدر أكبر من الوضوح الدفعة المعادية للنسبية فى التاريخ المصغر والتطلعات تجاه التشكيل الذى يميّز ، فى رأيى يجب أن يميز ، عمل الذين يشتغلون بالتاريخ المصغر . وهذا مهم لأن المفاهيم التى نستخدمها فى التاريخ وفى العلوم الاجتماعية غالبا ما تكون غير دقيقة وتستخدم بطريقة مجازية . ومفهوم التشكيل نفسه، مثل معادلة إلياس البديهية، يبدو لى نمطيًا بمعنى أنه يعبر بقوة وإن بقى مفهومًا مضللاً ولايتحرك تجاه شئ أعتقد أن من الممكن التعبير عنه بمزيد من المصطلحات الشكلية ، حسبما حاولت أن أوضح فى هذه المقالة.

ولست أعرف ما إذا كان هذا العرض للتاريخ المصغر يمكن الاعتماد عليه . فقد أردت أن أقدم فى مصطلحات متمايزة بقوة نسبياً مجموعة من الناس الذين كانوا فى الحقيقة مشتبكين فى كثير من المجادلات المتنوعة داخل مدرسة التاريخ الاجتماعى الإيطالية فى السبعينيات والستينيات من القرن العشرين . وربما كان علىّ أن أشرح بشكل أوفى الآراء المختلفة المتنوعة الواردة فى هذه المجادلات والإشارات إلى الجدل التاريخى الذى تجاوز الإطار الايطالى كثيراً . ويجب علىّ ، بالتالى، أن أوضح الأمور بأن أخبر القارئ أن المبادئ التى توجهنى مبادئ شخصية بدرجة كبيرة ؛ وهذه صورة رسمتها لنفسى أكثر منها صورة مجموعة . ولم يكن بوسعى أن أفعل غير ذلك ومن ثم أحذر القارئ من أن هذه هى الحال.

خلاصة التاريخ المصغر

إن التاريخ المصغر الذى تمت مناقشته هنا- بواسطة واحد من أبرز الذين يعرضونه -- استمر فى الازدهار، بمعنى أن هناك المزيد والمزيد من الدراسات من هذا النوع قد تم نشرها بعدد من اللغات .

ففى السنوات العشر الأخيرة، شملت المساهمة الإيطالية أوزوالد راجيو Osvaldo Raggio بكتابه Faide e Parentele (١٩٩٠م) وهو دراسة عن الدولة الجنوية من وجهة نظر قرية فونتانا بونا Fontanabuona أما الإسهامات الفرنسية فتمثلت فى كتاب The Village of the Cannibals (1990) الذى كتبه آلان كوربان Alain Carpin ، وكتاب بينوا جارنو Bénoit Garnot بعنوان : "Un crime conjugal au 18 e siecle" وهى قصة اغتيال

(١٩٩٣م) ؛ والإسهامات الأمريكية تتمثل فى كتاب داڤيد سابيان David Sabean بعنوان :
Property , Production and Family in Neckarhausen 1700-1870 .

والمنشور سنة ١٩٩٥م ، وكتاب كريج هارلاين Craig Harline بعنوان :

The Burdens of Sister Margaret (1994) ؛ وكتاب مرجريت كنج بعنوان :
The Death of the Child Valerio Marcello (1994) .

كما تتمثل الإسهامات الإسبانية فى Contra Riquelmes (الذى نشر سنة ١٩٩٢م) من تأليف خايم كونتريراس Jaime Contreras ؛ والإسهامات الألمانية بكتاب فولفجانج بهرينجر Wolfgang Behringer وعنوانه :
Shaman of Oberstdorf (سنة ١٩٩٤) وكتاب هانز ميديك Hans Medick بعنوان :

Weben und Überleben in Laichingen 1650-1900.

(وقد صدر سنة ١٩٩٦) وربما يكون أهم هذه الكتب جميعا .

وإن نظرة على هذه القائمة، التى سيكون من السهل أن تمتد وتطول ، تكشف بالفعل أن دراسات القرية تظل بؤره أساسية تجذب الاهتمام ، كما فى حالات فونتانابونا، ليخنجتن ونيكار هاوزن التى أوردناها فى السطور السابقة، أو فى كتاب المؤرخ الهولندى ثيو ڤان دورسن Theo van Deurson عن جرافت فى القرن السابع عشر (١٩٩٤) كما أن الدراسات عن الأفراد المنسيين شائعة أيضا، وهى لاتتضمن فقط الطفل ڤالريو مارسيللو ولكنها تضم أيضا كونراد ستويكهلين Conrad Stoeckhlin ، الذى رأى الأشباح ؛ يوهان هييرب Johan Hjerpe الشخصية الرئيسية فى دراسة أرنى ياريك Arne Jarrick عن التنوير فى ستوكهلم (١٩٩٢م) [٣٩]؛ وايڤرت ويللمسزون Evert Willamszoon ، وهو صبى مراهق احتفظ بصحيفة ، وعلى أساسها كتب كتب ويللم فريهوف Willem Frijholf كتابًا من حوالى سبعمائة صفحة (١٩٩٥م) والجارية التى صارت شخصا معبوداً فى البرازيل فى القرن الثامن عشر، روزا ايجيبشياكا Rosa Egipiciaca والتى درستها لويس موت Luis Mott (١٩٩٣) . وهناك دراسات عن أديرة الراهبات (قام بها كريج هارلاين وبينوا جارنو) ودراسات عن العائلات (قام بها خايم كونتريراس) .

ومن المذهب أن فيض دراسات التاريخ المصغر يثير السؤال عما إذا كان قانون العوائد الفكرية المتناقصة لم يعمل. إذ إن Montaillou (١٩٧٥م) وThe Cheese and the Worms

(١٩٧٦م) كانا بمثابة تفتيح العيون . أما كتاب چيوڤانى ليڤى Inheriting Power (١٩٨٥م) فقد تحرك فى اتجاه جديد . ولكن الآن، بعد مضى أكثر من ربع قرن بعد الرواد، هل آن الأوان للتوقف ؟ من المؤكد أن الإجابة عن هذا السؤال هى أن «الأمر يتوقف» على ما إذا كانت دراسات التاريخ المصغر تتم من أجلها هى ، أو لأن البعض قد اكتشفوا أن ثمة قصة «اهتمام إنسانى» جيدة فى السجلات، أو ما إذا كان هذا النوع من الدراسة يستخدم بوصفه منهجًا لحل المشكلات التاريخية، كما هو الحال فى التاريخ الشفاهى . وهناك مشكلتان تاريخيتان كبيرتان بصفة خاصة تم توضيحهما بأساليب التاريخ المصغر .

أولاهما :مشكلة الشرح التاريخى، وبفضل إمكانية رؤية الأحداث تحت المجهر التاريخى ، بدلاً من العين المجردة ، تبدو الأحداث وكأنها تحدث لأسباب مختلفة . وكما ناقشها فى الصفحات السابقات چيوڤانى ليڤى ، ثم تناول المشكلة فى مجلد من عدة مقالات حرره چاك ريڤيل بعنوان : Jeux d'échelles (١٩٩٦م) يناقش حالة الدراسات المصغرة (سواء كانت تاريخية أو اجتماعية) باعتبارها «استراتيجية معرفة تظل قريبة من التجربة الإنسانية.

وثمة نوع آخر من المشكلة التفسيرية يثيرها كونتريراس فى دراسته التى سبق ذكرها Sotos contra Riquelmes . فالمؤرخ يفسر المحاكمة بتهمة الهرطقة للأرملة ماجدالينا لوبيز من بلدة لوركا باعتبارها علامة على الصراع بين المجموعات الاجتماعية والعائلات السائدة فى الإقليم. وقد يكون على صواب ، ولكن هل هذه كل القصة ؟ وعندما قرأت هذه الرواية عن إسبانيا تذكرت الجدل الذى دار حول الشئون السياسية فى القرن الثامن عشر والذى نشب فى انجلترا منذ جيل أو جيلين . فقد انتقد سير لويس ناميير Sir Lewis Namier التفسير السائد للتاريخ السياسى الإنجليزى، لاسيما التاريخ السياسى فى القرن الثامن عشر بمصطلحات صراع الأحزاب ببرامجها ودلّل على أهمية المصالح المحلية (وقد واجه النقد بدوره لأنه قلل من مثل المصلحة الخاصة) . ومن المؤكد أنها لم تكن مصادفة أن الدليل على تفسيره جاء من دراسات العائلات من النوع الذى لابد وأن يوصف الآن بأنه «تاريخى مصغر».

وبالأسلوب نفسه ، ركزت دراسة عن الشئون السياسية فى ليسستر شاير فيما بين ١٥٥٠م وسنة ١٨٨٥م على المنافسة بين العائلات ، وقدمت حركة الإصلاح الدينى والحرب الأهلية والمعارك بين الهويج * والتورى **، والليبراليين والمحافظين باعتبارها أقنعة كثيرة

---

* حزب بريطانى إصلاحى، عرف فيما بعد باسم حزل الأحرار . (المترجم)

** كان هو الحزب المناوئ لحزب الهويج . (المترجم)

للصراع الحقيقى، أى صراع آل هاستنجز ضد جراى أو مانرز ضد جراى بحسب الفترة الزمينة (٤٠). وتحت المجهر يظهر البشر أكثر حرية من المعتاد، حسبما يجادل ليفى ، ولكنهم يبدون أيضا أقل مثالية . ومن مظاهر التناقض أن استخدام المجهر يبدو مشجعًا على حالات «التخفيض» فى الشرح من النوع المرتبط بناميير.

وربما يكون الأمر أن المؤرخين مثل الأطباء سيكون عليهم أن يتعلموا أن يعيشوا مع مفاهيم بديلة وغير متوافقة بشكل واضح ، جزئيات مؤرخى التاريخ المصغر متعايشة مع الموجات العاتية لدى مؤرخى التاريخ الكبير. وكل ما نفتقر إليه هو معادل تاريخى لنييل بوهر Niel Bohr لتحويل الكمال إلى فضيلة . وسواء سيحدث هذا أم لا ، فيجب علينا على الأقل أن نسأل أنفسنا ، مثلما يفعل بعض المؤرخين وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ، فيما إذا كان يمكن أم لا أن نربط الاجتماعى الصغير بالاجتماعى الكبير، والتجارب بالبنى ، والعلاقات المباشرة بالنظام الاجتماعى الصغير بالاجتماعى الكبير، والتجارب بالبنى ، والعلاقات المباشرة بالنظام الاجتماعى أو ربط المحلى بالعالمى . وإذا لم تؤخذ هذه الأسئلة بجدية ، فإن التاريخ المصغر قد يصبح نوعًا من الهروبية ، التى تعنى القبول بعالم ممزق بدلاً من محاولة إضفاء المعنى عليه.

وثمة طريقة لربط المحلى بالعالمى قد تتمثل فى مزيد من الاهتمام بالأنواع المختلفة من «السمسار» أو «حارس البوابة» فيما بين المجتمعات وفى العالم الخارجى. وهناك طريقة أخرى ربما تتمثل فى أن نرجع القهقرى ونتحرك إلى الأمام بين المستويين ، كما هى الحال فى سرديات الثورة الصينية، والثورة الفرنسية ، والثورة الروسية على التوالى التى سردها جوناثان سبنس Jonathan Spence ، وسيمون شاما Simon Schama وأورلاندو فيجيس Orlando Figes .

الهوامش

1 The work centred around two publications, the Microstorie series published by Einaudi in Turin from 1981 and, in part, the review *Quaderni Storici*, published by Il Mulino of Bologna.
2 L. Wittgenstein, *On Certainty* (Oxford, 1969), § 625.
3 Thus I disagree with the position taken by Joan W. Scott ('History in Crisis? The Others' Side of the Story', in *American Historical Review*, 94 (1989), pp. 680–92), who considers all avant-garde historical work to be positive. Her article ends by calling for a phase of renewal without any particular perspective: 'If the many different stories of the past, based on different historical experiences, are indeed irreconcilable, is there none the less a way to think coherently and systematically about the past?... These questions are answerable, but only if we accept the notion that history itself is a changing discipline' (pp. 691–2). But what answer is there beyond 'creative inquiries'?
4 F. Barth (ed.), *Scale and Social Organization* (Oslo, Bergen, Tromso, 1978), p. 273.
5 F. Venturi, 'Lumi di Venezia', *La Stampa* (Turin), 27 Jan. 1990.
6 The full text reads: 'Anthropologists don't study villages (tribes, towns, neighborhoods...); they study in villages.' See C. Geertz, *The Interpretation of Cultures* (New York, 1973), p. 22.
7 G. Levi, 'Un problema di scala', in *Dieci interventi di Storia Sociale* (Turin, 1981), pp. 75–81.
8 P. Redondi, *Galileo eretico* (Turin, 1983). A translation by Raymond Rosenthal was published in London in 1988 as *Galileo Heretic*.
9 C. Ginzburg, *Indagini su Piero: Il battesimo, Il ciclo di Arezzo, La flagellazione di Urbino* (Turin, 1981). A translation by Martin Ryle and Kate Soper was published in London in 1985 as *The Enigma of Piero: Piero della Francesca: The Baptism, The Arezzo Cycle, The Flagellation*.
10 R. Merzario, *Il paese stretto: strategie matrimoniali nella diocesi di Como secoli XVI–XVIII* (Turin, 1981).
11 F. Ramella, *Terra e telai: sistemi di parentela e manifattura nel Biellese dell'Ottocento* (Turin, 1984).
12 G. Levi, *L'eredità immateriale: carriera di un esorcista nel Piemonte del Seicento* (Turin, 1985), translated by Linda Cochrane as *Inheriting Power: The Story of an Exorcist* (Chicago and London, 1988).
13 C. Geertz, 'Thick Description: Toward an Interpretive Theory of Culture', in Geertz, *Interpretation of Cultures*, pp. 3–31.
14 J. Clifford, 'On Ethnographic Authority', *Representations*, 1 (1983), pp. 122–39.

15 M. Heidegger, *Holzwege* (Frankfurt, 1950), translated into Italian as *Sentieri interotti* (Florence, 1968).
16 G. Vattimo, *Introduzione a Heidegger* (Bari, 1985).
17 C. Geertz, 'The Growth of Culture and the Evolution of Mind', in J. Scher (ed.), *Theories of the Mind* (Glencoe, Ill., 1962), pp. 713–40; reprinted in Geertz, *Interpretation of Cultures*, pp. 55–85.
18 C. Geertz, 'Anti Anti-Relativism', *American Anthropologist*, 86 (1984), pp. 263–78.
19 M. Foucault, *Les mots et les choses: archéologie des sciences humaines* (Paris, 1966).
20 P. Rabinow, *Reflections on Fieldwork in Morocco* (Berkeley and Los Angeles, 1977).
21 R. Darnton, *The Great Cat Massacre and other Episodes in French Cultural History* (New York, 1984). See also his paper 'The Symbolic Element in History', *Journal of Modern History*, 58 (1986), pp. 218–34, and R. Chartier, 'Text, Symbols, and Frenchness', *Journal of Modern History*, 57 (1985), pp. 682–95, as well as G. Levi, 'I pericoli del Geertzismo', *Quaderni Storici*, 20 (1985) pp. 269–77.
22 C. Geertz, *Local Knowledge: Further Essays in Interpretive Anthropology* (New York, 1983), pp. 121–46.
23 C. Geertz, 'Deep Play: Notes on the Balinese Cockfight', *Daedalus*, 101 (1972), pp. 1–37, reprinted in Geertz, *Interpretation of Cultures*, pp. 412–54.
24 L. Stone, 'The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History', *Past and Present*, 85 (1979), pp. 3–24.
25 I recall the controversy between A. Momigliano ('La retorica della storia e la storia della retorica: sui tropi di Hayden White', in Momigliano, *Sui fondamenti della storia antica* (Turin, 1984), pp. 464–76) and H. White, (*Metahistory* (Baltimore, 1973)), in which, however, Momigliano over-emphasizes the opposition between truth and rhetoric. As I maintain in the text, the problems of argumentative theory are important in practical historiography and not, as White states, imcompatible with a realistic reference to historical facts.
26 C. Ginzburg and A. Prosperi, *Giochi di pazienza: un seminario sul* 'Beneficio di Cristo' (Turin, 1975).
27 H. James, *In the Cage* (London, 1898).
28 E. Gellner, 'Concepts and Society', in B. R. Wilson (ed.), *Rationality* (Oxford, 1970), pp. 18–49, especially p. 24.
29 Geertz, 'Deep Play' (n. 23 above)
30 J. Revel, 'L'histoire au ras du sol', introduction to G. Levi, *Le Pouvoir au village* (Paris, 1989), pp. i–xxxiii.
31 See J. G. A. Pocock, *The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition* (Princeton, 1975) and *Virtue, Commerce, and History: Essays on Political Thought and History, Chiefly in the Eighteenth Century* (Cambridge, 1985). See also Q. Skinner, 'Hermeneutics and the Role of History', *New Literary History*, 7 (1975–6), pp. 209–32, and Skinner's book *The Foundations of Modern Political Thought: The Renaissance* (Cambridge, 1978).
32 R. Needham, *Reconnaissances* (Toronto, Buffalo, London, 1980).

33 M. Gribaudi, *Mondo operaio e mito operaio: spazi e percorsi sociali a Torino nel primo Novecento* (Turin, 1987).
34 Merzario, *Il paese stretto*.
35 R. Ago, *Un feudo esemplare: immobilismo padronale e astuzia contadina nel Lazio del'700* (Rome, 1988).
36 E. Grendi, 'Microanalisi e storia sociale', *Quaderni Storici*, 7 (1972), pp. 506–20, and *Polanyi: dall'antropologia economica alla microanalisi storica* (Milan, 1978).
37 C. Ginzburg, 'Spie: radici di un paradigma indiziario' in A. Gargani (ed.), *Crisi della ragione* (Turin, 1979), pp. 59–106, reprinted in Ginzburg's book *Miti emblemi spie: morfologia e storia* (Turin, 1986), pp. 158–209. An English translation of the book was published in London in 1990 as *Myths, Emblems, Clues*.
38 Revel, 'L'histoire au ras du sol' (n. 30 above).
39 A. Jarrick, *Back to Modern Reason: Johan Hjerpe and other Petit Bourgeois in Stockholm in the Age of Enlightenment* (1992: English trans. Liverpool, 1999).
40 J. H. Plumb, 'Political History, 1530–1885', in *Victoria County History, Leicestershire*, vol. 2 (London, 1954), pp. 102–34.

(٦)

التاريخ الشفاهى

جوين برينس

المؤرخون فى المجتمعات الحديثة الصناعية ذات الجماهير المتعلمة- أى أكثر المؤرخين حرفية- يشكون بشكل عام فى قيمة المصادر الشفوية فى إعادة بناء الماضى. وقد قال تايلور A. J. p. Taylor فى ملاحظة لاذعة : «فى هذه المسألة، أكاد أكون شكاكًا تمامًا ، أهم الرجال المسنون الذين يشتهون شبابهم ؟ كلا» . وهناك كثيرون قد يكونون الآن أكثر كرمًا ويعترفون بالتاريخ الشفاهى- التاريخ المكتوب بأدلة مجموعة من شخص حى، بدلاً من وثيقة مكتوبة- باعتباره توضيحا مساعداً يبعث على البهجة ، ولكن قلائل هم الذين سوف يقبلون بأن مثل هذه المواد يمكن أن تصبح محورية فى دراسة المجتمعات الحديثة الموثقة . وهم يظنون أن «تواريخ الناس» التى جمعها ستدس تيركل Studs Terkel عن الركود وعن الحرب العالمية الثانية لايمكن أبدا أن تحرك فروضا كبرى عن هذين الحدثين الكبيرين.

وهناك ظن بأن الضعف الذى تنطوى عليه المصادر الشفوية كلى ولايمكن إصلاحه، ولذلك ، فإنه بالنسبة للمجتمعات البدائية، يتسم المجال العرفى للحكم بالجدب . فمن ناحية يسلّم آرثر مارويك Arthur Marwick فى كتابه The Nature of History بأن «التاريخ القائم بصفة حصرية على مصادر غير وثائقية ، مثل تاريخ أية جماعة أفريقية، يمكن أن يكون أكثر سطحية، وتاريخا أقل إرضاء من التاريخ المستمد من الوثائق ، ولكنه تاريخ على أية حال» . ومن ناحية أخرى، فإلى أن توجد لايمكن أن يكون هناك تاريخ بالمعنى الصحيح. وبما أن بداية التاريخ كانت مع الكتابة (أى التاريخ المكتوب وفق منهج رانكه) فقد كان يُنظر إلى أفريقيا على أنها قارة غير تاريخية تمامًا . وقد استمرت هذه الرؤية بشكل دائم منذ حكم هيجل سنة ١٨٣١م بأن «هى ليست جزءاً تاريخيًا من العالم» حتى ملاحظة هيو تريڤور- روبير المشهورة فى سنة ١٩٦٥م التى حفزت العشائر المعادية للاستعمار التى تكاثرت بسرعة آنذاك فى

أفريقيا على مدى جيل كامل ، بأن أفريقيا لم يكن لها تاريخ، وإنما كان فقط التجوال غير المجدى للقبائل الهمجية (١). ولم يكن هذا رأى اليمين فقط ولا ينصب على أفريقيا وحدها . فالقرى الهندية، تمثل النمط الآسيوى للإنتاج ، والتى كانت تتلظى ببساطة فى الشمس ، وتعيد إنتاج نفسها بلا طائل «دون أن تمسها السحب الرعدية فى السماء السياسية» ، على حد تعبير ماركس فى عبارته الشهيرة . وقد تلوى الماركسيون المؤيدون لحركات مناهضة الاستعمار على نارها منذ ذلك الحين، محاولين أن يشرحوا أن ماركس لم يكن يعنى حقًا ما كان واضحًا أنه يعنيه فعلاً .

وفى كل من الحالة المتعاطفة والحالة المعادية، تم تطبيق الاختبار الرانكى *. ذلك أنه تحت التراتبية الرانكية للمعلومات، عندما تكون المصادر المكتوبة الرسمية متاحة ، فإنه يجب تفضيلها . وعندما لاتكون متاحة، يجب على المرء أن يلجأ إلى الأفضلية الثانية ، أى ملء دلوه من المصدر النقى من النصوص الرسمية من مكان أبعد. أما المعلومات الشفاهية، فى ظل هذه الشروط، فلاشك أنها فى المرتبة الثانية للأسوأ، ولذلك فإن دورها يقتصر على تسهيل تواريخ الأفضلية الثانية عن المجتمعات التى تمتلك مصادر هزيلة وبهذه المعايير يكون كل من هيجل وتريڤور روبير وماركس مجرد مدققين فى التفاصيل الصغيرة.

ومن أولئك الذين يستخدمون المصادر الشفاهية كان هناك نوعان من الاستجابة تجاه مثل هذا الشك، أحدهما : شائك ، والآخر : بدرجة أقل وبول ثومبسون ، وهو شخصية بارزة فى «حركة» التاريخ الشفاهى (وهو وصف ذاتى له بالفعل رنين إنجيلى) التى تُعلى من قيمة المصادر الشفوية فى التاريخ الاجتماعى الحديث عندما تمنح الوجود التاريخى لأولئك الذين حبست آراؤهم وقيمهم بواسطة «التاريخ من أعلى» ، كتب غاضبًا فى بيانه The Voice of the Past أن :

«إن معارضة الدليل الشفاهى قائم على الشعور بقدر ما هو قائم على المبدأ ذلك أن الجيل الأكبر من المؤرخين الذين يحتلون الكراسى وبيدهم الأمر والنهى يتوجسون غريزيًا من قدوم منهج جديد فهو يعنى ضمنًا أنهم لم يعودوا يحكمون جميع أساليب مهنتهم. ومن ثم فإن التعليقات التى تستخف بالشباب الذين يجوبون الشوارع ومعهم أجهزة التسجيل»(٢).

* نسبة إلى ليوبولد ڤون رانكه ومدرسته فى القرن التاسع عشر، والذى كان يرى أن التاريخ الحقيقى هو ذلك الذى يمكن كتابته اعتماداً على الوثائق لإعادة تصوير «ماحدث فى الماضى بالضبط» . (المترجم)

ولذلك ؛ فإنه فى المعركة حول المصادر الشفاهية فى التاريخ المعاصر ، وتكشف اللغة المتطرفة عن أن هناك عواطف وانفعالات عميقة على كلا الجانبين. وأمَّا عن دور المصادر الشفوية فى تاريخ المجتمعات الأمية، فإن أبرز من يعرضون للتاريخ الشفاهى فى أفريقيا هو يان فانسينا Jan Vansina، الذى سخر من رأى مارويك فى كتابه :

Oral Tradition as History

«حيثما لاتكون هناك كتابة، أو لا تكاد تكون هناك كتابة، تتحمل الموروثات الشفاهية عبء إعادة البناء التاريخى. ولن تقوم بهذا إذا ما كانت مصادر مكتوبة . إذ إن الكتابة معجزة فنية... يجب تقدير قيمة جوانب القصور فى الموروث الشفاهى تقديرا كاملاً بحيث لا نصاب بخيبة أمل لأن هناك فترات طويلة من البحث ، أسفرت عن كتابة تاريخية تفتقر إلى الكثير من التفاصيل . إن ما يعيد المرء بناءه من المصادر الشفوية ربما يكون مما يعول عليه بدرجة أقل من غيره ، عندما لا تكون هناك مصادر مستقلة يمكن أن نختبر (مصادرنا الشفوية) فى ضوئها »(٣).

لاحظ أن الاتفاق محدود فى نطاق الظروف التى تكون فيها المصادر الشفاهية وحدها ؛ وبما أن ڤانسينا يبين ، سواء فى ذلك الكتاب أو فى مقالاته العديدة، أن هذه الحال لا تتكرر كثيرا، فإن الدفعة الأساسية فى مجادلته أشد تأكيداً . فى الحقيقة. ومؤدَّاها أن العلاقة بين المصادر الشفاهية والمصادر المكتوبة ليست هى «العلاقة بين المغنية الأولى فى الأوبرا وبديلتها: عندما لا تستطيع النجمة أن تغنى تظهر البديلة : أى عندما تخفق الكتابة يظهر الموروث الشفاهى على المسرح . هذا خطأ . إذ إن المصادر الشفاهية تصحح وجهات النظر الأخرى بالقدر نفسه الذى تصححها به وجهات النظر الأخرى ».

لماذا يجب أن يثير استخدام المصادر الشفاهية كل هذا الخلاف ؟ لقد أشار بول ثومبسون إلى أن الأساتذة القدامى لا يحبون أن يتعلموا حيلاً جديدة ويقاوموا ما يتوجسون منه خوفًا من أن يكون محواً لمكانتهم الخاصة فى المنهج الرانكى. وربما يكون هذا صحيحًا ، ولكنى أظن أن هناك أسبابًا أعمق، وأقل إزعاجًا . ذلك أن المؤرخين يعيشون فى مجتمعات متعلمة، وهم مثل كثير من سكان مثل هذه المجتمعات، يميلون دونما تفكير إلى الحط من شأن الكلمة المنطوقة. إنها نتيجة لازمة لفخرنا وتباهينا بالكتابة واحترامنا للكلمة المكتوبة . ولم لا ؟ وحسبما لاحظ ڤانسينا ، أن التواصل من خلال لغة مكتوبة حبلى بالرموز إنجاز مدهش .

ويميل المتعلمون إلى نسيان هذا . ويقدم الماوريون Maoris فى نيوزيلندا مثالاً حزينا ، ولكنه يكشف عن أمر كان شائع الحدوث فى أثناء توسع أوربا: فالناس الأميون الذين لاحظوا أداة القوة هذه ثم استوعبوها بحماسة شديدة، فشلوا فى السيطرة على الكتابة .

إن الحقائق العارية مذهلة تماماً . ففى سنة ١٨٣٣م ، ربما كان هناك حوالى خمسمائة من الماوريس يمكنهم القـراءة ، ووصلوا فى غـضـون سنة واحدة إلى ألف شـخص . وفى سنة ١٨٤٠م، وهى سنة معاهدة ويتانجى Waitangi التى خسر فيها زعماء الماوريس أرضهم (أو حصلوا على مزايا ضم البريطانيين لبلادهم حسب وجهة النظر التى تتخذها)، حدث بشكل لايعبر عن الباكيها Pakeha (أى الرجل الأبيض) فى ذلك الوقت، أن أبدى أحد الرحالة خوفه على الصحة الجسدية لشعب الماوريين فبدلاً من التمارين البدنية (التى تناسب النبلاء المدنيين) صاروا يجلسـون معظم الوقت، لأنهم «صـاروا قُرّاءً » . وفى سنة ١٨٣٧م ، أكمل الطابع وليم كولنسو William Colenso – وقد كان عضواً فى العائلة التبشيرية الشهيرة- الطبعة الأولى من العهد الجديد باللغة الماورية، وبحلول سنة ١٨٤٥م وزعت البعثات التبشيرية البروتستانتية نسخًا من العهد الجديد الماورى تعادل نصف عدد الماوريين جميعاً . وفى سنة ١٨٤٩م اعتقد الحاكم چورچ جراى George Gray أن نسبة الماوريين الذين يعرفون القراءة كانت أكبر من النسبة فى أى شعب أوربى. فما القوة التى رآها الماوريون فى الكتابة وسعوا إليها بشغف ؟

لقد كانت قوة ثلاثية الأبعاد، ولكن الماوريين كانوا، شأنهم شأن أى شعب تعرض للغزو منذ فترة قصيرة ، ومثل الشعوب التى ينتشر فيها التعليم جزئيًا ، قد نجحوا فقط فى الإمساك بجزء صغير منها . فقد كان الوجه الأول لقوة الكتاب طوطميا . إذْ كان الماوريون الأميون يأخذون الكتب- أى كتب – إلى الكنيسة، أو يحشرون الصفحات فى ثقوب كبيرة فى شحمة الأذن . لقد كانت محاولة ، مرعية بشكل شائع فى المراحل الباكرة من المواجهة الاستعمارية، للحصول على القوة من خلال الارتباط. أما الوجه الثانى، فكان تحرريًا . إذ إن كولنسو نفسه (مستخدمًا ألواح صف الحروف التى استخدمها فى طباعة الكتاب المقدس) قام فى سنة ١٨٤١م بصف نصوص معاهدة ويتانجى . وفى الاجتماع المخصص لمناقشة المعاهدة ، فشل فى إقناع الحاكم بأنه إذا كان الماوريون جميعًا قد يسمعون، وإذا كان بعضهم قد يقرأون كلمات المسودة الإنجليزية المترجمة ، فإنهم لا يستطيعون ولا يستوعبون المعنى القانونى، أو يشاركون فى المفاهيم الكامنة عن الملكية ، أو يفهمون عواقب التوقيع . ويجادل دون ماكنزى Don McKenzie أن الماوريين فقدوا المزيد بطريقة أشد وقعًا، وعلى مدى أطول فى المعركة

من أجل السيطرة على الأرض بالضبط ؛ لأن معرفتهم القراءة في العقد السابق أعطت الانطباع بأنهم لم يستطيعوا ولم يقبلوا شروط اللعبة التي أقرها السجل المكتوب، بيد أنهم كانوا عاجزين عن تناول الأمر بمهارة وبشكل ناجح (٤).

والوجه الثالث للقوة شكلي ونشيط. إنها القوة لتجسيد المعرفة ، وتراكمها وتثبيتها . وهذا ما لم يحققه الماوريون بشكل مهم من الناحية السياسية حتى الجيل التالي. إنه الجوهر الحقيقي لمعجزة القراءة وهو، في كل المجتمعات ، القدرة على تخطي العتبة من السلبي إلى الإيجابي ، من موضع الضحية إلى موقع سيد الكلمة المكتوبة ، وهو الأمر الذي كان الأكثر ثورية من حيث عواقبه ، بيد أنه كان الأكثر مراوغة .

وفي رسوم الكهوف في لاسكو Lascaux بفرنسا ، توجد بين تصاوير الحيوانات سلاسل من النقاط المزدوجة يمكن مشاهدتها . وربما تكون هذه أول الأمثلة الباكرة على التواصل الرمزي الذي قام به الفرد، إلا أنها توجد مستقلة عنه في الزمان والمكان . إن القدرة على فعل ذلك معيار يميّز الإنسان العاقل Homo Sapiens عن أسلافه البيولوجيين: وهو التقسيم الكبير الأول في التاريخ البشري. وربما تكون نقاط لاسكو، شأنها شأن الفئوس ذات الأيدي المصقولة ، أول بشائر ثورة العصر الحجري الحديث وهي الأساس الذي قامت عليه الحضارة التالية برمتها .

وفي الشرق الأدنى القديم، كان الحديد، والقمح والحيوانات الأليفة مستخدمة (٥). كما حدث هناك أيضا الاختراع المبدئي الذي أطلق طاقة ما تنطوي عليه الكتابة ، فقد كانت الكتابة بالرموز مهمة تمامًا في مساعدة الناس على تجاوز عدم استمرارية الكلام، ولكنها كانت عسيرة وصعبة . وكان خلق نظام الأبجدية في الكتابة هو الذي سهّل التطور النهائي للمجتمع المتعلم الذي ازدهر لأول مرة في بلاد اليونان في القرن السابع ق.م *. وقد وصف برتراند

---

* من المؤسف أن ما يقوله كاتب المقال غير صحيح «تاريخيا» . وقد بات معلومًا في جميع الأوساط العلمية أن اختراع الأبجدية يرجع إلى الفينيقيين ، وأن اختراع الكتابة نفسها يرجع إلى المنطقة العربية، قبل أن تعرفها بلاد الإغريق بعشرات القرون. ومن ناحية أخرى ، فإن المجتمعات الإغريقية في مدن– الدول Po-lis المتفرقة لم تكن مجتمعات يمكن وصفها بالمتعلمة ؛ فقد كانت معرفة القراءة والكتابة مقصورة على النخبة=

رسل على صعود الحضارة في بلاد اليونان بأنه الأمر الذى كان الأصعب تفسيراً والأكثر مدعاة للدهشة فى التاريخ كله . ومن المؤكد أنه كان بمثابة نقطة فارقة أخرى، ولكن ربما لم تكن فى مثل عظمة الثورة التى شهدها العصر الحجرى الحديث، وربما لاتستحق مثل هذه اللغة الفخيمة.

ويشير جاك جودى Jack Goody فى كتابه: The Domestication of the Savage Mind

إلى أنه فى غمار السعى لفهم قوة معرفة القراءة والكتابة ، من المفيد أن نميّز بين جزءين داخل حالة التواصل ، مستخدماً مصطلحات ماركس : هما وسيلة التواصل وعلاقاته ، أى البعد المادى والبعد الاجتماعى/ الثقافى على التوالى . كما يرى أنه يجب النظر إليهما سوياً باستمرار . وفى هذه الشروط يمكن وضع اليونان داخل سياق ما .

ونجد أنفسنا فى مجتمع جماهيره متعلمة، لديه نظام أبجدية للكتابة، وإذا ما نظرنا إلى الوراء يمكن أن نميز حالات ثلاث من التواصل . ويمكن أن نرى :

١- ثقافات شفاهية حيث تتخذ اللغة شكلاً شفاهياً خالصًا . وهذه منمطة بحسب اللغات المحلية؛ وهى الآن، كما كانت على مدى زمن طويل ، نادرة نسبيا .

٢- ثقافات كتابية حيث تتخذ اللغة شكلا مكتوباً فقط، لأن الشكل الشفاهى قد انزوى ومات . وهذه منمطة باللغات الكلاسيكية.

٣- ثقافات مؤلفة حيث تتخذ اللغة كلا من الشكل الشفاهى والشكل المكتوب لجميع السكان أو لنسبة منهم. ونحن مضطرون إلى المزيد من التصنيف وإلى التمييز بين الثقافات التى تكتب وتقرأ على مستوى عالمى، وهى ما نأخذها على علاتها ولكنها ليست معتادة من الناحية التاريخية، وثقافات متعلمة بشكل مقيد، حيث يعيش معظم الناس على هوامش السجل المكتوب، وتحت سطوته .

= مثلما كان الحال فى كل المجتمعات السابقة، والمعاصرة، واللاحقة على الإغريق. وفى تصورى أنه لايمكن القول بأنه كانت هناك مجتمعات «متعلمة» ، أى يعرف الجزء الأكبر من أبنائها القراءة والكتابة قبل اختراع الطباعة. (المترجم)

والوجود داخل ثقافة مؤلفة، فى الحقيقة، ينطبق على جميع لغات العالم الكبرى اليوم. فالناس إما أميون بشكل شخصى ، وإما أشباه متعلمين ولكنهم محكومون بالكتاب، مثلما كان الحال مع الماوريين فى القرن التاسع عشر، وفى معظم العالم الإسلامى، أو ما بعد معرفة القراءة فى العالم الجديد للتواصل الجماهيرى الالكترونى : الذى يحكمه الراديو، والتليفزيون والتليفون. ولكن المؤرخين أناس يقرأون ويكتبون على ما هم عليه، وبالنسبة لهم تعتلى الكلمة المكتوبة القمة. فهى التى ترسى معاييرهم ومناهجهم . وهى التى تنزل من قدر الكلمات المنطوقة التى ينظر إليها على أنها مسطحة وذات غرض نفعى إذا ما قورنت بالمعنى المركز فى النص. ذلك أن الفروق الدقيقة وأنماط المعلومات الشفاهية غير مرئية.

وأحد الآثار الناجمة عن ثقافة محكومة بالكلمة المكتوبة، من خلال الحط من قدر الكلمة المنطوقة، يتمثل فى جعلها لغة ساخنة . وربما نعى بشكل تفصيلى الكثير من اللغات المكتوبة : ففى الإنجليزية، عبر الزمان، لدينا الحالة الشوسرية والحالة الشكسبيرية، أو اللغة الخاصة للكتاب المقدس الخاص بالملك جيمس ، أو كتاب الصلوات العامة، وكلها لا تزال حية. وبالنظر إلى ثقافة شفاهية أو مؤلفة ، علينا أن نبذل جهداً واعياً لمحاولة إبطاء سرعتنا فى الدخول، ولكى ننظر إلى الشهادة الشفاهية على أنها يحتمل أن تكون مركبة بالقدر نفسه . ويجب علينا أن نتعرف على الفروق بين الكلام المهم والكلام المبتذل تماما مثلما تحولت تس Tess فى دو أوربرڤيل d'Urbervilles لتوماس هاردى Thomas Hardy من لهجة دورست Dorset إلى الإنجليزية القياسية ، بحسب من يحاورها، تماماً مثلما يحتفظ الرستفاريون فى الكاريبى بسجل خاص للإنشاء الدينى.

وأحد أقدم الأمثلة وأكثرها شهرة عن كيفية تداخل اللغات الخاصة فى السجل الشفاهى والسجل المكتوب فى ثقافات مركبة هو التراث الشفوى عن القرآن، أى الحديث *. وفى دراسة رائعة لمثل هذه الثقافة الإسلامية المركبة، أوضح إرنست جلنر Ernest Gellner كيف أن بركة الأولياء فى جبال الأطلس فى المغرب، مأخوذة ، من أجل جيرانهم الأميين، من شروحهم

---

* يتحدث الكاتب هنا ، بشجاعة يحسد عليها، عن شئ لا يعرفه بالتأكيد. فالحديث النبوى ليس مأثوراً شفاهيا عن القرآن الكريم بأى حال من الأحوال ؛ وكل من يعرف شيئا بسيطاً عن الإسلام لا يمكن أن يقول هذا بطبيعة الحال (المترجم)

الشفاهية للشريعة الإسلامية . ولكن الشريعة قانون مكتوب ، وربما يكون هؤلاء الأولياء أنفسهم أميين. بيد أنهم يستمدون الكاريزما من الارتباط بقوة كلمات الكتاب *.

وينظر المؤرخون التقليديون الذين يعتمدون الوثيقة بحثًا عن ثلاث خصال في مصادرهم ، والمعلومات الشفاهية ليست من بينها ، ومن ثم فإنها لا تؤخذ بجدية. فهم يطلبون الانضباط في الشكل . فمن المهم رؤية الطبيعة المستقرة للدليل. فالوثيقة من صنع الإنسان. وليست هناك شكوك حول ماهية الشهادة ، من الناحية المادية: إذ إن الشكل ثابت . ويمكن اختبارها أيضا بطرق مختلفة، ومن الناحية المادية (مرة أخرى) ، ولكن أيضا بواسطة وابل من الوسائل المقارنة، والنصية ، والبنيوية وغيرها . وهذا يعطى الخاصية الثانية التي يسعون وراءها: أي دقة التتابع الزمني .

ويفكر المؤرخون في زمن متسلسل ، حسبما يقاس بالتقويم وساعة المعصم. ويمكن للوثائق أن تقدم تفاصيل دقيقة في هذا البعد وبذلك يمكن أن تسمح بجدل رصين مستمد منها . والموضوعية التي يزعمها أكثر الأعضاء تقليدية في المهنة التاريخية قائمة بدرجة كبيرة على القوة المفترضة للاستنباط القائم على دراسة دقيقة لمنطق السرد المعتمد على نصوص مضبوطة . ولكن ، كما سنرى في التو، الزمن المتسلسل ليس النوع الوحيد من الزمن الذي يستخدمه البشر، وهناك أشياء أخرى غير التغير ينبغي شرحها .

ثالثا، ما أن تكون متعلمًا حتى تكون الكتابة سهلة وتترك أثرًا ثابتًا، ومن ثم فإننا نعيش في محيط من الرسائل المكتوبة ونعول على فهم الرسالة التي يحملها نص ما بقراءة نصوص إضافية . فالشاهد الوحيد ليس شاهداً. ذلك أننا نوضح بالتعدد. وعلى كل من هذه الأرضيات فإن الدليل الشفاهي بلا سند يبدو فقيرا في ماهيته. والشكل ليس ثابتًا ؛ وكثيرا ما يكون

---

* أظن أن هنا قدراً من التعسف في استخراج الأحكام؛ ولأن الرجل يأخذ الأمور بسطحية واضحة، فإن الأمر خرج عن نطاق الاستنباط العلمي الحقيقي. فالحديث عن الأولياء، والبركة ، والشريعة، حديث مختلط مرتبك يخلط ما بين الديانة الشعبية التي تعبر عن فهم خاص ، لدى شرائح اجتماعية معينة، في وقت بعينه ، وفي مجتمع معين ، للدين ورموزه وطقوسه ... وهو ما يصدق على ظاهرة الأولياء والاعتقاد في بركتهم. وبين الشريعة التي هي مسألة ترتبط بالدين الصحيح وأصوله واجتهادات الفقهاء والمفسرين وفقا للمذاهب الإسلامية وداخل الإطار الذي تحكمه أوامر الله ونواهيه– وهي مسائل علمية وأكاديمية لاتقوم على التفسير الشفاهي الذي تحدث عنه الكاتب . (المترجم)

التتابع الزمنى غير دقيق ؛ كما أن التواصل قد يكون فى أحيان كثيرة بدون سند. وبالنسبة للمؤرخين الذين لايحبذون التاريخ الشفاهى تشكل هذه العوامل أرضية كافية لرفضه . ولكن ثمة عاملين آخرين يتصلان بأهداف دراسته ، غالبًا ما تتم إضافتهما . أولهما ، وقد ورد ذكره فى بداية هذا الفصل ، هو أن التاريخ الشفاهى يهتم تلقائيا بمسائل متماسة. والعامل الثانى، هو أنه لا يمكن أن يكون غير ذلك : فهو محبوس داخل عدم ملاءمة المقياس الصغير.

وأظن أن الشكوى العامة من المقدمات المنهجية عن الدقة غالبًا ما تعمس اعتقادًا بأن المعلومات الشفاهية لا يمكن أن تفسِّر التغير، وأن التغير هو ما يدرسه المؤرخون أساسًا بيد أن هذا ليس صحيحًا كله ؛ فالاستمرارية أكثر إثارة ، كما أن شرحها أكثر صعوبة ، من التغير . كما أن الشكوى من التبرير الذاتى تعكس إما انحيازًا ضد التاريخ من أسفل وإما الخوف من ذلك ما دامت المعلومات الشفاهية منطوقة على مستوى المفاهيم الفردية ، وسوف يقع المؤرخ فى مصيدة المقياس الصغير بواسطتها ، وربما يكون مضللاً وبذلك غير قادر على أن يستنبط ويحسب بكفاءة . وباختصار ، فإننا سوف نتخبط دون مُعين . ويحكى لنا التاريخ الشفاهى فقط التوافه عن الناس المهمين والأشياء المهمة (فى ضوئها الخاص) عن الناس التافهين .

هل هذا صادق حقًا ؟ لقد كان له بطبيعة الحال، أن ينسف ذلك الوضع الطارد الذى كانت مدفعية «حركة التاريخ الشفاهى» قد نُقلت إليه فى ميدان المعركة. وربما كان قد عبئ بالحماسة الزائدة أثناء المراحل الباكرة من تبادل النيران، ولكن الموضوعات محل الخلاف حقيقية كما أنها ترتبط بشكل واضح بوظائف الذاكرة ومقاصد التاريخ فى المجتمعات التى لها حالات مختلفة من التواصل . وهناك اختبارات غير الاختبارات الرانكية يمكن تطبيقها .

وللحكم فى هذه الشكاوى ، ولكى نرى من الذى يقوم بتهريب أية افتراضات عن مقاصد المؤرخ، يجب أن نكون مدققين فى تحديد المصطلحات لكى نتجنب أخطاء التصنيف . ومن ثم، وفى الحال، أميز نمطين داخل نمط واحد، سيرًا على نهج ڤانسينا ، أربعة أشكال مختلفة من المعلومات الشفاهية ويجب علينا أن نستعد لمواجهة مجادلات مختلفة عن كل منها فى أنماط مختلفة من المجتمعات.

ما الدليل الشفاهى بتحديد أدق ؟ فى البداية عرّفته بأنه الدليل المأخوذ من الناس الأحياء باعتباره نقيضًا للمصادر غير الحية، ولكنه لم يعد يحتوى على ما يكفى من التفاصيل . هناك

مأثورات شفاهية . وفى كتابه المأثورات الشفاهية De La tradition Orale ، الكتاب الذى أحدث ثورة فى مفهومنا عن الموروث الشفاهى أكثر من أى كتاب آخر، عرّف يان ڤانسينا الدليل الشفاهى بأنه «شهادة شفاهية نقلت مشافهة من جيل إلى جيل أو أكثر بعده» . ومثل هذه المادة هى المادة التى علينا أن نعيد بها بناء ماضى مجتمع ما ذى ثقافة شفاهية . ويصير الموروث الشفاهى أقل تداولاً ثم أقل على حين تتحرك الثقافة نحو تعليم الجماهير القراءة والكتابة، على الرغم من أن بعض التراث الشفاهى يمكن أن يستمر فى الوجود فى بيئة يسود فيها تعليم القراءة والكتابة.

والنمط الآخر من المصدر الشفاهى يتمثل فى القدرة الشخصية على تذكر ما مضى من أحداث . وهذا دليل شفاهى خاص بتجارب حياة الإخبارى. ولايمرُّ مثل هذا الدليل من جيل إلى جيل سوى فى شكل هزيل تمامًا ، مثل القصص الخاصة بالعائلات . ففى سبعينيات القرن التاسع عشر كان جدى لأمى يعمل مساعداً لبستانى فى بيت كبير فى كورنوول Corn-wall. وكان رئيس الخدم سادياً اعتاد أن يضع القطط الصغيرة على فرن المطبخ ويستمتع بمشاهدة عذابها. ولم ينس جدى هذا السلوك وبدافع من التعاطف ترك المنزل ليعمل فى مناجم القصدير بسبب ذلك الرجل . وقد سمعت هذه الأقصوصة من أمى. إن الذاكرة الشخصية المباشرة تشكل الشطر الأعظم من الأدلة الشفاهية التى استخدمها بول ثومبسون وحركة التاريخ الشفاهى .

ويمكن تمييز الموروث الشفاهى عن التذكر بطريقة أخرى . إذ إن نقل كميات كبيرة وأشكال خاصة من المعلومات الشفاهية من جيل إلى جيل يتطلب وقتًا وجهداً ذهنيًا كبيراً ؛ ولذلك يجب أن يكون هناك غرض ما. وعادة ما يغلب على الظن أن الغرض بنيوى. وبعض المنظرِّين ، مثل دوركايم، لابد وأن يروا أن الغرض هو خلق المأثورات الشفاهية ونقلها بحيث تكون متصلة بشكل منظم ومعتمدة على إعادة إنتاج البنية الاجتماعية. ويرى آخرون أغراضاً معرفية أوسع وأكثر استقلالية . ولكن مهما كانت المأثورات الشفاهية ، وقبل أن نتمكن من تأملها ، يجب تقسيم المأثورات الشفاهية تقسيما فرعيا إلى أربعة أنماط (٦).

الشكل	الصياغة فى كلمات: محفوظ / مجمدة	الصياغة فى كلمات: غير محفوظ / حرة
مجمد	الشعر (بما فيه الأغانى) والقوائم	الملحمة و السرد
حر	المعادلات والصياغات (الأسماء ، الأمثال الخ)	

وإذا ما كانت هناك رواية عرفت عن طريق الحفظ والاستظهار ، فإن كلماتها تنتمى إلى المأثور. وإذا ما كان شكل الأداء ثابتًا، فإن البنية إذن تنتمى إلى المأثور. وسوف أتناول كل فئة بدورها .

إن المواد المحفوظة عن ظهر قلب والأشكال المجمدة تثير فعلاً أصغر مشكلات التحقيق، لأن النقد النصّى الصارم لروايات المأثور نفسه سوف ينسحب ليفسح الطريق أمام الجوهر المشترك لكل من الشكل والكلمات . ويمكن تحديد قواعد الشكل واللغة . فقصائد المديح الأفريقية، وأشهرها قصائد الايسبونجو isibongo لدى قبائل الزولو، أمثلة جيدة على هذا النوع . ذلك أن الكلمات والشكل والنغمة محددة بشكل صارم . وفى أحيان كثيرة ، تصف قصائد المديح العلاقات بين الحاكم والمحكوم؛ فهى تتوسط العلاقة التى لا يمكن توجيهها باللغة الدارجة. وهكذا تعكس بنيتها أغراضها . وهناك مستخرج من قصيدة مديح عند اللوزى Lozi من هذا النوع جمعتها فى غرب زامبيا . وهى تؤدى فى لغة اللويانا Luyana ، وهى اللغة القديمة ، وهى أقرب ما تكون إلى لغة الحياة اليومية، ذلك أن لغة اللوزى بمثابة اللغة الأنجلوسكسونية بالنسبة للإنجليزية الحديثة.

«على الرغم من أننى قريب منك، فأنا لا أقدر على الحديث إليك. ولكننى غير مهتم لأننى أعرف من أين ينحدر نسبى، فأنا أنحدر من خط قرابة يرتبط بك. فلكل أغنية أصلها ...

عندما يكون الملك في البلاط ، يكون أشبه بفيل في دغل من الشوك؛ مثل جاموسة في الغابة الكثيفة ؛ مثل بستان من الذرة على ربوة في سهل الزامبيزى الفيضى. احكم البلاد جيداً ! فعندما تموت البلاد ، ستكون المسئول . وعندما تزدهر ستكون فخورة بك وسوف تثنى عليك».

والمادة التى تتخذ شكل الصياغات والمعادلات تكون مفيدة بشكل خاص عندما يحاول المرء أن يكتشف أبعاد ثقافة شعبية ما. ودراسة الأمثال غالبا ما تكون طريقة كافية للبدء فى عمل مثل هذه الخريطة ، سواء فى حاضر ثقافة شفاهية أو مؤلفة أم فى ماضيها . والسبب فى هذا أنه ليس من السهل أن نعبث مع تركيب بنائها: أو إذا تم العبث بها يكون واضحًا أن هذا حدث . . وهاك توضيح آخر، ومرة أخرى يتصل بمملكة لوزى فى زامبيا ، فقد كان قرن الاستعمار الذى مرَّ على أفريقيا قرنًا عاصفًا. إذ إن قوى التغيير العظمى قد مسَّت المجتمع اللوزى، مثل معظم المجتمعات الأخرى. ومن ثم فإذا وجد المرء عناصر تبقى مستمرة على الرغم من هذه الضغوط ، فإن هذا يكون مثيراً بشكل خاص ؛ وهذا المثال دال عليها .

فى سنة ١٩٧٤م كنت أعيش فى بولوزى Bulozi، واعتدت أن أجمع الأمثال فى مذكرة ، فى البداية بدافع الفضول أساسًا . وهناك مثل شائع يشير بالمشابهة إلى الملكية . وهو باللغة اللويانية.

(يتجه فرس النهر [الملك] نحو أعمق المياه فى النهر؛ ولكن الرمال البيضاء فى الأماكن الضحلة تخونه) .

وقد وجدته مرة أخرى بعد سنوات قليلة ولكن فى سياق مختلف : وكان قد تحول إلى أغنية تجاوبية بواسطة عبارة علاجية تخلط اللغة اللوزية الحديثة باللغة اللويانية القديمة .

المعالج (يغنى) : الماء من النهر صلاة .

المعالج (يغنى) : يا فرس النهر ، يا طفل الدوامة .

الكورس : إنه يطفو فى وسط المجرى المائى .

المعالج : إن الرمال تخونه .

الكورس : إنه يطفو وسط المجرى المائى .

وهكذا لدينا هناك متغيران مشتركان فى الموضوع الأساسى نفسه ، وكلاهما يرجع

بالتأكيد إلى فترة ما بعد الاستعمار. ويوضح المثال بجلاء ، كيف تبقى بللورات الكلمات دونما تغيير فى داخل مشهد ملون ومزخرف متغير من البنى التى تم تعديلها لتلائم أغراضًا بعينها .

وتبدو قوة مادة الصياغة واضحة للعيان عندما توضع هذه الصياغات الحديثة إلى جوار المثل نفسه، ولكن فى أشكال جمعها مبشر فرنسى عند بداية التجربة الاستعمارية، فى تسعينيات القرن التاسع عشر (٧): ومثل هذا المثال الحى الذى يتخذ شكل مصدر شفاهى عملية إعادة الإنتاج المستمرة فى الثقافة الشعبية ؛ وذلك بدوره شاهد على استمرار الوظيفة الثقافية للمثل على نحو ما (٨). وهو ما يطرح بالتالى سؤالاً مهمًا عن الذاكرة الانتقائية فى المصادر الشفاهية ، والتى سيرد المزيد عنها فيما يلى.

وبعض مادة الصياغة أقل ميلاً لمثل هذه الذاكرة الانتقائية من غيرها. فعلى سبيل المثال ، يتم التعبير عن هوية الفرد داخل ثقافته الشخصية علانية فى غالب الأحوال عندما يقوم بوصف علاماتى للحدود المادية. ومن ثم، إذا ما تم حل شفرتها، فإن الفضاء فى الوطن الذى يصفه أحد المهاجرين يمكن أن يظهر إعادة إنتاج ثقافى بالغ الحيوية ، وهو ما يبدو بوضوح فى دراسة حالة أفريقية أخرى:
Syaya : The Historical Anthropology of an African Landscape ففى هذه الدراسة يستخدم الباحث مثل هذه الطريقة لحل شفرة الأمثال ويستخدمها فى تحدى الافتراض التقليدى بأن الهجرة تؤدى إلى قطع الروابط (٩).

تتعلق المشكلات الرئيسية حول استخدام المأثورات الشفاهية وإساءة استخدامها بالموروثات المحفوظة عن ظهر قلب : أى الملاحم والسرديات . ذلك أن الشكل الثابت للملحمة يعنى أن معظم الملاحم الأفريقية سردية فى هيكلها التخطيطى. وأعنى بمصطلح «ملحمة» هنا الملحمة الهومرية : * أى الشعر البطولى الذى تم نظمه شفاهيًا ، حسب القواعد . وبطبيعة الحال تمت كتابة القصائد فيما بعد، ولانستطيع أن نعرف مدى التغيير والتبديل الذى لحق بها، فى تلك اللحظة أو فى وقت لاحق ؛ ولكن البنية قوية بالقدر الكافى لتجاوز تلك العملية. إنها عملية ترقيع ، تجميع– معناها الحرفى «مخيط سويًا» (اشتقاقًا من فعل يونانى قديم) –

---

* نسبة إلى هوميروس، الشاعر الإغريقى القديم الذى تُنسب إليه ملحمة الإلياذة والأوديسية ، ويرى بعض الباحثين أن هوميروس شخصية أسطورية غير حقيقية. (المترجم)

بحيث أن تكرار الصياغة يلعب دوراً فى إعطاء العمل شكلاً ، لكل من المُنشد والجمهور . ويتألف حوالى ثلث الإلياذة من سطور أو مجموعات سطور تتواتر أكثر من مرة . ويصدق الأمر نفسه على الأوديسية . فهناك خمسة وعشرون تعبيراً بلاغياً ترد فى الخمسة وعشرين بيتا الأولى من الإلياذة. فعل سبيل المثال ، يوصف الفجر دائما «بذى الأصابع الوردية» وأثينا «لها عيون البومة» ، وجزيرة إيثاكا «المطوقة بالبحر» ، وأخيلليس «ناهب المدينة»، والبحر «القاتم كالنبيذ». بيد أن هذا ليس تكراراً رتيبا. فهناك ستة وثلاثون نعتًا مختلفًا لأخيلليس ، تم اختيارها وتوظيفها بقواعد ثابتة (١٠). وهكذا، فإن المنشد يستخدم من مثل هذه القطع فى المادة ما يخيط منه عملاً جديداً، على الرغم من أن الرقع منفردة يمكن أن تكون قديمة ومعروفة أيضا. بيد أن هذه الفئة وهذا المنهج يطرح من جديد تساؤلات واضحة عن حدود كم المعرفة التى يمكن للمأثورات الشفاهية أن تحتويها أو تنقلها . أو ليس هذا تحديداً معوّقًا تمامًا ؟

وحتى مع وجود سلسلة من البدائل ، فإن مثل هذا التأليف الشفاهى لايمكن أن يتقدم بالمعرفة أو الدقة . إنه مقيد بأغلال عدم استمرارية الكلمة المنطوقة ، ومع القدر المحدودة للذاكرة البشرية ، حتى عندما تساعدها الأجهزة المقوية للذاكرة ؛ فإن الثقافات الشفاهية لايمكن أن تتجدد على هذا النحو ولابد أن تنسى . وهذا الرأى يشكل محور مناقشة البروفيسور چاك جودى Jack Goody فى كتاب : The Domestication of the Savage Mind.

«فالعقل المتوحش» يصير «مستأنسا» عندما تجعل وسائل الاتصال تغيير الحالة ممكنا :

«الكتابة ، وبتحديد أكبر الكتابة الأبجدية ، جعلت من الممكن فحص الخطاب بدقة وعناية وبطريقة مختلفة بإعطاء الاتصال الشفاهى شكلاً شبه دائم ؛ هذا الفحص الدقيق حبَّذ الزيادة فى مدى النشاط النقدى ، ومن ثم أدى إلى العقلانية والشك والمنطق . وقد زاد من إمكانات النقد ، لأن الكتابة وضعت الخطاب أمام عينى المرء بطريقة مختلفة نوعًا ؛ وفى الوقت نفسه زادت من إمكانية المعرفة التراكمية ، لاسيما تلك المعرفة التى تنتمى إلى النوع التجريدى... ولم تعد مشكلة قدرة الذاكرة على التخزين تتحكم فى الحياة الفكرية للإنسان . فقد تحرر العقل الإنسانى ليدرس النص الثابت بدلاً من أن يكون مقيداً فى حدود المشاركة فى النطق الحى(١١) » .

وبينما قد ينازع عدد قليل من المؤرخين الشفاهيين فيما قاله جودى عن التحرير الفكرى

للكتابة ، فإن الكثيرين، وأبرزهم ڤانسينا فى كتابه عن « المأثورات الشفاهية» بوصفها تاريخًا Oral Tradition as History ، سوف يتنازعون حول توسيع حالة جودى ليقولوا إن المأثورات الشفاهية متماثلة فى ثباتها بالتالى : وإن ما هو غير مناسب أو لم تعد له أهمية وظيفية يكون منسيًا . وهو يشير إلى أن فقدان الذاكرة البنيوى قد أصاب الثقافات الشفاهية ، والتى أجبرت بالتالى على أن تكون انتقائية بفعل قصور الذاكرة ، ولذلك فإن المأثورات لايمكن أن تكون مادة تاريخية جيدة .

والحقيقة أن مثل هذا الفقدان البنيوى للذاكرة نادرًا ما يكون شاملاً . ففى كثير من الأعمال الأولى، والتى بلغت ذروتها فى كتاب ڤانسينا الرائع الذى كتبه عن تاريخ ما قبل الاستعمار فى أفريقيا الوسطى الاستوائية بعنوان : Paths in the Rain-Forest(١٢) يظهر ڤانسينا كيف يمكن للمرء أن يفك ويحل شفرة الخيوط المختلفة لتراث ما ، الكامنة فى الحلقة الأخيرة من سلسلة النقل . فهو يتضمن متغيرات مقارنة ويفك مغاليق الشفاهى بمصادر من مختلف الأنواع. وأسلوب المقارنة النصية الداخلية للتغلب على التوازن بين عناصر النص أسلوب معروف جيدًا . فالعلماء المسلمون يقيِّمون روايات الحديث بتقدير قيمة كل حلقة من حلقات سلسلة «الإسناد» ولايقبلون أى حدث لاتكون معلومات سلسلة الإسناد فيه ممتدة وكاملة بشكل معقول . ولكن حتى إذا كان المرء يستطيع أن يتغلب على التوازن ويؤسس ما هو موجود من المأثور فى شهادة ما، أى يتوخى دقة الشكل، فكيف يمكن تحديد تواريخها ؟

إن دقة التتابع الزمنى كانت الخاصية الثانية من ثلاث خصال يسعى إليها المؤرخون الذين يقعون فى هوى الوثائق . وفى غمار محاولة الوفاء بهذا المطلب بحيث يمكن الحصول على نياشين الاحترام وأوسمته ، أسىء استخدام المعلومات الشفاهية بشكل خطير . ويمكن توضيح المشكلة بسهولة . إذ إن فئة السرد تحتوى غالبًا على ثلاثة أنواع من النقل . فهناك مأثورات عن التكوين ، وتواريخ الأسر الحاكمة ، وروايات عن التنظيم الاجتماعى. والآن لا توجد هذه الأنواع الثلاثة من النقل كلها داخل المفاهيم نفسها عن الزمن على الرغم من أنه، يمكن لأداء الدليل أن يخلط بين أنماط المادة بطريقة تشبه إلى حد ما خلط أنواع اللحوم المختلفة فى السجق .

الوقت غير المبنى

مأثورات عن التكوين والبدايات

الزمن «التراثى» (متتابع ولكنه ليس مسلسلاً)

تواريخ السلالات الحاكمة

روايات عن بناء الدولة

الزمن المتسلسل

كتب إدوارد إيڤانز - بريتشارد Edward Evans- Pritchard ، عالم الأنثروبولوچيا الكبير الذى درس شعب النوير فى جنوب السودان قبل الحرب العالمية الثانية، مقالة أساسية تصف ما أسماه «الزمن الأيكولوچى» ، أى الزمن الدورى الذى يرى الناس مروره فى تغير الفصول، وليس فى مسار السنين . وبتكبير هذه النقطة ، جادل المؤرخ الاجتماعى ثومبسون بأن التحول من معانى الزمن التى تحددها المهام والأعمال - «طبخ الأرز» (نصف ساعة) فى مدغشقر، و«شى الذرة» (خمس عشرة دقيقة) فى غرب نيچيريا ؛ و«عقيدة الإيمان مرتين» فى كنيسة شيلى الكاثوليكية فى القرن السابع عشر - إلى المعانى العامة للزمن، كان تنظيم الوقت بالساعة » والذى كان تلقائيا من الناحية الثقافية وله أغراضه ومقاصده ، جزءًا من المجتمع الصناعى وأساسيا بالنسبة له على السواء(١٣) . ويمكن فى الحال أن نخمن أشكال إساءة استخدام المادة الشفاهية : فقد حاول المؤرخون الكتابيون أن يحصلوا على الزمن المتسلسل فى عمليات تتابعية من بطون المأثورات الموجودة فى الزمن «التراثى» . وهناك ربما تؤثر الأهمية الحالية أو الماضية للموضوع على وضعه . وعلى سبيل المثال ، الأشياء المهمة جدا ربما يقال إنها قديمة جدا - أو جديدة جدا- بعيدة أو مطولة ، اعتماداً على السياق وعلى الأغراض والمقاصد الموجودة .

ولكن المؤرخين المستشكفين الذين يسعون وراء الدقة الزمنية التتابعية بالقناعة والإخلاص اللذين ميزا الجامعين من أكارم الرجال فى القرن التاسع عشر ، لم يفكروا فى هذا . فقد أخذوا، مثلا ، أسطورة ملكية. وأحصوا عدد الملوك الذين ورد ذكرهم . وافترضوا وجود مساحة زمنية للجيل قدرها ثلاث وثلاثين سنة مثلا . ثم عددوا الواحد بالآخر، و«جلا جلا» ، عددوا تواريخ الثقافات الشفاهية ! وهناك مؤرخ واحد على وجه الخصوص ، هو ديڤيد هنيج David Henige هو الذى اختبر هذه الميول التبسيطية وفجرّها . وكتابه الموسوم .

The Chronology of Oral Traditon

والذى يحمل عنوانًا فرعيًا معبرًا هو : Quest for a Chimera يمتد من الممالك الأفريقية إلى قوائم الملوك الآشوريين، مثلما ينشر تحطيم المسلّمات القديمة والشك، كما أن هنيج ينشر بعض الأمل (١٤). ذلك أنه بمجرد أن يفهم المرء أى نوع من الزمن يتعامل معه ، وما نوع الأغراض والمقاصد التى دعمت المأثور فى الذاكرة ، فإنه يستطيع أن يتخذ الإجراءات الدفاعية، وإن كانت غير محددة . وترتبط مثل هذه المعرفة بالسياق على نحو يكاد دائما .

وثمة إجراء أهم من معظم الإجراءات . إذ إن أحد أهم الفصول التى كتبها هنيج يحمل عنوان «التاريخ سياسة الحاضر» . فقد كان التعرف على حقيقة اختراع التراث أحد أكثر الأفكار المبتكرة تدميرًا فى تاريخ خارج أوربا إبان الجيل الأكاديمى الأخير، ونرى فى استخدام ديفيد كانادين، مثلا ، لهذه الفكرة فى إعادة دراسة أساطير الملكية البريطانية، استيرادًا مهمًا فى مجال المنهج من تاريخ مناطق خارج أوربا وإدخاله فى مجال التدوين التاريخى الأوربى حيث أدت متطلبات اللغويات والعلوم المتداخلة إلى تحقيق القدر الكبير من الريادة المنهجية فى الدراسات التاريخية خلال الجيل الأكاديمى الأخير (١٥).

واختراع التراث ليس مدهشا وليس غير أمين، لاسيما فى الثقافات التى ليس لها معيار وحيد للحقيقة . فهو مشابه لدفاع السجين عن نفسه بإدعاء البلاهة أو الصمم، وهو ما استكشفه بأسلوب حى ألكسندر سولزهنيتيس Alexander Splzhenitsyn فى كتابه:
One Day in the Life of Ivan Denisavitch

والمواقف الاستعمارية شبيهة من حيث كونها أيضا تتسم بالتطرف فى القوة وانعدام القوة. وفى ظروف خاصة معينة، لايمكن استعادة الذاكرة على الإطلاق؛ وفى الظروف الشمولية ، ربما يكون تتابع الزمن وإيقاع الزمن نفسه هو الذى أحدث التشويه ؛ أما فى السياقات الاستعمارية، فإن التقارير عن البنية الاجتماعية وتراث السلالة الحاكمة يتم إعادة اختراعها فى الغالب الأعم.

وهناك أنواع معينة من الذاكرة لايمكن استعادتها للأبد بسبب طريقة ضياعها . وكانت تلك هى الحالة التى جسّدها الكاتب الإيطالى بريمو ليفى Primo Levi الذى كان أحد الناجين من معسكر أوشفيتز Auschwitz بخصوص الهولوكوست . إذ إن كتابه الأخير The Drowned and the Saved ، واحد من أفضل الأفكار المتبصرة فى طبيعة الحياة وأسلوب العملية النفسية فى معسكرات الموت التى لدى الأجيال التالية. ومع هذا فإن ليفى أكد فيه على غرابة

استعادته للذكريات ، وما نتج عن ذلك من عيوب شابت تفسيره . وتحديداً ، فإنه لم يستطع استعادة الذاكرة من الأعماق حيث غرقت الأغلبية: ولم يرجع أحد من هناك، وكان هو أحد القلائل الذين تم إنقاذهم . وفى النهاية، بالنسبة له وبالنسبة لعالم النفس الفرويدى الكبير برونو بتهاهيم Bruno Betteheim ، الذى كان أحد الناجين من المعسكر أيضا، يبدو أن عبء النجاة كان أكبر من اللازم بالنسبة للاثنين ، وكلاهما انتحر فى سن متقدمة . وربما بالنسبة لهما لم يكن ممكنا إعادة اختراع الماضى أو التواصل معه . إذْ كان هذا الماضى لا يوصف بالمعنى الحرفى للكلمة[١٦] .

وهناك خطوة أقرب إلينا من الصمت تتمثل فى إعادة تكوين المادة. فقد أوضح مؤرخ التجربة السوفيتية چيوفرى هوسكنج Geoffrey Hosking الموقف الشمولى باقتباس من «الراديو الأرمنى» : «إن كل الحقائق الأصلية عن الحياة السوفيتية موضحة بالحكايات الشفاهية ، التى نبع كثير منها أصلا من الراديو الأرمنى الأسطورى. وهكذا : يطرح السؤال على الراديو الأرمنى» هل يمكن التنبؤ بالمستقبل؟» الإجابة «نعم تلك ليست مشكلة : نحن نعرف بالضبط ما سيكون عليه المستقبل . إن مشكلتنا مع الماضى: الذى يواصل التغير» [١٧]. ومنذ العمل بسياسة المصارحة (الجلاسنوست) فى الاتحاد السوفيتى ، كانت معركة السيطرة على الذاكرة معركة مريرة . وثمة فريق بالفعل يسمى نفسه باميات (الذاكرة) ؛ وفريق آخر معاد بشدة للوطنية السلاڤية المتحمسة ومعاداة السامية لدى باميات ، يسمى التذكارى . وقد حفز الفريق التذكارى الأكاديمى الراحل أندريه سخاروف Andrei Sakharov باعتبار تلك طريقة لإنقاذ ضحايا ستالين من غياهب الصمت. وقد صارت استعادة الذاكرة الشعبية من سيبيريا العقل * نشاطًا سياسيًا بارزا ولم يعد نشاطًا هامشيًا بأي حال فى الثورة الروسية الثانية. فقد خلقت القوى الإصلاحية التزاماً بأن تقدم إلى المؤتمر العام لنواب الشعب أواخر سنة ١٩٨٩م تقريرا عن إنقاذ واحدة من الحكايات الحاسمة وإعادة تفسيرها ، وهى معاهدة هتلر- ستالين[١٨].

---

* يقصد الكاتب بهذه الاستعارة لاسم منطقة سيبيريا التى كانت منفى المعادين للحكم السوفيتى وغير المحظوظين من خصومه، أن الذاكرة الشعبية يمكن أن تتوه فى غياب صحراء النسيان الجليدية الميتة . (المترجم)

وقد دارت الحرب حول طبيعة التاريخ بقسوة فى بريطانيا أيضا . ففى سنة ١٩٨٥م نشرت هيئة التفتيش الملكية رؤية عما ينبغى للأطفال أن يتعلموه. وقد جمع الكتاب الأزرق HMI "Blue Book" الكثير مما كان أفضل تجديد فى المدارس على مدار السنوات العشرين الماضية: أعمال مثل مشروع مجلس التاريخ فى المدارس Schools Cuncil History ، الذى علم الأولاد ما بين سن الحادية عشرة والرابعة عشرة التفرقة بين الأدلة الجيدة والأدلة السيئة، ولكى يتعرفوا على شرعية أنماط كثيرة من المصادر ، بما فيها المصادر الشفاهية، ويمحصوا جميع الحقائق الشائعة، وأن ينوهوا بأزمات الناس فى الماضى باعتبار ذلك حافزًا جوهريًا على الخيال التاريخى (١٩). ومثل الثوريين المحدثين فى الاتحاد السوفييتى، فهم الباحثون بدقة عن المغزى السياسى للدراسة القوية للتاريخ ومن ثم وضعوا على الغلاف الخلفى للكتاب القول التالى لنيكيتا خروشوف : « المؤرخون قوم خطرون. إنهم قادرون على قلب كل شئ».

وقد ألغت حكومة مسز تاتشر مجلس المدارس . فقد كانت هناك محاولة غاضبة مطولة وغير ناجحة من جانب مسز تاتشر واليمين الراديكالى لأن ترسى حصريا شروط مجموعة سوندرز واطسون للعمل فى التاريخ سنة ١٩٩٠م Saunders Watson History Working Group التى تقدم المشورة إلى قسم التعليم والعلوم بشأن محتوى المقرر الدراسى الوطنى بمنهجه عن التاريخ الدستورى والسياسى البريطانى ، بما يحمله من ضيق أفق وتزمت، وبالتزامه بالوثائق، وما يتسم به من الزهو والهويجية (نسبة إلى الـ Whig)، مع التأكيد على تعليم حفظ التواريخ و«الحقائق» والبعد عن التخيل التاريخى. وهنا أيضا يمكن أن نجد إنكار شرعية التاريخ الشفاهى .

وقدمت مجموعة العمل تقريرًا فى مصطلحات شبيهة بتلك المصطلحات الواردة فى تقرير HMI سنة ١٩٨٥م، وأطيح به بواسطة إجراء وزارى عندما قام مستر كينيث كلارك Kenneth Clark ، الذى كان قد تولى المنصب حديثًا، بفرض الآراء التى رفضتها مجموعة العمل، والمدرسون والكتاب الأزرق جميعًا . وفى وقت كتابة هذه الدراسة (فبراير ١٩٩١م) هناك فوضى واستياء من هذا التصرف بين صفوف العاملين فى المهنة(٢٠).

تكشف هذه القصص عن أمرين . أن سيبيريا العقل ليست فقط أرض الصمت الميت ولكنها أيضا أرض الإنكار الحى للشرعية . فهى تسلّم من لا صوت لهم إلى التعطف والهيمنة

التى تحرمهم من حقوقهم من جانب الحكام الحاليين . وفى هذا، يردد البريطانيون وهم يرتعشون الجدل السوفيتي. وثانيا، أن الدليل على هشاشة الماضي وليونته تحت الضغط المعاصر أمر واضح وبارز . ويمكن أن يجرى هذا الاختراع بمعدل كبير .

لم يكن شعب التيف Tiv فى وسط نيجيريا قوماً كرام المحتد . ففى أوائل القرن العشرين حاربوا الجنود البيض الذين كانوا يقيمون خطوط التلجراف عبر أراضيهم، وبذلك حازوا شهرة بأنهم بلا قانون ، وخونة ، وطبعا ، وثنيون أقحاح. وعلاوة على ذلك، وُصموا بالفوضى لأنه لم تكن لديهم تراتبية واضحة للزعماء . ومن ثم، عندما حدث سنة ١٩٠٧م أن وصف مقيم بريطانى هو تشارلز فوربيس جوردون Charles Forbes Gordon ، مجتمعهم للمرة الأولى ، رأى وسجل الطبيعة التقسيمية لعشائرهم . ولكن بحلول وقت الحرب العالمية الأولى ، كانت الإدارة البريطانية فى نيجيريا مترهلة بشكل سيىء ووجدت أن من الأنسب أن تتوقف عن النظر إلى التيف باعتبارهم التيف ، وبدلاً من ذلك ضمتهم إلى جيرانهم من الهوسا . وبدافع من الرغبة العطوفة فى المساعدة قام زعماء التيف بجعل أنفسهم من الهوسا فى عيون المستعمرين: فتحدثوا لغة الهوسا، ولبسوا مثل ملابسهم وهلم جرا . ولكن حدث سنة ١٩٣٠-١٩٣١م قام بزيارة التيف ودراستهم ابراهام A.C. Abraham الذى كان عالما أنثروبولوجيًا تابعًا للحكومة وداونيس R.O.Downes ، الذى كان ضابط الناحية .

واقترح تقرير ابراهام- داونيس نظرة جديدة للتيف. فقد رأيا المجتمع عديم الرأس الذى وصفه فوربيس جوردون قائما فى مصطلحات تراتيبية واضحة منعكسا فى مجموعة جديدة من المجالس المرتبة. ولكن إضفاء الشرعية على هذه المجالس ورؤسائها حرم الجيل الأصغر من التيف المتعلمين من الحماية السياسية المحتملة . ولذلك فإنهم، بدورهم ، بدأوا يدافعون عن قضية جديدة، هى قضية التور تيف tor Tiv- رئيس أعلى للتيف يفوق المجالس ويتطابق (مصادفة) مع النموذج «العادى» للسلطة المحلية التى يحوزها الضباط البريطانيون الذين تعلموا فى مدرسة اللورد لوجارد طرق الحكم غير المباشر . وثمة دراسة أنثروبولوجية أخرى جرت سنة ١٩٤٠م ، قررت أن التيف كانوا محكومين فعليًا بالكبار الذين شكلوا هرمًا للسلطة . فهل يحتمل أن يوجد حقًا زعيم محلى أعلى ؟ ففى غضون أربعين سنة كان مفهوم البنية الاجتماعية للتيف قد انقلب رأساً على عقب . ثم فى أخريات الأربعينيات من القرن العشرين جاء اثنان آخران من علماء الأنثروبولوچى ، آل بوهانان Bohannans ، ودراستهما الكلاسيكية عن التيف باعتباره مجتمعا مقسمًا طوليًا ، مثل المجتمع الذى وصف عندما تم التعرف عليه للمرة الأولى، لا يزال موجوداً .

لقد سعى كل باحث أوربى وراء التيف «الحقيقيين» وفى كل مرة يخرج كل منهم بصورة جديدة، بعض مؤيدى التيف، الذين عملوا لصالحهم ، أعادوا اختراع ماضيهم على سبيل التبرير . ونحن نعرف هذه القصة فقط ، لأن مؤرخًا هو دوروارد D.C. Dorward أدرك أن الباحثين كانوا جزءًا نشيطا من التاريخ ، ولأنه عرف أن من الممكن اختراع التراث بدرجة كبيرة[٢١] ومن الواضح أن الدفاع ضد التراث المصطنع هو بالضبط ، أن تكون هناك رؤية أقل ثقة فى مدى إمكانية الاعتماد على الشهادة الشفاهية غير المدعمة وعلى الأسلاف الأكاديميين للمرء على السواء، ما لم يكونوا قد أبدوا دلائل على وعيهم بالمشكلة . كما أن المشكلة ليست محصورة فى نطاق التاريخ الشفاهى وحده .

وثمة مثال أفريقى آخر يؤكد اعتراض ڤانسينا على صورة المثلات الرئيسيات وبديلاتهن. وهى توضح أن الإفراط فى الثقة برأى المصادر المكتوبة غير المدعمة، ممتزجًا بقدر من الاحترام البالغ للمؤرخين ، يمكن أن يكون مزيجًا مضللاً بالقدر نفسه . وبتطبيق الشك المنهجى ، طرح چوليان كوبنج بشكل مقنع تساؤلات عن ثلاث عقائد مركزية فى تاريخ جنوب أفريقيا: الرؤية الشعبية لشعب المتابيل Matabele فى زيمبابوى باعتبارها ثقافة محاربين ، الأسطورة المركزية للوطنية الزيمبابوية- بمعنى أن سابقتها المباشرة تكمن فى انتفاضات عامى ١٨٩٦-١٨٩٧م (وهى رؤية تضرب بجذورها فى رؤية المؤرخ البريطانى المولع بالوثائق رانجر T.O. Ranger) ؛ وفى زمن أحدث، تساءل عن أهمية ظاهرة المفكان Mfcane ووجودها نفسه- وهى بعثرة الشعوب التى كان الظن سائدًا بأنها من نتائج تدمير دولة الزولو فى منتصف القرن التاسع عشر [٢٢]. أما فى حالة الانتفاضات ، ولأن الثقافة الزيمبابوية الحديثة ثقافة مؤلفة ، فإن تفسير رانجر الوطنى قد أدخل الآن السجل الشفاهى للأشخاص الأميين فيها ، وبذلك صارت هى الإجابة عن الأسئلة المطروحة عن تلك الأحداث ، مما غطى على أى موروث آخر. وبينما قد يكون من المفيد أن نفهم أسباب اختراع المأثورات ، فمن المحبط أيضا أن نشهد ضياع إمكانية بناء رواية يعوّل عليها عن حوادث مهمة مثل هذه ؛ نتيجة لنقص أساليب التدوين التاريخى وعدم كفايتها . ولايمكن التسامح مع هذا بالتعرف على الحاجة التى يحتاجها مثل هذا المجتمع لما يسميه «التاريخ القابل للاستخدام» على حد تعبيره فى دراسة أخرى[٢٣].

إن الاعتراف بإمكانية تعرض سفينة المؤرخين الذين تسوقهم الوثائق للغرق على هذا النحو

يفسح مكاناً للقلق بشأن إساءة استخدام المعلومات الشفاهية فى البحث عن التتابع الزمنى المسلسل . وفى كل من الحالين، يكون الحل هو الذى استبعد ڤانسينا التماهى فعلياً معه : أى استخدام مصادر مستقلة عديدة متلاقية . وبالنظر إلى التتابع الزمنى ، فمن التحليل الداخلى يمكن *للمأثورات الشفاهية الرسمية* أن تقدم تاريخا متواليًا متتابعًا ، *لكن تواريخ الأحداث* ليست دقيقة بالضرورة . وفى سبيل المزيد من الدقة، ينبغى على المرء أن يبحث عن التوافق مع المصادر الخارجية . والأدلة الأثرية ، وكسوف الشمس أو خسوف القمر أو الكوارث الطبيعية الكبرى نقاط شائعة يشار إليها فى حساب الوقت . وأساطير الأصول والتكوين، وتواريخ السلالات الحاكمة، وتواريخ العائلات عند الناس العاديين والأمثال ، وشعر المديح، والسرديات قد توفر *لنا إمكانية الدخول* فى قلب ثقافة *ما* فى زمن *ما* . *فإذا ما توصلنا إلى* المصادر الخارجية ربما يمكننا الدفاع عن أنفسنا ضد التراث المخترع، واستطعنا أن نحدد بعض التواريخ المسلسلة ويفيد بناء هذا النوع من الماضى بهذا الأسلوب.

ويتبقى أن ندرس نوعًا واحداً من السرد ، وقد تم وضعه عمداً فى فئة منفصلة لأنه يدور حول الفرد الواحد وتجاربه . إذ إن مثل هذه الذكريات الشخصية هى المعلومات الرئيسية التى يستخدمها المؤرخون فى دراسة المجتمعات التى تحكمها الكلمة المكتوبة. ويمتد نطاقها من عتبة الإمكانية البيولوجية– حوالى ثمانين سنة– فصاعداً .

وبينما تمثل الذكريات النوع الأول من المعلومات الشفاهية ، فإنها ليست النمط الوحيد فى المجتمعات التى تقرأ وتكتب . أما المأثورات الرسمية ، بالمعنى الذى ناقشناه توًا ، فتستمر فى الوجود. والمثال الكلاسيكى على ذلك بحوث يونا وبيتر أوبى Iona and Peter Opei، إذ يقرران فى كتاب The Lore and Language of Schoolchildren ، أن *اللغز المتداول فى اللعب* يمكن أن يبقى متماسكًا وهو ينتقل عبر سلسلة طويلة من الرواة. وبما أن جيل أطفال المدارس أقصر فى مداه الزمنى من جيل الذين ينقلون الأمثال الملكية *بلغة اللوزى* التى قدمناها فى الصفحات السابقات، وهذه الأمثال عبارة عن نظم شعرى ركيك انتقل على مدى حوالى ١٣٠ سنة، ولابد أن يستغرق نقلها حوالى عشرين جيلاً من أجيال أطفال المدارس، أى ما يعادل ثلاثمائة من الرواة تقريبًا : وهو ما يساوى خمسمائة سنة بين أجيال الكبار(٢٤) . هذه العملية الحسابية تؤكد بقوة أن فكرة الاستمرارية المدعومة بالطاقة المتولدة عن هذا التجديد الذى لايتوقف ، تتطلب الشرح أكثر مما تتطلب المتغير . فمن بين ١٢٣ أنشودة تم تسجيلها سنة ١٩١٦م فى كتاب London Street Games الذى كتبه نورمان دوجلاس Nor-

man Douglas وجد «آل أوبى» مائة وثمانى أنشودة لا تزال باقية فى خمسينيات القرن العشرين . وثمة أغنية عن جندى قاذف للقنابل اليدوية وجد «آل أوبى» نصوصا تحمل عناصرها الجوهرية الثابتة يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٢٥م . وعلى العكس ، فإن الذاكرة الشخصية ليست غائبة فى المجتمع الأمى، بيد أن الدور الذى تلعبه فى المجتمع المتعلم يستأثر بالاهتمام والانتباه . فهل الذاكرة الشخصية مجرد لغو من جانب المسنين عن الأيام الحلوة التى انقضت ؟ نعم ولا .

يقوم قدر كبير من النقد الذى يسوقه المؤرخون المغرمون بالوثائق على القول بأن ذكريات المشهورين المهمِّين مفتوحة بسهولة مفرطة للتبرير الذاتى بأثر رجعى ، أما ذكريات غير المهمين فهى رهن الذاكرة. وفى كل من الحالين لايمكن الاعتماد على الذاكرة وهى غير جديرة بالثقة إذا ما قورنت بالسجلات غير الحية اللا متغيرة التى تحتوى على الوثائق التى تغطى تلك السنوات الوسيطة . وتؤخذ النقطة الأولى، حسبما تشهد رفوف السير الذاتية السياسية، بشكل جيد، أما النقطة الثانية فليست كذلك لأن المصادر الوثائقية لم تصل إلينا بصورة تلقائية لا واعية، كما قد يتبادر إلى ذهن المرء.

لقد ولّت منذ قرن مضى تلك الأيام التى شهدت إيرل روز بيرى الخامس يودع يومياته أفكاره وهواجسه ، يوم أن كان الحكم يعنى التفكير والمذكرات المكتوبة بخط اليد من قبل جماعة متمايزة، وعندما كان المؤرخون يأملون ، بقدر من الثقة، فى أن يجدوا هذه الوثائق كاملة ويقرأوها ، وكانوا يعتقدون أن بوسعهم تصديقها. ومنذ ذلك الحين ، تم حزم جميع الأوراق الرسمية بعيداً عن السيطرة. فقد صار يتم انتقاء ما يجب حفظه ، مما جعل الفرازين فى شغل دائم . ومن ثم فإن ما تحويه دور الحفظ الرسمية قد يكون، سواء عن قصد ووعى، وهو ما يكون ضاراً فى غالب الأحيان، أو بسبب الاختيارات الخاطئة لما يجب حفظه وما ينبغى إحراقه ، قد يكون هذا المحتوى مضللا بالقدر نفسه الذى يعيب المصادر الأخرى. وثمة درس عملى بعيد المدى يتمثل فى التناقض بين السياسة التعسفية والتى تزداد سرية باطراد من جانب أقسام الحكومة البريطانية والتسهيلات المقدمة فى الشئون البريطانية من جانب دور الحفظ الأمريكية فى ظل مرسوم حرية المعلومات. ففى وقت حرب جزر الفوكلاند سنة ١٩٨٢م، مثلا، فإن الأوراق التى تتعلق بالمناقشات الباكرة عن الجزر، لاسيما رأى وزارة الخارجية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، والتى تلقى ظلالاً من الشك على متانة المزاعم القانونية البريطانية بالسيادة ، هذه الأوراق تم سحبها فجأة وحجبها عن الإطلاع العام ، على الرغم من أن ذلك لم

يحدث قبل قيام مؤرخ يقظ، غير جدير بالثقة حقا ، بنسخ صورة من هذا الرأى وتسريبها للصحافة، وهو ما أثار حنق مسز تاتشر بشدة.

وقدمت محاكمة أوليڤر نورث Oliver North ، الذى كان مساعداً للرئيس الأمريكى ريجان ومدير قضية إيران / كونترا نيكاراجوا الشنيعة، توضيحًا صارخًا على انهيار فروض العمل التقليدية لدى المؤرخين بشأن الوثائق. ذلك أن قاعة محكمة مبهورة سمعت، عن جلسات ليلية متأخرة لتمزيق الأوراق قامت بها سكرتيرة مستر نورث الفاتنة، والتى تسمى Fawnb Hall ، وتهرب الوثائق التى تحمل أدلة الجريمة فى حذائها ذى الرقبة الطويلة (البوت) وفى ملابسها الداخلية، كما سمعت عن محاولة نورث أن يتجنب ترك أثر للوثائق باستخدام شبكات الكمبيوتر لبعث رسائله . ومن سوء حظه ، أمكن استعادة الرسائل الممسوحة من ذاكرة الكمبيوتر . ولكن النقطة هى بساطة الرجوع إلى الشفاهى، عن طريق تكنولوچيا المعلومات الالكترونية ، من أجل اتخاذ القرار الجوهرى . فعندما توجد الوثائق ويمكن قراءتها، فإنها غالبا ما تشير إلى قرارات تم اتخاذها فى مكالمات تليفونية .

ومن حين لآخر، تظهر المسافة الفارقة بين الأصل الشفاهى والنص الرسمى المكتوب لاحقًا فى دائرة الضوء بالمصادفة . ففى بريطانيا إبان الركود الكبير، اجتمعت لجنة مهمة فى الشئون المالية تحت رئاسة القاضى مكميلان Judge Macmillan . وقد تم وضع الأدلة على هذه اللجنة بطريقة تفصيلية فى مؤلفات محترمة عن تلك الفترة. وأحد هذه المؤلفات كتاب روبرت سكيدلسكى Robert Skidelsky بعنوان Politicians and the Slamp (٢٥). وكان هناك شاهد ذو أهمية خاصة أمام اللجنة هو مونتاجو نورمان Montagu Norman ، رئيس بنك انجلترا، ولكن الرواية العامة لشهادة نورمان لم تكن ما قاله بالفعل . فقد تم العمل بكثافة على شهادة نورمان الشفاهية من أجل تسجيلها . ونحن نعرف ذلك بالصدفة . إذ إن نسخة إدارة السجلات العامة Public Record Office للشهادة الشفاهية تم تدميرها ، ولكن تم حفظ نسخة أخرى فى محفوظات بنك انجلترا، حيث كان أحد المؤرخين الاقتصاديين يبحث عن شىء آخر قد عثر عليها بالصدفة .

وفى الولايات المتحدة، فإن المدى الذى كان على موظفى وزارة الخارجية أن يذهبوا إليه فى صياغة الشهادة الشفاهية لجون فوستر دالاس وزير الخارجية وبطل الحرب الباردة ، الذى كان يزدرى ملخصاتهم ، أمر معروف تمامًا . وكان يعتبر من ضروب إساءة الأدب بالنسبة

لسجل الكونجرس أن يحمل مثل هذه الأحكام البذيئة اللاذعة على حلفاء الولايات المتحدة مثل إجابات دالاس عن لجنة التخصيص بأن «للفرنسيين جميعا عشيقات وكروت بريدية قذرة» ولكن مع هذا فإن «فرنسا كانت مفيدة باعتبارها قطعة صغيرة من الأملاك العقارية». (وقد تم الكشف عن أقواله التعميمية عن ألمانيا وبريطانيا أيضا) .

وهكذا يمكننا أن نقلب الطاولات . ويمكننا أن نجادل بأن الشهادة الشفوية فى الحقيقة، سواء تم جمعها على شريط تسجيل ، أو عن طريق البحث الميدانى بين قبائل القادة العسكريين ووزراء الخارجية هى الأقرب إلى منبع النافورة . ومن المؤكد أنها معرضة للمشكلات التى تماثل فى حدتها تلك المشكلات التى تؤثر فى المصادر الوثائقية الحديثة ، بيد أنها مختلفة. وكلاهما يشترك فى أنهما يمكن أن يخضعا لاختراع التراث (حسب ما ظهر من الرأى القائل بالانسحاب من جزر الفوكلاند فى مكتب السجلات العامة PRO)، بيد أن المشكلات فى إساءة استخدام المادة الشفاهية يمكن أن تكون أسهل فى رصدها وحلها .

وبالإضافة إلى إساءة الاستخدام ، وهو ما يمكن تجنبه ، هناك مشكلتان شائعتان فى نقد المصادر تؤثر على الشهادة الشفاهية، ولايمكن تجنبهما. إحدى هاتين المشكلتين هو التأثير اللاواعى للشكل المكتوب على الشهادة الشفاهية. ويحدث هذا على نحو لا يمكن تجنبه فى الثقافات المؤلفة. إذ يمكن إدخال وجهة نظر مكتوبة فى الشهادة الشفاهية لشخص ما من خلال التأويل. وهذا وهو أمر شائع فى السياقات المشحونة جدا، مثل سياق المواجهة الاستعمارية، والمثال الزيمبابوى عن إعادة إدخال تفسير رانجر فى الثقافة الشفاهية الذى ذكرناه فيما سبق. وهناك أيضا جانب ثان لمثل هذا التأثير ، وهو جانب مؤذ بطريقة مختلفة، عندما يفتت الشكل المكتوب حالات إعادة الجمع ولا يلبث أن يمحوها . وأشهر الأمثلة عن هذا هى الأمثلة الموسيقية. فقد كان رالف ڤوجان ويليامز Ralph Vaughan Williams ، وبيرس جرينجر Percy Grainger وبنيامين بريتين Benjamin Britten ، من بين كثير من المؤلفين الموسيقيين فى أوائل القرن العشرين الذين جمعوا أو استخدموا ، أو جمعوا واستخدموا الأغانى الشعبية فى أعمالهم ، التى ترجمت وأبقت على الأغانى الأصلية فى نفس لحظة ضياعها فى البريد. وفضلاً عن ذلك فإن بعض أشهر الجامعين المحدثين، مثل إيوان مكول Ewan McColl الذى أنقذ وأنعش عددا كبيراً من أغانى العمال الاسكتلندية وشمال انجلترا والقصص الشعرية الغنائية، وكانوا أيضا من مؤلفى النوع الأدبى، وأغانيهم الجديدة

والمجموعة لا يمكن التمييز بينها سواء من جانب المستمعين أو من جانب المؤدين . وهكذا ، فإن ما يُسمع الآن من أغنيات تغنى فى أحد البارات فى كيرى أو فى جاللواى قد مرَّ عبر دائرة إعادة الإدخال التأويلية. ولكن هذه المشكلات يمكن، مع التفكير ببعد نظر، توقعها ويمكن تناولها بالأسلوب النقدى؛ وربما يصير هذا أكثر سهولة مما هو الحال مع المصادر الوثائقية ، حيث تلوث المجرى الرانكى باختراع التراث حتى قبل أن ينبع من الأرض . وإذا ما تذكرنا حياة الإخبارى الذى يتبنى ما يظن أنه مهم، فربما يتوفر لديه النوع الأنقى من السجلات .

ولا تزال الكيمياء الحيوية للذاكرة مستعصية على الفهم . ولكن الاختبارات على أنماط مختلفة من الذاكرة تميل إلى الاتفاق على أن ذاكرة المدى الطويل، خاصة فى أفراد دخلوا تلك المرحلة التى يسميها علماء النفس «مراجعة الحياة» ، يمكن أن تكون دقيقة بشكل لافت للنظر. فالناس يحوزون «بركة معلومات» تملؤها العلاقة الشخصية . وهى محصورة ضمن نطاق سياقهم الاجتماعى، الذى يشكل الهوية الشخصية ويتسم بالاستقرار الذى يلفت الانتباه. ويلاحظ ديفيد لونثال David Lawenthal أن هذا يصدق بالضبط على ذكريات الطفولة الكثيفة اللا إرادية» عندما يرى المرء ويتذكر ما كان هناك، وليس ما يتوقعه (مثلما يفعل البالغون)[٢٧] . ومراجعة الحياة هى المنتج النهائى لما يمكن تذكره من العمر. كما أن السرد الثابت لمراجعة الحياة فى «بركة المعلومات» هى بداية التراث الشفاهى على المدى الطويل . والشذرة التى قدمناها من قبل عن زمن جدى فى البيت الكبير بكورنوول هى بلورة واحدة من البلورات التى تشكل التراث .

لقد كان استخدام مثل هذه الذكريات هو الذى شكل أكبر إسهام حتى الآن من جانب مؤرخين مثل بول ثومبسون . فهم مؤرخون اجتماعيون ويستخدمون المعلومات الشفاهية لإعطاء صوت لأولئك الذين لاصوت لهم فى السجل الوثائقى. وعلى الرغم من أن المعلومات الشفاهية ليست فى حد ذاتها أداة تحذيرية ، فقد استخدمت فى المجتمع المعاصر بشكل واسع من جانب مؤرخين لهم قصد جذرى ، على حد تعبير ثومبسون فى السطور الأولى من كتابه The Voice of the Past ، «إن التاريخ كله يعتمد فى النهاية على غرضه الاجتماعى»، والتاريخ الشفاهى يعيد على أفضل نحو بناء دقائق تفاصيل حياة الناس العاديين لم يريدوا أن يفعلوا ، هذا ما نجده فى تراث مايهيو Mayhew ، الذى سجل حياة فقراء لندن فى الخمسينيات، الذى درس حياة الناس وعملهم فى لندن بين سنة ١٨٨٩م وسنة ١٩٠٣م، وتراث

سيبوهم رونترى Seebohm Rowntree فى دراسته عن الفقر فى يورك سنة ١٩٠٢م حيث كان مثل هذا القصد واضحًا دائما فى ممارسة التاريخ الشفاهى من الذاكرة فى التاريخ الإيطالى الحديث(٢٧).

إن ما يمكن للذكريات الشخصية استعادته وتجديده ثروة من التفاصيل التى لا توجد فى مكان آخر . ذلك أنها تتيح وجود تواريخ جماعات على نطاق صغير، مثل عمل بيل وليامز عن يهود مانشستر، والأعمال ذات النطاق الصغير جغرافيا : كالمؤرخين المحليين الذين يكتبون عن قرى أو شوارع قليلة . إنها تعطى المؤرخين الوسيلة لكتابة ما أسماه عالم الأنثروبولوچى كليفورد جيرتز «الوصف المكثف» : وهو روايات غنية بالنصوص لها من العمق والمساحة ما يسمح بالتحليل الأنثروبولوچى القوى .

بيد أن التعاطف الأيديولوچى أو إمكانية التحليل البنيوى على حدة، حتى إذا كان التاريخ الشفاهى عن طريق التذكر هو الأقوى بالنسبة للتاريخ الاجتماعى، فإن الشكاكين لا يزال يراودهم سؤال، وهو ما ذكرته عند بداية هذا الفصل. وربما يكون عونًا ، وربما يكون كاشفًا، بل إنه ربما يكون تحريريًا من الناحية التاريخية ؛ ولكن هل يشكل تفسيرًا؟ ربما تتيح الشهادة الشفوية إثارة وصفية مؤثرة لما يعنيه أن تكون مكسيكيًا فقيرًا ، من خلال الكتاب الرائع لأوسكار لويس The Children of Sanchez ، ولكن فى التحليل الأخير من المؤكد أنها واقعة فى مصيدة النطاق الصغير؛ كما أنه لا يمكن أن نجد فيها القوى الدافعة لنظريات المؤرخين التفسيرية (٢٨).

وثمة اختبار جيد لهذا التأكيد يتمثل فى النظر إلى الرسالة التى كتبها بول ثومبسون بعنوان The Edwardians (٢٩). وهذه محاولة لإعادة خلق نسيج وإحساس الحياة فى السنوات السابقة مباشرة على الحرب العالمية الأولى. إنها فترة حفلت بالرومانسية الوردية فى الذاكرة الشعبية، عندما كان لا يزال هناك عسل للشاى، وعندما كانت ساعة كنيسة جرانتشتسر ما زالت تتوقف عند الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ، عندما كان الرب فى السماء وكل شىء كان صوابًا فى عالم كان على وشك التمزق إربا بفعل الحرب. ولكن ثومبسون يريد أن يقول إن الأمر لم يكن على هذه الشاكلة سوى بالنسبة لقلة قليلة من الناس .

والمصدر الأساسى للكتاب عبارة عن سلسلة من خمسة رسوم زخرفية صغيرة من طفولة الإدوارديين تم تذكرها، وتم اختيارها لتكون ممثلة لكل مستوى فى المجتمع من الأثرياء جدا

إلى الفقراء جداً. وهى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسجل المحفوظات بواسطة إجراء اختيار العينة الذى أدى إلى اختيار الأفراد . وهى حية بشكل مكثف ، ولكنها لا تحمل الثقل الرئيسى لوجهة نظر ثومبسون عن تلك السنوات التى يرى فيها الأزمة الإدواردية : من الطبقات المحافظة مروراً بالمسألة الايرلندية والاضطرابات العمالية الشاملة وواسعة الانتشار من ١٩١١م إلى ١٩١٤م . ولكن بينما تقدم الرسوم توضيحات رائعة ، فإن تحليل ثومبسون لأبعاد عدم المساواة فى المجتمع، ورأيه فيما أدى إلى الأزمة وكل المعلومات على النطاق الكبير التى يستند إليها هذا المستوى من الكتاب ، يأتى من الاستخدام الحساس للمصادر المكتوبة.

وهكذا، وبهذا المعنى ، أتقبل رأى النقاد. وكتاب The Edwardians ليس برهنة على المزاعم شديدة المبالغة لصالح التاريخ الشفاهى المكتوب اعتماداً على المذكرات الشخصية . ولكن ، حينئذ، كما رأينا، وكما كانت الحال مع المأثورات الشفاهية. تنهار المزاعم المبالغ فيها. إن قوة التاريخ الشفاهى هى قوة أى تاريخ منضبط من الناحية المنهجية . وهى تتأتى من المدى والذكاء فى تجميع أنماط عديدة من المصادر وجعلها تعمل سوياً *. كما أن هذا ليس التزاماً يقع على المؤرخين الشفاهيين بطريقة غير متناسقة باعتبارهم يمارسون علماً أقل قيمة. وقد لاحظت فيما سبق أن الانتقال إلى ثقافة ما بعد الكتابة، بما فيها من جدة وعالمية ، إلى ثقافة شفوية ومرئية الكترونيا يفضح كذب الاعتداد بالنفس المهنى لدى المؤرخين التقليديين الذين يعولون كثيرا على الوثائق . إذ يتساوى جميع المؤرخين أمام هذا التحدى.

إن الذكريات الشخصية تسمح للمؤرخ بأن يفعل شيئين. أولا، وبشكل أكثر وضوحاً ، أن يكون مؤرخاً كامل المدى : أى مؤرخ يستطيع أن يعتمد على المادة المصدرية المناسبة لدراسة المدى الكامل من المقاييس والمشكلات فى التاريخ المعاصر. وليس هناك مؤرخ فى الشئون السياسية الحديثة غاص فى السجلات العامة يمكنه أن يقرأ بثقة إذا لم تكن المصادر الشفوية (والمصادر المصورة والفيلمية) قد استخدمت ، وهو ما يصدق على أى مؤرخ اجتماعى يدرس الغجر . وكما قرر ڤانسينا ، فإن المعلومات الشفاهية تستخدم لضبط المصادر الأخرى التى تخدم بدورها فى ضبط المصادر الشفوية والتحقق منها . كما أنها يمكن أيضا أن تعطى

* استخدم الكاتب مكان هذه العبارة تعبيراً مجازياً يحمل المعنى نفسه، ولكنه يبدو غريباً بالنسبة للقارئ العربى فهو يقول « ... المدى والذكاء الذى به يتم لحم أنماط عديدة فى المصادر بحيث تجرُّ [العربة] سويا ....» (المترجم)

تفاصيل دقيقة لا يمكن التوصل إليها وربما تكون بهذا حافزًا للمؤرخ على إعادة تحليل المعلومات الأخرى بطرق جديدة . ذلك ما حدث في مناقشة بول ثومبسون للطبقة في كتاب The Edwardians . وذلك ما حدث عندما قام مستر دونالد ريجان ، رئيس طاقم البيت الأبيض في عهد الرئيس الأمريكي ريجان. بنشر روايته التي تبرئه عن الفترة التي قضاها في المنصب ومعاركه مع السيدة نانسي ريجان وكشف فيها ضمن أشياء أخرى واضحة، أن توقيت توقيع معاهدة القوات النووية العالمية في قمة القوى العظمى في ديسمبر ١٩٨٧م كان محكوما بما يقوله المنجِّم الشخصي لمسز ريجان، وهي حقيقة لانجدها في الأوراق الرسمية. وهذا ما يحدث في دراسة كريستوفر لي Christopher Lee عن صنع السياسة الدفاعية البريطانية منذ سنة ١٩٤٥م.

وهذا موضوع يكون السجل الوثائقي الرسمي بالنسبة له ، مغلقا تحت قاعدة «الثلاثين سنة- أو يزيد» المرنة التي تتبعها بريطانيا ، حيث يمكن للحكومة القائمة ، إذا ما رغبت ، أن تحدد فترة أطول لحجب الأوراق الحكومية الحساسة – والتي تبرز من بينها الشئون الدفاعية باعتبارها المثال الأقوى- من فترة الثلاثين عاما العادية . وقد ورد عن مسز تاتشر أنها كانت ترى أنه لا شيء يمت لأنشطة أجهزة المخابرات عن الوكلاء البريطانيين في روسيا يجب نشره لئلا يكون بمثابة مساعدة وراحة للأعداء . وهذا ما أرادته هي بالفعل ، وجاء في التعديل الذي جرى سنة ١٩٨٩م على مرسوم الأسرار الرسمية . وفي حالة «لي» ، فإن السنوات العديدة التي قضاها مراسلاً عسكريًا وضعته في موضع يعرف منه ويكتسب ثقة موضوعاته . ذلك أن النصوص المكتوبة لمقابلاته مع جميع الفاعلين المركزيين في الكتاب صارت هي نفسها مصدرا وثائقيًا حيويًا . وسيكون كتابه كتابًا لايمكن لأي مؤرخ تربى في الجامعة أن يكتبه . وسوف يعطي دفعة مختلفة جذريا إلى فهمنا لفترة حية من التغير في عملية نزول بريطانيا من مصاف القوة . والمواد الشفاهية تدخل ضمن ما يسميه البروفيسور هكستر Hexter «السجل الثاني» وبشكل أسرع من أنواع المعلومات الأخرى.

وقدرة «لي» على أن يتتبع ، ويقرأ ، ويفسر «السجل الأول» يستند بشكل حاسم على ما لديه من «السجل الثاني» المحدد جيداً وغير العادي [٣٠]. وهذا لايجعله نوعًا جديداً من المؤرخين- وإنما العكس. وكان كثير من مؤرخي القرن التاسع عشر هواة بمعنى أنهم كتبوا وعاشوا أساسًا خارج النطاق الأكاديمي . وفي الماضي والحاضر على السواء فإن العمل الميداني إضافة لا تقدر بثمن للعمل في الكتب.

ثانيًا ، هناك الأثر العكسي. ويمكن لامتلاك «سجل ثان» غني ومتنوع – مثلاً من خلال التجربة الشخصية لا عن طريق المقابلة – أن يجعل المؤرخين خارجين عن الناس العاديين. وقد عمل أدريان ڤوجان وحيداً على خط برونيل العظيم من لندن إلى الريف الغربي ، وعاش في أثناء فترة الانكماش والانغلاق في ستينيات القرن العشرين ، وشاهد اختناق الطرق القديمة في العمل وازدراء المهارات الحرفية ، والذي زاد على الحد في عدة مرات ، ثم قرر أن يسجل العالم الذي كان قد خسره . وكانت كتبه الأولى Signalman's Morning و Signalman's Twilight ، تآليفًا للذكريات . ولكن عندما تطورت مهارته مؤرخًا ، عمّق تحليله وصار الآن مؤلف سيرة جديدة لبرونيل نفسه ، وازداد ثراء علميًا بفضل تعليم ڤوجان وسيره على خط موضوعه بدقة(٢١).

وثمة مثال آخر وأخير، ومرة أخرى يرجع أصله إلى الغضب من تدمير المهارات ، نجده في كتاب مدهش عن العمارة كتبه أسطى نجار موبيليا . وينحدر روجر كولمان من عائلة في شمال لندن من الحرفيين المهرة. وصار أسطى نجار موبيليا ، ولكن في العملية لاحظ وعاني من جراء «تدني المهارات» في حرف البناء. وقد أغضبه غطرسة المهندسين المعماريين وعدم كفاءتهم الفنية وكان عليه أن يعدم أعمالهم ، والذين لم يفكروا أبدًا في أن يسألوه رأيه . وهكذا طور المعركة المتجهمة التي تشبه المعارك الاستعمارية حول المأثورات المخترعة ، والتي تظاهر فيها الحرفي بالجهل وسحب تعاونه ، وتحكم المهندسون المعماريون ذوو الأيدي الناعمة المتعلمون من الكتب .

فهل كان الأمر دائمًا على هذا النحو؟ إذْ استعد كولمان Roger Colman بفضل «السجل الثاني» الذي لديه، فبدأ عملية بحث طويلة عن الفن والعمل. وفي غمار هذه العملية ، مثل وليم موريس ، اكتسب المهارات التقليدية في البحث التاريخي والنقد . ولكن في كتابه الحماسي The Art of Work : An Epitoph to Skill لايمكن أن يكتب الفقرات الجوهرية فيه من تعلم من الكتب وحدها . وثمة فقرة لافتة للنظر تسأل : لماذا كان وليم السيني William of Sens هو الرجل الوحيد الذي جُرح في الحادثة أثناء إعادة بناء كاتدرائية كانتربوري . والإجابة– أنه لم يكن فقط المقاول الرئيسي ، ولكنه كان أيضا الحرفي الأكثر مهارة– تُظهر أن تقسيم العمل لم يكن آنذاك كما هو الآن. وهو منسوج في رواية تمر من خلال استعادة ثقافة نجاري الموبيليا المغمورين ، وقد كتبه اعتمادًا على معرفته التي اكتسبها شفاهيًا ومن تتلمذه

فى الصنعة على أيدى الكبار، فى عرض فريد لم أقرأ له مثيلاً ، لمهاراته الخاصة . فهو يصف الإجراءات العملية التى تشتمل عليها عملية صنع نافذة جديدة . ولكى تعرف عن وضع العلامات واستخدام «قصبة القياس» (أطوال من الخشب ينقل بها النجار الأبعاد المضبوطة للفتحة فى حائط من الأجر لتكون إطاراً للنافذة) يبدو مبتذلاً ، إذا كان مفيداً . ولكن المدهش أن رواية كولمان تفعل ما هو أكثر من ذلك. إذ إن قصبات القياس لدى النجارين تجمع سوياً فى رابطة الأخوة كلاً من وليم السينسى ، وڤيلارد دى هونكورت Villard de Honnecourt (مصمم الكاتدرائية والبناء اللذين يمثل كتاباهما اللذان كتبا فى العصور الوسطى، بمعنى ما، سوابق مباشرة لكتاب كولمان) ، والنجارون المجهولون فى القرن الثامن عشر الذين عملوا لحساب ڤانبروج وچون وود الأصغر (وهم مجهولون ما لم تعرف أين تبحث عن علاماتهم المخبوءة) ، كانوا معلمى كولمان من الحرفيين الكبار والنافذة الجديدة محل السؤال . إن وصف عمل هذه النافذة المعاصرة تحدد من الناحية التاريخية والتحليلية موقع كل جانب من جوانب تكون خفية فى العادة لأنها لاتقدر حق تقديرها (٣٢).

ويظن بعض المؤرخين أن عملهم أن يصفوا، وربما يشرحوا ، لماذا حدثت الأشياء فى الماضى . وهذا ضرورى بيد أنه لا يكفى لنسامحهم . إذ إن هناك مكونين آخرين جوهريين فى مهنة المؤرخ . ويجب شرح الاستمرارية. فالاستمرارية التاريخية، خاصة فى الثقافات الشفاهية، تتطلب الاهتمام أكثر مما يتطلبه التغير. فالتراث عملية – إذ إنه لايعيش إلا إذا تمت إعادة إنتاجه بصورة مستمرة. وهى حيوية فوارة فى سكونها الظاهرى . ثانيا ، مهمة المؤرخ أن يعطى القارئ ثقة فى كفاءته المنهجية ولإظهار الوعى بمزالق التراث المخترع ، ومن ثم بمخاطر التفسير المطروح ، يجب على المؤرخ أيضا أن يكشف عما ما يشبه ما هو موجود– منشد فى بلاد الإغريق التى صورها هوميروس ، قروى فى أفريقيا قبل مجىء الرجل الأبيض، سائق ماكينة مرهق من العصر الڤيكتورى، رئيس الموظفين فى البيت الأبيض فى عهد الرئيس الأمريكى ريجان– أو إذا لم يكن ممكنا فعل هذا، أن يقول ذلك، ويشرح لماذا. وتتم دراسة التاريخ الشفاهى على الوجه الأفضل لتوضيح هذه الأجزاء الحيوية من عمل المؤرخ – أى التراث والذكريات الماضية والحالية– بتفاصيلها وإنسانيتها وعاطفتها فى كثير من الأحيان، ونزعة الشك الدائمة حول عملية التدوين التاريخى بأسرها. وبدون الوصول إلى مثل هذه المصادر ، فإن المؤرخين فى المجتمعات الصناعية الحديثة ذات الجماهير المتعلمة ، أى معظم

المؤرخين المحترفين ، سوف تخور قواهم فى مساحة من الفهم محدودة بحدود ثقافتهم الخاصة، وهم يتدلهون مثل العشاق المهجورين والواقفين فى دائرة الضوء المتذبذب تحت عمود إنارة وحيدة فى الظلام فى شارع تجتاحه الريح.

التاريخ الشفاهى: ما الجديد؟

إذا ما نظرنا للخلف على السنوات العشر التى انقضت منذ صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فما الجديد الآن الذى يمكن قوله عن دراسة التاريخ الشفاهى ؟ إن الجدل الناجم عن هذا مؤداه أنه، بينما لايوجد شئ يحتاج إلى زعزعة الفروض الجوهرية للمقالة الأصلية ، فإن هذا الرأى ليس تعبيراً عن الإعجاب بالذات إنه استمرار لصلاحية المقولات الرئيسية بصفة خاصة . وهى نوع متسارع ومكثف من الاستمرارية، يرقد على قمة تغيرات ثقيلة ضخمة حدثت فى تصور المجتمع الغربى لنفسه ، فى بعض الموضوعات التى نوقشت ، وفى حالات الاتصالات الحديثة. وهى استمرارية بسبب– وليس من خلال نقص – التغير .

وهذه التغيرات ممتزجة سويا تطرح تحديات كبيرة أمام أولئك الذين يسعون إلى فهم التاريخ المعاصر، وربما يقيمون على قاعدته مقاربات أخرى أطول بقاء لكتابة التاريخ. والواقع، أن هناك بعض الأدلة على هذا التأثير . بيد أن تأثيرها على ممارسة التاريخ الشفاهى ليست مدمرة مع أنها عظيمة، بل إن العكس هو الصحيح . لقد كانت السنوات العشر الأخيرة مهمة فى تقوية المطالب التى طرحت أصلاً من أجل تضمين أساليب التاريخ الشفاهى داخل أى قانون مطلوب للمؤرخ الحديث. وتكتب إليزابيث تونكين Elizabeth Tonkin «إن الذاكرة تصنعنا ، ونحن نصنع الذاكرة» فى مقالة تؤطر بشكل جميل الإمكانية القوية للمنهج التاريخى الشفاهى، داخل ذلك الإحساس المتصاعد والمستشرى بهشاشة الكتابة التاريخية التقليدية التى تعتمد على الوثائق.

ذلك أن الأحداث جميعا لها جوانبها الداخلية وجوانبها الخارجية. وقد لاحظ كولينجوود: «الأفكار التى ساقتهم والأشياء التى تم عملها»، ولكى تفهم الإجابة فإنك بحاجة إلى إعادة بناء السؤال الذى كانت الإجابة عنه . وتوضح تونكين كيف أننا نحتاج إلى أن نتذكر ونتصرف على هذا الأساس بنشاط إذا ما كنا نأمل فى أن نحظى بالتصديق (٢٣). وفى أزمة عامة فى المنهج يمكن أن تلقى فروض التاريخ الشفاهى وأساليبه بآخر ما تبقى من هرطقتها . «إن منهجية التاريخ الشفاهى ليست ببساطة مهمة للتحقق من إمكانية الاعتماد على السيدات المسنات،

وذكريات كرام الرجال» كما يلاحظ إريك هوبسباوم فى مقالة تجعل من هذه الحالة جزءا من مسح أوسع للأزمة العامة . وليس هناك الآن ارثوذكسيات ولا هرطقات ، ولكن بدلاً من ذلك هناك وعى لحقيقة أن التاريخ ينتج لأغراض يجب توضيحها - تمامًا مثلما أكد التاريخ الشفاهى منذ شبابه المقاتل (٣٤).

ويفتح كتاب ميلان كونديرا Milan Kundera الذى يحمل عنوان Book of Laughter and Forgetting الموضوع بقصة صورة فوتوجرافية . وهى عن القيادة الشيوعية التشيكوسلافية المنتصرة سنة ١٩٤٨م، فى شرفة تطل على ميدان المدينة القديمة فى براج . كان فلاديمير كليمنتيس Vladimir Clementis الذى كان مختبئا فى الغرب إبان الاحتلال النازى، يقف إلى جانب زعيم الفريق الموسكوفى، وقد وضع قبعة الفراء الخاصة به على رأس هذا الزعيم، وزعيم التشيك الجديد كليمنت جوتوالد Clement Gottwald ، وصارت الصورة ملصقًا . ومع هذا فإنه بعد عدة سنوات ، تم طرد كليمنتيس . ومحيت صورته من الصورة الجماعية؛ وكل ما يتبقى منه قبعته التى وضعها على رأس جوتوالد. ويرسم كونديرا العبرة الأخلاقية: «إن نضال الإنسان ضد السلطة هو نضال الذاكرة ضد النسيان».

ويفتح ديفيد وليم كوهين المتخصص فى أفريقيا ما قبل الاستعمار كتابه الذى صدر سنة ١٩٩٤م والذى يتسم بأنه كتاب مراوغ ولكنه مستفز ، باقتباس افتتاحية كتاب كونديرا . فهو يفعل هذا بطريقة تنسجم مع الدعوة إلى الوعى الذاتى للمؤرخ والتى جعلتها فى مقالتى الأصلية. ويلاحظ كوهين أن التاريخ ، ينتج لأغراض عديدة، وهذه الطبقات كلها جزء من الكل الذى يجب حكيه . فالتاريخ يسعى إلى «إعادة بناء وأيضا فهم العمليات والبرامج المركبة فوق بعضها من المحو والاستعادة ، والتى تتضمن فعل كونديرا فى الحكى وفعلى أنا فى قراءة كونديرا، وكذلك فعل محو الصورة »(٣٥) ويوافق كوهين على أن التاريخ الشفاهى عبارة عن شيئين تم توضيحهما هنا: تراكم الرقائق فوق بعضها (وهو مصطلح مفيد سكه وأوضحه بأمثلة أفريقية فى المقالة الأصلية التى يتم تحديثها الآن) والشرعية (حسب المصطلح الأولى الذى وضعته) : لأنه ، من بين الحالات التى استكشفها كوهين آنذاك، توجد حالة من أولى الحالات التى أوردها باهتمام المحقق بما وراء التاريخ عن التاريخ المصغر لصمت إحدى النساء .

ففى طفولتها ، جرحت كاميلا تيولى Camella Teoli جُرحًا بليغًا فى حادث طاحونة فى

لورنس بماساشوستس . بيد أنها لم تخبر ابنتها قط أو ابنها كيف أو لماذا. ويحكى كوهين عن استعادة مهمة مركبة فى طبقات ، ومتعددة المصادر، وعمل شاق. وقال الابن لبول كوان Paul Cawan ، المؤرخ الذى أيقظت استفساراته سنة ١٩٧٦م الذاكرة المفقودة فى الجماعة عن اضراب سنة ١٩١٢م : «إن أمى لم تتكلم عن ماضيها لأنها ظنت أن ذلك قد يوقعنا جميعاً فى المتاعب» . وكوهين يصف كوان وهو يصف كاميلا تيولى لابنها . ودور كوان جزء من التاريخ أيضا، بالطريقة نفسها التى وصفت بها دور تيرنس رانچر فى إنتاج تاريخ زيمبابوى . واتفق أنا وكوهين على أن ما وراء التاريخ ، حسبما يمكن لكوهين أن يسميه ، جزء مطلوب من سجل المؤرخ الشفاهى : كشف النسيان والتذكر وشرحهما من أجل مقاصد الحاضر. وقد قدمت السنوات العشر الأخيرة المزيد من الأمثلة عن المزيد من المؤرخين الذين يفعلون هذا . ذلك أن للنسيان والتذكر دائما جانبين : فقد أوضح صمت عاملة الطاحونة فى رواية كوان كبت الذاكرة ؛ و«التاريخ الذى يمكن استخدامه» عند رانچر القائم على قاعدة ضيقة تماماً من أنماط المصادر، كشف عن خطر الاختراع ، سواء كان عمداً ، أو بغرض الدعاية ، أو سهواً ، بسبب نقص الكفاءة المنهجية.

لقد أدت أحداث السنوات العشر الأخيرة إلى تسليط الأضواء على الرسالة سواء كانت فى الظلام أو خلف حجاب خفيف فى أفريقيا وما وراءها . ذلك أن نظام روبرت موجابى الفاشل والدكتاتورى أفرز مناخًا من الخوف والتوافقية ازدهر فيه « استخدامه» من الروايات عن ماضى زيمبابوى بطريقة قد لا يمكننا الآن إطلاقًا بسببها أن نرى ما حول هذه الروايات بوضوح . وتقرير رانچر ، الناقص الذى استنبطه سنة ١٩٦٧م عن ثورة ١٨٩٦-١٨٩٧م، الذى طعن فيه بذكاء چوليان كوبنج Julian Cobbing فى مقالاته التى لم يتم دحضها على الإطلاق ، حسبما ورد وصفها فى المقالة الأصلية ، سوف يتم التعرف عليه ، وتسكينه ، وإعادة تدويره من خلال العمل الميدانى على حرب العصابات من أجل الاستقلال . فالمصادر مسممة . والواقع أنه فى كتاب آخر بمدى منهجى مقيد وقليل من المصادر ، تحرك رانچر إلى الأمام زمنيا وقدم رؤية لوعى وطنى ثورى فيما بين الفلاحين الزيمبابويين فى حرب العصابات ، من المؤكد أنها تناسب النظام اللاحق (٣٦).

ومن حسن الحظ، أن واحدة ممن صدقوا أن « ما يقوله الناس ويفعلونه مهم» قد انزلق إلى داخل زيمبابوى عبر النافذة الضيقة فيما بين الاستقلال وفرض السيطرة على الباحثين

الميدانيين . وتمثل نورما كريجر Norma Kruger وعياً بالطبيعة المركبة لموضوعها ، واهتمامنا المشروع بها داخله . ومن ثم فإنها قادت بحثا ميدانيا في التاريخ الشفاهي على مدى سنتين بنفسها ، وتصفه وتناقش مع قرائها قوتها وضعفها وهي تقوم بذلك ، كما تراها [٣٧]. وهنا لايوجد تاريخ « يمكن استخدامه» من وجهة نظر موجابي. فنحن نقابل فلاحين خائفين ، يرهبهم كلا الجانبين، وخاصة رجال حرب العصابات الذين يزعمون أنهم أبطالهم : ليس هناك وعي ثوري يمكن أن يكون قاعدة للتعبئة السياسية هنا. وهي تستمر في تقشير الطبقات المتراكمة ونزعها عن بعضها. كيف خطر على بال رانجر ولان خلاف ذلك ؟ وفي شجاعة (آخذين في الاعتبار مكانة رانجر في زيمبابوي في عهد موجابي ومكانته بوصفه عملاقًا في الدوائر الأكاديمية شمال الأطلنطي) ، تعترض كريجر على مجادلاتهم ولكن- حسبما يتطلب المنهج القياسي للتاريخ الشفاهي- لاتشتبك في الجدل بداية حسب مصطلحاتهم ، وإنما تشتبك على أسس منطقية من تهافت الأدلة والمنهج أو عدم كفايتهما [٣٨]. إنه خط البحث نفسه الذي يتهدد إحساس الهوية المهنية لدى المؤرخ أكثر من غيره . إن نافذة فرصة البحث التي انزلقت كريجر من خلالها قد أغلقت منذ ذلك الحين. ذلك أن تصحيحها لميثاق فاوست الذي ترفضه يتسبب في أن يتساءل المرء عما إذا كان الزيمبابويون سيستعيدون تاريخهم على الإطلاق بالطرق التي أظهرت إليزابيث تونكين أن لها هذا القدر من الأهمية في صون الهوية الاجتماعية. إنها حالة نتجت بشكل مباشر عن الطريقة التي أجريت بها البحوث الأولى. بيد أن اللعبة الأكبر أثناء هذه السنوات العشر كانت جنوب الليمبوبو.

فمنذ إنهاء الفصل العنصري ، إبان تسعينيات القرن العشرين ، نشب نزاع وحشي من أجل السيطرة على تاريخ جنوب أفريقيا. ومن المفهوم ، أن الفعاليات العنصرية في ماضيها السابق على فترة الاستعمار لها أهميتها . وقيل إن محرك هذه الفعاليات هو «المفيكاني Mfecane». وقد حول چوليان كوبنج نفسه عينه القانونية على الرواية الشائعة عن «المفيكاني» - أي تلك الهجرات الكبرى المزعومة التي شكلت القرن التاسع عشر في الإقليم، الأشلاء الآدمية التي بعثرها انفجار الزولاند الشاكا. إنها أسطورة، حسبما يجادل كوبنج- لا أكثر ولا أقل [٣٩]. ليست زولولاند شيطانية ، وإنما الأثر الجارح الذي خلفه تجار الرقيق البيض كان هو المحرك على الأرجح . بيد أن هذه ليست مناقشة «صحيحة سياسياً» لأن الأفريقيين يبدون في صورة الضحايا مرة أخرى . ومع هذا فإن هذه هي الصورة التي تشير الأدلة إليها [٤٠].

ومشاجرة كوبنج هنا، كما حدث من قبل فى كشف اختراع التاريخ الزيمبابوى، كانت مع المؤرخين السذج الذين تقبلوا الرواية الشائعة وزينوها ، ولم يسعوا إلى موطئ قدم راسخ ثلاثى الركائز فى المصادر من النوع الذى حبذناه فى المقالة الأصلية، كما كانت مشاجرة بالقدر نفسه مع الموضوعات نفسها . وبالتالى جلب كوبنج عاصفة على رأسه عندما هزَّ الفريق الأشجار. ذلك أن الحلقة الدراسية التى عقدت فى شهر سبتمبر ١٩٩١م حول ما بعد المفيكانى بجامعة ويتوتورز راند ، حيث قابل كوبنج منتقديه (وكانوا كُثر وساخنين وصوتهم مسموع) يعتبر مثالاً توضيحيًا رائعًا آخر على الفرض المطروح فى المقالة الأصلية ولم يكن هناك على المحك سوى شكل الصورة الذاتية لجنوب أفريقيا الجديدة، والتى تم التعبير عنها فى أقوى أنماط الكتب التاريخية على الإطلاق- وهى عشرة كتب قياسية للمرحلة الابتدائية (٤١).

وبينما استمرت الظلال تتجمع فى جنوب أفريقيا، فى موطن كونديرا سابقًا، التى كانت أرض اللامعقول بالنسبة لسكانها ، جاء الضحك والتذكر مع الثورة المخملية ليحلاً محل النسيان الصعب الحافظ للذات فى السنوات الأخيرة من الشيوعية. فعلى حين غرة صارت مشكلات التذكر من جديد مركزية وملحة فى قلب أوربا بقدر ما هى فى قلب أفريقيا. إذ ظهرت الأنواع نفسها من المشكلات. فقد تعين على الذين تحرروا حديثا أن يعالجوا حالات الانفصال ما بين التواريخ الشخصية فى تلك الأوقات والرواية العامة البطولية . ولم يكن كل واحد عضوا معارضا شجاعًا فى ميثاق ٧٧، ولا حتى مشجعًا لفرقة الروك Plastic People of the Universe ، الذين كانت أغانيهم سهامًا حارقة فى سقف القلعة . ولكن كثيرين تدفقوا إلى الشوارع فى نوفمبر ١٩٨٩م، وهم أفراد مجهولون من الجماهير التى عادت إليها الحياة والتى إنشغلت فى حوار جماهيرى بطيء ولكنه متماسك مع القيادة، فى براج أولاً ، ثم فى غيرها من المدن، كما لو كانوا فرقًا من الممثلين يوجهون الرسالة إلى الخارج من مسرح الفانوس السحرى حيث كان يجلس ڤاكلاف هاڤيل Vaclav Havel والقيادة المرتجلة للمنتدى المدنى(٤٢).

وجاءت الأحداث التشيكوسلوڤاكية تجاه التدفق المركزى للفيضان الذى انفجر خارج بوابات ترسانة لينين فى جدانسك فى بولندا سنة ١٩٨٠م ، واجتاح الحكام إلى مقابرهم بالضبط قبل نهاية السنة الصعبة بالنسبة لأوربا وهى سنة ١٩٨٩م وأغرقت حلم جورباتشوف الشغوف فى إمكانية إصلاح اشتراكية لينين فى طيات الإنقلاب الفاشل الذى حدث فى

أغسطس ١٩٩١م . وعندما يكون هذا القدر الكبير من الأشياء المهمة عرضة للضياع إذا لم يتم الإمساك به فى عين اللحظة، فقد كان من الواجب التوظيف الحاذق لأشكال من كتابة التاريخ مألوفة فى جنوب الصحراء، ولكنها جديدة نسبيًا على وسط أوربا (٤٣).

هناك ثلاثة أنماط للعمل التاريخى الشفاهى ازهرت فى خرائب الشيوعية السوفيتية إبان العقد الأخير. أولا، كانت هناك مراقبة مشاركة للثورات عندما حدثت، كانت جذورها ضاربة فى تربة المعرفة الخبيرة ؛ لتصل إلى ما وراء الانطباعات الصحفية العابرة، ومن بينها كانت كتابات تيموثى جارتون آش Timothy Garton Ash التى كانت من أكثرها بقاء وتوغلاً فى ذلك الوقت (٤٤). ثم كانت هناك ملاحظة مشاركة فى زمن أبطأ وتيرة . وقد أتيح لإرنست جيللنر Ernest Gellner بفضل فترة من الإقامة المريحة فى روسيا عندما تحولت الأمور، ثم انشغاله بعد ذلك فى تشييد جامعة وسط أوربا فى براج ، حتى رحيله المفاجئ فى قارب الموت، أن يظهر صوت الهويات التى برزت فيما بعد الشيوعية ، وأتاحت له تقديم أعقل تفكير فى طبيعة «المجتمع المدنى» وأهميته (٤٥). لقد كان من حسن حظ قرائه وموضوعاته فى شرق أوربا أن دراستهما قد تمت بواسطة الباحثين الميدانيين المجددين لأنه كتب واحداً من الكتب التعريفية عن الأنثروبولوچيا الاجتماعية فى شمال أفريقيا ، بعنوان Saints if Atlas ، فى شبابه ، وإن كان قد انكب حديثا على دراسة العلاقة بين الشئون السياسية والأنثروبولوچية(٤٦). وثالثا، وبشكل غير معتاد، سمح بعض قادة الثورات لأنفسهم بأن يقعوا فى براثن المداهنة والنفاق ويعبروا عن انطباعاتهم عما يفعلونه ، بسرعة بعد أن فعلوا هذا، وقبل أن تكتسحهم الأحداث بعيداً فى مشاغل أخرى، خارج الشئون السياسية من جديد فى غالب الأحوال (٤٧).

هذه مشروعات حبلى بالمخاطر، حسبما حذرت المقالة الأصلية ، وحالة جارتون آش عن «تاريخ الحاضر» لم يتم تقبلها بسهولة. ولكن هذا التقرير الذى يتسم بسمة عاطفية واضحة يمكن الدفاع عنه، لا بمصطلحاته الخاصة فى التحليل، ولا انطلاقًا من جمال الأسلوب ، ولكن لأننا قد نرى مهاراته ومصادره (٤٨)، مثل كريجر فى زيمبابوى . وتتضح أهمية هذه الوسيلة كأحسن ما يكون فى غيابها ، وكان العقد المنصرم سريعًا فى تقديم مثال قبيح .

فقد وصل الطوفان إلى البلقان ، وكان التغير الجذرى الذى جلبه هدامًا . فبعد أن أخفق وزراء خارجية الاتحاد الأوربى فى تهديدهم لوقف ميلوسفيتش بالقوة عن ضرب دوبروفنيك

بالقنابل فى نوفمبر ١٩٩١م ، كان قد سبر غورهم وواصل شق طريقه[٤٩] وبسرعة مربكة كان سكان العاصمة سراييڤو قد اندفعوا مكرهين إلى قتل بعضهم بعضًا . وقد حير موت (يوجوسلافيا) بدرجة كبيرة العالم الخارجى المتردد فى التدخل، أيضا، ومن ثم فإن جاذبية التفسير القاطع الواضح لما حدث كان أكبر ما يكون . وقد زار الصحفى روبرت كابلان Rob-ert Kaplan الإقليم وأجرى مقابلات بطريقة بدت، ظاهريا ، مماثلة لأسلوب جارتون آش فى «تاريخ الحاضر» ، ولكن بدون اللغات أو أساس من المعرفة المحلية. وتم نشر آرائه ، ولقيت اهتمامًا عامًا معتبرا، ليس أقلها اهتمام مكتب أوڤال فى البيت الأبيض ، فى كتاب قدم ما وصفه وليم هاجان William Hagan برقة على أنه رأى اكتسب صفة جوهرية عن العنف العرقى فى الإقليم[٥٠]. وكتابه Balkan Ghosts أخبرنا أننا كنا نتعامل مع أحدث انفجار لبركان قديم من الكراهية . ومن المؤكد أن هذا الرأى أثر على السياسة الغربية تجاه الإقليم فى لحظة حسّاسة (مثل عمل رانجر، فى مثالنا السابق الذى كان له تأثير على تكتيكات العسكريين فى روديسيا فى حرب الأدغال) وإذا كان هؤلاء الناس قد غرقوا بلا أمل فى الكراهية العرقية ، فلماذا نحاول أن نتدخل ؟

والحقيقة ، حسبما وثّق جلينى ولاحظ هاجان ، أنه كانت هناك أسباب محددة تاريخيا وراء السبب فى أن مفكرين فى البلقان أواخر القرن التاسع عشر بعد الانهيار العثمانى قد تقدموا وترقوا كأفضل ما يكون بتبنى ما يسميه هاجان «نمط الانتاج الوطنى» (فقد صاروا أكثر ثراء وعززوا مكانتهم بخدمة الدولة الوطنية البازغة)[٥١] وعلاوة على ذلك، أن ميل الناس الغاضبين فى الخارج بطريقة رد الفعل المتتالية ، ثم التخبط فى كل منطقة أزمة حال انفجارها (من كراجينا إلى الساحل الدلماشى إلى جنوب البوسنة إلى سراييڤو إلى سربنتشيا إلى كوسوڤو إلى الجبل الأسود أو حيثما تكون المنطقة التالية) سبب لهم الغفلة عن نقطة أن البلقان كيان متصل، حيث ينتج عن الضغط فى أحد الأماكن تأثيرات فى كل مكان آخر[٥٢]. ومعرفة هذا تعنى معرفة شئ تقليدى، ومكتوب ومفصل تماما، عن تاريخ البلقان. وليس هناك منهج واحد يحتكر الفضل لنفسه، ذلك أن السرديات المدوية بدون رابط يمكن أن تلحق قدرًا كبيرًا من الضرر. وربما يكون مضحكًا أكثر أن تحكى القصص المقروءة والمسجلة ، بدلاً من عمل الواجب المفروض على المرء، ولكن العواقب وخيمة . وربما يكون المرء ملزمًا بأن يتعلم الدروس التى تم إغفالها – والتى يحتمل أن تكون مهلكة– على حساب واحد آخر .

ويصف جارتون آش بعين حاقدة وقلم حاد اختناقات المرور التى سببها إداريو المساعدات الدولية فى سيارات الچيب اللامعة ، يتصرفون بوقاحة بالغة مع الشحاذين المحرومين تماماً على الرصيف : فهم زوار أغنياء غير فاهمين مشغولون تماماً وعابرون فى برستينا (٥٣). والدراسة المطلوبة لأولئك الراغبين فى المساعدة فى مثل هذا الموقف يجب أن تكون الكتيب الإرشادى عن كيفية جمع الشهادة الشفاهية لتكون أساساً للتنمية المشاركة ، والتى تنتج بالاشتراك مع سلطة قائدة للتخفيف من وقع الكارثة ، وهى إحدى القوى الدامغة فى التاريخ الشفاهى . ولها العنوان الغامض اللطيف : الإنصات من أجل التغيير Listening for a Change (٥٤).

لقد كتب هوجو سليم Hugo Slim وبول ثومبسون كتابهما المدهش ، فى التراث التأسيسى لحركة التاريخ الشفاهى، لكى يعطيا الصوت لمن لا صوت لهم، ولكن أيضا من أجل تصحيح عمل الأبحاث التى تمت بطريقة سيئة، بدلا من لاشئ على الإطلاق. ومشروعهما يبنى ويحذر فى آن معا : «هناك طرق عديدة للإفادة من المعرفة التى تنتمى إلى الفقراء والأقليات والذين لاحول لهم ولاقوة » كما كتبا «إن طالب الأنثروبولوچيا يحصل على درجة الدكتوراه ويتقدم أكاديميا ؛ ومستشار التنمية يوقع عقداً جديدا معفى من الضرائب ؛ وحقوق النشر للمصور الصحفى عن الصور الإنسانية الغريبة تدر مكاسب كبيرة ، كما يكسب خبير البيئة ربحاً كبيرا. ولكن ماذا عن أولئك الذين يشاركون مجاناً بآرائهم وتجاربهم؟» . ثمة عدم ثقة صحية من جانب الخبراء صارت دستوراً وجدانيا يشارك فيه الباحثون الميدانيون من تخصصات كثيرة ، ويتكرر دائماً : ولكن ما يستحق الإنتباه من أجل غرض هذه المقالة هو التلاقى بين الغضب المشروع والشك والأزمة العامة فى منهج التدوين التاريخى فى تسعينيات القرن العشرين.

إن اهتمامات التاريخ الشفاهى وحاجاته كما تم توضيحها فى المقالة الأصلية قد صارت داخلة فى نسيج تعليم التاريخ. وعندما تم نشر «الكتاب الأزرق» سنة ١٩٨٥م(٥٥)، بدافع من چون سلاتر John Slater – أحد أعظم (وآخر) رؤساء هيئة التفتيش فى تعليم التاريخ فى التراث المستقل لماثيو أرنولد Mathew Arnold كان هناك شعور ونظرة إليه باعتباره جزءا من المعركة بين الحقيقى، والسردى والحكومى والخيال التاريخى المحض . تلك المواجهة المفترضة تم تجاوزها . إذ إن كلاً من السرد والقاطع يتعرضان للمخاطر بالقدر نفسه فى

الأزمة العامة. ويظهر نشر خليفة كتاب HMI الفكرى (إن لم يكن المؤسس) ، على يد واحد من أبرز المتخصصين الآن فى علم أصول التربية وتعليم التاريخ، مدى ما ذهبت إليه عملية تحويل فروض التاريخ الشفاهى ومناهجه إلى مسألة روتينية (٥٦).

ويوصف ڤان يانسينا ، الذى نقلت عنه الكثير فى المقالة الأصلية ، على غلاف سيرته الذاتيه بأنه «بطل الثقافة» فى التاريخ الأفريقى. ويأتى فى مكان القلب من بحوثه التاريخية الاعتراف بقوة الشك المنهجى، والذى تزداد حدة نصله عندما يتبع الممرات الشفاهية الهشة فى الغابات المطيرة. لقد أطلق عنان «ما اعتقد أنه أساس السببية العقلانية والبحث فى التاريخ، ووضع المصادر «غير العادية» للتاريخ الأفريقى فى ذلك السياق ، وإذا ما تأملنا مسيرته المهنية، نجدها كانت تجديدا منهجيا كان فخره به بالغًا غايته»(٥٧) وليس فى سياق أفريقيا، ولكن فى التيار السائد فى تعليم التاريخ فى بريطانيا، تم اقتباسه بواسطة كريس هسباندز بسبب قدرته على أن يُسبغ القوة على التفسير والفهم تحت الضغط، وباعتباره الطريقة الأفضل لإطلاق عنان الخيال التاريخى لدى طفل المدرسة بطريقة آمنة . فهل يمكن للمرء أن يتخيل مديحًا أكبر من ذلك(٥٨)؟ إن الموضوع العام ، نقلاً عن چون سلاتر، هو أن «التفكير التاريخى عملية تفتيح للعقل فى أساسه ، وليس عملية تأهيل اجتماعى» وهو رأى ينسجم مع رأى كولينجوود عن أن «نحن نستدعى الماضى بالفعل ، كما هو ، إلى الوجود بالتذكر والتفكير بطريقة تاريخية، ولكننا نفعل هذا بفصله عن الحاضر الذى يوجد فيه فعلاً»(٥٩) إن هوس التاريخ الشفاهى الضرورى بشفافية المنهج والأدلة قد صار قضية مشتركة فى الدفاع العام.

وفيما بين المؤرخين الشفاهيين شهد العقد الأخير انتاجًا مستمرًا، ومتسارعًا فى الواقع، للتواريخ المصغرة تسعى إلى تصوير النجوم من ميزاب (مزراب) تصريف المياه* . وعلى أية حال، حسبما يجادل السندرو بورتيللى Alessandro Portelli وهو يستمر فى موضوع هذا النتاج ، فإن الحالة التى من هذا النمط لاستكشاف حياة فردية، إذا ما تمت بأسلوب «مركب» صحيح ، تكون أكثر ثقة بالنفس وتتقوى داخل التراتبية ، بين الموضوعات التى تعانى من شكوك أخرى متكاثرة(٦٠) وفى هذا العقد استخدم واحد من أقوى المؤرخين الاجتماعيين حياة

* أى أن التواريخ المصغرة عجزت عن تصوير الماضى بمداه الضخم المتسع من خلال الرؤية الضيقة للتاريخ المصغر (المترجم)

منتج بالحصة، بناها من تجميع مرهق للأدلة المتضاربة ، لكى يوضح تجربة المناطق الريفية فى جنوب أفريقيا بطريقة ملخصة للتجربة المباشرة التى نادراً ما جربها من قبل[٦١] وهو سرد حميم، يقدم ، حسب تعبير إليزابيث تونكين، نقطة ارتكاز يمكن لعالم الذاكرة الاجتماعية بأسره أن يتحرك عليه.

ما الذى يسبب ما يبدو أنه هجرة تلقائية فيما بين المؤرخين إلى هذا النوع من التاريخ؟ هل هو إحساس بأن الأرض تتحرك تحت قدم المرء؟ وقد وجدت المقالة الأصلية استعارة چاك جودى من ماركس مفهوم حالة من الاتصال (مكونة من وسيلة الاتصال وعلاقة الاتصال على السواء) مفيدة فى هذا المقام. فقد شهد العقد الأخير تغيرات ثورية فى وسائل الاتصال ، أثارت بدورها أسئلة لا حل لها عن التأثير على العلاقات والاتصال بالمعنى الضيق ، وعن الرابطة السياسية والفعالية السياسية بالمعنى بالأوسع . ولاشك فى أنه كان هناك ما أسماه چون ثومبسون «نقل الرؤية» نتيجة الوسائل الجديدة. ولكن لأى هدف سياسى ولأى هدف اجتماعى [٦٢] إن السؤال يتسم بالأهمية المفصلية بالنسبة للمؤرخين، لأنه قد يهدد الأسس التى يقوم عليها الاستنباط الشائع من الأدلة إلى الشرح : ومن ثم ، فإننى أقترح النبش المتبصر الواعى فى معلومات التركيب الدقيق والثراء الذى يجمعه ڤان أونسيلين Van Onselen ويعرضه. ولكن الموضوع له صدى أوسع .

إن جميع الحكومات ، خاصة الديموقراطية، كما يحلو للمرء أن يحس – لأسباب عاطفية– تحتاج إلى تكوين رأى عن الكيفية التى يمكن بها للمواقف أن تشكل الأمور السياسية؛ ولهذا فإن الأزمة العامة عن المكانة والتراتبية داخل المصادر التاريخية تزداد أهمية خارج مجتمع المؤرخين الأكاديميين[٦٣]. والسبب فى هذا يتضح بسهولة . هناك افتراض موجود وشائع أن تكاثر وسائل الإذاعة على النطاقين الواسع والضيق قد أبطل مفعول الوسائل السابقة فى الفعل السياسى وأشكال العمل الاجتماعى. وإذا كان ذلك حقا ، فإن لهذا أهمية شاملة من حيث كيفية استطاعة الأفراد ، فهم أنفسهم وتكوين شبكات علاقاتهم [٦٤]. بيد أن چنز ريش، وهو أحد قادة الـ Neues Farum فى اللحظة الألمانية فى ثورة ١٩٨٩م، قد شعر بأن النموذج الفعلى للتعبئة السياسية فى DDR لم يدعم ببساطة موضوع الثورة الذى روجت له وسائل الإعلام . وبالمثل فإن وصول الراديو والتليفزيون وأجهزة التسجيل بين أولاد على البدو فى الصحراء الغربية المصرية لايبدو أنه قد دمرّ ، بل إنه عزز ، النماذج الموجودة من قبل فى

الممارسة الاجتماعية (وهو ما يؤكد إلى حد ما وجهة نظر إرنست جلنر بأن الإسلام ، من بين ديانات العالم الكبرى، كان هو الأفضل فى بنيته بحيث يقاوم التدمير تحت تأثير قوى العولمة والمشابهة)(٦٥) وعلى أية حال ، فإنه منذ ذلك الحين تعالى هدير ثورة وسائل الإعلام وهى تشق طريقها إلى الأمام. فقد كان دور آلة الفاكس مشهودا من حيث مساعدة الطلاب فى فترة ما قبل الديموقراطية فى ميدان تينانمن Tienanmen Square على اختراق ستار البامبو . وكان الإنترنت أداة فاعلة سواء فى الإعلان أو فى تنظيم ثورة الشياباس Chiapas فى المكسيك فى يناير سنة ١٩٩٤م، بل أكثر من ذلك فى المظاهرات ضد منظمة التجارة العالمية فى سياتل سنة ١٩٩٩م. بيد أن الأدلة لا تشير كلها إلى طريق واحد. ومن الواضح أن المجرمين يتآمرون فى رحاب الحاسبات الالكترونية، وهو أمر جديد حقًا ، ولكن الطرق التى ينظمون أنفسهم بها يبدو أنها تسير على غرار مثال المافيا الشهيرة، على الرغم من الحديث عن «المقاومة بلا قائد»(٦٦) ولهذا فإن الاجابة هى أننا لانعرف ، فى الوقت الراهن، بقدر من الثقة كيف يمكن لحالة الاتصال أن تؤثر على العلاقة بين الموقف والشئون السياسية. ومن المؤكد أن مقاييسها ليست متساوية بشكل متناسق (٦٧).

انتهت المقالة الأصلية بمثالين متقابلين عن الطريقة التى تم بها قلب تراتبية المصادر المفترضة رأسا على عقب. ويمكن إعادة تقرير هذه النقطة بغرض الثأر بعد مضى عشر سنوات . إذ إنه ليس فقط من الواضح الآن أن الوثائق الرسمية المكتوبة ينبغى أخذها على أنها السجل الأول ، ما لم يمكن توضيح غير ذلك، ولكن التحول إلى وسائل الإعلام من أجل مناقشات قوية– أمركة استخدام التليفزيون – عندما تقدم ليصل إلى الإيميل ، أنتج تناقضا ساخرًا .

ورسالة البريد الالكترونى لا هى شئ ولا غيره : فهى ليست خطابًا فكريًا مكونًا ولا هى ثرثرة . إذ إن طرق الكتابة المختصرة الغريبة التى تشبه البرقيات ، والتركيب اللغوى الفقير ، والتسامح إزاء أخطاء الكتابة ، تشهد جميعا على الطبيعة سريعة الزوال للاتصال فى عقول المشاركين فى الاتصال . يا له من خطأ ! إذ يبدو الآن أن الرسالة فى البريد الإلكترونى سجل دائم يماثل السجل الذى يمكن أن يخلفه أى فرد . وحتى عندما يقوم الراسل بمحوه ، فإن رسالة البريد الالكترونى تحيا فى ذاكرة «السيرفر» جنبا إلى جنب مع عمليات نقل وتحويل الأموال عن طريق بطاقات الائتمان ، وسجلات الضرائب ، والسجلات الطبية... الخ، وسوف

تبقى هناك على مدى عشرات السنين . إنها أيضا رسالة عامة شأنها شأن الرسالة المكتوبة على بطاقة بريدية ، بل يمكن تتبعها على نحو أسهل كثيرا من البطاقة البريدية . إن وجود القدرة على تتبع الاتصالات التليفونية والانترنت فى وكالات الأمن (خاصة نظام Echelon الأنجلو الأمريكى ، الذى كشفت عنه سنة ١٩٩٩م مصادر فرنسية مستاءة خشيت من أن تكون الشركات الفرنسية ضحايا التجسس التجارى الانجلو سكسونى المدعوم رسميا) يعنى أن مؤرخ المستقبل الذى لديه قدر من الطموح لكتابة ما وراء التاريخ عن هذه الأزمنة سوف يحتاج إلى أن يكون مهندس كمبيوتر وربما يحتاج أيضا أن يكون عفريتا !

بيد أن الصفحة المكتوبة على الورق لا تزال هى الوسيط الأفضل الصالح للتسجيل السهل، بسبب سهولة الحصول عليها ورخص ثمنها لحفظ المعلومات . فليس هناك مسار مغناطيسى يمكن أن يفسد ، ولا بطارية يمكن أن يفرغ شحنها فالواقع، حسبما يحض يان ڤانسينا أنه يجب على المؤرخ الشفاهى أن يعهد بمادته إلى الورق بسرعة وبصورة شاملة قدر الإمكان . وفى أثناء القرن العشرين بقيت منطقة واحدة فى الحياة العامة فى المجتمعات المتعلمة طافية فى السجل الشفاهى التخمينى أكثر من غيرها. ذلك أن تاريخ المخابرات والجاسوسية صار بُعدا مفقوداً ؛ وعندما ظهر جزء من القصة بشكل نهائى- النجاحات البطولية للمخابرات الحكومية ومدرسة سيفر فى بليشى بارك Bletchley Park فى كسر وفك آلة الشفرة الألمانية ENIGMA فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، مثلا – تغير الرأى الشائع عن الحرب. وظهر الأمر كما لو أن البصمات غير المرئية فى ضوء النهار قد صارت ساطعة (٦٨). ولكن بدون السجل المكتوب المخبأ ، كان المجال المفتوح أمام الشائعة والتخمين هائلاً.

هل كان السير روجر هوليس Sir Roger Holis ، رئيس المخابرات عميلاً روسيا أم لا؟ قال البعض نعم، والبعض قالوا لا . كم خائنًا كانوا فى حلقة كمبردج ؟ ثلاثة ؟ خمسة؟ أكثر؟ لقد وفرت هذه الأسئلة مصادر عيش وفيرة لمن يتقبلون الغمز واللمز والتلميح ، كما وفرت تربة خصبة لنظريات المؤامرة على نطاق كبير (٦٩). ومن ثم فإنه عندما تم الكشف للعامة سنة ١٩٩١م عن أن المسئول عن الأرشيف فى المخابرات الروسية KGB كان على مدى سنوات يجمع أرشيفا خاصًا لأنه كان الوحيد الذى يطلع على ملفات الوكالة ، لاسيما فى أثناء انتقالهم من لوبيانكا Lubyanka إلى قيادة الـ KGB الجديدة على طريق موسكو الدائرى ، وأكثر من ذلك أنه كان قد تمت تصفيته هو والأرشيف سلفًا على أيدى المخابرات البريطانية، صار من الممكن ضبط الحقيقة بشكل مناسب. ومما سبب السرور الواضح لكريستوفر أندرو

Christopher Andrew ، المؤرخ الذى عهدت إليه المخابرات البريطانية بالوصول إلى الرجل والمادة ، إنه صار ممكنا تفنيد كثير من الأساطير ، وبالنسبة لأندرو أن يعلن فى التليفزيون ، عندما كان يؤكد كشف القناع عن عميلة سوفيتية خدمت فترة طويلة وهى الآن فى سن متقدمة، أن لا أحد ممن خدم السوفييت على الإطلاق يجب أن يظن أن سره سيظل مكتومًا بعد الآن (٧٠).

وفى غضون العقد الفائت ، نضج التاريخ الشفاهى ، سواء بصفته أسلوبا أو باعتباره نوعا داخل نطاق البحث التاريخى. ويعنى ذلك أن تخلص من سمعته بأنه شذوذ لايعول عليه ، على من أنه ، كما يأمل المرء، لم يفقد طاقته المحطمة للتقاليد الموروثة. وهو يدين بهذا جزئيًا لجهود المشتغلين به ، وجزئيا للأزمة العامة فى التدوين التاريخى، التى تصاعدت الآن بسبب المزيد من التحولات التى جرت داخل وسائل الاتصال . هذه المقالة كانت قد اقترحت أن إسهام التاريخ الشفاهى سجل إسهام التاريخ الشفاهى فى الدفاع العام قد تمت تقويته . ولكن من المهم أن ننهى كما فعلت المقالة الأصلية بالحرص إزاء المخاطر الناجمة عن سوء التوجه أو المبالغة فى عرض القضية . وتحتاج الأساليب تناولاً ماهرًا ويمكن فى الأيادى الجاهلة أو المهملة أن تضيع عبثا بسرعة وبصورة مفرطة . إن تكذيب وجود عفاريت البلقان، أو ظهور الوثائق من مكمنها فى زبديات الحليب تحت البيت الريفى الروسى dacha لمستر ميتروخين Mr. Mitrokhin قد أوضح هذه المخاطر: إن الكلمة المكتوبة لها القول الفصل– كما ينبغى أن يكون الحال . ولكن المكانة والإمكانات والقدرات المرتبطة بالكلمة المنطوقة قد تم إقرارها بشكل أكثر وضوحًا عن ذى قبل.

الهوامش

1 For the view from a different route which starts from this same point, see Henk Wesseling, 'What is Overseas History', ch. 4 of this volume.
2 P. Thompson, *The Voice of the Past: Oral History* (Oxford, 1978), p. 63.
3 J. Vansina, *Oral Tradition as History* (Madison, Wis., 1985), p. 199.
4 D. F. McKenzie, 'The Sociology of a Text: Oral Culture, Literacy and Print in Early New Zealand', in P. Burke and R. Porter (eds), *The Social History of Language* (Cambridge, 1987), pp. 161–97.
5 Iron was also independently tamed in Thailand and probably near the Great Lakes in Central Africa; the importance of the Near Eastern discovery lies in its combination with horse and grain.
6 This grid is borrowed from J. Vansina, 'Once upon a Time: Oral Traditions as History in Africa', *Daedalus*, 2 (spring 1971), pp. 442–68, p. 451.
7 For further exposition of the visible and the hidden in Lozi history, see G. Prins, *The Hidden Hippopotamus. Reappraisal in African History: The Early Colonial Experience in Western Zambia* (Cambridge, 1980).
8 For further discussion of the significance and usefulness of proverbs, see J. Obelkevich, 'Proverbs and Social History', in Burke and Porter, *The Social History of Language*, pp. 43–72.
9 David W. Cohen and E. S. Atieno Odhiambo, *Siyaya: The Historical Anthropology of an African Landscape* (London, 1988) and a review in *African Affairs*, 188 (Oct. 1989), pp. 588–9.
10 M. I. Finley, *The World of Odysseus* (Harmondsworth, 1962), p. 34.
11 J. Goody, *The Domestication of the Savage Mind* (Cambridge, 1977), p. 37.
12 J. Vansina, *Paths in the Rain-forest* (Madison, Wis., 1990).
13 E. E. Evans-Pritchard, *The Nuer* (Oxford, 1940); E. P. Thompson, 'Time, Work Discipline and Industrial Capitalism', in M. W. Flinn and T. C. Smout (eds), *Essays in Social History* (Oxford, 1974), pp. 40–1. See also Jacques Le Goff, 'Au Moyen Age: temps de l'Eglise et temps du marchand', *Annales*, 15 (1960), pp. 417–33.
14 D. Henige, *The Chronology of Oral Tradition: Quest for a Chimera* (Oxford, 1974).
15 D. Cannadine, 'The Context, Performance and Meaning of Ritual: The British Monarchy and the "Invention of Tradition"', in T. O. Ranger and E. Hobsbawm (eds), *The Invention of Tradition* (Cambridge, 1983), pp. 101–64; the same point is made by Wesseling on p. 80 above.
16 Primo Levi, *The Drowned and the Saved* (London, 1988); Michael Ignatieff, 'A Cry for Help – or of Release', *Observer*, 1 April 1990 (on the suicide of Bruno Bettelheim on 13 March 1990).
17 Geoffrey A. Hosking, 'Memory in a Totalitarian Society: The Case of the Soviet Union', in Thomas Butler (ed.), *Memory* (Oxford, 1988), p. 115.
18 'On the Political and Legal Assessment of the Soviet–German Non-Aggression Treaty of 1939', Report to the Second Congress of People's Deputies by Commission Chairman, Alexander Yakovlev, 23 Dec. 1989 (Moscow, 1990).

19 *History in the Primary and Secondary Years: An HMI View* (London, 1985).
20 Martin Kettle, 'The Great Battle of History', *Guardian* 4 April 1990, p. 23 (reviewing the political furore over the History Working Group Report, published after long delay on 3 April 1990).
21 D. C. Dorward, 'Ethnography and Administration: The Study of Anglo-Tiv "working misunderstanding"', *Journal of African History*, 15 (1974), pp. 457–77.
22 J. Cobbing, 'The Evolution of the Ndebele Amabutho', *Journal of African History*, 15 (1974), pp. 607–31; id., 'The Absent Priesthood: Another Look at the Rhodesian Risings of 1896–7', *Journal of African History*, 18 (1977), pp. 61–84; id., 'The Mfecane as Alibi: Thoughts on Dithakong and Mbolompo', *Journal of African History*, 29 (1988), pp. 487–519; T. O. Ranger, *Revolt in Rhodesia, 1896–7*, paperback edition (London, 1979).
23 T. O. Ranger, 'Towards a Usable African Past', in C. Fyfe (ed.), *African Studies since 1945: A Tribute to Basil Davidson* (London, 1976), pp. 17–30.
24 I. and P. Opie, *The Lore and Language of Schoolchildren* (Oxford, 1959), p. 8.
25 R. Skidelsky, *Politicians and the Slump: The Labour Government of 1929–31*, (London, 1967).
26 D. Lowenthal, *The Past is a Foreign Country* (Cambridge, 1985), pp. 202–3.
27 G. Levi, L. Passerini and L. Scaraffini, 'Vita quotidiana in un quartiere operaio di Torino fra le due guerre: l'opporto della storia orale', pp. 209–24; L. Bergonzini, 'Le fonti orale come verifica della testimonianze scritte in una ricerca sulla antifascismo e la resistenza bolognese', pp. 263–8, both in B. Bernardi, C. Poni and A. Triulzi (eds), *Fonti Orale: Antropologia e Storia* (Milan, 1978).
28 Oscar Lewis, *The Children of Sanchez: Autobiography of a Mexican Family* (London, 1962).
29 P. Thompson, *The Edwardians: The Remaking of British Society* (London, 1975).
30 C. R. Lee, *Whitehall Warriors: Postwar Defence Policy Decision-making* (forthcoming).
31 A. Vaughan, *Signalman's Morning* (London, 1981) and *Signalman's Twilight* (London, 1983). Both volumes in a paperback omnibus edition (London, 1984); id., *Isambard Kingdom Brunel* (London, 1991).
32 R. Coleman, *The Art of Work: An Epitaph to Skill* (London, 1988).
33 E. Tonkin, *Narrating our Pasts: The Social Construction of Oral History* (Cambridge, 1992), pp. 97–101; R. G. Collingwood, *An Autobiography* (Oxford, 1939), pp. 29–30.
34 E. Hobsbawm, 'On History from Below', in *On History* (London, 1997), p. 206.
35 D. W. Cohen, *The Combing of History* (Chicago, 1994), p. xiv.
36 D. Lan, *Guns and Rain: Guerrillas and Spirit Mediums in Zimbabwe* (Oxford, 1985); T. O. Ranger, *Peasant Consciousness and Guerrilla War in Zimbabwe: A Comparative Study* (Berkeley, 1985).
37 N. J. Kriger, *Zimbabwe's Guerrilla War: Peasant Voices* (Cambridge, 1992), pp. 6, 32; ch. 1, 'Peasant Revolutions: Theories and Methods', pp. 5–51; and 'Appendix: Field Research', pp. 243–8. An earlier example and plea for everyone to give such an appendix is 'About the Field Work', pp. 239–48 in my own book on western Zambia; see n. 7 above. It is reassuring to find more in the same vein. However, in this respect, the major event of the decade was the publication by the single most influential Africanist of his generation, of his own 'laminate' autobiography, which illuminates his own experience of Africa,

of African history and of the 'Africa' of the Academy: J. Vansina, *Living with Africa* (Madison, Wis., 1994). The 'usable history' doctrine (which Vansina calls 'Rangerism') is discussed at pp. 116, 124–5.

38 Kriger, pp. 124–33.

39 See n. 22 above.

40 J. Cobbing, 'Grasping the Nettle: The Slave Trade and the Early Zulu', MSS, Sept. 1990.

41 J. Cobbing, 'Debating post-*Mfecane* history: A Reply to Elizabeth Eldridge and Carolyn Hamilton', MS; and 'Overturning the *Mfecane*: A Reply to Elizabeth Eldridge', MS paper at the 1991 symposium. I am grateful to Julian Cobbing for several memorable discussions while walking in the hills near Grahamstown in 1995, reflecting on the battles over the *Mfecane*.

42 J. Urban, 'Czechoslovakia: The Power and Politics of Humiliation', in G. Prins (ed.), *Spring in Winter: The 1989 Revolutions* (Manchester, 1990), esp. pp. 117–22.

43 In fact, the tightening controls on fieldwork in Africa had already caused social anthropologists, especially those in the Cambridge department, to reorient their own and then their students' eyes, towards northern and eastern Europe. Therefore, when Ernest Gellner arrived to lead the department, it already had forged a new identity through the fieldwork of scholars such as Ray Abrahams (a re-oriented Africanist), Chris Hann and Caroline Humphrey, and their pupils and projects. There is an interesting metahistorical oral history doctoral topic to be undertaken, studying this and its local effects, on the model of Adam Kuper's *Anthropologists and Anthropology: The British School 1922–72* (Harmondsworth, 1973).

44 T. Garton Ash, *We the People: The Revolutions of 1989 Witnessed in Warsaw, Budapest, Berlin and Prague*, (Cambridge, 1990). Another interesting example of the genre and the moment in W. Echikson, *Lighting the Night: Revolution in Eastern Europe* (London, 1990). I have always admired N. Ascherson, *The Polish August: What has Happened in Poland* (Harmondsworth, 1981) as an impeccable example of how this type of work should be done.

45 E. Gellner, *Encounters with Nationalism* (Oxford, 1994); *Conditions of Liberty: Civil Society and its Rivals* (London, 1994).

46 E. Gellner, *Saints of the Atlas* (London, 1969), esp. 'Notes on Method', pp. 303–4 (see also discussion in the original essay); *Anthropology and Politics: Revolution in the Sacred Grove* (Oxford, 1995).

47 The *Spring in Winter* essays mentioned in n. 42 above.

48 T. Garton Ash, *History of the Present: Essays, Sketches and Dispatches from Europe in the 1990s* (London, 1999). The same is true for Michael Ignatieff's *Blood and Belonging: Journeys into the New Nationalism* (London, 1994), which stands in a similar tradition.

49 This is not an essay about that; but it would be perverse to leave an unsupported reference. For the context, see M. Glenny, *The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War* (Harmondsworth, 1992: 3rd edn, 1996); L. Silber and A. Little, *The Death of Yugoslavia* (Harmondsworth/London, 1996); and G. Prins, *European Horizons of Diplomatic/Military Operations* (London, 1999), pp. 23–31.

50 R. D. Kaplan, *Balkan Ghosts: A Journey through History* (New York, 1993); W. W. Hagan, 'The Balkans' Lethal Nationalisms', *Foreign Affairs*, 78/4 (July/Aug. 1999), p. 61.

51 Hagan, 'Balkans' Nationalisms', p. 54.

52 M. Glenny, *The Balkans: Nationalism, War and the Great Powers, 1809–1999* (London, 2000).

53 T. Garton Ash, 'Kosovo: Anarchy and Madness', *New York Review of Books*, 47/2, 10 Feb. 2000, pp. 48–53.
54 H. Slim and P. Thompson, *Listening for a Change: Oral Testimony and Development* (London, 1993).
55 See n. 19 above.
56 C. Husbands, *What is History Teaching? Language, Ideas and Meaning in Learning about the Past* (Buckingham, 1996).
57 J. Vansina, 'The Power of Systematic Doubt in Historical Enquiry', *History in Africa*, 1/1 (1974), pp. 109–27; *Living with Africa*, p. 173.
58 Husbands, *What is History Teaching?*, pp. 61–2.
59 J. Slater, 'The Politics of History Teaching: A Humanity Dehumanised?' Special Professional Lecture, London Institute of Education, 1998, cited ibid., p. vi; R. G. Collingwood, 'Some Perplexities about Time, and an Attempted Solution', *Proceedings of the Aristotelian Society*, NS 26/150 (1926), cited ibid., p. 11.
60 A. Portelli, 'The Best Garbage Man in Town: Life and Times of Valtèro Peppoloni, Worker,' in *The Death of Luigi Trastulli and Other Stories: Form and Meaning in Oral History* (Albany, NY, 1991), pp. 117–18.
61 C. van Onselen, *The Seed is Mine: The Life of Kas Maine, a South African Sharecropper, 1894–1985* (Oxford, 1996).
62 J. B. Thompson, *The Media and Modernity* (Cambridge, 1995), pp. 117–48.
63 To this end, beginning in 1996, agencies of the British government, led by the Centre for Defence Analysis in the Defence Evaluation and Research Agency of the Ministry of Defence, have been developing and testing methods for long-range strategic assessments of likelihood that are grounded in an understanding of this – historians' – debate. G. Prins, 'How Will Attitude Shape Politics?' Report CDA/HLS/WP095/1.0, DERA Farnborough, Nov. 1996, situates the concerns of this essay in that context, especially Annex B, 'Beliefs, Attitudes and Values'. The debate about interpreting the media revolution as it was then seen is at pp. 14–22.
64 A. Giddens, *Modernity and Self-identity: Self and Society in the Late Modern Age* (Cambridge, 1991).
65 J. Reich, 'Reflections on Becoming an East German Dissident, on Losing the Wall and a Country' in Prins, *Spring in Winter*; L. Abu-Lughod, 'Bedouins, Cassettes and Technologies of Public Culture, *Middle East Report*, 159/4, (1986), pp. 7–12; E. Gellner, *Muslim Society* (Cambridge, 1981).
66 M. Joyce-Hasham, *Conspiracies on the Internet*, RIIA (forthcoming); D. Mann and M. Sutton, 'Netcrime: More Change in the Organisation of Thieving', *British Journal of Criminology*, 38/2 (spring 1998), pp. 201–29.
67 A lively exploration of this can be found in J. Naughton, *A Brief History of the Future: Origins of the Internet* (London, 1999).
68 C. Andrew and D. Dilks (eds), *The Missing Dimension: Governments and Intelligence Communities in the 20th Century* (Urbana, Ill., 1984); F. H. Hinsley and A. Stripp, *Codebreakers: The Inside Story of Bletchley Park* (Oxford, 1994).
69 Notably two authors, Chapman Pincher and 'Nigel West'. P. Wright with P. Greengrass, *Spycatcher* (Richmond, Australia, 1987) had the delicious attraction of *samizdat* status after the British government's ham-fisted attempts to suppress its publication; but it read like a demented rant, which it turned out to be.
70 C. Andrew and V. Mitrokhin, *The Mitrokhin Archive: The KGB in Europe and the West* (London, 1999).

(٧)

تاريخ القراءة

روبرت دارنتون

يقدم أوڤيد Ovied النصيحة عن كيفية قراءة خطاب عاشق ، خطاب عاشق : «إذا كان يحب أن يعمل افتتاحيات بواسطة بعض الكلمات المصورة على ألواح سلّمت إليك عن طريق خادم ماهر، فتأمليها جيداً، وزن ثقل عباراته ، وحاولى أن تخمنى ما إذا كان حبه مجرد تصنع أم أنه فى توسلاته ينطلق من قلب مخلص فى حبه» . هذا شئ خارق للعادة. وربما كان الشاعر الرومانى واحداً منا . فهو يتناول مشكلة يمكن أن تظهر فى أى عصر، ويبدو وكأنها موجودة خارج الزمن. وفى القراءة عن قراءة كتاب «فن الحب» يبدو أننا نسمع صوتا يتحدث مباشرة إلينا عبر مسافة ألفى سنة.

ولكن عندما ننصت أكثر، يبدو الصوت أكثر غرابة . إذ يمضى أوڤيد لكى يحدد أساليب التواصل مع حبيب من وراء ظهر الزوج :

«مما يتوافق مع الأخلاق والقانون أن الزوجة المستقيمة يجب أن تخشى زوجها وأن تكون محاطة بحراسة صارمة ... ولكن إذا كان لك حراس عديدون فى كثرة عدد عيون أرجوس، فإنك تستطيعين أن تغررى بهم جميعًا إذا كانت عزيمتك ثابتة بما يكفى . فعلى سبيل المثال ، هل يمكن لأحد أن يوقف خادمتك ويتحقق من حمل رسائلك بين نهديها أو بين قدميها وباطن حذائها ؟ دعنا نفترض أن حارسك يمكن أن يرى من خلال تلك الخدع جميعا. ثم اجعلى المؤتمن على أسرارك يقدم لها كتابة ثانية مكان الرسائل واجعلى جسدها يصبح خطاباً حيا»(١).

والمتوقع من العاشق أن ينزع عن الخادمة ملابسها ويقرأ جسدها- ليس بالضبط نوع الاتصال الذى نربطه بكتابة الخطابات اليوم. وعلى الرغم من أريجه الذى يفوح بالمعاصرة المغرية، فإن كتاب «فن الحرب» يقذف بنا فى عالم لا نكاد نقدر على تخيله . ولكى نفهم

الرسالة ، يجب أن نعلم شيئا عن الميثولوچيا الرومانية، وعن أساليب الكتابة، وعن الحياة المنزلية. ويجب أن نكون قادرين على أن نصور أنفسنا فى صورة زوجة نبيل رومانى ، وأن نقدر مدى التناقض بين الأخلاق الرسمية والطرق المتبعة فى عالم سيطرت عليه الحنكة واللامبالاة فى زمن كان يتم فيه التبشير بموعظة الجبل بلسان بربرى بعيداً فيما وراء مدى السمع الرومانى *.

وقراءة أوڤيد تعنى مواجهة سر القراءة نفسه . فهو نشاط مألوف وأجنبى فى آن معا ، وهو نشاط نشارك فيه مع أسلافنا بيد أنه لايمكن أن يكون أبدا هو النشاط نفسه الذى جربوه . وقد نستمتع بالوهم بأننا نخطو خارج الزمن لكى نتواصل مع كتاب عاشوا منذ قرون مضت . ولكن حتى إذا كانت نصوصهم قد وصلتنا دونما تغيير– وهى استحالة حقيقية، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا تطور الناتج وتطور الكتب باعتبارها أشياء مادية– فلا يمكن أن تكون علاقتنا مع هذه النصوص هى نفسها تلك العلاقة التى كانت مع القارئ فى الماضى. إن للقراءة تاريخًا ولكن كيف نستعيده ؟

علينا أن نبدأ بالبحث فى سجل القراءة . وقد وجد كارلوجينز بورج أحد السجلات، طحان متواضع من فريولى Friuli فى القرن السادس عشر، ضمن أوراق محاكم التفتيش . وإذْ كان متهمًا بالهرطقة فقد سأل مسئول محكمة التفتيش ضحيته عما يقرأ . وأجاب مينوكشيو بخيط من العناوين وتعليقات مسهبة على كل منها . وبمقارنة النصوص والتعليقات اكتشف جينز بورج أن مينوكشيو كان قد قرأ القدر الكبير من قصص الكتاب المقدس، والمؤرخات ، وكتب الرحلات من النوع الذى كان موجوداً فى كثير من مكتبات النبلاء . ولم يتلق مينوكشيو ببساطة رسائل تم نقلها عبر الهيئة الاجتماعية. فقد كان يقرأ بنهم ويحول محتويات المادة التى بحوزته إلى رؤية غير مسيحية جذرياً للعالم. ومسألة ما إذا يمكن تتبع مسار تلك الرؤية لأصولها فى تراث شعبى قديم ، كما يزعم جينز بورج ، مسألة محل جدل ؛ بيد أن جينز بورج أوضح بالتأكيد إمكانية دراسة القراءة بوصفها نشاطا كان موجوداً بين الناس منذ أربعة قرون مضت [٢].

---

* المقصود هنا ظهور السيد المسيح وتعاليمه التى كانت بالكنعانية فى فلسطين بطبيعة الحال، وكان الرومان يستخدمون مصطلح «البرابرة» و«بربرى» لوصف كل من ليس رومانيا أو لا ينطق اللاتينية. (المترجم)

وقد قابلت عرضًا قارئًا من الطبقة الوسطى الخالصة فى أثناء بحثى عن فرنسا القرن الثامن عشر. وكان تاجرًا من لاروشيل LaRochelle واسمه چان رانسون Jean Ranson ومغرمًا بچان چاك روسو. ولم يكتف رانسون بأن يقرأ روسو ويبكى؛ بل إنه أدخل أفكار روسو فى نسيج حياته وهو يمارس عمله، ويقع فى شباك الغرام، ويتزوج ، ويربى أبناءه . فقد كانت القراءة والحياة تسيران متوازيتين كأنما ثمة لحن رئيسى يتكرر فى سلسلة غنية من الخطابات التى كتبها رونسون فيما بين سنة ١٧٧٤م وسنة ١٧٨٥م والتى تظهر كيف تم استيعاب مذهب روسو فى أسلوب حياة البورجوازية الإقليمية فى ظل النظام القديم . فقد كان روسو قد تلقى فيضًا من الخطابات من القراء أمثال رانسون بعد نشر La nouvelle Héloise . وأعتقد أن ذلك كان أول موجة مدٍّ فى بريد المعجبين فى تاريخ الأدب، على الرغم من أن ريتشارد سون كان قد أنتج بالفعل بعض الموجات الصغيرة المؤثرة فى انجلترا . ويكشف البريد عن أن القراء استجابوا مثلما فعل رانسون فى كل مكان بفرنسا ، وأكثر من هذا، أن استجاباتهم توافقت مع تلك التى كان روسو قد طلبها فى المقدمتين اللتين كتبهما لروايته . إذ كان قد أرشد قراءه كيف يقرأونه. وكان قد حدد لهم الأدوار وزودهم باستراتيچية لفهم روايته . وقد نجحت الطريقة الجديدة فى الكتابة لدرجة أن La nouvelle Héloise صارت أكثر أحسن الكتب مبيعا فى ذلك القرن، وأهم مصدر مفرد للحساسية الرومانسية. تلك الحساسية قد انقرضت الآن. فليس هناك قارئ حديث يمكن أن يبكى وهو يطالع المجلدات الستة لرواية La nouvelle Héloise كما فعل أسلافه منذ قرنين مضيا . ولكن روسو فى أيامه استولى على وجدان جيل بكامله من القراء بإحداث ثورة فى القراءة نفسها (٣).

ويشير مثالا مينوكشيو ورانسون إلى أن القراءة والعيش ، أى بناء النصوص وإضفاء المعنى على الحياة، كانا متصلين بأحدهما الآخر اتصالاً وثيقًا فى الفترة الحديثة الباكرة بقدر أكثر مما هو عليه اليوم . ولكن قبل القفز إلى الاستنتاجات ، نحتاج إلى العمل من خلال المزيد من الأرشيفات، ومقارنة تقارير القراء عن تجربتهم مع تقاليد القراءة وآدابها فى كتبهم، وإذا أمكن ، مقارنتها مع سلوكهم. فقد كان الظن سائدًا بأن The Sorrows of Young Werther قد أطلقت موجة من حالات الانتحار فى ألمانيا. أو ليس الآوان قد آن لكى نقوم بفحص جديد لـ Wertherfieber ؟ وما قبل الرفائليين فى إنجلترا يقدمون أمثلة مشابهة عن فن محاكاة الحياة. وهو موضوع يمكن تتبع آثاره من دون كيشوت إلى مدام باڤارى ومس

لونلي هارتس . ففي كل حالة يمكن أن يكتسي الخيال لحما ويقارن بالوثائق - المذكرات الخاصة بحالات الانتحار الفعلية، واليوميات والخطابات الموجهة إلى المحرر . إن مراسلات المؤلفين وأوراق الناشرين مصادر مثالية للمعلومات عن القراء الحقيقيين . هناك عشرات الرسائل من القراءة في المراسلات المنشورة إلى ڤولتير وروسو، ومئات في الأوراق غير المنشورة لبلزاك وإميل زولا (٤).

باختصار ، يجب أن يكون ممكنا أن نطور تاريخا وكذلك نظرية عن استجابة القارئ . وهو أمر ممكن ولكنه ليس سهلاً ؛ لأن الوثائق نادراً ما تكشف عن القراء أثناء القراءة ، وهو ما يتطلب أيضا التفسير. وقليل من هذه الوثائق من الثراء بحيث تتيح الوصول غير المباشر إلى العناصر المعرفية والمؤثرة في القراءة، وثمة حالات استثنائية قليلة ربما لاتكون كافية للمرء لكي يعيد بناء الأبعاد الداخلية لتلك التجربة . ولكن المؤرخين الذين يكتبون عن تاريخ الكتاب كونوا بالفعل قدراً كبيراً من المعلومات عن التاريخ الخارجي للقراءة . وإذ فرغوا من دراستها باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، كان بوسعهم الاجابة عن كثير من الأسئلة التي تبدأ بـ «من» و«ماذا» ، و«أين» و«متى» ، والتي يمكن أن تساعدنا كثيراً في تناول أسئلة «لماذا» و«كيف» الأكثر صعوبة.

وتنقسم دراسات من قرأ ماذا في أوقات مختلفة إلى نمطين أساسيين، التحليل المكبر والتحليل المصغر . فقد انتعش التحليل المصغر في فرنسا أكثر من غيرها ، حيث يتغذى على تراث قوي من التاريخ الاجتماعي الكمي. ذلك أن كلاً من هنري- چان مارتان Henri- Jean Martin ، وفرانسو فوريه Francos Furet ، وروبرت استيڤالز Robert Estivals وفردريك باربييه Frédéric Barbier ، قد تتبعوا مسار تطور عادات القراءة من القرن السادس عشر إلى الحاضر، مستخدمين سلاسل طويلة المدى تم بناؤها من الإيداع القانوني وسجلات امتيازات الكتب والنشرة السنوية Bibliographie de la France . ويمكن للمرء أن يرى الكثير من الظواهر الحافزة في تموج خطوطها البيانية: تدهور اللغة اللاتينية ، وصعود الرواية ، والانبهار العام بعالم الطبيعة المباشر والعوالم البعيدة للبلاد الغربية الذي انتشر بين عامة المتعلمين فيما بين زمن ديسقراطيس وزمن بوجينڤيل . وكان الألمان قد بنوا سلسلة أطول من الإحصاءات ، بفضل مصدر غني بشكل خاص: وهو كتالوجات معارض الكتب في فرانكفورت وليبزج، التي غطت الفترة منذ منتصف القرن السادس عشر (وكان كتالوج فرانكفورت قد

نشر بدون انقطاع منذ سنة ١٥٦٤م حتى سنة ١٧٤٩م، وكتالوج ليبزج الذى يرجع تاريخه إلى عام ١٥٩٤م يمكن أن يحل محله فيما بعد ١٧٩٧م (Hinrichssche Verzeichnisse) وعلى الرغم من أن الكتالوجين كان لهما جوانب قصور ، فإنهما يقدمان فهرست أولى للقراءة الألمانية منذ عصر النهضة ؛ كما أنهما خضعا للدراسة من جانب أجيال من مؤرخى الكتاب الألمان منذ نشر يوهان جولد فريدريش Johann Goldfredrich كتابه الروائع Geschichte des deutschen Buchhandels عامى ١٩٠٨ و ١٩٠٩م . وليس لدى العالم الذى يقرأ بالإنجليزية مصدر يمكن أن يجارى هذا المصدر؛ ولكن بالنسبة للفترة فيما بعد سنة ١٥٥٧م، عندما بدأت لندن تسيطر على صناعة الطباعة، وفرت أوراق شركة London Stationers Company لكل من بينيت H.S. Bennett وجريج W.W Greg ، وغيرهما كمية كبيرة من المادة اللازمة لتتبع مسار تطور صناعة الكتابة وتجارتها فى انجلترا . وعلى الرغم من أن التقاليد البريطانية فى مجال البيبلوجرافية لم تكن تحبذ تجميع الإحصائيات ، فإن هناك قدراً كبيرا من المعلومات الكمية فى الكتالوجات قصيرة المدى ابتداء من سنة ١٤٧٥م. وقد رسم جيلز باربر Giles Barber بعض الرسوم البيانية التى تشبه الرسوم الفرنسية من سجلات الزبائن ، كما أن روبرت ويناس Robert Winans وتوماس تانسيل G. Thomas Tanselle قد قاسوا حجم القراءة الأمريكية الباكرة بإعادة العمل على كتاب تشارلز إيفانز Charles Evans الضخم American Bobliography (ويشمل ثمانية عشر ألف مادة عن الفترة من ١٦٣٨م إلى ١٧٨٣م متضمنة لسوء الحظ عدداً غير محدد من «الأشباح») (٥).

كل هذا الجمع والحساب وفر بعض الخطوط الإرشادية إلى عادات القراءة ، بيد أن التعميم يبدو أحيانا أكثر عمومية مما ينبغى بحيث لا يفى بالغرض . فالرواية ، مثل البورجوازى، تبدو دائما فى حال من الصعود ؛ وتتهاوى الخطوط البيانية عند النقاط المتوقعة – فى أثناء حرب السنوات السبع فى معرض ليبزج للكتاب بشكل لافت تماماً للنظر، وفى أثناء الحرب العالمية الأولى فى فرنسا . ومعظم الذين يقومون برصد الكميات يصنفون إحصائياتهم فى فئات غامضة مثل «الفنون والعلوم» و«الآداب» وهى تصنيفات غير كافية للتعرف على ظواهر بعينها مثل النزاع على وراثة العرش، واليانسينية Jansenism *، والتنوير ، والإحياء القوطى– وهى

* اليانسينية مذهب لاهوتى مسيحى يقول بعدم وجود حرية الإرادة، ويذهب إلى أن الخلاص عن طريق موت المسيح مقصور على فئة قليلة من البشر. وقد تحول إلى مذهب أخلاقى سلبى فيما بعد . (المترجم)

نفسها الموضوعات التى جذبت الاهتمام أكثر من غيرها فيما بين مؤرخى القراءة والمؤرخين الثقافيين. وسوف يكون على التاريخ الكمى للكتاب أن يقوم بتنقية كتالوجاته ويزيد من تركيزه قبل أن يمكنه أن يكون له تأثير كبير على الأوتار التقليدية فى البحث العلمى.

ومع هذا فإن الذين يستخدمون الأسلوب الكمى قد كشفوا عن بعض النماذج الإحصائية المهمة، وسوف تبدو إنجازاتهم أكثر تأثيراً إذا ما كانت جهداً للمقارنة بين بلد وآخر. فعلى سبيل المثال، تشير الإحصائيات إلى أن الإحياء الثقافى فى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر كان مرتبطًا بحمى القراءة التى كانت أشبه بالوباء ، والتى أطلق عليهم اسم Lesewut أو Lesesucht . ولم تصل كتالوجات ليبزج إلى المستوى الذى كانت قد حققته قبل حروب الثلاثين سنة حتى عام ١٧٦٤م، عندما تضمنت ألفا ومائتى عنوان من الكتب المنشورة حديثا . ومع انطلاق Sturm und Drang *، ارتفع العدد إلى ألف وستمائة عنوان سنة ١٨٠٠م وقد سار الفرنسيون على هدى نموذج مختلف . فقد زاد إنتاج الكتب زيادة ثابتة على مدى قرن من الزمان بعد صلح وستفاليا Westphalia (١٦٤٨م) - وهو قرن أنتج أدبا عظيما، من كورنيل Corneille إلى دائرة المعارف Encylopédia ، وقد تصادف مع التدهور فى ألمانيا . بيد أنه فى السنوات الخمسين التالية، عندما ارتفعت الأرقام الألمانية ، بدت الزيادة الفرنسية متواضعة . وكما يقول روبرت إيستڤالز، فإن طلبات الإذن بنشر كتب جديدة وصلت إلى سبعمائة وتسعة وعشرين طلبا فى سنة ١٧٦٤م، ثم ثمانمائة وستة وتسعين سنة ١٧٧٠م ، وهبطت إلى خمسمائة وسبعة وعشرين فقط فى سنة ١٧٨٠م. ولاشك فى أن الأنواع المختلفة من الوثائق ومستويات المقاييس يمكن أن تسفر عن نتائج مختلفة، كما أن المصادر الرسمية تستبعد الإنتاج الضخم للكتب الفرنسية غير القانونية. ولكن مهما كانت جوانب القصور فيها ، فإن الأرقام تشير إلى قفزة عظيمة إلى الأمام فى حياة القراءة الألمانية بعد قرن من السيطرة الفرنسية. كذلك كان لدى ألمانيا كتاب أكثر عدداً ، على الرغم من أن عدد السكان فى المناطق الناطقة بالفرنسية وفى المناطق الناطقة بالألمانية كان واحداً تقريبًا . وثمة تقويم أدبى ألمانى Das gelehrte Teutschland ضم قائمة بثلاثة آلاف مؤلف على قيد الحياة فى سنة ١٧٧٢م

* حركة أدبية ألمانية نشأت أواخر القرن الثامن عشر احتجاجًا على تقليد حركة التنوير الفرنسية . (المترجم)

وأربعة آلاف وثلاثمائة فى سنة ١٧٧٦م. وثمة نشرة فرنسية مشابهة La France Litéraire ضمَّت ألفًا ومائة وسبعة وثمانين مؤلفا فى سنة ١٧٥٧م ، وألفين وثلاثمائة وسبعة وستين فى سنة ١٧٦٩م. وبينما كان ڤولتير وروسُّو يتقدمان فى السن، كان جوته وشيللر يركبان موجة من الإبداع الأدبى كانت أقوى كثيراً مما قد يظن المرء إذا ما تأمل فقط التواريخ التقليدية للأدب(٦).

إن المقارنات بين الإحصائيات تُساعد أيضا فى رسم خريطة التيارات الثقافية. فبعد تنسيق امتيازات نشر الكتب طوال القرن الثامن عشر فى جداول وجد فرانسوا فوريه تدهورا ملحوظا فى الفروع القديمة من التعليم، لاسيما الأدب اللاتينى الكلاسيكى والإنسانى الذى كان قد ازدهر قبل قرن من الزمان بحسب إحصائيات هنرى - چان مارتان. وسادت الموضوعات الجديدة مثل الكتب المصنفة تحت عنوان «العلوم والفنون» بعد سنة ١٧٥٠م . ويلاحظ دانيال روش Daniel Roche وميشيل ماريون Michel Marion اتجاهًا مشابهًا فى مسحهما لأرشيفات باريس الوثائقية . فالروايات ، وكتب الرحلات وكتب التاريخ الطبيعى اتجهت إلى إزاحة الكلاسيكيات من على رفوف مكتبات النبلاء والبورجوازيين الأثرياء . وجميع الدراسات تشير إلى هبوط كبير فى الأدب الدينى فى أثناء القرن الثامن عشر. وهما يؤكدان البحث الكمى فى مناطق أخرى من التاريخ الاجتماعى- مثل بحث ميشيل ڤوڤيل Michel Vovelle عن طقوس الجنازات ، ودراسة دومينيك جوليا Dominique Julia عن رسامة القساوسة وممارسات التعليم (٧).

إن عمليات البحث الموضوعية عن القراءة الألمانية تستكمل تلك التى قام بها الفرنسيون . فقد وجد رودلف جنتزش Rudolf Gentzsch وألبرت وارد Albert Ward هبوطا شديداً فى الكتب اللاتينية وزيادة متزامنة فى الروايات فى كتالوجات المعارض بليبزج وفرانكفورت. ومع حلول أواخر القرن التاسع عشر ، وفقا لما يقوله إدوارد راير ورودلف شندا Eduard Reyer, Rudolf Chenda ، توافقت نماذج الاستعارة من المكتبات مع النموذج نفسه بطريقة مذهلة": فقد كان هناك ما بين سبعين إلى ثمانين بالمائة من كتب الخيال الخفيفة (ومعظمها من الروايات) ؛ وعشرة بالمائة من الكتب فى التاريخ والسيرة والرحلات ؛ وأقل من واحد بالمائة كتب عن الدين. وفى غضون أكثر من مائتى سنة كان عالم القراءة قد تحول . وكان صعود الرواية قد وازن الاضمحلال فى الأدب الدينى، وفى كل حالة تقريبًا يمكن تحديد نقطة التحول

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، لاسيما فى سبعينيات ذلك القرن، وهى سنوات حركة Wertherfieber الأدبية. وقد نتج عن رواية Die Leiden des Jungen Werther استجابة أكبر مما نتج عن رواية La nouvelle Héloise فى فرنسا ، أو رواية Pamela فى انجلترا . وكانت الروايات الثلاث كلها علامة على انتصار حساسية أدبية جديدة، وبدا أن الجمل الأخيرة فى رواية Werther تعلن عن قدوم جمهور قارئ جديد مع موت الثقافة المسيحية التقليدية*(٨).

وهكذا ، كانت الدراسات التحليلية الكبيرة ، بكل تنويعاتها وتناقضاتها الطارئة ، تشير إلى بعض الاستنتاجات العامة ، وهو شئ قريب الشبه بما قاله ماكس ڤيبر عن «فك لغز العالم» . وقد يبدو ذلك كونيا بشكل غير مريح. إذ إن أولئك الذين يفضلون الدقة قد يتحولون صوب التحليل المصغر ، على الرغم من أنه عادة ما يذهب إلى الطرف الآخر- أى التفاصيل المفرطة. ولدينا مئات من قوائم الكتب فى المكتبات من العصور الوسطى حتى الآن، وهى أكثر مما يستطيع أحد أن يتحمل قراءتها . ومع هذا فإن معظمنا سوف نوافق على أن كتالوج مكتبة خاصة سوف يفيدنا فى الكشف عن صورة قارئ ما ، حتى لو لم نقرأ جميع الكتب التى لدينا ونحن نقرأ بالفعل كثيرا من الكتب التى لم نشترها أبداً . ولكى نتصفح كتالوج مكتبة فى مونتسيللو Monticello يعنى أن نفتش عما يؤثث عقل چيڤرسون(٩) . كما أن دراسة المكتبات الخاصة توفر ميزة الربط بين «ماذا» و«من» فى القراء.

وكان للفرنسيين فضل القيادة فى هذه المنطقة أيضا . فقد أوضحت مقالة دانييل مورنيه Daniel Mornet المنشورة سنة ١٩١٠م بعنوان :

"Les enseignements des bibliothéques Privées"

أن دراسة كتالوجات المكتبات أمكن أن تؤتى استنتاجات تحدت بعض المواقف الشائعة فى التاريخ الأدبى. فبعد تنظيم العناوين فى جداول من خمسمائة كتالوج ترجع إلى القرن الثامن عشر ، تم العثور على نسخة واحدة فقط من الكتاب الذى قيض له أن يكون الكتاب المقدس

---

* أورد الكاتب نص هذه الجملة باللغة الألمانية على النحو التالى:

Handwerker trugen ihn. kein Geistlicher hat ihn begleitet.

(المترجم)

للثورة الفرنسية، وهو كتاب «العقد الاجتماعي» لروسو. فقد غصّت المكتبات بأعمال مؤلفين غابوا تمامًا في غياهب النسيان، ولم يقدموا أي أساس لربط أنواع بعينها من الأدب (أعمال الفلاسفة مثلا) بطبقات معينة من القراء (البورجوازيين). وبعد ذلك بسبعين سنة، كان كتاب مورنيه ما زال يبدو مؤثرًا. بيد أن كمًا هائلاً من الكتابات نما من حوله. ولدينا الآن إحصائيات عن مكتبات النبلاء، والمدرسين، والقساوسة، والأكاديميين، وسكان المدن، والحرفيين، بل وبعض خدم المنازل. وقد درس الباحثون الفرنسيون القراءة عبر الطبقات الاجتماعية في بعض المدن- كاين Caen لجان كلود بيروه، وباريس لميشيل ماريون- وفي شتى أنحاء الإقليم كله- نورماندي لجان كوينيارتJean Quéniart ولانجدوك لمادلين ڤنتر Madeleine Ventre وإلى درجة كبيرة يعتمدون على inventaires aprés décés، وهو سجل توثيقي للكتب في ضياع المتوفين. ولذلك فإنهم يعانون من الإنحياز المتضمن في داخل الوثائق، والذي يهمل عادة الكتب ذات القيمة التجارية الضئيلة أو يحصرون أنفسهم في عبارات غامضة مثل «كومة من الكتب». ولكن عين موثق العقود كان لها قدر كبير في فرنسا، أكثر كثيرا من ألمانيا، حيث يعتبر رودلف شيندا قوائم الجرد من أسباب البلوى، ويرى فيها دليلاً غير كاف لعادات القراءة عند عامة الناس. وأكبر دراسة ألمانية شاملة ربما تكون الدراسة المسحية التي قام بها والتر ويتمان لقوائم الجرد في أواخر القرن الثامن عشر في فرانكفورت. وقد أشارت إلى أن الكتب كانت ملكا لمائة بالمائة من كبار الموظفين، وواحد وخمسين بالمائة من التجار، وخمسة وثلاثين بالمائة من كبار الحرفيين، وخمسة وعشرين بالمائة من الرحالة. وقد وجد دانييل روش نموذجًا مشابهًا بين عامة الناس في باريس؛ فقد كان هناك خمسة وثلاثون بالمائة فقط من العمال ذوي الأجور والموظفين المدنيين الذين يظهرون في أرشيفات الموثقين حوالي سنة ١٧٨٠م يمتلكون الكتب. ولكن روش أيضًا اكتشف الكثير من المؤشرات الدالة على الألفة مع الكلمة المكتوبة. فبحلول سنة ١٧٨٩م كان جميع الموظفين تقريبًا يمكنهم التوقيع بأسمائهم على قوائم الجرد. وكان عدد كبير جدا منهم يمتلكون مكاتب، مزودة تماما بمتطلبات الكتابة ولوازمها وبها أوراق العائلة. وكان معظم الحرفيين وأرباب الدكاكين يمضون عدة سنوات في طفولتهم بالمدرسة. وقبل سنة ١٧٨٩م كانت في باريس خمسمائة مدرسة ابتدائية، أي مدرسة لكل ألف من السكان، وكلها مجانية بشكل أو بآخر. فقد كان الباريسيون قارئين، حسبما يستنتج روش، بيد أن القراءة لم تأخذ شكل الكتب التي تظهر في قوائم الجرد. فقد كانت تضم كتيبات القصص الشعبية، والكتب المركزة،

والملصقات ، والخطابات الشخصية ، بل وعلامات الشوارع. وكان الباريسيون يقرأون وهم يشقون طريقهم عبر المدينة وفي غمار حياتهم، بيد أن طرق قراءتهم لم تترك من الأدلة ما يكفي في الأرشيفات لكي يتمكن المؤرخ من السير على أعقابهم بدقة (١٠).

ومن ثم يجب على المؤرخ أن يبحث عن مصادر أخرى . وكانت قوائم الاشتراكات مفضلة على الرغم من أنها عادة ما كانت تغطي القراء الأغنياء نوعًا ما وحدهم . ومنذ أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر ، كان قد تم نشر الكثير من الكتب عن طريق الاشتراكات وضمت قوائم المشتركين. وقد استخدم الباحثون العاملون في The Project for Historical Bibliography at Newcastle عن تاين Tyne هذه القوائم للعمل في بناء علم اجتماع تاريخي عن القراءة. وثمة جهود مماثلة كانت تجرى في ألمانيا ، لاسيما فيما بين الباحثين في كلوبستوك Klopstok وڤيلاند Wieland . وربما كان سدس الكتب الألمانية الجديدة قد نشرت عن طريق الاشتراكات فيما بين سنة ١٧٧٠م وسنة ١٨١٠م، عندما وصلت تلك الممارسة إلى ذروتها. ولكن حتى إبان حركة Blutezeit لم تقدم قوائم الاشتراكات رؤية دقيقة للقراءة . فقد تركت وراءها أسماء كثير من المشتركين ، وتضمنت أسماء آخرين كانت بمثابة نماذج بدلاً من أن يكونوا قراء، وعلى العموم كانت تمثيلاً لمهارة البيع لدى عدد قليل من أصحاب المكتبات بدلاً من عادات القراءة لدى عامة المتعلمين ، بحسب بعض النقد الهدام الذي وجهه رينهارد ويتمان Reinhard Wittmann ضد البحث اعتماداً على قوائم الاشتراكات . ويشير عمل والاس كيرسوب Wallace Kirsop إلى أن مثل هذا البحث قد ينجح في فرنسا على نحو أفضل، حيث ازدهر النشر عن طريق الاشتراكات أيضا في القرن الثامن عشر. ولكن القوائم الفرنسية، مثل الأخريات، تحبذ أكثر القراء ثراءً وأفضل الكتب بشكل عام (١١).

وتقدم سجلات مكتبات الإعارة فرصة أفضل لعمل روابط بين الأنواع والطبقات الاجتماعية، ولكن القليل منها هو الذي بقي. وأكثرها لفتًا للنظر سجلات الاستعارات من المكتبة الدوقية في ڤولنبوتيل Wolfenbütel ، التي تمتد من ١٦٦٦م إلى ١٩٢٨م . وبحسب ڤولفانج ميلد Wolf-gang Milde ، وبول رابي Paul Raabe ، وجون ماكارثي John McCarthy ، فإنها تظهر عملية «دمقرطة» للقراءة في ستينيات القرن الثامن عشر : فقد تضاعف عدد الكتب المستعارة؛ كما أن المستعيرين جاءوا من طبقات اجتماعية دنيا (فقد كان من بينهم عدد قليل من الحمالين، والخدم الخصوصيين ، وصغار ضباط الجيش) ؛ وصارت مادة القراءة أخف وزنًا ،

فتحولت من المجلدات العلمية إلى الروايات العاطفية (كما أن الروايات التى تقلد روبنسون كروزو لقيت قبولاً حسنًا) . ومن الغريب أن سجلات مكتبة الملك Bibliotheque du Roi فى باريس تبين أنه كان بها العدد نفسه من الرواد فى ذلك الوقت - حوالى خمسين فى السنة، وكان من بينهم دونى ديدرو Denis Diderot . ولم يكن باستطاعة الباريسيين أن يأخذوا الكتب معهم إلى منازلهم ، ولكنهم كانوا يتمتعون بالضيافة فى وقت أكثر تمهلاً واستمتاعًا بوقت الفراغ . وعلى الرغم من أن أمين المكتبة كان يفتح أبوابه لهم مرتين فقط فى الصباح كل أسبوع ، فقد كان يعطى كلاً منهم وجبة قبل أن يغادروا المكتبة . والأحوال مختلفة فى المكتبة الوطنية فى باريس اليوم. إذ تعين على أمناء المكتبات أن ينصاعوا للقانون الأساسى للاقتصاد: فليس هناك شئ مجانى مثل وجبة الغذاء (١٢).

وقد انبثق عن التحليل المصغر اكتشافات أخرى كثيرة - كثيرة جداً فى الحقيقة لدرجة أن المشكلة نفسها تواجه أصحاب التحليل الكمى المكبر : كيف يتأتى وضعها جميعًا سويًا ؟ إن تفاوت التوثيق - كتالوجات المزادات ، سجلات الموثقين ، قوائم الاشتراكات ، سجلات المكتبات - لم يجعل العمل أكثر سهولة . ويمكن أن ننسب الاختلافات فى الاستنتاجات إلى خصائص المصادر بدلاً من نسبتها إلى سلوك القراء. وغالبًا ما تلغى الكتب ذات الموضوع الواحد كل منها الأخرى: فالحرفيون يبدون متعلمين هنا ويظهرون أميين هناك ؛ ويبدو أدب الرحلات شائعا ورائجًا بين بعض المجموعات فى بعض الأماكن ويبدو غير رائج فى أماكن أخرى. وتبدو المقارنة بين الأنواع، والأوساط ، والأزمنة، والأماكن وكأنها مؤامرة من الاستثناءات تحاول دحض القواعد وتفنيدها .

وإلى الآن يوجد مؤرخ واحد فقط كان جسوراً بحيث قدم نموذجًا عامًا . فقد جادل رولف إنجلسنج Rolf Engelsing بأن «ثورة فى القراءة» حدثت قرب نهاية القرن الثامن عشر. ومنذ العصور الوسطى حتى ما بعد سنة ١٧٥٠م ، حسبما يقول إنجلسنج ، كان الناس يقرأون كثيراً . وكانوا يمتلكون من الكتب عدداً قليلاً فقط- الكتاب المقدس، والتقويم، وكتاب أو اثنين من كتب العبادات- كما كانوا يقرأونها مرات ومرات ، وعادة ما كانت القراءة بصوت عال وفى مجموعات ، بحيث صارت هناك مجموعة محدودة من الأدب التقليدى أثرت على وعيهم تأثيراً عميقًا . وبحلول سنة ١٨٠٠م كان الناس يقرأون «على نطاق واسع» . إذ كانوا يقرأون كافة أنواع المواد، لاسيما الدوريات والصحف ، ثم يهرعون إلى المادة التالية ، بعد أن

يقرأوها مرة واحدة فقط. ولايقدم إنجلسنج الكثير من الأدلة على فروضه . والحقيقة أن معظم أبحاثه تهتم بعينة بسيطة فقط من سكان المدن في بريمين . ولكنها تتسم بالبساطة الجذابة ، كما أنها تقدم معادلة بمتناول اليد للحالات المتناقضة في بواكير التاريخ الأوربي وفي وقت متأخر للغاية منه . أما عيبها الرئيسي، كما أراه، ، فيتمثل في كونها غير مستقيمة في خطها. فالكتابة لم تتطور في اتجاه واحد، ولم تكن شاملة . واتخذت الكثير من الأشكال المختلفة بين المجموعات الاجتماعية المختلفة في عصور مختلفة . لقد قرأ الرجال والنساء لكي ينقذوا أرواحهم ، ولكي يحسنوا سلوكياتهم ، ولكي يصلحوا آلاتهم ، ولكي يعملوا على إغواء حبيباتهم ، ولكي يعرفوا عن الأحداث الجارية ، وببساطة لكي ينالوا المتعة والبهجة . وفي حالات كثيرة، خاصة بين جماهير ريتشارد سون، وروسو، وجوته، صارت القراءة أشد كثافة، لا أقل . بيد أن أواخر القرن التاسع عشر تبدو بالفعل نقطة فارقة، زمنًا صار فيه المزيد من موضوعات القراءة متاحًا لجمهور أكبر من القراء ، كان زمنًا يمكن للمرء أن يرى فيه ظهور القراءة الجماهيرية التي كان لها أن تنمو لتصل إلى نسب عملاقة في القرن التاسع عشر مع تطور الورق المصنوع آليًا، والمطابع التي تعمل بالبخار ، وصف الحروف بطريقة اللينوتيب ، وانتشار القراءة على مستوى عالمي تقريبا . وقد منحت كل هذه التغيرات إمكانيات جديدة ، ليس بتقليل التنوع وإنما بزيادته(١٣).

ومن ثم فإنني يجب أن أعترف ببعض الشك حول «ثورة القراءة» . ومع هذا فإن مؤرخًا أمريكيًا متخصصًا في تاريخ الكتاب ، هو دافيد هول David Hall ، وصف الانتقال في عادات القراءة لدى سكان نيو انجلند فيما بين سنة ١٦٠٠م وسنة ١٨٥٠م بنفس المصطلحات التي استخدمها إنجلسنج تقريبًا . فقبل سنة ١٨٠٠ م كان سكان نيو إنجلند يقرأون عددًا صغيرًا من الكتب «ثابتة المبيعات» المبجلة - الكتب المقدس، والتقاويم و The New England Primer وكتاب فيليب دودريدج Rise and Progress of the Religion ، وكتاب ريتشارد باكستر Richard Baxter المعنون Call to the Unconverted وكانوا يقرأونها عدة مرات ، بصوت عال، وفي جماعات، وبكثافة غير عادية. وبعد سنة ١٨٠٠م أغرقتهم أنواع جديدة من الكتب- الروايات، والصحف ، وتنويعة جديدة ومشرقة من أدب الأطفال - وكانوا يقرأونها بنهم، ويتخلصون من شيء حالما يمكنهم أن يجدوا غيره . وعلى الرغم من أن هول وإنجلسنج لم يكونا قد سمعا قط عن كل منهما الآخر، فإنهما اكتشفا نموذجًا مشابهًا في منطقتين

مختلفتين تمام الاختلاف فى العالم الغربى. وربما يكون قد حدث تغير أساسى فى طبيعة القراءة عند نهاية القرن الثامن عشر. وربما لم تكن ثورة ولكنها كانت علامة على نهاية «نظام قديم – عهد توماس كمبيس Thomas á Kempis وجون آرندت John Arnedt وجون بونيان John Bunyan[١٤].

والسؤال عن «أين» كانت القراءة أكثر أهمية مما قد يخطر على بال المرء، لأن وضع القراء فى مكانهم يمكن أن يقدم دلائل عن طبيعة تجربتهم. وهناك فى جامعة ليدن صورة معلقة لطبعة من مكتبة الجامعة يرجع تاريخها إلى سنة ١٦١٠م . وهى تبين الكتب، مجلدات ثقيلة من الأوراق، مربوطة بسلاسل على الأرفف البارزة من الحوائط فى ترتيب محكوم بواسطة العناوين الموجودة فى قائمة كتب كلاسيكية : Jurisconsulti (الآراء القانونية) ، Medici الطب، Historici التاريخ، وهلم جرا. والطلاب منتشرون فى الحجرة ، يقرأون الكتب على مناضد مصنوعة عند مستوى الكتف تحت الأرفف وهم وقوف ، يحتمون من البرد بعباءات ثقيلة وقبعات ، وإحدى القدمين على حاجز خشبى لتخفيف الضغط على أجسادهم . ولم يكن ممكنا أن تكون القراءة مريحة فى عصر الإنسانية الكلاسيكية. وفى صور صورت بعد قرن ونصف قرن من الزمان ، وفى صورة La lecture ، وصورة La Liseuse اللتين رسمهما فراجونارد Fragonard ، مثلا ، نرى القراء متكئين فى كراسٍ طويلة، أو فى كراسٍ ذات ذراعين وثيرة وقد وضعوا أقدامهم على مساند للقدمين . وهم من النساء غالبًا، يرتدين ملابس واسعة مناسبة عرفت فى تلك الفترة باسم Liseuses . وهن يمسكن فى الغالب مجلدًا أنيقًا فى أصابعهن وينظرن بعيدًا إلى. ومن فراجونارد إلى مونيه Monet ، الذى رسم أيضا Li- seuse ، وحركات القراءة من المخدع إلى الباب الخارجى . ويأخذ القارئ الكتب معه إلى الحقول أو قمم الجبال ، حيث يمكنه أن يتواصل مع الطبيعة مثل روسو وهاين . ولابد أن الطبيعة قد ظهرت خارج الموضوع بعد أجيال قليلة فى خنادق الحرب العالمية الأولى ، حيث كان صغار الضباط الذين تخرجوا فى جوتنجن وأوكسفورد يجدون بشكل ما مكانا لعدة مجلدات من الشعر. وأحد أثمن الكتب فى مجموعتى الخاصة الصغيرة عبارة عن طبعة لكتاب هولدرلين Holderlin الذى يحمل عنوان :
Hymnen an die Ideale der Menschheit ، كُتب عليه ما نصه :
"Adolf Noelle, Januar 1916, nord- Frankreich– وهو هدية من صديق ألمانى كان

يحاول شرح ألمانيا . وما زلت غير متأكد من أنني فهمت ولكنني أظن أن الفهم العام للقراءة سوف يتقدم لو أننا فكرنا بطريقة أكثر جدية في صورها وفي تجهيزاتها، بما في ذلك الأثاث والثياب(١٥) .

ولابد أن العنصر البشري في الصورة قد أثر على فهم النصوص. ولا شك في جروتز Greuze كان متعاطفًا مع الشخصية الجمعية للقراءة في رسمه لصورة Un Pére de Fa-mille qui lit la Bible á ses enfants (أي رب أسرة يقرأ الكتاب المقدس لأولاده) . وربما يكون رستيف دي لا بريتون Restif de la Bretonne قد فعل الشئ نفسه في قراءة العائلة للكتاب المقدس الذي وصفه في La Vie de mon Pére (حياة أبي) * ولكن مثل هذه الأوصاف بكل ما تحمله من عاطفة تنطلق من افتراض مشترك وعام : أنه بالنسبة لعامة الناس في أوربا في العصور الحديثة الباكرة ، كانت القراءة نشاطًا اجتماعيا . فقد كانت تجري في الورش، وفي أجران الغلال، وفي الحانات . وكادت أن تكون شفاهية دائمًا بيد أنها لم تكن تحض على الفضيلة حتمًا وهكذا فإن المزارع في حانة ريفية ، كما وصفه شوبارت Christian Schubart سنة ١٧٨٦م، مع بعض اللون الوردي حول الحواف :

Und bricht die Abendzeit herein
So trink ich halt mein Schopple Wein;
Da liest der Herr Schulmeister mir
** Was Neues aus der Zeitung für.(١٦)

---

* هنا نص فرنسي في حوالي ثلاثة أسطر يصف قراءة العائلة كبيرة العدد للكتاب المقدس، وتتحدث عن أقوال الأب الدائمة . (المترجم)

** يمكن ترجمة هذه الأبيات على النحو التالي:

«عندما يأتي المساء
أشرب دائما قدحي من النبيذ
ثم يقرأ لي معلم المدرسة
شيئا جديداً من الجريدة

والترجمة هنا عن النص الإنجليزي في هامش رقم ١٦ لهذه الدراسة. (المترجم)

كانت أهم مؤسسة للقراءة الشعبية فى ظل النظام القديم هى التجمع بجوار المدفأة والتى كانت معروفة في فرنسا باسم Veillée (أى السهرة) وفى الألمانية Spinnstube . فبينما كان الأطفال يلعبون ، والنسوة يقمن بأعمال الخياطة، والرجال يصلحون الأدوات ، كان واحد من الصحبة ممن يمكنهم قراءة نص ما يتلو عليهم مغامرات Les quatre fils Aymon ، أو Till Eulenspiegel ، أو أى موضوع مفضل من المخزون القياسى للكتب الشعبية الرخيصة. وبعض هذه الكتب البدائية كان مؤشراً على أنها مقصودة أن تُتلى على الأسماع عندما تبدأ بعبارات مثل «ما أنتم على وشك سماعه ...» وفى القرن التاسع عشر كانت مجموعات من الحرفيين لاسيما صانعى السيجار والترزية، من الناس يعرفون الأخبار التى يقرأها عليهم مذيع فى مكان بعيد . وربما يكون التليفزيون أقل انقطاعاً عن الماضى مما يفترض بشكل عام. وعلى أية حال، فإنه بالنسبة لمعظم الناس على مدار معظم فترات التاريخ، كان للكتب من المستمعين أكثر مما كان لها من القراء. فقد كان سماع الكتب أفضل من مشاهدتها (١٧).

لقد كانت القراءة تجربة أكثر خصوصية للأقلية من الأشخاص المتعلمين الذين كان بوسعهم تحمل نفقات شراء كتاب. ولكن كثيرين منهم كانوا ينضمون لنوادى القراءة فى باريس تحت حكم الملكية العائدة (١٨)، ولكنها تعود إلى القرن الثامن عشر. فغالبا ما كان الكتبيون فى الأقاليم يحولون حوانيتهم إلى مكتبات ويتقاضون رسومًا مقابل ذلك . فالإضاءة الجيدة، وبعض الكراسى المريحة ، وصور قليلة على الحائط واشتراك فى نصف دستة من الصحف ، كانت كافية لعمل ناد من أى محل لبيع الكتب. وهكذا كان بالخزانة الأدبية cab-inet littéraire ، التى أعلن عنها برنار P.J. Benard ، وهو بائع كتب صغير فى لونيفيل Lunéville « بيت مريح، كبير جيد الإضاءة والتدفئة ، سيكون مفتوحًا جميع الأيام من الساعة التاسعة صباحًا حتى منتصف النهار ومن الساعة الواحدة حتى الساعة العاشرة ، وسوف يقدم من هذه اللحظة للهواة ألفى مجلد سوف تتم زيادتها بمعدل أربعمائة مجلد سنويا» *. وفى نوفمبر ١٧٧٩م كان فى النادى مائتا عضو، معظمهم ضباط من الشرطة المحلية gendarmerie . وفى مقابل مبلغ متواضع يبلغ ثلاثة جنيهات سنويًا كان تحت

---

* أورد الكاتب هذا النص بالفرنسية وقد ترجمته نظراً لأهمية وجوده بالنسبة للقارئ للدلالة على كيفية الإعلان عن المكتبات آنذاك . (المترجم)

تصرفهم خمسة آلاف كتاب ، وثلاث عشرة صحيفة وغرف خاصة للمحادثات والكتابة (انظر الملحق) .

وكانت نوادى القراءة الألمانية توفر الأساس الاجتماعى لتنويعة متمايزة من الثقافة البورجوازية فى القرن الثامن عشر، وفقًا لما يقوله أوتو دان Otto Dann . وقد كبرت بمعدّل مذهل ، خاصة فى المدن الشمالية . ويقدّر مارتن ولكى martin Welke أنه ربما كان هناك واحد بين كل خمسمائة من البالغين فى ألمانيا ينتمون إلى حركة Lesegesellschaft بحلول سنة ١٨٠٠م. وقد تمكن مارليس بروسنر Marlies Prusener من أن يتعرف على ما يزيد على أربعمائة من النوادى وأن يكون فكرة ما عن مادة القراءة فيها. فقد كانت جميعا لها تزويد أساسى من الملاحق والإضافات الدورية بفضل تقلبات دورة الكتب ، وعادة على الموضوعات التى لها ثقل واضح مثل التاريخ والسياسة . ويبدو أن تلك النوادى كانت نسخة أكثر جدية من المقاهى، التى كانت فى حد ذاتها مؤسسة مهمة للقراءة، وكانت تنتشر فى كل أرجاء ألمانيا منذ أواخر القرن السابع عشر . وبحلول سنة ١٧٦٠م كان فى ڤيينا ستون مقهى على الأقل. وكانت تقدم الصحف ، والمجلات وفرصًا لا نهاية لها للمناقشات السياسية ، تمامًا مثلما كان الحال فى لندن وامستردام على مدى ما يزيد على قرن من الزمان (١٩).

وهكذا نعرف بالفعل قدرًا كبيرًا عن الأسس المؤسسية للقراءة . ولدينا بعض الإجابة عن أسئلة «من» ، و«ماذا» ، و«أين» و «متى» . ولكن أسئلة «لماذا» و«كيف» هى التى تراوغنا . ولم نضع حتى الآن استراتيجية لفهم العملية الداخلية التى كان القراء يفهمون بها الكلمات . بل إننا لا نفهم حتى الطريقة التى نقرأ نحن بها ، على الرغم من جهود علماء النفس وعلماء الجهاز العصبى لتتبع حركات العين ولرسم خريطة لنصفى المخ. فهل العملية المعرفية مختلفة بالنسبة للصينيين الذين يقرأون حروفًا تصويرية وبالنسبة للغويين الذين يمكنهم المرور على السطور بعيونهم؟ وبالنسبة للناس المكفوفين الذين ينقلون المثيرات المعرفية عبر أصابعهم؟ وبالنسبة لسكان جنوب شرق آسيا الذين تفتقر لغاتهم إلى الأزمنة وينظمون الحقيقة حسب الحيّز المكانى وبالنسبة للهنود الحمر الذين لم تخضع لغتهم للكتابة سوى فى وقت قريب على أيدى باحثين أجانب؟ وبالنسبة للرجل المقدس فى وجود «الكلمة» * وبالنسبة للزبون الذى

* كلمة الرب فى الكتاب المقدس حسب اعتقاد المسيحيين . (المترجم)

يتمعن فى اللافتات فى «السوبر ماركت» ؟ إن الفروق تبدو بلا نهاية ، لأن القراءة ليست مجرد مهارة ولكنها طريقة لصنع المعنى، ولابد أن تختلف من ثقافة لثقافة أخرى . وسيكون من قبيل المبالغة أن نتوقع أن نجد معادلة تصلح لكل هذه التنويعات . ولكن يجب أن يكون ممكنًا أن نطور طريقة لدراسة التغيرات فى القراءة داخل نطاق ثقافتنا الخاصة . وأود الإشارة إلى المقاربات لتناول المشكلة .

أولا، أظن أنه يجب أن يكون ممكنًا أن نعـرف المزيد عن المثل والفـروض الكامنة تحت الكتابة فى الماضى . فقد كان بمقدورنا أن ندرس التصاوير المعاصرة عن القراءة فى الكتب الخيالية ، والسير الذاتية ، والكتابات الجدلية، والخطابات ، والرسوم والمطبوعات لكى نكتشف بعض المفاهيم الأساسية عما كان الناس يفكرون فيه عندما كانوا يقرأون . تأمل ، مثلاً ، الجدل الكبير حول الولع بالقراءة فى أواخر القرن الثامن عشر فى ألمانيا . إذ إن أولئك الذين استهجنوا الـ Lesewut لم يدينوا تأثيراتها على الأخلاق والشئون السياسية فحسب. وإنما كانوا يخافون من أنها قد تدمر الصحة العامة. وفى كراسة دعاية ترجع إلى سنة ١٧٩٥م ، وضع هاينزمان J.G. Heinzmann قائمة بالنتائج الجسدية الناجمة عن القراءة المفرطة : «التعرض لأمراض البرد، وحالات الصداع ، إضعاف العينين، ارتفاع درجة الحرارة، النقرس، التهاب المفاصل، البواسير الربو، السكتة الدماغية، أمراض الرئة ، عسر الهضم، انسداد الأمعاء ، الاضطراب العصبى، الصداع النصفى، الصرع، الوسواس من المرض، والاكتئاب ». وعلى الجانب الإيجابى من الجدل ، تقبل يوهان آدم برجك المقدمات المنطقية من معارضيه ولكنه لم يوافق على استنتاجاتهم . وقد سلّم بأنه لاينبغى على المرء أن يقرأ بعد الأكل مباشرة أو أثناء الوقوف. ولكن فى الوضع السليم للجسم، يمكن للمرء أن يجعل القراءة قوة من أجل الخير . وكان «فن القراءة» يتضمن غسل الوجه بالماء البارد والتمشية فى الهواء المنعش مع التركيز والتأمل . ولم يكن هناك من يعترض على مفهوم أنه كان هناك عنصر مادى فى القراءة، لأنه لم يكن هناك من يضع تمييزًا واضحًا بين العالم المادى والعالم الأخلاقى . وقد حاول القراء فى القرن الثامن عشر أن «يهضموا» الكتب، أى أن يستوعبوها فى وجودهم الكلى، جسدًا وروحًا . وفى بعض الأحيان تتبدى مادية العملية (عملية القراءة) على متن الصفحات . فالكتب فى مكتبة صمويل جونسون Samuel Jonson ، التى تملكها الآن مسز دونالد هايد Mrs. Donald F. Hyde مثنية ومهمشة ، كما لو كان جونسون يشق طريقه مقاتلاً من خلالها (٢٠).

وطوال معظم فترات التاريخ الغربى، لاسيما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت النظرة إلى القراءة أولا وأخيراً باعتبارها تدريبا روحياً . ولكن كيف كان يتم إنجازها ؟ كان يمكن للمرء أن يبحث عن الإرشاد فى كتيبات الجزويت وفى الرسائل التأويلية التى كتبها البروتستانت . وكانت القراءات العائلية للكتاب المقدس تجرى على كلا جانبى الانقسام الدينى الكبير . وحسبما يشير مثال رستيف دى لابريتون ، كان التعامل مع الكتاب المقدس يتم برهبة، حتى بين بعض المزارعين الكاثوليك . وكان كل من بوكاشيو، وكاستليونى Cas-tiglione، وسرفانتس ورابليه Rabelais يمثلون استخدامات أخرى للكتابة والقراءة من أجل النخبة بطبيعة الحال . ولكن بالنسبة لمعظم الناس ظلت القراءة نشاطًا مقدسًا . فهى تضعك فى حضرة الكلمة (أى كلمة الرب فى الكتاب المقدس) وتفتح مغاليق الأسرار المقدسة. باعتبارها فرضية للعمل، يبدو مناسبًا أن نؤكد على أنه كلما رجعت القهقرى فى الزمن ، ابتعدت عن القراءة الآلية. ولا يصبح كتاب «كيف تعمل» أكثر ندرة والكتاب الدينى أكثر شيوعًا، فالقراءة نفسها مختلفة. وفى عصر لوثر ولويولا Loyola ، كانت القراءة توفر وسيلة الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

وعلى مستوى أكثر دنيوية، أمكن تتبع آثار الفروض المتعلقة بالقراءة من خلال الإعلانات والنشرات المطبوعة عن الكتب . وهكذا فإن بعض الملاحظات النمطية المأخوذة عن نشرة مطبوعة من القرن الثامن عشر قد أخذت اعتباطًا من المجموعة الثرية فى مكتبة نيوبرى New berry : بائع كتب يقدم طبعة فى حجم «الكوارتو» لكتاب :

Commentaires sur la coutume d'Angoumois

ويصرُّ على أنه عمل ممتاز سواء من حيث طباعته أو من حيث محتواه . «إن نص كتاب «العادة coutume مطبوع بحروف كبيرة gros - romain ؛ كما أن الملخصات التى تسبق التعليقات مطبوعة بحروف cicéro ، والتعليقات مطبوعة بحروف Saint - Augustin والعمل كله مطبوع على ورق جميل للغاية مصنوع فى أنجوليم Angouléme (٢١). وليس هناك ناشر يحلم بذكر الورق وحروف الطباعة فى الدعاية لكتاب قانون اليوم. أما فى القرن الثامن عشر فقد كان من يتولون الدعاية يفترضون أن عملاءهم يهتمون بالنوعية المادية للكتاب . فقد كان المشترون والباعة على السواء يشتركون فى وعى طباعى كاد أن ينقرض اليوم.

ويمكن لتقارير الرقباء أيضا أن تكون كاشفة ، على الأقل فى حالة الكتب فى فرنسا أوائل

العصر الحديث، حيث كانت الرقابة متطورة جداً إذ لم تكن فعالة بشكل هائل . وثمة كتاب رحلات نمطى Nouveau Voyage aux isles de l'Amerique (باريس ١٧٢٢م) كتبه لابات J.B.labat يحتوى على أربعة «مخصصات» وطبع كاملاً بعد الحصول على امتياز الطباعة . ويشرح أحد الرقباء أن المخطوط قد أثار فضوله : «من الصعب أن تبدأ قراءته دون أن تشعر بذلك الفضول المعتدل ولكن الشراهة تدفعنا إلى المزيد من القراءة» . وثمة رقيب آخر يوصى بالكتاب بسبب «أسلوبه البسيط والموجز» وأيضا بسبب فائدته : «لاشئ فى رأيى مفيد بهذا القدر للرَّحالة ولسكان ذلك البلد، وللتجار ولأولئك الذين يدرسون التاريخ الطبيعى» ورقيب ثالث وجد فيه ببساطة قراءة جيدة: «لقد حظيت بمتعة كبيرة فى قراءته . إنه يحتوى على الكثير من الأشياء المثيرة» . ولم يكن الرقباء يستبعدون فقط الهراطقة والثوريين ، حسبما نميل إلى الافتراض فى النظر إلى الوراء عبر الزمن من خلال محاكم التفتيش وحركة التنوير. فقد كانوا يمنحون الخاتم الملكى بالموافقة على عمل ما، وبعملهم هذا يقدمون مفاتيح عن الكيفية التى يمكن قراءته بها. وكانت قيمهم تشكل معياراً رسميا يمكن به قياس القراءات العادية .

ولكن كيف كان القراء العاديون يقرأون ؟ إن اقتراحى الثانى فى معالجة المشكلة يهتم بطرق القراءة التى كان يتم تعليمها . ففى دراسة القراءة فى انجلترا القرن السابع عشر، اكتشفت مارجريت سبوفورد Margaret Spufford أن قدراً كبيراً من التعليم كان يجرى خارج فصول المدرسة ، فى الورش والحقول حيث كان العمال يعلمون أنفسهم ويعلم بعضهم بعضًا . وفى داخل المدرسة، كان الأطفال الإنجليز يتعلمون كيف يقرأون قبل أن يتعلموا الكتابة بدلاً من أن يحصلوا على المهارتين معًا فى بداية تعليمهم كما يحدث اليوم. وغالبًا ما كانوا ينضمون إلى قوة العمل قبل سن السابعة، عندما يبدأ تعليم الكتابة. ولذلك فإن تقديرات القراءة القائمة على أساس القدرة على الكتابة قد تكون منخفضة أكثر مما ينبغى، وربما كان عامة القراء يتضمنون عدداً كبيراً جداً من الناس الذين لم يكونوا يقدرون على كتابة أسمائهم(٢٢).

ولكن «القراءة» بالنسبة لمثل هؤلاء الناس ربما كانت تعنى شيئا مختلفًا تمام الاختلاف عما تعنيه اليوم. ففى فرنسا أوائل العصر الحديث، كانت يتم تعليم ثلاثة "R" على التوالى– أولا القراءة Reading ، ثم الكتابة Writing ، ثم الحساب arithmatic – تمامًا مثلما كان الحال فى انجلترا، ويبدو أن الأمر كان كذلك فى جميع بلاد الغرب . وأكثر الكتب الأولية شيوعًا فى

«النظام القديم» – الأبجديات ABCS مثل كتاب Croix de Jésus وكتاب Croix de par Dieu – تبدأ مثلما تبدأ الكتب الحديث ، بالأبجدية . ولكن الحروف كانت لها أصوات مختلفة . فقد كان التلميذ ينطق حرف حركة قبل كل حرف ساكن، ولذلك كان حرف P ينطق "eh-p" بدلاً من "pé" كما هو الحال اليوم. وعندما كانت الحروف تُقال بصوت عالٍ لم تكن الحروف ترتبط ببعض صوتيًا في تركيبات يمكن التعرف عليها بالإذن بوصفها مقاطع لكلمة ما . وهكذا فإن حروف p-a-t في كلمة Pater كانت تسمع وكأنها "ehp-ah-ent" . ولكن اللخبطة الصوتية لم تكن تهم في الحقيقة، لأن الحروف كان يقصد بها أن تكون بمثابة حافز بصري لشحذ الذاكرة عن نص كان قد حفظ عن ظهر قلب فعلاً– وكان النص دائمًا باللغة اللاتينية. لقد كان النظام كله مبنيًا على المقدمة المنطقية القائلة بأن الأطفال الفرنسيين لايجب أن يبدأوا القراءة باللغة الفرنسية. وكانوا يمرون مباشرة من الأبجدية إلى المقاطع البسيطة ثم إلى Pa-ter noster وAve maria و Credo و Benedicite . فإذا ما تعلموا التعرف على هذه الصلوات العامة، كانوا يتعلمون الاستجابات الطقوسية المطبوعة في الكتب الشعبية القياسية. وعند هذه النقطة كان كثير منهم يتركون المدرسة. بعد أن يكونوا قد حققوا ما يكفي من معرفة الكلمة المطبوعة لأداء الوظائف التي كانت الكنيسة تتوقعها منهم– وهو ما يعني المشاركة في طقوسها. ولكنهم لم يكونوا يقرأون أبدًا نصًا في لغة يستطيعون فهمها .

وكان بعض الأطفال– لانعرف عددهم، وربما كانوا أقلية في القرن السابع عشر وصاروا أغلبية في القرن الثامن عشر– يبقون بالمدرسة الوقت الكافي لكي يتعلموا القراءة بالفرنسية . وحتى في ذلك الحين، على أية حال ، غالبًا ما كانت القراءة مسألة تعرف على شئ معروف بالفعل أكثر من عملية اكتساب معرفة جديدة. فقد كانت كل المدارس تقريبًا تدار بواسطة الكنيسة ، كما كانت جميع الكتب المدرسية تقريبًا كتبًا دينية ، من كتب المبادئ الدينية والنصوص الدينية عادة مثل كتاب Escole Paroissiale الذي ألفه چاك دي باتنكور Jacques de Batencour . وفي أوائل القرن الثامن عشر بدأت منظمة Fréres des Ecoles Chritiennes تقدم النص نفسه لعدة تلاميذ وتعلمهم في مجموعة– وهي خطوة أولى تجاه التعليم القياسي، الذي قُدر له أن يصبح قاعدة التعليم بعد ذلك بمائة سنة. وفي الوقت نفسه، بدأ عدد قليل من المدرسين في البيوت الارستقراطية يعلمون القراءة من الفرنسية مباشرة . وقد طوروا أساليب صوتية ومساعدات سمعية – بصرية مثل البطاقات المضيئة التصويرية

التى وضعها دير برتود Berthaud ومكتب الطباعة للوى دوما Louis Dumas . وبحلول سنة ١٧٨٩م كان نموذجهم قد انتشر فى بعض المدارس الابتدائية التقدمية. بيد أن معظم الأطفال كانوا لا يزالون يتعلمون القراءة بالوقوف أمام المدرس وتلاوة فقرات من أى نص يمكن أن يصل لأيديهم على حين كان رفاقهم فى الفصل يناضلون مع مجموعة متنوعة من الكراسات على سطح مكاتبهم. وبعض هذه «الكتب المدرسية» سوف تعاود الظهور فى المساء فى مكان السهر Veillée ، لأنها كانت أفضل الكتب الشعبية مبيعًا من المكتبة الزرقاء Bibliothéque bleue. وهكذا كان هناك شىء مشترك بين القراءة بجانب المدفأة والقراءة فى الفصل : فقد كانت تلاوة لنص يعرفه الجميع بالفعل. وبدلاً من فتح مشاهد بلا حدود للأفكار الجديدة، يرجح أنها بقيت داخل نطاق دائرة مغلقة ، حيث أرادت الكنيسة لها بالضبط . وعلى أية حال ، فإن كلمة «ربما» هى الكلمة الحاكمة فى هذه القضية. إذ إنه لا يمكننا سوى أن نخمن طبيعة بواكير علم أصول التربية بقراءة القليل من الكتب وعدد أقل من المذكرات التى بقيت من ذلك العصر . ولا نعرف ما حدث حقًا فى الفصل. وأيا كان ما حدث ، فإن المستمعين للقارئ من المزارعين ربما كانوا يفسرون كتب التعاليم الدينية لديهم تمامًا مثل قصص المغامرات بطرق لا نعرف عنها شيئًا (٢٣).

وإذا ما كانت تجربة الجماهير الكبيرة فى القراءة بعيدة عن متناول البحث التاريخى ، فينبغى على المؤرخين أن يكونوا قادرين على الوصول لشئ مما كانت تعنيه القراءة لعدد قليل من الأشخاص تركوا سجلاً عنها . وثمة مقاربة ثالثة يمكن أن تبدأ بالتقارير الأكثر شهرة فى السير الذاتية– وهى سيرة سان أوجستين ، وسانت تريزا دى أفيلا ، وسيرة مونتانى، وسيرة روسو، وسيرة شتدنهات على سبيل المثال – ثم ننتقل إلى المصادر الأقل شهرة. وقد استخدم جولمو J. M. Goulemot السيرة الذاتية لجامرى– دوفال Jamerey- Duval ليبين كيف أن مزارعًا كان يمكنه أن يقرأ وأن يكتب شق طريقه صاعدًا فى تراتبية النظام القديم، كما اكتشف دانييل روش عامل زجاج فى القرن الثامن عشر، هو جاك – لوى مينيترا Jacques - Louis Ménétra كان يقرأ وهو فى رحلة نمطية حول فرنسا ، وعلى الرغم من أنه لم يحمل الكثير من الكتب فى الحقيبة التى حملها فوق ظهره ، فإن مينيترا كان يتبادل الخطابات مع رفاقه المسافرين ومع حبيباته . وقد بعثر القليل من النقود عبثا لمشاهدة الإعدامات العلنية بل إنه نظم شعرًا ركيكًا من أجل الاحتفالات والمسرحيات الهزلية التى مثلها على المسرح مع

عمال آخرين. وعندما روى قصة حياته رتب روايته فى أسلوب روايات الصعاليك ، ومزج بين المأثورات الشفاهية (الحكايات الشعبية والمباهاة المنمقة بدورات الثور) مع موضوعات من الأدب الشعبى (الروايات الصغيرة من المكتبة الزرقاء) . وبخلاف الكتاب الشعبيين الآخرين- وستيف ، وميرسييه ، وروسو، وديدرو ، ومارمونتل – لم يحظ مينيترا أبداً بمكان فى جمهورية الكتابة. وقد أوضح أن للحروف مكانها فى ثقافة الرجل العادى (٢٤).

وربما يكون المكان هامشيا ، ولكن الهوامش نفسها تقدم المفاتيح لفهم تجربة القراء العاديين . وفى القرن السادس عشر ظهرت الملاحظات الهامشية فى الطباعة على شكل شروح للنص توجه القارئ من خلال نصوص كتابات الإنسانيين . وفى القرن الثامن عشر تخلت تلك الشروح عن مكانها للهوامش أسفل النص . كيف تابع القارئ اللعب بين النص والنص الموازى فى الهوامش أسفل الصفحة أو على جانبها ؟ لقد خلق جيبون مسافة ساخرة بواسطة التوزيع المستبد للهوامش . وثمة دراسة فاحصة للنسخ المذيلة بالهوامش لكتاب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية The Decline and Fall of the Roman Empire * قد تكشف عن فهم معاصرى جيبون للمسافة . وقد غطى چون آدامز كتبه بالشخبطة . وبمتابعته خلال نسخته لكتاب Discourse on the Origins of Inequality لروسو، يمكن للمرء أن يرى كيف كانت فلسفة التنوير الجذرية تبدو فى عينى أحد الثوريين المتقاعدين فى المناخ الجدى الرزين فى كوينسى وماسا شوسيت . وهكذا فإن روسو، يكتب فى الطبعة الإنجليزية الأولى :« لم يكن هناك نوع من العلاقة الأخلاقية بين الرجال فى هذه الحالة (حالة الطبيعة)؛ ولم يكن بمقدورهم أن يكونوا جيدين أو سيئين ، ولم تكن لهم فضائل ولا رذائل . ومن المناسب ، بالتالى، أن نوقف الحكم على موقفهم ... حتى ننتهى من فحص ما إذا كان هناك المزيد من الفضائل أو من الرذائل بين الرجال المتحضرين». ويكتب آدامز فى الهامش «عجائب فوق عجائب وتناقض فوق تناقض . يا لها من حكمة مدهشة تلك التى نعم بها السيد روسو ! ومع هذا فإن هذا الفصيح الذى يتيه زهواً بنفسه قد جعل الرجال غير راضين بالخرافة والطغيان بتفرده المصطنع».

---

* يعتبر البعض هذا الكتاب أول كتاب لدراسة تاريخ العصور الوسطى، كما يرون أن إدوارد جيبون هو الرائد الأول فى مجال التدوين التاريخى والبحث فى تاريخ العصور الوسطى على الرغم من أن الكتاب حافل بالعيوب العلمية والمنهجية والإنحيازات والتعميمات. وقد ترجم إلى العربية منذ أكثر من نصف قرن. (المترجم)

وقد وجد كريستيان بركفينز – ستيڤلنك Christiane Berkvens Stevelink – موقعًا ممتازًا لرسم خريطة جمهورية الحروف فى مجموعة التعليقات الهامشية لبروسبير مارشاند Prosper Marchand ، الذى كان مولعًا بمكتبة ليدن فى القرن الثامن عشر . وقد قام باحثون آخرون برسم خرائط تيارات التاريخ الأدبى بمحاولة إعادة قراءة الكتب العظمى كما قرأها الكتاب العظام، مستخدمين الهوامش فى بنود الجامعين مثل نسخة ديدرو لدائرة المعارف ، ونسخة ملفيل لمقالات إيمرسون . بيد أن البحث لا يحتاج أن يكون محصورًا فى نطاق الكتب العظمى وفى نطاق الكتب على الإطلاق . ويقوم بيتر بروك Peter Bruke حاليا بدراسة الرسوم على الجدران فى إيطاليا عصر النهضة وعندما كان يتم الشخبطة بهذه الرسوم على باب عدو ما، فإن وظيفتها غالبًا ما كانت بمثابة الإهانات الطقوسية ، التى تحدد خطوط الصراع الاجتماعى الذى يقسّم المجاورات السكنية والعشائر . وعندما يتم ربطها بتمثال Pasquino الشهير فى روما ، فإن هذه الشخبطة العامة تكشف عن نغمة ثقافة شارع غنية وسياسية إلى حد كبير . وربما يكون تاريخ القراءة قادرًا على التقدم بقفزات هائلة من Pasquinade ومن Commedia dell'Arte إلى موليير، ومن موليير إلى روسو، ومن روسو إلى روبسبير(٢٥).

واقتراحى الرابع يخص النظرية الأدبية . وأوافق على أنه يمكن أن يكون مثبطًا للعزيمة، خاصة بالنسبة لمن هم خارج الموضوع. فقد جاءت ملفوفة فى لافتات قهرية– البنيوية ، والتفكيكية، والتأويلية، والعلاماتية ، والظاهراتية– وانقشعت فى سرعة تماثل السرعة التى جاءت بها ، لأن هذه الاتجاهات كان يحل أحدها محل الآخر بسرعة مربكة . وفى خلالها كلها، على أية حال، يسرى اهتمام ربما يؤدى إلى بعض التعاون فيما بين نقاد الأدب والمؤرخين المتخصصين فى تاريخ الكتاب– وهو الاهتمام بالقراءة . وسواء كان النقاد يقلبون الأرض بحثا عن البنى العميقة لكى تكشف نظم العلامات، فإن النقاد تعاملوا باطراد مع الأدب باعتباره نشاطًا أكثر من كونه كيانًا راسخًا من النصوص . وهم يصرون على أن معنى الكتاب ليس مثبتًا فى صفحاته ؛ إنما يتم تأويله بواسطة قرائه. ومن ثم فإن استجابة القارئ صارت النقطة الرئيسية التى يدور حولها التحليل الأدبى.

وفى ألمانيا ، أدت هذه المقاربة إلى إحياء التاريخ الأدبى Rezeptionsasthetik تحت قيادة هانز روبرت يوس Hans Rober Jauss وولفجانج إيسير Wolfgang Iser . وفى

فرنسا اتخذت منحى فلسفياً فى أعمال رولان بارث Roland Barthes وبول ريكور Paul Ri-coeur وتزيفتان تودوروف Tzvetan Todorov وجورج بوليه George Poulet . وفى الولايات المتحدة ما تزال فى مرحلة الإنصهار . وقد قدم واين بوث Wayne Booth وبول دى مان Paul de Man ، وجوناثان كولر Jonathan Culler وجوفرى هارتمان Geoffrey Hartman ، وهيليس ميلر J. Hillis Miller وستانلى فيش Stanley Fish المقومات اللازمة لبناء نظرية عامة، بيد أنه لم يبرز أى توافق من غمار مجادلاتهم . ومع هذا ، يُشير كل هذا النشاط النقدى تجاه علم نصوص جديد، ويشترك جميع النقاد فى طريقة العمل عندما يفسرون نصاً معيناً (٢٦).

تأمل، على سبيل المثال، تحليل والتر أونج Walter Ong للجمل الأولى فى رواية «وداعًا للسلاح A Farewell to Arms ":

«فى أواخر صيف ذلك العام كنا نعيش فى بيت فى قرية كانت تتطلع عبر النهر والسهل إلى الجبال. وفى مجرى النهر يوجد حصى وصخور ، جافة وبيضاء فى الشمس، وكانت المياه صافية سريعة الجريان تبدو زرقاء فى الجداول والقنوات ».

أية سنة ؟ وأى نهر ؟ يسأل أونج . إن هيمنجواى (مؤلف الرواية) لا يقول . وباستخدام غير صحيح لأداة التعريف - «النهر» بدلا من «نهر» - وتوزيع الصفات على نحو متفرق ، يضمر أن القارئ لا يحتاج إلى وصف تفصيلى للمشهد . ومجرد التذكرة ستكون كافية، لأن القارئ يفترض أنه كان قد ذهب هناك بالفعل . وتتم مخاطبته كما لو كان موضع ثقة ورفيق سفر، لايحتاج سوى إلى أن يتذكر لكى يستعيد تألق الشمس الساطعة، ومذاق النبيذ اللاذع وعفونة رائحة الموتى فى إيطاليا زمن الحرب العالمية الأولى . فهل للقارئ أن يعترض- ويمكن للمرء أن يتخيل إجابات كثيرة من عينة : «إننى جدة فى الستين من عمرها ولا أعرف شيئا عن الأنهار فى إيطاليا» - إنها لن تستطيع «فهم» الكتاب. ولكنها إذا ما قبلت الدور المفروض عليها ببلاغة الأسلوب، فإنها بخيالها يمكن أن تستوعب أبعاد بطل رواية هيمنجواى ؛ ويمكنها أن تمرق عبر السرد كما لو كانت رفيقة السلاح مع المؤلف (٢٧).

وعادة ما كانت البلاغة الأسبق زمنا تعمل بالطريقة العكسية . فقد افترضت أن القارئ لا يعرف شيئا عن القصة ويحتاج إلى توجيهه بفقرات وصفية قوية أو ملاحظات تمهيدية ، ومن ثم فإن افتتاحية The Pride and Prejudice : تقول «إنها لحقيقة معترف بها عالميًا، أن رجلاً أعزب لديه ثروة جيدة لابد وأن يكون بحاجة إلى زوجة.

ومهما كان قدر المعروف قليلاً عن مشاعر مثل هذا الرجل أو آرائه عندما يدخل للمرة الأولى إلى مجاورة ما، فإن هذه الحقيقة ثابتة تماماً فى أذهان العائلات المحيطة لدرجة أنه يعتبر حقاً لأى واحدة أو أخرى من بناتها .

وذات يوم قالت له سيدته : «عزيزى السيد بينيت ، هل سمعت أن حديقة نيذر فيلد قد تركوها أخيراً ؟»

هذا النوع من السرد يتحرك من العام إلى المخصوص. فهو يضع أداة النكرة أولاً ، ويساعد القارئ على أن يحدد اتجاهه بالتدريج . ولكنه يبقيه دائماً على بعد مسافة ، لأنه يفترض أن يدخل القصة باعتباره غريباً وأن يكون قارئاً من أجل التعليم، أو التسلية ، أو غرض أخلاقى سام. وكما هو الأمر فى حالة رواية هيمنجواى، يجب أن يلعب دوره من أجل بلاغة العمل؛ بيد أن الدور هنا مختلف تمام الاختلاف.

وقد وضع الكُتّاب طرقاً أخرى كثيرة من أجل إشراك القراء فى القصص. وثمة مسافة شاسعة تفصل ما بين رواية ميلفيل Melville المسماة «نادنى اسماعيل لـ «تبرير طرق الرب أمام الرجال» . ولكن كل سرد يفترض سلفاً وجود قارئ ، وكل قراءة تبدأ من بروتوكول مدون داخل النص. وربما يقتطع النص جزءاً من نفسه، وقد يقوم القارئ بالعمل عكس الاتجاه ، أو يستخرج معانى جديدة من كلمات مألوفة ؛ ومن ثم فإن الإمكانيات اللانهائية للتفسير التى يقترحها التفكيكيون والقراءات الأصلية التى شكلت التاريخ الثقافى- مثل قراءة روسو لكتاب Le misanthrope ، مثلا ، أو قراءة كيرلجارد «لسفر التكوين » . ولكن مهما كان ما يخرج به المرء من هذا، فإن القراءة ظهرت من جديد باعتبارها الحقيقة المركزية للأدب.

وإذا كان ذلك كذلك ، فقد آن الأوان لعمل وصلة ما بين النظرية الأدبية وتاريخ الكتب . إذ إن النظرية يمكن أن تزيح النقاب عن مدى الاستجابات الممكنة تجاه نص ما- وهو ما يعنى الاستجابات إزاء الكوابح البلاغية التى توجه القراءة دون أن تحسمها . ويمكن للتاريخ أن يبين ما القراءات التى حدثت فعلاً- أى داخل حدود كتلة غير تامة من الأدلة . وبالاهتمام بالإنصات للتاريخ، قد يتجنب نقاد الأدب خطر إنعدام التوافق الزمنى؛ لأنهم يبدون أحياناً وكأنهم يفترضون أن الرجال الإنجليز فى القرن السابع عشر كانوا يقرأون ميلتون وبونيان كما لو كانوا أساتذة جامعيين فى القرن العشرين. ومع أخذ البلاغة فى الحسبان، ربما يجد المؤرخون مفاتيح السلوك الذى قد يكون محيراً بدونها، مثل تلك العواطف المتأججة من كلاريسا إلى

إيلواز الجديدة La nouvelle Heloise ومن Werther إلى Tené . ومن ثم فإننى سوف أجادل من أجل استراتيجية مزدوجة ، سوف تمزج ما بين التحليل النصّى والبحث التطبيقى. وبهذه الطريقة يجب أن يكون ممكنًا أن نقارن ما بين القراء المضمرين فى النصوص والقراء الفعليين فى الماضى ، وبالبناء على مثل هذه المقارنات،نطور تاريخًا وكذلك نطور نظرية عن استجابة القارئ.

مثل هذا التاريخ سوف يتعزز بنموذج خامس من التحليل ، وهو نموذج قائم على أساس من الببليوجرافية التحليلية . فبدراسة الكتب باعتبارها أشياء مادية، أوضح الببليوجرافيون أن الإخراج المطبعى لنص ما يمكن إلى حد بعيد أن يحسم معناه ، والطريقة التى تمت قراءته بها . وفى دراسة بارزة عن كونجريف أوضح ماكينزى D.F. Mckenzie أن الكاتب المسرحى الفاحش من جماعة الإليزابيثية الجديدة الذى عرفناه من الطبعات حجم الكوارتو أواخر القرن السابع عشر قد مرَّ بعملية إعادة ميلاد فى سنه المتقدمة ليظهر فى صورة كاتب جليل ينتمى إلى تيار الكلاسيكية الجديدة فألف المجلدات الثلاثة التى نشرت فى حجم الأوكتاڤو * سنة ١٧١٠م . ونادرا ما تغيرت الكلمات المفردة ما بين طبعة وأخرى، ولكن ثمة تحولاً فى التصميم فى الكتب أضفى على المسرحيات مذاقًا جديداً تمامًا . وبإضافة بعض تقسيمات المشهد، وتجميع الشخصيات وإعادة وضع الخطوط وإظهار «روابط المشاهد» Liaisons des Scénes وضع كونجريف نصوصه القديمة بشكل يلائم النموذج الكلاسيكى الجديد المستمد من المسرح الفرنسى. والانتقال من مجلدات حجم الكوارتو إلى حجم الأوكتاڤو يعنى الانتقال من انجلترا فى عهد البيزابيث إلى انجلترا فى عهد الملك چورج (٢٨).

وقد وجد روچر شارتييه مضامين مشابهة ولكنها أكثر سوسيولوچية فى التعبيرات المجازية لعمل إسبانى كلاسيكى هو Historia de la vida del Buscon كتبه فرانسسكو دى كويڤيدو Francisco de Quevedo . وكان القصد الأصلى من الرواية أن توجه لجمهور من المتعلمين، سواء فى إسبانيا حيث نشرت للمرة الأولى فى سنة ١٦٢٦م أو فى فرنسا حيث خرجت فى ترجمة أنيقة سنة ١٦٣٣م . ولكن فى منتصف القرن السابع عشر بدأت دور أودوت Oudot

---

* حجم من أحجام الكتب يعرف بحجم الثُمن (١٢,٥ × ٢٠سم) ، وكلمة أوكتاڤو مشتقة من الرقم ثمانية حسب نطقه فى اللغة اليونانية. (المترجم)

وجارنييه Garnier فى تروى نشر سلسلة من الطبعات الرخيصة ذات الغلاف العادى، التى جعلتها مركز إنتاج الأدب الشعبى المعروف باسم «المكتبة الزرقاء bibliothéque bleue على مدى قرنين من الزمان. ولم يتردد الناشرون الشعبيون فى أن يعبثوا بالنص، ولكنهم ركزوا أولا على تصميم الكتاب، وهو ما يسميه شارتييه "mis en livre" . وكانوا يكسرون القصة إلى وحدات بسيطة ، ويقصّرون الجمل، ويقسمون الفقرات إلى أقسام أصغر، ويزيدون من عدد الفصول . وكان البناء الجديد للطباعة ينطوى على نوع جديد من القراءة وجمهور جديد : قوم متواضعون يفتقرون إلى التسهيلات والوقت اللازم للسرد الطويل الممتد. وكانت الحكايات القصيرة قائمة بذواتها. ولم تكن بحاجة إلى ربطها بموضوعات فرعية معقدة وتطوير الشخصية ، لأنها كانت تقدم المادة الكافية بالضبط لقضاء السهرة حول المدفأة Veillée. ولذا صار الكتاب نفسه مجموعة من الشذرات أكثر منه قصة مستمرة، وكان يمكن وضعه سويًا بواسطة كل قارئ- مستمع بطريقته الخاصة. وأما كيف كان يحدث هذا «التناسب» فيبقى سرًا، لأن شارتييه يحدد تحليله فى نطاق الكتاب بوصفه شيئا ماديًا. ولكنه يوضح كيف تفتح الطباعة على علم الاجتماع ، وكيف أن القارئ المضمر عند المؤلف يصبح القارئ المضمر عند الناشر، الذى ينزل على السلم الاجتماعى للنظام القديم ويدخل فى العالم الذى سيتم التعرف عليه فى القرن التاسع عشر بوصفه «الجمهور الكبير»(٢٩).

وقد بدأ عدد قليل من الببليوجرافيين ومؤرخى الكتب المغامرين التفكير حول الاتجاهات طويلة المدى فى تطور الكتاب. وهم يجادلون بأن القراء يستجيبون بشكل أكثر مباشرة تجاه التنظيم المادى للنصوص منهم تجاه البيئة الاجتماعية المحيطة بهم . ولذلك فإنه ربما يكون ممكنًا أن نتعلم شيئا عن التاريخ البعيد عن القراءة بممارسة نوع من علم آثار النصوص. وإذا كنا لانستطيع أن نعرف بالضبط كيف كان الرومان يقرأون أوڤيديوس ، فيمكننا أن نفترض أنه، مثل معظم النقوش الرومانية ، لم يكن النص يحتوى على أية علامات ترقيم ، أو تقسيم إلى فقرات ، أو مسافات بين الكلمات . وربما كانت وحدات الأصوات والمعنى أقرب إلى إيقاعات الكلام منها إلى وحدات الطباعة - الكتل، والكلمات، والسطور- فى الصفحة المطبوعة . أما الصفحة نفسها بوصفها وحدة فى الكتاب ، فإن تاريخها يرجع فقط إلى القرن الثالث أو القرن الرابع الميلادى . وقبل ذلك الحين كان على المرء أن يفرد لفافة الكتاب حتى يتمكن من قراءته . وما إن حلت الصفحات المجموعة محل اللفافة حتى صار بوسع القراء التى يتنقلوا

بسهولة للخلف وللأمام فى الكتب، وصارت النصوص مقسمة إلى أقسام يمكن ترقيمها وفهرستها. بيد أنه بعد أن حازت الكتب شكلها الحديث بوقت طويل ، استمرت القراءة فى تجربة شفاهية، يتم القيام بها علنًا. وعند نقطة وسيطة، ربما فى بعض الأديرة فى القرن السابع وبالتأكيد فى الجامعات فى القرن الثالث عشر *، بدأ الرجال يقرأون بصمت وبمفردهم . وربما انطوى التحول إلى القراءة الصامتة على قدر من المواءمة العقلية أكبر مما تضمنه التحول إلى النص المطبوع ، لأنه جعل القراءة تجربة داخلية فردية(٣٠).

وقد أحدثت الطباعة فرقا ، بطبيعة الحال، ولكن ربما كانت أقل ثورية مما هو شائع ظنًا . وكانت بعض الكتب قليلة الصفحات وبها جداول للمحتويات وفهارس، وترقيم لصفحات وأسماء الناشرين الذين كانوا ينتجون نسخًا عديدة من المخطوطات من أجل جمهور كبير من القراء قبل اختراع الطباعة المتحركة. وقد ظل الكتاب المطبوع، طوال نصف القرن الأول من وجوده ، تقليداً للكتاب المخطوط. ولاشك فى أن قراءه كانوا هم القراء أنفسهم، كما كانت قراءاته تتم بالطريقة نفسها . ولكن بعد سنة ١٥٠٠م ، وصل الكتاب المطبوع، والكتيبات ، والكتب المتنوعة، والخريطة والملصق إلى أنواع جديدة من القراء وحفزت أنواعا جديدة من القراءة . وإذْ كان الكتاب الجديد قد اكتسى صفة قياسية فى تصميمه ، وكان أرخص سعراً وأوسع توزيعًا ، فإنه تسبب فى تحوّل العالم. ولم يوفر المزيد من المعلومات فقط. لقد قدم طريقة للفهم، ومجازًا أساسيًا لإضفاء المعنى على الحياة.

وهكذا حدث إبان القرن السادس عشر أن امتلك الناس العالم. وفى أثناء القرن السابع عشر بدأوا يحلون طلاسم «كتاب الطبيعة» . وفى القرن الثامن عشر تعلموا أن يقرأوا أنفسهم. وبمساعدة الكتب، درس لوكى Locke وكونديلاك العقل باعتباره «لوحًا ممسوحًا tabula rasa»، كما أن فرانكلين Franklin صاغ لنفسه مرثية(٣١).

---

* ينبغى أن نلاحظ هنا أن الكاتب يتحدث عن «القراءة» فى العالم الغربى؛ وهو أمر طبيعى على أية حال . ولكن هناك «تواريخ» أخرى للقراءة فى ثقافات أخرى. ففى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، مثلاً ، كانت «القراءة» تجربة مختلفة كما كان لها تاريخ مختلف بطبيعة الحال . ومن المؤكد أن عادات القراءة فى مكاتب الصبيان (الكتاتيب) وحلقات الدروس فى المساجد / المدارس، والقراءة الجماعية ، والقراءة الفردية كانت لها خصوصيتها ؛ وهو أمر لا يزال بحاجة إلى دراسة شاملة. (المترجم)

جسد

فرانكلين ، المطبعجى،

وقد تهرأت محتوياته ،

وتجرد من حروفه وزينته

يرقد هنا ، طعامًا للدود.

ولكن العمل لن يضيع ؛

لأنه ، كما اعتقد ،

سوف يعاود الظهور

فى طبعة جديدة وأكثر أناقة

تم تصحيحها وتحسينها

على يدى المؤلف

إننى لا أريد أن أبالغ أكثر مما ينبغى فى قيمة المجاز، لأن فرانكلين قد ضربه حتى الموت، وإنما أريد أن أعود إلى نقطة بسيطة جدا لدرجة أنها يمكن أن تغيب عن فطنتنا . هى أن للقراءة تاريخًا . ولم تكن القراءة واحدة على الدوام وفى كل مكان . وقد ننظر إليها باعتبارها عملية واضحة لرفع المعلومات من الصفحة ؛ بيد أننا لو أمعنا النظر فيها، فإننا سوف نتفق على أن المعلومات يجب غربلتها ، وتخزينها وتفسيرها . وتنتمى خطط التفسير إلى عمليات التشكيل الثقافية، التى تنوعت بشكل هائل على مرِّ الزمان . ومثلما عاش أجدادنا فى عوالم عقلية مختلفة ، فلابد أنهم كانوا يقرأون بطريقة مختلفة، ويمكن أن يكون تاريخ الكتابة معقدًا شأنه شأن تاريخ التفكير، ويمكن أن يكون من الصعوبة ، حقًا ، لدرجة أن الخطوات الخمس التى اقترحتها هنا قد تؤدى إلى اتجاهات متفرقة أو تجعلنا ندور حول المشكلة إلى ما لا نهاية دون أن ننفذ إلى قلبها . وليست هناك طرق مباشرة أو مختصرة ، لأن القراءة ليست شيئا متمايزًا ، مثل دستور أو نظام اجتماعى، يمكن تتبع مساره عبر الزمان. إنها نشاط ينطوى على علاقة مخصوصة من ناحية القارئ ، ومن ناحية أخرى النص. وعلى الرغم من أن القراء والنصوص اختلفوا بحسب الظروف الاجتماعية والظروف التكنولوجية ، فإن تاريخ القراءة

لاينبغى النزول به ليكون مجرد رصد زمنى تتابعى لتلك التنويعات. ويجب أن يتخطاها لكى يواجه عنصر العلاقة فى قلب الموضوع: كيف تم تفسير التغيرات التى جرت على قراءة النصوص فعلاً ؟

ويبدو السؤال مبهماً ؛ بيد أن هناك قدراً كبيراً يتوقف عليه . فكر كيف أن القراءة غيرت مجرى التاريخ – قراءة مارتن لوثر لرسائل القديس بولس الرسول ، وقراءة ماركس لهيجل ، وقراءة ماوتسى تونج لماركس. هذه النقاط تقف بارزة فى عملية أعمق وأكثر اتساعا– جهد الإنسان الذى لا ينتهى لأن يجد معنى فى العالم من حوله وفى داخل نفسه. ولو استطعنا أن نفهم كيف قرأ ، فإننا يمكن أن نقترب أكثر من فهم كيف جعل للحياة معنى؛ وبتلك الطريقة ، أى الطريقة التاريخية، فإننا قد نرضى بعض شهوتنا نحو المعنى.

ملاحظة على التواريخ الحديثة للقراءة

فى العقد الأخير رأينا انفجاراً حقيقيًا فى دراسات تاريخ القراءة بالمعنى الذى حدده روبرت دارنتون فى الفصل الذى كتبه، على الرغم من أن تاريخ الكتاب الأقدم وجوداً يستمر فى الازدهار أيضا. وبعض الدراسات الجديدة ذات موضوع واحد ، ولكن التواريخ الجامعة عن الكتاب فى بريطانيا والولايات المتحدة تسير قدماً . أما الرواد الفرنسيون ، وأبرزهم هنرى – چان مارتن، ودانييل روش، وروچر شارتييه ، فقد استمروا يسهمون فى هذا المجال، على حين أنتج روبرت دارنتون نفسه دراسة جديدة عما يسمّيه «الكتب المنوعة الأكثر مبيعًا فى فرنسا قبل الثورة »[٣٢] ويستمر العمل على إيطاليا، وألمانيا وإسبانيا وغيرها من البلاد، على حين ركز عدد غير عاد من الدراسات الحديثة على تاريخ القراءة فى انجلترا ؛ من حيث تنظيم المكتبات ، وأماكنها، خاصة أم عامة، وفى أى منها كانت تتم القراءة بل حتى جلسة القراء، وأين كانوا يقفون ، أو يجلسون ، أو يرقدون [٣٣].

وثمة تطور مثمر تمثل فى توجيه المزيد من الاهتمام لممارسات القراءة عند الأفراد. فقد درست ليزا چاردين Lisa Jardine وأنتونى جرافتون Anthony Grafton كيف قرأ جابرييل هارڤى ودائرته (حلقته) ليڤيوس *، وقيصر** ونصوصاً أخرى «من أجل الفعل»، وبعبارة أخرى

---

* هو المؤرخ الرومانى تيتوس ليڤيوس Titus Livius (٥٩ ق.م – ١٧م) ويصفه البعض بأنه «مؤرخ الرومان الوطنى» وبأنه واحد من أعظم رواة القصص فى كل العصور . ويتناول كتابه «تأسيس المدينة» – =

من أجل النصيحة التى يمكن تطبيقها على الشئون السياسية المعاصرة . وقد درس وليم شيرمان William Sherman چون دى John Dee باعتباره قارئًا من خلال الخطوط التى خطها تحت السطور والهوامش التى وضعها فى كتابه. وقد حلل چون بريور John Brewer اليوميات – تقع فى سبعة عشر مجلداً – التى سجلتها امرأة انجليزية عاشت فى القرن الثامن عشر هى ، أنا مارجريتا لاربنت Anna Margaretta Larpent ، ملاحظًا «ميلها إلى الكاتبات من النساء وإلى المؤلفات المناصرة للنساء» (٣٤).

والاستراتيجية البديلة فى التحليل هى التركيز على قراء مختلفين للنص نفسه. وقد قام دارنتون نفسه ذات مرة بفحص استجابات القراء إزاء مؤلفات روسو على أساس ما بقى من الخطابات التى أرسلت إلى الناشر. وعندما تكون هذه المصادر غير موجودة فقد يتحول المؤرخون صوب الترجمات والتقليد لنص بعينه مثل نص Courtier لبلداسارى كاستينيليونى Baldassare Castiglione ، Spectator لچوزيف أديسون Joseph Addison وريتشارد ستيل Richard Steele باعتبارها أمثلة موثقة عن استجابات القراء (٣٥).

وعلى امتداد الخطوط التى اقترحها الراحل دون ماكنزى، تمت دراسة المظهر المادى للكتب بوصفها مفتاح الدخول إلى الطرق التى كانت تتم بها قراءة «سوسيولوچيا النصوص» . كما أن الورقة كبيرة الحجم التى كانت تتطلب مسنداً لدراستها، أو الكتاب صغير الحجم من قطع الاثنى عشر الذى يمكن حمله فى الجيب، أو قراءته فى السرير ، كان يتيح تجارب مختلفة تمامًا فى القراءة . وما يسمى «النص الموازى» ، أى الكلمات المحيطة بالموضوع مثل المقدمات، والإهداءات ، وجداول المحتويات ، وملاحظات الهوامش، أو الفهارس، كلها كانت تقدم للقراء إشارات تخص الرسالة التى يحملها الكتاب (٣٦).

= وهو ملحمة نثرية ضخمة– تطور الدولة الرومانية ؛ من روما المدينة– الدولة حتى الامبراطورية. وقد اعتمد على مؤلفات المؤرخين السابقين وكتب بأسلوب أدبى راق. (المترجم)

** هو يوليوس قيصر الشهير آخر حكام «الجمهورية» قبل اغتياله وتحول الدولة الرومانية إلى إمبراطورية على يدى خلفه أوكتاڤيانوس أغسطس . وإلى جانب نشاطه السياسى والعسكرى ، ألف يوليوس قيصر كتبا فى التاريخ، وكان كتاباه «الحرب الغالية أو الحرب الأهلية» يحكيان قصة الحملات العسكرية التى تولى قيادتها فى أسلوب عملى جاف ومباشر . (المترجم)

وكان أحد أهم التطورات الجديدة الربط بين تاريخ الكتاب وتاريخ العلم. فعلى سبيل المثال ، درست آن بلير Ann Blair استقبال كتاب چان بودان وعنوانه Theatre of Nature (1569) ، واستعرضت النسخ الباقية (أكثر من مائتى وخمسين نسخة) وحللت التعليقات التى كتبها القراء ، ومنهم العالم اسحق كاسوبون I. Casaubon كما أن أدريان جونز درس ما سمّاه «ثقافة الكتاب المطبوع» و«سيكولوچية القراءة» فى لندن فى مطلع العصور الحديثة، وقام بتقييم تجربة القراءة ومكان القراءة فى التطور الفكرى لأفراد مثل روبرت بويل Robert Boyle الذى كان متنوقًا للفن (٣٧).

وقد أدت كثرة دراسات الحالة إلى تأهيل الآراء القديمة حول التغيرات التى جرت على القراءة بمرور الزمن، إن لم تكن قد ألغتها تماما. فلم يعد يبدو واضحًا كما كان الحال من قبل أن القراء فى العصور الوسطى كانوا يقرأون الكلمات فى الصفحة بصوت عال، أو أن «ثورة فى القراءة» قد حدثت أواخر القرن الثامن عشر ، وحلت محل «القراءة الواسعة» (والمعروفة أيضا باسم «التصفح السريع») من أجل الدراسة المركزة للنصوص . ويبدو الآن أكثر احتمالاً أن بعض القراء على الأقل قد استخدموا أكثر من أسلوب فى القراءة بحسب الكتاب أو المناسبة . وكون السنوات حول سنة ١٨٠٠م كانت غريزة فى تاريخ القراءة ، على الأقل فى ألمانيا ، كان موضوع مناقشة أصيلة إلى حد كبير فى دراسة أجراها إيريك شون Erich Schon تفحص - ضمن موضوعات أخرى- التغيرات فى الإضاءة ، والأثاث، والتنظيم فى اليوم (الذى تم تقسيمه بوضوح أكثر من ذى قبل إلى ساعات للعمل وساعات فراغ) وكذلك ظهور حالة أكثر تأكيدًا فى القراءة ، لاسيما المؤلفات الخيالية (٣٨).

وهناك محاولات موجودة فى مؤلف جديد، على الأقل تحمل رأيًا مفرطًا . فثمة دراسة عامة قام بها الكاتب الأرجنتينى ألبرتو مانجويل Alberto Manguel تلفت النظر بسحرها والطريقة الحساسة التى يحرك بها المؤلف «السرور البالغ الناجم عن أننا نمسك بأيدينا كتابًا كان ذات مرة ملكًا لقارئ آخر، ويحوم مثل شبح من خلال همسة كلمات قليلة خطها على الهامش، أو توقيع عندها ، أو بقعة نبيذ تنبئ عن شاربها». وهناك كتاب متعدد الأجزاء عنوانه History of the Book in Britain يجرى العمل فيه ، كما أن مجموعة مقالات عن تاريخ القراءة فى إنجلترا قد خرجت من المطبعة بالفعل (٣٩).

ومن أجل رؤية عامة للحالة الراهنة فى هذا المجال، مع اقتراحات تطلعية إلى التطورات

المستقبلية ، سيكون من الصعب أن نفعل ما هو أحسن من مجازفة عالمية حديثة تمت مؤخراً، فثمة تقرير كتبه ثلاثة عشر مؤرخ من المتخصصين فى تاريخ القراءة فى الغرب منذ بلاد الإغريق القديمة حتى الوقت الحالى وفيه تمت دراسة حالة عن أنه حدثت ما لايقل عن ثلاث «ثورات» فى القراءة فيما بين سنة ١٤٥٠ وسنة ٢٠٠٠م(٤٠).

وعلى النقيض من ذلك ، فإن تاريخ القراءة فى الثقافات غير الغربية لقى التجاهل والإعراض ، على الرغم من أن هناك علامات على أن الموقف آخذ فى التغير. ففى حالة الصين، ثمة دراسة حديثة عن «ثقافة الكتاب» جذبت الانتباه إلى «قواعد القراءة» التى تمت صياغتها فى القرن الثانى عشر على يدى فيلسوف الكونفوشية الجديدة «زهورى» والعادات السيئة التى أدانها تضمنت القراءة فى صمت ، وبسرعة أكثر مما ينبغى ، وبسطحية أكثر مما يجب ، وكذلك ممارسة القفز بين الفصول بدلاً من القراء بصورة متواصلة . وفى اليابان أيضا أخذت هذه التعاليم مأخذ الجد ، وثمة نص من القرن الثامن عشر حول تعليم الأطفال وتنشئتهم يطلب من القراء أن يغسلوا أياديهم، وأن يركعوا وأن يقرأوا فى خشوع وبطء ، ويمنعهم من أن يدوسوا فوق الكتب أو يخطوا فوقها، أو يستخدموها وسائد أو أن يثنوا الصفحات . وفى تاريخ القراءة ، كما فى نواحى أخرى من الحياة الثقافة، سيكون من الخطأ أن نفترض أن التجديد احتكار غربى(٤١).

ملحق : خزانة أدب إقليمية فى سنة ١٧٧٩م

الخطاب الدورى التالى يقدم لمحة نادرة فى خزانة الأدب Cabinet littéraire أو نادى القراءة فى فرنسا قبل الثورة . وقد وجهه برنار الذى كان بائع كتب فى لونيبل، إلى ضباط الشرطة المحلية فى سبتمبر ١٧٧٩م. وكان برنار يريد أن يقنع الضباط بعضوية نادى القراءة الذى يملكه ، ومن ثم فإنه يؤكد على فائدتها للضباط العسكريين. ولكن يبدو أنها كانت تتشابه مع مؤسسات مثيلة مبعثرة فى جميع أنحاء الأقاليم الفرنسية. والمنشور يأتى من ملف برنار فى أوراق جمعية الطباعة فى نوشاتل Société typographique de Neuchatel فى المكتبة العامة وفى جامعة نوشاتل بسويسرا . ولم يتم تحديث هجائها أو تصحيحه .

do better than a recent international venture, an account by thirteen scholars of the history of reading in the west from ancient Greece to the present in which a case is argued for no fewer than three 'revolutions' in reading between 1450 and 2000.[40]

By contrast, the history of reading in non-western cultures has been neglected, although there are signs that the situation is changing. In the case of China, a recent study of 'book culture' drew attention to the 'rules of reading' formulated in the twelfth century by the neo-Confucian philosopher Zhu Xi. The bad habits he condemned included reading silently, too quickly and too superficially, as well as the practice of chapter-hopping rather than reading continuously. In Japan too these precepts were taken seriously, and an eighteenth-century text on the upbringing of children told readers to wash their hands beforehand, to kneel and to read reverently and slowly, and forbade them to step over books, use them as pillows or fold back the pages. In the history of reading as in other cultural domains, it would be a mistake to assume that innovation is a western monopoly.[41]

Appendix: A Provincial *Cabinet littéraire* in 1779

The following circular letter provides a rare glimpse into a *cabinet littéraire* or reading club in pre-revolutionary France. It was addressed by P. J. Bernard, a bookseller in Lunéville, to the officers of the local *gendarmerie* in September 1779. Bernard wanted to persuade the *gendarmes* to buy membership in his *cabinet* and therefore stressed its usefulness for military officers. But it probably resembled similar establishments scattered throughout provincial France. The circular comes from Bernard's dossier in the papers of the Société typographique de Neuchâtel in the Bibliothèque publique et universitaire of Neuchâtel, Switzerland. Its spelling has not been modernized or corrected.

A Messieurs les Gendarmes

Messieurs,

Le Sr. Bernard, propriétaire du Cabinet Littéraire de la Gendarmerie, autorisé par Monsieur le Marquis d'Autichamp, a l'honneur de vos représenter qu'encouragé par le suffrage de ses abonnés, il désireroit fonder un établissement plus étendu et plus utile.

Il voudroit qu'au moyen d'un abonnement certain & invariable, Messieurs les Gendarmes trouvassent chés lui tous les secours littéraires qu'ils peuvent désirer. Une maison commode, grande, bien éclairée & chauffée, qui seroit ouverte tous le jours, depuis neuf heures du matin jusqu'à midi

& depuis une heure jusqu'à dix, offriroit, dès cet instant, aux amateurs, deux mille volumes qui seroient augmentés de quatre cens par année. Les livres seroient à la disposition de Messieurs les Gendarmes, qui cependant ne pourront les sortir de la bibliothèque.

Le Sr. Bernard s'engage à se procurer par chaque ordinaire:

Deux journaux de Linguet
Deux Mercures
Deux Journaux militaires
Deux Journaux des affaires de l'Amérique & de l'Angleterre
Deux Esprits des journaux
Deux Courriers de l'Europe
Deux Gazettes de France
Deux Gazettes de Leyde
Deux Gazettes de La Haye
Deux Gazettes de Bruxelles
Deux Courriers du Bas Rhin
Deux Courriers de Deux-Ponts
Deux Bulletins

Auxquels seront joints les ouvrages & instrumens de mathématiques, les cartes géographiques, les ordonnances militaires, & tout ce qui concerne un officer.

Le Sr. Bernard aussi sensible au plaisir d'être utile qu'à son intérêt particulier, se bornera pour chaque abonnement à trois livres par an.

Voilà quel sera l'ordre de sa maison:

Une salle au rais de chaussée sera destinée pour la conversation, ainsi qu'une chambre au premier étage; & les autres seront abandonnées aux lecteurs des gazettes, des ouvrages de littérature, etc.

Il ne sera question d'aucun jeu quelconque, sous tel prétexte que ce soit.

La reconnaissance que le Sr. Bernard a vouée à la Gendarmerie, lui fait saisir tous les moyens de lui être agréable. Il se flate que Messieurs les Gendarmes voudront bien jetter sur son projet un coup d'œil favorable & le mettre à portée d'ajouter aux obligations qu'il leur a deja l'hommage d'une éternelle reconnaissance.

N. B. Le Sr. Bernard prie ceux de ces Messieurs les Gendarmes qui lui seront favorables de vouloir bien lui accorder leur signature.

الهوامش

This article is reprinted from the *Australian Journal of French Studies*, 23 (1986), pp. 5–30, by kind permission.

1 Ovid, *Ars Amatoria*, Book III, lines 469–72 and 613–26. I have followed the translation by J. H. Mozley in *The Art of Love and Other Poems* (London, 1929), modifying it in places with the more modern version by Héguin de Guerle, *L'Art d'aimer* (Paris, 1963). All other translations in this essay are by me.

2 Carlo Ginzburg, *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller*, trans. Anne and John Tedeschi (Baltimore, 1980).

3 Robert Darnton, 'Readers Respond to Rousseau: The Fabrication of Romantic Sensitivity', in Darnton, *The Great Cat Massacre and Other Episodes of French Cultural History* (New York, 1984), pp. 215–56.

4 As instances of these themes, see Kurt Rothmann, *Erläuterungen und Dokumente. Johann Wolfgang Goethe: Die Leiden des Jungen Werthers* (Stuttgart, 1974), and James Smith Allen, 'History and the Novel: *Mentalité* in Modern Popular Fiction', *History and Theory*, 22 (1983), pp. 233–52.

5 As examples of this literature, which is too vast to be cited in detail here, see Henri-Jean Martin, *Livre, pouvoirs et société à Paris au XVII^e siècle (1598–1701)* (Geneva, 1969), 2 vols; Robert Estivals, *La statistique bibliographique de la France sous la monarchie au XVIII^e siècle* (Paris and The Hague, 1965); Frédéric Barbier, 'The Publishing Industry and Printed Output in Nineteenth-Century France', in Kenneth E. Carpenter (ed.), *Books and Society in History: Papers of the Association of College and Research Libraries Rare Books and Manuscripts Preconference, 24–28 June, 1980 Boston, Massachusetts* (New York and London, 1983), pp. 199–230; Johan Goldfriedrich, *Geschichte des deutschen Buchhandels* (Leipzig, 1886–1913, 4 vols); Rudolf Jentzsch, *Der deutsch-lateinische Büchermarkt nach den Leipziger Ostermesskatalogen von 1740, 1770 und 1800 in seiner Gliederung und Wandlung* (Leipzig, 1912); H. S. Bennett, *English Books & Readers 1475 to 1557* (Cambridge, 1952); id., *English Books & Readers 1558 to 1603* (Cambridge, 1965); id., *English Books & Readers 1603 to 1640* (Cambridge, 1970); Giles Barber, 'Books from the Old World and for the New: The British International Trade in Books in the Eighteenth Century', *Studies on Voltaire and the Eighteenth Century*, 151 (1976), pp. 185–224; Robert B. Winans, 'Bibliography and the Cultural Historian: Notes on the Eighteenth-Century Novel', in William L. Joyce, David D. Hall, Richard D. Brown and John B. Hench (eds), *Printing and Society in Early America* (Worcester, Mass., 1983), pp. 174–85; and G. Thomas Tanselle, 'Some Statistics on American Printing, 1764–1783', in Bernard Bailyn and John B. Hench (eds), *The Press & the American Revolution* (Boston, 1981), pp. 315–64.

6 Estivals, *La Statistique bibliographique*, p. 309; Paul Raabe, 'Buchproduktion und Lesepublikum in Deutschland 1770–1780', *Philobiblin: eine Viertel-jahrsschrift für Buch- und Graphiksammler*, 21 (1977), pp. 2–16. The comparative statistics on writers are based on my own calculations.

7 François Furet, 'La "librairie" du royaume de France au 18ᵉ siècle', in Furet et al., *Livre et société dans la France du XVIIIᵉ siècle* (Paris, 1965), pp. 3–32; Daniel Roche, 'Noblesses et culture dans la France du XVIIIᵉ: les lectures de la noblesse', in *Buch und Sammler. Private und öffentliche Bibliotheken im 18. Jahrhundert. Colloquium der Arbeitsstelle 18. Jahrhundert Gesamthochschule Wuppertal Universität Münster vom 26–28. September 1977* (Heidelberg, 1979), pp. 9–27; Michel Marion, *Recherches sur les bibliothèques privées à Paris au milieu du XVIIIᵉ siècle (1750–1759)* (Paris, 1978); Michel Vovelle, *Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIᵉ siècle. Les attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments* (Paris, 1973).

8 Jentzsch, *Der deutsch-lateinische Büchermarkt*; Albert Ward, *Book Production, Fiction, and the German Reading Public 1740–1800* (Oxford, 1974); Rudolf Schenda, *Volk ohne Buch. Studien zur Sozialgeschichte der populären Lesestoffe 1700–1910* (Frankfurt am Main, 1970), p. 467.

9 For Jefferson's model of a minimal library for an educated but not especially scholarly gentleman, see Arthur Pierce Middleton, *A Virginia Gentleman's Library* (Williamsburg, var, 1952).

10 Daniel Mornet, 'Les enseignements des bibliothèques privées (1750–1780)', *Revue d'histoire littéraire de la France*, 17 (1910), pp. 449–96. For an overview of the French literature with bibliographical references, see Henri-Jean Martin and Roger Chartier (eds), *Histoire de l'édition française* (Paris, 1982–3). Walter Wittmann's study and related works are discussed in Schenda, *Volk ohne Buch*, pp. 461–7. On the Parisian common reader, see Daniel Roche, *Le peuple de Paris. Essai sur la culture populaire au XVIIIᵉ siècle* (Paris, 1981), pp. 204–41.

11 Reinhard Wittmann, *Buchmarkt und Lektüre im 18. und 19. Jahrhundert. Beiträge zum literarischen Leben 1750–1880* (Tübingen, 1982), pp. 46–68; Wallace Kirsop, 'Les mécanismes éditoriaux', in *Histoire de l'édition française* (Paris, 1984), vol. 2, pp. 31–2.

12 John A. McCarthy, 'Lektüre und Lesertypologie im 18. Jahrhundert (1730–1770). Ein Beitrag zur Lesergeschichte am Beispiel Wolfenbüttels', *Internationales Archiv für Sozialgeschichte der deutschen Literatur*, 8 (1983), pp. 35–82.

13 Rolf Engelsing, 'Die Perioden der Lesergeschichte in der Neuzeit. Das statistische Ausmass und die soziokulturelle Bedeutung der Lektüre', *Archiv für Geschichte des Buchswesens*, 10 (1969), cols 944–1002, and id., *Der Bürger als Leser. Lesergeschichte in Deutschland 1500–1800* (Stuttgart, 1974).

14 David Hall, 'The Uses of Literacy in New England, 1600–1850', in *Printing and Society in Early America*, pp. 1–47.

15 For similar observations on the setting of reading, see Roger Chartier and Daniel Roche, 'Les pratiques urbaines de l'imprimé', in *Histoire de l'édition française*, vol. 2, pp. 403–29.

16 Restif de la Bretonne, *La vie de mon père* (Ottawa, 1949), pp. 216–17. Schubart's poem is quoted in Schenda, *Volk ohne Buch*, p. 465, and can be translated: 'When the evening time comes round, / I always drink my glass of wine. / Then the schoolmaster reads to me / Something new out of the newspaper.'

17 On chapbooks and their public use in France, see Charles Nisard, *Histoire des livres populaires ou de la littérature du colportage* (Paris, 1854, 2 vols); Robert Mandrou, *De la culture populaire aux 17ᵉ et 18ᵉ siècles: la bibliothèque bleue de Troyes* (Paris, 1964); and for examples of more recent scholarship the series

'Bibliothèque bleue' edited by Daniel Roche and published by Editions Montalba. The best account of popular literature in Germany is still Schenda, *Volk ohne Buch*, although its interpretation has been challenged by some more recent work, notably Reinhart Siegert, *Aufklärung und Volkslektüre exemplarisch dargestellt an Rudolph Zacharias Becker und seinem 'Noth- und Hülfsbüchlein'* (Frankfurt am Main, 1978). As an example of workers reading to each other, see Samuel Gompers, *Seventy Years of Life and Labor: An Autobiography* (New York, 1925), pp. 80–1.

18 Françoise Parent-Lardeur, *Les cabinets de lecture. La lecture publique à Paris sous la Restauration* (Paris, 1982).

19 The studies by Dann, Welke and Prüsener, along with other interesting research, are collected in Otto Dann (ed.), *Lesegesellschaften und bürgerliche Emanzipation: ein europäischer Vergleich* (Munich, 1981).

20 Heinzemann's remarks are quoted in Helmut Kreuzer, 'Gefährliche Lesesucht? Bemerkungen zu politischer Lektürekritik im ausgehenden 18. Jahrhundert', in Rainer Gruenter (ed.), *Leser und Lesen im 18. Jahrhundert. Colloquium der Arbeitsstelle Achtzehntes Jahrhundert Gesamthochschule Wuppertal, 24.–26. Oktober 1975* (Heidelberg, 1977). Bergk's observations are scattered throughout his treatise, *Die Kunst Bücher zu Lesen* (Jena, 1799), which also contains some typical remarks about the importance of 'digesting' books: see its title-page and p. 302.

21 Newberry Library, Case Wing Z 45. 18 ser.la, no 31.

22 Margaret Spufford, 'First Steps in Literacy: The Reading and Writing Experiences of the Humblest Seventeenth-century Autobiographers', *Social History*, 4 (1979), pp. 407–35, and ead., *Small Books and Pleasant Histories: Popular Fiction and its Readership in Seventeenth-century England* (Athens, Ga., 1981). On popular reading in nineteenth- and twentieth-century England, see R. K. Webb, *The British Working Class Reader* (London, 1955), and Richard D. Altick, *The English Common Reader: A Social History of the Mass Reading Public 1800–1900* (Chicago, 1957).

23 This discussion is based on the research of Dominique Julia, notably his 'Livres de classe et usages pédagogiques', in *Histoire de l'édition française*, vol. 2, pp. 468–97. See also Jean Hébrard, 'Didactique de la lettre et soumission au sens. Note sur l'histoire des pédagogies de la lecture', in *Les textes du Centre Alfred Binet: l'enfant et l'écrit*, 3 (1983), pp. 15–30.

24 Valentin Jamerey-Duval, *Mémoires. Enfance et éducation d'un paysan au XVIII^e siècle* Jean-Marie Goulemot (Paris, 1981); Daniel Roche (ed.), *Journal de ma vie. Jacques-Louis Ménétra compagnon vitrier au 18^e siècle* (Paris, 1982).

25 Adams's margin notes are quoted in Zoltán Haraszti, *John Adams & the Prophets of Progress* (Cambridge, Mass., 1952), p. 85. On glosses and footnotes, see Lawrence Lipking, 'The Marginal Gloss', *Critical Inquiry*, 3 (1977), pp. 620–31, and G. W. Bowersock, 'The Art of the Footnote', *American Scholar*, 53 (1983–4), pp. 54–62. On the Prosper Marchand manuscripts, see the two articles by Christiane Berkvens-Stevelinck, 'L'apport de Prosper Marchand au "système des libraires de Paris"', and 'Prosper Marchand, "trait d'union" entre auteur et éditeur', *De gulden Passer*, 56 (1978), pp. 21–63 and 65–99.

26 For surveys and bibliographies of reader-response criticism, see Susan R. Suleiman and Inge Crosman (eds), *The Reader in the Text: Essays on Audience and Interpretation* (Princeton, 1980), and Jane P. Tompkins (ed.), *Reader-Response Criticism: From Formalism to Post-Structuralism* (Baltimore, 1980). One of the most influential works from this strain of criticism is Wolfgang Iser, *The Implied Reader: Patterns of Communication in Prose Fiction from Bunyan to Beckett* (Baltimore, 1974).

27 Walter J. Ong, 'The Writer's Audience Is Always a Fiction', *PMLA*, 90 (1975), pp. 9–21.

28 D. F. McKenzie, 'Typography and Meaning: The Case of William Congreve', in Giles Barber and Bernhard Fabian (eds), *Buch und Buchhandel in Europa im achtzehnten Jahrhundert* (Hamburg, 1981), pp. 81–126.

29 Roger Chartier, *The Cultural Uses of Print in Early Modern France* (Princeton, 1987), pp. 265–342. See also the general reflections on reading, pp. 145–82.

30 Paul Saenger, 'Manières de lire médiévales', *Histoire de l'édition française*, vol. 1, pp. 131–41, and id., 'From Oral Reading to Silent Reading', *Viator*, 13 (1982), pp. 367–414. Of course one can find exceptional cases of individuals who read silently long before the seventh century, the most famous being St Ambrose as described in the *Confessions* of St Augustine. For further discussion of reading and the early history of the book, see Henri-Jean Martin, 'Pour une histoire de la lecture', *Revue française d'histoire du livre*, NS 16 (1977), pp. 583–610.

31 On the long-term history of the notion of the world as a book to be read, see Hans Blumenberg, *Die Lesbarkeit der Welt* (Frankfurt am Main, 1981). Franklin's epitaph does not actually appear on his gravestone. He probably wrote it in 1728, when he was a young printer and a wit in the Junto club: see *The Papers of Benjamin Franklin*, ed. Leonard W. Labaree (New Haven, 1959–), vol. 1, pp. 109–11. The phrasing differs slightly in each of the three autograph texts.

32 H.-J. Martin, *The French Book: Religion, Absolutism and Readership, 1585–1715* (Baltimore, 1996); D. Roche, *Histoire des choses banales* (Paris, 1997); R. Chartier, *The Cultural Uses of Print in Early Modern France* (Princeton, 1987); id., *The Order of Books: Readers, Authors and Libraries between the Fourteenth and Eighteenth Centuries* (1992: English trans. Cambridge, 1994); R. Darnton, *The Forbidden Best-Sellers of Pre-Revolutionary France* (New York, 1995).

33 An overview is given in the introduction to J. Raven, H. Small and N. Tadmor (eds), *The Practice and Representation of Reading in England* (Cambridge, 1996), pp. 1–21.

34 L. Jardine and A. Grafton, 'How Gabriel Harvey read his Livy', *Past and Present*, 189 (1990), pp. 30–78; W. Sherman, *John Dee: The Politics of Writing and Reading in the English Renaissance* (Amherst, 1995); J. Brewer, 'Reconstructing the Reader', in Raven et al., *Practice*, pp. 226–45, the quotation from p. 231.

35 M.-L. Pallares-Burke, 'A Spectator in the Tropics', *Comparative Studies in Society and History*, 36 (1994), pp. 676–701; P. Burke, *The Fortunes of the Courtier: The European Reception of Castiglione's* Cortegiano (Cambridge, 1995), 55–98.

36 D. McKenzie, *Bibliography and the Sociology of Texts* (London, 1986); P. Trovato, *Con ogni diligenza corretto: la stampa e le revisioni editoriali dei testi letterari italiani, 1470–1570* (Bologna, 1991); B. Richardson, *Print Culture in Renaissance Italy: The Editor and the Vernacular Text, 1470–1600* (Cambridge, 1994); Burke, *Fortunes*.

37 A. Blair, *The Theater of Nature: Jean Bodin and Renaissance Science* (Princeton, 1997); A. Johns, *The Nature of the Book* (Chicago, 1998).

38 Erich Schön, *Der Verlust der Sinnlichkeit oder Die Verwandlungen des Lesers: Mentalitätswandel um 1800* (Stuttgart, 1987).

39 Raven et al., *Practice*.

40 A. Manguel, *A History of Reading* (London, 1996); G. Cavallo and R. Chartier (eds), *A History of Reading in the West* (Cambridge, 1999).

41 Susan Cherniack, 'Book Culture and Textual Transmission in Sung China', *Harvard Journal of Asiatic Studies*, 54 (1994), pp. 5–102, at p. 50; Peter Kornicki, *The Book in Japan: A Cultural History from the Beginnings to the Nineteenth Century* (Leiden, 1998), pp. 251–69, at p. 261.

(٨)

التاريـــخ المرئـــى

إيڤان جاسكل

المادة المرئيـة

على الرغم من أن المؤرخين يستخدمون المصادر من أنواع كثيرة، فإن تعليمهم يقودهم عادة إلى أن يكونوا مستريحين أكثر مع الوثائق المكتوبة . وقد قام بعض المؤرخين بإسهامات قيمة فى فهمنا للماضى باستخدام مواد مرئية بطريقة تاريخية محددة ، بيد أن الكثير يستخدمون مثل هذه المادة للتوضيح فقط . ووجهة نظر المؤرخ نادراً ما تؤخذ فى الحسبان عندما تتم مناقشة المادة المرئية من قبل الباحثين فى فن المتاحف ، ومؤرخى الفن ودارسى علم الجمال . ولا يجب أن تستمر الحال على هذا النحو إذا ما كان المؤرخون على علم ببعض الاهتمامات التى تحكم أفكار أولئك الذين ينصب اهتمامهم الرئيسى على المرئى ، وممارساتهم. هذا هو ما آمل أن أفعله فى هذا الفصل فى سياق مناقشة مختارات من الأعمال ، بما فيها المنشورات التى ظهرت منذ نشر هذا الفصل أول مرة تحت عنوان «تاريخ الصور» ، فى نطاق بحث كبير .

وعنوان الفصل «التاريخ المرئي» أكثر منه «تاريخ الفن» للسبب نفسه الذى يجعلنى أرغب فى أن اعتبر المسائل التى تخص المادة المرئية وراء حدود الفن كما أنها فى داخله. وبالفعل ، فإن التمييز بين الفن وغيره من المادة المرئية لايثير فقط الأسئلة المتعلقة بالمصطلح، وإنما يوحى أيضا بالمكانة النسبية أو الميزة النسبية لمختلف أنواع المادة . إذ إن تاريخ الفن يهتم إلى حد كبير بالفن وحده وبما تقتضيه الهيراركية التأهلية فى داخله ، على الرغم من أن هذا الجانب التمييزى فى ذلك العلم قد أثار كثيراً من الأسئلة المتزايدة فى السنوات الأخيرة. والواقع ، أن مثل هذه التساؤلات تصاعدت منذ كتب هذا الفصل للمرة الأولى لدرجة أن المادة

التى يتم تناولها الآن على الأقل من جانب بعض مؤرخى الفن مختلفة كثيرا عما كانت عليه فى الماضى القريب. بيد أن تاريخ الفن والأشكال الأخرى لدراسة المادة المرئية ، مثل الدراسات الجمالية ، أو دراسات وسائل الإعلام والمتاحف ، دراسات غير تاريخية إلى حد كبير ومن الناحية المتعارف عليها . وعلاوة على ذلك ، فإن معظم الدراسات التفسيرية المهتمة بالفن وغيره من المادة المرئية لاتتخذ شكلاً مكتوباً ، أو تتخذ الشكل المكتوب وحده. إن تقديم المادة المرئية وتفسيرها بواسطة المتاحف وقاعات العرض تخضع النصوص للترتيب الفعلى لمثل هذه المادة. وعلى الرغم من أن النشرات التى تصاحب المعارض غالبًا ما تكون عبارة عن أدوات تحمل أحدث الدراسات والبحوث عن موضوعاتها، فإن مثل هذه النشرات لها علاقة ملتبسة بالمعارض نفسها التى يتم فيها توضيح التفسيرات بصورة مرئية تمامًا بواسطة الاختيار والترتيب .

وفى الثقافة الغربية فإن تكوين المادة المرئية، وحدودها وتراتيبها الداخلية المهمة بالقدر نفسه ، محكوم بممارسات تنويعة محيرة مربكة من الناس والمؤسسات . وهذا الفن الذى يبدو فى الظاهر متفاوتًا ، يقوم فى الحقيقة بوظيفته باعتباره نظامًا مركبًا يحمل العديد من المكونات التى تعتمد على بعضها اعتماداً متبادلاً . ولاتضم هذه فقط الكليات، والجامعات ، ومتاحف الفنون ، وإنما تضم أيضا صالات المزاد ، وصالات العرض التجارية، والناشرين. ومن ورائهم تكمن الإدارات الحكومية والوكالات ، والمؤسسات والشركات والرعاة والمستثمرين فردياً ومؤسسيًا . كذلك يجب أن نأخذ فى اعتبارنا الجامعين والهواة والباحثين الهواة والمستقلين ، والمحررين والعلماء التحليليين – وحتى الفنانين. ويحب كثير من العاملين داخل هذه المؤسسات والمجموعات أن يكون تعاملهم مع بعضهم البعض قليلاً بقدر الإمكان – على الرغم من أن هناك قدراً كبيراً من التبادل فيما بينهم عند مستويات عدة، من مستوى الأفكار والفروض إلى مستوى المال. وهى منسوجة سوياً فى شبكات مركبة من المصالح المشتركة والمنافسة ، الاحترام والاحتقار . وجميعهم بالتساوى جزء من النظام نفسه، ومحددون كل على حدة[1] وتحدد سلوكهم المادة المرئية بالممارسة وبالآراء السائدة . وفى داخل الكم الهائل المتباين للمادة المرئية نجد التمييز الأولى بين «الفن» و«غيره» . وفى داخل «الفن» هناك تمييز قائم على أساس معايير الإنسانيين فى عصر النهضة بين « الفنون الجميلة» (تعبيراً عن ابتكار إنسانى فردى) و«الفن التطبيقى». ويُنظر إلى الفن التطبيعى أساسًا بوصفه آليًا أكثر منه

عملاً ابتكارياً فكرياً، حتى ولو أن الشخص الذى يكون فى العادة مسئولاً عن التحقيق المادى لعمل فنى كان قد تصوره أيضاً. والفئة الثالثة هى «التصميم»، الذى يقع إلى حد كبير داخل إطار العصر الحديث، الذى يميّز بشكل حاد بين المصمم المسئول عن مفهوم منتج ما، وأولئك الذين يحققونه على المستوى المادى وبمساعدة الآلة غالباً. ودائما ما كانت هذه الفروق مربكة فى أحسن الأحوال . فهى موضوع للتساؤلات المتزايدة، لا من حيث النظرية وحدها (كما سيرد فيما بعد فى شرح مناقشة القواعد) وإنما أيضا فى الممارسات العامة فى العالم الأوسع للفن، خاصة أن قاعات المزاد والمتعاملين فى النتاج الفنى يسعون بالتالى لتعزيز مكانة الديكور وقيمة فنونه .

ويقف على أحد الجانبين نشاط تغيرت وضعيته بحيث صارت غامضة ؛ وهو فن العمارة . فقد فهم كتاب عصر النهضة الإيطالية من أمثال ليون باتيستا ألبرتى، وجيورجيو ڤاسارى المهندس المعمارى الرومانى ، وڤيتروڤيوس صاحب النظرية، أن العمارة هى العمود الفقرى للفن، نظراً لأنها تمزج ما بين المكونات الوظيفية والمكونات المجردة بحيث تفسح مجالاً للإبداع الفردى . وفى كثير من التحليلات التاريخية للفن كان التركيز على الوظيفة العملية أو الاجتماعية للمبانى أقل من التركيز على الإبداع لأن المبانى وما يتصل بها من تخطيط اعتبرت ، بشكل حصرى تقريباً ، وسائط لنقل التعبير الفنى الفردى، وقد أخذت هذه المقاربة أيضا عن ڤيتريوس (De architectuura, II ii) . ومن ناحية أخرى، تعتبر الممارسة الحالية للعمارة بمثابة ملاذ لمهنة منفصلة يميل أعضاؤها ونقادها إلى الغموض فى تعريف العلاقات بين الاعتبارات العملية والاعتبارات التعبيرية. وثمة اتجاه للنظر إلى العمارة حالياً ، لابوصفها فنًا من الفنون الجميلة (كما كان الحال تقريبا عندما كان مايكل أنجلو ينحت التماثيل ويرسم الصور ويضع تصميمات المبانى)، ولكن باعتبارها تصميما على مقياس كبير، رغم أنها لا تزال تحتفظ ببعض آثار مهابتها الباقية من تاريخها الباكر.

وفيما بين «الفن وغيره» أيضا نجد التصوير الفوتوجرافى، الذى يحتل مكانة غير محددة بشكل غريب ، بيد أن وضعه يختلف تماماً عن وضع العمارة. وعلى الرغم من أن مدى الصور التى يمكن إنتاجها بهذا الأسلوب الفنى ليس كبيراً جدا بمعنى من المعاني، فإن ما ينطوى عليه من أهمية ثقافية كبير، لأنه يؤخذ من ناحية على أنه وسيلة شفافة لنقل المعلومات ، وعلى أنه وسيط فنى أصم غير شفاف من ناحية أخرى. فقد كان التأثير الثقافى للتصوير

الفوتوجرافى على مدى المائة وستين سنة الماضية ، سواء بذاته، أو فى شكل الصورة المرئية المتحركة التى تسبب فى ظهورها، تأثيراً هائلا، فقد غير تماماً البيئة المرئية ووسائل تبادل المعلومات بالنسبة لشطر كبير من سكان الأرض. إذ إن التصوير الفوتوجرافى قد غيَّر علم تاريخ الفن، بصورة حاذقة وجذرية ومباشرة ، وممارسة عالم الفن بأسره ، بغض النظر عما إذا كانت الأشياء موضع الاهتمام قد ابتكرت قبل اختراع التصوير أو بعده . ويكاد الجميع أن يستخدموه يومياً، سواء باعتباره من وسائل الإيضاح ، أو باعتباره مساعدة على التذكر، أو بوصفه بديلاً للأشياء التى قام بتصويرها وعلى أية حال، فإن معظم أبناء عالم الفن قد تجنبوا صراحة التفكير فى نتائج التصوير الفوتوجرافى من حيث تأثيرها على أعمالهم، كما تجنبوا التفكير فيها على نطاق أكبر (٢). إن عواقب التحول من التسجيل التشبيهى للصور الفوتوجرافية وصور الفيديو إلى التكنولوجيا الرقمية كانت بعيدة المدى بالقدر نفسه، بحيث أتاحت النقل عن طريق الإنترنت والوسائط الذكية اللامتناهية . وسوف يغير العمل الفنى المرئى، مع الإمكانيات اللامتناهية لنسخه وعكسه على شاشات الكمبيوتر ، من مكانة المرئى من حيث المصطلحات الخاصة بالمعلومات والمعرفة.

والفئة التى تم تحديدها بصورة مقصورة فى السطور السابقة على أنها «غيره» (أى غير الفن) تعرَّف فى الممارسة الفعلية فى حدود المتاحف والتجارة . ذلك أن الاهتمام بالماضى المحلى قد أدى منذ زمن طويل إلى جعل المتاحف المحلية والجمعيات التاريخية المحلية مستودعات للأشياء . فالمواد المحلية المهجورة التى تحرك المشاعر تجاه ممارسات الماضى وشئونه العادية ، بل والعلاقات الاجتماعية صارت تعرض بالإضافة إلى أعمال الفن والآثار والتاريخ الطبيعى التى كانت من خصائص المتاحف المحلية التى تأسست فى بريطانيا فى السنوات التى أعقبت مرسوم المتاحف سنة ١٨٤٥م، كما كانت تميز الجمعيات التاريخية المحلية فى أمريكا. وثمة التزام جاد بالمواد المحلية يرجع فى تاريخه إلى بضع عشرات مضت من السنين، وكانت المؤسسات الرائدة متاحف فى الهواء الطلق من المبانى المجمعة فى مكان واحد ، مثل سكانسن ، وستوكهولم فى السويد اللذين تأسسا سنة ١٨٩١م . وفى الولايات المتحدة الأمريكية يقف متحف شلبورن Shelburne ، فى فيرمونت، الذى أسسته فى سنة ١٩٤٧م إليكترا هافماير ويب Electra Havemeyer Webb ، مثالاً بارزاً على تكريس الأعمال الفنية المحلية. بيد أنه منذ سبعينيات القرن العشرين زاد الاهتمام «بالثقافة الشعبية»

و«الثقافة المادية» ، وأضفيت عليها أهمية أكبر ذات توجه تاريخى أدق . وقد ارتقت المنطقة بأسرها من هوامش دراسات الفولكلور لتتخذ مكانها داخل الدراسة التى أعيد إحياؤها للثقافة الشعبية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتطورات الجارية فى مجال الكتابة التاريخية التى ظهرت فى بريطانيا على يد بيتر بوركى فى كتابه Popular Culture in Early Modern Europe (1978) ، وفى أمريكا من خلال البحث الذى طوره ، مع آخرين ، متحف وينترثور Winterthur فى ديلاوير Delaware (٣). وقد تم تلخيص المكانة الجديدة التى أعطيت لدراسة بقايا المادة غير الأثرية التى خلفتها القطاعات غير النخبوية فى مجتمعات الماضى فى مصطلحات العرض المتحفى بواسطة البناء الفاخر للمتحف الوطنى للفنون والموروثات الشعبية فى باريس Musée Nationale des Arts et Traditions Populaires , Paris وبينما تحتوى الفتارين على أدوات زراعية أو أدوات حرفية تعرض التنوع الإقليمى وقيمة الحِرفة التى قام بها حرفيون مجهولون، فإن غرفة الطباعة عبارة عن مخزن للأوراق الكبيرة المجهولة منذ القرن السادس عشر فصاعداً . وليس فى المتاحف فقط، ولكن فى النشر الأكاديمى أيضا بدأ مجال الثقافة المادية يزهو فى السنوات العشر الأخيرة، مما أنتج طائفة كبيرة من الكتب والدراسات على اتساع العالم.

ومن المؤكد أن انشغال التجارة بهذه التنويعة العريضة من المادة المرئية «الأخرى» ليس محدداً بالإسهام العلمى المتزايد فى المناقشات المهتمة بالأهمية الثقافية لمثل هذه الأشياء. وحتى أكبر قاعات المزاد قد اتخذت خطوات مهمة لتطوير المجال المعروف باسم «المجموعات» (أغطية أوعية اللصق ، تذاكر فرق الروك آندرول، ولعب الأطفال ... الخ) . والواقع ، أن تأثير التجارة على هذه المنطقة من مناطق البيئة المرئية ومفهوم الناس عن الماضى ربما تكون أكثر أهمية من بحث طواقم المتاحف والمؤرخين الاجتماعيين. وتبقى هذه هى الحال على الرغم من الزيادة الهائلة فى الاهتمام البحثى بظاهرة جمع المجموعات على امتداد السنوات العشر الأخيرة ، والتى مثلها چون إلسنر John Elsner وروجر كاردينال Roger Cardinal فى مجموعتهما المسماة The Cultures of Collecting (1994) . وموضوع الجمع يشهد تقاطع مختلف الاهتمامات . أولا ، فهو يروق لمن لديهم شعور بالتنظيم كما يخدم باعتباره معادلاً ترفيهيا للأساليب التجارية للمزايدة والتبادل ؛ ولكن بخلاف مصالح الجامعين العملية، فإنه يعد بالاستكمال والاغلاق النهائى . وجمع الطوابع هو النموذج الأمثل لهذا الموضوع.

ثانيا – فإن هوايات «الجمع» تنشد دفعة تجارية أخرى: هى عائد القيمة من خلال استكمال أطقم محددة وتوقع العائد على الاستثمار . ثالثا– يقوم الجمع على فرض مفهوم ضمنى بأن المعرفة الخاصة بالأشياء محددة ظاهرياً ولاتدخل إمكانية التفسير فى السياق العقلى . رابعا– وأكثرها أهمية بالنسبة للمؤرخ– ينطوى الجمع من هذا النوع على علاقة خاصة بالماضى. وهناك عنصران من عناصر الجمع عبارة عن حنين للماضى قائم على أساس من الخصائص المجازية والدلالية التى توحى بها الأشياء التى يتم جمعها (مثل لعبة علبة الكبريت التى تثير المشاعر نحو الطفولة كما كانت فى بريطانيا إبان الخمسينيات من القرن العشرين) وعلى أساس الخاصية الراسخة المتمثلة فى التبعية المفترضة للشئ لشخص مشهور أو مبجل وارتباطه به (مثل زوج من الأحذية لألفيس بريسلى أو دوق ويللينجتون الأول) والواقع أنه عندما يتأسس هذا الموقف الذى تفوح منه رائحة سحر التعاطف، بأسلوب يزداد انتشاراً ، فإننا قد نعجب ما إذا كان يمكن التمييز ما بين جريس لاند Graceland وآبسلى هاوس Ap- sley Hause ، لأن كلا منهما ينطوى على موقف غير تحليلى تجاه الماضى الذى يسوده رجال عظماء (ونادراً النساء) يمكن معرفة جوهرهم من خلال متابعة الأشياء التى أحاطوا أنفسهم بها .

وإذْ فتحنا طريقا ما إلى داخل الكم الهائل من المادة المرئية («الفن»، مسألة المكانة التى تحسم، مثل العمارة والفوتوجرافى، و«غيره» ، بما فى ذلك فئات معينة من الأعمال الفنية و«المجموعات») والوصول إلى الرابطة التى تجمع هذه الظواهر جميعًا فى التقديم المؤسس للأبطال (ألفيس بريسلى باعتباره «الملك»، ودوق ويللينجتون باعتباره «الدوق الحديدى») فربما يكون هذا بمثابة النقطة التى يمكن عندها أن نؤسس المعرفة عن المادة المرئية فى مشكلة ما بحيث يمكن استخدامها فى أغراض متنوعة (مثل التسلية ، والدعاية، وجمع المال وربط الحاضر بالماضى). وسوف أحاول أن استكشف مختلف وجوه التفكير بالرجوع إلى منشورات مهمة مختارة: التأليف، والتقديس والتفسير .

بيد أنه قبل التحول إلى أول هذه الموضوعات، سيكون من الملائم أن نحمل فى أذهاننا مشكلة نظرية صارت أكثر حدة فى أثناء العقد الأخير. وهى مشكلة تخص طبيعة الشئ داخل فئة « المادة المرئية» وطبيعة الموضوع الذى يستخدمه . وفصم عُرى الموضوع البشرى الفردى المتماسك الموحد، الذى تقترحه الكثير من النظريات النقدية المعاصرة– انظر مثلا كتاب چيل ديليز وفيلكس جوتارى Gilles Deleyze, Félix Guattari بعنوان :

Qu'est -ce que la Philosophie? والذى نشـر سنة ١٩٩١م وقـد ترجم إلى الإنجليـزية بعنوان (1994) ?What is Philosophy – قـد أثر على بعض مـؤرخى الأدب ومـفـاهيم المتخصصين فى الدراسات الثقافية عما قد يشكل صانع الأشياء والذين يستخدمونها ، وهى مفاهيم تعتمد بدورها على فهم أكثر تعقيداً لمكونات تلك الأشياء نفسها . والمحاولات المتنوعة ، وفى بعض الأحيان تكون حصرية بصورة تبادلية ، لتوضيح خصائص الأشياء والأشخاص الذين تنسب إليهم بمعنى ما تشارك فى استراتيجية إضفاء القوة على هذه الأشياء. ومن بين أكثر المناقشات الحديثة إثارة بين مؤرخى الفن فى هذا المسار، على الرغم من أنها اتخذت طرقًا اختلفت اختلافًا بينًا ، كتاب جيمس إليكنس James Elkins المعنون :

The Object Stares Back: On the Nature of Seeing (1996)

وكتاب ميشيل آن هولى Michael Ann Holly بعنوان :

Past Looking : Historical Imagination and the Rhetoric of the Image

والذى نشره سنة ١٩٩٦م، وكتاب ڤيكتور ستويشيتا Victor I. Stoichita عنوانه :

L'instauration du tableau : Métapeinture á L'aube des temps modernes (1993)

والذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان :

The Self - Aare Image: An Insight into Early Modern Méta - Painting

ونشر سنة ١٩٩٧م. ويبدو جديراً بالملاحظة أن هذه الاستراتيجية تبرز من الصعوبة الحقيقية فى تعريف التعقيد العاطفى التصورى والحسى للشئ. ويجب أن يكون عملنا موجهاً للكشف وسيلة لتعريف ذلك التعقيد بدون اللجوء إلى إضفاء الخصائص (مثل القوة) التى لا يمكن أن تكون سوى خصائص زائفة وذات تأثير بلاغى فحسب . ويكفى أن نلاحظ من أجل مقاصدنا فى المناقشة التاريخية أن شيئا يمكن تصنيفه باعتباره مادة مرئية لا يكون أبدا ما يراه المرء، أو ما رآه الآخرون .

التأليف

ثمة علاقة إشكالية عميقة كانت تطرح باستمرار بين الشئ والموضوع تتمثل فى الإبداع . والسـعى نحـو بناء الإبداع ليس ببـساطة من نتـائج قـيم سـوق الفن حسـبمـا يقـول بعض المتشككين (أى أن رسماً للفنان ڤان جوخ يستحق أكثر مما يستحقه رسم يبدو كما لو أن ڤان

جوخ هو الذى رسمه ولكنه ليس كذلك) . وإنما هو نتيجة من نتائج مفهوم الفنان وعلاقته المفهومة مع الفن فى التراث الغربى. وأحد المجالات التى نجد فيها أعظم مدى للجدل يوجد فى الرسم الذى خلفه الرسامون الأوربيون الكبار وفى منحوتاتهم . هنا تظهر ممارسة الإبداع الفردى، الخاص بشخص فرد، بشكل متسق على أنها أحد الشروط الخاصة لخلق الأشياء نفسها . أما المفاهيم المعاصرة عن الموضوع الفردى هنا فتبدو متوافقة بالكامل مع الشروط التى تم إبداع الأشياء فى ظلها ، على الرغم من أن هذا افتراض تعرض على الدوام للتحدى على أرضية نفعية ونظرية طوال العقد المنصرم .

والخبرة الفنية Connaisseurship – أى الأسلوب الذى يقيِّم به الباحثون إبداع الأعمال الفردية فى الفن من مظهرها– هى «هوية الأنا فى تاريخ الفن» على حد تعبير جارى شوارتز Gary Schwartz(٤) . وحسبما أشار داڤيد فيليبس David Phillips فى دراسته التفصيلية Exhiliting Authentcity سنة ١٩٩٧م، فإن خبراء الفن يميلون إلى خلط خصائص الأشياء مع تأمل التأثيرات التى تحدثها تلك الأشياء عليهم بوصفهم مشاهدين (٥). وسوف أحدد ملاحظاتى فى نطاق التفكير فى الخبراء الفنيين، ولكن حتى مع هذا تثور مشكلات عديدة.

والذين يبررون الخبرة الفنية لا يمكنهم المساعدة وإنما يكشفون عن تناقضاتها الداخلية . ففى الكتالوج الخاص بالمعرض الذى يحتفل بالحياة العملية الطويلة لفيليب بونسى Philip Pouncey فى المتاحف وفى المهنة بوصفه دارسًا لرسوم النهضة الإيطالية -The Achieve ment of Connoisseur: Philip Pouncey (1985) وصف چون چيـــــر John Gere «وضوح بونسى، ودقته ، وإيجازه وانضباطه فى التعبير، والانتباه إلى ظلال المعنى، والتمييز بين الفرض والحقيقة وما له صلة وما هو خارج عن الموضوع والتعبير عن الرضى وعن الرفض فى مصطلحات متدرجة» ويستمر فى القول «إن السيد بونسى عالم وباحث ... وبالنسبة له الدقة ليست فضيلة وإنما هى واجب». وعلى امتداد الصفحة يكشف چير عن المعيارين المزدوجين للخبرة الفنية ، مقرراً أنه «أن تضع صفة مرضية شئ ، ولكن أن تشرحها بصورة مرضية شئ آخر تمامًا » ؛ ثم يواصل كلامه ليصف استخدام بونسى للإشارة ردًا على هذه المشكلة : «ومما لا يُنسى، حتى بعد ثلاثين سنة، طريقته فى توضيح صواب اللوحة رقم١٩ فى العرض الحالى بأن يرمى بنفسه فى وضع سان سباستيان فى الرسم» . وثمة عجز عن توضيح أسباب الخبرة الفنية وإشاراتها نتج عن التنافر النهائى بين المرئى واللغوى يوجب

علينا أن نتناول المشكلة بقدر من التعاطف . بيد أنه بالنسبة لكثير من مؤرخى الفن فإن حقيقة أن فن التمثيل الصامت - وبدرجة أخطر- التعليقات المختصرة على أطر الرسومات يجب أن تكون طريقة الخبير الفنى الرئيسية فى التعبير (والتى وصفها جير بأنها «الأثر الباقى الملموس فى أهم عمل كتبه بونس فى حياته) قائمة على المراوغة وتجنب المناقشة العقلية والتوسل بالسمعة الشخصية . ويجد كثيرون صعوبة فى قبول التأكيد الخالص [من جانب الخبراء] باعتباره بحثًا علميًا . ونتيجة لهذا فإن عدداً من مؤرخى الفن والمنظرين الذين ارتقوا مواقع مؤسسية بارزة فى الجامعات يقللون من شأن الخبرة الفنية صراحة على اعتبار أنها نشاط غير جدير بالثقة حقًا ، ويساند سوق الفن ببساطة ويعمل على تجنب المسائل الكبرى ويركز فقط على التفاصيل الدقيقة . وفى المقابل، فإن الكثيرين من خبراء الفن (المثمنين)، الذين يتمركزون الآن فى متاحف الفن وفى تجارته، لايلقون بالاً إلى مؤرخى الفن الذين يركزون أفكارهم وتأملاتهم على مسائل غير الإبداع . أى أن هناك استقطاباً إيديولوجياً .

والتثمين يستحق دراسة أدق بدلاً من استبعاده ، ويجب أن نبدأ بالاعتراف بالصعوبات الكامنة فى عرض مناقشة تعتمد فقط على التمايزات الدقيقة والمرئية فحسب. ويقدم جير ، فى المقدمة التى أخذنا عنها فى السطور السابقة ، تعريفًا ممتازًا للمفهوم التقليدى عن الخبرة الفنية فى التثمين . وهو تعريف يستحق أن نقتبسه كاملاً (إننى أضع أرقامًا لمعايير جير لتسهيل الإشارة إليها لاحقًا) .

«الخبرة الفنية فى التثمين ، بالمعنى التقنى لتعريف المبدعين للأعمال الفنية، ليست علمًا بالضبط ، بمعنى أنها نظام عقلانى للاستدلال من معلومات يمكن التحقق منها ؛ كما أنها ليست فنًا بالضبط . إنها تقف فى مكان ما بين الاثنين ، وتتطلب مزيجًا خاصا من الخصال العقلية ، بعضها أكثر علمية منه فنية والبعض الآخر أكثر فنية منه علمية : ١- ذاكرة مرئية تحفظ المكونات والتفاصيل فى التكوين، ٢- معرفة واسعة بالمدرسة أو الفترة محل السؤال ، ٣- وعى بكل الإجابات الممكنة، ٤- إحساس بالنوعية الفنية ، ٥- قدرة على تقييم الدليل ، ٦- قوة على تقمص كل عملية إبداعية لكل فنان على حدة، ٧- مفهوم إيجابى عنه بوصفه شخصية فنية منفردة».

وإذا ما تقبل المرء فكرة أن الخبرة الفنية فى التثمين نشاط ضرورى (وهو ما أقبله على الرغم من أننى أقبله باعتباره وسيلة لغايات متنوعة ، وليس باعتباره غاية فى حد ذاتها) فإن

المعايير رقم ١ ورقم ٢ ورقم ٥ تبدو لا جدال عليها. وعلى أية حال فإن المعيار رقم ٣ استحالة عقلية على النحو الذى تم التعبير عنه ، وآمل ألاّ أكون مسيئًا لجير باقتراح أن معرفة الإمكانيات المحتملة التى أفهم أنه يرغب فى توصيلها مستوعبة بالفعل بقدر الإمكان فى المعيارين الأولين اللذين وضعهما . وربما يرد على الظن أن المعيار رقم ٤ يبدو وكأنه يستجدى أسئلة حيوية متنوعة ، ومع هذا يمكن قبوله فى الظروف الحالية. وتكمن المشكلات الحقيقية فى المعيار رقم ٦ والمعيار رقم ٧ ، لأن المعيار الأخير بصفة خاصة أساسى للخبرة الفنية فى التثمين بحسب مفهومها العام. إذ إن مفهوم أن كل فنان فردى يعلن عن نفسه حتمًا بطريقة فريدة بواسطة خواص أسلوبية غير واعية، يمكن للخبير الفنى المثمن أن يتعرف عليها، ويشكل الأسس الحقة التى تقوم عليها الخبرة الفنية فى التثمين . ويعترف جير بأن «الخبرة الفنية لتثمين الرسوم الإيطالية تكاد تكون قائمة تمامًا على الدليل الأسلوبى الداخلى» ؛ ومن ثم فإن تنقية جوانب عدم الاتساق وفهمها ليست متاحة سوى فى نطاق المناقشات التى تتم فى النشرات الدورية بين المشاركين . إنه فى جوهره نظام مغلق يؤكد نفسه ومن ثم فإنه لايمكن أن يظهر شىء غير الخيال . (وأنا لا أنكر على أية حال، أن الخيال يمكن أن يعبر عن حقيقة ما) . وعلاوة على ذلك فإن الجدل الكامن من وراء المعيار ٦ والمعيار ٧ هو نفسه جدل غير كاشف أو قابل للكشف. ذلك أن القيم الأسلوبية المتغيرة التى يعمل الفنان الفرد داخل إطارها يمكن أن تكون أكبر كثيرا مما قد تسمح به قوة نظام خبرة فنية قائمة على أساس التفرقة الحاذقة بين الدقائق التى لايمكن شرحها . ويمكن عمل مجموعات متنوعة للأعمال الفنية على أساس التشابهات والاختلافات التى تمت ملاحظتها ، بيد أن هذا بحد ذاته لايوفر السبب الضرورى أو الكافى لأن ننسب تلك السمات التى تظهر خصائص متشابهة للفنان نفسه . وفعل هذا يعنى الاشتراك فى نظام اعتباطى غير معترف به لا يتصل بالواقع الفعلى بالضرورة.

وربما يكون نموذج الفردية الذى يقابل مثل هذه الإجراءات مناسبًا فى ظروف تاريخية معينة : مثل إيطاليا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . ومع هذا ، فإن معرفتنا المتزايدة بمناهج العمل الجماعية أساسًا فى ورش الفنانين فى أوقات مختلفة وفى ثقافات مختلفة ، مهما كانت مُغالية فى احترام التراتبية ، يجب أن تزيد الحذر فى نسبة أى شىء محدد تم عمله فى مثل هذه الظروف لفنان كبير يمكن التعرف عليه . فعلى سبيل المثال، فإن منشورات چينيڤر مونتاجو عن ورش النحاتين فى روما القرن السابع عشر وهى:

Roman Baroque Sculpture : The Industry of Art (1989) and ' Gold, Silver and Bronze : Metal Sculpture of the Roman Barouque (1996) .

قد حفزت الآخرين على تناول مسألة الإبداع الفردى من حيث علاقته بالإنجاز الجماعى للمشروعات الفنية كبيرة المقياس بحذر شديد(٦) . إذ ينبغى على ممارسيه أن يعترفوا ليس فقط بخاصية نظام الخبرة الفنية فى التثمين المستخدم بشكل شائع ، وإنما أيضا باحتمال قابليته للتطبيق الفعال . وبدلاً من تطبيقه ، بغض النظر عن مناهج عمل الفنانين ، يجب على الباحثين تعديل النموذج وفقا للظروف التاريخية الخاصة . وعلى سبيل المثال فإن الخبرة الفنية فى تثمين أعمال برنينى Bernini قد تنطوى على معايير مختلفة تمامًا عن الخبرة الفنية الخاصة بتثمين أعمال مايكل أنجلو .

وعلى مرّ العقدين الأخيرين اتخذ عدد كبير من الخبراء المثمنين الفنيين اتجاها جديداً. وبينما التزموا الصمت حيال أسطورة «العين» الصافية الحاذقة التى تؤدى وظيفتها بطريقة يُقال صراحة إنها شئ يقرب من الحدس ، فإن الخبراء الجدد يضعون ثقتهم فى الفحص العلمى والتقنى . وقد صار هذا ممكنًا بفعل التطورات فى ممارسة الحوار وفى تطبيق الأساليب العلمية فى تحليل مكونات الأعمال الفنية. ويرجع تطبيق أساليب التحليل المأخوذة من مجالات أخرى على دراسة الأعمال الفنية لزيادة المعلومات التى فى متناول الخبير الفنى المثمن إلى عدة عقود مضت – استخدام أشعة إكس X- radiography على الرسوم كان رائده آلان بوروج Alan Burroughs فى متحف فوج Fogg منذ سنة ١٩٢٨م فصاعداً – ومع هذا فإنه لم يحدث سوى من وقت قريب أن تطورت مثل هذه الممارسة النقدية لدرجة أن الممارسين لها الآن يتحدثون عن تاريخ فن تقنى باعتباره فرعًا متمايزًا من فروع دراسة التاريخ . وعلى سبيل المثال، فإن الأشعة تحت الحمراء حساسة تجاه مجال خاص من المنشور اللونى المرئى وبواسطتها يمكن رؤية الرسومات التفصيلية المخبؤة تحت الكثير من لوحات الرسومات الهولندية الباكرة. كما أن دلائل التقدم الحديثة فى صورة الكمبيوتر ودمجها قد أعان الباحثين على إنتاج صور مفردة للرسوم التحتية كاملة ، وهو ما يشكل فى الواقع عملاً فنيا جديداً بالنسبة للخبرة الفنية ، وبالنسبة لأشكال الدراسة الأخرى. وهذا، بدوره قد غيَّر الطريقة التى يفكر بها مؤرخو الفن فى المسئولية الفردية فى الرسوم الهولندية فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ؛ فالورش و«المجموعات» قد غطت على الفرد إلى حد كبير . والنص المؤسس من جوانب عديدة هو الذى يحمل عنوان :

Scientific Examination of Early Netherlandish Painting.

والذى حرره فيلدت – كوك Fildt Kok سنة ١٩٧٦م(٧)، على حين أن السلسلة المهمة "le dessin sous - Jacent dans la Peinture" نشرتها جامعة لوڤان الكاثوليكية منذ سنة ١٩٧٩م . وقد أضافت المتاحف كثيراً إلى هذه المعرفة ، التى كانت تضم باطراد مادة تقنية فى مناقشات واسعة النطاق للأشياء الفنية. والكتاب المكرس للوحة فنية واحدة فى متحف الفنون الجميلة فى بوسطون :

Rogier Van der Weyden , " St. Luke Drawing the Virgin: Selected Essays in Context (1997) .

يقدم لنا مثالاً واحداً مهماً فقط.

ومن بين مشروعات الخبرة الفنية فى التثمين كان مشروع أبحاث رمبراندت Rembrandt Research Project هو الأبرز على مدى فترة طويلة . فعلى مدى خمس وعشرين سنة قامت مجموعة صغيرة ، لم تطرأ عليها سوى تغييرات طفيفة ، من الباحثين الهولنديين ، ويعملون بصورة تعاونية ، بفحص الرسوم المنسوبة إلى رمبراندت ڤان ريچن ، وجمعوا كميات كبيرة من المعلومات التقنية. ويهدف المشروع إلى نشر كتالوج تتابعى من خمسة مجلدات تضم الأعمال المقبولة (مع الأخذ فى الاعتبار بعض الأعمال المثيرة للشك والتى قبلت قبل ذلك ورفضها الفريق) وقد أخذ مساره فى النشر منذ سنة ١٩٨٢م(٨). وقد تعرض المشروع للتهديد بسبب تقاعد أربعة من أعضائه الخمسة فى سنة ١٩٩٣م، وأعيد تكوين الفريق على أسس مختلفة ، سواء من حيث التنظيم أو من حيث مفاهيمه الحاكمة. كذلك فإن التساؤلات من داخل الفريق – ناهيك عن التساؤلات من خارجه – عن بعض قراراته بشأن الخبرة الفنية فى التثمين قللت من حجيته (٩). والأخطر من هذا ، أن الغرض الأساسى للمشروع برمته يبدو مثيراً للتساؤل بشكل مطرد ؛ وهو ما يعنى افتراض أنه من المرغوب ومن الممكن أيضا تجديد مجموعة من الأعمال التى أنتجها رامبراندت نفسه تتمايز عن أعمال تلاميذه، ومساعديه، وأتباعه ، والمعاصرين الذين قلدوه . ومن المثير أنه يبدو أن كلا من الرغبة والإمكانية تبدوان إلى حد كبير أقل ضماناً الآن مما كانت تبدو للمبادرين بالمشروع فى سنة ١٩٦٨م، وكان ذلك راجعًا إلى حد كبير وبلا قصد إلى عمل الفريق نفسه. وقد صار السؤال الآن. ما إذا كان الـ «رمبراندت» نتاج ورشة تتكون من عضوية متفاوتة كان رامبراندت نفسه العضو الدائم الوحيد فيها ، فهل من المناسب حتى أن نحاول تعريف رامبراندت وحده ، حتى لو كان هذا ممكنا ،

مع الأخذ فى الاعتبار جوانب القصور فى أساليب الخبرة الفنية وتقنياتها والتى لايمكن فى هذا المثال سوى أن تعتمد على دليل فني وأسلوبى داخلى؟ وعلى أية حال، فإننا مترددون ثقافيًا فى أن نتخلى عن أو على الأقل نؤهل مفهوم الفنان بوصفه مبدعًا فرديًا فى جوهره يمكن تمييز نشاطه الفريد (العملية الإبداعية) وشخصيته الفريدة (شخصيته الفنية) بواسطة المراقب المتقمص (قارن معايير چير رقم ٦ ورقم ٧ فى الصفحات السابقة) . ومعرض الصور التى رسمها رامبراندت لنفسه Rembrandt by Himself (National Gallery, London, and Mauritshuis, The Hague 1999) والكتالوج المصاحب له، والذى إنجازه بمشاركة مشروع رامبراندت البحثي، دليل على هذا التردد نفسه .

ما الذى يسهم به فعلاً الفحص التقنى فى عملية التثمين المنهجي؟ إن الكثير من الفحص التقنى فى الواقع عبارة عن متابعة ذات تأثير شديد للآثار الفريدة المزعومة للفنان : أى لمسته وعلاماته الشخصية الموجزة ، وعلى الرغم من أنه يمكن تحديد مكان عمل فنى ما، مثل التاريخ التقريبى للإنتاج ومكانه المحتمل ، فإن النتائج عادة ما تصادق على البيانات السلبية أكثر من التصريحات الإيجابية (فقد أوضح التحليل أنه ليست هناك مواد مستخدمة تتنافر زمنيا مع صورة من القرن السابع عشر) ويمكن للتحليل المقارن أن يؤسس نماذج لممارسة ورش العمل. فعلى سبيل المثال ، فإن قطعة خيش ليست لها أرضية مزدوجة واضحة يمكن تمييزها فى مقطع عرضى لطبقة الرسم من أجل الفحص الميكروسكوبى، يُستبعد أن تكون قد جُهزت فى ورشة رامبراندت. ويمكن استخدام كافة التقنيات المتاحة، من التحليل الضوئى للإشعاع الذاتى حتى أشعة X ، وهى تستخدم بالفعل، فى وضع المتغيرات التى يمكن فى نطاقها مناقشة الأعمال الفنية بالمقارنة والاستبعاد المشروع . ومع هذا فإن الهدف الرئيسى من التفسير لمثل هذه النتائج على أيدى مؤرخى الفن وأمناء المتاحف يبقى بشكل يكاد يكون دائمًا تأسيس مجمل أعمال فنان فرد ، أو إسقاطها من مجمل أعمال هذا الفنان، حتى ولو كان هناك تطويع متزايد للمراوغة (١٠). إن عملية اتخاذ قرارات التثمين تبقى ثابتة فى الأساس عندما تكون هناك وفرة متاحة فى المادة التقنية، ويتمثل الفارق الوحيد فى أن مزيدًا من المعلومات صارت فى متناول الخبير الفنى.بيد أن أهمية هذا نادرًا ما تكفى لمتطلبات الخبير، بيد أن أحد الآثار المهمة تمثل فى تشجيع بعض الذين يقومون بالصيانة لتقديم الآراء فى الخبرة الفنية فى التثمين ، حتى فى الأوقات التى يناقضون فيها أمناء المتاحف علنًا . وهناك

حادثة مشهورة فى هذا الصدد ، فعندما أقام متحف المتروبوليتان للفنون فى نيويورك معرض Rembrandt/ Not Rembrandt in the Metropolitan Museum of Art: Aspects of Connoisseurship.

فى سنة ١٩٩٥م، تم نشر كتالوج المعرض فى مجلدين بهما مجموعتان من موضوعات الكتالوج، وذلك للتوفيق بين الآراء المتضاربة لكل من أمين المتحف وأحد القائمين على حفظ الأعمال الفنية وصيانتها .

ويستمر التحليل التقنى فى التصاعد بدون أى اعتبار للمضامين المعرفية . إذ إن بعض الاقتراحات التى قدمها مشروع أبحاث رمبراندت قد حام حولها الشك نتيجة الفحوص التقنية والعلمية التى أجريت فى وقت لاحق ، مثل تلك الفحوص التى مقتنيات National Gallery من أعمال رمبراندت ، والتى نشرت فى كتالوج معرض سنة ١٩٨٨-١٩٨٩م، تحت عنوان: Art in the Making : Rembrandt (١١). وكان مغزاه أن المعلومات التقنية التفصيلية الكثيرة التى استخدمها مشروع أبحاث رمبراندت غير كافية حقًا . وإذا كان ذلك كذلك، فأين يتوقف المرء وعند أية نقطة يمكن اتخاذ القرارات ؟! إن التصوير الإشعاعى الذاتى الذى ينشط النيوترون (الذى يكشف عن توزيع مكونات رسم واحد فى سلسلة من صور الأشعة) لم يكن تقنية متاحة لفريق الجاليرى الوطنى National Gallery، بيد أن عدداً من الرسوم المنسوبة إلى رمبراندت تكفى لتقديم مادة مقارنة تم تحليلها بهذه الطريقة . فهل سيؤدى فحص مماثل لرسوم الجاليرى الوطنى إلى قلب فروض نسبة الأعمال الفنية إلى فنانين بعينهم؟ أو أن جوانب القصور فى الخبرة الفنية- مهما كانت وفرة المعلومات التقنية التى فى متناول الخبير الفنى- ينبغى أن تخضع للفحص وتتم متابعة مشروع التفكير فى نسبة الأعمال الفنية كله على أسس جديدة فيما بعد، وهى أسس يتم فيها التعرف على الفروض كما هى ولاتقدم رأيًا يقرر أنها معلومات أكيدة (١٢).

إن مشكلة المكانة الإبستمولوجية للمعرفة المستقاة من الخبرة الفنية تصبح أكثر حدة عندما تستخدم هذه المعلومات غير الأكيدة فى بناء مناقشات معقدة فى تاريخ الفن مرتبطة بالمعلومات التى تم استقاؤها من خلال عمليات أكثر جدارة (مثلا ، الاستدلالات المستمدة من المصادر الإثباتية التبادلية) . وإذا كان البرهان فى خبرة التثمين قد جاء معادلاً فى وزنه لوزن البرهان الذى تأسس على نحو أكثر تأكيداً فى مثل هذه البنى، فإن هذه البنى لابد وأن تكون

ضعيفة . ومن الواجب أن نأخذ فى اعتبارنا طبيعة البرهان وحدها بصرف النظر عن الظروف الفردية . وبهذه الحسبة لايكون دليل الخبرة الفنية مقنعًا بحد ذاته شأنه شأن بعض أنماط البراهين الأخرى. والاعتراف بهذا لن يؤدى إلى رفض برهان الخبرة الفنية أو استبعاده ؛ وإنما سيؤدى إلى الاستخدام الصحيح الحذر له .

إن الأسئلة المتعلقة بالوزن النسبى للأنواع المختلفة من البراهين لا تثار بالطريقة نفسها عند النظر فى أشكال المناقشة التى تكون الخبرة الفنية وحدها هى موضوع المناقشة . بيد أن الاعتراف بأوجه القصور المعرفية فى الخبرة الفنية لن تخدم الاهتمامات التى أسبغت على عالم الفن . وليس هناك احتمال لتغير مركز الاهتمام لأنه من المرغوب تمامًا فى داخل هذا العالم، خاصة تلك الأجزاء فيه التى تهتم مباشرة بالسوق، ألا تكون مكانة كل عمل فنى مفرد محل شك . ونتيجة لهذا، فإنه يتم تعويض نقص المعرفة على نحو منتظم بتقديم الرأى الذى يستند إلى الشهرة والحجية فى رداء المعرفة المضمونة. والاعتراف بالجهل غالبا ما ينظر إليه باعتباره إخفاقًا يستوجب اللوم، وهو موقف يلون الممارسة فى هذا المجال بلونه . وهناك الكثير جدًا على المحك بالنسبة للمشاركين إذا ما اعترفوا بهذه الحال: المكانة ، والهيبة (سواء على المستوى الفردى أو المؤسسى)، وفوق هذا وذاك ، المال .

ومن وجهة نظر أولئك الذين يهتمون بالعلاقة بين الحاضر والماضى، يجب أن نلاحظ أن تعريف الممارسة فى الماضى بواسطة الخبرة الفنية وحدها يُعتبر خيالاً، مهما كان مقنعًا عندما تتم مناقشته بشكل جيد . وينبغى أيضا أن نلاحظ أنه يجب التعامل مع تلك المناقشات فى تاريخ الفن التى تضع وزنًا أكثر من اللازم على الخبرة الفنية بحذر، لأنه من المحتمل أن تحتوى على عناصر ضعيفة ، إن لم تكن عيوبًا خالصة. وإحدى النتائج لقبول هذه الحجة ربما تكون أن مسألة الإبداع الفردى سوف تصبح أقل ضغطا عن ذى قبل، حتى عندما يتم تعزيز الاهتمام التفصيلى بالخصائص المادية للعمل الفنى حقا . ومع هذا، فإننا إذا ما قبلنا أن التغييرات فى ممارسة الفنان تنتج جزئيا على الأقل من الاختيارات العمدية التى يقوم بها الفنانون الذين يمارسون العمل الفردى، وبالتالى يتزايد تأثير هذه الاختيارات بواسطة النفوذ (الذى يمكن أن يستوعب التقليد والمشابهة) ومسألة الإبداع الفردى لايمكن استبدالها بشكل كامل على الإطلاق .

القاعدة

إن التفرقة التى تحمل مبالغة بلاغية بين المعرفة والرأى فى القسم السابق، بطبيعة الحال، أبعد ما تكون عن الكفاية بالنسبة لتحليل الإجراء النقدى والتاريخى عندما يكون الأمر متعلقاً بالمادة المرئية . وعملية فض التشابك بين المعرفة والرأى ليست مسألة هينة، حسبما جادل فرانك كيرمود فى Forms of Attention (1985) عند فحص تكوين القواعد واستمرارها فى كل من الأدب والفنون المرئية . فقد أوضح أن الرأى الذى يقوم على معلومات غير صحيحة وعلى الأسلوب ، بدلاً من الحكم النقدى الراقى، يمكن أن يخلق ظروفًا تتيح أن «يعاد اكتشاف» فنان ما فى إطارها ويمكن لعمله الذى حظى بالقبول على أنه ملتزم بقانون المادة أن يخضع لعمليات إعادة فحص علمية ونقدية متكررة. ويصف كيرمود حالة ساندرو بوتيشيللى Sandro Botticelli ، الذى كانت رسومه محل تجاهل كبير فيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر . وقد جادل بشكل مقنع بأنه لا اهتمام هربرت هورن، الذى فعل الكثير لتعريف مجموع رسومات بوتيشيلى من خلال البحث الأرشيفى والخبرة الفنية[١٣] ولا اهتمام أبى واربورج الذى فحص جوانب من أعمال بوتيشيلى فى سياق نظرياته المنهجية عن التاريخ الثقافى[١٤]، كان يمكن وجودهما ما لم يكن هناك تحول ثقافى شعبى قد طوع الذوق العام تجاه الأعمال التى نسبت إلى بوتيشيللى . وكان كل من هورن وواربورج يسبحان مع اتجاه التيار. وكانت النتيجة أن أعمال بوتيشيللى ظهرت (بصفة عامة) متمايزة بشكل كاف عن أعمال معاصريه ، وتلاميذه ومقلديه (وهو إنجاز لاينبغى التقليل من قيمته) ، وتم تحديد «شخصية فنية»[١٥] .

هذه الرسومات هى التى حددت القطع الرئيسية من أعمال بوتيشيللى ولاسيما لوحة Birth of Venus ، ولوحة الربيع Primavera (وهما معروضتان فى المعرض المعروف باسم Galleri degli uffiza فى فلورنسا، وانضمت إلى المجموعية الطوطمية من الصور التى أعيد إنتاجها فى أشكال عديدة ، والمألوفة لدى الجمهور العريض . ولقيت لوحة الربيع التبجيل بوصفها «الكنز الأعظم لدى جالليرى أو فيزى»، إذْ تظهر الشخوص النسائية المركزية فيها على غلاف كتيب للزوار منشور فى عدة لغات وقد استغرقت صيانة هذا الرسم فترة طويلة وتمت الصيانة الشاملة سنة ١٩٨٢م . ثم أعيد تقديم اللوحة للجمهور باعتبارها ذروة المعرض الذى جاء باسم:

Metode e scienza . Operativa e ricerca nel restauro (Palazzo Vechio, Florence. 1982-3) .

عندما عرضت وحدها فى غرفة معتمة ، وأضيئت بصورة درامية وكأنها شاشة سينما ، وهو مشهد مهيب، ومقصود. وكان التقديم المكتوب فى الكتالوج المصاحب لهذا المعرض طويلاً ، بيد أنه كان مكرسا على هذا النحو لتقديم الوصف التقنى لصورة واحدة . وقد رأينا المعلومات التقنية فى خدمة الخبرة الفنية للتثمين . وعلى أية حال، يزيح تقديم المكتشفات الفنية إلى الجمهور الغموض عن العمل الفنى عندما يكشف عن وسيلة بناء العمل مادياً، بيد أنه قد يزيد من غموضه ويعزز مكانته إذا ما ظهر أنه يؤدى إلى المزيد من استعصاء الإجراءات التى اتبعها فنان فرد على الوصف، وهو يستوجب معاملة خاصة للعمل الفنى . وبينما كان المتوقع من زوار متحف أوفيزى فى القرن الثامن عشر أن تنال لوحة Venus de Medici إعجابهم بوصفها «الكنز الأعظم » فى المتحف، تعتبر الآن غرفة بوتيشيللى فى قاعة التريبونا المزار النهائى للزوار ، وتحتل لوحة الربيع المكان الرئيسى فيها . وهذا ، فى جانب منه على الأقل، تطور محسوب بدقة يلعب فيه طاقم الجاليرى دوراً رائداً (١٦).

ومن ثم فإننا يمكن أن نرى، أن عدة موضوعات متقاطعة معقدة قد أثيرت عندما تم وضع طبيعة القاعدة فى الاعتبار . واثنان من هذه الموضوعات مشتبكان بصورة واضحة مع الدين الذى يدين به تاريخ الفن للنص الذى وضع أساسه، وهو كتاب جيورجيو ڤاسارى Lives of the Artists (١٧). وهما ، أولا - تصادفا مع الدراسات الأدبية من حيث تناولهما للأعمال الفنية في حياة فنان فرد باعتبارها الوحدة الأساسية للتأمل. وكما رأينا ، فإن هذه المقاربة تستند إلى الافتراضات الكامنة في الخبرة التثمينية الفنية. ثانيا - أن القاعدة المبنية على الإبداع متواصلة ، من بين وسائل أخرى، بالكتاب وفق أسلوب ڤاسارى . كما أن القاعدة خاضعة أيضاً للتعديل : وقد أرسى ڤاسارى نفسه السابقة فى الطبعة الثانية لكتابه (١٨). وتم إضافة الفنانين كلما تقدموا فى مسارهم العملى، مع الانحياز الوطنى أو بدونه (بواسطة ڤان ماندر Van Mander ، وبيللورى Bellori، ودى بيليس de Piles). ولايختلف الاهتمام حديثًا، بفضل النزعة النسوية ، بهذا العدد القليل من الرسامات الأوربيات المحدثات اللاتى حظين بمسار عملى ناجح عن هذا النوع من الاهتمام (١٩). ذلك أن الفنانين أو «المدارس» التى تجمعوا فيها، يتم إسقاطهم من حين لآخر (مثل جويدو رينى Guido Reni والبولونى من

القرن السابع عشر) أو اكتشافهم (مثل بوتشيلللى ، أو فى وقت أحدث ، كارافاجيو Car-avaggio). هذه التغيرات تؤثر فى التحولات الجارية فى عالم الفن الأكبر الذى يضم سوق الفن ومتاحف الفن وتتأثر بها . وإحدى الطرق لمعالجة هذه التحولات وقياس التفاوت فى وقت واحد بين المواقف البحثية من القاعدة والحالة العامة الأوسع للأمور (حسبما يتم التعبير عنها أساسًا بجمع الأعمال الفنية على المستوى الخاص وعلى المستوى المؤسسى) تتمثل فى مجال البحث العلمى الذى نمى بشكل كبير فى السنوات الأخيرة: تاريخ التذوق .

والباحث البارز فى مجال عرض تاريخ التذوق هو فرنسيس هاسكيل . وكتاب هاسكيل الذى يحمل عنوان :

Rediscoveries in Art : Some Aspects of Taste, Fashion , and Collecting in England and Farnce (1976) .

(ومع نيكولاس بينى Nicholas Penny) فى كتاب

Taste and the Antique : The Lure of Classical Sculpture. 1500-1900 (1981) .

قد ساعدا فى توليد الوعى بأن قواعد الامتياز الفنى المقبول هى قواعد طارئة تاريخيًا، ويتم حسمها بتنويعة من العوامل ، وبعضها ليست له بالضرورة علاقة بالمسائل الفنية. ويتعامل هاسكيل مع حياة الأشياء الفنية بحسب الظروف التى أحاطت بإبداعها واستهلالها الأولى (الاهتمام بتاريخ الفن الاستردادى، وهو ما سنناقشه فيما بعد) وسبق تأثيراتها النشطة الممكنة فى الحاضر (طاقم النقد وإحدى مسئوليات متاحف الفن) . إلا أنه بعيدا عن تعزيز هذا العمل لموقف تاريخى إزاء الظروف التى يؤدى فيها الفن وظيفته، فإنه ساعد على إعادة النظر فى تقديم فنون الماضى فى المتاحف . ويمكن أن نرى هذا التطور الذى لحق بالمؤسسات العامة باعتبارها مقاربة غير حداثية مضمرة وأحيانا صريحة تجاه وضع القواعد. فعلى سبيل المثال، سيكون من الصعب أن نتصور إحياء الاهتمام الجدى لتاريخ الفن والمتاحف بالفن الأكاديمى فى فرنسا القرن التاسع عشر بدون مؤلفات فرنسيس هاسكيل وألبرت بويم وغيرهما [٢٠]، وهو ما بلغ مداه فى توسيع مجال القرن التاسع عشر غير التحديثى في متحف Musée d'Orsay فى باريس. وعلى الرغم من المعارض الكبرى (مثل المعرض المكرس لسيزان Cézanne فى سنة ١٩٩٥-١٩٩٦م فى باريس ولندن وفيلادلفيا)[٢١] فإن الغائية التى

غذّت المشروع الحداثي (مضفيا ميزة نقدية بأثر رجعي على كوربيه Courbet ، ومانيت Manet الانطباعيين وسيزان) لم تعد راسخة . وبالنسبة لجيل جديد من زوار المتاحف لأماكن مثل متحف أورساي ومعارض الرسومات والتماثيل الأوربية في القرن التاسع عشر في متحف المتروبوليتان للفن في نيويورك، والتي أعيد تجهيزها بصورة شاملة في سنة ١٩٩٣م، فإن أسماء كوتيور Cauture، وجيرون Gérôme وبورجيرو Baurguereau قد يحوز مكانة قانونية [٢٢].

وينطوي نمو تاريخ التذوق على موقف جديد تجاه الوضعية القانونية. إذْ إنها توجد بشكل متناقض بين الانتقائية الجديدة التي تتحدى ضمنا قانون تاريخ الفن الغائي مع تحجر المجموعات الفردية ، مثل مجموعة والاس في لندن ومجموعة متحف إيزابيلا ستيوارت جاردنر في بوسطون، لكي تنتج معياراً بديلاً للوضعية القانونية، يتمثل في المجموعة نفسها. وقد امتزجت مقاربات أخرى لكي تعدل القاعدة في السنوات الأخيرة، وتم العمل بطرق مختلفة جدا في الغالب في الجامعات وفي متاحف الفن على التوالي. إن توسيع سمة المادة المرئية التي يوليها الباحثون اهتمامًا جديًا في السياق العام لتاريخ الفن، بدلاً من الدراسة التخصصية الفاحصة ، تتضمن ذلك المجال الهائل لفنون الزخرفة داخل متاحف الفن ، وما يطلق عليه غالبًا مصطلح «الثقافة المادية» في السياقات الجامعية. ويجري هذا التوسع على محورين. أحدهما ينطوي على تشويه مُضمر لقابلية التطبيق الذاتية على الفن في كل العصور للتمييز الذي عرفه عصر النهضة بين الفنون الجميلة والفنون التطبيقية. وينطوي المحور الآخر على انهيار التمييز الاجتماعي والنقدي بين الفن «الراقي» الذي ينتج من أجل النخبة الاجتماعية، والفن «الهابط» الذي ينتج بواسطة – أو من أجل- الجماهير غير النخبوية . وإذ كان ينظر إلى حرفة صياغة الذهب، مثلاً، على أنها تعتمد على الابتكار والتجريد بدرجة لاتقل عن النحت ، تبدو التفرقة بين الفن الآلي والفن الحر ملتبسة على أحسن الأحوال . وما إن تطرح فردية الفنان الفائقة للتساؤل من منطلق العلاقات بين المتدربين ، والتلاميذ، والمساعدين في الورش، والأساتذة المتعاونين اللازمين لتحقيق مشروعات النحت أو المشروعات الزخرفية المرسومة، فإن الفرق بين ورشة عمل الفنان التشكيلي كاملة الطاقم وورشة السجاد أو الخزف تتلاشى إلى حد كبير . وأخيرا، ما أن يستقر انتباه رعاة الفن أو جامعي الأعمال الفنية على أرضية تاريخية فإن اهتمامهم سوف يكون موجهًا بدرجة أكبر إلى تركيبة بيوتهم أو جواهرهم أكثر من اهتمامهم برسوماتهم ، وهي تراتبية في القيم قائمة على معايير جمالية طارئة يمكن أن

تفسح الطريق بسهولة لمجموعة جديدة من القيم النسبية المدركة التى تنطبق عليها معايير الاسترداد التاريخى (٢٣). إن الدراسة داخل متاحف الفن، بل وحتى التجارة فى جوانب من الفنون الزخرفية تلعب ضمنا على تلاشى الفروق بهذا الشكل . ويمكن أن نرى تقدمها بشكل كاف فى ثلاثة كتالوجات حديثة عن الفضة:

Ellenor Alcorn, English Silver in the Museum of Fine Arts, Boston .1, Silver before 1697 (1993); Christopher Hartop, The Huguenot Legacy : English Silver 1680-176 from the Alan and Simone Hartman Collection (1996) , and Beth Carver Wees , English . Irish and Scottish Silver at the Sterling and Francine Clark Art Institute (1997) .

وكل من هذه الكتالوجات نشر إبداعى فى مجاله . إذ إن المؤلفين لا يضعون الأشياء بالتفصيل، ولكن دراساتهم تقوم على معلومات مستمدة من جهاز تاريخى كامل، يقوم على أساس البحث الأرشيفى كما ينبنى على المواد المنشورة، التى تضع المسائل الاجتماعية والاقتصادية فى الحسبان بشكل كامل . إن الحواجز بين الاهتمام بالأشياء والاهتمام بالتاريخ الاقتصادى الآن واهية حقا داخل متاحف الفن، حسبما وضعت أعمال مشابهة لتلك بالضبط ، كما يوضح كتاب كارولين سارچنتسون بعنوان :

Merchants and Luxury Markets : The " Marchands Merciers "of Eighteenth - Century Paris (1996) .

وهى تصل باتجاه العمل الفنى بواسطة المؤرخين فى الجامعات إلى تواريخ السلع التى تكون فيها الفروق الجمالية ثانوية بالنسبة للاهتمامات الاجتماعية والاقتصادية . والنتيجة مزيد من التوسع والتعقيد فى الاهتمام بمدى يتسع باستمرار من المادة المرئية.

إن الاهتمام بالأعمال الفنية فى الثقافة الشعبية، حيث كانت كثير من المبادرات فى أقسام الدراسات الثقافية والإعلامية أكثر مما حدث بين مؤرخى الفن، قد تزايد على نحو مماثل. وقد حدث هذا بطريقة مثالية فى دراسة المادة المرئية الأمريكية ، وتحت لافتة «الثقافة المادية» إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال، قامت كارال آن مارلنج Karal Ann Marling، فى سياق تطوير اهتمامها بالبرامج الفيدرالية تحت إدارة فرانكلين روزفلت، باستكشاف تجليات الثقافة الشعبية فى كتابها الذى يحمل عنوان :

Graceland : Going Home With Elvis (1996) Designing Disney 's Theme park : The Architecture of Reassurance (1997) .

ويتساوى مع هذا في الأهمية من حيث توسيع نطاق القاعدة في ضوء مصطلحات الثقافة المادية الأمريكية ، تلك الانتفاضة المتعلقة بالفخر العرقي والخصوصية، لاسيما من حيث إثارة الاهتمام العام بالثقافة المادية للأمريكيين الأصليين، والأمريكيين اللاتنيين والأفارقة . وعلى سبيل المثال ، فإن تقاليد الأمريكيين الأفارقة في نحت القصب قد جذبت اهتمام الباحثين في السياق المتحفي (٢٤)، على حين أن الأكاديميين نشروا تقارير تجميعية عن إنجازات الأمريكيين الأفارقة الفنية بشكل أكثر عمومية، مثل كتاب ريتشارد بويل: Black Art and Culture in the 2oth Century الذي نشر سنة ١٩٩٧م.

إن مثل هذا التنوع الثقافي داخل كيان واحد- الولايات المتحدة الأمريكية- يجعل منه في بعض الجوانب عالما مصغرا انتقائيا للعالم بأسره بقدر ما يخص دراسة المادة المرئية وتوسيع القاعدة. إن توسع تاريخ الفن في العالم، بحيث يلغي التراث الأوربي المركزي ويتجاوزه ، قد تقدم بدرجة كبيرة في السنوات الحديثة. ويعتمد النجاح البراجماتي إما على بحث مسألة العوامل التي تشكل الفن في سياق عالمي بطريقة غاية في الحذق ، وإما على افتراض صحته تمامًا . وغالبًا ما تبقى العلاقات بين مؤرخي الفن وعلماء الأنثروبولوجيا من ناحية وعلماء الآثار من ناحية أخرى- ناهيك عن المؤرخين- عند تقاطع المقاصد والأغراض، حتى ولو أدت المحادثات فيما بينهم إلى مد نطاق القواعد التي يضعونها للمادة المرئية . وثمة قوى أخرى تعمل أيضا لتعديل أو تقويض كل من القاعدة والمفهوم الذي تقوم عليها القاعدة. وبعض هذه متمركز على مفاهيم التفسير، والمعنى والقصد.

التفسير

من خلال القاعدة التي حددها المبدع، وحددتها المجموعة، وحددتها المعايير الاجتماعية أو الثقافية ، اتجه الآن إلى المعنى والتفسير. وهنا مرة أخرى سوف نواجه بعض الموضوعات التي باتت مألوفة الآن. وهناك محرر في مجلة Burlington Magazine يجادل بأنه «إذا سادت النزعة التاريخية، فإن العمل الفردي في الفن ينحبس في نطاق فترته الزمنية، ولايمكن أن يخرج منها لكي يقابل العين المعاصرة»(٢٥) إن التقديم المباشر للمادة المرئية يتأثر بصورة مطردة بتطبيق معايير «تاريخ التذوق» . وعلى أية حال، ففي الخطاب الأكاديمي يحتل هذا

مكانا صغيرًا ، وبدلاً من ذلك فإن خطوط المعركة تقع بشكل فضفاض بين الاسترداد التاريخى (محاولة تفسير المادة المرئية كما كانت عندما صنعت للمرة الأولى، سواء بواسطة الصانع ، أو معاصريه ، أو كليهما) والانشغال النقدى المباشر من عدة أنواع غالبًا ما لا تتوافق مع بعضها البعض . وتتضمن هذه الأنواع، :أولاً – المقاربة التى تعترف بإمكانية الوصول الحدسى المباشر إلى «الشخصية الفنية» و«العملية الإبداعية» (التى واجهناها بالفعل فى الجزء الخاص بالخبرة الفنية فى التثمين») ؛ ثانيا،-اهتمام بالتأويلات المرئية المأخوذة عن نظريات السيميائية، والتفكيكية والتحليل النفسى؛ وثالثًا – مقاربة تركز على الاستمرارية الجوهرية للفن بحيث لا يمكن للفن فى أية فترة من الماضى أن يفهم ماوراء السياق فى علاقته بالممارسة الجارية فى الفن وبالتوسع فى أى وسط مرئى .

وقد تم تسييس الصراعات التفسيرية بشكل متزايد . وكان من أعراض هذا مقالة غير متعاطفة عنوانها "The Death of British Art History"(٢٦) راجع فيها مؤرخ الفن الأكاديمى ميكائيل روزنتال Michael Rosenthal النغمات السياسية العالية للأحداث فى عالم الفن فى سياق إدانة فشل الأكاديميين المفترض فى المشاركة فى جدل واسع النطاق على المستوى الثقافى والسياسى. فقد أعاد روزنتال فحص الاستحسان الذى لقيه فى سنة ١٩٨٢م معرض أعمال رسام المناظر الطبيعية البريطانى ريتشارد ويلسون فى Tate Gallery بلندن . وقد بذلت محاولة حذرة فى المعرض نفسه بطيقة بحثية تمامًا فى الكتالوج الذى عمله ديفيد سولكين David Solkin لكى يضع المناظر الطبيعية المثالية داخل السياق الاجتماعى والثقافى لإبداعها واستهلاكها المبدئى (٢٧). وقد أدين هذا فى عدة مؤسسات فاعلة ذات نفوذ ، ومنها صحيفة لندن اليومية الديلى تلجراف ، على اعتبار أنه تخريب ماركسى. وقبل ذلك بعامين كان الباحث الأدبى چون باريل John Barrell قد قام بدراسة تاريخية فاحصة مماثلة عن رسوم القرن الثامن عشر للموضوعات الريفية فى كتاب عنوانه :

The Dark Side of the Landscape : The Rural Poor in English Painting , 1730-1840 (1980).

فقد درس باريل الأيديولوچية المتضمنة فى تصوير العمال الريفيين فى رسومات توماس جينسبورو Thomas Gainsborough وچورچ مورلاند George Moralnd وچون كونستابل John Constable ، والتى تشير إلى أنه تم إظهار حالتهم على أنها حالة طبيعية بدلاً من أن

تصور على أنها محسومة اجتماعيا . وقد عارض أسطورة كونها حنينًا للماضى يتوسل بالماضى ، مجادلاً بأنه «يجب علينا أن ننظر مرتين إلى مفهوم للطبيعة يبدو به « من الطبيعى» أن بعض الرجال يجب أن يعملوا على حين لايعمل البعض الآخر (p. 164) ، ولأن كتاب باريل نص أكاديمى، فضلاً عن أنه لايحمل معلومات جيدة عن دور التراث الفنى فى جيل التماثيل ، فإنه على خلاف معرض سولكين، لم يترك سوى القليل من التأثير على الجمهور. وقد شرح كل من نيل ماكوليم Nieil Mcwilliam وأليكس بوتس Alex Potts لماذا كان إسهام سولكين فى التاريخ الاجتماعى للفن مؤثرا ولم يلق التجاهل (٢٨). ذلك أن سولكين كسر القواعد بالتسرب إلى داخل مؤسسة «المعرض الكبير العريق الذى أقيم فى متحف وطنى كبير» . واستمر ماكوليم وبوتس فى القول : « بل إن الكنوز الثقافية الباهتة إلى حد ما، مثل الاستمتاع الإنجليزى بالمناظر الطبيعية، والذوق والرقة المفترض وجودهما فى عهد الملك چورچ، لا يمكن أن تصمد أمام التحديات التى تطرح على أرضية تبدو أنها ما تزال تحمل مصداقية غامضة».

وثمة مشاجرة مماثلة ولكنها كانت أشد صخبًا فى العلن حدثت مع معرض

The West as America : Reinterpreting Images of the Frontier 1820-1920 .

فى المتحف الوطنى للفن الأمريكى فى واشنطن العاصمة سنة ١٩٩١م. وكما حدث فى معرض ريتشارد ويلسون ، قام معرض وطنى بإعادة زيارة موضوع كانت أسطورته لا تزال ماثلة باعتبارها أحد مكونات العقيدة الاجتماعية. وكانت تتعلق «بالمصير الواضح» لقوم من أصل أوربى قدموا للاستقرار فى أراض تقع إلى الغرب وضمها إلى الولايات المتحد الأمريكية . وعلى الرغم من أن هذه الإيديولوچية كان قد تم تحديها منذ زمن طويل فى الدوائر الأكاديمية، فعندما خرجت مثل هذه التحديات من النصوص الأكاديمية إلى لافتات حائط المتحف، كان رد الفعل من جانب أولئك الذين أضيروا سريعًا مشبعًا بالشتائم والإهانات (٢٩). ويمكن أن نرى هذه التجربة باعتبارها جزءًا من «الحروب الثقافية» التى خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية فى تسعينيات القرن العشرين. وقد نشبت مرة أخرى فى المجال المرئى عندما أدى الضغط السياسى الذى مارسه الكونجرس وجماعات المحاربين القدماء إلى إلغاء معرض مؤسسة شمثيسون Smithson Institution الذى كان بمناسبة الذكرى الخمسين لإسقاط أول قنبلة ذرية على هيروشيما. وكان هناك رأى بديهى آخر– أن الهجوم كان ضرورة استراتيجية– على وشك أن يتعرض للتساؤل فى معرض وطنى .

إن المقاربة التاريخية للمادة المرئية ليست مقيدة بحدود ما تمليه الأهمية الايديولوچية ، حسبما تم تمييزها، عن صواب أو عن خطأ ، بالنسبة لمنظمى المعارض الثلاثة التى ذكرناها فى السطور السابقة وبالنسبة لنقادهم. وغالبًا ما تتخطى الأهمية وقت إنتاج العمل الفنى الإتساق اللا واعى مع الأيديولوچية الاجتماعية – السياسية للمستهلك بحيث تستوعب نماذج الإدراك التى لايحتمل أن تستفز الاهتمام ذى الدوافع السياسية الآن . إذْ إن توضيحها له تراث طويل متميز من الكتابة التاريخية، تمت دراسته فى سياق أعرض فى تاريخ الفن على يد ميكائيل بوردو Michael Podro فى كتابه The Critical Historians of Art (1982) ، وبطريقة جدلية ونظرية أكبر على يد ميكائيل آن هولى Michael Ann Holly فى كتاب Past Looking (الذى ورد ذكره من قبل) . وأحد أبرز المشاركين فى هذا من تاريخ الفن الاستردادى هو ميكائيل باكسندال Michael Baxandal ، وكتابه :

Painting and Experience in Fifteenth Century Italy (1972) يحمل عنوانًا فرعيًا معبرًا A primer in the Social History of Pictorial Style . لقد سعى باكسندال إلى تخطى التحليل الأيقونجرافى البسيط . فقد كتب: «إن بعض الجهاز العقلى الذى ينظم به الإنسان تجربته المرئية متنوع ، والكثير من هذا الجهاز المتغير نسبى ثقافيًا ، بمعنى أنه محسوم بالمجتمع الذى أثر على تجربته ». إن مهمة المؤرخ بالتالى ، أن يسترد «عين الفترة» : الطريقة المحددة ثقافيًا لرؤية نحاتى التماثيل من الأخشاب الكلسية فى جنوب ألمانيا أوائل القرن السادس عشر، مثلا، وزبائنهم، مثلما حاول باكسندال فى كتاب : The Limewood Sculptors of Renaissance Germany الذى نشر سنة ١٩٨٠م. وقد طبق باحثون آخرون نسخهم الخاصة من مقاربة باكسندال على ثقافات مرئية أخرى، وكان أكثرها إثارة للجدل دراسة سڤيتلانا ألبرس Svetlana Alpers للفن الهولندى فى القرن السابع عشر بعنوان The Art of Describing (1983) . وقد جادلت آلبرس بأنه كان من خصائص الهولنديين فى القرن السابع عشر أن يسعوا لمعرفة العالم بطريقة تصنيفية عن طريق الوصف التصويرى الدقيق الذى يتضمن رسم الخرائط ، والرسوم الدقيقة والتصوير الواقعى للحقيقة المنظورة . وجادلت بأن هذا يجب أن يأخذ الأولوية على أى تلميح أو رمزية فى تفسير المادة المرئية الهولندية ، وهو رأى استفز جدلاً عنيفًا مع باحثين آخرين فى المجال(٣٠). وقد أوضح هذا الجدل أن التفكير فى العمليات المعرفية التى تم استبدالها يمكن أن يكون أكثر إثارة للنزاع

أكثر من السعى إلى تمييز المعنى التصويرى الأصلى للأعمال الفردية بمقارنة الأشياء ببعضها البعض ومع النصوص المعاصرة أو مع الإجراءات الصحيحة فى تاريخ الفن.

كل هذه الأشكال من أشكال التاريخ الاستردادى للفن تتعرض للهجوم من ثلاثة اتجاهات بارزة. ذلك أن بعض أولئك الذين يهتمون بالتأويلات المرئية يطرحون الأسئلة عن مفهوم أن الأهمية الثقافية يمكن أن تدخل ضمن المادة المرئية وأنها بالتالى يمكن حل شفرتها فيما بعد على يدى مفسّر بحيث ينتج عن ذلك «معنى» غير كاف . فقد لاحظ هانز بيلتنج Hans Belting ، مثلا، فى كتابه : Das Ende der Kunstgeschichte' (1983) ، كيف أن هذه العملية المتناسقة من الناحية الظاهرية فى التضمين وفى فك الشفرة الفنية تختزل إلى «لعبة الكلام لدى الإنسانيين» فى الأيقونوجرافيا فى عصر النهضة، حيث كانت الصور تؤخذ على أنها يمكن تفسيرها بالرجوع إلى نصوص أدبية تبدو معادلة لها فى الظاهر (وغالبا البرامج التى صممها الباحثون الإنسانيون لترجمتها من مصطلحات تصويرية إلى أعمال زخرفية) . وعلاوة على ذلك فإن مثال التفسير التصويرى المأخوذ عن إيروين بانوفسكى Erwin Panofsky يتجسد فى تمييزه بين المستويات ما قبل الأيقونوجرافية ، والأيقونوجرافية ، وموضوع الأيقونة [٣١]، وقد حل محله منذ زمن طويل نظريًا إدراك أن التدليل على الشئ أمر لايمكن تمييزه عن تضمينه، وأنه حتى أبسط المعانى (صورة البايب للدلالة على البايب ، مثلا) هو معنى طارئ يتوقف على الظروف من الناحية الثقافية (أنظر ، على سبيل المثال، الجزء الإفتتاحى فى S/Z لرولاند بارثيس Ronland Barthes وكتاب ميشيل فوكو C'est n'est pas une pipe سنة ١٩٧٣م) . وأحد أهم المواقف المثيرة المتاحة – على الرغم من أنه يُشيع اليأس بين المؤرخين بالتأكيد– هو أن المادة المرئية عن الماضى، لاسيما فنونه ، لايمكن تفسيرها على نحو كاف سوى بخلق مادة مرئية جديدة – الفن بوصفه جزئيًا مجالاً للسلوك التمثيلى– تكون منظمة بصرامة من ناحية المفهوم. وتحت هذا الفرض فإن المنظر الثقافى والفنان يصبحان شخصًا واحدًا . وهناك مثالان عن فنانين هما أيضا من المنظرين من هذا النوع ڤيكتور بورجين Victor Burgin الذى وصفت أعماله كريس ميللر Chris Miller وصفًا ملائمًا بأنه سوء استخدام مضاد إيديولوچى «للخيال الملائم» من الإعلان[٣٢] ، وجوزيف كوسوث Joseph Kosuth . وتضمنت منشورات بورجين بين (١٩٨٦)، و (١٩٩٦م) كتاب :

The End of Art Theory : Criticism and Postmodernity (1986) ; Sufficient Spaces : Place and Memory in Visual Culture (1996) .

وقد نشرت كتابات كوسوث منذ سنة ١٩٦٦م فصاعداً ونشرت تحت عنوان : Art after Philosophy and After (1991) ، ولكن الكثير من أعمـاله النظرية يأخذ شكلا مـرئيًـا داخل المتـاحف وصـالات العـرض، مـثل تركـيبـه فى مـتـحف بروكلين سنة ١٩٩٢م The Play of the Unmentionable [٢٣] .

وهناك تسـاؤل معين للتاريخ الاسـتردادى للفن يأتى من جـانب مصـادر أكثر أصـولية فى تاريخ الفن ؛ من بينهم مـيكائيل باكسندال . ففى كتـابه Patterns of Intention : On the Historical Explanation of Pictures المنشـور سنة ١٩٨٥م يصف باكسندال اسـتخـدام جيورجيو ڤاسارى لما يحتمل أن يكون خيالاً تاريخيًا لكى يوضح نقطة نقدية خالصة عن ظهور الأقمشة فى الرسومات بواسطة بيرو ديلا فرانشسكا Piero della Francesca «كان بييرو مغرمًا للغاية بعمل نماذج من الصلصال كان يلفها بقماش مُبتل مرتب فى طيات كثيرة جدا ثم يستخدم للرسم ولأغراض مشابهة ... ويعرف أى قـارئ منتبه لڤارسارى كيف يتعرف على هذا النوع من الملاحظة عندما يجرب ڤاسارى حظه الاستدلالى : ومن غير المحتمل أنه كان يمتلك نوع الدليل على هذه الممارسة الذى يجعلنا اليوم نشعر بالسعادة لجعل هذه العبارة على هذا القدر من الثبات . وهذا لايهم . إذ إن شخصية ڤاسارى النشطة تضع ملاحظته فى مكانها- حقيقة نقدية حسبما يرى المرء عندما يقارنها مع الملاك الأوسط الأبيض ، مثلاً، فى Baptism of Christ – ولن يكون لدى أى قارئ آخر من زمن ڤاسارى شعور زائف بتاريخيتها. والواقع أن رشاقة ڤاسارى فى النقدى والتاريخى أمر يحسد عليه ؛ ولكننا نعيش فى أوقات مرتبطة أكثر بالذكور فى هذه الأمـور وإذا مـا قلت شيـئًا من هذا القـبيل عن بييـر بهـذا القـدر من التسطيح الآن فسيكون عليك أن تتوقع منى أن أمتلك ما لم أستطع إنتاجه » (p. 117) .

وفى مقالته عن الخبرة الفنية لاحظ جارى شـوارتز Gary Schwartz أن «مؤرخى الفن، وهم مدربون منذ البداية على أن ينجذبوا إلى الأمام وإلى الخلف فيما بين المقاربات التاريخية واللاتاريخـية للفن ، لا يبدو أبدا أنهم لاحظوا التناقض الأسـاسى بينهم [٢٤]. وقد يسـتخلص المرء من نص باكسندال أن هذا التناقض يمكن أن يزول بالاعـتراف بأن الصدق التـاريخى طارئ وأن تطبيق المعايير التاريخية على دراسة المادة المرئية ينتج خيالات ليست بالضرورة

قابلة للتمايز معرفيًا عن التعليقات النقدية اللاتاريخية . ومن ثم، فإن وضع المناقشة داخل إطار تاريخى، لا يزيد على ما يسميه باكسندال «الذوق الخاص» : فالاسترداد التاريخى والتقدير الفنى ليسا أفضل من أحدهما الآخر؛ والواقع أنه بقدر ما يقوم الاسترداد على المعايير الطارئة ، فإنه لايختلف عن كونه شكلاً خاصًا من أشكال التقييم النقدى. ومن ثم ، فإن المرء قد يقترح أن النقد الذى يرتبط صراحة بالاهتمامات الثقافية والاجتماعية الجارية والتى لاتدعى الوصول إلى «الحقائق» الكلية والمستمرة التى لايمكن كشفها ربما لايحتمل أن تضلل المشاهدين والقراء مما تفعل التقارير التاريخية الخالصة المزعومة. وربما يمكننا فقط أن نعرف فن الحاضر ، الذى كان بعض منه باقيًا من الماضى، ولايقدم سوى الوصول الأكثر ركاكة وعدم جدارة بالثقة . ويتغير معنى المادة المرئية: فالتفسير يختلف عبر الحدود الزمنية التتابعية والثقافية: تلك الحدود التى نعرفها لايمكن أن تكون سوى الحدود التى اصطنعناها بأنفسنا . وعلى الرغم من ذلك ، فربما يكون هذا الظن متفائلاً دون داع ويعتمد ضمنيًا على النسبية الناقصة . وفى المكان الأول ، فإن الحالات الطارئة يمكن أن تضم فترات طويلة وقصيرة نسبيًا: وقد تنطوى على آلاف السنين وقد تقتصر على جيل واحد فقط . ذلك أن محاورات أفلاطون ، مثلا، سوف تكون حالات قديمة تثير فضولنا لو لم تكن الحال كذلك . وثانيا، فإنه من البراجماتية ونقص الأخلاق أن نفترض أن كل القيم والمبادئ محلية ضيقة بالضرورة . فنحن نستكشف المادة المرئية– والماضى– بصورة مثالية لا لكى نؤكد انحيازاتنا الخاصة، وإنما لكى نتحداها . وتطور الفهم التاريخى وسيلة من وسائل معالجة الحقائق العامة ، مهما كانت بعيدة ويصعب الوصول إليها. وحتى إذا كان التاريخ الاستردادى للفن، حسبما تتم ممارسته عمومًا، ينتج الأعمال الخيالية ، فإن الفهم التاريخى يمكن أن يتحقق مع هذا : على الأقل إذا أخذنا فى اعتبارنا هذه المحاذير مع افتراض قدرتنا على ترجمة الماضى إلي الحاضر بصورة مقبولة .

وتتمثل إحدى خواص الفن التى تميزه عن بعض الأنماط الأخرى من المادة المرئية فى ميل الفن لحفز استجابات عاطفية لدى المشاهد . وثمة مجال لمثل هذه الاستجابات العاطفية فى ميدان الجماليات. بيد أن الاستجابات العاطفية ليست وقفًا على هذا الميدان. ذلك أنها يمكن تطبيقها ثقافيًا على نطاق واسع كما أنها وتعيش طويلاً لدرجة أن أنماطا بعينها من الاستجابات العاطفية تؤخذ على ظن أنها استجابات عاطفية كلية بالفعل . هذا الجانب من

جوانب العلاقات بين البشر بالمادة المرئية كان موضوع كتاب داڤيد فريدبرج David Freed-berg المركب :

The Power of Images : Studies in the History and Theory of Response الذى نشر سنة ١٩٨٩ . ومع هذا ، فإن مفهوم الاستجابة العاطفية السريعة للمادة المرئية، مفتوح أمام التلاعب وإساءة الاستخدام . وأحد أشكال إساءة الاستخدام هو أن نفترض أنه يمكن الوصول إلى الماضى بسهولة عن طريق الاستجابة العاطفية السريعة للمادة المرئية ، أو عن طريق «صناعة التراث» التى غالبًا ما يتم فيها استغلال «الاستجابة العاطفية السريعة» ويقدم روبرت هويسن R. Hewison فى كتاب :

The Heritage of Industry : Britain in a Climate of Decline (1987)

يقدم نقداً لاذعًا لنمو الميراث باعتباره عاملا اجتماعيا وسياسيًا مطرداً فى نسيج الثقافة البريطانية . وسوف أذكر فقط نقطتين أثارهما كتاب هويسن : «الميراث» تحليلى بشكل شامل ويتضمن التاريخ ، باعتباره عملية تغير، قد انتهت، أو يجب أن تنتهى. إن إنتاج سكان قادرين على رؤية الماضى فقط فى ضوء الحنين إلى الماضى والنزعة الوطنية يساعد على ضمان سلاسة الإنقياد .

وتمثل مادة التراث فى بريطانيا «كنزًا» ، يمثل البيت الريفى نموذجه . وهو ما يضفى على البيت الإنجليزى سحراً اجتماعيًا وجماليًا فى آن معا. وثمة نص مكتوب على الغلاف الخلفى للكتالوج المصاحب للمعرض الذى أقيم بعنوان :

The Treasue Houses of Britain : Five Hundred Years of Private Patronage and Art Collecting (National Gallery of Art Washington Dc. 1985-6) .

ويقول النص : «يعد البيت الريفى بوصفه عملاً فنيًا جماعيًا من أهم إسهامات بريطانيا فى الحضارة الغربية» .

وهو مؤسسة حكومية فيدرالية ، ولكنه نفسه تم تأسيسه بفضل الرعاية الخاصة وجمع الأعمال الفنية) . وقد وصف هذا المعرض فى مجلة الإيكونوميست بأنه «مكان لبيع التراث البريطانى بالتخفيض »[٢٥] والبعض الآخر يسعى إلى كسب النقود بطريقة أقل مباشرة: بإثارة التعاطف بالإشارة إلى أن البيت الريفى مؤسسة تتعرض للتهديد غالبًا فى مصطلحات سياسية تكاد تكون مكشوفة . والكلمات الافتتاحية فى المقالة الأولى بالكتالوج المصاحب

للمعرض الخاص بصندوق التراث الوطنى التذكارى National Heritage Memorial Fund الذى أقيم بالمتحف البريطانى ١٩٨٨-١٩٨٩م بعنوان Treasures for the Nation : Con- serving our Heritge تقول : «لايكاد يمر أسبوع حتى يشاهد المرء إعلان المزاد عن بيع وتفكيك ضيعة كبيرة على وشك الحدوث» . ويستمر ماركوس بينى Marcus Binney فى الاقتباس من هوسكينز Hoskins فيقول : «لقد استولى مقاولو الهدم على المنزل، وتعرضت حديقته للغزو وقلبت رأسًا على عقب وهكذا. إن اسطورة الهدم هذه كانت تحت رعاية كبار رجال المتحف مثل روى سترونج Roy Strong (فى المعرض وكتالوجه المسمى The De- struction of the Country House , Victoria and Albert Museum, London 1974). والسياسيين من أمثال باتريك كورماك فى كتابه (Heritage in Danger, 1979) يقدم ستارة دخان كافية تعمل السلطة والامتياز من خلفها باستمرار. وقد كشف چون مارتن روبنسون فى (1984) The Latest Country Houses عن أن ما يزيد على مائتى منزل ريفى جديد تم بناؤها فى بريطانيا منذ الحرب العالمية الثانية. والأمر ببساطة مجرد حصافة (وربما يجلب ميزات ضرائبية) بالنسبة لأولئك الذين ينعمون بثروة خاصة تتمثل فى أن يلعبوا دور الأوصياء على «الموروث الوطنى» ، والذى يُعرض جزء منه أمام الجمهور على أنه نموذج للذوق الجيد والماضى «الطيب» الذى يجب الحفاظ عليه بصورة غير نقدية . وليس هناك تفسير، وإنما مجرد جمع يضفى المصداقية على الحالة الراهنة اجتماعيًا وجماليًا .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية، على النقيض من هذا، يختلف الموقف، ولكنه يتنوع فى داخله . ذلك أن التغيير أمر متوقع بل وله قيمة فى الحياة الشخصية والاجتماعية . وتؤخذ تقلبات الثروة وتجلياتها على أنها أمور مسلم بها ، بما فى ذلك التدهور إما بسبب انتهاء فعالية الجيل أو على مدى عدة أجيال قليلة . والإقليم الذى فيه عرض البيت الريفى– أو المزرعة– ربما يكون مشابهًا تمامًا للموقف البريطانى فى الجنوب حيث يرتبط بالحنين إلى الماضى، والشوق والفقدان الثقافى لأسلوب حياة تغير تمامًا فى سنة ١٨٦٥م مع هزيمة الكونفدرالية. وهو لا يخص الاستمرارية . وتقف نيو انجلند على النقيض من ذلك. إذ إن عدم الاستمرارية تتخفى بدهاء . «فالأكواخ الصيفية» التى كان يمتلكها الأغنياء فى نيويورك القرن التاسع عشر فى نيوبورت ، ورود آيلند، وغيرها من الممتلكات الريفية المتناثرة (مثل البيت الكبير، وكاسيل هيل اللذين بناهما أحد أرباب مهنة السباكة ريتشارد تيللر كرين، فى إيبسويتسن ، وماساشوسيت) تديرها منظمات خيرية مثل:

Preservation Society of Newport County , Trustees of Reservations Society for the Preservation of New England Antiquities. والاستثمار العاطفي غائب بدرجة كبيرة. وهذا مقصور على المواقع المرتبطة بالكبرياء السياسي الوطني- مثل بيت بول ريڤير في بوسطن ، مثلا - ولكن حتى في ذلك الحين يتم إخراسه، بل حتى يتم تخريبه عن قصد. وهذه هي الحال في مزرعة بلايموث، التي كانت مكان تسلية ركاب ماي فلور في بداية استقرارهم على ساحل ماساشوسيت ، حيث يفاجئ المفسرون الكثير من الزوار بقصور وعيهم التام لديهم في الوعي بالتطورات التي أدت إلى ميلاد الجمهورية. وتبدو الاستجابة السريعة والعاطفية تجاه المادة المرئية ديموقراطية تحترم الثروة وتقلباتها ، ولكن غالبًا ما تصب في قنوات أخرى . ذلك إن قلة من الناس فقط هم الذين يمكنهم ، مثلاً، القيام بجولة سياحية في المنتزه التاريخي الوطني الذي تقبع فيه المدمرة Uss Cassin Yanng ، التي شاركت في الحرب العالمية الثانية وتحولت إلى متحف عائم في بوسطون ، دون أن تتملكهم عاطفة المشاركة العميقة للضباط والرجال الذي خدموا على متن المدمرة، وهو الأمر الذي يحسّن كثيرا من فهمهم التاريخي لطبيعة الحرب البحرية في منتصف القرن العشرين وما ينتج عن ذلك من تفريعات اجتماعية .

وفي دراسة المواد المرئية يتراوح المقياس بين المدمرة البحرية بحجمها الكبير عند الطرف الأكبر في المقياس الذي نقيس به المادة المرئية . أما الصور الفوتوجرافية فتكون عند الطرف الأصغر في هذا المقياس . فالتصوير هو الوسيط المرئي الذي يعتبر أسهل طريق للاستجابة العاطفية السريعة . والسبب في هذا أن الصورة تحمل مادة ، تربطها علاقة مؤقتة بموضوعها ويكون جزءًا من استجابتنا للصورة بمثابة الأثر الحقيقي الذي خلفته حادثة ما . ويتمادى المدافعون عن الصحافة المصورة إلى درجة أنهم يشيرون إلى أن المعلومات التي تتوفر عن حادثة بعينها تأتي من الصورة التي تمنحنا المعرفة الحية عن هذه الحادثة . والواقع أن معرفتنا بالماضي القريب تزيد بصورة مطردة بفضل الصور السريعة التي تصور الأحداث في حينها وبسرعة . وكما عبر المحرر الصحفي السابق هارولد إيڤانز Harold Evans : «إن انطباعاتنا عن الأحداث الكبرى والصغرى ربما تتشكل بصورة دائمة بفعل صورة واحدة في الصحف» - وهي ملاحظة تم اقتباسها لتوضع على الإعلان عن معرض Eyewitness: 30 Years of World Press Photography الذي أقيم في المتحف الوطني للتصوير ، والفيلم ،

والتليفزيون ، فى برادفورد . انجلترا (١٩٨٩م) . وعلى أية حال، هناك عدة نقاط تبدو الآن أكثر وضوحًا كما تكررت عدة مرات، ليس أقلها المعروضات الدائمة فى هذا المتحف : والحاجة الملحة اللافتة للنظر لا تقول شيئا أو تقول شيئًا قليلاً عن حادث يجرى فى الزمن؛ فالصور موضوع لأشكال عديدة من التناول البارع (ضبط صور الأشخاص ؛ استخدام تدريج الظلال للتأثير على تفسير المراقب)، وفى الغالب لا يتولد المعنى الواضح السهل سوى من خلال الامتزاج مع الشرح المكتوب أسفل الصورة. وغالبًا ما ينتج من الشروح المكتوبة للصورة نفسها معان تختلف بشكل جذرى، بل ومتناقضة . وقد تكون المعلومات المعينة التى توفرها صورة ما ذات فائدة بسيطة فى دراسة تحليلية لحدث ما فى الماضى، ومع هذا فإن حفظ التفاصيل التى ربما كان مصيرها التجاهل ، يمكن أن يؤدى إلى فتح خطوط جديدة أمام نوع من الفضول الذى قد لايكون فضولاً تاريخيًا بالضرورة . فلماذا ، على سبيل المثال، وضعت المرأة التى أدارت علملية أداء اليمين الذى قام به الرئيس ليندون جونسون على متن الطائرة Airforce One فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣م بعد اغتيال جون كينيدى ، إبهامه على الإصبع الصغير ليده التى أمسك بها الكتاب المقدس، على نحو ما يظهر فى الصورة التى التقطها سيسيل ستوجتون للحدث ؟

وإحدى أكثر المناطق إثارة فى المناقشة الدائرة حول الصحافة والتصوير التوثيقى مثل صور سادايوكى ميكامى Sadayuki Mikami عن الأقارب الحزانى للمسافرين الذين قتلوا على متن الطائرة الكورية رحلة 007 ، والتى التقطها فى سبتمبر ١٩٨٣م على مركب حيث غاصت الطائرة فى البحر ، وهى الصور التى يمكن تفسيرها على أن التطفل موضوعها ؛ إذ إن العدسات التى اقتحمت وجوه الأقارب الباكين، ربما فى ذلك ضمنا، وجه صانع هذه الصورة . فهل تم غرس حربة فى أحد الضحايا لأن مصدرا (هو ميشيل لوريت) موجود، أم أن هذا كان سيحدث على أية حال؛ أم أن حضور المصور ردع المهاجمين الآخرين المفترضين عن غرس حراب أخرى فى بطون أخرى ؟ ومهما كانت الإجابة فى أية لحظة محددة ، فمن الصعب ألاَّ نعتبر المصور مشاركًا .

التاريخ

مما سبق قد يستنتج القارئ أننى لا أعتقد أن المؤرخ فى أفضل وضع يتيح له التعامل مع المادة المرئية: فهو مشغول أساسًا بتفسير الماضى، وليس بالممارسة المرئية الجارية ولا

بالموضوعات الحرجة . وعلى أية حال ، فقد أثار المؤرخون موضوعات تتعلق بالمادة المرئية بطرق مختلفة يمكن أن تذكرّ أولئك الذين يهتمون أساسًا بالفن وغيره من جوانب المادة المرئية بأن كل المادة المأخوذة من الماضى يمكن أن تكون دليلاً بالنسبة للمؤرخ .

وكتاب بوب سكريبنر Bob Scribner الذى يحمل عنوان :

For the Sake of Simple Folk : Popular Propaganda for the German Reformation (1981) .

عبارة عن مثال على التأثير المنعش التجديدى الذى يمكن أن تضفيه نظرة المؤرخ على كتلة المادة– الحفر على الخشب فى ألمانيا أوائل القرن السادس عشر– التى لايمكن لمؤرخى الفن أن يتناولوها سوى بطريقة تراتبية حسب وعيهم بجدارتها الفنية وإدراكهم لها . وقد حاول سكريبنتر توضيح التقاليد الأيقونوجرافية والتشكيلية التى أتاحت الدعاية التصويرية للإصلاح الدينى ، وضده ، للناس العاديين أن يفهموه . وهو يلجأ إلى الصور للكشف عن مدى الفهم الثقافى للإصلاح الدينى ، والمفهوم الذى تنطوى عليه (المسيح الدجال، انقلاب العالم رأسًا على عقب) والذى كان بوسع دعاة الإصلاح الإشارة إليه، ومن المناسب بالنسبة له أن يتناول أعمال دورر Dürer والكراناش Cranachs التى يتناول بها مطبوعات معاصريهم التى ربما استبعدها مؤرخو الفن لأنها فظة وذات قيمة حقيقية ضئيلة ؛ وعلى الرغم من أنه عندما يتم التأكيد على نجاح الصور (بمصطلحات التقليد والمحاكاة للموتيفات والوسائل البصرية) فإنه يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أيضا النوعية ، والفنية، ودور التقاليد المرئية الموجودة، كما ينبغى أن نضع فى الحسبان الأسواق الفنية المحتملة المختلفة التى تحفل بالصور ذات النوعية المختلفة:

وثمة مثال ثان عن كتاب يقوم فيه أحد المؤرخين بالاستخدام الحاذق للمادة المرئية هو كتاب سيمون شاما Simon Schama بعنوان :

The Embarrassment of Riches : An Interpretation of Dutch Culture in the Golden Age Age (1987) .

ففى وصفه للعادات الاجتماعية لدى الطبقة الوسطى الهولندية ومعتقداتهم الخاصة بالهوية الوطنية، والاستقامة المنزلية ، وواجبات النساء وخدم المنازل وتربية الأطفال، يستخدم شاما طائفة واسعة من المادة المستخدمة بما فيها الفخار، والخرائط ، وحكايات الرحالة ، والوثائق

التى يكتبها موثقو العقود، وسجلات المحاكم ، والمطبوعات والرسومات . وهو بذلك أبدى وعياً بالمجادلات الخاصة بتفسير الفن الهولندى وأنتج ما وصفته فى مكان آخر بأنه «إعادة تنظيم بارعة لنزعة أثرية قصصية ذات بعد أنثروبولوجى عرفها القرن التاسع عشر فى ضوء البحث الحديث فى مجال التاريخ وفى مجال تاريخ الفن»[٣٦].

إن الإدراك الذى لايمكن تجنبه للتحكم فى وسائل الإعلام والإمكانية السريعة لاستيعاب الدعاية السياسية فى شكل مرئى قد ساعد على تنبيه المؤرخين إلى أمثلة أقدم لبناء الصورة السياسية . ويجعل بيتر بوركى التشابهات واضحة فى خاتمة دراسته التفصيلية للبناء الثقافى الملكى الفرنسى . بعنوان (1992) The Fabrication of Louis XIV . إن المحاولات الدؤوب لصنع صور تغمر الرؤساء الأمريكيين فى طياتها (وهى تمتد حسبما يلاحظ بوركى إلى الأجزاء الخاصة من صورة ليندون جونسون) لها نظيرها هنا متمثلاً فى كم هائل من المادة المرئية المحسوبة بعناية– تماثيل، ميداليات ، رسومات ، مطبوعات – تمجد الملك الفرنسى والتى يخضعها بوركى للتحليل التاريخى التفصيلى .

وبينما آمل بإخلاص أن يتحول المؤرخون بانتباههم إلى المادة المرئية بشكل متزايد، فإنه يؤسفنى أن قلة منهم حتى اليوم قد أظهروا الوعى بالمسائل المتضمنة بالضرورة أو المهارات الخاصة المطلوبة للتعامل مع مثل هذه المادة. وربما يؤدى الوعى التاريخى المتزايد بالتراث الطويل لمثل هذه الاستخدامات للمادة المرئية ، والذى وصفه فرنسيس هاسكيل بأستاذية وشمولية فيما يخص التراث الأوربى على صفحات كتابه:

History and its Images : Art and the Interpretation of the Past (1993) .

إلى تشجيع المزيد من المؤرخين على القيام بالمغامرة. والإسهام فى دراسة المادة المرئية التى يحتمل أن يكون المؤرخ أفضل استعداداً للقيام به يتمثل فى مناقشة إنتاج المادة المرئية واستهلاكها باعتبارها أنشطة اجتماعية ، واقتصادية وثقافية. وهناك بعض المحاولات ، مثل محاولة ليزا جاردين فى كتابها المعنون :

Worldly Goods: A New History of the Renaissance (1996) .

ولم تلق اهتماماً بسبب شروحها المختزلة . كما أن بعض المادة المرئية يمكن أيضا أن تكون سلعاً وبضائع ويمكن إخضاعها بشكل مفيد للدراسة كما هى، ولكن وصف المواد الفنية بمصطلحات السلع أو البضائع بعيد عن أن يصل حتى إلى مغزاها التاريخى. ولا يمكن للفن

واستخداماته أن يحسب بالمصطلحات الاجتماعية والاقتصادية وحدها ؛ والمؤرخون الذين يستكشفون العوامل الاجتماعية والاقتصادية فيما يتعلق بالفن ننصحهم بأن يعترفوا بهذه الحقيقة وحتى وهم يطرحون الفروض النافعة والحافزة .

وهناك منطقة واحدة حقق فيها المؤرخون تقدمًا كبيرًا تختص بالشكل الخاص باستهلاك الصورة : التدمير العمدى أو تحطيم الأصنام . فبالنسبة لمعظم مؤرخى الفن سوف يبقى تحطيم الأصنام هامشيا لأن الأشياء لا تبقى أو لأنها تحف محطمة [٣٧]. ومع ذلك ، فإن هذا لايردع مؤرخى الأديان أو المؤرخين الاجتماعيين . وفى دراسة عملية تحطيم التماثيل إبان حركة الإصلاح الدينى أمسك المؤرخون الاجتماعيون بزمام المبادرة ، لأن هذا نشاط غالبًا ما يبدو فيه إمكانية الوصول إلى نظرية النخبة ، وكذلك رأى الأميين، والمفاهيم الشعبية (خاصة ما يتعلق بسحر الصورة) والسلوك (المتعلق بالمهرجانات والاحتفالات). وقد أدى هذا إلى اتجاه لتناول تحطيم الأصنام باعتبارها ظاهرة غير متغيرة، وتم توجيه الاهتمام للعوامل المشتركة فى أمثلة متنوعة بدلاً من الاختلافات فيما بينها . ويتجه المؤرخون الاجتماعيون الآن بصورة متزايدة نحو ما أطلقوا عليه السياسات الصغرى ، أو دراسة الأحداث الفردية، والتى يتعلمون فى ضوئها أن يعدلوا الأطر النظرية التى تتيح المزيد من الانتباه للتفاصيل . وهذا ما يمكن أن نراه ، مثلا، فى أعمال لى بالمر واندل فى التمايزات فى ممارسة تحطيم التماثيل بعدة مدن مختلفة فى كتابها الموسوم :

Voracious Idols and Violent Hands : Iconoclasm in Renaisance Zurich , Strasbourg, and Basel (1995) .

وثمة مثال أقل درامية وإن لم يكن أقل إيضاحًا عما يمكن للمؤرخ أن يفعله لوضع المادة المرئية فى سياق اجتماعى- اقتصادى للإنتاج والاستهلاك يقدمه كتاب الاقتصادى جون ميكائيل مونتياس John Michael Montias . إذ إن دراسته Artists and Artisans in Delft : A Socio - Economic Study of the Seventeenth Century (1982) .

تذكر القراء بأن الرسم فى الفنون الجميلة كان مسألة فرصة مالية حسمتها الطبقة سواء بالنسبة للمشترى أو بالنسبة للمشاركة . ومثلما تتبع مونتياس آثار حظوظ رسامى دلفت Delft ، وصف التنظيم الرأسمالى فى فترة ما قبل التصنيع لرساميها ومزخرفيها . وعلى النقيض من ممارسى الحرفتين الأخيرتين ، كان الرسامون مطلوبين قليلاً فى طريق الاستثمار

الرأسمالى ؛ ومع هذا فبدلاً من أن تكون مهنة مفتوحة ، وجد مونتياس أن تكاليف التدريب على مدى ست سنوات تدريبًا كافيًا قد حد من عدد الداخلين فى المهنة لتنحصر فى أبناء الحرفيين الموسرين جدا فقط، وأطفال الموثقين القانونيين والمحامين، والرسامين أنفسهم . وكان الأطفال الذين ترعاهم غرفة الأيتام، على العكس ، يمكن أن ينالوا فرصًا أكبر فى التدريب على الزخرفة ، وعلى الرغم من أنهم ينتمون للنقابة نفسها باعتبارهم رسامين، فلم يكن من المحتمل أن يخرجوا من صفوف البروليتاريا المعدمة .

وحسبما يبين كتاب مونتياس ، فإن نوع الدراسة الذى يمكن فيها تجميع الاهتمامات المتمايزة للمؤرخين ومؤرخى الفن سوف يكون على مستوى مصغَّر لا على مستوى كبير. وهذا ما يؤكده الكتاب الأخير للكاتب نفسه :
Vermeer and his Milieu : A Web of Social History (1989) والذى يدرس الظروف الاجتماعية والاقتصادية لرسام دفت يوهانس ڤيرمير، ولعائلته والمرتبطين به . ولا يقدم مونتياس صورة تاريخية فحسب لفنان كبير لانجد فى الوثائق عنه سوى النزر اليسير ، وإنما يقدم أيضا رواية عن مجتمع كان فيه إيمان كبير بالكلمة المكتوبة تحت القسم والمحفوظة فى سجلات الموثقين . ولا يحتاج الفنانون الأفراد لأن يكون كل منهم موضوعًا لمثل هذه الدراسة المصغرة : ذلك أن أساليب الصنعة والمواد يمكن أن توفر نافذة نطل منها على مجتمع بأسره ، حسبما أوضحت سوزان بوترز Suzanne B. Butters فى دراستها :
The Triumph of Vulcan : Sculptors' Tools, Parphyry and the Prince in Ducal Florence (1996) .

والرخام السماقى نوع من الحجر عالى القيمة منذ العصور القديمة ، على الرغم من أنه صعب التشكيل ويصعب العمل به ، وهو يقدم موضوعًا لا يكشف فقط عن البراعة الإنسانية فى التطور التقنى، وإنما يكشف أيضا عن تقاطع الطموحات الاجتماعية والسياسية والفنية.

وختامًا ، يمكننا أن نرى أنه ليست هناك مهنة واحدة لها ، أو ينبغى فى رأيى أن يكون لها، الاحتكار فى تفسير المادة المرئية . وإذا كان لدى المؤرخين الكثير لكى يتعلموه فى هذه المنطقة، فإن لديهم نقاطا مهمة كثيرة يمكن أن يعلِّموها أيضا. والنقائص الأسوأ ثم الكشف عنها فى ممارسات أولئك الذين يتعاملون مع الفن بحرفية . وهؤلاء هم كثير من مؤرخى الفن والباحثين فى فن المتاحف الذين اعتادوا قصور إجاباتهم عن الأسئلة المطروحة من قبل

الباحثين فى العلاماتية ، ونظرية وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى، ناهيك عن تعليم أنفسهم كيف يمكن أن يتعاملوا بنجاح مع التصوير الفوتوجرافى، وفن الأداء، والفيلم، والتليفزيون ، والفيديو ، والصور المصنوعة بواسطة الكمبيوتر ، وعلى الرغم من أن الأصولية فى الجامعات الآن تفضل تلك الممارسات المرتبطة بالعلاماتية القائمة على أساس من اللغويات، فإن هناك من مؤرخى الفن وأمناء المتاحف من يكرسون أنفسهم لحل مشكلات أكثر نفعية: تنقية ، ومزيد من تطبيق أساليب التحليل وتحويلها بما فى ذلك الخبرة الفنية فى التثمين ، وتنقية قوانين التفسير التصويرى وأشكاله المختلفة. وعلى الرغم من أننى أتخذ موقفًا نقديًا ، فإننى لا أعتقد أنه ينبغى أن ينفد صبرنا مع أولئك الذين يمارسون هذه المهارات . وهناك أسئلة معينة يمكن طرحها فى ضوء الاهتمامات المعاصرة (والمستقبل غير المعلوم) - مثل تعذر تجنب المرئى- ربما لا يمكن الإجابة عنها سوى بمساعدتهم .

الهوامش

I should like to reiterate my thanks to Patricia Rubin for her perceptive comments on a draft of the first edition of this chapter, published as 'History of Images'. Thanks, too, to Brendan Dooley, who commented on a draft of the revised version for the second edition.

1 On this question, see further Ivan Gaskell, 'Magnanimity and Paranoia in the Big Bad Art World', in Charles W. Haxthausen (ed.), *The Two Art Histories: The Academy and the Museum* (forthcoming).

2 A revealing exception is the study of art historians' methods undertaken by the Getty Art History Information Program and the Institute of Research in Information and Scholarship at Brown University (IRIS). One of its topics is scholars' attitudes towards original works of art and photographic reproductions: Elizabeth Bakewell, William O. Beeman, Carol McMichael Reese and Marilyn Schmitt (eds), *Object. Image. Inquiry: The Art Historian at Work* (Santa Monica, 1988).

3 See, for example, M. G. Quimby (ed.), *Material Culture and the Study of American Life*, the 21st Winterthur Conference, 1975 (New York, 1978).

4 G. Schwartz, 'Connoisseurship: The Penalty of Ahistoricism', *International Journal of Museum Management and Curatorship*, 7 (1988), pp. 261–8.

5 David Phillips, *Exhibiting Authenticity* (Manchester and New York 1997), especially pp. 32–41.

6 See Ivan Gaskell and Henry Lie (eds), *Sketches in Clay for Projects by Gian Lorenzo Bernini* (Cambridge, Mass., 1999).

7 J. P. Filedt Kok (ed.), *Scientific Examination of Early Netherlandish Painting: Applications in Art History* (*Nederlands Kunsthistorisch Jaarboek* 26, 1975) (Bussum, 1976).

8 J. Bruyn, B. Haak, S. H. Levie, P. J. J. van Thiel and E. van de Wetering, *A Corpus of Rembrandt Paintings*, vol. 1, *1625–1631* (The Hague and Boston 1982); vol. 2, *1631–1634* (The Hague and Boston 1986); vol. 3 *1634–1639* (The Hague and Boston 1989).

9 See letters to the editor from J. Bruyn, B. Haak, S. H. Levie and P. J. J. van Thiel, *Burlington Magazine*, 135 (1993), p. 279, and from E. van de Wetering, *Burlington Magazine*, 135, pp. 764–5; also Ernst van de Wetering and Paul Broekhoff, 'New directions in the Rembrandt Research Project, Part I: the 1642 self-portrait in the Royal Collection', *Burlington Magazine*, 138 (1996), pp. 174–80.

10 'For the sake of scholarship it now seems preferable to present all the arguments for and against attribution to Rembrandt without the need to force individual paintings into the straightjacket of a simple "yes" or "no"',

Ernst van de Wetering, letter cited in n.9 above, p. 765. For an approach which proposes a different paradigm demoting the importance of the individual and stressing workshop responsibility, see *Sketches in Clay*, cited at n. 6 above.

11 David Bomford, Christopher Brown and Ashok Roy, *Art in the Making: Rembrandt* (National Gallery, London, 1988–9).

12 The hypothetical nature of connoisseurs' attributions – however well informed by technical material – was acknowledged in 1993 by the head of the Rembrandt Research Project, Ernst van de Wetering (letter cited in n. 9 above, p. 765).

13 H. Horne, *Alessandro Filipepi called Sandro Botticelli, Painter of Florence* (London, 1908); new edition with an introduction by John Pope-Hennessy (London, 1980).

14 A. Warburg, *Sandro Botticellis 'Geburt der Venus' und 'Frühling'. Eine Untersuchung über die Vorstellungen von der Antike in der italieniscshen Frührenaissance* (Hamburg, 1893). Warburg's works were collected in two volumes as *Die Erneuerung der heidnischen Antike* (Leipzig, 1932), but were not available in English until 1999: *The Renewal of Pagan Antiquity: Contributions to the Cultural History of the European Renaissance*, trans. David Britt (Los Angeles, 1999).

15 Ronald Lightbown, *Sandro Botticelli: Life and Work with Complete Catalogue*, 2 vols. (Berkeley, Cal., 1978) is now the standard text, complemented by his *Sandro Botticelli: Life and Work* (New York, 1989).

16 This was made clear during the round-table discussion among the directors of several major European and American art museums and other scholars with which the conference in 1982 on the history and future of the Uffizi concluded. An edited transcript was subsequently published in *Gli Uffizi. Quattro secoli di una galleria*, ed. Paola Barocchi and Giovanna Ragioneri (Florence, 1983), vol. 2, pp. 557–635.

17 Primarily in its second edition, G. Vasari, *Le vite de' più eccellenti pittori, scultori ed architettori* (1568).

18 See, in particular, Patricia Lee Rubin, *Giorgio Vasari: Art and History* (New Haven, Conn. and London, 1995).

19 The founding text in many respects is Rozsika Parker and Griselda Pollock, *Old Mistresses: Women, Art, and Ideology* (London, 1981), though it was preceded by the catalogue of the exhibition *Women, Artists, 1550–1950*, by Ann Sutherland Harris and Linda Nochlin (Los Angeles County Museum of Art, 1976). Much of Linda Nochlin's work, such as *Women, Art, and Power and Other Essays* (New York, 1988), breaks with Vasarian assumptions in a way that, for example, Mary D. Garrard's *Artemisia Gentileschi: The Image of the Female Hero in Italian Baroque Art* (Princeton, N.J., 1989) does not.

20 Albert Boime, *The Academy and French Painting in the Nineteenth Century* (London, 1971); id., *Thomas Couture and the Eclectic Vision* (New Haven, Conn. and London 1980). More recently Boime has attended to American art: *The Magisterial Gaze: Manifest Destiny and American Landscape Painting, c.1830–1865* (Washington, D.C., 1991) and *The Unveiling of the National Icons: A Plea for Patriotic Iconoclasm in a Nationalist Era* (Cambridge and

New York 1998) (on public monuments from the Statue of Liberty to the Vietnam Memorial).

21 Françoise Cachin and Joseph Rishel, *Cézanne* (Grand Palais, Paris; Tate Gallery, London, Philadelphia; Museum of Art, 1995–6).

22 See the Metropolitan Museum's publication by the curator responsible for the reinstallation: Gary Tinterow, *The New Nineteenth-Century European Paintings and Sculpture Galleries* (New York, 1993).

23 See, for example, D. S. Chambers, *A Renaissance Cardinal and his Worldly Goods: The Will and Inventory of Francesco Gonzaga (1444–1483)* (London, 1992) and Clare Robertson, *Il Gran Cardinale: Alessandro Farnese, Patron of the Arts* (New Haven, Conn. and London 1992).

24 See Ramona M. Austin, 'Defining the African-American Cane', in George H. Meyer with Kay White Meyer, *American Folk Art Canes: Personal Sculpture* (Museum of American Folk Art, New York, 1992), pp. 222–7.

25 'The hanging's too good for them', *Burlington Magazine*, 131 (1989), pp. 3–4.

26 *Art Monthly*, 125 (April 1989), pp. 3–8.

27 David Solkin *Richard Wilson: The Landscape of Reaction* (Tate Gallery, London, 1982).

28 In the new introductory section to their article 'The Landscape of Reaction: Richard Wilson (1713?–1782) and his critics', in A. L. Rees and Frances Borzello (eds), *The New Art History* (London, 1986), pp. 106–19 (originally published in *History Workshop*, 16 (1983), pp. 171–5.

29 The wall labels – a genre which can only admit gradation of expression of opinion with great difficulty – were the cause of outrage rather than the more subtly argued catalogue edited by William H. Truettner.

30 For the hostile reaction to Alpers by the leading Dutch iconologist, Eddy de Jongh, see his review in *Simiolus*, 14 (1984), pp. 51–9. My own review was judged by others to be sympathetic to Alpers, but is actually critical, though not along 'party lines': *Oxford Art Journal*, 7/1 (1984), pp. 57–60. For an overview, see Egbert Haverkamp-Begemann, 'The State of Research in Northern Baroque Art', *Art Bulletin*, 69 (1987), pp. 510–19, especially pp. 510–11.

31 Erwin Panofsky, 'Introductory', in *Studies in Iconology: Humanistic Themes in the Art of the Renaissance* (New York, 1939) and the same author's 'Iconography and Iconology: an Introduction to the Study of Renaissance Art', in *Meaning in the Visual Arts* (Garden City, N.Y., 1955). The 'pre-iconographic' concerns the viewer's recognition of an object or act represented; the 'iconographic' the place of a representation within a set of conventions to produce recognizable specific significance (for example, saints' individual attributes); the 'iconological' concerns the artist's innovatory or unique handling of subject matter within culturally contingent parameters to generate implicit significance requiring an imaginative response from the viewer for its elucidation.

32 *European Photography*, 8/3 (1987), p. 47.

33 Accompanied by the publication *The Play of the Unmentionable: An Installation by Joseph Kosuth at the Brooklyn Museum*, essay by David Freedberg (1992).

34 Schwartz, 'Connoisseurship' (n.4 above), p. 265.

35 Quoted by Robert Hewison, *The Heritage Industry* (London, 1987), p. 52.

36 *Burlington Magazine*, 130 (1988), pp. 636–7.

37 An exception is David Freedberg; for example, his *Iconoclasts and their Motives* (Maarssen, 1985). See also Hans Belting's discussion of Byzantine iconoclasm in his *Bild und Kult. Eine Geschichte des Bildes vor dem Zeitalter der Kunst* (Munich, 1990), translated by Edmund Jephcott as *Likeness and Presence: A History of the Image before the Era of Art* (Chicago, 1994).

(٩)

تاريخ الفكر السياسى

ريتشارد توك

فى غضون ستينيات القرن العشرين نشر عدد من مؤرخى الفكر السياسى (ومن حسن المصادفة أن كثيرا منهم يرتبطون بجامعة كمبردج) عدداً من الأفكار عن السمة العامة لنشاطهم المهنى. وقد حققت ثلاث من هذه المقالات قدراً من الشهرة الدائمة– وهى مقالة چون بوكوك John Pocock بعنوان :

" The History of Political Thought : A Methodological Enquiry" (١).

ومقالة چون دون John Dun التى تحمل عنوان:

" The Identity of the History of Ideas" (٢).

ثم مقالة كوينتين سكينر Quentin Skinner وعنوانها :

" Meaning and Understanding in the History of Ideas" (٣).

ومن بين هذه المقالات الثلاث كانت مقالة سكينر هى التى أثارت معظم المناقشات وذلك بسبب طولها عن المقالتين الأخريين وشمولها من ناحية ، ولأنه حدد أهدافه بدقة متناهية ، بخلاف بوكوك ودون، وسمى هذه الأهداف من ناحية أخرى. الهدف الرئيسى. وهو الهدف الذى شغف الكتاب اللاحقون بالدفاع عنه ، وضعه سكينر فى الفقرة التالية :

«التفت بداية لتأمل المنهج الذى يفرضه الزعم القائل بأن النص نفسه ينبغى أن يكون الموضوع القائم بذاته الذى ينصب عليه الدراسة والفهم . إذ إن هذا الفرض مستمر فى حكم العدد الأكبر من الدراسات، وفى إثارة المسائل الفلسفية الأوسع ، وفى إحداث العدد الأكبر من حالات الارتباك . وترتبط هذه المقاربة منطقيا ، فى تاريخ الفكر وفى الدراسات الأدبية الأشد صرامة أيضا، بشكل معين من أشكال تبرير الدراسة نفسها . والمسألة برمتها ، فيما

يتعلق بدراسة الأعمال الفلسفية فى الماضى (أو الأعمال الأدبية) تتمثل فى أنها يجب أن تحتوى «عناصر لا زمانية» علي شكل «أفكار كلية» بل «حكمة غير محددة التاريخ» تصلح لأن «تطبق على نطاق عالمى».

«وحاليا ، فإن المؤرخ الذى يتبنى مثل هذا الرأى يلزم نفسه، فعلا، بمسألة الكيفية التى تمكنه من الوصول إلى فهم هذه النصوص الكلاسيكية على أفضل وجه. لأنه إذا كانت المسألة كلها تفهم، فى مثل هذه الدراسة، فى ضوء مصطلحات مثل استرداد «الأسئلة والاجابات التى لا ترتبط بالزمن» ، والتى وردت فى «الكتب العظمى» ، وإذا كانت تتمثل فى إظهار «صلاحيتها» الدائمة والباقية، فإن هذا لاينبغى أن يكون مجرد إمكانية متاحة أمام المؤرخ ، وإنما يجب عليه أن يركز ببساطة فى جوهر ما قاله كل من الكتاب الكلاسيكيين عن كل من هذه «المفاهيم الأصلية» و«الأسئلة الدائمة» . وباختصار ، يجب أن يكون الهدف طرح «إعادة تقييم » للكتابات الكلاسيكية ، بشكل بعيد تماماً عن «الحقيقة السياسية »، لأننا إذا افترضنا بدلاً من ذلك أن معرفة السياق الاجتماعى شرط لازم لفهم النصوص الكلاسيكية لكان ذلك مساوياً لإنكار احتوائها على العناصر المهمة بشكل دائم ولا محدود زمنياً ، وهو ما يتساوى بدوره مع إلغاء المسألة الكلية فى دراسة أقوالهم» (p. 30) .

وهناك عدد كبير من الباحثين فى العلوم السياسية (من الأمريكيين بشكل رئيسى) وردت أسماؤهم فى هوامش هذه الفقرة : بيتر ميركل، وهانز مورجنثاو، ومولفورد سيبلى، ووليم بلوم، وكاتلين ، وأندرو هاكر ، وماكلوسكى ، وكارل چاسبرز ، وليونارد نيلسون ، وتشارلز ماكوى، وليو شتراوس ، وچوزيف كروسبى [٤]. وعلى الرغم من أن دون لم يصدر قائمة يمكن مقارنتها بهذه القائمة ، فمن الواضح أنه كان يحمل فى ذهنه نفس نوع مقاربتهم عندما اشتكى فى السنة السابقة من أن : «هناك فروعاً قليلة فى تاريخ الأفكار كتبت بوصفها تاريخاً لنشاط ما . ذلك أن بنى الأفكار المركبة، والمرتبة بطريقة أقرب ما تكون إلى طرق الاستنباط قد تمت دراستها فى أوقات مختلفة على مر الزمان (وكثيرا ما كانت تتجاوز ما تسمح به الأدلة) كما أن بنيتها يسهل اقتفاء آثارها على مدى القرون . فقد تمت مقارنة إعادة بناء مفاهيم أحد الرجال العظماء المتاحة بشكل أوسع وإضفاء الصيغة المادية عليها، مع أفكار آخرين من عظماء الرجال ؛ ومن ثم فإن الكثير من الكتابات تتجه حتماً ، لا سيما فى تاريخ الفكر السياسى، إلى أن تتألف من الفروض المطروحة فى كتب أخرى عظيمة» (Dunn, "Identity, p. 23) .

والبديل لهذا، حسبما يؤكد كل من سكينر ودون، أن يكون الطريق الصحيح لقراءة أى نص تاريخى متمثلا فى اعتباره منتجا تاريخيًا ، تكون فيه المقاصد الفعلية للمؤلف بالضرورة مرشدنا الأساسى إلى السبب فى أن النص قد اتخذ ذلك الشكل الخاص الذى اتخذه (على الرغم من أحدًا منهم لم يفترض بطبيعة الحال أن القصد كان مرشدا كافيا– فالفشل يحتاج أيضا إلى الاعتراف والشرح) .

وعلى الرغم من أن هدف بوكوك الأولى لم يكن طرح مناقشة من هذا النوع، فإن من الممكن توظيف مقالته التى نشرها قبل ستة أعوام فى هذه القضية، وقد اعترف سكينر اعترافا كريما على الدوام بتأثير بوكوك، إلى جانب تأثير كل من كوليجنوود ، وألسادير ماكينتاير ، وبيتر لاسليت. والواقع أن مقالة بوكوك كانت دعوة من داخل مهنة تاريخ الأفكار إلى أن نأخذ بجدية جميع الكتابات أو غيرها من النتاج فى الشئون السياسية التى نجدها متاحة فى مجتمع بعينه، على أنها المادة التى يجب شرحها وفهمها– وهو ما أسماه «الأنماط الشائعة» و«اللغات» والتى وضع لها فيما بعد مصطلح «النماذج» . وكان كتابه الذى يحمل عنوان :

The Ancient Constitution and the Feudal law (1957)

بمثابة توضيح باهر لما كان يقصده – وأن الفلاسفة السياسيين الكبار وحدهم هم الذين يمكن قراءة كتاباتهم على خلفية من الممارسات اللغوية ذات الخصوصية التاريخية المتخصصة بشكل دقيق (وفى هذه الحال تكون ممارسة الفروض التاريخية داخل نطاق تراث القانون العام)، وبمثل هذه الطريقة فقط يمكن فهم أصالتها أو صلاحيتها . وكان حقًا أن اعترف بوكوك :

«بينما تكتسى اللغة المستخدمة فى المناقشات السياسية عمومية نظرية متزايدة ، يقل استناد النجاح فى الإقناع لدى مفكر ما على قدرته فى استخدام الرموز التقليدية عنه فى الاعتماد على التماسك العقلانى لعباراته التى يصوغها فى بعض مجالات الخطاب السياسى الذى يتسم بالعمومية النظرية الواسعة التى تؤخذ باعتبارها أمرًا ممكنًا . وهنا يجب على المؤرخ ، إن آجلاً أو عاجلاً ، أن يتخلى عن دور الدارس للفكر باعتباره لغة المجتمع ، ليصبح دارسًا للفكر بوصفه فلسفة– أى قدرة الفكر على صياغة بيانات عامة ذات مضمون ذكى ولكن لأن المؤرخ قد تناول الفيلسوف الذى يدرسه عن طريق دراسة اللغة الأوسع ، فإنه يمكن الآن أن يفكر فى مستوى التجريد الذى يجعل المفكر يميل إلى الإفادة من اللغة . والآن يستطيع المؤرخ أن يضفى قدرًا من الدقة داخل التراث ؛ لأن بوسعه أن يدرس المطالب التى يفرضها المفكر والتراث على كل منهما الآخر» (pp. 200-1) .

لقد تكررت رواية هذه القصة التى تدور حول ستينيات القرن العشرين مرات ومرات ولدى الطلاب ملخصات كثيرة متاحة عن موضوعات هذا النقاش المنهجي الذى دار بين أعضاء هيئة التدريس [٥]. وكانت هناك ردود كثيرة مشاغبة قليلاً إزاء ما كتبه دون، وبوكوك، وسكينر، كما كانت هناك بعض الردود الدفاعية عن المبادئ نفسها . ولكن بالنسبة لأولئك الذين ينتمون إلى الجيل الأصغر من بيننا ، والذين كان هذا النضال بالنسبة لهم بعيداً مثلما هو الحال دائما مع شئون الأخوة الكبار، كانت المعضلة على الدوام تتمثل فى فهم ماهية مسألة الدراسة اللاتاريخية (بالمعنى الذى يقصده سكينر) لتاريخ الأفكار . لقد كان من الواضح بالنسبة لنا أنه (كما أوضح كولينجوود بشكل مدمر قبل ثلاثين سنة) إذا ما أراد المرء فهم تاريخ شىء ما، فإن عليه فعلاً أن يقوم بالعمل الضرورى للتحقيق فى الأدلة واستخراج ما يسعى الناس المهتمون إليه .

«يقول هاملت : «سبلود ! هل تظن أن من السهل أن تلعب على بدلاً من أن تلعب على المزمار؟» أولئك الفلاسفة البارزون، روزنكرانتز ، وجيلدنشتيرن ، يظنون تماماً أن بوسعهم أن يكتشفوا ما يدور حوله نص Parmenides بمجرد قراءته ؛ ولكن إذا ما أخذتهم إلى البوابة الجنوبية لمزارع البيت وقلت : «من فضلكم ميزوا الفترات المختلفة للبناء هنا، وأشرحوا غرض البنائين الذى كان فى أذهانهم فى كل فترة » فإنهم سوف يحتجون بقولهم : «صدقنى ، أنا لا أستطيع ». هل تظن أن Parmenides أسهل على الفهم من قلعة رومانية صغيرة عفنة ؟ سبلود »[٦].

كان هذا على تلك الدرجة من الوضوح فى سنة ١٩٣٩م، فما الداعى لقوله ثانية، على الرغم من أن ذلك يتم مع مجموعة مختلفة من الاعتبارات الفلسفية سنة ١٩٦٩؟

ومن بين المعلقين على هذه المسائل ، كان جونيل Gunnell وحده الذى تناول هذا السؤال ، ورأى فيه (عنه حق) سؤالاً حول سمات العلوم السياسية فى منتصف القرن العشرين . بيد أن الإجابة المخصوصة التى قدمها جونيل على السؤال كانت أقل إقناعاً، وسوف أقترح إجابة مختلفة. وباعتبار ذلك جزءا من معالجة المسألة ، رسم جونيل صورة سريعة لتاريخ أدى فيه تطور«المذهب السلوكى» فى العلوم السياسية إبان الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين إلى شن الهجمات على كتابة تاريخ الفكر السياسى باعتباره نشاطاً ذا أهمية ضئيلة. وقد اقتبس جونيل عن ديفيد إيستون David Easton فى سنة ١٩٥١ شاكياً من أن

التفكير السياسى الغربى التقليدى قد حل محله البحث فى تاريخ الفكر السياسى، وهو نشاط عاش بشكل «طفيلى» على أفكار الماضى ولم يعد يسعى سواء إلى تقديم العلوم السياسية التطبيقية الصحيحة أو لبناء «إطار قيمى للمرجعية» (Gunnel, Political Theory p.4) .

وهنا وقفت «السلوكية دلالة على مفهوم واسع لعلم سياسى تطبيقى (٧)؛ تميزه دراسات (كمية غالبا) عن القوانين شبه العلمية للسلوك البشرى ، وانفصال صارم بين الحقائق والقيم- «التقييم الأخلاقى والشرح التطبيقى ينطويان على نوعين من الفروض يجب إبقاؤهما منفصلين من الناحية التحليلية، من أجل الوضوح» (ibid, p.7) . وأخذ جونيل النقطة الرئيسية فى نقد إيستون لتاريخ الفكر السياسى فى الشئون السياسية؛ وقد خمَّن أن «استجابة مؤرخى النظرية السياسية للتحدى الذى يطرحه أنصار مذهب السلوكية فيما يتعلق بأهمية دراسة التراث لم يكن ليعيد فقط تأكيد صلاحيته لكل من العلم السياسى والشئون السياسية ، وإنما لكى يصرُّ على القول بأنه أمر حاسم تمامًا الآن. (ibid, p. 26) وفكرة تراث عظيم من الجدل السياسى فى غرب أوربا صارت الآن، حسبما يجادل جوينل، الشاهد على نقد من نوعية الموقف الحديث الذى قدمه إيستون وصحبه، إذ إن طعنهم فى تاريخ الفكر السياسى تحول إلى خصومة تاريخية بين طريقة للتفكير فى الشئون السياسية التى لايمكن التعبير عنها سوى فى لغة الحضارة التى تجسدت فى النصوص الكلاسيكية من أفلاطون حتى ماركس، وطريقة أخرى للتفكير تم التعبير عنها فى العلم المزيف لتحليل أو حيثما كان يتم تفضيل النظرية «السلوكية» . ويتخذ جونيل من كتاب مثل ستراوس Strauss، أو ڤويجلين Voegelin، أو آرندت Arendt أمثلة بارزة للمنظرين الذين ناصروا هذه الفكرة عن التراث - وبطبيعة الحال فى حالة ستراوس على الأقل كان وجود مثل هذا التراث وتعذر النزول بمحتواه إلى مجرد مجموعة حديثة وموضوعية من الأقوال أمرًا مهمًا بالنسبة للرؤية السياسية .

وهكذا شرح جونيل الحركة التى هاجمها كل من سكينر، ودون، وبوكوك باعتبارها استجابة لعداوة العلم السياسى فيما بعد الحرب تجاه كتابة تواريخ الفكر السياسى، وباعتبارها تأكيداً على الصلاحية المستمرة للعلم السياسى غير الكمى وغير السلوكى . وعلى أية حال كانت هناك مشكلتان بشأن رواية جونيل. كانت أولاهما أنه افترض أن هذه الفكرة عن «التراث» كانت الهدف الأولى لسكينر والآخرين، وبالتالى انتقد ملاحظاتهم على المنهج بوصفها فشلاً فى إدراك القصد من نقد الحداثة والعلم السياسى الحديث المتضمن فى كتابات

أناس مثل ستراوس .(ibi , p. 24) وفى الحقيقة ، وكما رأينا أنه على الرغم من أن ملاحظاتهم كان يمكن تطبيقها على ستراوس وآريندت فإن الأهداف الفعلية لانتقاداتهم الصريحة كانوا بشكل أكثر عمومية الأشخاص المعروفين فى ستينيات القرن العشرين ممن كتبوا عن تاريخ الفكر السياسى من وجهة نظر العلوم السياسية المحافظة ، مثل ميركل Merkl و وهاكر Hacker .

وكانت المشكلة الثانية بشأن دراسة جونيل أنه هو نفسه عرف ووثق بشكل كامل حقيقة أن نوع الكتابة عن تاريخ الفكر السياسى التى هاجمها إيستون كانت نفسها فرعًا لوجهة نظر وضعية و«سلوكية» حقًا عن الشئون السياسية ترجع إلى بداية القرن العشرين على الأقل. وهناك عدد من الأمثلة المذهلة على هذا، ومن أفضلها دراسة چورچ كاتلين Georg Catlin (أحد المؤلفين الذين خصهم سكينر بالهجوم فى سنة ١٩٦٩م) الذى كتب تاريخًا عن الفلاسفة السياسيين (٨)، وبعض الأعمال الوضعية عن إمكانية القيام بدراسة «علمية» حقيقية للشئون السياسية. وبالتالى مثلما يسلم جونيل، «أنه من الصعب أن نميز فى هذه الأدبيات، حتى أواخر أربعينيات القرن العشرين، المصدر الذى استقى منه إيستون تصوره لكل من سمات البحث فى تاريخ النظرية السياسية أو المقاصد والاهتمامات التى أثارتها » (p.21) وهو ما يجعل كلاً من الهجوم السلوكى المفترض على تاريخ الفكر السياسى فى خمسينيات القرن العشرين ، والإصرار الثأرى على وجود تراث عظيم من جانب مناهضى الوضعية ، يبدو بلا هدف إلى حد كبير.

وخطأ جونيل، والخطأ الذى ارتكبه كثير من الكتاب الذين كتبوا فى هذه المسائل، أنهم لم يأخذوا بجدية مزاعم أنصار المذهب السلوكى من أمثال إيستون بأن دراسة الشئون السياسية كان لابد وأن تنطوى على كل من الحقائق والقيم، وأنهما ينتميان إلى مجالين متمايزين منطقيا- إذ يرجع التمييز ما بين الحقيقة والقيمة إلى كانت Kand (فى شكله القوى) والذى هو أساس جوهرى بالنسبة للعلوم الإنسانية الحديثة . وأنها لحقيقة أن معظم المتخصصين فى العلوم الإنسانية يأخذون ممارستهم المهنية المعتادة على أنها استكشاف جانب الحقيقة فى هذا التمييز، بيد أنهم اعترفوا جميعا فى أكثر لحظات تفكيرهم عقلانية بأن «القيم» السياسية كان لها أيضا أن تتولد بالطريقة نفسها . إن المزج بين هذا الاعتراف وبين محاولة واهنة جداً بالفعل لتأمل كيف يمكن للقيم أن تبدو أو يتم تبريرها هو الملمح الأشد إثارة للدهشة فى العلم

السياسى الأنجلو - أمريكى (والأمريكى بصفة خاصة) فى النصف الأول من القرن العشرين. وربما نصفه بأنه مذهب «كانت» بدون نظرية كانت الأخلاقية، على الرغم من أن المشاركين أنفسهم غالبًا ما يوصفون بأنهم من أتباع مذهب هيوم (٩)- وهو ما يعنى قبول التمييز المنطقى ما بين العبارات العملية والعبارات القيمية، ولكن رفض الاستنباط المتسامى للأخلاق يمكن أن نجده حقًا فى كتاب : Groundwork of the Metaphysics of Morals

وبصورة أكثر عمومية يفترض علماء الإنسانيات هؤلاء أن يكون الحسم لـ «جماعة المواطنين» بطريقة غير محددة بشكل أو بآخر .

«إن الجمال فى عيون المتأمل» مجاز يذكرنا بأن الأحكام على الأفضل أو الأسوأ تنطوى على قيم غير موضوعية. بيد أن هذا لا ينكر أن أنف شخص ما يمكن أن يكون من الناحية الموضوعية أقصر من أنف شخص آخر . وبالمثل ، فإن هناك عناصر من الحقيقة الراسخة فى موقف اقتصادى محدد ، مهما كان من الصعب التعرف عليها وعزلها . وليست هناك نظرية واحدة عن الاقتصاد بالنسبة للجمهوريين وأخرى للديموقراطيين ، نظرية للعمال وأخرى لأصحاب العمل، نظرية للروس ونظرية أخرى للصينيين . فعلى أساس مبادئ أساسية كثيرة تتعلق بالأسعار والتوظيف ، يكون معظم الاقتصاديين - وليس كلهم - على اتفاق تام».

«هذا القول لايعنى أن الاقتصاديين يتفقون تمامًا فى مجال السياسة. ذلك أن الاقتصادى (أ) يمكن أن يكون مع التوظيف الكامل مهما كانت التكاليف . وقد لايعتبر الاقتصادى (ب) أن لذلك أهمية حيوية تماثل أهمية استقرار الأسعار . والأسئلة الأساسية المتعلقة بالصواب والخطأ فى الأهداف لايمكن حلها بالعلم وحده . فهى تنتمى إلى مجال الأخلاق و«أحكام القيمة» . ويجب على جماعة المواطنين أن تقرر فى النهاية وتحسم مثل هذه المسائل. وما يمكن للخبير أن يشير إلى البدائل الممكنة والتكلفة الحقيقية التى يمكن أن تنطوى عليها القرارات المختلفة. بيد أنه مع هذا لا يزال ينبغى على العقل أن يوجه إلى القلب ما يدخل فى نطاق مملكة القلب . لأنه، كما قال باسكال ، إن للقلب أسبابًا لن يعرفها العقل أبدًا » (١٠).

هذه الفقرة اللافتة توضح أن علماء الإنسانيات فى أوائل القرن العشرين كانوا يفكرون فى القيم باعتبارها فى جوهرها مسائل تخص القلب أكثر مما تخص العقل- أى أنه لايمكن أن تكون هناك أسس منهجية وعقلانية لها. بيد أن جميع الرجال يملكونها ، وباعتبارهم «مواطنين» سوف يستخدمونها فى قراراتهم. وإذا ما أخذنا هذا الرأى فى اعتبارنا ، كان من

الواضح أنه من الأهمية العملية بمكان ألا تقوم جماعة المواطنين بنزع قيمها من الهواء بشكل عشوائى ، ولايمكن الآن أن تحرمهم من الاستنباط المتسامى» ؛ والقصد الرئيسى من دراسة تاريخ الفكر السياسى، حسبما توضح الكتب الدراسية مرات ومرات ، كان تزويد القارئ (الذى كان فى العادة طالبًا أمريكيًا فى الجامعة ، وكان ينظر إليه باعتباره مواطنًا مستقبليًا) بطائفة من المواقف السياسية التى لم يكن بوسعه أن يخلقها بنفسه (فقد كانت من أعمال «عبقرى») ولكن كان يمكنه الاستجابة لها وأن يختار فيما بينها بطريقة محكومة ومنضبطة على نحو جيد .

والواقع ، أن من المذهل أن نرى كيف كانت الكثير من هذه الكتب الدراسية نافرة من أن تلزم نفسها بأية مزاعم عن الحقيقة أو الزيف فى النظريات السياسية التى كانت تقوم بدراستها : فقد قال سابابن Sabine بشكل معبِّر إنه «إذا ما أخذنا نظرية سياسية برمتها يصعب القول بأنها صحيحة»(١١) ولم يكن من المفترض أن جميع المؤلفين الذين تمت دراستهم على أيديهم قد طرحوا نظرات ثاقبة فى نظرية حقيقية (وفى هذاالصدد اختلف هؤلاء المؤرخون الذين كتبوا فى أوائل القرن العشرين عن الفكر السياسى عن معاصريهم من مؤرخى العلوم الطبيعية) ، ولكنهم كانوا بمثابة مصادر تراث غربى محدد فى الفكر السياسى شارك فيه القراء آنذاك حسبما انعكس فى مدى الأفكار التى طرحتها الكتب الدراسية (١٢).

ومن المهم أن نعرف أن هذا الرأى قد أنكر وجود نظريات سياسية حقيقية بشكل موضوعى أو بصورة كلية أصيلة ، ، ولكنه أكد على الكلية أو على الأقل صلاحية الموضوعات التى كانت النصوص العظيمة تتناولها- وكان هذا هو ما شكل فائدتها المستمرة . ويجب أن نميز هذا الموقف عن موقف كُتَّاب مثل ستراوس أو هانز مورجنثاو ، الذين أصروا (بشكل واضح فى مواجهة زملائهم فى أقسام العلوم السياسية الأمريكية) على أن هناك حقائق فى النظرية السياسية «بغض النظر عن الزمان والمكان» (١٣). وكان كل رأى ينطوى على النصوص وحدها التى يجب دراستها، طالما أنها كانت تمثل الاستجابة من قبل «العقول العظيمة» إزاء طائفة من المشكلات المتواترة، مثلما كان مألوفا لطالب الجامعات الأمريكية فى خمسينيات القرن العشرين شأنه شأن مواطنى المدينة الدولة Polis الإغريقية القديمة؛ بيد أن هناك رأيا واحداً اتخذ منهجاً محايداً إلى حد ما لدراسة صلاحيات كل من الإجابات المختلفة، والذى لم يكن يهمه سوى أن يضعها فى ثقافة الغرب الأخلاقية الواسعة، على حين أن الرأى الآخر كان لديه

إجابة واضحة من لدنه على المشكلات المتواترة . وعلى العموم ، كانت المقاربة الأخيرة تبدو أقل اهتمامًا بتاريخ النظرية السياسية ، لأنها كانت تمتلك معيارًا يتعدى التاريخ لقياس الاستقامة الأخلاقية (وبذلك كان مورجنثاو شديد الانتقاد لهذا العلم) (١٤). وعلى أية حال، فإن شتراوس كان حالة خاصة، بسبب اعتقاده (وهو ما لاحظته بالفعل وعلقت عليه) أن هذا المعيار لم يكن متاحًا سوى للناس الذين كرسوا أنفسهم لدراسة التراث ونصوصه .

وأول هذين الرأيين كان، بمقاييس الثقافة السياسية طويلة المدى، مقاربة أنيقة لغويا ومبجلة بشكل لافت للنظر لدور القيم في الحياة السياسية ، وكان من المفترض أن شخصيتها غير المرضية هي التي كان إيستون يلفت النظر إليها في مقالته التي نشرها سنة ١٩٥١م(١٥). وكانت الفكرة مؤداها أن طائفة متفاوتة من القيم يمكن أن تغرس في أذهان جماعة المواطنين من خلال تعليم مجموعة من النصوص المعقولة والتي لا تتسم بغرابة زائدة ، وتختلف فيما بينها بطريقة حافزة فكريًا . هذه الطائفة المتفاوتة يمكن التوفيق فيما بينها عندئذ داخل نطاق المجتمع بواسطة نوع ما من العملية المؤسسية ، سيكون للمواطنين فيها أن يقرروا ما يتعلق بالمبادئ التي يجب أن يحكم مجتمعهم على أساسها . ومعظم مؤلفي «النصوص العظيمة» أنفسهم سوف يظنون أن هذا رأي عبثي عن المبادئ السياسية، ولكن يبدو بصورة واضحة من داخل قلعة العلوم الإنسانية الحديثة أن من العبث إقناع الباحثين الأنجلو أمريكيين المتخصصين في العلوم السياسية. وكان الذي قدم هذا الإيضاح هو كينيث أرو Kenneth Arrow (ومن المثير للسخرية ، في السنة نفسها التي نشرت فيها مقالة إيستون ، ١٩٥١م) في «نظريته» المشهورة (١٦)، التي برهن فيها على أنه لم يكن هناك منهج إجرائي محايد لتضمين القيم الفردية في مجموعة من المبادئ الاجتماعية التي لم تنتهك بعض الفروض الواضحة تمامًا والأساسية التي يحتمل أن يطرحها كافة المواطنين تقريبًا (مثل أنه لا ينبغي لفرد واحد في المدينة أن يكون ديكتاتورا على الباقين) . لقد كان مغزى كتاب أرو أن أولئك الذين صدقوا أنه يمكن على نحو ما للبيروقراطية المحايدة المؤلفة من خبراء العلوم السياسية أن يلجأوا إلى جماعة المواطنين طلبًا لقرار فعال عن القيم التي يجب أن تنطوي عليها العملية السياسية سوف يبدون الآن وكأنهم يصفرون في الظلام .

وقد صار كتاب أرو مؤثرًا بشكل خاص ، بعد الطبعة الثانية المعدلة ، بعنوان :
Social Choice and Individual Values, (1963) .

وقد بهر أشد المتخصصين فى العلوم السياسية صرامة بقوته المنهجية، وأقنعهم بأن فروضهم الغامضة عن الشخصية الاجتماعية للقيم يجب أن تخضع للمراجعة . وبهذا الفعل، كان مناسبًا لوجهة نظر جامعة فى منتصف ستينيات القرن العشرين (لاسيما فى أمريكا) تقول بأن الفلسفة السياسية من النوع التقليدى الواضح ينبغى أن تعاد كتابتها من جديد . وأظن أنه ليس من قبيل المصادفة أن أبرز من عرض الفلسفة السياسية الجديدة ، وهو چون راولس John Rawls يجب أن يعتبر نفسه ، ويجب أن يعتبره الآخرون ، نوعا من الفلاسفة الكانتيين لأن الطريق الذى تم اتخاذه للخروج من الفلسفة الكانتية الخام فى أمريكا فى الشطر الأول من القرن العشرين كان من خلال بناء فلسفة كانتية أكثر حنكة . بيد أن كثرة من القيم التى لم تكن قد رسخت لم يعد لها أى معنى فى الفضاء الأخلاقى للفكر السياسى الأمريكى ، ومن ثم فإن الدور التقليدى لتاريخ الفكر السياسى فى تلك الثقافة لم يتم حسمه . وكان هذا هو ما استشعره دون وسكينر فى نهاية فترة الستينيات من القرن العشرين، ومضى هجومهم ضد تاريخ الفكر السياسى التقليدى جنبا إلى جنب مع إحساس واضح بأن فلسفة سياسية حديثة ومنهجية كانت ممكنة على الأقل . وهذا ما قاله سكينر بالضبط (١٧):

«إن كل ما أود أن أصرً عليه هو أنه حينما يكون هناك زعم بأن هدف الدراسة التاريخية لمثل هذه الأسئلة ، أننا قد نتعلم مباشرة من الإجابات ، وسوف نجد أن ما يُعد إجابة سوف يبدو عادة ، فى ثقافة مختلفة أو فى فترة مختلفة، مختلفًا جداً بحد ذاته لدرجة أنه لا يمكن أن يكون «نفسه» بالمعنى المطلوب على الإطلاق . وبطريقة أكثر فجاجة : يجب علينا أن نتعلم أن نصنع تفكيرنا لأنفسنا . إن التاريخ «الجديد» للفكر السياسى كان على هذا النحو هو المعادل للفلسفة السياسية «الجديدة» فى العالم الناطق بالإنجليزية فى سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته : فقد حوَّل عبء تعليم المواطنين إلى قيم سياسية عبر ممر الأكاديمية وفى حجرات الفلاسفة الذين كانوا ، مرة أخرى، على استعداد للاضطلاع به .

ومن دواعى السخرية (بالنظر إلى نظرية جونيل بأن ستراوس وڤويجلين وأرنيدت كانوا الأهداف الأساسية لهذا التاريخ الجديد)، أن كتابا مثل ستراوس وأتباعه ، كما رأينا ، كانوا فى وضع أفضل يتيح لهم مقاومة هذا التنازل على نحو أحسن من حلفاء الوضعيين من أمثال ميركل . والزعم بأن هناك فلسفة مفردة حقيقية يمكن استخراجها فقط من خلال القراءة الخاصة للنصوص العظمى (وهو الزعم الذى ارتبط على نحوَ أكثر وضوحاً بستراوس) ليس

مستحيلاً من الناحية المنطقية (أكثر من الزعم بأن هناك مصدراً مؤكد النجاح للمذهب الأخلاقي يمكن أن نجده على الضفة اليمنى لنهر التيبر) . وبمعنى ما، كان كل من ستراوس وراول يحاولان أن يمدأ قراءهما بفلسفة سياسية صالحة مفردة ، على الرغم من أنهما كانا يستخدمان مناهج مختلفة لتوليدها وهكذا ، فالبقاء المؤسس لمذهب ستراوس فى أقسام العلوم السياسية فى أمريكا الشمالية لا يعد مفاجأة بأى حال من الأحوال .

وكان لابد من القول بأن نموذج الفلسفة السياسية الجديدة التى ستمد أمريكا الحديثة (والمجتمعات التى تشبهها فى وضعها بالتالى) بطائفة متماسكة من القيم كانت تبدو أقل إقناعًا فى سنة ١٩٩٠م منها فى سنة ١٩٧٠م. إذ إن عشرين سنة من النشاط الفلسفى المؤثر قد خدمت إلى حد كبير فى التأكيد على الطبيعة المتفاوتة للقيم الحديثة، على الرغم من الرضا المذهل عن هذا من جانب بعض المنظرين الأدبيين. وقد استؤنف البحث مرة ثانية ، كما كان قبل كتاب أرو، سعيا وراء نظرية تسعى إلى التوفيق بين مجموعة راديكالية من القيم (على الرغم من أنه لا أحد يفترض أن «جماعة المواطنين» سوف أو يجب أن يحسموا المسألة) . وفى هذا السياق، لن يكون من المدهش إذا ما وصل الناس إلى الاعتقاد بأن التفكير فى الأدبيات السياسية الموجودة كانت طريقة للتفكير فى القيم السياسية وطريقة لوضع السكان متنوعى المشارب فى مجتمع ليبرالى يؤدى إلى نوع من التوازن الفكرى الواسع؛ والحقيقة أن هذا بقدر أو بآخر هو ما يقترحه ريتشارد رورتى (على الرغم من أن الأدب المتصل بهذا من وجهة نظره أكثر اتساعًا بكثير مما غطاه سابين Sabine) : وعلى الرغم من أن البلاغة التى يتحدث بها رورتى عن «السخرية» مختلفة (بشكل مناسب) عن النسبية الخجولة لدى كتاب مثل سابين، فليس من الواضح أن هناك فجوة فكرية كبيرة على النحو الذى يفترضه (١٨).

والقصة التى أرويها قصة معروفة عن منظرى اللغة الإنجليزية . كما أن تدهور النظرية السياسية عن اللغة الإنجليزية فى أوائل القرن العشرين وإحياءها أواخر ستينيات هذا القرن تلعب دورا حاسمًا . والموضوعات محل الجدل فى مختلف المواريث الفكرية فى فرنسا أو ألمانيا لعبت (فى البداية) دوراً ضئيلاً للغاية فى هذه المجادلات التى دارت فى ستينيات القرن العشرين ، كما أن سكينر، ودون ، وبوكوك كانوا دائمًا يقاومون بشكل معتدل أية محاولة لربط أعمالهم بأعمال المنظرين من أمثال هيرش (الذى اعتمد على هذه المجادلات) أو كوسلليك Koselleck . والسبب الرئيسى لهذا كان ، من وجهة نظرهم، أن النقطة المهمة التى يجب

إرساؤها هى التشابه المنهجى بين تاريخ الأفكار وتاريخ الأنشطة الإنسانية الأخرى. وكان هذا ما يكمن فى قلب محاولات سكينر المتكررة لتحليل الأقوال البلاغية السياسية باعتبارها «أفعال كلام» ، ومن ثم يتناولها بالطريقة نفسها التى يتناولها بها أى مؤرخ آخر الأنواع الأخرى من «الفعل». ولم يكن السؤال الأوسع عن كيفية تحقيق فهمنا التاريخى للنشاط البشرى عامة محور اهتمامهم الثقافى.

وفى أوربا، كانت هذه هى المسألة الأساسية، وحقيقة أن التاريخ الإنسانى تألف من الفعل والقول ، وكانت مقبولة عادة دونما مناقشة. إذ إن ديلتاى Dilthey ، على سبيل المثال ، فى كتابه المعنون : The Construction of the Historical World in the Human Studies

أوضح أن «الفهم» و«التعبير» ، وهما الموضوعان الأساسيان فى التراث المعرفى ، يهتمان بأنواع ثلاثة من «التعبير» : «المفاهيم ، والأحكام والبنى الفكرية الأكبر»، و«الأفعال»، و«التعبيرات العاطفية»(١٩). وقد سار على نهجه (أو بالأحرى نهج هيجل) جميع المشاركين فى المجادلات الألمانية حول المسائل المعرفية. أما الجدل المنهجى الإنجليزى فكان بهذا واقفًا فى زاوية من الجدل الدائر فى القارة ، لأن فهم ما قاله سكينر من القول إلى الفعل استطاع أن يجد أرضا له سواء فى معسكر Habermas أو معسكر جادامير Gadamer. والواقع ، أنه بإشارته الصريحة إلى كولينجوود، كان بمثابة استعادة لذلك الاحترام الإنجليزى القديم تجاه التأويل الألمانى .

ولهذا السبب، حسبما لاحظ ديفيد هوللينجر (٢٠)، David Hollinger ، فإن النقد الذى يوجه إلى سكينر من وجهة نظر ما بعد البنيوية (مثل شكاوى دريدا من ديفيد هارلان David Harlan)(٢١) تخطئ هدفها ، لأنه إذا ما كان يجب علينا أن نمتلك تاريخًا مفككا للأفكار فيجب أن يكون لدينا بالمثل تاريخ مفكك «لكل شئ» ، ومن المفروض أن يكون سكينر سعيدًا بهذا الاستنتاج ، مع افتراض أن المقدمة صحيحة – وهو شئ يقف منه منهجه موقفًا محايدًا، بالضبط . إذ إن ممارسته المهنية، من ناحية أخرى، وبعض ملاحظاته المعبرة، تشير إلى أنه وافق على إمكانية وجود نوع ما من الفهم الحقيقى لمساعى الفاعلين التاريخيين على الأقل؛ أو أن فهمًا من هذا النوع افتراض إجرائى عميق بأن مشاركة أناس آخرين فى الفعل يعنى التساؤل عن أصالته ، وهو ما يعنى ببساطة اتخاذ نمط الرؤية الراديكالية المتشككة التى لايمكن لأحد أن يعيش بها فعلاً (٢٢).

ويمكننا الآن أن نرى لماذا ظهر تاريخ الفكر السياسى الذى كُتب فعلا فى عيون الذين انتقدوه على خلفية منهجية أقل أصالة وإبهارًا مما توقعوه. وأى دليل يمكن لأى مؤرخ متعقل قبوله باعتباره جزءًا من تفسير سبب قبول الفعل التاريخى لدى أى مؤرخ حديث للفكر السياسى، وغالبا ما لن يكون هناك منهج واضح ووحيد لتحديد ما يصلح أن يكون دليلاً على هذا الفعل. وثمة مثال جيد على هذا يطرحه موضوع يتطلب من مؤرخى الفكر السياسى عمومًا أن يتناولوه- وهو مسألة ما إذا كان هناك فرق كبير أم لا بين الأعمال التى أنتجها المؤلف نفسه فى فترات مختلفة من حياته. وهى مشكلة ما يسمى «القطيعة المعرفية Coupure épistémologique » فى تقارير ماركس وهى مشكلة العلاقة بين كتاب ماكيافيللى الأمير وكتابه «المخاطبات» ، وبين التنقيحات المختلفة لنظرية هوبس Hobbes السياسية، وبين كتابات لوك الأولى وكتاباته الأخيرة عن التسامح، وبين «جمهورية» أفلاطون وكتابه عن القوانين ، وهلم جرا (وكما توضح هذه القائمة، ليس هناك مشهد سياسى كبير لاتوجد مشكلة بخصوصه) .

ومن الواضح، أن بعض القراءات للنصوص محل التساؤل سوف توفق بين هذه النصوص، وأن قراءات أخرى سوف تتطلب إبقاءها منفصلة . ومنظور التوفيق ربما يبدو فى حد ذاته جزءًا من التبرير لقراءة بعينها ، ولكن قد يبدو منظور الفصل كذلك- فعلى سبيل المثال، فإنه ربما يفسِّر لماذا تعين على كاتب ما أن يتناول المادة نفسها مرتين . وليس هناك افتراض مسبق بأى من الطريقتين (وفى هذا الخصوص يمكن الظن بأن الاتساق بين النصوص يختلف عن الاتساق داخل النص، حيث افترض بعض الناس أن عبء البرهنة إنما يقع على أولئك الذين ظنوا أن نصًا ما غير متسق داخليا) . ولكن من الصعب أن ترى ما كان يمكن أن يكفى ليكون مجادلة لاحقة. فلا الدليل الداخلى أو الخارجى يحتمل أن يثبت المسألة . وما يعول عليه بوصفه دليلاً داخليًا سوف يتغير إذا ما كان الترفق فى التفسير يتطلب منا أن نفترض وجود الاتساق بين الأعمال، على حين أن الدليل الخارجى، فى غياب تقرير واضح جدير بالثقة وغير ملتبس من جانب المؤلف عن العلاقة بين الأعمال ، (وأعرف أنه ليس هناك تقرير أو بيان مثل هذا من جانب أي منظِّر عظيم) ، لن يؤدى إلى قلب أى قراءة معقولة لها رأسًا على عقب .

وليست هناك نظرية عن كيفية تفسير النصوص سوف تغطى هذه الحالة ، لأن ما على المحك هنا هو هوية النّص نفسها . ومن وجهة نظر واحدة ممكنة، يكون النص مجموعة كاملة من الأقوال التى قال بها المؤلف فى موضوع ما (عمليًا إذا ما كانت الأعمال محل السؤال قد أذيعت فى وقت ما سويًا بواسطة المؤلف، مثل ماكيافيللى) ، ومن وجهة نظر أخرى يكون النص

هو كل عمل مترابط يحمل اسما بصورة منفصلة . وفي رأى آخر أيضا أن النص هو كل كلام يؤخذ بشكل منفصل. فلماذا ينبغي رؤية عمل على مدى سنوات عديدة (مثل رأس المال لماركس) على أنه وحدة واحدة بدلاً من اعتباره عدة قطع منفصلة كتبت فى ساحة زمنية أقصر (مثل مقالات ميل عن الحرية والمذهب النفعى) ؟

إن القصد فى هذه الملاحظات ليس التساؤل عن إمكانية الكتابة الذكية لتاريخ الفكر السياسى، ولكن التأكيد على أنه فى النهاية سوف يكون هناك بعض الحكم من جانب المؤرخ عن كيفية رواية قصته الخاصة ، وما يبدو معقولاً فى تلك الظروف لسلوك الكائن البشرى، ولا يمكن البرهنة عليه بشكل حاسم فى مواجهة أحكام أخرى مختلفة. إن الخصال الفكرية التى كانت مؤهلاً للمؤرخ الجيد قبل سنة ١٩٦٩م هى نفسها التى كانت تصلح بعد سنة ١٩٦٩م ، ولايجب أن يكون مدهشا أن أفضل تواريخ الفكر السياسى التى كتبت فى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين كانت قد استهلكت التزاماتها المنهجية (على العموم) بخفة واضحة . أما ما لم يؤخذ بخفة ، على أية حال ، فكان هو الاقتناع بأن ما كانوا يكتبونه تاريخ، وليس عرضا لمجموعة من القيم لجماعة المواطنين أواخر القرن العشرين.

التاريخ الفكرى ومنافسوه

هناك منافسان رئيسيان للتاريخ الفكرى الأنجلو- أمريكى الذى ناقشه ريتشارد توك فى هذا الفصل. أحدهما «تاريخ العقليات» الذى تمت ممارسته فى فرنسا وارتبط بمدرسة الحوليات والذى ورد ذكره فى الفصل الأول وتمت مناقشته فى الفصل الثانى . هذه المقاربة ، التى تركز على الأفكار والعواطف اليومية أو الفروض المسكوت عنها للناس العاديين، تمرًّ حاليا بعملية انتقال وتحول إلى تاريخ أوسع لـ «التصورات» أو L'histoire de l'imajinair Social، الذى يتضمن الصور والكلمات على السواء .

والمقاربة المنافسة الثانية تطورت فى ألمانيا . وهى معروفة باسم «تاريخ المفاهيم» على الحدود بين تاريخ اللغة وتاريخ المجتمع. ويرجع تاريخ المفاهيم إلى ستينيات القرن العشرين، وإلى المناقشات فيما بين ثلاثة مؤرخين من الناطقين بالألمانية. وكان المشارك الأكبر هو مؤرخ العصور الوسطى النمساوى أوتو برونر Otto Brunner ، المشهور بنقده للفكر المفارق زمنياً لرفاقه من مؤرخى العصور الوسطى وكذلك بسبب عضويته السابقة فى الحزب النازى . ثم جاء ڤيرنر كونزى Werner Conze ، وهو متخصص فى التاريخ الاجتماعى بجامعة هيدلبرج. وكان أصغر الثلاثة هو تلميذ كونزى المسمى كوسيلليك Koselleck ، الذى كان قد

درس أيضا مع الفيلسوف كارل شميت ، والفيلسوف مارتن هيدجر ، وهانز - جريجورى جادامر .

وقد خط برونر ، وكونزى وكوسيليك تاريخًا جماعيًا للمفاهيم السياسية والاجتماعية ، مع إشارة خاصة إلى ألمانيا فى فترة ما بين ١٧٥٠-١٨٥٠م التى صارت تعرف باسم فترة السرج Sattelzeit ، والتى ربما تكون لها ترجمة مجازية أفضل هى «خط تقسيم المياه» ؛ وعلى أية حال ، كانت هى فترة الانتقال إلى الحداثة. وثمة مجموعة من المتعاونين تشكلت، وعقدت الاجتماعات ، وظهرت ثمانية مجلدات من (تاريخ المفاهيم الأساسية»، وليست بعيدة كثيرا عن الكلمات الأساسية» كما استخدمها ريموند وليامز (Raymond Williams) Geschichtliche Grundbegriffe الذى صدرت أجزاؤه الثمانية فيما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٩٣م (٢٣). وعلى الرغم من أهمية الدراسات الأخرى التى قام بها هذا الثلاثى ومساعدوهم، فإن المناقشات الواردة فى «تاريخ المفاهيم الأساسية » تركز بطبيعة الحال على هذا القاموس التاريخى، الذى يناقش حوالى مائة وعشرين مفهومًا فى حوالى سبعة آلاف صفحة . وثمة ملمحان فى هذا المشروع الجماعى يتمايزان بشكل خاص. أولا ، هذا «تاريخ اجتماعى للأفكار» بالمعنى المضبوط نسبيًا لاستخدام المصادر التى توضح الممارسات اليومية كما تؤكد على التأثير الذى يطرأ على الحياة اليومية من التغيرات التى تطرأ على المفاهيم الأصلية . وثانيا، أن المجموعة تعلمت من علماء اللغة أن تضع كلمات محددة فى مجال أوسع يتضمن أضدادها ومرادفاتها على السواء.

وحتى وقت حديث نسبيًا، لم يكن تاريخ العقليات ولا تاريخ المفاهيم يؤخذ بجدية شديدة فى العالم الناطق بالإنجليزية. وكانت إحدى علامات المقاومة تتمثل فى عادة بعض المؤرخين البريطانيين فى الكلام عن menalite بدلاً من mentality ، وبذلك يوضحون أنهم كانوا يعتبرون الفكر كائنًا غريبًا. وكان مصطلح Begriffsgeschichte يذكر بمعدلات أقل. وعندما كنت أخطط لهذا الكتاب فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، كنت ما أزال عاجزًا عن أن أجد باحثًا على استعداد للمقارنة والمقابلة بين التاريخ الفكرى والموضوعات المنافسة له .

واليوم، على أية حال، هناك إشارات على أن الموقف آخذ فى التغير. ذلك أن القبول المتزايد لتاريخ العقليات فى العالم الناطق بالإنجليزية يجب أن يرتبط بصعود «التاريخ الثقافى» (ويجب ربط كل من المصطلح والمقاربة به) . وتتضمن الأدلة على هذا الصعود الظهور الحديث

للتواريخ الثقافية عن الإيماءات ، والمرح والسفر ومع اهتمام أكثر عمومية بالمواجهات الثقافية، التى تتضح بشكل خاص فى مجرى الاحتفالات التذكارية التى جرت سنة ١٤٩٢ م «بالاكتشاف» الأوربى للأمريكتين [٢٤]. ويتحرك الفرنسيون، أيضا، فى هذا الاتجاه . ففى سنة ١٩٨٨م نشر روچر شارتييه Roger Chartier مجموعة من مقالاته تحت عنوان Cultural History وفى سنة ١٩٩٣م ظهر المجلد الرابع من كتاب تاريخ جديد مهم لفرنسا تحت عنوان «أشكال الثقافة» ، على حين نشر مؤرخان فرنسيان سنة ١٩٩٧م كتاباً كرساه من أجل التاريخ الثقافى[٢٥].

أما بالنسبة لتاريخ المفاهيم، ففى سنة ١٩٨٥م نشرت مطبعة جامعية أمريكية بارزة مجموعة من مقالات كوسيلليك من تحت عنوان Futures Past وبعد ذلك بعشر سنوات ، كانت هناك مقدمة نقدية لتاريخ المفاهيم السياسية والاجتماعية، كتبها مؤرخ أمريكى متميز، أخذت تاريخ العقليات مأخذ الجد وكرست المزيد من المساحة لتاريخ المفاهيم [٢٦]. وفى وقت أحدث حدثت مواجهات مثمرة بين المجموعة الأنجلو- أمريكية والمجموعة الألمانية [٢٧].

الهوامش

1 J. Pocock, 'The History of Political Thought: A Methodological Enquiry', in Peter Laslett and W. G. Runciman (eds), *Philosophy, Politics and Society*, series II, (Oxford, 1962), pp. 183–202.

2 J. Dunn, 'The Identity of the History of Ideas', *Philosophy*, 43 (1968), pp. 85–104; reprinted in Dunn's *Political Obligation in its Historical Context* (Cambridge, 1980), pp. 13–28.

3 Q. Skinner, 'Meaning and Understanding in the History of Ideas', *History and Theory*, 8 (1969), pp. 3–53; reprinted in James Tully (ed.), *Meaning and Context* (Oxford, 1988), pp. 26–67.

4 In Tully, *Meaning and Context*, pp. 291–2.

5 The best ones are John Gunnell, *Political Theory: Tradition and Interpretation* (Cambridge, Mass., 1979); Conal Condren, *The Status and Appraisal of Classic Texts* (Princeton, 1985); and James Tully (ed.), *Meaning and Context* (Oxford, 1988).

6 R. G. Collingwood, *An Autobiography* (Oxford, 1970), pp. 39–40.

7 As Easton himself acknowledged: see David Easton, *A Framework of Political Analysis* (Englewood Cliffs, N.J., 1965), pp. 19–22.

8 George Catlin, *A History of the Political Philosophers* (London, 1950).

9 George Sabine, *A History of Political Thought* (3rd edn, London, 1983), p. v.

10 Paul Samuelson, *Economics* (Englewood Cliffs, N.J., 1976), pp. 7–8; a textbook largely composed in the 1950s and 1960s.

11 George Sabine, *Political Theory* (London, 1937), p. v.

12 This seems, for example, to have been Peter Merkl's view – see his remarks in *Political Continuity and Change* (New York, 1967), pp. 26–56.

13 Hans Morgenthau, *Dilemmas of Politics* (Chicago, 1958), p. 39.

14 Ibid., p. 24.

15 David Easton, 'The Decline of Modern Political Theory', *Journal of Politics*, 13 (1951), pp. 36–58.

16 Kenneth Arrow, *Social Choice and Individual Values* (London, 1951).

17 In Tully, *Meaning and Context*, p. 66.

18 See particularly Richard Rorty, *Contingency, Irony, and Solidarity* (Cambridge, 1989), pp. 80–1.

19 W. Dilthey, *Selected Writings*, ed. H. P. Rickman (Cambridge, 1976), p. 219.

20 D. Hollinger, 'The Return of the Prodigal: The Persistence of Historical Knowing', *American Historical Review*, 94 (1989), pp. 610–21.

21 D. Harian, 'Intellectual History and the Return of Literature', *American Historical Review*, 94 (1989), pp. 581–609.

22 Quentin Skinner, 'A Reply to my Critics' in Tully, *Meaning and Context*, especially pp. 238 and 246–8.

23 O. Brunner, W. Conze and W. Koselleck (eds), *Geschichtliche Grundbegriffe* (8 vols, Stuttgart, 1972–93); R. Williams, *Keywords* (London, 1976).

24 J. Bremmer and H. Roodenburg (eds), *A Cultural History of Gesture* (Cambridge, 1991); ibid. (eds), *A Cultural History of Humour* (Cambridge, 1997);

25 R. Chartier, *Cultural History between Practices and Representations* (Cambridge, 1988: originally published in English); A. Burguière (ed.), *Les formes de la culture* (Paris, 1993); J. P. Rioux and J. F. Sirinelli, *Pour une histoire culturelle* (Paris, 1997).

26 R. Koselleck, *Futures Past* (1979: English trans. Cambridge, Mass., 1985); M. Richter, *The History of Political and Social Concepts* (New York and Oxford, 1995).

27 H. Lehmann and M. Richter (eds), *The Meaning of Historical Terms and Concepts* (Washington, D.C., 1996).

(١٠)

إعادة النظر فى تاريخ الجسد

روى بوتر

أعلنت تيرى إيجلتون Terry Eagleton منذ بضع سنين مضت أن «هناك نصوصًا أدبية قليلة يحتمل أن تحظى اليوم بقبول المبدأ التاريخى الجديد ما لم تحتو على جسد واحد مشوه على الأقل»(١) وبتطبيق ملاحظة الناقدة الأدبية على مجال التاريخ يشرحها مارك چينير Mark Jenner على النحو التالى :

«من خلال الحكم بكتالوجات الناشرين ومجال المعلقين الثقافيين والفنانين الخياليين ، فإننا نعيش فى أوقات جسمانية . إذ إن كلمة «الجسد» الآن، كما يبدو، كلمة ذات جاذبية مغرية . فعندما كان المحاضرون فى إحدى الجامعات البريطانية يقدمون مقياسهم بنجاح «مقدمة للتاريخ الاجتماعى للطب» ، فإن العنوان الجديد «تاريخ الجسد» تسبب فى تضاعف عدد الطلاب. والواقع أنه يبدو أن «الجسد» قد صار مبدأ تنظيميا جديداً داخل النشاط الفكرى الأنجلو - أمريكى» (٢).

وفكر چينر الذى نشر سنة ١٩٩٩م يجعل القراءة ممتعة مثيرة، فعلى مدى عشر سنوات مضت ، عندما كتبت النص الأصلى لهذه المقالة للطبعة الأولى من هذا الكتاب، لم يكن هناك وحش على شاكلة «تاريخ الجسد»- والواقع أن هدف مقالتى كان الدعوة إلى خلقه(٣).

وفيما سوف أسميه «تاريخ الجسد I » شرحت إهمال تاريخ الجسد فى مصطلحات الانتقاص الراسخة للجسمانية فى الثقافة الغربية . وبصفة خاصة من خلال المفهوم الأفلاطونى عن الازدواج البشرى homo duplex ، أى ذلك النموذج المزدوج للإنسان باعتباره ترتيبا للعقل فوق المادة . وقد تركت الفلسفة الإغريقية تراثا ثقافياً باقيًا كان يثمن العقل الراقى ، على حين يحط من شأن الجسد بوصفه مشوشًا (٤). أما التراث اليهودى- المسيحى الذى كان يناقض الشهوات الجسدية للرجال الساقطين بالمقدس والإلهى ، ومن خلال الرهبنة بشكل خاص، فقد أسس أنظمة للدفع بعملية إماتة الجسد (٥).

لقد مالت قيم النهضة بدورها نحو روحانية العقل الكونى وعززت ذلك الظهور المتجدد لتراتبية العقل- الجسد التى كانت مركز الإعلان الكارتيسى اللاحق عن الوعى العقلانى Co-gito باعتباره خصلة فريدة لدى البشر- الإلهى فى الإنسان، أو الروح فى الماكينة (٦). وبسبب كل ما فيها من عداء للعقلانية، كان للمثالية الرومانسية أن تدافع فيما بعد عن سمو الوعى (الروح ، والخيال ، والعبقرية الخلاّقة) على المادية السافرة وفى مواجهتها، على حين أعلنت النزعة الڤيكتورية نفسها سمو أصحاب العقول السامية، أو ذوى الثقافة الرفيعة على «الأجساد الدنيئة» (٧). بل إن اللحظات التى تحدت مثل هذه النزعات الأرثوذكسية انتهت لتؤكد، بطرق أكثر راديكالية ، تفوق ما هو غير جسدى . وهكذا، أعطت الدفعة الجوهرية فى معادلة الڤيكتورية الأولوية لثنائية الوعى / اللاوعى (التخيل والكبت) فى التحليل النفسى، لتفسير الاضطرابات العقلية، ورفضت التفسيرات الطبية الراسخة التى قامت على أساس دراسة الجهاز العصبى ، أو الضمور الوراثى(٨) .

وثمة خط مواز للتناقض الفرويدى، تطرحه التحديات من جانب فوكو ، وما بعد الحداثة فى غضون العقود الأخيرة. وبينما يهاجم هذا الاتجاه أسطورة التبصر Cogito الكارتيسية وجميع ما استلزمته (الموضوع الأحادى ، المؤلف / العبقرى، الباطنية ، وما إلى ذلك) ، وقد استبدلتها مثل هذه الدفعات بمجال لايقل لا مادية . وقد وصل إعلان ديدرا المدوى إلى مداه «ليس هناك وجود لنص خارجى "il n'ya pas de hors texte" ، وهو ما تمت مواءمته للتساؤل عن الحكم الصائب على المفاهيم الأمبريقية للحقيقة الخارجية الموضوعية أيًا كانت . وهكذا ، فإن ما بعد الحداثة الجديدة يمكن قراءتها باعتبارها تنويعة على المثالية القديمة ، على الرغم من أنها هدامة من بعض الجوانب (٩).

ولست ألمح إلى أن احتقار هذه اللغة القاتلة كان كتلة واحدة. فقد كانت هناك على الدوام تيارات مضادة تسعى إلى فك غموض الروحانية والفكرية من خلال التغلغل فيها . ذلك أن الكوميديا المكشوفة جعلت الجسد مقياس الحقيقة ، وهى مفاجأة ثورية بالنسبة لمزاعم الثقافة الراقية (١٠). وفى مرحلة تالية ، وإذ كان أمثال هؤلاء الذين شكلوا طليعة مفكرى التنوير من أمثال لا ترى ، وديدرو ، ودى هولباك ، يعولون بشدة على الفلسفة الطبيعية «الجسدية» فى الثورة العلمية، فإنهم جعلوا التجسيد ، الذى تتم تجربته من خلال الحواس، هو لحم المادية الفلسفية(١١). كما أنه لاينبغى لنا أن نبالغ فى تبسيط التطهير التقليدى للروح وعدم الثقة فى

الجسد. فعلى أية حال، وعلى الرغم من الرعب الذى يتملك المسيحية من شهوة الجسد، فإنها العقيدة الفريدة التى تؤمن بتجسد الرب، والتناول والتجسد من جديد (١٢). إذ إن المسيحية اللاتينية رجعت إلى الغنوصية والمانوية ؛ وكان الزهد وسيلة لا غاية ؛ ومثل هذه النظم فى إنكار الذات كانت تتطلب التنظيم الصارم (١٣). وبطريقة مشابهة ، فبينما كانت الفلسفة الكلاسيكية تميز العقل على المادة، كانت تتطلب نمطيًا أن يكون العقل السليم فى الجسم السليم – وهو المفهوم القائل بأن عذاب الجسد الفاسد الذى كان أمرًا لازمًا للإبداع الفنى كان هرطقة بوهيمية تقول بنهاية العالم (١٤). ولكن على الرغم من أنه يجب تسجيل مثل هذه المؤهلات ، فإنه يبقى حقيقيًا أن تراثنا الثقافى كان تراثًا يستقطب العقل والجسد بشكل منهجى، ويمتدح العقل .

وهكذا، حسبما جادلت منذ عقد مضى، يبدو أن العقل الأوربى قد اتبع بالطريقة التى أشار إليها ڤيكو وغيره ممن يكتبون عن الأساطير ، مسارًا علمانيًا فى عدم التجسيد (١٥). كان الوقت زمنًا كان فيه الجسد ذا أهمية فائقة ، لأن الجسد كان كل ما عرفه الأولون. وكل ماعدا ذلك– المجتمع ، البيئة ، والكون– تم تفسيره بالتشابه مع الجسد (الكون المصغر / الكون الكبير) : فقد كان الجسد أمرًا يطيب التفكير فيه (١٦). وبمرور الزمن وصلت امتدادات الإنسان (الحضارة والتكنولوجى) إلى تقزيم الإنسان، ولم يعد الإنسان مقياس جميع الأشياء؛ والواقع أنه قد تم قلب الأمور رأسًا على عقب . ووصلت امتدادات الإنسان إلى التحكم فى الجسد فعلى سبيل المثال: لم يعد يُنظر إلى المجتمع على أنه كائن عضوى، وصار الجسد والعقل على السواء متشابهين من حيث اعتبارهما آلة(١٧). وفى المجتمع الصناعى اللاحق تم تخطى الجسد حتى باعتباره مصدرًا للقوة والعمل والقيمة بالتالى – وهو تطور سمح بالظهور الثانوى التعويضى للنرجسية الجسدية (استغلال الجسد الجميل المثير جنسيا والسليم) فى داخل الرأسمالية الاستهلاكية (١٨).

ولأن التراث الفكرى الغربى السائد قد حط من شأن الجسد على هذا النحو، فلا غرو (حسبما جادلت فى «تاريخ الجسد رقم١) أن تاريخ الجسد قد لقى الإهمال . وقد تم تأسيس الجورنال المسمى Mind منذ أكثر من قرن مضى وكان الجورنال المسمى Journal of the History of Ideas مزدهرًا منذ نصف قرن، ولكن أين كان Journal of Body History ، الذى ظهر فى وقت مقارب لهما ؟

وبينما كنت أسعى إلى التعويض ، حذرت أيضا من المقاربات المنفلتة. وكان مهمًا ، لشيء واحد، أن نتجنب النزول بتاريخ الجسد إلى مقالة فى البيولوجيا التاريخية، التى كانت هى نفسها المنحدر الزلق إلى البيولوجيا الاجتماعية[١٩] وفى الاستمرار بالقول بأنه سيكون من الحماقة أن نحاول «علما» للجسد لا تكون الواسطة فيه اللغة والمجاز والثقافة ، على أية حال، فإننى كنت حذراً ضد الخطر المعادل والمضاد أيضا ؛ وهو خصم المعلومات التطبيقية بواسطة السيموطيقا والتأويل، فى عملية استقراء وحشية خاصة نظرية، تفتقر إلى السياق التاريخى الراسخ[٢٠].

وتمسكت بأنه ليست هناك حاجة لاستبعاد مقاربة تاريخ الجسد من خلال المناهج الأمبريقية السليمة. وفى كثير من الموضوعات، بلا شك ، سوف تبقى معلوماتنا ضئيلة تماماً . ترى كم كان عدد المرات التى يمارس فيها الناس الجنس فى القرون السالفة؟ وما المواقف التى تبنوها ؟ هذا أمر لانكاد نعرف عنه شيئا [٢١]. ذلك أن اليوميات والخطابات تتحلى بالصمت إلى درجة كبيرة، ويجب علينا ألا نثق فى الأدلة التى تقدمها مثل هذه المصادر باعتبارها بصمات شهوانية أو كتيبات للنصائح : والعلاقات بين الوصفة والممارسة ذات طبيعة إشكالية ملازمة [٢٢]. وعلى الرغم من وجود مثل هذه الصعوبات ، فإن جبالاً من المعلومات تبقى بحيث يمكن أن نبنى عليها تصورات صادقة عن الأجساد فى الماضى . كما أن سجلات التعميد والدفن تقدم إحصائيات حية صادقة عن معدلات الوفيات والمواليد المتغيرة، وعن اللقاح والخصوبة وأزمات الوفيات المرتبطة بالمرض، وهلم جرا[٢٣] وكذلك تفتح قوانين رعاية الفقراء وسجلات المستشفيات نوافذ على القوة، والمرض، وما يجلبه الكدح والشقاء [٢٤]. وبالاعتماد على تنويعة ، وقدمت مارى فيسيل بانوراما رائعة عن ظروف الفقراء العاملين فى إقليم بريستول فى القرن الثامن عشر اعتماداً على تنويعة من المصادر [٢٥].

وعلى المنوال نفسه ، لدينا سجل مصور يمتد القهقرى على مدى قرن ونصف قرن عن المظهر المادى للسكان وما يحيط بهم . ومرة أخرى، لا حاجة بنا إلى أن نشدد على مخاطر الإيمان الساذج بصدق الصور المرئية ؛ فالكاميرا تكذب ، أو بمزيد من الدقة فإن الصور الفوتوجرافية ليست لقطات تصويرية للحقيقة ، ولكنها مثل الرسومات ، فن ثقافى يصوغ إشارات متفق عليها ويقدمها إلى جمهور أولى [٢٦]. وحتى مع هذا يكشف السجل التصويرى ويؤكد على قدر كبير عن التحولات الجسدية الحديثة (التقدم فى السن، وعدم الاتساق

الجسدى، وسوء التغذية وما إلى ذلك) وعما أسماه جوفمان Gofman «تقديم الذات» (لغة الجسد، والأوضاع ومناسبة الفضاء الجسدى) (٢٧).

وتاريخ الجسد ، أكرر القول ، ليس مجرد مسألة قرمشة الإحصائيات الحيوية، ولا هو مجرد مجموعة من الأساليب لحل شفرة «التقديمات» . وإنما هو دعوة لإسباغ المعنى على التفاعل فيما بينها . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار مدى الأدلة المتاحة ، فإننا بقينا جاهلين بشكل كبير بالكيفية التى جرب بها الأفراد والجماعات ذواتهم المتجسدة . كيف تعاملوا مع الجسد باعتباره وسيطاً بين الذات والمجتمع ؟ ومنذ عشر سنوات مضت ، كانت جبهة البحث غائمة على أفضل الأحوال، وبقينا فى الظلام معظم الأوقات .

حسنا، وكما أوضحت اقتباساتي الافتتاحية من إيجلتون ومن چينر، فإن ذلك كله تغير بعمق وبسرعة كبيرة. فقد صار تاريخ الجسد الطبق الهوائى فى الكتابة التاريخية اليوم(٢٨). لقد صار ورقة فى كتالوج كل ناشر ، أو فى برنامج كل مؤتمر ، كما أن «الكلمة الطنانة» أنتجت ما يكاد يفوق نتاج أى فرع آخر ، وغالبا ما ارتبطت بدراسات الجنس والنوع . ولدينا الآن مجلة مخصصة بدرجة كبيرة لتاريخ الجسد – هى Body and Society (٢٩).

وربما يغرينى هذا أن أنظر إلى الخلف ولا أضفى على نفسى فقط القدرة التنبؤية وإنما امتدح نفسى لأن مقالتى "Body History I" قد ساعدت على بدء وتدشين «تاريخ الجسد» فى مساره السريع الخاطف . والحقيقة على أية حال، أن التفسيرات توجد فى مكان آخر . بل إن مرض الإيدز كان فى ذلك الحين يركز الانتباه على انكشاف الجسد الحديث (٣٠). ذلك أن الهجمات على إيديولوچيات المؤسسة فى مجتمعنا المتعدد الثقافات باطراد ، والمهموم بالشئون السياسية المتعلقة بالهوية ، كانت تتبدى فى طروحات جسدية هدّامة : ذلك أن البيانات عن موضة «عصر جديد»، والزينة، ورسومات الوشم، وثقب الجسد، وهلم جراً، كلها دارت فى دوامة حب– كراهية مع الرأسمالية الاستهلاكية (٣١). وعلى أقل تقدير. فإنه فى داخل الحركات الجارية الآن للنساء وللشواذ من الرجال والنساء واجه الأساس الجسدى للنوع التحدى وأعيد النظر فيه (مثل المغالاة فى تخطى حواجز الجنس، وزواج المثليين، والقانون) (٣٢). وكان حتما مقضياً أن تثير مثل هذه الاتجاهات المعاصرة كلها التساؤل من الناحية التاريخية .

وعلى أية حال، فإن أية إشارة منى لإدعاء الفضل بالنسبة لتاريخ الجسد سوف تنال منها حقيقة أن كل شئ لا يسير بشكل طيب فى هذه الممارسة البادئة . ذلك أن القصد من ملاحظة

إيجلتون، التى اقتبسناها فى البداية، كان الإطاحة بنزوة أخرى، على حين كان چينر، من جانبه ، متشككا بدرجة كبيرة إن لم يكن لاذعًا على نحو إيجابى عندما راجع بدقة نافذة الإسهامات الحديثة . فقد جادل بأن القدر الكبير من تاريخ الجسد كان ينطوى على نقص فى التفكير المنهجى مع افتقار للصرامة العلمية . ذلك أن المؤلفين دمجوا بشكل غير متقن بين التمثيلات الجسدية والحقائق التاريخية، كما فشلوا فى التفرقة بين الوصفات للتحكم فى الجسد الموجودة فى كتيبات التدين والسلوك القويم التى يقوم المؤرخون بالتنقيب فيها بصورة نمطية ، والممارسات الاجتماعية التى تم توثيقها فى الماضى (٣٣). وهو يشكو من أن تاريخ الجسد، علاوة على ذلك ، يُستغل فى الغالب الأعم للمصادقة على نظريات الضبط الاجتماعى الفظة أو النماذج الفوكوية الزائفة لتجنيد الجسد داخل منظومة «المعرفة – قوة - Savoir Pouvoir » وبهذا يكون قد تم اختزال تاريخ الجسد إلى مجرد تقصى لأثار المزيد من الطرق التى تم بها استكشاف الجسد، وجعله عاديًا، وتم تنظيمه وإخضاعه ، وعقابه (٣٤). وتحمل المفارقة الزمنية المزيد من الخطر : إذ إن الباحثين ذوى النزعات يأخذون المفاهيم الفرويدية واللاكانية بلا مناقشة على أنها مفاهيم يمكن تطبيقها تلقائيًا على الأجساد فى الماضى(٣٥). وفوق هذا وذاك، احتج چينر، بأن مفهوم «تاريخ الجسد» نفسه يتضمن قياسيًا ، إضفاء المادية الصارمة ، والتبسيط ، والاختزال – كما لو كان يفترض أن هو الجسد موضوع السؤال الذى تم تقديمه فى النصوص الثقافية الراقية المطبوعة والتى يقوم بفحصها ودراستها معظم الباحثين . ويخلص من هذا إلى أن تاريخ الجسد يجب أن يتخلى عن مكانه لتواريخ الأجساد.

لقد كانت انتفاضة تاريخ الجسد متفجرة فى أثناء العقد الأخير بحيث أنه سيكون من الحماقة أن نحاول القيام بعملية مسح «من العصر الحجرى إلى العصر الجديد» فى الصفحات القليلة الباقية، بل سيكون من قبيل الاصطناع أن نلقى الضوء على المجادلات الرئيسية . ولكى نتدبر أمر هذا السيل المتدفق ، فإننى سوف استخدم كنقطة بداية لبعض التعليقات على عقد من التطورات، «الأجندة» التى قدمتها فى مقالتى "Body History I" . فقد اقترحت فيها برنامجًا من سبع نقاط من أجل البحث فى المستقبل؛ وهذه سوف أراجعها بإيجاز ، وأفحص بصورة إنتقائية التطورات الحاصلة داخل كل فئة .

الجسد بوصفه حالة إنسانية

يقدم الدين والفلسفات وآداب العالم تعليقا على الحالة الإنسانية، عند الميلاد، والجماع،

والموت. ولكن كيف على وجه التحديد وبصورة مباشرة تتعلق العقائد الدينية، أو الأمزجة الفنية في أزمنة بعينها (تعكس ؟ تعوض عن ؟) التجارب الفعلية للحياة المتجسدة ؟ وعندما وضعت هذه الأسئلة في مقالة " Body History I " ، أمعنت التفكير فيما إذا كانت الثقافة المهووسة بالموت لما أسماه هويزنجا «أفول العصور الوسطى» تنبغي قراءتها باعتبارها استجابة منعكسة لحقائق الموت الأسود(*). أو، إذا ما تبعنا كامبورسي، هل يكون من الأفضل لنا أن ننظر إلى العناصر المرعبة في مسيحية أواخر العصور الوسطى- الولع بعدم فساد أجساد القديسين وما إلى ذلك- على أنها تعبير عن الحب النابض للحياة والولع بالجسد ؟

والحقيقة أن التقديمات الدينية للجسد قد برهنت على أنها بشكل خاص منطقة بحث مثمرة في السنوات الحالية . وفوق هذا كله ، فإن كتابات المراجعة لدى كارولين ووكر باينوم Car-olin Walker Bynum قد استمرت على القول بأن الجاذبية الكبرى للكاثوليكية أواخر العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث تكمن في تأكيدها المخلص على الشخوص المتجسدة للعذراء والمسيح طفلاً. ذلك أن أنسنة الدين، والتي تم التعبير عنها من خلال قابلية الجسد للهلاك، قد حولت المسيحية من بطريركية دينية إلى قضية شعبية . وفي كتابها الذي عنوانه : Fragmentation and Redemption استكشفت باينوم كيف أن التعاليم في أواخر العصور الوسطى كثيراً ما كانت تعطي قيمة للجسد بوصفه الجنسي[٣٧]. وفي وقت أحدث، وفي كتابها The Resurrection of the Body (سنة ١٩٩٥) زعمت أنه «على الرغم من شكوك المسيحية الغربية في الجسد والشهوة فإنها لم تكره الجسد أو تسقطه من حسابها » [٣٨].

وقد اكتسبت عقائد البعث الشخصي أهمية جديدة، حسبما تجادل باينوم ، عندما بدأت المسيحية الباكرة بتوقعاتها عن المجيء الثاني للمسيح تتراجع. لقد شهر آباء الكنيسة الأوائل، في مواجهة الموجة الغنوصية العاتية **، والتي تكررت في القرون التالية في المذهب

* الوباء الأسود Black Death هو ذلك الوباء الذي اجتاح العالم المعروف في القرن الرابع عشر من شرق آسيا حتى غرب أوربا، نتيجة لانتقال الطاعون مع القوافل التجارية القادمة من الشرق؛ وقد ضرب هذا الوباء المروع المنطقة العربية بأكملها، كما ضرب كل أنحاء أوربا، وتسبب في نقص السكان بشكل مخيف ؛ وقد وصفته المصادر التاريخية العربية في القرن الثامن الهجري بعبارات الفناء « الكبير» ، و«الموتان العظيم» ، ووصفت آثاره تفصيلياً وقد استمر عامين تقريبا (٧٤٩-٧٥٠هـ) . (المترجم)

** الغنوصية ، أحد المذاهب المسيحية القديمة الذي يسمى «مذهب العارفين» ، بزعم أن المعرفة =

الكاثارى*، بأنهم مضطرون إلى أن يؤكدوا على جسدية البعث أو عودة التجسد، لئلا يبدو الخلق وقد ترك برمته للشيطان . وعلى النقيض من ذلك، فإن المدرسيين فى العصور الوسطى العالية، الذين يعتبرون علامة الانتقال من الفكر الأخروى إلى الفلسفة، احتاجوا إلى صياغة مفاهيم عن الحياة السماوية فى مواجهة الخلفية التى قامت عليها المجادلات الأرسطية حول ما إذا كانت المادة أو الشكل هو الذى تشخص : فهل هو جسدنا أم هى روحنا التى ستضمن تجسدنا فى شخوص فى الآخرة ؟

وتطورت موضوعات مشابهة لتلك التى قام بها، بييرو كامبوريسى Piero Campores [٣٩]، فإن باينوم لم تعول فقط على كتابات رجال الكنيسة وإنما اعتمدت أيضا على الأدلة المرئية فى أعمال الفريسكو (الرسوم على الجص) ومذابح الكنائس لاستكشاف الشكوك الشعبية ولكى توضح الدور الرئيسى الذى ربطته الكنيسة بنشر التعاليم الصحيحة بين المؤمنين. وفى إنجيل لوقا (٢١ : ١٨) «ولكن شعرة من رؤوسكم لاتهلك» ، وهذه العبارة غالبا ما كان يتم اقتباسها لكى تؤكد للمؤمنين القلقين بشأن البعث الفردى الشخصى ، بيد أن السؤال عن أى «جسد» بالضبط للمرء سوف يبعث لم يجد أبدا الإجابة المرضية، وهناك الكثير من الألغاز والأحجيات (التناقض الذى يحمله أكل لحوم البشر، وتماثل الأجزاء التى تلفت فى ميادين المعارك) استمرت فى اجتياح تلك العقائد الحرفية عن البعث وإعادة التجسد .

وربما كان هذا هو السبب فى أن القصص الرمزية الفاشلة والتى تحرك المشاعر أكثر من غيرها عن البعث (صورة البذرة والدورات الموسمية من الذبول والميلاد المتجدد) كانت تستحوذ على مكان الصدارة زمنًا طويلاً . والفن الإنسانى فى عصر النهضة ساعد على شرح الغموض العقيدى بتصوير الأجساد كاملة التكوين ذات اللون الوردى بل التى تتسم بالمرونة والليونة الطافية برشاقة عن الأرض فى حركة تكاد تكون ضمن رقصات الباليه– وتلاحظ باينوم أنه

= Gnosis تأتى من الرب مباشرة دون الحاجة إلى الكهنوت ، وكانوا يعتقدون أن المادة (والجسد بالضرورة) شر وأن المعرفة تأتى من الروح مباشرة. (المترجم)

* الكاثارية ، أو الأطهار ، مذهب مسيحى ظهر فى العصور الوسطى فى جنوب فرنسا بشكل خاص ؛ وقد عرف أتباعه أيضا باسم الألبيجنسيين . وقد شنت البابوية الكاثوليكية بالتعاون مع الملكية الفرنسية عليهم «حملة صليبية» عرفت باسم الحملة الألبيجنسية استمرت أكثر من ربع قرن من الزمان، وأسفرت عن تدمير الجنوب الفرنسى (المترجم)

على الرغم من بعض الاتجاهات لتصوير البشاعة فى أواخر العصور الوسطى، فإنه لم يتم على الإطلاق تصوير «العظام» المجردة فى فعل الصعود.

وثمة نقطة قوة كبيرة فى كتاب باينوم تتمثل فى أنها لا تناصر أبداً (وهو ما تحط من شأنه غالبًا) لاهوت إعادة التجسد؛ كما أنها لا تتعامل معه باعتباره شيئا «شاذا وطريفا» ، وغريباً تماماً على الحساسيات الحديثة. وبالنظر إليه فى ضوء الأنماط القديمة والأشكال الرمزية التى باتت مألوفة بفضل الأنثروبولوچى والتحليل النفسى ، فإن الاهتمام المسيحى الباكر بالحقيقة المادية للحياة الأخرى يمكن رؤيته باعتباره تعبيراً عن اهتمام حقيقى ودائم بالأسئلة المتعلقة بهوية عالمنا الواقعى، وعلى كل حال، فهى مفاهيم الكلية. ومع هذا ، فإن القارئ المتشكك ، الذى يقلقه أن يتخبط فى إحساس زائف بالعقلانية الحلوة لهذه العقائد التى شاعت فى العصور الوسطى، سوف يحسن عملاً إذا ما قرأ ما كتبته باينوم إلى جانب أطروحات كامبوريسى عن التعاليم اللاهوتية الزائغة والمعتقدات الشعبية . وبينما تركز باينوم على الخصال المشبعة عاطفياً والعقلانية فى العقائد المسيحية عن بقاء الجسد، ينغمس كامبوريسى فى تفصيل بشع عن القلق وغالبا عن الهيستيريا الجماهيرية التى كانت تصاحبها : لقد كانت مثل تلك المعتقدات على درجة من الغرابة والتطرف ، حسبما يجادل، بحيث ينبغى على المرء أن يتوجس ويشك فى أن المجتمع أواخر العصور الوسطى كان يسرف عادة فى تناول الأطعمة المسببة للهلوسة . وثمة جدل خلاب يظهر بين القراءات «المعتدلة» لعقائد الجسد التى تطرحها باينوم ، وآراء كامبوريسى «المتوحشة» .

وفى طرحها لآرائها ، تصطدم مع مؤرخ الفن ليو شتاينبرج Leo Steinberg . ففى كتاب مثير وحافز يلفت شتاينبرج الانتباه إلى حقيقة أنه كان من تقاليد الرسم الذى ازدهر فى أثناء عصر النهضة ، من الشائع تصوير المسيح وهو يلمس قضيبه أو يلفت النظر بشكل آخر إليه . وكان ذلك شيئا تم تجاهله تماماً من جانب مؤرخى الفن : فالتفكير فى أن وضع المسيح باعتباره وضعاً جنسياً، كان قراءة حديثة نمطية ، بل يحمل مفارقة زمنية فى الواقع . وما كان يتم التلويح به لم يكن الجانب الحسى فى المسيح ، وإنما فى إضفاء الصفة الإنسانية عليه. وثمة مؤلفات أخرى، أبرزها دراسة ميرى روبين Miri Rubin عن الافخارستيا (طقس التناول) ، قد ركزت بالمثل على العناصر الإنسانية والحلولية التجسيدية بدلاً من العناصر المتسامية فى المسيحية الشعبية[٤١].

شكل الجسد

فى الفن، فى الكتابة الإبداعية ، فى العلم والطب، وكذلك فى الأمثال، والكليشيهات، يكتسى الجسد جانبًا مرئيًا. رفيع ، سمين جميل قبيح ؛ مرآة الكون، ونموذج الحيوانات، خلاصة التراب – كل تصوير يحكى قصته ويتضمن نظامًا قيميًا. وهناك عدد قليل من المؤرخين ، حسبما ذكرت فى "Body History I" قد أولوا حتى الآن اهتمامًا كبيرًا باللغة (كما توجد مثلا، فى التعبيرات المجازية الحية والميتة) باعتبارها وسيلة لنقل الرسائل المخفية عن الجسد. وكان عدد أقل منهم، دعك من مؤرخى الفن، قد فكروا مليًا فى أهمية الصور المرئية للأجساد (فى الصور الشخصية المرسومة، وفى التماثيل الشخصية الجنائزية ، أو حتى فى ألبومات الصور) باعتبارها أدلة تاريخية [٤٢].

لقد انقضت خطوات واسعة فى غضون السنوات العشر الأخيرة فى اتجاه مادية الجسد التاريخى. وكما لاحظنا فى الصفحات السابقات، بقيت المعلومات الوفيرة من مؤسسات مثل الجيش تخصّ الإحصائيات الحيوية للسكان السابقين. وعلى أساس من هذه المعلومات ، جرت دراسات أنثروبولوجية جسدية جديدة على سبيل المحاولة ، للبناء على الدراسات السابقة من جنب لو روى لادورى، وهو ما بحل المزيد من المسائل التاريخية [٤٣]. ولنأخذ سؤالاً تاريخيًا رئيسيًا : هل جعلت الثورة الصناعية الأشياء أفضل أم أسوأ بالنسبة لقواها العاملة ؟ هذا «الجدل حول مستوى المعيشة»، بطبيعة الحال ، أحد المجادلات الذهبية القديمة فى التاريخ. فالأدلة المكتوبة تشير إلى كل من الطريقين ، كما أن الباحثين الميالين إلى الأسلوب الكمى سعوا زمنا طويلاً وراء المؤشرات الرقمية لضبط التغيرات المفترضة فى نوعية المعيشة. تم استخدام نوعين من الأدلة بشكل رئيسى : معدل الوفيات ومستويات الأجور. وجوانب القصور فى كل منهما معروفة تمامًا على أية حال.

ثم ظهرت المقالة الواعدة المثيرة لكل من رودريك فلود Roderick Floud وكينيث واشتر Kenneth Wachter وأنابيل جريجورى :

Height , Health and History : Nutritional Status in the United Kingdom, 1750-1980 .

وهى مقالة فى الأنثروبولوجيا الجسدية [٤٤]. ولدى علماء البيولوجيا البشرية ثقة فى أنه إذا ظلت جميع العناصر والأشياء الأخرى دونما تعليق ceteris paribus فإن اختلافات الطول تعكس فروقا فى مستوى المعيشة، أى أن الطول مؤشر على «الحالة الغذائية» .

هل يمكن إذن إعادة تصور البنية المتغيرة لجسد البريطانى ؟ ويزعم فلود إيه آل Floud et al أنه يمكن عمل هذا بالنسبة للرجال، لأن الإحصائيات الحيوية الخاصة بهم تم توثيقها جيداً أواخر القرن الثامن عشر فى سجلات التجنيد العسكرية . ويمكن بطبيعة الحال الاعتراض بأن الجنود لم يكونوا عينات مماثلة . فهل يحتمل أنهم كانوا عينة من طوال القامة الأقوياء ؟ أم كانوا حثالة المجتمع ؟ ويرد فلود إيه آل إن الأمر ليس كذلك ؛ ويشيران فى عملية إعادة بناء معقولة لنماذج التجنيد ، إلى أن المتطوعين كانوا من الصبية من أبناء الطبقة العاملة الباحثين عن وظيفة فى الأوقات الصعبة. كما يجادلان ، بأن هذه طرق يمكن الاعتماد عليها من الناحية الإحصائية لترجمة «الجنود» إلى «مواطنين» .

فما الذى تم كشفه إذن ؟ كان متوسط الطول فى القرن الثامن عشر بالنسبة للرجل العامل منخفضًا ، ربما أقل من خمسة أقدام وأربع بوصات . وقد حدث ارتفاع بطىء فى أربعينيات القرن التاسع عشر تقريبًا، ولكن هذه المكاسب ضاعت فى الجيل التالى حتى سبعينيات القرن نفسه، إذْ بدأت الأطوال ترتفع فى منحنى مستمر حتى الوقت الحالى. وكان الجنود ذات مرة أقصر بخمس أو ست بوصات من ضباطهم: ذلك أن الطبقات الأعلى (أو ربما يكون من الأفضل أن نقول الطبقات الأطول) كانوا ينظرون إلى أسفل حقًا على الطبقات الأدنى. وعلى المدى البعيد ، على أية حال كان ، لابد لفروق الطبقة والبنية الإقليمية أن تتلاشى.

وإذا ما كان لنا أن نستدل من الطول على الحالة الصحية وكذلك بالتالى على نوعية المعيشة، فإن هذه اكتشافات تطرح التحدى. ذلك أنها تناقض «المتشائمين» الذين يرون أن قدوم التصنيع قد دمر مستويات المعيشة لدى الطبقات العاملة. وهم يشيرون إلى فترة فى منتصف القرن التاسع عشر حدث فيها ، على الرغم من تحسن الأجور، أن تدهورت مستويات المعيشة– بسبب، حسبما يشير المؤلفون، سوء أحوال السكن والصحة فى «مدن الصدمة» أوائل المعصر الفيكتورى. وقد تخلفوا عن المتخصصين فى تحسين النسل فى نهاية القرن الذين كانوا يروجون الشائعات المزعجة عن التدهور الوطنى والانتحار العنصرى. وبذلك قدموا نوعًا من المساندة غير المباشرة لاعتقاد توماس ماكيون Thomas Mckeown بأن التحسن التدريجى فى الصحة إنما يعود للتغذية الجيدة قبل غيرها (٤٥). وهكذا فإن الجسد يبرهن على أنه مؤشر أفضل من الأجور لتقدير التغيرات التى تطرأ على مستويات المعيشة .

وقد جلب العقد الأخير أيضا بحوثًا مجددة عن مظهر الجسد وتعاملت معه على أنه نظام

إشارات للتواصل . فإلى جانب الأعمال التى تمت الإشارة إليها بالفعل عن تاريخ الإيماءة كانت هناك دراسات جديدة عن قسمات الوجه Physiognomy أو السحنة (٤٦)، كما أن الأهمية الاجتماعية لفن رسم الأشخاص (البورتريه) قد أعيد تقييمها(٤٧) كذلك أعيد تقدير الأهمية الاجتماعية لرسم أيقونات الموت (٤٨). وبصفة خاصة كتب المؤرخ الأمريكى- ساندر جيلمان Sander Gilman وفير الإنتاج ، سلسلة من المجلدات التى تفسر صور الجسد المتنازع عليها: الجسد المجنون ، الجسد الشهوانى، الأسود، اليهودى، الأنثى الهيستيرية ، وهلم جرا: وهو يسأل، ما الذى كان يعنيه السواد، أو الجمال، أو الحالة الصحية أو المرض باعتباره جزءا من أمور سياسية أوسع أو جزءاً من نوع أشمل، أو عنصر أو عرق؟ وعلى نحو أكثر خصوصية، ما الذى شكَّل اللغة المرئية للمجنون والمختل، والجميل والقبيح والعادى والمضطرب عقليًا (٤٩).

وفى أوربا نهاية القرن ، كان هناك شئ لا يحتاج إلى برهان، أو هكذا كان يبدو، عن التمييز بين اليهودى والأممى؛ ومع هذا فعلى أى أساس كانت التفرقة قائمة ؟ على الدين؟ على اللغة أو التاريخ أو علم النفس أو الثقافة ؟ أم على البيولوچيا العنصرية؟ وفى كتاب The Jew's Body استكشفت چيلمان Gilman الخطابات عن اليهود لتوضح كيف كان الجسد نفسه يبدو منقوشا ، ربما بشكل ثابت، مع وصمات اليهودية(٥٠). هذا مجال جذاب للمناقشة على وجه خاص لأنه حسبما توضح چيلمان ، لم تكن الأفكار العنصرية البيولوچية (اليهودية مطبوعة على الجلد) وقفًا على المؤلفين الآريين وحدهم . ذلك أن العديد من الأطباء اليهود، والعلماء ، والأنثروبولوچيين ممن انغمسوا فى أسئلة الهوية اليهودية ، كانوا على استعداد تام للتورط لوضع الأنماط الجاهزة . بيد أنه مع التواء حاذق . لأن زعمهم كان أن الفرق القاطع لم يكن ، فى العمق، بين الآرى واليهودى، ولكن بين الآريين «واليهود الطيبين» من ناحية ، و«اليهود السيئين» من ناحية أخرى. وقد «برهن» علمهم أن السمات اليهودية الخاصة- الأقدام المفلطحة ، والأرجل المقوسة ، وتجعدات الجلد (Plica Polonica) والشعر الشبيه بذيل الفأر ، والعيون الجاحظة ، والأنف الخطافية – كانت حقيقية تمامًا . ولكنها مضت بشكل نمطى لتجادل بأن مثل هذه الملامح كانت أساسًا هى عيوب اليهود «الشرقيين» أو «الآسيويين» – وهى أمراض كانت، بنوع من الداروينية الاجتماعية تختفى فى أوساط اليهود الغربيين المتقدمين المحدثين *.

---

* هذا نوع من الجدل العبثى الذى يحاول اكتساب شكل العلم؛ فالمأزق الذى وقعت فيه الصهيونية ، =

هذا المشروع ، علم يهودى عن خصائص اليهود، يمكن أن يؤدى إلى، أو يعزز الكراهية اليهودية للذات، التى كتبت عنها چيلمان كتابات كاشفة فى مواضع أخرى-احتقار للذات ملتو، يتضح بشكل لافت للنظر فى كتاب أوتو وينينجر Otto Weininger المعنون Sex and Character الذى أذاع السؤال يهودى = شاذ جنسيًا = إمرأة . والواقع ، حسبما يوضح چيلمان ، أن اليهودية نفسها يمكن النظر إليها باعتبارها مرضا، إذ إن الختان- التشويه الأكبر- كان يرتبط حتمًا بالتشويه الجراحى ومن ثم يرتبط بطرق غير مباشرة بعدوى مرض الزهرى. والهوية اليهودية ، بعبارة أخرى، كانت تشير بلا مقاومة إلى حقيقة أن اليهود كانوا منكوبين بسبب المظاهر الجنسية لديهم.

وقد حاول فرويد، بطبيعة الحال، أن يتجاوز كراهية الذات تلك بواسطة تحويل الخصائص المحلية لليهود، عن طريق قراءته النفسية للحقيقة ، إلى المشاغل الدائمة فى الروح البشرية . فالقلق بشأن حجم الأنف صار مترجمًا إلى عدم الاطمئنان للخصوبة ؛ والاهتمام بالختان كان يعنى القلق من عمليات الإخصاء ومن ثم أزمة أوديب – وكان أوديب إغريقيًا، ومن ثم كان «عالميا» . بيد أن فرويد لم يكن أبدًا قادراً بشكل تام على التخلص من قلقه اليهودى وهو متخف فى العلم العالمى؛ فقد كان ما يزال يتبدى – وعلى كل حال كانت قدم أوديب نفسه سيئة*.

وفى الدراسات الحديثة عن جراحة التجميل ، ذهب چيلمان إلى مدى زبعد لدراسة المحاولات، على مدى السنوات المائة الأخيرة، لتحويل المظاهر الجسدية لإخفاء العيوب المفترضة أو اصطناع (محدد بالزمان والمكان والثقافة بالضرورة نموذج للجمال أو الاعتيادية(٥١).

= والمزاعم اليهودية ، بالنقاء العرقى لبنى إسرائيل (القبائل الإثنتى عشرة) تصطدم بالحقائق المرئية فى الملامح الجسدية لليهود التى تختلف فيما بين اليهود الشرقيين ، واليهود الغربيين، ويهود الفلاشا . ولست أظن أن ظروف المجتمعات المتقدمة يمكن أن تغير لون الجلد، وطبيعة الشعر، ولون العيون والخصائص الجسدية، حسبما يحاول النص أن يقول . (المترجم)

* هذه مسألة غريبة فى الكتابات الغربية بوجه عام ؛ محاولة حشر اليهود فى أية دراسة مهما كانت بعيدة عن هذه الفئة من الناس . وهنا مثال صارخ على نحو خاص؛ فالموضوع عن تاريخ الجسد ، ولكن الكاتب يحدثنا فى هذا الجزء عن اليهود و«أجسادهم» ، وكأنهم وحدهم هم البشر أصحاب الأجساد !!! (المترجم)

تشريح الجسد

فى " Body History I" ، تمسكت بأن الأجساد هى فى الوقت نفسه أشياء وأهداف للنظرة الخارجية ، تواجه العالم الخارجى، كما أنها ذاتية وجوهرية أيضا فى النفس الداخلية . ونحن نحتاج إلى معرفة المزيد، كما قلت ، عن كيف أضفى الأشخاص والثقافات المعنى على التكوين، والأطراف ، واللحم والأعضاء. وما الذى صار العاطفى والوجودى فى طبوجرافيا الجلد والعظام؟ وماذا كان الناس يعنون عندما كانوا يتكلمون حرفيًا وتصويريًا، عن دمائهم ، أو قلبهم، أو أمعائهم وعن أرواحهم وأمزجتهم ؟ كيف جسدت هذه الأعضاء والوظائف العواطف والتجارب والرغبات ؟ وما المنافذ التى كانت بين المعانى الخاصة والمعانى العامة، وما بين الاستنتاجات الذاتية والطبية ؟ وباستخدام عبارة «تشريح الجسد» ألمحت إلى حقيقة أن ظهور التشريح تخصصًا طبيًا منذ القرن السادس عشر وفر رابطة جديدة بين ما هو خارجى وما هو داخلى. ومما يجلب السعادة أن ممارسات التشريح وطقوسه قد استرعت اهتمامًا كثيفا فى العقد الأخير (٥٢). وقد أثمر هذا عددًا من الدراسات المتميزة عن الروابط المتبادلة بين خارج الجسد وداخله .

وقد أعيد تكوين اقتصاد الجسد التقليدى بصورة خلاقة فى كتاب جيل باستر Gail Paster المعنون The Body Enbarrassed (٥٣). ولأنها متخصصة فى أدب عصر النهضة درست باستر بدقة تقديم جوانب معينة من الجسد فى مسرحيات شكسبير ومعاصريه . وقد أوضحت بمهارة انتشار روح الفكاهة فى كل مكان . وبخلاف بعض الدراسات الأدبية السابقة، التى أخذت النزعة الفكاهية على أنها لا تتكون سوى مما يزيد قليلاً على مجرد خطة للأمزجة والأشكال (أن يكون سريع الغضب أو معتوها ، وهكذا) ، فإن دراستها حساسة إزاء تفريعات النزعة الفكاهية الأبعد عمقًا . وهى تبين الدور الرئيسى الذى لعبه الاعتقاد بأن الجسد فى أساسه مجموعة من السوائل مغلق عليها وعاء من الجلد ، لاسيما فى مناقشة عن النساء باعتبارهن «أوانى تتسرب منهن السوائل» – وهى تسرب من الناحية الفسيولوچية (الحيض، والبكاء والرضاعة) ومن الناحية النفسية (بحسب مؤلفى الدراما، كانت النساء تثرثرن بلا توقف) . كذلك فإنها تحلل كيف أن النظرية الفكاهية شجعت مفهوم «إمكانية الاستبدال» ، أى تحويل سائل إلى آخر ، واستبدال عضو أو فتحة بعضو آخر أو فتحة أخرى. ما الذى قد يحدث لو أن الدم أمكن تحويله إلى لبن الأم؛ وأمكن للمنى أن يصير حلوى؛ أو فى

الكوميديات الهابطة ، يمكن للولادة أن تقدم فى لغة التبرز- جارجانتوا عند رابليس Rab-elais ، لم تمكن ولادته بالطريقة الطبيعية ، تبرز من خلال الأذن اليسرى لأمه، جارجوميل .

وتعول باستر بنجاح على أفكار ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin للتأكيد على الفكاهى الكامن (وغالبا الفاحش) فى المصطلحات «الفكاهية» ، وتؤكد، سيراً على خطى نوربرت إلياس ، كيف أنه فى مطلع العصر الحديث كانت الوظائف الجسدية خاضعة «لعملية التحضر». وهكذا لم تكن النزعة الفكاهية مجرد فسيولوچى وإنما كانت أخلاقًا ، تشير إلى وتشرح أى الأجزاء الجسمانية وأى العمليات الجسمانية كانت مبجلة أو محقّرة ، نبيلة أو مقرفة ، وتصورها فى لغة الإدانة أو الترحيب.

وما حدث عندما اقتحمت ممارسة التشريح عالم المعنى الفكاهى التقليدى هو الذى يكوِّن موضوع كتاب The Body Emblazoned لجوناثان سوداى(٥٤). ويرى سوداى أن النشاط الرئيسى الجديد الذى يؤثر على الجسد فى بواكير الفترة الحديثة كان التشريح . فمن خلال مسارح التشريح الفاخرة، صار التشريح أيضا احتفالاً لافتًا للنظر بالتحالف بين السلطة المدنية والسلطة الطبية . والنتيجة- بعيداً تمامًا عن تقدم الطب التشريحى بحد ذاته - تمثلت فى الحط من شأن اللغة المجازية التقليدية عن الجسد ، وعلاقاته بالعقل والروح والنفس والتى كانت قد سادت العالم المسيحى الغربى فى العصور الوسطى زمنًا طويلاً . ومن أجل شئ واحد، المحرمات القديمة عن الجسد وحرمته ، لم تعد تستطيع أن تبقى ما إن شاع فعل التشريح . وكان معنى هذا أن الجسد صار بطرق معينة أقل شأنا- فقد نزل إلى هدف معرض للانتهاك بواسطة النظرة المستفسرة، يمكن استئجاره وإجراء التجارب عليه ، بدلاً من تبجيله باعتباره كلاً غامضًا خلق على صورة الرب. بيد أنه فى عيون آخرين- رجال مثل سير توماس براون Sir Thomas Browne - يمكن تبجيله بالقدر نفسه : ولم يعد ذلك الكيس من القذارة التى لعنها اللاهوتيون من آباء الكنيسة، وسرعان ما تم الاحتفاء بالجسد باعتباره قطعة رائعة من الآلية برهانًا على التصميم الإلهى .

وتعدد أشكال الجسد الذى تم تشريحه مسألة مركزية فى مشروع ساوداى . إذ إن الجسد المكشوف حديثا قدّم خدمة جليلة باعتباره مجازًا وحافزًا فى كثير جداً من النواحى الأخرى . ولأن الجثث التى شرّحها الجراحون كانت قياسيًا أجساد المجرمين الذين تم إعدامهم ، فإن مهنة التشريح اتخذت سمة عقابية ، وفى ألمانيا وهولندا بصفة خاصة غالبًا ما كان اخصائى

التشريح سيء السمعة على اعتباره أنه من نوع عشماوى (الجلاد الذى يستخدم المشنقة) والجزار . ذلك أن قدرة السكين القاسية على التوغل كانت تشبه وتتشعب مع أنوا ع جديدة من السيادة ، منها الاستعمار الدموى للعالم الجديد، أو ثقافة البلاط التى غالبا ما كانت معادية للنساء والتى تحض على فهرهن.

وقد صار «التشريح» أدبا شعبيًا ونوعًا فلسفيًا ، بمعنى إدراك موضوع ما من خلال التجزئة والتقسيم الشكلى ، مثلما جاء فى كتاب روبرت بورتون Robert Burton بعنوان An- Anatomy of Melancholy الذى صدر سنة ١٦٢١م، وأيضا بمعنى الغوص تحت السطح لكشف الحقائق المخبوءة وفتح الجراح المتقيحة ، مثلما حدث فى كتاب Anatomy of Abus- es لفيليب ستوبس Philip Stubbes سنة ١٥٨٣م . وثمة نوع أدبى- دين ظهر إلى الوجود : تشريح - الذات ، أى استبطان ما فى جسد المرء نفسه (وهو التشريح بالمعنى الأدبى) . وقد أعلن جون دون John Donne فى كتابه Devotions « لقد قمت بتشريح نفسى ، ومزقت نفسى، وعليهم أن يقرأوا على » هذا الأسلوب فى جلد الذات وفحص الذات (nosce te ip- sum) له كثافة داخلية، حسبما يشير ساودى، ولم نسمع عنه ثانية حتى زمن فرويد .

بيد أن التشريح لم يشى بالتوغل فحسب- «والتفكيك» . وإنما تضمن بالقدر نفسه العرض العام. إذ إن مسرح التشريح شهد عمليات تشريح حقيقية - المسرح بالمعنى الأدبى؛ وكانت توازيها تنويعات أخرى من العرض الجسدى، خاصة العرض البلاغى للجمال الأنثوى فى التراث «النبيل»، الذى كان الشاعر فيه يستعرض أجزاء من جسد سيدته على أنها تذكارات غنائم من أجل إثارة الإعجاب الشهوانى (المتجانس اجتماعيا) . ومع مضامين تجمع بين الضدين حاولت الملكة إليزابيث جاهدة أن تجعل ذلك التراث موائما لأغراضها الخاصة، بحيث جعلت من نفسها شعاراً *للنبالة* وحولت جسدها *الخاص*، بقدر من *التصريح الشعرى، إلى* رمز للوطنية (Gloriana, Astraea) * وأيقونة جسدية شبه دينية. وفيما بين كارولين وشعراء *الفروسية* ، صار مديح *الأجزاء الأنثوية لصيقًا بالعرى العقلى الشاذ البذئ الذى* يستمتع بمشاهدة الأعضاء التناسلية: مع المرأة التى تم تشريحها وقد صارت فعلاً صورة الغلاف ، وبات النص الخفى للتشريح واضحًا .

---

* من ربات الإغريق القدامى : أستريا Astraea ربة العدالة عندهم؛ والمراد هنا أن الملكة إليزابيث جعلت من نفسها رمزًا مثل ربات الإغريق القدامى (المترجم)

وأكثر الجوانب جسارة فى كتاب The Body Emblazoned يكمن فى محاولته لتعقب آثار التعايش بين الطبى والفلسفى والفني- وهى روابط كانت تكون سلسلة فى الجمهورية الهولندية فى ثلاثينيات القرن السابع عشر . فهناك كان يعلو على كل شئ أن الرسامين كانوا يضمون مشاهد التشريح فى سجلهم الفني، وهم يلمحون بصفاقة إلى تراث المنتحبة Pieta على المسيح المصلوب * فى تعاملاتهم مع الجثة على الكتلة التى يتم التشريح فوقها . وكان رسم الجثة يعنى تشريحها بسكين الفنان لا بسكين الجراح . وفى الكتاب الذى يحمل عنوان : The Anatomy Lesson of Dr Nicolas Tulp كان رمبرانت Rembrandt يهدف إلى تقديم الجسد أساساً على أنه ابتكار ميكانيكى ، مكون من أجزاء خفية ، ومن ثم فهو يطور ويقدم أيضا المظهر الميكانيكى لـ «الفلسفة الجديدة» . فهل يمكن أن يكون بمحض الصدفة، كما يسأل ساوداى ، أن Descartes ، أيضا كان يعيش بالقرب من حى الجزارين فى أمستردام فى الوقت نفسه تقريبا، وكان هو نفسه يقوم بعمليات التشريح ؟

وقد بلغ التراث التشريحى ذروته فى وليم هارفى William Harvey ذلك أن توضيحاً ورد فى كتاب De Motu Cordis سنة ١٦٢٨م ، أن القلب لم يكن سوى مضخة دمرت مراسلات الزمن القديم والأنماط العتيقة (القلب بوصفه ملكًا) . وبسبب نزعة هارفى المتحفظة ، فإنه دلل على الفصل الثانى للجسد (وهو ما صار متاحاً من الناحية العلمية أخيرا، ولكنه يعالج الآن باعتباره شيئًا منفصلاً) عن العقل (الذى تم إنقاذه من النزعة الاختزالية ، ولكنه يهيم بلا هدف). وإذا ما كان للتشريح أن يكون قدراً فلا بد من أن يكون الضمير معنويا، أو على الأكثر يكون روحًا فى الآلة . وفيما بينهم، هارفى وديسكارتيس ورمبرانت- أو بالأصح عقليتهم المشتركة - تحققوا من صحة رأى دون عندما قرر أنه فى «الآخرة تكون الأجساد أجسادنا على الرغم من أنها ليست نحن».

ومن الواضح أن المناقشات المماثلة لهذه المناقشة قد جرت من قبل. بيد أن فضيلة هذا الكتاب الجديد تتمثل فى تجنب النزعة الظافرة للتاريخ الطبى التقليدى أو التفسير الأخلاقى المرتبط بالحنين إلى الماضى الذى ارتبط بمناقشة الشاعر إليوت "dissociation of Sen- sibility». وبالنسبة لساوداى لم يجلب التشريح أساسًا الموت الذى يستدعى الرثاء لكونه

---

* Pieta الإسم الذى يطلق على رسم يصور السيدة مريم العذراء وهى تنتحب على جثمان المسيح المصلوب وفقًا لمفاهيم «الفن الدينى» فى أوربا منذ أوائل العصور الوسطى وما بعدها . (المترجم)

عضويًا ، أو يستلزم انتصار العلم. وبدلاً من ذلك خلقت ثقافة التشريح طرقا جديدةَ للرؤية أمكن أن تستخدمها الجمعية الملكية والشاعر الصوفي توماس تراهيرن Thomas Traherme على قدم المساواة .

الجسد والعقل والروح

فى "Body History I" ، ذكرت أن مجالات العقل والجسد ليست ثابتة على الأقل من الناحية البيولوچية . إذ إن حدودهما خاضعة للأخذ والرد عن طريق نظم خاصة للقيم، والأحكام والواجبات . أما إحساس النفس ، وهى كلية منقسمة إلى صفات غريزية ووظائف وأحكام وواجبات ، جسد متعقل وعقل متجسد، وهما غالبا فى حال خصام بين أحدهما والآخر، كان من الواضح أنه يحتل مكان المركز فى النظريات الأخلاقية والنظام القانونى، والبرامج التربوية ، وبشكل أعم، بالنسبة للمفاهيم الخاصة بمكان الجنس البشرى فى الطبيعة .، والجسور والحدود بين العقل والجسد، وبين التجربة والخلل فى وظائف الأعضاء ، من الواضح أنها ليست أقل مركزية بالنسبة لتاريخ المرض والصحة، كما تشهد حالات المرض الناجمة عن عوامل نفسية مثل الهيستيريا والخوف الشديد من المرض.

وحسبما اتضح بالفعل بمناقشة كتابى باستر وساوداى جاء العقد الأخير بدفعة قوية للبحوث الخاصة بهذه «النفس المتجسدة» . فقد اجتذبت الاهتمام القوى بموضوعات مثل تاريخ الهيستيريا ، والخوف والهلع من المرض، وحالات أخرى يمكن تفسيرها اليوم على أنها من الأمراض والسلوك الناتج عن عوامل نفسية (٥٥). وهناك بالمثل تقارير جيدة كثيرة عن إحساس الفرد بتجسد نفسه، لاسيما فى حالة الكتاب، من خلال خيالهم، مثل الدراسة التى قام بها ويلتشاير عن چان أوستن، ودراسة چيلمان عن كافكا بوصفه مريضا (٥٦). وقد أنتج الكثير من الوثائق عن تصورات النفس، كما أن خصائص الأمراض قد باتت مجالاً متوسعًا للدراسة(٥٧).

الجنس والنوع

بفضل الدراسات الأنثوية ، كما كتب فى "Body History I" ، شكَّل تكون الجنس والنوع وإعادة تكوينهما أحد المناطق القليلة جداً لتحليل الجسد–، كان جسد الأنثى أساسًا، الذى كان جذابًا ولكنه ملوث، مرغوبًا ولكنه خطير– الذى كان قد تم فحصه بدقة . وحتى فى ذلك الحين، كما لاحظت، كان من المستحيل تمامًا مناقشة مدى الموضوعات التى تمت تغطيتها فى هذه الدراسات (الأساس المادى للمحرمات الأخلاقية، الإنجاب، والجنس، والخضوع) وهو

ما ينطبق تمامًا اليوم- على أية حال، مثل الموضوعات التى تمت تغطيتها فى مقالة «تاريخ المرأة» فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

وقد لفت الانتباه إلى حقيقة أن «تاريخ الرجال» كان محلاً للتجاهل. ومنذ ذلك الحين، لقد الجسد الذكورى الاهتمام الذى جاء متأخراً(٥٨). وكما شاع فى تاريخ الجسد، فإن العلاقة الجدلية بين الفن والواقع قد برهنت على أهميتها المركزية . وفى هذا السياق ، تبرز مساهمتان . فقد أوضح اليكس بوتس Alex Potts فى كتابه :
Flesh and Ideal: Winckelmann and the Origins of Art History كيف تم خلق جماليات جديدة للذكر المستقل فى أثناء القرن التاسع عشر . ولم تكن مصادفة أن يحدث هذا فى الوقت نفسه عندما كانت المفاهيم الحديثة عن الشاذ جنسيًا آخذة فى التبلور (٥٩). وفى سلسلة رائعة من الدراسات ، كان الراحل چورچ موسى Feorg Mosse يتتبع أيضًا تحول (فساد) المثال الإغريقى عن الذكر النبيل فى الشكل الذى أحبه الدكتاتوريون الفاشيون ومن يتولون الدعاية لهم(٦٠).

ويجب أن نأخذ العنوان الذى وضعه موسى حرفيًا وأن نعطى الأولوية لاهتمامه الرئيسى The Image of Man : The Creation of Modern Masculinity الذى يدرس أساسًا رسم الجسد الذكورى، فى الفن وفى الدعاية، فى الكاريكاتير وفى الشكل النمطى ، ثم يمضى لتفسير الرسائل التى كانت تنقلها مثل هذه الأيقونات(٦١) - وما يذهله أكثر من غيره هو الاستمرار غير العادى لنمط أساسى واحد- فالفرد فى العنوان متعمد تمامًا . إذ إن الفن الإغريقى من خلال تماثيله، وتصاويره الفنية لأبطاله ومحاربيه، ورماة القرص والرياضيين ، أسس النمط الذى حظى بالتقدير فيما بعد لصورة الذكر : معتدل القامة، رياضى ، رشيق ومعتد بنفسه . هذه الأيقونة المميزة للرجولة تمت استعادتها حينذاك وشاعت بين الناس مع الإحياء الإغريقى فى القرن الثامن عشر من خلال الكتابات الرائدة لفيلسوف الجمال الألمانى ڤينكلمان.

هذه الصورة الجسدية ، الذكورية والمرمرية، خدمت فى تجسيد نمط الشخصية والحضور الاجتماعى. وقد عبر المثال الإغريقى ، بعد تهذيبه بواسطة الكلاسيكية الجديدة، عن ذكورة يميزها الاستقلال، والتحكم فى النفس، والجلد والتحمل ، وعدم الخوف والتصرف بحسب الأصول- وباختصار الرجولة: لقد كان جمال الجسد إشارة إلى عظمة الروح. ويجادل موسى

بأن تلك كانت صورة ، كما يجادل موسى ، تفى بحاجات ذلك النظم البورجوازى الجديد الذى ادعى التفوق وانتزع السلطة تدريجيا بعد الثورة الفرنسية، وهو نظام رفض حيوانية العامة وانحطاط الارستقراطية على السواء، ورغب فى أن يرى تفوقها الأخلاقى الخاص متجسداً– وقد تجسدت الفردية الفظة فى النظرة الواضحة صوب مسيحية ذكورية «تقاتل قتالاً جيداً» وتعول على نماذج اللياقة البدنية الإغريقية . كانت الجماعات الذكورية السائدة فى القرن التاسع عشر قد أشاروا إلى الرجولة المتفوقة من خلال تطوير ممارسات جديدة تعزز هذه الصورة عن الجسد: الرياضة فى ألمانيا والرجبى فى المدارس العامة الإنجليزية .

وفى رأى موسى أن هذه الصورة أحادية النوع قد عززت الرجولة منذ ذلك الحين، على الرغم من أنها اتخذت مظهراً يضم الكثير، بما فى ذلك المغامر الڤيكتورى الفحل، الذى يحمل على كتفه عبء الرجل الأبيض فى الإمبراطورية، أو المتطوع الجسورالذى ينخرط فى الجيش من أجل الملك والبلاد فى الحرب العالمية الأولى. واضح القسمات، حليقا نظيفا ، قوى الشكيمة، جميل البشرة، ناعم الشعر، وقوياً جنسياً ، هذه القدوة جسّدت الحلم الغربى الحديث : صلابة حقيقية، بيد أنها قوة يخفف منها كبح جماح النفس، واللطف وحماية الجنس الضعيف وشعور بالفروسية .

كانت هذه الصورة السائدة تحتاج إلى «آخر» لكى تذمه . فقد طفت على السطح قرب سنة ١٩٠٠م تنويعات مما يسمى الأنماط الذكورية المنحرفة أو الشاذة – الشعراء المنحطون ، والفنانون البوهيميون، والسفلة العاجزون، الذين نراهم فى زمرة بروست Proust من المثليين الباريسيين أو فى برلين فى مهرجان الشواذ Urningsballe ، وكل ما يشبه هذه الأنماط المضادة تجئ تحت مجهر فنانى الجسد مثل ريتشارد كرافت – إيبينج - Richard Krafft Ebing وعلماء الجريمة من أمثال سيسار لومبروسو Cesare Lombroso، الذى شخّص حالتهم على أنها تدهور وتهديدات للحيوية والفضيلة والأمة . ولكنهم «خرجوا» أيضا – أى فى نهاية القرن باعتبارهم ذكوراً شاذين يتباهون بشذوذهم ، ويصورون أنفسهم ربما باعتبارهم جنساً ثالثا (أرواح أنثوية محبوسة فى أجساد ذكورية). كما أن شذوذهم عن النوع المعتمد شاركتهم فيه «النساء الجديدات» اللاتى خاطرن بمزاعم عن التحرر السياسى والجنس على حين اخترعن أشكالاً جسدية راديكالية يمكن مجاراتها: الشعر القصير ، والصدر المسطح، والملابس الرجولية، وسيجارة بين الشفتين.

كل هذه التهديدات الماثلة التى هددت الرجولة الصحيحة - المراهقة، واليهودى العصابى (كما وصفه چيلمان)، وطليعة المنحطين، والفوضى الجنسية الخطرة- استفزت رد فعل فى ذكورية فائقة الفحولة جديدة كانت تفوق الرجولة القديمة . ومنذ العقود الباكرة فى القرن العشرين، كما يقول موسى، سعى الأشخاص العاديون إلى تأكيد أنفسهم فى الرسوم الكاريكاتورية المبالغة عن الذكورة التقليدية ، مع لهجة جديدة عن القوة الصلبة، والوطنية العمياء، وصحبة الشجاعة وقدر الموت . هذه الرؤية الجديدة التى لا تقبل المساومة ، والتى كانت تعول أحيانا على الداروينية ، حان وقتها على المسرح من خلال الفرص التى أتاحتها حربان عالميتان والشئون السياسية الفظة فى فترة ما بين الحربين، وهى فترة كتب عنها موسى برؤية خاصة، باعتباره لاجئا يهوديا قديماً .

وبعد الحرب العالمية الأولى حاول التقدميون السياسيون تحويل الشخص الخشن اجتماعياً إلى عامل. فقد أضفت الملصقات الديموقراطية الاشتراكية الألمانية صفة المثالية على الذكر البروليتارى القوى، على حين احتفل الفن السوڤيتى الواقعى بالبلشفى . وبالمثل حاول اليهود التخلص من النمط الشائع القديم، المنفر، المنغلق والمثير للشك جنسياً : صور الدعاية عن «اليهودى الجديد»، المستوطن الصهيونى فى فلسطين ، تظهرهم وقد حزموا أوساطهم، فى مظهر رجولى ذكورى وبرونزى ، يحرثون الحقول فى الكيبوتزات ، ويكادون يعكسون صور الدعاية الآرية، كما تشى تلميحات موسى*.

ولكن بطل العمال البطولى غير العنيف تصاعد ليظهر فى صورة مشوهة قاسية: المتطرف الفاشستى الجديد الذى اعتقد أن الرجولة الحقة- وما الذى كان يمكن أن يكون أنبل من ذلك؟ - كانت تتطلب انتصار إرادة الذكر . وكان لابد من التنكر للعائلة والأخلاق المسيحية وغيرها من أمثال هذه الروابط التى تسبب الضعف؛ وكان ما ينبغى تبنيه مجتمعاً ذكورياً خالصاً وتم تكريس جمال قوة العضلات لخدمة الوطن بلا ممانعة. وإذا كان رماة القرص الإغريق مجردين من ثيابهم حتى صدورهم العارية، أو مشوشين عقلياً، فإن الذين حظوا بكثير من المديح فى Mein Lampf ، وفى طراز متواضع صاروا من جنود العاصفة الألمانية .

* أى أن الدعاية الصهيونية قد استخدمت أساليب الدعاية النازية نفسها فى الترويج للاستيطان اليهودى فى فلسطين عن طريق الإيهام بالنموذج الذكورى القوى للصهاينة فى الكيبوتزات الإسرائيلية. (المترجم)

وكانت هزيمة الدكتاتوريين تعنى أن صورة الذكر أمكن صهرها بعد الحرب فى شئ أقل تخويفًا (إن لم يكن أقل جنسية) وفى طراز متواضع من التفوق بلا جهد فيما بعد الحرب، هو النمط القوى والصامت . وثمة تجليات أكثر تطرفًا من الماسوشية تم إبقاؤها عند الهوامش – طراز رعاة البقر الذى جسده چون واين (على الحدود فى الماضى، والمتمرد المراهق الذى جسده چيمس دين (طقوس المرور) أو رامبو (غالبا ما يكون بعيداً فى ڤييتنام). هذا التخفيف من النموذج القياسى للذكر برهن على أهميته حينما ظهرت تحديات جديدة من التفوق السوڤييتى فى ستينيات القرن العشرين مع إعادة تجسد «الانحطاط» القديم فى شكل رواج خنوثة شباب الهيبيز ، والذى تبعه بعد وقت قصير الدفاع عن حقوق المرأة والدفاع عن حقوق الشواذ جنسياً . ومن وجهة نظر موسى أن الحاصل هو أن مثل هذه التهديدات واجهت مقاومة أقل مما واجهته مثيلاتها منذ قرن مضى. وقد افتتن موسى بما أعقب ذلك من الإنزلاق إلى الجنس الموحد واضطراب الحدود بين النوعين لأنه يبدو بمثابة إعلان لنهاية عصر بدأه ڤيمكلمان . وما يجعل التوجه نحو النوع فى أواخر القرن العشرين يختلف عن الاتجاه الذى ساد من قبل (وأقل نجاحًا) عن الأنماط المقابلة السابقة ، هو أنه حينما كان الراديكاليون الجنسيون فى نهاية القرن ملتزمين بنشاط الأقلية السياسية ، فإن الخنوثة الحديثة على النقيض في جوهرها إنتاج وثمرة النرجسية الاستهلاكية الرأسمالية .

وفى مصطلحات النوع، فإن التطور العظيم الآخر والجدل الذى دار فى العقد الأخير يتجاوز الصور المحددة للجسد الذكورى والجسد الأنثوى ويدرس تاريخ فكرة اختلاف الجنس والنوع نفسها . وهنا كان النص الجوهرى كتاب Making Sex لتوماس لاكير Thomas La-queur (٦٢). ويزعم لاكير أنه يرصد تحولاً فى تعريف مفهم الجنوسة النوعية ، من المفهوم الإغريقى عن الاختلاف الجنسى (والذى يسميه النموذج الهيراركى لجنس واحد) إلى نموذج الفرق بين الجنسين المألوف فى العصور الحديثة، ولم يكن المصدر الكبير فى القرن الثامن عشر ، والتشريح الكلاسيكى حسبما تم توثيقه فى التحليل الدقيق فى الكتابات الطبية– العلمية والفلسفية، لم يعرف مفهوم «الجنسين المتضادين» الذى يمثل جوهر مفاهيمنا الشائعة: ولم يكن الذكر والأنثى يعتبران «نمطين» متمايرين جذريا . وبدلاً من ذلك، فإن الكتّاب الإغريق المؤثرين قالوا : إن هناك نمطا إنسانيا واحداً، هو الذكر. إذ إن الذكورة ضمت جميع الخصائص الجوهرية لكمال الغايات الإنسانية : فقد أسبغت على الذكور قدرة أكبر على

التحمل فى الرياضة والحرب، على حين أن رؤوسهم المتفوقة بشكل واضح تجعلهم مناسبين للشئون السياسية والفلسفة . وعلى الرغم من افتقار النساء لمثل هذه الخصال الراقية ، فإنهن مع هذا، كن تابعات ضروريات، لأنهن خلقن للمتعة الجنسية، والزينة، والإنجاب .

وعند بزوغ فجر العلم لم تكن «المرأة» موجودة وجوداً ذاتيًا مستقلاً . ومنذ أرسطو حتى جالينوس ، وصولا إلى حوالى سنة ١٧٠٠م ، كان الفرض الأساسى أن هناك جنسًا واحداً حقيقيًا فقط : الذكر *. ولم تكن الأنثى فى الأنواع ، حسبما كان الآباء والمؤسسون فى علم البيولوچى والطب يدرسون لتلاميذهم سوى رجل خُلق بدون تدقيق . وعلى خلاف فرويد ، فإن علم البيولوچى فى أطواره الأولى لم يكن يقول إن المرأة فقدت عضوها الذكرى حقا، وإنما كان يقول إن قضيبها لم ينم أبداً بالطريقة الصحيحة منذ البداية. وعندما تطورت الأعضاء فى الرحم ، نضج قضيب الصبى وهو جنين وتشكل. ولكن إذا ما حدث خطأ أثناء فترة الحمل، فإن القضيب «لايخرج أبداً». وإنما يبقى داخل جسد الجنين، ويصير «مهبل» . ومثل هؤلاء الصبية غير المكتملين ، أو المشوهين ، كانوا يسمون بنات- فى الحقيقة «مسخ» حسبما كان بعض أتباع أرسطو يقولون . وإذ استعرض التعاليم الطبية، فإنه يوضح أن النساء لم يكن يمنحن حتى شرف أعضائهن الجنسية: فعلى سبيل المثال ، كانت مبايض الأنثى توضع تحت لافتة «خصيتى المرأة» . ويصنف لاكير هذه النظرية التقليدية بأنها «نموذج هيراركية الجنس الواحد»، تمييز لها عن رؤية الجنوسة البشرية على أنها جنسان (مختلفان ولكنهما متساويان) وهى الرؤية التى يعتنقها العلم الحديث. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا التنظير يبرز الحقيقة الفاضحة القائلة بأنه ، على مرّ التاريخ ، قام الأطباء الذكور بنشر (أو أساءوا استخدام) هيبة العلم لكى يصموا الأنثى بأنها نوع أقل شأنًا .

---

* العيب الأساسى ، والجوهرى ، فى هذا الفصل أن الكاتب شديد المركزية بحيث أنه لا يدرك وجود تراث علمى قديم آخر خارج أوربا، فى جميع أنحاء العالم القديم؛ وقد جعله هذا جاهلاً بالمفاهيم التى حملتها الحضارات القديمة ، والتى كانت رؤيتها للعلاقة بين «الذكر» و«الأنثى» مختلفة بالضرورة عن الرؤية الأوربية ومن ناحية أخرى، فإن هذه المقالة لا ترى وجوداً للتاريخ خارج أوربا؛ وهذا ما يجعل القوام العلمى والمنهجى لها متهافتًا؛ ناهيك عن أن الموضوع برمته «تاريخ الجسد» نوع من «المماحكة» العلمية التى تختطف شذرات من هنا وهناك تفتقر إلى السياق الموضوعى الذى يتصف به أى فرع من فروع الدراسة التاريخية !! (المترجم)

وعلى أية حال ، فإن للإنحيازات دلائل غريبة. وبطبيعة الحال، فإن مثال «الجنس الواحد» – والجنس الثانى يحتل الدرجة الثانية فعلا– قد قلل من شأن النساء بدرجة هائلة . بيد أنه أيضا منحهن من ناحية أخرى بعض القوة . لأنه إذا كانت النساء رجالاً غير مكتملين ، فإنهن كن شبيهات بالرجال على الأقل. وبالمصطلحات الشهوانية كان هذا يعنى أن رغباتهن يجب أن تكون قوية . وإذا كان المهبل عضوا «خارجيا – داخلاً» ذكوريًا ، فلابد أن تكون لديهن نشوة الجماع تمامًا مثل الرجال ، ولابد لهن أيضا أن «يقذفن» . والحقيقة ، أن الكتاب الأوائل كانوا يقولون فى دروسهم إن الحمل لايمكن حدوثه بدون النشوة المتبادلة فى الوقت نفسه . وهكذا، فإنه قبل قرون من كتاب Joy of Sex ، كان العلم المتعصب للذكورة يغطى على ما احتفى به ناشطو الحركة النسوية المحدثون على أنه «تحرير» وهى النشوة الأنثوية .

وعلى مدى القرون الثلاثة الماضية كانت كتيبات الجنس تعلّم الأزواج أن من الواجب أن يكونوا عاشقين متفهمين ، وتنصحهم بناء على خبرة سابقة– إن هناك سنوات ضوئية تفصلهن عن الصورة الشائعة عن جداتنا اللاتى كن ينصحن بعبارة «ابقين فى الخلف وفكرن فى انجلترا». وكان على المرأة فى العصر الڤيكتورى أن تكون عديمة الإحساس جنسيا تقريبا، لكى تبرهن على عفتها. وفى ذروة أيام «المعيار المزدوج» فى العصر الڤيكتورى ، كان لابد للسيدات أن يكن مختلفات تماما عن رجالهن .

ومع حلول القرن التاسع عشر ، كان التفكير فى النوع قد مر بتغير خطير حقًا . ذلك أن المفهوم القديم عن المرأة باعتبارها (بصورة حرفية تماما) ذكرًا نصف مخبوز (غير مكتمل التسوية) قد تلاشى . وبدلاً من ذلك كان أطباء القرن التاسع عشر يدرّسون أن المرأة تكاد أن تكون فصيلة بشرية منفصلة . فما الذى يفسر التغيير ؟ لقد لعب التفكير العلمى الجديد دوره ، كما يناقش لاكير . إذ إن علم الفسيولوچى القديم الذى نظر للمرأة باعتبارها ذكرًا فى داخل مظهرها لم يكن أبدًا خاليًا من المشكلات . فقد كان من السهل تصوير المهبل على أنه عضو ذكورة مقلوب – فقد أعاد لاكير إنتاج رسوم توضيحية شاذة من كتب طبية توضح هذا بالضبط . ولكن ماذا عن النظر ؟ وماذا عن الرحم نفسه ؟ هنا تتهشم الصورة التى تعكسها المرآة وما يوازيها.

لقد استكشف البحث نظام الإنجاب عند الأنثى . وزاد الاعتراف بأن النساء يفرزن البويضات بشكل تلقائى ، حسب إيقاع داخلى. ومثل هذا التبويض كان من الواضح أنه ليس

نسخة معيبة من أى شئ يفعله الرجال : فقد كان أمراً فريداً فى النساء . وقد برهنت الأبحاث التى أجريت على الدورة الطمثية أن النساء يمكنهن أن يحملن بدون نشوة الجماع- فى الحقيقة بدون إثارة جنسية على الإطلاق (مثلما يحدث فى حالات الاغتصاب) . ويبدو أن علم البيولوچى كان يبرهن على أن الذكر والأنثى عالمان منفصلان، من الناحية الجنسية وأن النساء ربما يكن حبيسات أرحامهن .

وهكذا فإن الصورة العلمية عن المرأة بوصفها شبيهة بالرجل- ومن ثم فهى شهوانية - استسلمت للنموذج الڤيكتورى للمرأة باعتبارها مخالفة للرجل ومن ثم انحرفت تجاه البرود الجنسى . وفى هذا التحول لم تكن التغيرات الاجتماعية تقلُّ حسماً عن التعاليم الطبية كما يؤكد لاكير . وكان النموذج الذى وضعه العصر الڤيكتورى للزوجة أن تبقى فى المنزل ، وتصبح أما منجبة ، ملاكًا فى بيت الدمى، وزينة لزوج فى الخارج يرأس صناعة أو يقود الإمبراطورية. وكان من المقبول عقلاً أن «الطبيعة» قد خلقت النساء والرجال بشكل مختلف من أجل القيام بمثل هذه الأدوار المختلفة. ألم تكن «المدارات المنفصلة » تعنى أنها منفصلة فسيولوچيا ؟

وبالمثل يصر كتاب لاكير على أن وعينا بذواتنا ، وأجسادنا ، وجنسنا، قد تغير بصورة جذرية . فالفئات التى نتصور أنها الأكثر أساسية تحولت لتصير الأكثر قابلية للتعديل . كان هناك زمن وصمت فيه النساء بالنقص ثم، فى عيون الڤيكتوريين كن مكملات للرجال، لكنهن مختلفات. واليوم ؟ أين يترك ذلك شئون الجنس . تشير الحركة النسوية إلى كلا الطريقين- حينًا تجاه الدمج (جسد واحد) ، وحينًا تجاه الفصل . هذه الاختيارات سياسية. ومع هذا ، كما يوضح لاكير بشكل مستفز، فإن مثل هذه الاختيارات تتوقف على كيفية صياغة المفاهيم عن أجسادنا . وقد قوبل كتاب لاكير بالنقد على أرضية من الاعتبارات الإمبريقية والمفاهيمية على السواء[٦٣]. ومع هذا كانت له أهمية رائدة فى توضيح كيف أن ما يمكن أخذه بظاهره على أنه حقائق بيولوچية ثابتة عن الجسد إنما هى فى حقيقة أمرها أمور تم بناؤها تاريخيا وثقافيا[٦٤].

الجسد والهيئة الاجتماعية

لاحظت فى "Body HistoryI" أن مؤرخى الفكر السياسى والأدب قد بحثوا طويلاً فى التعبير المجازى «الهيئة الاجتماعية» ، والمفاهيم المرتبطة به والمشتقة منه، مثل "king`s two bodies" - أى «مجلسى الملك» - على الرغم من أنهم قد فعلوا هذا غالبًا بدون صبر،

متوقعين أن يروا هذه التعبيرات المجازية الخلابة والتى يفترض أن تزول خارج المسرح من القرن السابع عشر لتحل محلها لغة أكثر قوة وذات طابع فلسفى أقوى . أما ما كان نصيبه من الاهتمام أقل كثيراً، حسبما قلت ، فكانت الأساليب التى عن طريقها أدارت السلطة السياسية المجتمع نفسه حقًا .

وقد تغير هذا الموقف . فمن ناحية، لدينا الآن دراسات جديدة عن تجسد جلالة الملكية والشخصية الجسدية للسلطة (٦٥). وفى الوقت نفسه، تمت دراسة فرض السيطرة الحكومية على الناس ، لاسيما فى إدارة عقوبة الإعدام والعقاب البدنى، وهى موضوعات أثارها فوكو ويمثل ريتشارد إيفانز Richard Evans فى كتابه : Rituals of Retribution: Capital Punishment in Germany, 1600-1987 هذا الاتجاه الجديد (٦٧). وقد حظيت ممارسة السلطة فى كتابات فوكو الأخيرة، لا باعتبارها قوة سلبية ، وإنما باعتبارها قوة تسهيل ، حظيت بالمزيد من الدراسات الجيدة عن التكامل بين نظم الدولة وتطلعات الفرد . وكتاب كورنيلى أوسبورن، الذى عنوانه The Politics of the Body in Weimer Germany ، مثلاً (٦٨)، قد أكدت الأمور السياسية الغامضة لنظام مكرس لتلبية مطالب سياسة الجسد من جانب مؤيديه الديموقراطيين (مثلا ، من أجل تشريع منع الحمل، والإجهاض ورعاية الطفل) ولكن بشروطه هو فقط فى الأساس .

الجسد ، الحضارة ومنغصاتها

التاريخ عملية تحضر لم تصل إلى نهايتها- يقول الأنثروبولوچيون ، إنه نضال لتأكيد تمايز الإنسان عن الطبيعة . ومع هذا وكما لاحظت فى "Body History I" فإن كتابة تاريخ حضارة ما كان قد تمركز زمنًا طويلاً على إنجازات الثقافة الراقية . ولا حاجة إلى نوع جديد من تاريخ التثقيف – وهو نوع سوف يولى الاهتمام إلى الكسوة المجازية للأعراف الأخلاقية ، والمحرمات ، والممنوعات ونظم القيم التى تربط ما بين النظام والرغبات ، والأدب والحفاظ على الأمن . أما قصص الملابس والنظافة والأكل، ولوازم التجميل وهلم جرا، فقد ترك أمرها للهواة زمنًا طويلاً (٦٩).

ومرة أخرى أنه مما يبعث على السرور أن نلاحظ أن هذا الموقف آخذ فى التغير . إذ إن موجة من الدراسات الجديدة قد تناولت حضارة الحواس (٧٠)، من الهضم إلى التبرز والقذارة(٧١). وبصفة خاصة أدوار المظاهر الجسدية والسلوك باعتبارها مؤشرات على

الحضارة تم تحليلها داخل نطاق الدراسات الاستعمارية ، مع اهتمام خاص بالاستقطاب فيما بين الجسد الإمبريالي والجسد المحلي(٧٢).

ومن الممكن أن تكون أكثر الدراسات طموحًا في هذا الاتجاه والتي ظهرت أثناء العقد الأخير هي دراسة ريتشارد سينيت Richard Sennet بعنوان (٧٣):

Flesh and Stones: The Body and the City in Western Civilization وهي محاولة لتتبع آثار المتوازيات ، وربما التأثيرات، فيما بين المدن- بوصفها حقائق ومثاليات على السواء - والأجساد من أثينا القديمة حتى نيويورك المعاصرة. ويجادل سينيت بأن المدينة قدمت الصورة للجسد (والعكس صحيح) ، على حين أنها خدمت في الوقت نفسه باعتبارها البيئة التي في رحابها يؤدي الجسد وظائفه . فعلى سبيل المثال، فإن عقيدة هارفي عن الدورة الدموية (التي ذكرناها من قبل) قد سهلت رؤية المدينة الحديثة التي وصلت فيها دورة المرور إلى ذروتها. ودراسة سينيت شاعت بواسطة إحساس متشائم عميق بالغربة. ففي الزمن القديم كانت المدينة توفر فضاء عموميا ربما كان الإنسان قد أينع فيه . أما المدينة الحديثة، التي استندت على مجرد وضع النماذج العلمية للجسد، فقد جعلت الإنسان غريبًا عن نفسه . وفي كتابات سينيت يتعايش فيلسوف الأخلاق الذي يكتب بيده مع المؤرخ التطبيقي في تحالف قلق .

خاتمـة

أوضحت الأجندة التي كانت لدي منذ عشر سنوات مضت المناطق التي كان فيها نمو تاريخ الجسد مؤثرا من حيث الكم والكيف على حد سواء . بالإضافة إلى نقص التاريخ المعاصر حقًا ، فإن تلك الأجندة حذفت تمامًا وعن قصور نظر المجال الذي وصلت فيه الكتابة عن تاريخ الجسد إلى عنان السماء بشكل مدهش للغاية: وهو مجال البعد النظري . معولاً على النظرية النقدية ، وما بعد الحداثة، وما بعد الفوكوية ، وغيرها من هذه النزعات "isms -" التي تجسد التحول اللغوي، وأيضا على فلسفة النسوية، والنوع والشاذ من الرجال والشاذة من الإناث ، وكثير مثل هذا، يوجد الآن نتاج ضخم عن نظرية الجسد يطرح التحدي؛ بيد أنه نتاج غالبًا ما يتسم بالدوجماتية تاريخيا أو يوصم بالنقص(٧٤). ويبقى مطلوبا القيام بالمعادلة بين التطبيقي والنظري . وحتى مع هذا، فإن كل الإشارات تشي بأن تاريخ الجسد له مستقبل براق باعتباره مجالاً للبحث في العلوم المتداخلة .

الهوامش

1 T. Eagleton, *The Ideology of the Aesthetic* (Oxford, 1990), p. 7. The references in this are necessarily truncated, for lack of space; their selection also reflects the prejudices of an early modern historian of Britain.
2 Mark S. R. Jenner, 'Body, Image, Text in Early Modern Europe', *Social History of Medicine*, 12 (1999), pp. 143–54.
3 I made a similar appeal in Roy Porter, 'Bodies of Thought: Thoughts about the Body in Eighteenth Century England', in J. Pittock Wesson and Andrew Wear (eds), *Interpretation and Cultural History* (London, 1990), pp. 82–108.
4 This is of course a wildly simplistic way of putting an extremely complicated situation. For the intellectual foundations of these cultural heritages see Bennett Simon, *Mind and Madness in Ancient Greece* (Ithaca, NY, 1978); E. R. Dodds, *The Greeks and the Irrational* (Berkeley, 1951); H. North, *Sophrosyne: Self-knowledge and Self-Restraint in Greek Literature* (Ithaca, NY, 1966); F. Bottomley, *Attitudes to the Body in Western Christendom* (London, 1979). See also Drew Leder, *The Absent Body* (Chicago; London, 1990), which addresses the problem in modern philosophy.
5 Peter Brown, *The Body and Society: Men, Women and Sexual Renunciation in Early Christianity* (New York, 1988).
6 Though this is often misinterpreted. See for correctives S. Tomaselli, 'The First Person: Descartes, Locke and Mind – Body Dualism', *History of Science*, 22 (1984), pp. 185–205; T. Brown, 'Descartes, Dualism and Psychosomatic Medicine', in W. F. Bynum, Roy Porter and Michael Shepherd (eds), *The Anatomy of Madness*, 2 vols (London, 1985), vol. 2, pp. 40–62; R. B. Carter, *Descartes' Medical Philosophy* (Baltimore, 1983).
7 A disparagement of course enhanced by traditional prudery, Bowdlerism etc. See P. Fryer, *Mrs Grundy: Studies in English Prudery* (London, 1963); M. Jaeger, *Before Victoria* (London, 1956); E. J. Bristow, *Vice and Vigilance* (Dublin, 1977); M. Quinlan, *Victorian Prelude* (New York, 1941); E. Trudgill, *Madonnas and Magdalens* (London, 1966).
8 For Freud, see William J. McGrath, *Freud's Discovery of Psychoanalysis* (Ithaca, NY, 1986); H. F. Ellenberger, *The Discovery of the Unconscious: The History and Evolution of Dynamic Psychiatry* (New York, 1971); F. Sulloway, *Freud: Biologist of the Mind* (New York, 1979) and J. M. Masson, *The Assault on Truth: Freud's Suppression of the Seduction Theory* (New York, 1983); Janet Oppenheim, *'Shattered Nerves': Doctors, Patients and Depression in Victorian England* (Oxford, 1991); Tom Lutz, *American Nervousness, 1903: An Anecdotal History* (Ithaca, NY, 1991). Some psychoanalysts went on to deny the basis not just of 'mental' illness but of all illness whatsoever: see G. Groddeck, *The Book of the It* (London, 1950); id., *The Meaning of Illness* (London, 1977).
9 Note the mystical strain in the critique of modernity which equally is hostile to materialism: M. Berman, *The Re-enchantment of the World* (London, 1982), and F. Capra, *The Turning Point: Science, Society and the Rising Culture* (New

York, 1982). For worries as to the implications of the postmodernist denial that anything exists beyond texts, see Richard Evans, *In Defence of History* (London, 1997).

10 Mikhail M. Bakhtin, *Rabelais and his World*, trans. H. Iswolsky (Cambridge, Mass., 1968); P. Stallybrass and A. White, *The Politics and Poetics of Transgression* (Ithaca, NY, 1986).

11 A. Vartanian, *Diderot and Descartes: A Study of Scientific Naturalism in the Enlightenment* (Princeton, 1953); Ann Thomson, *Materialism and Society in the Mid-eighteenth Century: La Mettrie's Discours preliminaire* (Geneva and Paris, 1981); J. Yolton, *Thinking Matter: Materialism in Eighteenth Century Britain* (Minneapolis, 1983); id., *Perceptual Acquaintance from Descartes to Reid* (Minneapolis, 1984).

12 The complex relations between body and soul in Christianity are well exemplified in Rosalie Osmond, *Mutual Accusation: Seventeenth-century Body and Soul Dialogues in their Literary and Theological Context* (Toronto, 1990).

13 For a speculative view of the significance of gnosticism, see Morris Berman, *Coming to our Senses: Body and Spirit in the Hidden History of the West* (New York, 1990).

14 Michel Foucault, *Histoire de la sexualité*: vol. 2, *L'usage des plaisirs* (Paris, 1984); trans. Robert Hurley, *The Use of Pleasure* (New York, 1985); *Histoire de la Sexualité*: vol. 3, *Le souci de soi* (Paris, 1984); trans. Robert Hurley, *The Care of the Self* (New York, 1986). For 'degenerationist' psychiatry and art see Max Nordau, *Degeneration* (New York, 1895); W. R. Bett, *The Infirmities of Genius* (London, 1952); T. B. Hyslop, *The Great Abnormals* (London, 1925); Roger L. Williams, *The Horror of Life* (London, 1980); Jean Pierot, *The Decadent Imagination* (Chicago, 1981).

15 Peter Burke, *Vico* (Oxford, 1985); Ernest Gellner, *Plough, Sword and Book: The Structure of Human History* (London, 1991).

16 Donald G. MacRae, 'The Body and Social Metaphor', in J. Benthall and T. Polhemus (eds), *The Body as a Medium of Expression: An Anthology* (New York, 1975), pp. 59–73. For the Renaissance tradition of thinking the world through the body and the body through the world, see J. B. Bamborough, *The Little World of Man* (London, 1952); Leonard Barkan, *Nature's Work of Art: The Human Body as Image of the World* (New Haven, 1975).

17 O. Mayr, *Authority, Liberty and Automatic Machines in Early Modern Europe* (Baltimore, 1986); David E. Leary (ed.), *Metaphors in the History of Psychology* (Cambridge, 1990); Graham Richards's *On Psychological Language and the Physiomorphic Basis of Human Nature* (London, 1990) illuminates the construction of selves through the language and images of the body, and the understanding of the body through mental appropriation of the wider world.

18 M. Featherstone, 'The Body in Consumer Culture', *Theory, Culture & Society*, 1 (1982), pp. 18–33; R. Jacoby, 'Narcissism and the Crisis of Capitalism', *Telos*, 44 (1980), pp. 58–65; C. Lasch, *The Culture of Narcissism* (New York, 1979); Peter Falk, *The Consuming Body* (Thousand Oaks, Calif., 1994); Bryan S. Turner, 'Recent Developments in the Theory of the Body', in Mike Featherstone, Mike Hepworth and Bryan S. Turner (eds), *The Body: Social Process and Cultural Theory* (London, 1991), pp. 1–35.

19 A recent instance is Frank Sulloway's *Born to Rebel: Birth Order, Family Dynamics, and Creative Lives* (New York, 1996), a book which reduces such matters as creativity and political activism to birth order among siblings.

20 I used in my cautionary tale Francis Barker's *The Tremulous Private Body* (London, 1984). By way of 'deconstructionist' linguistic analysis of a seemingly arbitrary sample of key texts (*Hamlet*, Rembrandt's *Anatomy Lesson*, Pepys' *Diary*, etc.) Barker concluded that the body, which traditionally had been a 'public' object, became 'privatized', as an object of narcissistic shame, within seventeenth-century bourgeois culture – indeed, the body 'disappeared' altogether as a medium of eroticism, being displaced by the 'book'. Grandiose conclusions to derive from so little material – and indeed ones whose validity was undermined by what seemed like a policy of deliberately ignoring existing contextual scholarship. For example, on Rembrandt, Barker's scholarship was demolished in J. R. R. Christie, 'Bad News for the Body', *Art History*, 9 (1986), pp. 263–70. Christie demonstrated that Barker's reading of Rembrandt was wholly invalidated by William Schupbach's *The Paradox of Rembrandt's 'Anatomy of Dr Tulp'* (London, 1982).

21 See Tim Hitchcock, *English Sexualities 1700–1800* (Basingstoke, 1997).

22 For discussion of the dangers of extrapolating from prescription to practice in the case of sex, see Karen Louise Harvey, 'Representations of Bodies and Sexual Difference in Eighteenth-Century English Erotica', Ph.D. thesis, University of London, 1999; Roy Porter and Lesley Hall, *The Facts of Life: The History of Sexuality and Knowledge from the Seventeenth Century* (New Haven, 1994).

23 Fundamental for England is the work of the Cambridge Population Group: E. A. Wrigley and R. S. Schofield, *The Population History of England 1541–1981: A Reconstruction* (London, 1981); E. A. Wrigley, R. S. Davies, J. E. Oeppen and R. S. Schofield, *English Population History from Family Reconstitution 1580–1837* (Cambridge, 1997).

24 Guenter B. Risse, *Hospital Life in Enlightenment Scotland* (Cambridge, 1985).

25 Mary E. Fissell, *Patients, Power, and the Poor in Eighteenth-Century Bristol* (Cambridge, 1991).

26 For discussion of the strengths and weaknesses of photographs as visual evidence see Daniel M. Fox and Christopher Lawrence, *Photographing Medicine: Images and Power in Britain and America since 1840* (New York, 1988); and, more broadly, for visual evidence, Christopher Lawrence and Steven Shapin (eds), *Science Incarnate: Historical Embodiments of Natural Knowledge* (Chicago, 1998).

27 See Erving Goffman, *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity* (Harmondsworth, 1968); id., *The Presentation of Self in Everyday Life* (Harmondsworth, 1969); id., *Strategic Interaction* (Oxford, 1970); id., *Interaction Ritual* (London, 1972). On gesture, Jan Bremmer and Herman Roodenburg (eds), *A Cultural History of Gestures from Antiquity to the Present Day* (Cambridge, 1991) is admirable.

28 Of landmark importance was the appearance of Michel Feher, *Fragments for a History of the Human Body*, 3 vols (New York, 1989) – though it met a chilly academic response from scholars questioning its political correctness; see for instance the review essay by Colleen Ballerino Cohen and Karen Robertson in *History of Sexuality*, 3 (1992), pp. 129–40, who complained of its lack of 'an explicit critical analysis of the class, race, gender, and heterosexual assumptions underlying and being reproduced in its analytical project'.

29 *Body and Society* was founded in 1997, and is published quarterly by Sage.

30 See Cindy Patton, *Inventing AIDS* (New York and London, 1990); Simon Watney, *Policing Desire: Pornography, AIDS, and the Media* (Minneapolis, 1987); id., *Practices of Freedom: Selected Writings on HIV/AIDS* (London, 1994).

31 M. Featherstone, 'The Body in Consumer Culture', *Theory, Culture & Society*, 1 (1982), pp. 18–33; Pasi Falk, *The Consuming Body* (Thousand Oaks, Calif., 1994).

32 Jane Arthurs and Jean Grimshaw (eds), *Women's Bodies: Discipline and Transgression* (London, 1999); Julia Epstein and Kristina Straub (eds), *Body Guards: The Cultural Politics of Gender Ambiguity* (London, 1992). In the light of contemporary awareness of gender pliability, important studies have appeared examining historical antecedents: Nelly Oudshoorn, *Beyond the Natural Body: An Archaeology of Sex Hormones* (London, 1994).

33 In this respect Jenner particularly criticizes Laurinda S. Dixon, *Perilous Chastity: Women and Illness in Pre-Enlightenment Art and Medicine* (Ithaca, NY, 1995).

34 Mark S. R. Jenner, 'Body, Image, Text in Early Modern Europe', *Social History of Medicine*, 12 (1999), pp. 143–54, p. 154.

35 This one of the main faults of Gail Kern Paster's *The Body Embarrassed: Drama and the Disciplines of Shame in Early Modern England* (Ithaca, NY, 1993), which assumes the universal applicability of Lacanian psychoanalytical categories. For further discussion of Paster, see below. Other research makes exemplary use of Freudian categories: see Lyndal Roper, *Oedipus and the Devil* (London, 1994).

36 J. Huizinga, *The Waning of the Middle Ages* (Harmondsworth, 1972); Piero Camporesi, *The Incorruptible Flesh: Bodily Mutation and Mortification in Religion and Folklore* (Cambridge, 1988).

37 Carolyn Walker Bynum, *Fragmentation and Redemption: Essays on Gender and the Human Body in Medieval Religion* (New York, 1991). See also Linda Lomperis and Sarah Stanbury (eds), *Feminist Approaches to the Body in Medieval Literature* (Philadelphia, 1993).

38 Caroline Walker Bynum, *The Resurrection of the Body in Western Christianity, 200–1336* (New York, 1995), p. 11.

39 See for instance Piero Camporesi, 'The Consecrated Host: A Wondrous Excess', in M. Feher (ed.), *Fragments for a History of the Human Body*, vol. 1 (New York, 1989), pp. 220–37.

40 Leo Steinberg, *The Sexuality of Christ in Renaissance Art and Modern Oblivion* (New York, 1983).

41 Miri Rubin, *Corpus Christi: The Eucharist in Late Medieval Culture* (Cambridge, 1991); Sarah Coakley (ed.), *Religion and the Body* (Cambridge, 1997).

42 I made these points at greater length in 'Review Article: Seeing the Past', *Past and Present*, 118 (Feb. 1988), pp. 186–205.

43 Jean-Pierre Aron, Pierre Dumond, Emmanuel Le Roy Ladurie, *Anthropologie du conscrit français* (The Hague, 1972). The field had been pioneered by the Brazilian historian Gilberto Freyre: *Casa granda e sensala* (Rio de Janeiro, 1933), developed in his *O Escrava nos anuncios de jornais brasileiros do seculo xix* (Recife, 1963).

44 Roderick Floud, Annabel Gregory and Kenneth Wachter, *Height, Health, and History: Nutritional Status in the United Kingdom, 1750–1980* (Cambridge, 1990); for similar studies see John Komlos, *Nutrition and Economic Development in the Eighteenth Century Habsburg Monarchy* (Princeton, 1989); Mark Nathan Cohen, *Health and the Rise of Civilization* (New Haven, 1989).

45 T. McKeown, *Medicine in Modern Society* (London, 1965).

46 For instance, Martin Porter, 'English "Treatises on Physiognomy" c.1500–c.1780', D.Phil. thesis, University of Oxford, 1997; Christopher Rivers, *Face Value: Physiognomical Thought and the Legible Body in Marivaux, Lavater, Balzac, Gautier, and Zola* (Madison, Wis., 1994).

47 Marcia Pointon, *Hanging the Head: Portraiture and Social Formation in Eighteenth-Century England* (New Haven, 1993); Kathleen Adler and Marcia Pointon (eds), *The Body Imaged: The Human Form and Visual Culture since the Renaissance* (Cambridge, 1993).

48 Nigel Llewellyn, *The Art of Death: Visual Culture in the English Death Ritual c.1500–c.1800* (London, 1991).

49 Sander L. Gilman: *Seeing the Insane: A Cultural History of Madness and Art in the Western World* (New York, 1982); id., *On Blackness without Blacks: Essays on the Image of the Black in Germany* (Boston, 1982); id., *Difference and Pathology* (Ithaca, NY, 1985); id., *Inscribing the Other* (Lincoln, Nebr., 1991); id., *Health and Illness: Images of Difference* (London, 1995).

50 Sander Gilman, *The Jew's Body* (New York, 1991).

51 Sander Gilman, *Creating Beauty to Cure the Soul: Race and Psychology in the Shaping of Aesthetic Surgery* (Durham, NC, 1998); id., *Making the Body Beautiful: A Cultural History of Aesthetic Surgery* (Princeton, 1999). Compare S. Paige Baty, *American Monroe: The Making of a Body Politic* (Berkeley, 1995).

52 K. B. Roberts and J. D. W. Tomlinson, *The Fabric of the Body* (Oxford, 1992); David Hillman and Carla Mazzio (eds), *The Body in Parts: Discourses and Anatomies in Early Modern Europe* (London, 1997); Christopher Lawrence, 'Alexander Monro *Primus* and the Edinburgh Manner of Anatomy', *Bulletin of the History of Medicine*, 62 (1988), pp. 193–214; Ruth Richardson, '"Trading Assassins" and the Licensing of Anatomy', in Roger French and Andrew Wear (eds), *British Medicine in an Age of Reform* (London, 1991), pp. 74–91; Jan C. C. Rupp, 'Matters of Life and Death: The Social and Cultural Condi-

tions of the Rise of Anatomical Theatres, with Special Reference to Seventeenth Century Holland', *History of Science*, 28 (1990), pp. 263–87.

53 Gail Kern Paster, *The Body Embarrassed: Drama and the Disciplines of Shame in Early Modern England* (Ithaca, NY, 1993).

54 Jonathan Sawday, *The Body Emblazoned: Dissection and the Human Body in Renaissance Culture* (London, 1995). Sawday's book is severely criticized for its speculative nature by Jenner.

55 For instance, Edward Shorter, *From Paralysis to Fatigue: A History of Psychosomatic Illness in the Modern Era* (New York, 1992); Sander L. Gilman, Helen King, Roy Porter, G. S. Rousseau and Elaine Showalter, *Hysteria beyond Freud* (Berkeley, 1993); Mark Micale, *Approaching Hysteria: Disease and its Interpretations* (Princeton, 1995) offers a fine introduction to the historiography.

56 John Wiltshire, *Jane Austen and the Body: 'The Picture of Health'* (Cambridge, 1991); Sander Gilman, *Franz Kafka: The Jewish Patient* (New York, 1995). Similar studies include: John Wiltshire, 'Fanny Burney's Face, Madame D'Arblay's Veil', in Marie Mulvey Roberts and Roy Porter (eds), *Literature and Medicine during the Eighteenth Century* (London, 1993), pp. 245–65; Roger Cooter, 'Dichotomy and Denial: Mesmerism, Medicine and Harriet Martineau', in Marina Benjamin (ed.), *Science and Sensibility: Gender and Scientific Enquiry, 1780–1945* (Oxford, 1991), pp. 144–73; Jon Mukand (ed.), *Articulations: The Body and Illness in Poetry* (London, 1994); Aileen Douglas, *Uneasy Sensations: Smollett and the Body* (Chicago, 1995); Carol Houlihan Flynn, *The Body in Swift and Defoe* (Cambridge, 1990). The literary studies are endless.

57 It is prominently represented in the journal *Literature and Medicine*. Well worth consulting are recent works on the history of pain, including: David B. Morris, *The Culture of Pain* (Berkeley, 1991); Lucy Bending, 'The Representation of Bodily Pain in Late Nineteenth-Century English Culture', D.Phil. dissertation, University of Oxford, 1997.

58 Susan Bordo, 'Reading the Male Body', in Laurence Goldstein (ed.), *The Male Body: Features, Destinies, Exposures* (Ann Arbor, 1994); Victor J. Seidler, *Rediscovering Masculinity: Reason, Language and Sexuality* (London/New York, 1989); id., *The Achilles Heel Reader: Men, Sexual Politics, and Socialism* (London, 1991); id., *Recreating Sexual Politics: Men, Feminism, and Politics* (London, 1991).

59 Alex Potts, *Flesh and the Ideal: Winckelmann and the Origins of Art History* (New Haven, 1994); compare, on homosexuality, Ralph Trumbach, *Sex and the Gender Revolution*, vol. 1, *Heterosexuality and the Third Gender in Enlightenment London* (Chicago, 1998).

60 George L. Mosse, *Nationalism and Sexuality: Respectability and Abnormal Sexuality in Modern Europe* (New York, 1985); id., 'Masculinity and the

Decadence', in Roy Porter and Mikuláš Teich, *Sexual Knowledge, Sexual Science: The History of Attitudes to Sexuality* (Cambridge, 1994), pp. 251–66.

61 George Mosse, *The Image of Man: The Creation of Modern Masculinity* (New York, 1996).

62 Thomas W. Laqueur, *Making Sex* (Cambridge, Mass., 1990).

63 For highly critical reviews see Sally Shuttleworth in *Journal of the History of Sexuality*, 3 (1993), pp. 633–5; Alan Bray, *Journal of British Studies*, 32 (1993), pp. 189–94; Dorinda Outram, *Isis*, 84 (1993), pp. 347–52.

64 Equally significant has been the work of Londa Schiebinger and Donna Haraway in demonstrating the inscribing of human sexual difference within the categories of natural science: see Londa Schiebinger, *Nature's Body: Gender in the Making of Modern Science* (Boston, 1993); ead., *The Mind Has No Sex? Women in the Origins of Modern Science* (Cambridge, Mass., 1989); ead., 'The Anatomy of Difference: Race and Sex in 18th-Century Science', *Eighteenth-Century Studies*, 23 (1990), pp. 387–405; Donna Haraway, *Primate Visions: Gender, Race and Nature in the World of Modern Science* (Berkeley, 1989); ead., *Simians, Cyborgs and Women: The Reinvention of Nature* (London, 1991).

65 Peter Burke, *The Fabrication of Louis XIV* (New Haven, 1992); Paul Hammond, 'The King's Two Bodies: Representations of Charles II', in Jeremy Black and Jeremy Gregory (eds), *Culture, Politics and Society in Britain, 1660–1800* (Manchester, 1991), pp. 13–48; Sara E. Melser and Kathryn Norberg, *From the Royal to the Republican Body Incorporating the Political in Seventeenth- and Eighteenth-Century France* (Berkeley, 1997); Philippa Berry, *Of Chastity and Power: Elizabethan Literature and the Unmarried Queen* (London, 1989).

66 M. Foucault, *Discipline and Punish: The Birth of the Prison* (Harmondsworth, 1979); Pieter Spierenburg, *The Spectacle of Suffering: Executions and the Evolution of Repression: From a Preindustrial Metropolis to the European Experience* (Cambridge, 1984).

67 Richard J. Evans, *Rituals of Retribution: Capital Punishment in Germany, 1600–1987* (Oxford, 1996); see also Lionello Puppi, *Torment in Art: Pain, Violence and Martyrdom* (New York, 1991). Crucial also are Dorinda Outram, *The Body and the French Revolution: Sex, Class and Political Culture* (New Haven, 1989); M. Ignatieff, *A Just Measure of Pain: The Penitentiary in the Industrial Revolution, 1750–1850* (New York, 1978); Richard van Dülmen, *Theatre of Horror: Crime and Punishment in Early Modern Germany* (Oxford, 1990).

68 Cornelie Usborne, *The Politics of the Body in Weimar Germany: Women's Reproductive Rights and Duties* (London, 1992).

69 Norbert Elias, *The Civilizing Process*, vol. 1, *The History of Manners* (New York, 1978); vol. 2, *Power and Civility* (New York, 1982); vol. 3, *The Court Society* (New York, 1983); Stephen Mennell, *Norbert Elias: Civilization and the Human Self-Image* (Oxford, 1989).

70 Constance Classen, *Worlds of Sense: Exploring the Senses in History and across Cultures* (London, 1993); A. Corbin, *Le miasme et la jonquille: l'odorat et l'imaginaire social, 18e–19e siècles* (Paris, 1982; English trans., *The Foul and*

the Fragrant: Odour and the French Social Imagination, Cambridge, 1986); id., *Le temps, le désir et l'horreur: essais sur le dix-neuvième siècle* (Paris, 1991; trans. Jean Birrell as *Time, Desire and Horror: Towards a History of the Senses*, Cambridge, 1995); Piero Camporesi, *The Anatomy of the Senses: Natural Symbols in Medieval and Early Modern Italy*, trans. A. Cameron (Cambridge, 1994).

71 M. S. R. Jenner, 'Early Modern English Conceptions of "Cleanliness" and "Dirt" as Reflected in the Environmental Regulation of London, *c.*1530–*c.*1700, D.Phil. thesis, Oxford University, 1991, esp. ch. 2. The book of that thesis is eagerly awaited.

72 Elizabeth Collingham, 'From Nabob to Sahib: The Construction of the British Body in India, *c.*1800–1914', Ph.D. thesis, University of Cambridge, 1997; John Barrell, *The Infection of Thomas De Quincey: A Psychopathology of Imperialism* (New Haven, 1991) – Barrell analyses the significance, for one particular writer, of the conception of the Asiatic foreigner as monster; Nandini Bhattacharya, *Reading the Splendid Body: Gender and Consumerism in Eighteenth-Century British Writing on India* (London, 1998); Harriet Guest, 'Curiously Marked: Tattooing, Masculinity, and Nationality in Eighteenth-Century British Perceptions of the South Pacific', in John Barrell (ed.), *Painting and the Politics of Culture: New Essays on British Art 1700–1850* (Oxford, 1992), 101–34; S. Aravamudan, 'Lady Mary Wortley Montagu in the *Hammam*: Masquerade, Womanliness, and Levantinization', *ELH*, 62 (1995), pp. 69–104.

73 Richard Sennett, *Flesh and Stones: The Body and the City in Western Civilisation* (London, 1994).

74 This subject is an article in itself! For an introduction see Mike Featherstone and Roger Burrows, 'Cultures of Technological Embodiment: An Introduction', *Body and Society*, 1 (1995), 1–20; Scott Lash, 'Genealogy and the Body: Foucault/Deleuze/Nietzsche', in Mike Featherstone, Mike Hepworth and Bryan S. Turner (eds), *The Body: Social Process and Cultural Theory* (London, 1991), 256–80. For the body in the postmodern electronic, virtual-reality world, see Juniper Wiley, 'No BODY is "Doing It": Cybersexuality as a Postmodern Narrative', *Body and Society*, 1 (1995), pp. 145–62.

(١١)

التاريــخ البيئـى

ريتشارد هـ. جروف

التاريخ البيئى حسب استخدامنا للمصطلح اليوم هو الجزء الموثق تاريخياً من قصة الحياة والموت، ليس بالنسبة للأفراد من البشر، وإنما بالنسبة للمجتمعات والأنواع، سواء ما يخصنا أو ما يخص الأنواع الأخرى فى ضوء علاقاتهم مع العالم من حولهم. ويمكن أن نرصد أصوله الفكرية باعتباره مجالاً للوعى الذاتى بالبحث فى تلك المواجهة التى جرت بين الأوربيين الغربيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، خاصة علماء الطبيعة والمشتغلين بالطب ، مع البيئات المدارية غير المألوفة لهم بشكل مذهل ومع الدمارالذى حاق بهذه البيئات على أيدى الأوربيين الغربيين (١). ومنذ منتصف القرن التاسع عشر تطور (التاريخ البيئى) أولاً على شكل «الجغرافيا التاريخية» ليصل إلى ذروته فى Man's Role in Changing the Face of the Earth وهو المجلد الذى أشرف على تحريره توماس W.L. Thomas، ونشر سنة ١٩٥٦م(٢).

وحتى أوائل سبعينيات القرن العشرين، كان «التاريخ البيئى» بالفعل مصطلحاً يستخدمه الجيولوچيون وعلماء الآثار تقليدياً عند مناقشة التغيرات الفصلية وتغيرات البيئة فيما قبل التاريخ على البيئة الطبيعية، ونادرا ما كان يتناول التفاعلات البشرية التاريخية مع البيئة (٣). ومنذ ذلك الحين كان يتم استخدام المصطلح بصورة مطردة من جانب المؤرخين وغيرهم بطريقة جديدة ، وبينما رأى المؤرخون (ولكن أيضا بعض المشتغلين بالعلوم الأخرى) أن هناك حاجة لأن يحسبوا حساب العوامل البيئية فى التفسير التاريخى، وهو شئ لم يكن المؤرخون قد فعلوه أبداً من قبل. وفى نوع من الغطرسة انتحلوا لأنفسهم مصطلحاً يستخدمه علمان آخران على الأقل، قرر المؤرخون أن يقلبوا الاعتداد بالنفس لدى مجموعة خاصة جدا من الباحثين ، وهم الباحثون فى الجغرافيا التاريخية . فقد كان هؤلاء فى الحقيقة قد شغلوا لمدة طويلة مكانة أكاديمية وتحليلية شعر معظم المؤرخين أنها أقل من أن يأخذوها بجدية. والحقيقة

أنه لم يحدث سوى فى السنوات الأخيرة أن بدأ مؤرخو البيئة (فى ثوبهم الجديد، ولم يكونوا جميعًا من المؤرخين السابقين) يقدرون قيمة المدى الكامل للعمل الذى قام به الجغرافيون التاريخيون وزملاؤهم الذين يفكرون مثلهم فى العلوم الأخرى . وفى الواقع أن المؤرخين صاروا حديثا مجبرين على الاستعارة من الجغرافيين التاريخيين بكثرة ، على النحو الذى فعلوه من قبل عندما استعاروا من علماء الاقتصاد . ولذلك فإن جزءًا من مهمة هذه المقالة أن توضح السلالة التى ينتسب إليها التاريخ البيئى وأن تبين تطور بعض جداول العمل المختلفة، سواء على المستوى الإقليمى أو على المستوى العالمى .

ولاشك فى أهمية ما نسميه الآن التاريخ البيئى . إذ إن مدرسة التاريخ البيئى الجديدة (مثل الجغرافيا التاريخية التى كانت فردا متجددا من سلالته) قد أعطيت تعزيزًا وجوديًا رئيسيًا ومعنى راسخًا فى سياق الشعور المتنامى بالأزمة البيئية العالمية المعاصرة. ولكن من المهم التأكيد على أن الحساسية تجاه موضوعات التاريخ البيئى ليست ابتكارًا ينتمى إلى القرن العشرين . فقد كانت فى الحقيقة من الخصائص البارزة المميزة لأولئك الأفراد غير العاديين الذين تميزوا ببعد النظر الذين جرؤوا ذات مرة على التحذير من كارثة بيئية وشيكة والذين حاولوا التوعية العامة بالتدهور البيئى وحاولوا أن يحشدوا جهود الدول والامبراطوريات للتصدى لها. وهكذا فمنذ أواخر القرن الثامن عشر فصاعداً نجد أن الرواد الأوائل للدفاع عن البيئة لديهم جميعا إحساس عميق بالمنظور التاريخى للتغير التاريخى وغالبًا ما كان لهم تقدير واسع وعلمى للغاية للأدلة التاريخية على التغير البيئى التاريخى على مرّ الزمن [٤]. ومن بينهم قد نذكر فرانكلين بنيامين هوف Franklin Benjamin Hough ، الرائد الذى لايحظى باعتراف كبير فى مجال المحميات والحفاظ على الغابات فى أمريكا؛ وچون ستيوارت ميل ، بدوره الذى لعبه بوصفه من نشطاء البيئة البريطانيين ؛ وهيو كليجبورن، الذى كان رائدا فى حماية الغابات فى الهند ؛ وچورچ بيركنز مارش فى الولايات المتحدة (والذى كان مؤرخًا للتغير البيئى) ؛ وچون كرومبرى براون فى جنوب أفريقيا؛ وألكسندر ڤون هومبولد (خاصة فى كتابه Cosmos) ، ولايقل عنهم أهمية بارون ڤون موللر فى مستعمرة ڤيكتوريا فى استراليا.

كان هؤلاء جميعا ، بطرقهم المتمايزة، مؤرخين بيئيين، قادتهم ملاحظاتهم الميدانية وإحساسهم التاريخى الحاد إلى أن يصبحوا بمثابة أنبياء بيئيين، وفى بعض الأحيان يتنبأون

بالدمار. وكان واحد منهم على الأقل هو فرانكلين بنيامين هوف ، بالإضافة إلى كونه طبيبًا، ومن علماء السكان ، وموسوعى المعرفة، مؤرخًا بيئيًا محترفًا وكتب ما يزيد على ثلاثين دراسة تاريخية عن تاريخ أمريكا فى الفترة الاستعمارية والحرب الأهلية الأمريكية . واليوم يتيح هذا الإحساس بالمنظور التاريخى للمؤرخين البيئيين أن يجدوا أنفسهم فى وضع يجارى وضع المؤرخين الاقتصاديين فى مواجهة علماء الاقتصاد . فقد صاروا نقادًا يفيدون من رؤية أطول مدى، وغالبا، من امتلاك أفضل لحقائق بارزة وقدرة أكبر على القيام بتنبؤات حساسة أو على التحذير من مخاطر القيام بنبؤات تبسيطية .

وبسبب الحداثة النسبية لفرع التاريخ البيئى فليس لدينا بعد ما نجنيه من أى رواية كاملة أو يعتد بها عن كشف الموضوع . فحتى الآن مالت الروايات التاريخية تجاه التمسك بتفسير ضيق للغاية لسوابق الموضوع ومداه . وربما يرجع هذا جزئيا إلى حقيقة أن التاريخ البيئيى كان مدفوعًا بطريقة مؤقته بسبب ظروف الأزمة البيئية . وعلى أية حال ، فإن التاريخ البيئى فى أحدث مظاهره كان محكومًا على مدى بضع سنين بالباحثين الأمريكيين الذين كانت رؤيتهم العالمية مكبوحة وقصيرة نسبيا ، مثلما قد يتوقع المرء تمامًا من أمة تمثل عزلتها على مدى السنين طبيعة ثانية لها ، على الرغم من أن علماء البيئة فيها ، كانوا، وبشكل متناقض هم الرواد البارزين والدعاة إلى الحاجة للاستجابة للأزمة البيئية العالمية والإقليمية على حد سواء .

كذلك كان النقص فى التأليف أو الكتابة التاريخية عن التاريخ البيئيى راجعًا إلى عدم ترحيب المؤرخين بقبول أن المادة الأساسية والاهتمامات لما أحبوا أن يفكروا فيه باعتباره علمًا جديدًا كانت قد تطورت بالفعل بين باحثين آخرين قبل وقت طويل من تأسيس مجلة Environmental Review (وصارت تعرف فيما بعد باسم Environmental History على يد چون أوپى John Opie فى سنة ١٩٧٨م. لأن حقيقة الموضوع هى أن سوابق كل من الجغرافيا التاريخية والتاريخ البيئى كانت تصفهما بأنهما إمبرياليان وهامشيان فى اهتماماتهما ومداهما، بدرجة أكبر كثيرا من أى مجال آخر فى الدراسات التاريخية ، وأيضا كانا أكثر اهتمامًا بالمناطق المدارية بحكم المصادفة . والتعريف الجديد لـ «التاريخ البيئى» اعتبر أوليًا بمثابة عرض شراء من جانب الباحثين فى أمريكا الشمالية لما كان قد صار بالفعل موضوعًا راسخًا تمامًا ، على الرغم من أنه موضوع كان يفتقر إلى الحدود الثابتة والذى وجد مؤيديه بين علماء الإيكولوچى ، والجغرافيين والأنثروبولوچيين ، وكذلك بين القليل من المؤرخين

الاستثنائيين . والمزاعم التى أعلنت فيما بعد سنة ١٩٧٠م من أجل شريحة من الفعل البيئيى من جانب بعض الباحثين الأمريكيين ظهرت بعد عشرات السنين التى كان المؤرخون قد أظهروا فيها فعلاً إشارة ونزعة مربكة محيرة لأن يتجاهلوا أى شئ فى طريق التأثيرات البيئية على التاريخ.

وحالة الإنكار المستمرة فى التاريخ البيئى حتى اليوم بالنظر إلى الدين الذى يدين به للجغرافيا التاريخية تفاقمت سنة ١٩٦٧م بنشر كتاب كلارينس جلاكن Clarene Glacken بعنوان :

Traces on the Rhodian Shore : Nature and Culture in Western Thought, from Ancient Times to the Eud of Eighteenth Century (٥).

إذ إن هذا الكتاب لا يبرز فقط باعتباره أشمل كتاب كتب حتي الآن فى التاريخ البيئى ولكن يمكن اعتباره أيضا واحداً من النصوص العظمى غير الخيالية فى القرن العشرين . وعلى الرغم من أن ظهور كتاب جلاكن الفذ يمكن أن يكون علامة فعلية على ميلاد التاريخ البيئى الحديث كما نعرفه اليوم، فإن هذا الرأى لم يحظ باعتراف المؤرخين سوى منذ وقت قريب. وهكذا، فإن الفضل يرجع بدرجة كبيرة إلى سيمون شاما Simon Schama ، فى كتابه Landscape and Memory الذى أخذه عن كتاب جلاكن ، يعترف بوضوح بدينه لجلاكن . بيد أن شاما لم يكن وحده فى هذا. ذلك أن لويس أورتيجا Luis Urteaga وهو شخصية بارزة فى مجال التاريخ البيئى الإسبانى، ومؤلف الكتاب الممتاز : La tierra es-quilmada (وهو أول معالجة كبيرة لتاريخ الحفاظ على البيئة فى أيبيريا القرن الثامن عشر) قد اعترف أيضا لجلاكن بأنه ملهمه الرئيسى (٦). ولم يكن من قبيل المصادفة أن جلاكن كان أستاذاً للجغرافيا فى بيركلى سنة ١٩٦٧م أو أن كتابه نشر بواسطة مطبعة الجامعة فى ولاية تولت تربية «أصدقاء الأرض» و«نادى سييرا» والهيبيز وأسهمت مساهمة حاسمة فى التحريض على معارضة حرب ڤيتنام . ولكن علينا أن نلاحظ أن جلاكن نفسه كان حريصًا للغاية على تعريف كتاباته التاريخية السابقة فى تقليد أكثر رصانة وكلاسيكية إلى حد ما . والواقع أنه يمكننا أن نلاحظ أن الكلاسيكيات قدمت إسهامًا كبيرًا فى نشأة التاريخ البيئى وتربية المؤرخين العاملين فى مجاله ، وهناك إثنان من أبرز الأمثلة على ذلك فى الفترة القريبة هما روسيل ميجز Russell Meiggs ودونالد هيوز Donald Hughes .

كانت نواحي التقدم فى الجغرافيا التاريخية النامية من النوع الذى لخصه جلاكن فى حد ذاته قد تعرضت لعراقيل قاسية فى أثناء ستينيات القرن العشرين بسبب ظهور الأساليب الكمية فى الجغرافيا، وهى حليف أعمى بدرجة كبيرة لم يلبث أن خبا فى نشاطه وقوة إقناعه بسبب ظهور ما بعد الحداثة . والجغرافيا التاريخية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تعثرت بسبب مركزيتها الأوربية على ما أظن ، بشكل يقترب مما حدث للتاريخ البيئى فى سبعينيات القرن العشرين بسبب مركزيته الأمريكية. وكلا العلمين يناضلان للخروج من هذه الإنحيازات لدرجة أننا لدينا الآن مدارس قوية للتاريخ البيئى، أمريكية، وبريطانية، وفرنسية ، واسترالية وهندية ، وأفريقية ، وصينية ومن المحيط الهادى ، وغير ذلك . وقد أجادل بأن النسبة السلالية لهذه المدارس كانت قائمة بشكل راسخ على أساس ظرفين مرتبطين بأحدهما الآخر : سياق الامبراطورية وسياق التغير البيئى السريع فى أثناء القرن الأخير فى الأقاليم الهامشية والمدارية وشبه الجافة (٧).

وكان التاريخ البيئى غير حضرى إلى حد كبير وغير سياسى بشكل مدهش بالمعنى الذى وضعه توينبى للنظرية الكبرى. ومن قبيل المصادفة أن من يدرس فهارس كتاب توينبى العملاق A study of History بحثًا عن موضوعات مثل التربة، وسقوط الأمطار، والماشية والأسماك والأمراض أو الفناء سوف يخيب أمله . وقد تفحص ألدوس هوكسلى Aldous Huxley فهرس المجلد السادس من كتاب توينبى الفذ ووجد خمسة نقول عن Popilius Laenas وإثنين عن Porphyry of Batanea «ولكن الكلمة التى تتوقع أن تجدها بين هذه الأسماء، أى السكان، غائبة بشكل واضح» (٨). ومع هذا لابد من القول إنصافًا لتوينبى أن كتابه الأخير Mankind and Mother Earth كان يبحث بالتأكيد فى اتجاه إيكولوچى واضح (٩).

وكما اقترحت بشكل مطول فى دراسة أخرى، كانت ظروف التغير البيئى فى مناطق الهوامش فى الفترة الاستعمارية، ولاسيما بعد أربعينيات القرن التاسع عشر ، هى التى فرضت فيها النزعة لدراسة البيئة نفسها لأول مرة والتى قام فيها مؤيدوها للمرة الأولى بالاستفادة من الأدلة التاريخية على التغيير البيئى وصاروا مؤرخين بيئيين بالفعل (١٠). والنصوص التى ترجع إلى العصر الفيكتورى مثل كتاب سترزيلكى Strzelki الذى يحمل عنوان Physical Description of the New South Wales وكتاب كليغورن Cleghorn بعنوان Forests and Gardens in South Indi وكتاب رينتروب Ribbentrop المعنون

وكتاب براون المسمى Forestry in the British Empire Hydrology of South Africa والكتاب الذى ألفه مارسن Man and Nature: The Earth as Transformed by Human Action لم تكن حيوية فحسب من أجل انطلاق نزعة دراسة البيئة ؛ وإنما كانت أيضا أعمالاً موثقة بشكل جيد فى مجال التاريخ البيئى. واهتمامنا بهم يعلو على ما عداه . فقد كان هذا اهتماما متزايداً بالتأثير البشرى المحتمل على المناخ، ولاسيما الخوف من أن النشاط البشرى، فى إزالة الغابات بشكل خاص ، ربما يؤدى إلى الجفاف على نطاق الكرة الأرضية . وقد زاد هذا الخوف أكثر فأكثر بقوة فى أعقاب التوسع الإمبريالى وغذته المخاوف البيئية فيما بعد الفترة الاستعمارية التى أوضحتها المنظمات الدولية. كما أنها أثرت بشكل حرج على الاتجاه الباكر للتاريخ البيئى . وربما يدين الانشغال بالمناخ بقوته كفكرة إلى مفاهيم الزمن القديم التى تربط بين المناخ والحضارة، والجنس البشرى والمناخ . وبعد ستينيات القرن التاسع عشر بصفة خاصة، شجع هذا الربط وحفز فكرة أن التاريخ البشرى والتغير البيئى ربما يكونا مرتبطين بوشائج قوية . ولكن حتى الحرب العالمية الثانية لعب المؤرخون أنفسهم دوراً صغيراً أو لم يلعبوا أى دور فى هذه العملية التطورية . فكيف إذن تطور التاريخ البيئى (أو تلك الأجزاء من الجغرافيا التاريخية والدراسات الأخرى التى تجمعت فى الشئ نفسه) وطور جدول أعماله وأنتج ما قد نرى فيه الآن علامة كبرى من علامات التدوين التاريخى ؟

سيكون من الواضح أننى لا أشارك فى وجهة النظر التى طرحها حديثًا ألفريد كروسبى Alfred Grosby والقائلة بأن التاريخ البيئى ، وعدد كبير من قرائه ، لم يكن ممكنا أن يصير موجودا سوى نتيجة لنشر كتاب Silent Spring الذى كتبته راشيل كارسون في سنة ١٩٦٢م(١١). وربما كانت تلك هى الحال بالنسبة للتاريخ البيئى الذى تطور فى وقت متأخر نسبيا فى أمريكا الشمالية ، بيد أنه لم يكن الحال فى أى مكان آخر، سواء فى العالم الناطق بالفرنسية أو فى العالم الناطق بالإنجليزية القديم والذى يمثل أرض الاتجاهات المدرسية. وحتى فى الحالة الأمريكية ، فإننى أعتقد أن أعمال صمويل هايس ، وكارل ساور ، وكليرنس جلاكن تقف بشدة ضد تفسير كروسبى. والمشكلة حقًا هى مشكلة المصطلحات الخاصة بالعلم، لأن المؤرخين الأمريكيين يحبسون التاريخ البيئى فى حدود بدايتهم البطيئة فى الاشتغال به.

ويستحق الجغرافيون التاريخيون (فوق كل شئ) الاعتراف بأنهم قد اشتغلوا بنوع من التاريخ العالمى كان فيه التوثيق التاريخى والمعرفة الإيكولوچية والدراية الجغرافية ممتزجة

لتخلق تاريخا صار ممكنًا بواسطة الاتصالات والاهتمامات وظروف الحكم الإمبريالى وما يتسم به من عدم الأمن . مثل هذه الشروط المسبقة لم تكن ، طبعا. ترتبط على هذا النحو بتراث أمريكى متأثر بشدة بحالة العزلة ، أو بتراث تاريخى أنجلو- فرنسى بقى زمنًا طويلاً محبوسًا وراء سور أوكسبريدج أو السوربون . وعلى النقيض من هذا، كان الجغرافيون الفرنسيون والبريطانيون على السواء غالبًا ما يوجدون بعيدا وموزعين فى جميع أنحاء العالم، لاسيما فى المناطق المدارية ، حيث كانوا فى أحيان كثيرة يتقاضون رواتبهم من الامبراطورية الاستعمارية أو كانوا يرتبطون بها عن قرب، مثلما هو الحال اليوم فى سياق «التنمية» .

تعقيدات الجفاف والتطور الباكر للتاريخ البيئى

شهدت السنوات السابقة مباشرة على سنة ١٩٠٠م اهتمامًا متجددًا يتطور داخل ما كانت فى جوهرها نظريات ألفية عن جفاف كوكب الأرض. وثمة مثال باكر لهذه المجموعة من الباحثين هو الأمريكى إيلزورث هنتنجتون Ellsworth Huntington الذى كان من خبراء البيئة وكانت آراؤه قد تشكلت بفضل رحلاته وأسفاره (ونشاطه فى أعمال المخابرات) فى وسط آسيا . وكتابه الرئيسى الذى نشر سنة ١٩٠٧م The Pulse of Asia وضع جدول الأعمال لتحديد كل من الجفاف والبيئة . وكان كل من هنتجتون وكروبوتكين Kropotkin (فى مقالة تعتبر علامة فاصلة نشرت فى Georgraphical Journal سنة ١٩٠٤م) متأثرين بشكل حاسم بظهور القلق المعاصر بشأن البيئة فى المناطق المدارية والاهتمام المتزايد بالتفسيرات المناخية للتاريخ.

وفى الوقت نفسه بدأت فى المركز الموجود بالعاصمة مجموعة صغيرة من الجغرافيين ، الذين تأثروا على نحو متزايد بعلاقاتهم المهنية مع مجموعة منتشرة فى جميع أنحاء العالم من العلماء الاستعماريين والجغرافيين ، تفكر فى ضوء العلاقات العالمية بين التغير المناخى والسلطة السياسية والتغير الاجتماعى، على الرغم من أن ذلك تم فى مصطلحات إمبريالية صارخة . وقد تم ترسيخ المشهد بكتاب السير هالفورد ماكيندر Sir Halford Mackinder الذى يحمل عنوان : Britain and the British Seas (1902) ، وهو تفسير تاريخى شديد الانتقائية عن الطبيعة ، والجغرافيا والاقتصاد السياسى للقوة العظمى. وقد ظهر بعد سنة فقط من نص إبداعى للغاية عنوانه : The Relation of Geography and History ظهر سنة ١٩٠١م وكتبه جورج H.B. George (وهو كتاب وصل إلى طبعته الخامسة سنة ١٩٢٤م). ويبدو من الممكن تمامًا أن يكون النفور من التدمير البشرى فى الحرب العالمية

الأولى قد انعكس فى الإدراك الشديد لإمكانيات التدمير البشرى للبيئة على مستوى العالم. وسوف يساعد هذا على تفسير هوجة المنشورات والبعثات الاستعمارية على الروابط فيما بين القحط والنشاط البشرى الذى ظهر فى أوائل العشرينيات .

وقد تم استكشاف تأثير «الجدب» الذى حاق بالفكر الأمريكى الشمالى فى ثلاثينيات القرن العشرين على فكر الحفاظ على البيئة فى أفريقيا زمن الاستعمار بصورة مكثفة على أيدى باحثين من أمثال وليم بينارت William Beinart وديفيد أندرسون David Anderson (١٢). وعلى أية حال ، ربما كانت هناك مبالغة بشأن هذا التأثير، لأنه كان ذا أثر قليل على سياسة الموارد الاستعمارية ، بل كان أقل تأثيرا على السياسة الاستعمارية الفرنسية والبريطانية .

وبينما استولت أجندة التفكير البيئى الاستعمارى (وخاصة مسألة الجفاف) إلى حد ما على الجدل الأكاديمى فى ثلاثينيات القرن العشرين ، فإن التطورات التى جرت فى الجغرافيا التاريخية مضت بقوة ونشاط، وكان بعضها يتصل بالسياق الاستعمارى ولكنها لم تكن كلها كذلك. وكان أقوى تأثير على الجغرافيا التاريخية عند الناطقين بالإنجليزية يأتى من جانب الفرنسيين. وكانت أكثر الكتب تأثيرا فى هذا الخصوص تلك التى كتبها برونهيس J. Brunhis بعنوان Human Geography (سنة ١٩٢٠م) ، فيبفر L. Febvre بعنوان A Geo- graphical Introduction to History (سنة ١٩٢٤م) وفيدال دى لا بلاش P. Vidal de la Blache بعنوان Priniciples of Human Georgraphy (سنة ١٩٢٦م) . وعلى أية حال ، فإنه بحلول السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن العشرين ، كان هناك نفوذ استعمارى جديد للغاية قد بات محسوسا ، من خلال كتاب الاسترالى فير جوردون تشايلدى Vere Gordon Childe . ذلك أن كتابه الذى يحمل عنوان The Dawn of European Civilization سرعان ما تبعه كتاب More Light on the Most Ancient East (سنة ١٩٣٣م) وكتاب : Man Makes Himself (سنة ١٩٣٦م) . ولكن هؤلاء العلماء الفرنسيين والاستراليين كانوا مؤثرين بدرجة كبيرة فى ظهور الأعمال التى كتبها هنرى كليفورد داربى Henry Clifford Darby ، وهو الشخص الذى كان له أن يبرز على أنه صاحب التأثير الرئيسى على الجغرافيا التاريخية إلى جانب كارل ساور Carl Sauer وكليرنس جلاكن (١٣).

ومع منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، من ثم، يمكننا أن نلاحظ تجمعًا إبداعيًا من التاريخ البيئى الوصفى والتحليلى كتبه جغرافيون وأنثروبولوجيون ، وكما سنرى، تشكلت مدرسة جديدة من علماء البيئة . وبما أن جدول أعمال السياق الاستعمارى والتقييم

الاستعماري لموارد الأرض كان حاسمًا جدا في تعريف الشكل الذي سيكون عليه التاريخ البيئي والجغرافيا في ثلاثينيات القرن العشرين ، فإن للمرء أن يتساءل : لماذا بدا جغرافي تاريخي مثل داربي وكأنه يحصر اهتماماته (وهذا خارج نطاق فترة خدمته زمن الحرب في الاستخبارات البحرية!) في اهتمام محلي جداً ويركز على سجلات الأراضي وتواريخ المناظر الطبيعية في العصور الوسطى. ولكن داربي أيضا توافق بشكل وثيق تمامًا مع اهتمامات بيكون ونماذج دراسة المناظر الطبيعية والإثنوجرافية . ودراسته المنهجية لاستغلال الأرض في فترة ظهور سجلات الأراضي التي أعدها وليم الفاتح كانت موازية لتطورات المقاربة والمنهج التي كانت تجري بين الباحثين الذين يعملون فعلاً في المستعمرات البريطانية، والذين يمكن أن نصنف بعضهم اليوم على أنهم مؤرخون بيئيون، وكانوا مدربين في كل من علوم البيئة والجغرافيا .

وربما كان الأكثر إثارة للاهتمام بين هؤلاء هو دودلي ستامب . وقد أنجز كتابه الأول في بورما، بوصفه عالم، إيكولوچي في خدمة الإدارة الاستعمارية . وبالخدمة في بورما سار ستامب على خطى المؤرخ المناخي ماكينزي J.C. Mackenzie الذي كان قد نشر ورقة رائدة غير عادية في سنة ١٩١٣ عنوانها :
"Climate in Burmese History"(١٤) . وفي ظروف الرطوبة في بورما كانت جاذبية تفسير التاريخ في ضوء الجفاف أقل إثارة للانتباه بطبيعة الحال. وبدلاً من ذلك كان ستامب متأثرا إلى درجة بعيدة بالتراث الإيكولوچي الذي خلفه آرثر تانسلي Arthur Tansley ، وبالفعل تم نشر أول ورقة بحثية له في المجلة التي كان تانسلي قد أسسها حديثا Journal of Ecology في سنة ١٩٢٣م (١٥). وفيما بين سنة ١٩٢٣م وسنة ١٩٤٤م استمر ستامب في نشر سلسلة من الأوراق البحثية التي تتناول العلاقات بين قبائل التلال في بورما، واستغلال الأرض ، والغابات والكتابة والمناخ المتغير، من تنويعة كاملة من الزوايا (١٦). وعلى أية حال، فإن تأكيده الرئيسي ثابر على رسم خريطة العلاقات المتبدلة بين الناس واستغلال الأرض على مرّ الزمن. ولكن بالنسبة لهذه الدراسة الشاملة التي قد تكون غير مسبوقة أدخل ستامب بعداً جديداً تمامًا لم يكن ممكنًا قبل سنة ١٩٢٠م: واستخدام التصوير الجوي في المسح الجوي لاستغلال الأرض ، وهو أسلوب كتب عنه تقريرا في Journal of Ecology (١٧). وهو أسلوب كان قد تطور في مجرى الحرب العالمية الجوية واستراتيجية الاشتباك الجوي والقصف بالقنابل ، ولكن ستامب وجد استخدامًا سلميًا له في مساعدته في دراساته عن التاريخ البيئي وجغرافية بورما. وبيان مقاربة ستامب في بحثه كان شاغلاً من مشاغل تانسلي بالتغيرات الثورية في

تتابع وتعاقب أنماط الخضرة فى الفضاء الطبيعى على مر الزمان. هذه المقاربة يبدو أنها صارت أكثر اتساعا فى موقف ستامب بأسره تجاه تاريخ المناطق الطبيعية والمجتمعات . وعلاوة على ذلك فإن حركته التدريجية تجاه الاعتراف بفائدة المسح المنهجى باتساع الريف كان موازيا بدرجة كبيرة لتفكير داربى فى انجلترا .

تأثير الحرب العالمية الثانية

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية تم إحراز توليفة من المقاربات لتاريخ البيئة والتفاعل الاجتماعى معها، تضم علماء الأنثروبولوجيا ، وعلماء البيئة، إلى جانب الجغرافيين . وأفضل مثال على هذا الإصرار الجديد يتمثل فى كتاب جوردون إيست Gordon East بعنوان The Georgraphy behind History ، الذى طبع للمرة الأولى سنة ١٩٣٨م وأعيد نشره ست مرات، كانت آخرها فى عزِّ الحرب سنة ١٩٤٢م. وكان إيست مدرسًا لداربى H.C. Darby يحاضر فى London School of Economics وقدم إشارات تحذيرية بيئية إلى الحافز الذى أثاره للقيام بدراسته . وقد كتب «وحتى اليوم» :

إن الطبيعة القاسية تجعلنا ندرك ، ولو عن طريق تدخلاتها الأكثر درامية فقط ، وبصورة مؤلمة، الشروط الصعبة ، التى تشغل بها المجموعات البشرية الأرض وتستفيد منها . والمباهاة العامة بأن الإنسان صار سيد عالمه تخلو من معناها عندما نتذكر الفيضانات والمجاعات المتواترة التى تضرب الفلاحين فى شمال الصين ، والفيضانات المدمرة فى نهر الميسيسيبى سنة ١٩٧٢م، والدمار الحديث الذى حاق بسبب الجليد بجسر مشاهدة الشلالات على نهر نياجرا، والتأكيد على أن «الصحراء تتحرك» فى وسط أفريقيا والانتشار الواسع لعمليات تآكل التربة فى أجزاء من أفريقيا والغرب الأوسط فى الولايات المتحدة، وأخيرًا، التهديد المستمر بالجفاف والجدب الذى يحوم فوق أراضى الغلال العظيمة فى العالم– وهى تتشابه فى الولايات المتحدة ، وكندا وجنوب روسيا . هذه الأحداث ومثيلاتها ، أو نُذُر الشر ، تؤكد الحقيقة القائلة أنه حتى بالنسبة للشعوب التى وصلت إلى مستويات عالية من الثقافة المادية، تجعل البيئة الطبيعية صندوق بندورا الحقيقى *، جاهزًا دوما لأن ينفجر مفتوحًا ليبعثر كل محتوياته المؤذية (١٨).

---

* هذه إشارة إلى أسطورة إغريقية قديمة تقول إن زيوس كبير الآلهة الإغريقية أرسل بندورا Pandora عقابًا للجنس البشرى بعد أن سرق بروميثيوس النار، وأعطاها صندوقا (Pandora's box) وما كادت=

وفى الوقت الذى ظهر كتاب إيست كانت الحرب العالمية الجديدة قد نشبت وكان الإنسان على وشك أن يفعل ما هو أكثر من مجرد تبديل المشهد أو التصرف باعتباره فاعلاً جغرافيا فحسب . ففى غضون سبع سنوات ، تم تفجير قنبلة ذرية فى الماجوردو Almagordo فى الأراضى الصحراوية فى نيومكسيكو ، وسرعان ما تلى ذلك استخدام القنبلة الذرية ضد الشعب اليابانى . ومن المؤكد أن رواية إيست فى كتاب «الجغرافيا وراء التاريخ» قد عكست القلق العظيم الذى تسببت مثل هذه الأحداث فى إثارته ؛ وبالفعل فإن إيست وهو يتذرع بسلطة مؤرخ متخصص فى الحضارة القديمة، يبدو وكأنه قد خبر أعمق المخاوف والتوجسات من قدرة الإنسان ليس على تدمير الطبيعة فحسب، وإنما من قدرته على تدمير نفسه وتدمير المجتمع كذلك. وكما رأينا بالفعل ، فإن التحليلات التاريخية والمعاصرة للتفاعل فيما بين الإنسان والطبيعة كانت قد تأثرت مباشرة بالكارثة وبما جرى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكانت ردود الفعل مثل هذه معلنة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها . وفى كتابه ، ومثلما كان مارش قد فعل سنة ١٨٦٤م للدعوة إلى الحفاظ على البيئة، استخدم إيست الدروس المخيفة للحضارات القديمة التى وصلت إلى نهاياتها قبل أوانها لكى يرهب سامعيه الأكاديميين ويداهنهم وهو يحاول إبداع نوع جديد من الدراسة التاريخية . وكانت عملية إنهاء الاستعمار قد بدأت فعلاً عندما جمع أحد الأمريكيين فى سنة ١٩٥٦م ، وهو وليام توماس كتابه الرائع Man's Role in Changing the Face of the Earth وهو النص الذى سجل الاجتماع فى ذكرى چورچ بيركنز مارش. وقد كان الكتاب الذى كتبه توماس علامة على بداية فترة استمرت حتى السنوات الحديثة، كان فيها الأكاديميون الأمريكيون يمعنون فى دراسات مكثفة عن البيئة والتاريخ، وفيها تنافس الجغرافيون والمؤرخون على حلبة التاريخ البيئى. وعلى أية حال، تم تمرير عصا الإمبراطورية، كما أن الفرص التى سنحت زمن الحرب للتوسع، ونفوذ ما بعد الحرب . حفزت، على مدى سنوات قليلة، نظرة خارجية على العالم الخارجى فى الولايات المتحدة. وكان مثالاً على هذه النقطة كلارينس جلاكن ، وهو أحد المساهمين الرئيسيين فى كتاب توماس .

= تفتحه بدافع من الفضول، حتى اندفعت منه جميع الشرور والرذائل التى سادت بين البشر؛ ولم يبق فى الصندوق غير الأمل. (المترجم)

كان جلاكن قد أقام أثناء خدمته العسكرية فى أوكيناوا . وقد أمدته هذه الخبرة بالمادة اللازمة لرسالة الدكتوراه التى كان يعدها (ولأول كتبه) وبالإلهام الذى أوحى له بأهم أعماله Traces on the Rhodian Shore [١٩]. وربما كانت تجربة الانعزال فوق جزيرة فى المحيط الهادى وفى ثقافة غير مألوفة قد شجعت فيه (كما حدث لعلماء البيئة الأوائل) خطابا عالميًا أكثر موضوعية وحالًا وأكثر استقلالاً مما كانت عليه الحال عادة لدى الأمريكيين الشماليين. بيد أن جلاكن كان دارسًا أيضا للكلاسيكيات ، مثل غيره من المؤرخين البيئيين من أمثال دونالد هيوز ، ورسل ميجز ، وأوليفر راكهام [٢٠].

وتبرز سنة ١٩٥٥م باعتبارها السنة الفارقة فى ظهور التاريخ البيئى فيما بعد الفترة الاستعمارية مع عقد اجتماع شيكاغو الذى رتبه توماس وظهور أول عمل كبير لجلاكن . وعلى أية حال ظهر فى بريطانيا فى تلك السنة كتاب حاسم جديد، وهو كتاب هوسكنز W.G. Ho-skins بعنوان The Making of the English Landscape وكان هذا كتابا قُيض له أن يكون ذا أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ البيئى فى استراليا ، مما قدم الإلهام والمنهج لميكائيل وليامز فى كتابه الذى صدر سنه ١٩٧٤م بعنوان The Making of the South Australian Landscape . وقد صنع هوسكنز شهرته فى مدرسة المؤرخين المحليين الإنجليزى التى أسسها هربرت فينبرج Herbert P. Finberg فى قسم التاريخ المحلى الإنجليزية بجامعة ليسستر أوائل خمسينيات القرن العشرين . وقد اعترفت هذه المدرسة بصراحة تامة بديونها لهنرى كليفورد داربى ودراساته عن كتاب سجل الأراضى (الذى تم فى عهد وليم الفاتح ملك انجلترا فى القرن الحادى عشر) ، وركزت على نوعية جديدة من استخدام المصادر التاريخية تمثلت فى الإمساك بالتفاصيل الدقيقة للتاريخ المحلى والثقافة المادية المحلية. ولكن مدرسة ليسستر كانت لها جذور أخرى، أساسًا فى فلسفة فرناند بروديل (الذى كان أول عمل كبير له قد نشر فى سنة ١٩٤٩م)، وفى مدرسة الحوليات الفرنسية ، التى خرجت إلى العلن فى فترة أوائل الخمسينيات من القرن العشرين ، لتؤكد على أهمية الدراسات المحلية، وقللت من أهمية النظرية الكبرى . وكان بروديل ، الذى تناول كتابه الرئيسى البحر المتوسط وظهر فى سنة ١٩٤٩م، متأثرًا بوعى بيئى جديد ظهر بعد الحرب العالمية الثانية. وقد أذهل معاصريه بمقاربته الجديدة لتاريخ الثقافة المادية والتى كرّست الكثير من الاهتمام للبيئة المادية، الأرض والبحر ، والجبال والغابات . وكان إنجازه كتلة واحدة، وفيما يتعلق ببيئة البحر المتوسط، لم يجاريه

سوى كتابين بعد خمسين سنة من صدوره فى التاريخ البيئى لحوض البحر المتوسط وقد نُشرا سنة ٢٠٠٠م . ولكن الصورة التى رسمها بروديل كانت ثابتة ، وفشل فى أن يسجل التأثير الهائل للبشر فى تدمير المساحات الطبيعية وتحويلها .

وكان نشر كتاب The Making of the English Landscape سنة ١٩٥٥م بالتالى ذا أهمية عظيمة لأنه كان علامة على أول غزوة كبيرة يقوم بها مؤرخ متمرس فيما كان من قبل محمية الجغرافيين ، وعلماء البيئة والانثروبولوچى، وجميعهم يعملون فى مناطق الحدود (أو ربما عند الحواف الفاصلة) بين العلوم التى يشتغلون بها . وفى الواقع ، سيكون من الصعب التمسك بأن ما نعرفه الآن باعتباره مجالاً للتداخل بين العلوم فى التاريخ البيئى لم يكن قد بدأ بنهاية سنة ١٩٥٥م . فسرعان ما أنتجت مدرسة ليسستر طبقة أخرى من المؤرخين المحليين الذين ضمنوا الكثير من منهج الجغرافيا التاريخية ومنهج أتباع بروديل، لاسيما فى التواريخ المحلية وتواريخ الفضاء الطبيعى لكل من چوان ثيرسك Joan Thirsk ومارجريت سيوفورد Margaret Spufford(٢١). والواقع أنه يبدو ممكنًا أن النساء عندما اقتحمن هذا الموضوع كن أقل نفوراً من عبور الحدود بين العلوم وكن أكثر سعادة بالاستعارة والتجديد بطريقة خلاقة وشاملة. وهذه النساء ، مثل هوسكنز، لم تكن خائفات من اتباع نموذج زملائهن من الجغرافيين وأنجزن الكثير من العمل الميدانى المحلى، واستخدمن الأساليب التى لخصها هوسكنز فى أحدث كتبه Fieldwork in Local History (صدر سنة ١٩٦٧م) (وحتى الآن، يبقى دخول النساء فى زمن غير ملائم فى التاريخ البيئى مقارنة بالتاريخ العام موضوعًا لم يتم تحقيقه ؛ ولكنه مع هذا موضوع مهم) . وفى وقت أحدث أنتجت مدرسة هوسكنز عملاً محليًا جديدا فى تاريخ الغابات ، بما فى ذلك العمل المتفحص الثاقب لڤيكتور سكيب عن التاريخ الاجتماعى والايكولوچى لغابة آردن Adren (٢٢). وفى الوقت نفسه ، فى أراضى المستنقعات الإنجليزية ، قام مؤرخ من مقاطعة كورنول ، هو چاك رافنسدال Jack Ravensdale بتوليفة ذكية من مقاربة هوسكنز وأعمال داربى القديمة، فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٧٧م بعنوان Liable to Floods، وهو تاريخ عن قرية ساحلية وضواحيها ، قبل تجفيف المستنقعات وبعدها فى القرن السابع عشر(٢٣).

بيد أن مدرسة ليسستر كانت أيضا مصدر إلهام للباحثين الذين كانوا يُدخلون الموضوع كثيرا فى تراث عالم الإيكولوچى دودلى ستامب ، أى من العلوم الطبيعية مباشرة. كان أبرز

هؤلاء المتحمسين الجدد باحثًا قد نسميه فى المستقبل «چوزيف نيدهام» التاريخ البيئى : وهو أوليڤر راكهام Oliver Rackham . كان راكهام قد تلقى تعليمه أصلا (مثل نيدهام قبل أن يصير مؤرخ علوم) باعتبارها متخصصًا ناجحًا للغاية فى فسيولوچيا الخلايا. ولكن هواياته الرئيسية تمركزت فى مجموعة من الفطريات وتسجيل نباتات نادرة فى أراضى الغابات القديمة . وسرعان ما قاده هذا، فى وقت فراغه ، إلى قراءة ملفات الحاكم فى العصور الوسطى التى وثّقت تاريخ أراضى الغابات القديمة وهو ما أثار اهتمامه . كان عمل راكهام متقنًا تمامًا مثلما كان عمل جلاكن وكتابه الأول فى التاريخ البيئى (أو التاريخ الإيكولوچى * حسبما يفضل هو أن يسميه) وقد ظهر كتابه Hayley Wood: Its History and its Ecology سنة ١٩٧٥م. وتبعته سلسلة من الكتب عن أراضى الغابات القديمة ببريطانيا ، وكتبت كلها بدرجة تقترب كثيراً من نموذج هوسكنز ، ولكنها تكشف بكفاءة عن ميزات تخصصه السابق فى علم الأحياء (البيولوچى) . ويبدو راكهام فى البداية متردداً فى الاعتراف بموروثه الفكرى ولكنه فى النهاية يضع لافتته، مثلما فعل ميكائيل وليامز قبله، فى أول رحلة له خارج بريطانيا، فى كتاب The Making of Cretan Lanscape سنة ١٩٩٤م(٢٤).

ومن المهم أن نرسى هذه التطورات الأخيرة لمدرسة هوسكنز فى التاريخ البيئى لأنها شكلت الجذور الرئيسية للتاريخ البيئى فى أجزاء أخرى كثيرة من العالم، ولكن بصفة خاصة في استراليا . وعلاوة على ذلك فإننا بحاجة إلى أن نضع فى ذهننا أن التاريخ البيئى ، فى مرحلته الباكرة بعد الاستعمار، كان محدوداً فى نطاق بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، واستراليا ، وجنوب آسيا، وشرق أفريقيا، بدرجة كبيرة وإن لم تكن تامة . ولاشك فى أن أقوى تراثين فى الفترة السابقة على سنة ١٩٧٥م كانا فى بريطانيا واستراليا . ويمكن للمرء أن يخمن بأن الموقع المنعزل لكل منهما، ممتزجا بالقوة النسبية للحركات البيئية فى كل منهما ، كان عاملاً رئيسيا فى تفسير هذه الحقيقة. ولم تكن لكل المدارس جذور مشتركة ، كما كانت

* مصطلح «التاريخ الإيكولوچى» قريب جداً من مصطلح التاريخ البيئى؛ ذلك أن علم الايكولوچى Ecol-ogy يدرس تأثير البيئة على الكائنات التى تعيش فى رحابها ؛ ومن ثم فإن التاريخ الإيكولوچى يدرس «تاريخ البيئة» فى جانب محدد، على حين يدرس «التاريخ البيئى Environmenai History » كافة الجوانب المتعلقة بالبيئة على مرّ الزمان . (المترجم)

المدرسة الفرنسية منفصلة بصفة خاصة فى مصادرها وإلهامها (ولا سيما كما تجسدت فى أعمال لو روى لودرى الذى ترك كتابه الذى يحمل عنوان Times of the Feast, Times of the Famine تأثيرا كبيراً فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة) [٢٥]. وقد أولى «لو روى لودورى» نفسه اهتماماً خاصا بالتأثير التاريخى للتغير المناخى والأحداث المناخية المتطرفة على المجتمعات المحلية. ويجدر بنا استكشاف الخلفية التى قامت عليها تطورات مثل هذا النوع من التاريخ المناخى بما أنه قد صار ذا أهمية مطردة بوصفه عنصرا فى التاريخ البيئى.

ومنذ أوائل عشرينيات القرن العشرين كان عدد من الجغرافيين التاريخيين ومؤرخى مدرسة «الحوليات» يروجون بنشاط لفائدة العوامل المناخية فى التحليل التاريخى . وكان البارزون الكبار من بينهم چورچ لوفيڤر George Lefebvre ، ولابروس C.E. Labrousse وجوردون مانلى Geordon Manley ولو روى لودورى de Roy Laudurie نفسه [٢٦]. وتمثلت إحدى النتائج الكبرى الأولية لهذا التطور فى أن مدلولات «عصر جليدى صغير» فيما بين سنة ١٢٥٠م وسنة ١٩٠٠م بدأت تخترق جدول أعمال البحث لدى بعض المؤرخين الاقتصاديين فى غرب أوربا ، إن لم يكن فى غيرها من الأماكن ، وكان ذلك راجعًا بدرجة كبيرة لتشجيع جوستاف أوترستورم Gustaf Utterstorm[٢٧] وربما يكون من الأمور ذات المغزى أن بعض أوائل المؤرخين الذين لاحظوا إمكانية تضمين «العصر الجليدى الصغير» فى تفسيراتهم للتغير التاريخى كانوا من المتخصصين فى تاريخ آسيا وتاريخ أفريقيا [٢٨].

وثمة مدرسة نامية فى التاريخ الاقتصادى الفرنسى كرست اهتماما مخصوصًا لتأثير التغيرات المناخية واختلاف المحصول ، مثلاً، التى تؤدى إلى التغير االجتماعى والأزمات، قد رفضت فى البداية من جانب المؤرخين بعد أربعينيات القرن العشرين. هذا الاتجاه لرفض أهمية المناخ فى التفسير التاريخى للتغير الاجتماعى والاقتصادى تطور إلى نموذج لم ينكسر حقًا انكسارًا واضحًا فى علم التاريخ نفسه سوى على يد لو روى لودورى، الذى كان هو نفسه قد تأثر بأعمال جوستاف أوترستورم وجوردون مانلى، ولاسيما بالمقالة الرائدة التى نشرها أوتر ستورم فى سنة ١٩٥٥م بعنوان : "Climatic Fluctuation and Population Problems in Early Modern History" [٢٩].

وقد لخصت هذه المقالة الكثير من المعلومات التى كانت متاحة على الدوام فى ذلك الوقت عن تأثير المناخ فى التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث. وكانت تهتم على نحو يكاد أن يكون

تاما، بطبيعة الحال، بالإسهامات التى أسهمت بها فترات التدهور المناخى على حالات الركود الاقتصادى فى العالم الأوربى المعتدل . وقد استمر الأثر التاريخى للتقلبات المناخية الكبرى خارج الأقاليم القطبية والمعتدلة محل تجاهل إلى حد كبير حتى السنوات القريبة جدا .

وقد طوّر «لو روى لودورى» ، من جانبه، نظرته الخارجية فى كتاب : Times of Feast, Times of Famine الذى نشره سنة ١٩٧٢م. فهناك قدر من السخرية حول تاريخ النشر هذا. فقد كانت تلك سنة شهدت بداية حادث (نينو El Nino) * الذى يمكننا أن نرى الآن من منظور الفهم بعد فوات الأوان أنه كان علامة على بداية تركيز علمى جديد على ظاهرة النينو وعلى ومضات وعى جديد تماماً على المستوى العام بتأثير ذلك النينو المحتمل على الأحداث المتطرفة التى قد تؤثّر على مناخ العالم. وكان هذا راجعًا بدرجة كبيرة إلى الأثر الذى تركته على عامة الناس فى الغرب(من خلال التليفزيون إلى حد كبير) صور المعاناة وارتفاع عدد الوفيات الناجم عن حالات الجدب والجفاف فى إقليم الساحل غرب أفريقيا، وبصفة أخص فى إثيوبيا . وثمة حالات جفاف أو مجاعة أكثر خطورة ، كانت قد تركت بعض الأثر ، بطبيعة الحال فى الغرب ، ليس أقلها ما حدث فى أثناء مجاعة فى Bihar سنة ١٩٦٦م نعرف الآن أنها كانت ناجمة أيضا عن النينو . ولم يكن «لو روى لودورى» مهتمًا كثيرًا بالعالم غير المعتدل وحتى لو كان مهتمًا به فلم يكن لديه ما يفيده من النظر فى عمليات النينو والتتابعات الزمنية التى بدأنا نستوعبها الآن والتى تساعدنا على فهم الأسباب وراء بعض الأحداث المتطرفة

---

* تعرف ظاهرة El Nino بأنها تغير يحدث بين فترة وأخرى فى الغلاف الجوى وعلى سطح المحيط الهادى؛ ولاسيما فى الاقليم المدارى ، وإسمه الكامل El Nino Southern Oscillation ، أى النينو الاضطراب والتذبذب الجنوبى ويتسم هذا الاضطراب بوجود فروق فى الضغط الجوى بين تاهيتى ، وداروين، واستراليا. وعلى مستوى المحيط تتمثل الذبذبة فى تسخين مياه المحيط، أو تبريدها فى المناطق المدارية الوسطى والشرقية بالمحيط الهادى. ويحدث هذا الاضطراب أو الذبذبة على فترات تتراوح ما بين ثلاث سنوات وثمانى سنوات. وفى مرحلة السخونة يسمى نينو، وهى كلمة إسبانية بمعنى الولد، وفى مرحلة البرودة يسمى النينا Nina وهى تعنى البنت .

وترتبط هذه الدورات المناخية بحالات الفيضان والجفاف واضطراب الجو فى الكثير من أقاليم العالم. (المترجم)

والشـاذة التى لها تأثير كبير للغاية على التاريخ البشرى ، على الأقل. ولم يعد من الممكن بالنسبة للمؤرخ أن يصف « الحتميين البيئيين » بالشيطانية ، أو أن يزعم أن المعلومات المناخية لا تكفى للإسهام بشكل جاد فى مهمة التفسير التاريخى، لا سيما عندما تبدأ معلومات جديدة عن تأثير نماذج أحداث النينو فى الظهور.

وخلال معظم الفترة التى نناقشها ، فيما بين سنة ١٩٥٥م وأواخر الستينيات من القرن العشرين، استمر كلارنس جلاكن فى العمل بعيداً على كتابه المعنون «آثار على ساحل رودس Traces on the Rhodian Shore . وأخيراً ظهر فى سنة ١٩٦٧م مباشرة قبل انفجار الوعى البيئى الذى حدث بعد سنة ١٩٦٨م ، ومرة أخرى يمكن للمرء أن يجادل بشكل مشروع ، كرد فعل على حرب كبرى أخرى، كانت فى فيتنام هذه المرة. وكاد كتاب «آثار» أن يكون كتاباً تنبؤياً فى توقيته ، وكان وقت كتابته موازياً بالضبط لصعود الوعى البيئى الذى كان قد حدث فى أثناء ستينيات القرن العشرين ولكن البروفيسور كارل ساوير Carl Sauer أدرك مغزاه الأساسى ، وهو رئيس قسم الجغرافيا فى بيركلى، الذى كان قد تولى حماية جلاكن حماية غيورة من التهديدات المستمرة بفقدان منصبه فى أثناء كتابة كتابه الفذ. وكان ساوير نفسه قد أنتج فى الوقت نفسه مقالته الكبرى The Early Spanish Main فى سنة ١٩٦٦م. وحسبما علقت المراجعات المعاصرة «إن التاريخ حينما يكتبه جغرافى ، ولا سيما واحد نال حظا من التعليم مثل بروفيسور ساوير ، لهو تجربة ثرية » و«أنه سوف يوضع بالتأكيد فى مرتبة أكبر مما نشره كارل ساوير حتى اليوم... وهو علامة فى مجال البحث والدراسة فى القرن العشرين»[٣٠].

حقا ، إنه فى هذه الفترة كانت إحدى دور النشر الكبرى فى أمريكا الشمالية فقط المستعدة للمخاطرة بنشر التاريخ البيئى الجديد وهى مطبعة جامعة كاليفورنيا التى كانت قد أخذت أعمال كل من ساوير وجلاكن . ولكننا قد نلاحظ أن المطبعة قد دخلت فى المهمة بشكل حاسم عندما نشرت سنة ١٩٦٣م كتاب عالم الأنثروبولوچيا كليفورد جيرتز Clifford Geertz الذى يحـــمل عنوان : Agricultural Innovation : The Processes of Ecological Change in Indonesia.

وهو كتاب صار بالتدريج نجاحاً تجارياً عظيماً ، عندما زاد الاهتمام الأمريكى بجنوب شرق آسيا ، لأسباب واضحة، فى غضون الستينيات من القرن العشرين . ولكن من المؤكد أنها

كانت مخاطرة . والبحث فى العلوم المتداخلة ، حسبما لاحظ حيرتز فى مقدمته «دائما ما يكون مقامرة» [٣١]. ولكن جيرتز ترك أيضا منفذًا إلى الاهتمام المتزايد من جانب بعض المؤرخين فى كاليفورنيا والذين كانوا قد بدأوا لتوهم يهتمون بأعمال زملائهم الأكثر انغماسًا فى تداخل العلوم. ولاحظ جيرتز وهو يقتبس عن مارك بلوك Marc Bloch أنه «تمامًا مثل يوضح تقدم المرض للطبيب سر حياة الجسد، كذلك تكشف الكارثة الكبرى للمؤرخين عن معلومات قيمة عن طبيعة المجتمع الذى أصابته» [٣٢]. وعلى أية حال ، وكما سنرى، يبدو أن كثيرا من مؤرخى كاليفورنيا فقط كانت لديهم أدنى معرفة بما كان زملاؤهم من غير المؤرخين على بعد أميال قليلة فى بيركلى على وشك القيام به فعلاً.

وفى سنة ١٩٦٧م نشر روديريك ناش Roderick Nash كتابه بعنوان Wilderness and American Mind . وكان نجاحه سريعًا مع الجمهور فى كاليفورنيا وخاصة مع الطلاب. وقد شجع نجاحه ناش على المزيد من البحث ، والأهم من هذا، أنه وضع مقررًا جديدًا فى سجل جامعة كاليفورنيا بسانتا بربارا فى ربيع سنة ١٩٧٠م. وكان عنوان هذا المقرر «التاريخ البيذى الأمريكى» . ويبدو أن ناش نفسه قد أعاد سك مصطلح التاريخ البيئى، ومن الواضح أنه كان غير مدرك فى غمرة هنائه وسعادته أن المصطلح قد استخدم من قبل على أيدى الجيولوچيين وعلماء الآثار . وكما كتب ناش فيما بعد بصورة كاشفة فى سنة ١٩٧٢م :

«لقد ظننت أننى كنت استجيب لصيحات تنادى بالمسئولية البيئية التى وصلت ذروتها فى الشهور الأولى من تلك السنة. وانتابنى أيضا شعور طيب بشأن المساعدة فى جعل الجامعة، وقسم التاريخ بصفة خاصة، أكثر استجابة لمشكلات المجتمع. وكنت أخيرا «وثيق الصلة بالموضوع» . وعلاوة على ذلك ، فإن عملى السابق فى التاريخ الفكرى الأمريكى، ولاسيما البحث الذى أدى إلى تأليف كتاب Wildermess and American Mind ، كان قد جعلنى على ألفة بالنموذج العريض للتفاعل بين الأمريكيين وبيئتهم... ولكننى فى طريق العودة إلى مكتبى، بدأت المخاوف والظنون تراودنى. ثم صارت قلقًا كبيرًا فى غضون الأسبوعين التاليين عندما سجل أربعمائة وخمسون طالبًا فى المقرر الذى كان فى طور الإعداد . فما الذى كنت سأفعله معهم؟ فقد كانت هناك أماكن قليلة يمكن اللجوء إليها بحثا عن الإجابات . وفى حدود معرفتى لم يكن هناك مقرر مشابه تم تقديمه على الإطلاق. كذلك كانت مادة القراءة ناقصة»[٣٣].

وبالنسبة لباحث يدرس في كاليفورنيا ، كانت هذه الملاحظة الأخيرة غير عادية تماماً . ويبدا أن ناش كان يفكر أنه سيكون من الضروري أن يبدأ من نقطة الصفر . وكتب كما لو كان يكتشف شيئًا جديداً : «إن التاريخ البيئي سوف يشير إلى اتصال الإنسان مع بيئته كلها» . واستمر ناش يقول ، في سعيه الذي شابه اليأس للعثور على عبارة أو مقارنة ، إن «المؤرخ البيئي ، شأنه شأن عالم الإيكولوجي ، لابد وأن يفكر بمصطلحات الكليات ، والمجتمعات ، والعلاقات المتبادلة ، والتوازنات . إذ إن عليه أن يجعل أولى مسلماته عبارة چون موير «عندما نحاول أن نلتقط أي شئ بذاته ، نجد أنه يرتبط بكل شئ في الكون» . واختتم قوله ، أخيرا، دون أي تبرير للعبارة «وفي معناه الحقيقي يتناسب التاريخ البيئي في إطار تاريخ اليسار الجديد. والواقع أنه قيض لهذا أن يكون التاريخ «من القاع لأعلى» فيما عدا أن العنصر المستغل هنا سيكون الكائنات الحية والأرض نفسها».

وأعتقد أن هذه الملاحظات الأخيرة كشفت الموضوع. فمن الواضح أن ناش تصور نفسه مبتكر «التاريخ البيئي» . ولكننا قد نلاحظ أنه كان من الواضح ألا يكون تاريخًا يتناول العلاقات بين الناس والطبيعة بأية طريقة متوازية . وكان بدلاً من ذلك سيهتم بالطبيعة نفسها، بطريقة موير حسبما كان ناش قد اعترف. وقد واصل ناش كتابته ليصف محتويات المقرر الذي وضعه ، حسبما ظهر فيما بعد . كان لافتًا للنظر أنه لم يتضمن على الإطلاق أية إشارة للمادة الإضافية التي تتصل بالسياق من خارج أمريكا الشمالية أيا كانت ، باستثناء ما كان ناش مضطراً إلى قوله في الموضوع سنة ١٨٦٤م ، لأنه كان على قائمة القراءة . وعلى أية حال ، فإن هذا لم يمنع ناش، في السنة نفسها، من الإسهام بفصل عنوانه: "The State of Enviromental History" في كتاب مجموع يحمل عنوان The State of Amercian History ، حرره هربرت جـ. باس Herbert J. Bass . ولم يكن من قبيل المصادفة أن ناش ساوى ما بين التاريخ البيئي والتاريخ الأمريكي. كانت الحقيقة غير المريحة أن معرفة ناش بما كتب خارج الولايات المتحدة، بل خارج تاريخ كاليفورنيا ، كانت منعدمة تقريبًا بشكل واضح ، وهذه الثغرة مهمة ، لأن ناش وبعض زملائه مضوا قدمًا ليحرروا عدداً من مجلة Pacific Historical Review عن «التاريخ البيئي» (مرة أخرى في مقالات محصورة في نطاق الولايات المتحدة فقط)، ثم ينفصلون عن الجمعية التاريخية الأمريكية لكي يؤسسوا الجمعية الأمريكية للتاريخ البيئي، ولها مجلة هي The Environmental Review ، وأعيدت تسميتها مرتين منذ ذلك الحين آخرها سنة ١٩٩٦م.

ولكن بينما انشغل الكاليفورنيون فى تدوين تاريخى وطنى جديد للبيئة ، وربما كان ذلك بوصفه جزءًا من البحث عن هوية جديدة فيما بعد ڤيتنام وما بعد الإمبريالية ، فما الذى كان يحدث فى أماكن أخرى؟ وحالة استراليا تمثل حالة إرشادية بصفة خاصة بهذا الخصوص ، لأنه فى استراليا ، إلى جانب بريطانيا وجنوب آسيا ، كان التاريخ البيئى آخذًا فى النضج فعلاً ، ولكن فى عبارة أضيق كثيرًا مما هو فى الولايات المتحدة (٣٤). وكان النينو القوى El Nino الذى حدث سنة ١٩٤٤م ، وحالات الجفاف الخطيرة التى نتجت عنه فى معظم أنحاء شرق استراليا، قد مهدت الأرض فعلاً لحساسية ما بعد الحرب بين الجمهور الاسترالى تجاه الأزمة البيئية ، ولاسيما علي هوامش الزراعة (٣٥). وقد عكس التاريخ البيئى فيما بعد الحرب مشاعر القلق هذه . ومن الغريب تمامًا أن واحدًا من أوائل المؤلفات الكبرى فى التاريخ البيئى فى استراليا كان قد ألفه جغرافى أمريكى زائر، هو مينيج D. Meinig ، وكان قد نشر فعلاً فى شيكاجو، معقل الجغرافيا الأمريكية خارج جامعة بيركلى . ويندرج مينيج ضمن تراث الجفاف فى ثلاثينيات القرن العشرين بعنوان On the Margins of the Earth : The South Australian Wheat Frontier وسرعان ما تبع هذا كتاب هيلثكوتى Healthcote الذى يحمل عنوان : Back of Bourke ، الذى نشر فى سنة ١٩٦٥م، ثم فى سنة ١٩٦٧م تلاه كتاب بوكتسون Buxton المعنون Riverina 1861-1891 ، وهو عبارة عن جغرافيا محلية تأثرت بشكل قاطع بمدرسة الحوليات والجغرافيا الإقليمية الفرنسية . ثم مضى إريك رولز Eric Rolls وسير كيث هانكوك Sir Keith Hancock لإنتاج كتابيهما الكلاسيكيين على التوالى (1969) They All Ran Wild و (1972) Discovering Monaro . هذه الدراسات المفعمة بالتفاصيل عن مناطق محلية صغيرة نسبيًا كانت حقًا تجارى بعض المادة التى كان ينتجها المؤرخون المحليون فى بريطانيا ، وهو ما كان كل من رولز وهانكوك على ألفة به . ولكن من نظرة لاحقة زمنيا، كان العمل الأول المهم حقا فى التاريخ البيئى في استراليا ، والكتاب الأول الذى يحظى بجمهور على مستوى العالم، . (وسرعان ما صار نصًا مقررًا فى الجامعات البريطانية على سبيل المثال)، كان كتابًا آخر عن جنوب استراليا . كان ذلك كتاب ميكائيل وليامز بعنوان : Making of the South Australian Landscape ، وهو كتاب ، كما يبدو من عنوانه يزعم صراحة أنه ينحدر من سلالة كتاب هوسكنز الرائد الذى صدر سنة

١٩٥٥م عن التاريخ البيئى . وعلاوة على ذلك ، كان وليامز حريصًا بصفة خاصة على أن يجاهر بالدين الذى يدين به لكل من داربى ومارش، وميراثه عن الأخير كان دقيقًا بشكل خاص [٣٦]. وقد ذكر وليامز قراءه باهتمام مارش الخاص باستراليا بوصفها مكانا لفحص تأثير الإنسان بوصفه عاملاً جغرافيًا : «ربما تكون استراليا البلد التى لنا الحق أن نتوقع منها أفضل توضيح لهذه المشكلات الصعبة والمثيرة للجدل ... وهنا ... توجد تسهيلات أعظم ودوافع أقوى للدراسة المتأنية للموضوعات محل السؤال مما كان يوجد ممتزجًا فى أى مسرح آخر للاستعمار الأوربى» . وكانت ملاحظة مارش معارضة بصورة خاصة، طبعا، ومكشوفة بشكل منتظم أمام نزوات التقلبات المناخية، وحساسة جداً تجاه التغير المناخى . والحقيقة أنه لم يحدث سوى فى وقت قريب جدا أن بدأنا ندرك بالضبط كم كان المناخ الاسترالى والاقتصاد الاسترالى متأثرين بشدة بعامل مناخى واحد، وهو تقلبات تيار النينو، والظاهرة المرتبطة به وهى ظاهرة التذبذب الجنوبى[٣٧] . ومن الغريب تمامًا ، أن المؤرخين الذين يهتمون بتاريخ استراليا الاقتصادى أسقطوا فى الماضى هذا العامل القوى من حساباتهم بشكل تام تقريبا ، وهو الأكثر لفتًا للنظر فى بلاد يعيش فيها كثير جدا من المزارعين من سنة لأخرى على المعونات التى تقدمها الحكومة بسبب القحط.

والتحدى الذى يواجه مارش ، كما ينقله وليامز ، أخذه بسرعة چوزيف باول Joseph Powell ، وهو جغرافى تاريخى من مواليد ليڤربول صار الآن عميد التاريخ البيئى الاسترالى. وكتاب باول الذى صدر سنة ١٩٦٧م ، وهو ليس أول كتبه بأى حال، كشف عن شخصيته المزدوجة المشتغلة بالعلوم المتداخلة من أولى صفحاته ؛ فقد قال إن الكتاب بالفعل «بمثابة مقدمة موجزة لبعض الموضوعات الرئيسية فى التاريخ البيئى الاسترالى »[٣٨] . ولم يرد أى ذكر حتى لمصطلح الجغرافيا التاريخية فى مقدمة الكتاب، كما روى باول أنه لم يكن لديه مفهوم محدد عن موضوع أمريكى فى التاريخ عندما استخدم مصطلح «التاريخ البيئى». وأيًا كان الطريق الفكرى الذى كان التعريف (التاريخ البيئى) قد سلكه إلى ملبورن، وبحث باول المهيب، الذى يدور أساسًا عن تأثير الاستعمار والاستيطان على البيئة الاسترالية، ما يزال أفضل بحث تم نشره حتى اليوم عن التاريخ البيئى فى القارة. والواقع أنه مع المجلد الذى أصدره سنة ١٩٧٦م ، والكتب التالية عن ڤيكتوريا ، وكوينز لاند، وموراى باسين، وعرب استراليا (ومع رحيل وليامز إلى أوكسفورد) وصار باول مدرسة مكونة من رجل واحد فى

التاريخ البيئى ، كانت مقاربته التجميعية قد صارت منذ ذلك الحين تستخدم من جانب الكثير من الكُتّاب اللاحقين الذين يتناولون موضوعات على نطاق القارة . وقد اختلف كل من وليامز وباول عن معاصريهم الأمريكيين من أمثال وليم كرونون William Cronon ، وكارولين ميرشانت Carolyn Merchant وريتشارد هوايت Richard White ودونالد ورستر Donald Worster من حيث أنهما كانا يدركان بشكل حاد التأثيرات الاستعمارية والعالمية التى كانت قد ساعدت على تشكيل بيئة الاستيطان الأسترالى. هذا الإحساس العالمى نفسه بالمرجعية موجود أيضا فى كتاب وليامز The Americans and their Forests ، وهو فى رأيى أحسن كتاب على الإطلاق فى التاريخ البيئى لأمريكا الشمالية حتى اليوم ، لأسباب ليس أقلها قدرته على توضيح السياق العالمى الذى ينبغى رؤية الأحداث البيئية الأمريكية، على نحو صحيح فيه . وفى حالة باول ، كان تناوله لأستراليا ، ولاسيما التاريخ الباكر لغاباتها ، أشمل كثيرا بفضل فهمه لتوزيع الأفراد، والخطاب البيئى، والأفكار الواردة من المستعمرات الأخرى، ولكن بصفة خاصة من الهند، التى سرعان ما اعترف باول بأنها النبع الأساسى لكثير من إيديولوچيا إدارة الأراضى.

وفى السنوات الحديثة اجتذبت استراليا اهتمام عدد من المؤرخين البيئيين الأمريكيين الأكثر عالمية فى تفكيرهم، ومن بينهم ستيفن باين Stephen Pyne وتوماس دنلوب Thomas Dunlop . وكانت أستراليا بصفة خاصة جذابة لباين ، الذى وجد ثقافة النار لدى كثير من الجماعات من السكان الأصليين ثقافة نموذجية لكى يعرض قناعاته بأن النار كانت عاملاً مهملاً بدرجة كبيرة فى تغير الأرض الطبيعية فى الكتابات الإيكولوچية والتاريخية. وباستخدامه المتد والانتقائى للكتابات الأنثروبولوچية والعلمية ، يقدم باين فى كتابه Fire History of Australia تناقضا مبهمًا مع Taming the Great South Land (1991) ، وكتاب كارى وبار Cary. Barr بعنوان Greening a brown Land (وصدر ١٩٩٢م) ، وهما كتابان غير أصليين بالنظر إلى المستويات القياسية التى أرساها وليامز وباول. وبدلاً من ذلك هناك اتجاهان فى التاريخ البيئى فى فترة ما بعد الغزو / الاستيطان واعدان بحمل ثمار فكرية أكثر إثارة . وهما، أولا، تلك الأنواع من الدراسات الإقليمية التفصيلية التى أنجزها أمثال توم جريفيث Tom Griffith [٣٩]، وثانيهما الدراسات التى تركز بقوة على الموضوعات والتى قام بها چون دار جاڤيل John Dargavel عن الغابات وتاريخ إدارة الغابات) وجنيفر

مـالكو للوش Jennifer Mac Culloch (عن تـاريخ حـمـاية الأنواع) وتيم بونيـهـادى Tim Bonyhady (عن تاريخ النزعـة البيـئـية منذ سنة ١٧٨٨م حـتى اليـوم الحـالى) . وجـراهام سنوكس Graham Snooks (عن التقارير التفصيلية عن استخدام الموارد الطبيعية منذ عام ١٧٨٨م) . وأحد جوانب السخرية فى عمل بونيهادى ، بصفة خاصة، يتمثل فى أنه ينطلق لكى ينجز (على نطاق هائل وتفصيلى) مشروعا لم يحاول أحد قط القيام به حقيقة لا فى الولايات المتحدة ولا فى بريطانيا ، حيث تغيب التقارير المقتدرة والتى تمت بناء على بحوث سليمة عن صعود النزعة البيئية إبان القرن التاسع، حتى اليوم، بشكل لافت وواضح .

والواقع أن هذا يساعدنا على معرفة أحد الجوانب البارزة فى التاريخ البيئى فى المنطقة التي تسمى الهوامش اليوم؛ وهو جانب مؤداه أن الأمر مثلما كان أيام الإمبراطورية تمامًا ، فقد أنتجت المناطق شبه الجدباء، والمدارية البعيدة تمامًا عن العواصم الأنجلو- أمريكية أكثر الأبحاث إثارة وابتكارًا فى التاريخ البيئى . وكان هذا إلى حد ما نتاجًا طبيعيًا للحدود أو البرارى المتقدمة نسبيًا فى منطقة الهوامش الاستعمارية التى باتت أشد جاذبية وطرافة بالنسبة للعقل الأوربى . وبينما كان الهوس «بالبرارى» فى التاريخ البيئى ممزوجًا ومختلطًا بنوع من أزمة الهوية الأمريكية وتقديس الطبيعة بشكل طوطمى ، فإن التاريخ البيئى فى استراليا (وأيضا فى جنوب آسيا وجنوب أفريقيا) أظهر قدرًا أقل من النزعة الوطنية وقدرًا أكبر من المنهجية المتماسكة المقارنة فى اتجاه الخارج للكشف عن عمليات التوسع الاستعمارى والمواجهة الثقافية وخطابها . وقد يخاطر المرء برأى مؤداه أن الروابط الوثقى بين تجارب زمن الحرب (خاصة الحرب العالمية الأولى) بوصفها مكونا تعريفيًا للهوية الأسترالية، وأهمية المخاوف التى ولدتها الحرب والتوسع الإمبريالى، والمواجهة الثقافية وهموم المناخ باعتبارها من المكونات التعريفية للتاريخ البيئى ، هذه الروابط تجعل من التاريخ البيئى وسيلة مناسبة تمامًا للقيام بأية محاولات فى المستقبل لفهم السياق الاجتماعى الأسترالى .

علاوة على ذلك ، فإنه بينما يصير التاريخ البيئى العالمى باطراد ، وعلى نحو مشكور أقل، مركزية أمريكية ، وبينما يتحول مركز الجاذبية تجاه الشرق بدرجة أكبر، فإن لنا أن نتوقع المزيد من الأعمال المقارنة الأكثر اتجاهًا صوب الخارج من نوع الدراسات التى قام بها الرواد فى استراليا . ولأننى متخصص فى أفريقيا وجنوب آسيا ، فإن لى مآرب خاصة فى هذا الصدد . ولكننا يمكن بالفعل أن نرى بدايات العملية ، ليس فى ذلك النمو القوى السريع

للتاريخ البيئى فى أفريقيا وآسيا فحسب (على الرغم من أن هذه العملية لم تحدث بعد فى المحيط الهادى)، وإنما فى الأبحاث التى نشرت حديثا فى التواريخ البيئية المقارنة. ومن الممكن أن يكون الكتاب الذى ألفه حديثًا بينارت وكوتيس Beinart and Coates بعنوان :

Enviroment and History : The Taming of the Nature in the USA and South Africa

نموذجًا مفيداً حين نتتبعه (٤٠). وثمة مقاربتان تتناولان البيئة الاسترالية تعدان بأن تكون لهما قيمة، إحداهما عن موضوع التاريخ الحيوى، والأخرى عن الخطوط المستقيمة أكثر للتاريخ الاستعمارى المقارن . إذ إن التأثير المركزى الأمريكى المبالغ فيه والحتمى لنظريات كروسبى عن الاستعمار الحيوى حسبما عبر عنه فى Ecological Imperialism سنة ١٩٨٦م قد نبهنا مع هذا إلى أهمية فهم التأثير الثقافى والاقتصادى للتوزيع الموجه من جانب الإنسان للنبات والحيوان. بيد أن التأثير الهائل (فى الاتجاه المعاكس لذلك الاتجاه الذى وثقه كروسبى) كان للمحاصيل الأمريكية والاسترالية وغيرها من أنواع النبات على التاريخ الإيكولوجى لأفريقيا ، وجنوب آسيا، والصين يبقى قصة لم تحكْ بعد. ولايحتاج المرء سوى أن يذكر الأدلة المتزايدة على تعرية التربة بمساحات كبير (وهو ما يرجع جزئيا إلى زراعة المنحدرات) التى أعقبت نشر زراعة الذرة فى وسط أمريكا، وأفريقيا والصين ، لكى يفهم هذا . وبالمثل كان لنشر زراعة شجرة اليوكاليبتوس الاسترالية وغيرها من أنواع النبات فى أفريقيا وجنوب آسيا أثر اقتصادى وجمالى كبير، ولكنه ما زال يحتاج إلى الدراسة بشكل كبير(٤١) وربما يكون الأمر الأكثر توهجًا بين هذا كله هو غياب تاريخ بيئى مقارن عن جنوب أفريقيا واستراليا ، وهو مشروع لابد أن تكون له أهمية كبرى بالنظر إلى التشابهات المناخية والجغرافية الطبيعية فى الإقليمين .

ويبدو مناسبًا فى الختام أن نقتبس بشكل مباشر من چوزيف باول بوصفه رائد التاريخ البيئى الاسترالى وهو يحاول أن يتنبأ بالمستقبل ويضع الحل له . وآراؤه تتعلق بجدول أعمال التاريخ البيئى بمعناه الأوسع، لاسيما فى إشارته إلى المخاطر التى يجلبها «خطاب خاص ملتو» ، والمشكلة بالضبط هى ، بالمعنى الوطنى، التى أخذت التاريخ البيئى الأمريكى الباكر إلى زقاق مسدود (حارة سد) والتى يحسن الاستراليون (وغيرهم) صنعها إذا ما التفتوا إليها.

«لقد تطورت الجغرافيا التاريخية بالتساوى مع الظهور المتأخر للتاريخ الاسترالى، كما أن الاستجابات الحديثة فى كل من المجالين إزاء توسع «التاريخ البيئى» تعيد تقييم أوجه التبادل فيما بينهما . وإلى هذا المدى، تبدو كل جماعة وكأنها تقبل أولوية قوى الطبيعة «المستقلة». هذه القناعة التى تضرب بجذورها عميقا فى تفرد التجربة الاسترالية ، يوازنها اعتراف مشترك بطريقة مماثلة بالمزاعم المتنافسة على أرضية من المفاهيمية الجمالية والعلمية والمحلية. وكل مجموعة تصدّت للتوتر بين المتطلبات الأكاديمية ومتطلبات المواطنة العالمية والوطنية ، وتتسامح وتطور بشكل مختلف التفسيرات «التى يمكن الوصول إليها» لسوابق الموضوعات البيئية الجارية وتضع المنشورات الاسترالية المتزايدة عن التاريخ البيئى جائزة عالية على الاهتمامات «الجوهرية» للجغرافيين التاريخيين بتقدير الموارد والإدارة البيئية، وبينما يكون الجغرافيون أفضل استعداداً للتحليل النقدى للتغير البيئى فيما بين العلوم ويتمسكون بمعنى الزمالة العالمية بصورة حتمية ، فإن خصوصية الظروف تستمر فى مكافأة مؤرخى استراليا. ويبدو محتملاً أن تكون هناك حالات أوثق من التعاون، بشرط التنصل من الخطاب الخاص الملتوى، فإن العملية يجب أن تغذى خليطاً حقيقيا وباقيًا من البحث «التطبيقى» الذى سوف يبنى جسوراً مع المجتمع الأوسع»(٤٢).

الهوامش

1 R. H. Grove, *Green Imperialism: Colonial Expansion, Tropical Island Edens and the Origins of Environmentalism, 1600–1860* (Cambridge and New Delhi, 1995).
2 W. L. Thomas (ed.), *Man's Role in Changing the Face of the Earth* (Chicago, 1956). Collaborators included Carl Sauer, M. Bates and L. Mumford.
3 See e.g. Alan C. Hamilton, *Environmental History of East Africa* (London, 1982).
4 See Grove, *Green Imperialism.*
5 C. Glacken, *Traces on the Rhodian Shore* (Berkeley, 1967).
6 Luis Urteaga, *La tierra esquilmada* (Barcelona, 1987).
7 However a specifically 'European' discipline has had some difficulties. Thus the European Environmental History Association has flourished far less than parallel American, Indonesian and Chinese associations. Moreover the most useful book on European environmental history remains that written by two Englishmen, Piers Blaikie and Harold Brookfield: *Land Degradation* (London, 1987). But Brookfield is now practising his craft in Australia!
8 Aldous Huxley, *Tomorrow and Tomorrow and Tomorrow and Other Essays* (New York, 1956), p. 221.
9 Arnold Joseph, Toynbee, *Mankind and Mother Earth: A Narrative History of the World* (New York, 1976).
10 Grove, *Green Imperialism.*
11 Alfred Crosby, 'The Past and Present of Environmental History', *American Historical Review* (Oct. 1995), pp. 1177–89.
12 W. Beinart and P. Coates, *Environment and History: The Taming of Nature in the USA and South Africa* (London, 1995); D. M. Anderson, 'Depression, Dustbowl, Demography and Drought: The Colonial State and Soil Conservation in East Africa during the 1930s', *African Affairs,* 83 (1984), pp. 321–44
13 See H. C. Darby, *Historical Geography of England before 1800* (1936); *A Scientific Survey of the Cambridge Region* (1938); *The Draining of the Fens* (1940) and *The Medieval Fenland* (1940).
14 J. C. Mackenzie, 'Climate in Burmese History', *Journal of the Burma Research Society,* 3 (1913), pp. 40–6.
15 L. D. Stamp and Leslie Lord, 'The Ecology of Part of the Riverine Tract of Burma', *Journal of Ecology,* 2 (1923), pp. 129–59.
16 See L. D. Stamp, 'Notes on the Vegetation of Burma', *Geographical Journal,* 43 (1924), pp. 231–3 (Stamp concerned himself here with the history of the timber trade and shifting cultivation); *The Vegetation of Burma from an Ecological Standpoint,* University of Rangoon Research Publication, 1; 'Burma: A Survey of a Monsoon Country', *Geographical Review,* 20 (1930), pp. 86–109; 'The Irrawaddy River', *Geographical Journal,* 95 (1940), pp. 329-56; 'Siam before the War', *Geographical Journal,* 99 (1942), pp. 209–24; *The Basic Land Resources of Burma,* Sarpay Beikam Press for the Burma Research Society, Fiftieth Anniversary Publication, 1 (Rangoon, 1961), pp. 458–80.

17 L. D. Stamp, 'The Aerial Survey of the Irrawaddy Delta Forests (Burma, *Journal of Ecology*, 15 (1924), pp. 262–76.
18 Gordon East, *The Geography behind History* (London, 1938), p. 11.
19 Clarence J. Glacken, *Studies of Okinawan Village Life*, Washington, DC, Pacific Science Board, National Research Council, 1953); *The Great Loochoo: A Study of Okinawan Village Life* (Berkeley, 1955).
20 See Russell Meiggs, *Trees and Timber in the Ancient Mediterranean World* (Oxford, 1982); D. Hughes,'Theophrastus as Ecologist', *Environmental Review*, 4 (1985), pp. 296–307.
21 See J. Thirsk (ed.), *The Agrarian History of England and Wales* (Cambridge, 1985), vol 5; M. Spufford, *Contrasting Communities* (Cambridge, 1972).
22 Victor Skipp, *Crisis and Development: An Ecological Case-study of the Forest of Arden, 1570–1694* (Cambridge, 1978).
23 J. Ravensdale, *Liable to Floods* (Cambridge, 1977).
24 O. Rackham and J. Moody, *The Making of the Cretan Landcape* (Manchester, 1994). This book was a foretaste of a major collaborative effort: A. T. Grove and O. Rackham, *Questioning Desertification: An Environmental History of Southern Europe* (New Haven, forthcoming).
25 Emmanuel Le Roy Ladurie, *Times of Feast, Times of Famine: A History of Climate since the Year 1000* (London 1972).
26 For an assessment of Lefebvre's approach see Marcel Reinhard, *Revue Historique*, 223 (1960), pp. 1–12; for Labrousse's most relevant work see C. E. Labrousse, *Esquisse du mouvement des prix et des revenus en France au xviiie siècle* (2 vols, Paris, 1933); for remarks on the influence of Manley on Le Roy Ladurie's seminal work see Le Roy Ladurie, *Times of Feast.*
27 Gustaf Utterstrom, 'Climatic Fluctuations and Population Problems in Early Modern History', *Scandinavian Economic History Review*, 3 (1955), pp. 1–47. For the best general survey of the period see J. M. Grove, *The Little Ice Age* (London, 1988).
28 See e.g. Robert Marks, '"It Never used to Snow": Climatic Variability and Harvest Yields in Late-imperial South China, 1650–1850', in M. Elvin and Liu Ts'ui-jung (eds.), *Sediments of Time: Environment and Society in Chinese History* (Cambridge, 1998), pp. 411–46.
29 See n. 27 above.
30 C. Sauer, *Early Spanish Main* (Berkeley, 1966), publisher's blurb, quoting reviews in *Americas* and the *Professional Geographer.*
31 C. Geertz, *Agricultural Involution* (Berkeley, 1963), p. vii.
32 Ibid., p. vi.
33 Roderick Nash, 'American Environmental History: A New Teaching Frontier', *Pacific Historical Review*, 41 (1972), pp. 362–72.
34 For a recent extremely useful set of essays and review of the literature in Australian environmental history, see Stephen Dovers, *Australian Environmental History: Essays and Cases* (Melbourne, 1994). This publication is probably too recent for any external commentator to see the work in any true perspective.
35 See an article by Tim Bonyhady on the public response to media coverage of the 1944 events, *Sydney Morning Herald*, 1995.

36 His prefatory quotation from Darby ran as follows: 'When, as geographers, we gaze around one question forces itself upon our attention; it takes a variety of forms: "Why does the countryside look as it does? What has given the land its present character?" The moment we ask this question, that moment we are committed to historical geography in one form or another', Darby, 'On the Relations of Geography and History', *Transactions of the Institute of British Geographers*, 19 (1953), p. 9, quoted in Michael Williams, *The Making of the South Australian Landscape* (London, 1974), p. 1.

37 See Grove, 'The East India Company, the Australians and the El Niño', *ANU Discussion Papers in Economic History*, 1995.

38 J. Powell, *Environmental Management in Australia, 1788–1914* (Melbourne, 1976), p. ix.

39 T. Griffiths, *Secrets of the Forest: Discovering History in Melbourne's Ash Range* (Melbourne, 1992).

40 Beinart and Coates, *Environment and History* (n. 12 above).

41 But see G. L. Shaughnessy, 'Historical Ecology of Alien Woody Plants in the Vicinity of Cape Town, South Africa', Ph.D. dissertation, University of Cape Town, 1980.

42 Joseph Powell, personal summary of paper entitled 'Historical Geography and Environmental History: An Australian Interface', International Conference of Historical Geographers, Perth WA, July 1995.

(١٢)

تاريخ الحوادث وإحياء السرد

بيتر بوركى

السرد فى مقابل البناء

يبدو التدوين التاريخى، مثل التاريخ، وكأنه يكرر نفسه- مع وجود بعض الاختلافات . فقبل زمـاننا بوقت طويل ، فى عصـر التنوير ، كان افـتـراض أن التاريخ المكتـوب ينبـغى أن يكون سـرداً للأحـداث ، عـرضـة للهـجـوم . وكـان من بين المهـاجـمين ڤـولتـيـر والمنظِّر الاجـتـمـاعى الاسكتلندى چون مـيللر ، الذى كـتب عن «سطحـيـة الأحداث التي تسـتـرعى اهـتـمـام المؤرخ المبـتـذل» . ومن وجـهـة النظر هذه فـإن مـا يسـمـى «الثـورة الكوبر نيكوسـيـة» (نسـبـة إلى كوبرنيكوس) فى التدوين التاريخى والتى قادها ليوبولد ڤون رانكه أوائل القرن التاسع عشر تبـدو مـثل ثورة مـضـادة إلى حـد مـا ، بمعنى أنهـا أعـادت الأحـداث مـرة أخـرى إلى مـركـز المسرح[١].

وتم شن هجوم جديد على تاريخ الحواث فى بواكير القرن العشرين. ففى بريطانيا اقترح كل من لويس ناميير Lewis Namier وتاونى R.H. Tawney، اللذين اتفقا على القليل غير ذلك ، أنه يجب على المؤرخ أن يحلل البنى ، وكـان ذلك مبدأ أساسيًا فى منصة مـا يسمى «مدرسة الحوليات» ، من لوسيان فيبڤر حتى فرنانـد بروديل، الذى اعتبر الأحداث ، شـأنه شـأن مـيللر، سطح مـحـيط التـاريخ ، لا تـهـم سـوى من حـيث أنهـا قـد تزيح النقـاب عن التـيـارات الأعمق[٢]. وإذا كان التاريخ الشـعبى قـد ظل على إخـلاصه للتراث السـردى ، فـإن التـاريخ الأكاديمى صـار يهتم بشكل متزايد بالمشكلات والبنى. ومن المؤكد أن الفيلسوف الفرنسى بول ريكور كـان على حق عندمـا تكلم فى سـبـعـينيـات القـرن العـشـرين عن «كـسـوف» السـرد التاريخى[٣].

ومضى ريكور ليجادل بأن كل التاريخ المكتوب، بما فى ذلك ما يسمى التاريخ «البنيوى» المرتبط ببروديل «ومدرسة الحوليات» ، يتخذ بالضرورة نوعًا ما من الشكل السردى. وقد يجيب المرء عن هذه المجادلة بأنه لكى تصف التاريخ البنيوى بأنه نوع من التاريخ السردى فإن هذا يعنى أن تخفف مفهوم السرد بالقدر الذى يجعله بلا فائدة تقريبًا . وعلى أية حال، فمن المؤكد أن من المهم أن نضع فروقًا تميز بين ما قد يسميه المرء درجات من السردية فى الكتابات التاريخية فى زماننا ، أو فى أية فترة أخرى فى الواقع. وتوضيح مثل هذه التمايزات أحد الأغراض الرئيسية وراء كتابة هذا الفصل.

وعلى مدى بضع سنوات ، توجد هناك دلائل على أن السرد التاريخى، بالمعنى القوى تمامًا لذلك المصطلح ، يعود أدراجه الآن. بل إن بعض المؤرخين المرتبطين بالحوليات أخذوا يتحركون فى هذا الاتجاه - الراحل چورچ دوبى ، مثلاً ، الذى نشر دراسة عن معركة بوڤين Bou-vines ، وعمانويل لوروى لودورى الذى يتناول كتابه Carnival الحوادث التى وقعت فى بلدة رومانس Romans الصغيرة فى أثناء عامى ١٥٧٩م و١٥٨٠م(٤). والموقف الواضح الجلى لهذين المؤرخين لا يبتعد كثيراً عن موقف بروديل . إذ إن دوبى ولو روى لودورى يركزان على حوادث بعينها لا من أجلها بحد ذاتها ، ولكن من أجل ما تكشفه عن الثقافة التى حدثت فى رحابها هذه الحوادث . وبالقدر نفسه، فإن حقيقة أنهما يكرّسان كتبًا كاملة لحوادث معينة يوحى بوجود مسافة محددة تبعدهما عن موقف بروديل، وعلى أية حال، فإن لو روى لودورى ناقش فى بحث آخر أهمية ما يسميه «الحادث الخلاق événement matrice » الذى يدمر البنى التقليدية ويحل محلها بنى جديدة(٥).

لقد تم تحليل الإتجاه الجديد، الذى كان قد بدأ يؤثر فى علوم أخرى من أهمها الأنثروبولوجيا الاجتماعية، على يد مؤرخ بريطانى، هو الراحل لورنس ستون، فى مقالة The Revival of Narrative ، التى نشرت فى سنة ١٩٧٩م ولا تزال محلاً للاقتباس المتواتر(٦). وبعض أشهر المنشورات التاريخية منذ سنة ١٩٨٩ م تستمر فى تمثيل مجادلات «ستون» ، وستتم مناقشة المزيد منها بمزيد من التفاصيل فيما يلى.

وقد يكون مفيداً أن نميّز بين نوعين من الاهتمام بالتاريخ السردى من جانب المؤرخين . ففى المحل الأول، يهتمون فى كتابة السرد بأنفسهم. وثانيًا- وهى نقطة لم يوضحها ستون، ولكنها نقطة باتت واضحة منذ سنة ١٩٧٩م- أن المؤرخين قد توصلوا إلى رؤية الكثير من مصادرهم على أنها قصص يرويها أناس مخصوصون بدلاً من كونها انعكاسات موضوعية

عن الماضى. وهكذا، حلل ناتالى ديفيز Natalie Davis ، فى كتاب يحمل عنوانا مستفزًا هو: Fiction in the Archives، مجموعة من الالتماسات بالعفو، وهى التماسات موجهة إلى ملك فرنسا من أناس متهمين بالقتل حكوا القصص عن كيف أنهم وصلوا إلى حد القتل على أمل الحصول على الرحمة . والدراسات الحديثة فى التاريخ الاجتماعى، والتى قامت غالبًا على أساس سجلات المحاكم، درست الوثائق باعتبارها حكايات عن الاغتصاب ، والمشاجرات وأعمال السحر، وقتل الأطفال، وهلم جرًا (٧). وقد أكدوا على المدى الذى «يعيش» فيه الناس فى القصص (على حد تعبير مارك إيلڤين فى دراسة حديثة عن الصين فى القرنين التاسع عشر والعشرين) والمدى الذى يصل إليه الناس فى حكاية القصص لأنفسهم طوال الوقت لكى يضفوا المعنى على تجربتهم (٨).

وقد تبنى بعض المؤرخين عبارة «السرديات الثقافية» للإشارة إلى الحبكات التى تتواتر فى ثقافة بعينها، مثل قصة القيصر الذى يقتل ابنه ، وهى قصة تم حبكها فى عهد إيڤان الرهيب، ثم حيكت مرة أخرى فى عصر بطرس الأكبر (٩). وتأثير السرد الذى يُحكى فى الروايات ، والصحف والأفلام بالطريقة التى يفهم بها الناس أفعالهم أو أفعال جيرانهم قد استرعت انتباه المؤرخين أيضا (١٠). وما يكتبه بعض المؤرخين الآن حكايات عن حكايات .

وزعم ستون أنه لا يفعل ما هو أكثر من «محاولة رسم خريطة للتغيرات التى لوحظت فى النمط التاريخى» بدلاً من إصدار أحكام قيمة، ولكن من الصعب ألا نشعر بالأسف من جانب مؤرخ اجتماعى رائد كان اهتمامه الجوهرى منصبًا على شرح الماضى عند رؤية ما أسماه «التحول ... من الطريقة التحليلية إلى الطريقة الوصفية » للكتابة التاريخية. وقد أكدت ملاحظاته بعض أشهر الدراسات التاريخية التى نشرت فى ثمانينيات القرن العشرين.

فقد كان كتاب سيمون شاما Simon Schama ، الذى نشر فى سنة ١٩٨٩م بعنوان Citizens ، مثلاً، دراسة للثورة الفرنسية وصف نفسه فيها بأنه يعود إلى «شكل مؤرخات القرن التاسع عشر» . ولا ينبغى أن نأخذ هذا الوصف بجدية أكثر مما يجب، لأن المؤلف أبدى مهارة فائقة فى إدخال عناصر من التاريخ الثقافى الجديد للثورة (الاهتمام بأساليب الخطابة على سبيل المثال) فى قصته ، كما أنه أدخل تواريخًا مصغرة لأناس غير معروفين نسبيًا مثل «الرجل الذى أحب الفئران» و«الفارس» لاتود . وعلى الرغم من ذلك، فإن قصة شاما كانت عودة إلى طريقة القرن التاسع عشر من حيث رفضه محاولات تفسير الثورة فى ضوء بنية المؤسسات وتفضيله التفسيرات فى ضوء القرارات التى اتخذها الأفراد(١١).

لقد كان عنوان مقالة ستون مؤثراً تماماً مثل مجادلاته؛ فقد أسهمت في جعل الحكي التاريخي مسألة محل جدال (١٢). وبدقة أكثر ، صار السرد التاريخي مسألة محل نقاشين على الأقل، حدث كل منهما بشكل مستقل عن الآخر . على الرغم من علاقة كل منهما بالآخر . والهدف الرئيسي لهذا الفصل أن يربط ما بين الاثنين (١٣). ففي المحل الأول، هناك الحملة المعروفة والتي استمرت زمناً طويلاً وتعارض أولئك الذين يؤكدون ، مثل بروديل، أن على المؤرخين أن يأخذوا البنى بجدية أكثر من الأحداث ، وأولئك الذين يستمرون في الاعتقاد بأن مهمة المؤرخ أن يحكي قصة. وفي هذه الحملة، يتمركز كل من الجانبين متخندقين في مواقعهم، ولكن كلاً منهما قد حقق بعض النقاط المهمة على حساب الجانب الآخر (١٤).

فمن ناحية ، أظهر المؤرخون البنيويون أن السرد التقليدي يغفل جوانب مهمة من الماضي، من الإطار الاقتصادي والاجتماعي إلى تجارب الناس العاديين وأفكارهم، التي لا يستطيع ببساطة أن يستجيب لها (١٥). وبعبارة أخرى ، فإن السرد ليس أكثر براءة في الكتابة التاريخية منه في الروايات الخيالية. ففي حالة سرد الحوادث السياسية ، من الصعب تجنب التأكيد على أعمال القادة وقراراتهم ، وهو ما يقدم خط قصة واضحاً ، على حساب العوامل التي أفلتت من سيطرتهم . أما بالنسبة للكيانات الجماعية– ألمانيا، الكنيسة، حزب المحافظين، الشعب، وهلم جرا– فيكون المؤرخ السردي مجبراً على أن يختار ما بين حذفها تماماً أو تشخصيها (شخصنتها) ، ولابد أن اتفق مع المؤرخ الهولندي العظيم جون هويزينجا John Huizinga في أن الشخصنة شكل من الكلام ينبغي على المؤرخين أن يحاولوا تجنبه(١٦). ذلك أن الشخصنة تشوش على الفروق التي تميز ما بين القادة والأتباع، وتشجع القراء ذوي العقلية الحرفية على افتراض اتفاق الجماعات التي كانت غالباً في حالة صراع .

وفي حالة الشئون العسكرية على وجه الخصوص، أشار المؤرخ البريطاني جون كيجان John Keegan إلى أن السرد التقليدي عن المعركة مضلل من حيث «تركيزه الشديد على القيادة» و«نزوله بالجنود إلى مجرد دمى» لدرجة أنه يجب التخلي عنه (١٧). و«التاريخ من أسفل» (الذي تمت مناقشته في الفصل الثاني) يتضمن الآن تاريخ الأعمال الحربية. وعلى الرغم من هذا، فمن الصعب أن نتخلى عن السرد التقليدي عن المعارك، وهي نقطة يمكن توضيحها من حالة دراسة كورنيليوس ريان Cornelius Ryan المعروفة جيداً عن D-Day (أي اليوم المحدد لشن هجوم عسكري شامل) (١٨).

فقد انطلق ريان للكتابة عن حرب الجندى بدلاً من حرب القادة. والتاريخ الذى كتبه امتداد لعمله مراسلاً حربيًا : ومصادره شفاهية بصفة رئيسية . وينقل كتابه بشكل جيد للغاية «الإحساس» بالمعركة على كلا الجانبين . وهو حيوى ودرامى- بل هو فى الواقع، مثل الدراما الكلاسيكية، منظم حول «*الوحدات*» الثلاث ، المكان (نورماندى) والزمان (٦ يونيو ١٩٤٤م) والفعل . ومن ناحية أخرى، ينقسم الكتاب فى حكايات متمايزة منفصلة . ذلك أن تجارب المشاركين المختلفين ليست متماسكة ومتلاصقة ببعضها البعض . ولكى يربطها ببعضها اضطر المؤلف إلى فرض مخطط مأخوذ من «أعلى» وبهذا اضطر إلى الرجوع إلى حرب القادة التى كان يحاول الهرب منها . ويوضح كتاب ريان المشكلة بقدر أكبر من معظم الكتب ، بيد أن المشكلة ليست مشكلته وحده. وربما يكون هذا النوع من الإنحياز مكونًا جوهريًا فى التنظيم السردى.

ومن ناحية أخرى، أشار مؤيدو السرد إلى أن تحليل البنى جامد وبذلك يكون غير تاريخى بمعنى ما . وأشهر مثال عن التاريخ البنيوى فى زماننا، نجده فى كتاب بروديل Med-iterranean (١٩٤٩م) الذى يفسح مكانًا للحوادث جنبا إلى جنب مع البنى، فقد كان من الملاحظ غالبًا أن المؤلف قد بذل القليل من الجهد لكى يشير إلى الروابط التى قد تكون بين مقاييس *الأزمنة الثلاثة* التى كان يهتم بها: على *المدى الطويل*، والمتوسط والقصير . وعلى أية حال، فإن كتاب بروديل الذى يحمل عنوان Mediterranean ليس مثالاً متطرفًا على التاريخ البنيوى[١٩]. وعلى الرغم من ملاحظاته فى مقدمة الكتاب عن سطحية الحوادث ، فإنه استمر لكى يكرّس عدة مئات من الصفحات لها فى الجزء الثالث من دراسته. وعلى أية حال، كان اتباع بروديل ميالين إلى تقليص مشروعه (وليس فقط بالمعنى الجغرافى على درب تقليده ويتضمن الشكل الكلاسيكى للدراسة الإقليمية بطريقة الحوليات منذ خمسينيات القرن العشرين حتى نهاية السبعينيات تقسيما إلى جزءين ، أولهما ، يهتم بالبنى وثانيهما ، يهتم بالاتجاهات العامة، بحيث يترك قليلا من الفضاء ، أو لايترك فضاء على الإطلاق بالمعنى المضبوط.

ولايختلف المؤرخون فى هذين المعسكرين ، البنيوى والسردى، فى اختيار ما يعتبرونه مهمًا فى الماضى فقط، وإنما يختلفون أيضا فى طرق التفسير التاريخى المفضلة لديهم، ويميل المؤرخون السرديون التقليديون -وهذا ليس أمرًا طارئًا تمامًا - إلى وضع تفسيراتهم فى

مصطلحات الشخصية الفردية والقصد الشخصي . وهم يحبذون التفسيرات من نمط «وصلت الأوامر متأخرة من مدريد لأن فيليب الثاني لم يستطع أن يحسم أمره بشأن ما يفعله»، أو حسبما قد يقول فيلسوف بريطاني «انكسرت النافذة لأن براون قذف حجراً عليها» . أما المؤرخون البنيويون ، من ناحية أخرى، فيفضلون التفسيرات التي تأخذ الشكل «انكسرت النافذة لأن الزجاج كان هشاً»، أو (على حد تعبير المثال الشهير لبروديل) «وصلت الأوامر متأخرة من مدريد لأن سفن القرن السادس عشر كانت تأخذ عدة أسابيع لعبور البحر المتوسط». وحسبما يشير ستون، فإن ما يسمى إحياء السرد كان متصلاً إلى حد كبير بعدم الثقة المتزايد في الطريقة الثانية للتفسير التاريخي، والتي غالبًا ما كانت محل نقد في الجيل الأخير باعتبارها مختصرة وحتمية في اتجاهها.

وقد تواصلت حرب الخنادق المطولة هذه بين المؤرخين السرديين والمؤرخين البنيويين فترة أطول مما يجب . ومن الممكن استشعار فداحة ثمن الصراع، والذي تمثل في خسران إمكانية الفهم التاريخي الكامن في طياته بالمقارنة بين دراستين عن الهند في القرن التاسع عشر ظهرتا سنة ١٩٧٨م وركزتا على ما جرت العادة على تسميته «العصيان الهندي» سنة ١٨٥٧م والذي يعرف الآن باسم «التمرد العظيم»[٢٠] وقد أنتج كريستوفر هيبرت Christopher Hibbert سرداً تقليدياً ، وهو عمل تاريخي مرتب بالطريقة الكبرى، وفيه فصل عنوانه «التمرد في ميروت» وفصل عنوانه «العصيان ينتشر»، وآخر بعنوان «حصار لوكنو» و«الهجوم» ، وهلم جراً وكتابه نابض بالحياة ، جذاب في الواقع، ولكنه أيضا سطحي بمعنى فشله في أن يعطي القارئ فكرة كبيرة عن الحوادث التي جرت (ربما بسبب أنه مكتوب من وجهة نظر البريطانيين، الذين أخذتهم المفاجأة). ومن ناحية أخرى، قدم إيريك ستوكس تحليلاً حذراً للجغرافيا والاجتماع في التمرد، وتنويعاته الأصلية وسياقاته المحلية، ولكنه قصر عن عمل توليفة نهائية. وإذا ما قرأ المرء الكتابين أحدهما بعد الآخر مباشرة ، فربما انتابته المخاوف، مثلما حدث لي، من جراء شبح كتاب ثالث محتمل، قد يدمج السرد والتحليل ويربط الحوادث المحلية على نحو أقوى بالتغيرات البنيوية في المجتمع.

لقد حان الوقت للتحقيق في إمكانية وجود طريقة للهروب من هذه المواجهة بين السرديين والتحليليين . وقد يبدأ المرء في نقد كلا الجانبين بسبب افتراض زائف مشترك بينهما ، وهو افتراض أن تمييز الحوادث عن البنى مسألة بسيطة. ونحن نميل إلى استخدام مصطلح

«حادثة» بدلاً من الإشارة بشكل فضفاض ليس إلى الحوادث والوقائع التى تستغرق ساعات قليلة فحسب، مثل معركة واترلو ، وإنما أيضا إلى أحداث مثل الثورة الفرنسية ، وهى عملية انتشرت على مدى عدد من السنين. وربما يكون مفيداً أن نستخدم مصطلح «حادثة» و«بنية» للإشارة إلى الطرفين فى منظور كامل من الإمكانيات ، ولكننا لاينبغى أن ننسى وجود منتصف المنظور (أى منطقة الوسط) . ذلك أن تأخر وصول الأوامر من مدريد لا يحتاج إلى تحديده لا فى إطار بنية الاتصالات فى البحر المتوسط ولا فى نطاق فشل فيليب الثانى فى أن يحسم أمره فى مناسبة بعينها. وربما كان الملك غير قادر على الحسم بشكل مزمن، وربما كانت بنية الحكومة القائمة على التشاور قد أبطأت عملية اتخاذ القرار بدرجة أكبر .

وينتج عن هذا الغموض فى التحديد، حسبما أشار مارك فيليبس ، أننا يجب أن «نفكر فى تنويعات الطرق السردية وغير السردية باعتبارها موجودة على امتداد سلسلة متصلة»[٢١]. كما لاينبغى لنا أن ننسى أن نتساءل عن العلاقة بين الحوادث والبنى. وبالعمل فى هذه المنطقة الوسطى، ربما يكون ممكنًا أن نذهب إلى ما وراء الموقفين المتعارضين، لكى نصل إلى توليفة منهما .

السرد التقليدى فى مواجهة السرد الحديث

ومن المحتمل أن تسهم الآراء التى تم التعبير عنها فى الجدل الثانى على نحو مفيد لهذه التوليفة . وقد بدأ هذا الجدل الثانى فى الولايات المتحدة فى ستينيات القرن العشرين، ولم يؤخذ حتى الآن بالجدية التى يستحقها من جانب المؤرخين فى أجزاء أخرى من العالم، ربما بسبب أنه يبدو «مجرد» جدل أدبى. فهو لايهتم بمسألة ما إذا كان ما يُكتب سرداً أم لا، ولكنه يهتم بمشكلة أى نوع من السرد يجب أن يكتب. ويبدو أن مؤرخ الأفلام سيجفريد كراكاور Siegfried kracauer هو أول من أشار ، فى ستينيات القرن العشرين إلى أن الفن الحديث، وبصفة خاصة ، «تحلل الاستمرارية الزمنية» فى جويس Jogce وبروست وفرجينيا وولف، يطرح تحديًا وفرصة للسرديين التاريخيين[٢٢] . وثمة مثال قاطع آخر على هذا التحلل .َجاء بالمصادفة فى رواية آلدروس هوكسلى Aldous Huxley التى تحمل عنوان : Eyeless in Gaza (1936) ، وهى رواية مؤلفة من مداخل قصيرة على مدى الفترة من ١٩٢-١٩٣٤م فى نظام، مهما كان منطقه ، ليس وفق التتابع الزمنى بأى حال.

وقد جذب هايدن هوايت Hayden White المزيد من الانتباه عن كراكاور عندما اتهم المهنة

التاريخية بتجاهل الرؤية الداخلية الثاقبة فى عصرهم وبالاستمرار فى العيش فى القرن التاسع عشر، العصر العظيم «للواقعية» الأدبية (٢٣). وفى نزعة مشابهة اشتكى ليونيل جوسمان Lionel Gossman من أنه «ليس من السهل بالنسبة لنا أن نرى من هو، بوصفه كاتبًا، جويس أو كافكا الكتابة التاريخية الحديثة»(٢٤) وعلى الرغم من هذا، ربما يبدو المؤرخ جولو مان Golo Mann قد تعلم شيئا ما من ممارسة السرد من والده الذى كان روائيًا . وليس من قبيل الخيال تماما أن نقارن ما كتبه جولو مان عن أفكار واينشتين المسن بالفصل المشهور فى Lotte in Weimor الذى حفز وعى جوته، وهى محاولة تبدو أفضل من جويس. وفى دراسته، التى يسميها «رواية جديدة تمامًا» يتبع جولو مان قواعد البرهان التاريخى ، ويوضح أنه يقدم إعادة بناء افتراضية. وعلى خلاف معظم الروائيين ، لا يزعم أنه قرأ ما فى عقل بطله ، وإنما قرأ خطاباته فقط(٢٥).

وعلى النقيض من هوايت وجوسمان، لا أظن أن المؤرخين مضطرون إلى العمل فى التجارب الأدبية ببساطة لأنهم يعيشون فى القرن العشرين، أو إلى تقليد كتاب بعينهم لأن أساليبهم ثورية . ونقطة البحث عن أشكال أدبية جديدة هى بالتأكيد إدراك أن الأشكال القديمة غير كافية لأغراض المرء.

وربما يكون من الأفضل أن يتجنب المؤرخون بعض التجديدات . وفى هذه المجموعة أضع اختراع مجرى الوعى لدى شخص ما ، وهو أمر مفيد، للأسباب نفسها التى قادت المؤرخين إلى رفض الأسلوب الكلاسيكى الشهير فى الكلام المخترع ، وأفضل أيضا أن أتجنب تشويش التتابع الزمنى الذى يمكن أن نجده فى Eyeless in Gaza وغيرها . وعلى أية حال، فثمة تجارب أخرى استلهمها عدد كبير من الكتاب المحدثين أكبر ممن ورد ذكرهم حتى الآن ، ربما تقدم حلولاً للمشكلات التى كان المؤرخون يصارعونها زمنًا طويلاً، وهى ثلاث مشكلات على وجه الخصوص.

أولاً ، ربما يكون ممكنا أن نجعل الحروب الأهلية والصراعات الأخرى ميسورة الفهم بدرجة أكبر باتباع طريقة الروائيين الذين يحكون قصصهم من أكثر من وجهة نظر. ومن الغريب أن هذه الوسيلة ، التى كانت فعالة للغاية فى أيدى هوكسلى، ووليم فولكنر فى The Sound and the Fury (1931) ، ولورنس دوريل فى The Alexandria Quartet (سنة ١٩٥٧-١٩٦٠م) - ناهيك عن الروايات التى على هيئة رسائل فى القرن الثامن عشر- لم

تؤخذ بقدر أكبر من الجدية من جانب المؤرخين ، على الرغم من أنه قد يكون مفيداً أن نعدلها لكى تتناول وجهات النظر الجماعية تماما مثل وجهات النظر الفردية. ومثل هذه الوسيلة سوف تسمح بتفسير الصراع فى مصطلحات صراع التفسيرات. ولكى نسمح « للأصوات المختلفة والمتعارضة» للموتى أن تسمع من جديد،، يحتاج المؤرخ ، مثل الروائى ، إلى ممارسة المخالفة(٢٦).

وعلى سبيل المثال، فى دراسة لافتة قام بها المؤرخ والأنثروبولوجى الأمريكى ريتشارد برايس Richard Price ، يتم تقديم تاريخ سورينام فى القرن الثامن عشر فى شكل حوار بين أربعة أصوات . فهناك العبيد السود، الذين يتم إعادة بناء وجهة نظرهم من ذكريات سلالتهم ، والتى تم جمعها بمناهج التاريخ الشفاهى . وهناك الإداريون الاستعماريون الهولنديون ، الذين تشكل وجهات نظرهم الوثائق الرسمية. وهناك المبعوثون المورافيون الذين جاءوا لتنصير ساراماكا وتركوا وراءهم عدداً من النصوص . وأخيرا، هناك صوت المؤرخ نفسه، ولايقدم بوصفه مؤرخًا توليفة نهائية ولكن ببساطة على أنه صوت من بين الأصوات الأخرى. واستخدام أربعة أنماط وجوه مختلفة فى الكتاب نفسه يجعل من الأسهل على القارئ أن يحدد المتحدثين فى أية نقطة فى القصة، أو القصص بالأحرى (٢٧).

إن رفض المؤلف أن يخبرنا ما الذى كانت القصة تعنيه «حقا» ربما يصدم بعض القراء كما فعل ببعض من الذين عرضوا لها. وبمعنى ما فإن هذا الرفض تنصل من المسئولية ، ولكنه أيضا يوضح أن البشر، ومن بينهم المؤرخون، يرون من وجهات نظر معينة. والنقطة الأساسية فى التمرين أن تبين مثلما تقرر الفروق فى الوقت بين السود والبيض، والموظفين والمبشرين، بين الماضى والحاضر، وسوء الفهم والصراعات من جانب المجموعات المختلفة لغرض تعريفاتهم الخاصة للموقف. وسيكون من الصعب تقليد هذا العمل البطولى الرائع فى إعادة البناء التاريخى، ولكن الثمن يستحق أن يلهم عدداً من الدراسات تملأ أحد رفوف المكتبة.

ثانيا ، هناك المزيد من المؤرخين يتوصلون إلى إدراك أن عملهم لايعيد إنتاج «ما حدث بالفعل» عندما يقدمونه من وجهة نظر معينة . ولا تكفى الأشكال التقليدية من السرد لكى يتم توصيل هذا الإدراك إلى قراء التاريخ . ويحتاج رواة التاريخ لأن يجدوا طريقة لأن يجعلوا أنفسهم مرئيين فى حكاياتهم ، لا بدافع من الإنقياد للملذات ولكن تحذيراً للقارئ بأنهم ليسوا

على علم بكل شئ أو أنهم غير متحيزين وأن من الممكن أن تكون هناك تفسيرات أخرى ممكنة إلى جانب تفسيراتهم (٢٨). وفى قطعة لافتة من النقد الذاتى ، جادل جولو مان بأن المؤرخ بحاجة إلى «أن يحاول أن يفعل شيئين مختلفين فى الوقت نفسه»، أن «يسبح مع تيار الحوادث» وأن «يحلل هذه الحوادث من موضع مراقب لاحق زمنيا لديه معلومات أفضل» ويمزج المنهجين «بحيث يخرج بمظهر خارجى من التمثل بدون الابتعاد عن السرد» (٢٩). وقد انشغل منظرو الأدب مؤخراً فى مناقشة الوسيلة الخيالية عن «الراوى الأول الذى لايعتمد عليه» (٣٠). ومثل هذه الوسيلة قد تكون لها بعض الفائدة للمؤرخين أيضا، على شرط أن يتم توضيح عدم الاعتماد .

وقد أشار هايدون هوايت إلى أن الحكايات التاريخية تتبع أربع حبكات أساسية : الكوميديا ، والتراجيديا، والنقد الساخر، والرومانسية. وقد اختار رانكه، مثلاً، (بوعى أو بدون وعى) أن يكتب التاريخ «الذى تمت حبكته مثل الكوميديا» ، وبعبارة أخرى ، يتبع «حركة ثلاثية ... من حالة السلام الواضح ، من خلال الكشف عن الصراع، وصولاً إلى حل الصراع فى مؤسسة النظام الاجتماعى السلمى أصلاً(٣١) » وإذا ما كانت الطريقة التى تنتهى بها الحكاية تساعد على حسم تفسير القارئ ، فربما يستحق فى هذه الحال السير على مثال بعض الروائيين، مثل چون فوليس John Fowles ، ويقدم نهايات بديلة. والتاريخ السردى عن الحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال، سوف يعطى إنطباعًا آخر إذا ما امتدت الحكاية إلى سنة ١٩٣٣م أو سنة ١٩٣٩م . وهكذا فإن النهايات البديلة تجعل العمل «مفتوحا» أكثر، بمعنى تشجيع القراء على الوصول إلى استنتاجاتهم الخاصة عن مغزى الحوادث التى تم سردها(٣٢).

وفى هذا المكان الثالث – وهذا هو الموضوع الرئيسى فيما بقى من هذا الفصل– ثمة نوع جديد من السرد ربما يتوافق بشكل أفضل من النوع القديم مع مطالب المؤرخين البنيويين ، على حين يعطى معنى أحسن لتدفق الزمن مما تفعل تحليلاتها .

تكثيف السرديات

فى سبعينيات القرن العشرين ، صك الأنثروبولوچى كليفورد جيرتز مصطلح «الوصف الكثيف» لوصف أسلوب يفسر ثقافة غريبة من خلال الوصف الدقيق والراسخ لبعض

الممارسات أو الحوادث الخاصة ، وفى حالته، وصف صراع الديوك فى بالى (انظر الفصل الخامس فيما سبق) [٣٣]. ومثل الوصف ، يمكن أن يتصف السرد بأنه «رفيع» أو «سميك» . عند الطرف الرفيع من المنظور نجد الملاحظة العارية فى مجلد من الحوليات مثل المؤرخة الأنجلو – سكسونية بأن «فى هذه السنة تم تجريد سيوولف من مملكته» . وعند الطرف الآخر نجد قصصاً (نادرة جداً حتى الآن) ثم بناؤها عمداً لكي تحمل وزناً ثقيلاً من التفسير .

والمشكلة التى أحب أن أناقشها هنا هى مشكلة جعل السرد سميكا أو كثيفا بما يكفى لأن يتعامل ليس فقط مع الترتيب الزمنى للأحداث والمقاصد الواعية للفاعلين فى هذه الحوادث ، وإنما أيضا للتعامل مع البنى– المؤسسات ، وطرق التفكير، وما إلى ذلك– سواء كانت هذه البنى تعمل بوصفها كابحًا للحوادث أو بوصفها تسريعًا لها . ترى ماذا يمكن أن يكون عليه مثل هذا السرد ؟

هذه الأسئلة ، على الرغم من اهتمامها بالبلاغة، ليست بلاغية فى حد ذاتها. ومن الممكن مناقشتها على أساس النصوص، أى السرديات التى أنتجها الروائيون أو المؤرخون . وليس من الصعب أن نجد روايات تاريخية تصارع هذه المشكلات. وقد يبدأ المرء برواية «الحرب والسلام» لأنه يمكن القول بأن تولستوى كان يشترك مع بروديل فى الرأى القائل بعبثية الحوادث . والحقيقة أن الكثير من الروايات الشهيرة تهتم بالتغيرات البنيوية الرئيسية فى مجتمع بعينه، وتراها فى ضوء تأثيرها على حياة أفراد قلائل .

وهناك مثال بارز من خارج الثقافة الغربية فى رواية شيمازاكى توسون Shimazaki Toson بعنوان Before the Dawn (1932-6)[٣٤] وكلمة الفجر الواردة فى العنوان هى تحديث اليابان (أى التصنيع والتغريب)، ويتناول الكتاب السنوات التى تسبق مباشرة إعادة الامبراطورية سنة ١٨٦٨م وبعدها مباشرة، عندما لم يكن واضحًا المسار الذى سوف تتبعه البلاد. وتوضح فى تفصيل حى كيف أن «تأثيرات انفتاح اليابان على العالم كانت تجعل نفسها محسوسة فى حياة كل فرد»[٣٥] ولكى يفعل المؤلف هذا يختار فرداً ، هو أوياما هانزو Aoyama Hanzo ، المسئول عن مكتب البريد فى قرية على الطريق الرئيسى بين كيوتو وطوكيو . وكان عمل هانزو يجعله على اتصال بالحوادث ولكنه لا يلاحظها فحسب . فهو عضو فى حركة التعليم الوطنى، الملتزمة بحل يابانى حقيقى وأصيل لمشكلات اليابان. وحبكة الرواية هى إلى حد كبير قصة تأثير التغير الاجتماعى على فرد وأسرته ، وهى نقطة يتم التأكيد عليها

بمقاطعة توسون لقصته من وقت لآخر لكى يحكى الحوادث الرئيسية فى التاريخ اليابانى من سنة ١٨٥٣ إلى ١٨٨٦م.

ومن المحتمل أن المؤرخين يمكن أن يتعلموا شيئًا من أساليب السرد لدى الروائيين من أمثال تولستوى أو شيمازاكى توسون، ولكنه لا يكفى لحل كل مشكلاتهم الأدبية. ولأن المؤرخين ليسوا أحرارًا فى اختراع شخصياتهم أو حتى الكلمات والأفكار فمن غير المحتمل أن يكونوا قادرين على تكثيف مشكلات فترة فى قصة عن أسرة، حسبما فعل الروائيون غالبًا. وربما كان المرء يأمل أن ما يسمى «الرواية غير الخيالية» قد يكون لديها ما تقدمه للمؤرخين ، من رواية In Cold Blod Blood (1965) لترومان كابوت إلى رواية توماس كينيلى Schindler's Ark (1952) ، التى ألهمت فيلم «قائمة شندلر» ومزاعم «استخدام نسيج الرواية ووسائلها لرواية قصة حقيقية». وعلى أية حال ، لا يصارع المؤلفون مع مشكلة البنى. ويبدو وكأن المؤرخين سيكون عليهم أن يطوروا «أساليبهم الفنية» من أجل «أعمالهم الحقيقية»[٣٦].

ومن حسن الحظ ، أن هناك علامات تدل على أن بعض المؤرخين يفعلون هذا بالضبط. وهناك مجلة جديدة Rethinking History ، تتخذ الآن شكل ساحة تتم فيها تجارب السرد وتجرى مناقشتها. وتقدم الدراسات التاريخية الحديثة شكلا جديدا للسرد، أو عدداً من الأشكال، التى ربما يكون من المفيد أن نميز خمسة منها. وهناك مثال واحد صار بمثابة الموضة الرائجة، على حين لم يمثل الأربعة الأخرى سوى كتاب واحد لكل منها.

وقد يمكن وصف الإجابة الأولى بأنها «سرد مصغر» (فى مواجهة ما يسمى غالبًا السرد الكبير، قصة صعود الأمم، ونمو الحرية، وتحديث الاقتصاد وما إلى ذلك) . والسرد المصغر ، وهو نوع من التاريخ المصغر ، حكاية قصة عن الناس العاديين فى وضعهم المحلى. وهناك معنى يشيع فيه هذا الأسلوب بين كتاب الرواية التاريخية ، وصار منذ عصر سكوت Scott ومانزونى Manzoni ، الذى تعرضت روايته Betrothes الصادرة سنة ١٨٢٧ للهجوم فى حينها (بالطريقة نفسها التى هوجم بها التاريخ من أسفل) بسبب تركيزها على ما أسماه الناقد «المدونة التاريخية البائسة لقرية غامضة» [٣٧].

ولم يحدث سوى فى وقت قريب تمامًا أن تبنى المؤرخون السرد المصغر . وتتضمن الأمثلة الحديثة المشهورة قصة كارلو سيبولا Carlo Cipolla عن تأثير الوباء الذى وقع سنة ١٦٣٠م على مدينة براتو فى توسكانيا ، والسيرة التى كتبها كارلو جينزبورج Carlo Ginzburg عن

طحان فى القرن السادس عشر هو مينوكيو سكاندالا ، وحكاية ناتالى داڤيز عن مارتين جير، الذى كان ابنًا مسرفا فى القرن السادس عشر وعاد إلى موطنه فى جنوب فرنسا ليجد أن مكانه فى المزرعة – وكذلك سرير زوجته – قد استولى عليهما غاصب ادعى أنه هو مارتين(٣٨).

وتخفيض المقياس لا يزيد من سمك السرد نفسه . والقصد : هو أن المؤرخين الاجتماعيين قد تحولوا إلى السرد باعتباره وسيلة لتوضيح البنى- المواقف تجاه الوباء والمؤسسات الموجودة لمحاربته فى حالة كارلو سيبولا، والصدام بين الكنيسة المعادية للإصلاح وثقافة الفلاحين التقليدية فى حالة كارلو جينزبورج ، وبناء عائلة من المزارعين فى جنوب فرنسا فى حالة ناتالى ديڤيز، وهكذا . وبمزيد من الدقة ، فإن ما كانت ديڤيز تريد فعله ليس وصف البنى نفسها بقدر ما كانت تريد وصف آمال «الفلاحين» ومشاعرهم؛ الطرق التى بها خبروا العلاقة بين الزوج والزوجة ، الوالد والطفل ؛ والطرق التى جربوا بها القيود والإمكانيات فى حياتهم(٣٩). ويمكن ، بطبيعة الحال، أن تتم قراءة الكتاب ببساطة على أنه قصة جيدة، وإثارة حية لأفراد قلائل من الماضى، بيد أن المؤلفة تقوم فعلاً بإشارات متعمدة ومتكررة إلى قيم المجتمع . وفى مناقشة لماذا، مثلا، اعترفت زوجة مارتين، المدعوة برتراند بالمقتحم زوجا لها، يعلق ديڤيز على وضع النساء فى المجتمع الريفى الفرنسى وعلى إحساسهن بالشرف، ويعيد بناء القيود التى كن يناورن فى نطاقها .

ومن ناحية أخرى، فإن تعليقات المؤلفة متوارية عن الأنظار عمداً، وكما تشرح «إننى أحتار... أن أتقدم بمجادلاتى ... بتنظيم السرد، وباختيار التفاصيل وبالصوت الأدبى والمجاز بقدر ما أقوم بتحليل الموضوعات». لقد كان الهدف هو «تأصيل» هذه القصة بقيم وعادات قرية فرنسية فى القرن السادس عشر بحياتها وقانونها ، لكى نستخدمها للمساعدة على فهم العناصر المركزية فى القصة ولكى نستخدم القصة لكى نعلن عنها مرة أخرى» (٤٠). وربما تعتبر قصة مارتن «دراما اجتماعية» بالمعنى الذى يستخدم به الأنثربولوچيون المصطلح : وهو حدث يميط اللثام عن الصراعات الدفينة وبذلك يتم توضيح البنى الاجتماعية(٤١).

ويبدو أن السرد المصغر جاء إلى هنا ليبقى ؛ ذلك أن المزيد من المؤرخين يتحولون إلى هذا الشكل . وعلى الرغم من هذا، سيكون من الخطأ أن نعتبره بمثابة الدواء الناجع للأمراض كلها . فهو لا يقدم حلاً لجميع المشكلات التى تم توضيحها من قبل، وتتولد عنه مشكلات

خاصة به ، لاسيما تلك المشكلات الخاصة بالربط بين التاريخ المصغر والتاريخ الكبير، بين التفاصيل المحلية والاتجاهات العامة. ولأنه يتناول هذه المشكلة الكبرى بشكل مباشر ، فإن كتاب سبنس Spence الذى يحمل عنوان Gate of the Heavenly Peace يعتبر كتاباً مثاليا .

وجوناثان سبنس مؤرخ متخصص فى تاريخ الصين كان مهتمًا منذ زمن طويل بالتجارب فى الشكل الأدبى. وأحد كتبه الأولى كان سيرة حياة الإمبراطور كانچى ، أو بالأحرى صورة عن الإمبراطور– فى الواقع نوع من الصورة الذاتية، ومحاولة لاستكشاف عقل مكانچكسى بعمل نوع من الفسيفساء أو المونتاج من خلال الملاحظات الشخصية التى يمكن وجودها مبعثرة بين الوثائق الرسمية، وترتيبها تحت عناوين مثل «الأبناء» أو «الحكم» أو «التقدم فى السن». والتأثير مشابه لتأثير كتاب صينى معادل لمارجريت يورسنار Marguerite Yourcenar فى روايتها الشهيرة Memoires of Hadrian . ومن الصعب أن نفكر فى دراسة تستحق أن توصف بأنها «التاريخ من فوق» أفضل من وصفها بأنها صورة ذاتية للامبراطور ، ولكن سبنس تبعها بمقالة مؤثرة عن «التاريخ من أسفل» . ورواية The Death of Woman Wang قطعة من التاريخ المصغر على طريقة سيبولا أو ديڤين، وفيها أربع قصص تجرى حكايتها، أو أربع صور يتم رسمها ، لكى تكشف عن الأحوال فى مقاطعة شانتونج فى السنوات المضطربة أواخر القرن السابع عشر. وإذ غير سبنس شكل التقديم مرة أخرى فى The Memory Palace of Matteo Ricci ، فإنه نظم روايته عن المبشر الجزويتى الشهير إلى الصين حول عدد من الصور المرئية، على حساب التتابع الزمنى (٤٢).

ومن ناحية أخرى، تبدو رواية The Gate of Heavenly Peace مثل قطعة من التاريخ التقليدى، ورواية عن أصول الثورة الصينية وتطورها من ١٨٩٥م إلى ١٩٨٠م . ومرة أخرى، على أية حال ، فإن اهتمام المؤلف بالسير وفى اللقطات التصويرية التاريخية يؤكد نفسه وكتابه مبنى حول عدد صغير من الأفراد، خاصة الباحث كانج يووى Kang Youwei والكتاب لو إكسون Lu Xun ودينج لينج Ding Ling . ولم يلعب هؤلاء الأفراد أى دور بارز فى أحداث الثورة . ومن وجهة النظر هذه يمكن مقارنتهم بما أسماه المجرى چورچ لوكاش Georg Lukács الناقد «البطل العادى» فى روايات سير والتر سكوت: بطل تسمح عاديته نفسها للقراء بأن يرى الحياة والصراعات الاجتماعية فى زمنه بمزيد من الوضوح (٤٣).

وفى حالة سبنس كان يتم اختيار الشخصيات الرئيسية ، لأنهم، حسبما يشير المؤلف ، «يصفون آمالهم وأساهم بحساسية خاصة» وأيضا لأن تجاربهم الشخصية «تساعد على تعريف طبيعة الأزمنة التى عاشوا فى أثنائها» . وتقديم تاريخ الصين بهذه الطريقة يثير المشكلات بالفعل. إذ إن التقاطع ما بين فرد وآخر يحمل خطر إرباك القارئ ، وكذلك يفعل التبدل ما بين الخلف والأمام بين ما يمكن أن نسميه الزمن «العام»، زمن الحوادث مثل الزحف الطويل أو ثورة ١٩٤٩م، والزمن «الخاص للشخصيات الرئيسية . ومن ناحية أخرى، فإن سبنس لا يتواصل بطريقة حية ومؤثرة مع تجربة الحياة (أو فى الواقع الفشل فى الحياة) فى أثناء تلك السنوات المضطربة. وتفكيره عن السرد المصغر ، الشخصى مع العام، نموذج تم اتباعه – وسواء كان هؤلاء المؤلفون واعين بتجربة سبنس أو لا- فى بعض من أكثر السرديات الحديثة نجاحًا . وإحداها رواية Citizens لسيمون شاما ، وقد تمت مناقشتها بالفعل. وهناك سردية أخرى هى (1996) Apeople's Tragedy ، تتناول تاريخ الثورة الروسية كتبها أورلاندو فيجيس Orlando Figes ، التى فيها التواريخ الشخصية لقلة من الأفراد (الكاتب مكسيم چوركى، مثلا) أو غامضة (مثل المزارع سيرچى سيمينوف) على حد تعبير المؤلف «متداخلة فى نسيج السرد» . وهناك مثال ثالث هو تاريخ عالمى يغطى السنوات الألف الأخيرة Millenium (سنة ١٩٩٥م) كتبه فيليب فرنانديز – آرمستو، الذى يمضى إلى الأمام والخلف بين الحوادث على المستوى الكبير والمستوى الصغير .

وربما يكون هناك طريق ثالث للوصل بين البنى والحوادث على نحو أوثق مما يفعله المؤرخون عموما. وكتابة التاريخ باتجاه الخلف هى ما فعله سمر B.H. Summer فى كتابه Survey of Russian History (الذى نظمه على أساس الموضوعات) أو نورمان ديڤيز فى كتابه الحديث عن تاريخ بولندا (1984) Heart of Europe ، وهو سرد يركز على ما يسميه المؤلف «الماضى فى حاضر بولندا» (٤٤). وتبدأ القصة «بميراث الإهانة: بولندا منذ الحرب العالمية الثانية» ثم يتحرك إلى الوراء خلال «ميراث الهزيمة» و«ميراث إزالة الغشاوة» (١٩١٤-١٩٣٩م) و«ميراث السيادة الروحية» (١٧٩٥-١٩١٨م) ، وهكذا. وفى كل مناسبة يلمح المؤلف إلى أنه من الممكن أن نضفى المعنى على الحوادث التى تم سردها فى أحد الفصول بدون معرفة ما سبقها . هذا الشكل فى التنظيم له مصاعبه ، وأوضحها مشكلة أنه حتى مع أن الفصول مرتبة بنظام عكسى، فإن كل فصل ينبغى أن يقرأ صوب الأمام. والميزة الكبرى فى هذه التجربة، من ناحية أخرى، هى السماح للقارئ ، أو حتى إجباره على الإحساس بضغط

الماضى على الأفراد والجماعات (ضغط البنى ، أو الحوادث التى تعقدت أو حسبما يقول ريكور «ترسبت فى البنى») . ولايستغل ديڤيز هذه الميزة بالقدر الواجب. فهو لا يبذل جهداً جاداً للربط بين نهاية أحد الفصول وبداية الفصل التالى. ومن الصعب تصور أن سيره إلى الخلف منهجيا يمكن أن يكون الموضة الرائجة على غرار التاريخ المصغر . وعلى الرغم من هذا، فإن هذا شكل من السرد يستحق تماماً أن يؤخذ بجدية.

وثمة إمكانية رابعة هى حكاية القصة نفسها بطرق مختلفة فيما بين غلافى الكتاب نفسه، ليس وفقا للآراء المختلفة للفاعلين التاريخيين (مثلما فى كتاب Albi's Word لريتشارد برايس)، ولكن بحسب المقاربات المختلفة للماضى. ففى كتاب بول كوهين، History in Three keys، مثلاً ، نجده مثل زميليه سبنس وإلڤين مؤرخًا متخصصًا فى الصين يهتم بالتجارب فى الشكل السردى، ويدرس حادثة كبرى فى التاريخ الصينى، انتفاضة «الملاكم» . وفي الجزء الأول من هذا الكتاب، يدرس كوهين الانتفاضة باعتبارها «حادثة» ويخلق سرده الخاص على طريقة التاريخ التقليدى من خلال السرديات المتنافسة من جانب المشاركين. وفى الجزء الثانى، يتجه إلى الانتفاضة بوصفها «تجربة» ، وهنا ، بدلاً من استخراج الفروق بين القصص، يؤكدها لكى يوضح كثرة الآراء المعاصرة وتعددها، آراء الدبلوماسيين الأجانب والمبشرين بالإضافة إلى آراء الملاكمين أنفسهم، وأيضا لكى يستعيد الشعور بما كان يُحس مثل العيش فى غمرة هذه الحوادث الدرامية. والجزء الثالث ، أو المفتاح الثالث، يهتم بالانتفاضة بوصفها أسطورة ، وبعبارة أخرى يهتم بأصدائها اللاحقة ، أى ذكريات الملاكمين وتواريخهم (٤٥).

ويمكن أن نجد تحليلاً خامسًا للعلاقة بين البنى والحوادث فى عمل أنثروبولوچى اجتماعى أمريكى ، بيد أنه سوف يكمل الدائرة لأنه سيعيدنا إلى «الحوليات» . وهو مارشال ساهلينز Marshall Sahlins ، الذى يدرس هاواى وفيجى، وهو يهتم تمامًا بالفكر الفرنسى المعاصر (من سوشر إلى بروديل حتى ليڤى شتراوس) ولكنه يأخذ الحادثة بجدية أكثر من أى من هؤلاء المفكرين(٤٦) ويطرح ساهلينز نقطتين مختلفتين وإن كانتا متكاملتين .

أولا، يشير إلى أن الحوادث (وأهمها وصول كوك إلى هاواى ١٧٧٨م) «يحمل دلائل ثقافة متمايزة» بأنهم «قد نظمتهم الثقافة، بمعنى أن مفاهيم وفئات ثقافة بعينها تشكل الطرق التى يستوعب بها الأفراد ويفسرّون ما يحدث فى زمانهم . فأهل هاواى، مثلا، فهموا كابتن كوك على أنه التجلى لإلههم المحلى «لونو» لأنه كان قويًا بصورة واضحة ولأنه وصل فى سنة

ارتبطت بظهور الإله . ومن ثم يمكن دراسة الحادثة بوصفها نوعًا من ورق عباد الشمس الذى يكشف عن بنى الثقافة*.

وعلى أية حال ، يجادل ساهلانز أيضا (على عكس بروديل) بأن هناك علاقة جدلية بين الحوادث والبنى. فالفئات «فى وضع المخاطرة» ، كما يقول ، فى كل مرة تستخدم فيها لتفسير العالم المتغير وفى عملية إدخال الحوادث «يعاد تنظيم الثقافة». إذ إن نهاية نظام التابو، مثلاً ، كان أحد النتائج البنيوية الناتجة عن الاتصال بالبريطانيين. وكذلك كان صعود التجارة ما بين القارات يعنى حقًا أن كوك لم يترك هاواى كما كان قد وجدها بعدة معان . والعبرة فى قصة ساهلانز هى أن المؤرخ البنيوى يحتاج إلى الاعتراف بقوة الحوادث.

والخلاصة ، أننى حاولت أن أجادل بأن المؤرخين مثل تاونى وناميير، وفيبڤر وبروديل كان لديهم ما يبرر تمردهم ضد شكل تقليدى من السرد التاريخى الذى لم يناسب التاريخ البنيوى الذى اعتبروه مهمًا . لقد كانت الكتابة التاريخية قد صارت ثرية بشكل كبير باتساع مادة موضوعها وبفضل مثال «التاريخ الشامل». وعلى أية حال، يظن كثير من الباحثين الآن أن الكتابة التاريخية افتقرت أيضا بسبب هجران السرد، ويجرى البحث عن أشكال جديدة للسرد سيكون من الملائم معها أن يحكى المؤرخون القصص الجديدة. وإذا ما كانوا يبحثون عن نماذج السرديات التى تضع بنى الحياة العادية بجانب الحوادث غير العادية، والرؤية من أسفل إلى جانب الرؤية من أعلى ، فإن على المؤرخين أن يتحولوا إلى الخيال الذى عرفه القرن العشرون ، بما فيه السينما، وقد يكون مهمًا أن واحدة من أكثر المناقشات إثارة للسرد التاريخى من عمل مؤرخ سينما (كراكاور الذى سبق ذكره) وقد يكون مهمًا أيضا أن كتابين من الكتب التى نوقشت فى الصفحات السابقة The Return of Martin Guerre و Schindler's Ark أعقبهما فيلمان عن موضوعيهما .

ووسيلة عرض الآراء المتعددة وسيلة مركزية فى كتاب أكيرا كوروساوا الموسوم Rashomon (١٩٥٠م)، الذى يدور حول قصة اغتصاب (أو مضاجعة) وقتل (أو انتحار) يرويها قاطع طريق ساموراى ، وزوجة الساموراى وقاطع أخشاب . ويتحدث الأنثروبولوچيين

---

* يريد الكاتب أنه مثلما يتلون ورق عباد الشمس بحسب المادة الكيميائية التى ينغمس فيها، يمكن أن تكون دراسة الحادثة نوعا من الدراسة الكاشفة للبنية الثقافية . (المترجم)

الآن عن «أثر راشومون»(٤٧). إذ إن الوسيلة متضمنة فى سرد المخرج المجرى Miklos Jancso عن الحرب الأهلية الروسية (١٩٦٧م) التى تناوب فيها الحمر والبيض السيطرة على القرية نفسها (٤٨). وقد جعل چيللو بونتكورڤو Gillo Pontecorvo من العملية التاريخية نفسها موضوع أفلامه وأحدها عن الصراع من أجل الاستقلال الجزائرى (La Battaglia di Algeri 1966) وآخر عن جزيرة فى البحر الكاريبى فى القرن التاسع عشر Queimada 1969 بدلاً من أن يحكى ببساطة قصة عن أفراد تصادف أن ارتدوا ملابس تاريخية، مثلما فعل مخرجون كثيرون .

ومن ناحية المؤرخ ، من المثير أن نلاحظ أن چونان سبنس يستخدم لغة المونتاج على حين أن روبرت روسينستون ، مؤلف دراسة عن «تحدى الفيلم لفكرتنا عن التاريخ» ، يستخدم عبارات من قبيل «لقطات مقربة» للإشارة إلى أساليبه التاريخية، ويقتبس المخرج چان – لوك جودارد Jean - Luc Godard عن الكتاب حرفيا لدرجة أن بداية القصة ووسطها ونهايتها تحكى بهذا الترتيب (٤٩). والفلاش باك ، والقطع والتبادل بين المشهد والقصة : كلها أساليب سينمائية يمكن أن تستخدم بطريقة سطحية ، لكى تحير بدلاً من أن توضح، ولكنها قد تساعد المؤرخين أيضًا فى مهامهم الحاسمة للكشف عن العلاقة بين الحوادث والبنى وتقديم وجهات النظر المتعارضة للفاعلين التاريخيين . وثمة مجلة جديدة عنوانها Rethinking History روسنستون أحد محرريها، دشنت حديثا دعوة إلى قرائها لإرسال مقالات تجرب السرد، وكانت هناك استجابة حية . والتطورات من هذا النوع ، إذا ما استمرت، ربما تزعم أنها يجب أن تعتبر أكبر من مجرد إحياء للسرد، حسبما أسماه ستون ، ولكنها إعادة بناء أو تجديد.

الهوامش

This essay originated as a lecture and the present version owes a great deal to the comments of various listeners, from Oxford to Campinas and from Ithaca (NY) to Tokyo. I should also like to thank Carlo Ginzburg, Mark Phillips and Ian Kershaw for their comments on earlier drafts.

1 I try to support this argument in 'Ranke the Reactionary', *Syracuse Scholar*, 9 (1988), pp. 25–30.

2 F. Braudel, *The Mediterranean* (1949: English trans. London, 1972–3), preface.

3 P. Ricoeur, *Time and Narrative* (1983: English trans., 3 vols, Chicago, 1984–8) 1, pp. 138ff.

4 G. Duby, *The Legend of Bouvines* (1973: English trans. Cambridge, 1990); E. Le Roy Ladurie, *Carnival* (1979: English trans. London, 1980).

5 E. Le Roy Ladurie, 'Event and Long-Term in Social History' (1972: English trans. in his *Territory of the Historian* (Hassocks, 1979), pp. 111–32.

6 L. Stone, 'The Revival of Narrative', *Past and Present*, 85 (1979), pp. 3–24; cf. E. J. Hobsbawm, 'Some Comments', *Past and Present*, 86 (1980), pp. 3–8. Cf. J. Boon, *The Anthropological Romance of Bali* (Cambridge, 1977), and E. M. Bruner, 'Ethnography as Narrative', in V. Turner and E. Bruner (eds), *The Anthropology of Experience* (Urbana, Ill., and Chicago, 1986), ch. 6.

7 N. Z. Davis, *Fiction in the Archives* (Stanford, Calif., 1987); M. Chaytor, 'Husband (ry); Narratives of Rape in the Seventeenth Century', *Gender and History*, 7 (1995), pp. 378–407; D. Purkiss, 'Women's Stories of Witchcraft in the Seventeenth Century', *Gender and History*, 7 (1995), pp. 408–32; L. Gowing, *Domestic Dangers: Women, Words and Sex in Early Modern England* (Oxford, 1996); M. Rubin, *Gentile Tales: The Narrative Assault on Late Medieval Jews* (London, 1999).

8 M. Elvin, *Changing Stories in the Chinese World* (Stanford, Calif., 1997), especially pp. 5ff.

9 S. Maza, 'Stories in History: Cultural Narratives in Recent Works in European History', *American Historical Review*, 101 (1996), pp. 1493–515; A. Besançon, *Le tsarévitch immolé: le symbolique de la loi dans la culture russe* (Paris, 1967).

10 R. Harris, *Murders and Madness: Medicine, Law and Society in the Fin de Siècle* (Oxford, 1989); M. MacDonald and T. R. Murphy, *Sleepless Souls: Suicide in Early Modern England* (Oxford, 1990), pp. 301–37.

11 S. Schama, *Citizens* (London, 1989), pp. xv, 63, 162–70, 394–9; cf. A. B. Spitzer, 'Narrative's Problems: The Case of Simon Schama', *Journal of Modern History*, 65 (1993), pp. 176–92.

12 Cf. B. Bailyn, 'The Challenge of Modern Historiography', *American Historical Review*, 87 (1982), pp. 1–24.

13 Cf. Ricoeur, *Time*; M. Phillips, 'On Historiography and Narrative', *University of Toronto Quarterly*, 53 (1983–4), pp. 149–65; and H. Kellner, *Language and*

Historical Representation (Madison, Wis., 1989), esp. ch. 12.
14 For a discussion from different points of view see J. Kocka and T. Nipperdey (eds), *Theorie und Erzählung in der Geschichte* (Munich, 1979).
15 The last point is well made in E. Auerbach, *Mimesis* (1946: English trans. Princeton, 1953), chs. 2 and 3 (discussing Tacitus and Ammianus Marcellinus).
16 J. Huizinga, 'Two Wrestlers with the Angel', in his *Men and Ideas* (New York, 1959). Contrast the defence of personification in Kellner, *Language* (esp. ch. 5, on Michelet).
17 J. Keegan, *The Face of Battle* (1976: Harmondsworth, 1978 edn), pp. 61ff.
18 C. Ryan, *The Longest Day* (London, 1959).
19 Ricoeur (*Time*) goes so far as to claim that it is a historical narrative with a 'quasi-plot' (pp. 298ff).
20 C. Hibbert, *The Great Mutiny* (London, 1978); E. Stokes, *The Peasant and the Raj* (Cambridge, 1978).
21 Phillips, 'Historiography', p. 157.
22 S. Kracauer, *History: The Last Things before the Last* (New York, 1969), pp. 178f.
23 H. V. White, 'The Burden of History', *History and Theory*, 5 (1966), repr. in his *Tropics of Discourse* (Baltimore, 1983), pp. 27–50.
24 L. Gossman, 'History and Literature', in R. H. Canary and H. Kozicki (eds), *The Writing of History* (Madison, Ill., 1978), pp. 3–39.
25 G. Mann, *Wallenstein* (Frankfurt, 1971), pp. 984f, 993f; T. Mann, *Lotte in Weimar* (1939), ch. 7. Cf. G. Mann, 'Plädoyer für die historische Erzählung', in Kocka and Nipperdey, *Theorie*, pp. 40–56, especially his claim that historical narrative does not exclude awareness of theory.
26 Cf. G. Wilson, 'Plots and Motives in Japan's Meiji Restoration', *Comparative Studies in Society and History*, 25 (1983), which makes use of the terminology of Hayden White but is essentially concerned with the multiplicity of actors' viewpoints; and R. Berkhofer, *Beyond the Great Story: History as Text and Discourse* (Cambridge, Mass., 1995), pp. 170–201.
27 R. Price, *Alabi's World* (Baltimore, 1990).
28 The problem was already discussed by Thierry and Michelet. See G. Pomata, 'Overt and Covert Narrators in Nineteenth-Century Historiography', *History Workshop*, 27 (1989), pp. 1–17.
29 Foreword to the English translation of his *Wallenstein* (London, 1976). Mann confesses that 'the first approach preponderates' in his own book.
30 W. Riggan, *Picaros, Madmen, Naifs and Clowns: The Unreliable First-Person Narrator* (Norman, Okla., 1981).
31 H. White, *Metahistory* (Baltimore, 1973), pp. 176ff.
32 Cf. M. Torgovnick, *Closure in the Novel* (Princeton, 1981), and U. Eco, 'The Poetics of the Open Work', in his *The Role of the Reader* (London, 1981), ch. 1. A move in the direction of a more open historical narrative is predicted by Phillips, 'Historiography', p. 153. An interesting example is the forthcoming article by Jonathan Walker about the secret execution of a former Venetian ambassador to England, in which the author takes seriously the novelist Italo Calvino's metaphor of shuffling a pack of cards and arranging them in different ways.
33 C. Geertz, 'Thick Description: Towards an Interpretative Theory of Culture', and 'Deep Play: Notes on the Balinese Cockfight', in his *The Interpretation of Cultures* (New York, 1973).
34 Shimazaki Toson, *Before the Dawn* (English trans. Honolulu, 1987).
35 Ibid., p. 621.
36 W. R. Siebenschuh, *Fictional Techniques and Factional Works* (Athens, Ga., 1983) discusses how this was done in the past, with special reference to

Boswell's life of Johnson. Cf. R. W. Rader, 'Literary Form in Factual Narrative: The Example of Boswell's Johnson', in P. B. Daghlian (ed.), *Essays in Eighteenth-Century Biography* (Bloomington, Ind., 1968), pp. 3–42.

37 Quoted in A. Asor Rosa (ed.), *Letteratura Italiana*, vol. 5 (Turin, 1986), p. 224.

38 C. Cipolla, *Cristofano and the Plague* (London, 1973); C. Ginzburg, *The Cheese and the Worms* (1976: English trans. London, 1981); N. Z. Davis, *The Return of Martin Guerre* (Cambridge, Mass., 1983).

39 Davis, *Martin Guerre*, p. 1.

40 N. Z. Davis, 'On the Lame', *American Historical Review*, 93 (1988), pp. 575, 573, replying to the critique by R. Finlay, 'The Refashioning of Martin Guerre', *American Historical Review*, 93 (1988), pp. 553–71.

41 On this concept, V. Turner, *Dramas, Fields and Metaphors* (Ithaca, NY, 1974), ch. 1.

42 J. Spence, *Emperor of China* (London, 1974); *The Death of Woman Wang* (London, 1978); *The Gate of Heavenly Peace* (London, 1982); *The Memory Palace of Matteo Ricci* (London, 1985).

43 G. Lukács, *The Historical Novel* (1936: English trans. London, 1962), pp. 30ff.

44 N. Davies, *Heart of Europe: A Short History of Poland* (Oxford, 1984).

45 P. A. Cohen, *History in Three Keys: The Boxers as Event, Experience and Myth* (New York, 1997).

46 M. Sahlins, *Historical Metaphors and Mythical Realities* (Ann Arbor, 1981); id., *Islands of History* (Chicago, 1985). These books are discussed in more detail in P. Burke, 'Les îles anthropologiques et le territoire de l'historien', in C. Descamps (ed.), *Philosophie et histoire* (Paris, 1987), pp. 49–66.

47 K. G. Heider, 'The Rashomon Effect: When Ethnographers Disagree', *American Anthropologist*, 90 (1988), pp. 75–81.

48 M. Jancsó, *Csillagosok, Katonák* (1967), shown in England under the title *The Red and the White*.

49 R. A. Rosenstone, *Visions of the Past: The Challenge of Film to our Idea of History* (Cambridge, Mass., 1995).

المشاركون فى سطور :

- بيتر بوركى Peter Burke ، أستاذ التاريخ الثقافى، جامعة كمبردج، زميل كلية إيمانويل.

- روبرت دارنتون Robert Darnton، أستاذ التاريخ بجامعة برنستون .

- إيڤان جاسكل Ivan Gaskell هى مرجريت س. وينثروب كوراتور Margaret S. Winthrop Curator ، قسم فنون الرسم والنحت والزخرفة بمتحف فوج Fogg للفنون ، جامعة هارڤارد، متاحف الفن.

- ريتشارد هـ. جروف Richard H. Grove ، زميل باحث بمعهد الدراسات المتقدمة، الجامعة الوطنية الاسترالية ، كانبيرا .

- چيوڤانى ليڤى Giovani Levi ، أستاذ التاريخ بجامعة ڤينيسيا .

- روى بورتر Roy Porter ، أستاذ تاريخ الطب الاجتماعى، مركز ترست لتاريخ الطب، كلية الجامعة بلندن.

- جوين برينس Gwyn Prins ، زميل باحث رئيسى فى المعهد الأوربى بمدرسة لندن للاقتصاديات ، وزميل زائر بوكالة تقييم الدفاع والبحوث فى وزارة الدفاع بالمملكة المتحدة، وزميل أكبر بمكتب مستشار شئون وسط وشرق أوربا لسكرتير عام حلف شمال الأطلنطى.

- چوان و. سكوت Joan W. Scott ، أستاذ علم الاجتماع بمعهد الدراسات المتقدمة ، برنستون .

- چيم شارب Jim Sharpe، أستاذ التاريخ بجامعة يورك.

- ريتشارد توك Richard Tuck ، أستاذ بجامعة هارڤارد الحكومية.

- البروفيسور هنك وسيلنج Henk Wesseling ، مدير معهد الأراضى الواطئة للدراسات المتقدمة (NIAS) فى وسينار وأستاذ التاريخ المعاصر بجامعة ليدن.

المحرر فى سطور :

بيتر بوركى

- أستاذ التاريخ الثقافى بجامعة كمبردچ .
- زميل كلية ، إيمانويل .
- شارك فى كتابة البحوث أحد عشر باحثا من الجامعات ومراكز البحوث فى أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، واستراليا .
- تنوعت تخصصات المشاركين ما بين التاريخ والفنون والزخرفة والطب الاجتماعى، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، والمتخصصين فى علوم البيئة .

المترجم فى سطور :

د. قاسم عبده قاسم

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق

* له عدة مؤلفات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك ، والحروب الصليبية والفكر التاريخى، ومنهج البحث ، والعلاقة بين الأدب والتاريخ .

* ترجم عدداً مهماً من الكتب منها :

- ما التاريخ الآن ؟
- تاريخ الحروب الصليبية .
- الفتوح العربية الكبرى .
- التاريخ الوسيط .
- التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للدولة العثمانية .

* حصل على :

- جائزة الدولة التشجيعية ١٩٨٣ م.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٨٣م .
- جائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م.
- جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٨م .

التصحيح اللغوى : محمد الشربينى

الإشراف الفنى : حسن كامل



هذا الكتاب مهم، ووجه الأهمية فى هذا الكتاب أنه يطرح وجهات نظر جديدة فى مجال الكتابة التاريخية والتفسير التاريخى. وفى هذه الفصول التى يضمها الكتاب يجد القارئ رصداً أكاديمياً لفروع جديدة من العلم التاريخى كتبها اثنا عشر من المتخصصين فى هذه الفروع، وهى تعكس مدى مواكبة الدراسات التاريخية للتغيرات التى طرأت على العالم الذى نعيش فيه، ومدى انعكاس هذه التغيرات أيضاً على الفكر التاريخى. ولا شك فى أن الكتاب يعكس تجليات تطور الفكر التاريخى فى الثقافة الغربية المعاصرة على جانبى المحيط الأطلنطى؛ أى فى أوروبا وأمريكا الشمالية على وجه خاص. والكتاب بصفة عامة يرصد المرحلة الأخيرة من مراحل تاريخ عبر الزمان، وهو تاريخ طويل يبدأ من القراءة الأسطورية للتاريخ، ولا ينتهى عند هذه القراءات الاثنتى عشرة التى يضمها الكتاب.

تصميم الغلاف: نسرين كشك